

أنليس فنّاً



الحاصل على جائزه الدولة

مول الحالمي... آيرو



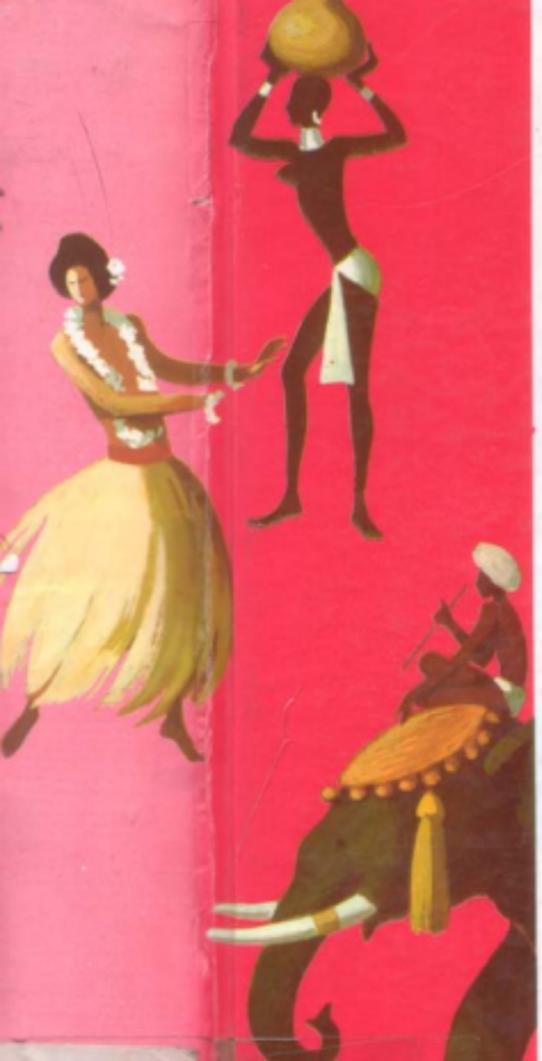
حول العالم في ٢٠٠ يوم

الطبعة الثانية والعشرون في رحلة العمر لأنيس منصور .. بعد أن نقلت طبعاته كثيراً وسجّلت لرفقاً فراسية في التوزيع .. وبعد أن حاز جائزة الدولة

يقول الله حسين في مقدمة الطبعة الثالثة لهذا الكتاب : « هنا كتاب تبع حفا : تقرؤه ، فلا تخفي محتواك ، بل تزيد كلما قرأت في قراءته » .

ويقول محمود ليمور في مقدمة الطبعة الخامسة : « كتاب الرحلات الناجح هو الذي توفر له ألمعية الملاحظة ، وروحة الفطنة ، وسرعة الالتفات والقدرة على استثناء الملايين والمعلم وخاصمة ما يحيى منها على النظر العابر » . وما يحصل منها بالعادات والسلوك والأوضاع الاجتماعية التي لا تخلو من غرابة ... وكل هذه المؤشرات تستجمع للأستاذ أنيس منصور » .

والكتاب هو رحلة أنيس منصور حول العالم التي استغرقها ٢٠٠ يوم ، ونقلت حدثيات الملايين بين العالم العربي وقطبها الصحف العالمية ووكالات الأنباء ... إذ كانت أطول وأزوج رحلة في تاريخ الصحافة العربية ، كما كانت أول دورة كاملة يلهم بها صحفي حول العالم ! ضمن المغاربة إلى الهند ، والسلام ، والأفغان ، وأذربيجان ، وغذاء الأطفال ، إلى مصر غاليري عدد ملقطي الحجور الثلاثة ... إلى بيت عراق باشا في (كاندي) ، إلى إندونيسيا وغضير الأزواج بالسلة ... إلى جزيرة اليهود العازرة ... إلى إسرائيل قارة المصاصة والكلافرو والمالم والمسلسل ... إلى الفلبين التي ترافقها نياراً لكل السائحين ... إلى هولندا كجزء من الأقسام والقصص المن麝قة ... إلى اليابان حيث الملوّن وأجهشاً وكل شيء صغير ... إلى الجنة الخضراء في جزيرة هواي ، حيث الراين وآلات النساج وبنات المولول في حل القمر تحت أحصار جوز الهند ... إلى أمريكا تصف العالم الجديد ... بلاد السيارات الخففة والشوارع الجميلة والكوراكيب والسرعة والملايين من أصحاب الملايين ... إلى أوروبا تصف العالم المعاصر ...





سلسلة جدران المعرفة - ١١

تحتوي السلسلة الثانية على (١١) كتاب جداد ، يطرحوا لأول مرة في ثوب الكتروني لكتاب المثقفين والأدباء. بالإضافة إلى مجموعة من المقالات المختارة من بعض الكتب القيمة. (تجدون فهرس الكتب الصادرة في آخر الكتاب) .

* كما أثنا نوجه شكر خاص إلى كل من ساعدنا وأرسل لى اقتراح او نقد أو تشجيع ، سوء من خلال الايميل او على صفحات المنتديات أو من خلال الرسائل الخاصة أو على الماسنجر حقيقي ، كنتم نعم العون ، ونتظر منكم المزيد *

وأخيراً ، نحب أن نعلمكم ، إذا كان أي شخص لديه القدرة على المساعدة المادية البسيطة جداً جداً في هذا المشروع حتى يكون متعدد بأستمرار ، ولا يتوقف ، يفضل بمراسلتنا ... لمزيد من التفاصيل :

theknowledge_walls@yahoo.com

مع تحيات

Jgm

مقدمة الطبعة الأولى

ركبت البغال في أعلى الملديا ، وركبت النافثة من هولنيد إلى واشنطن ، وكان الأميركيان ينظرون لي باعجاب وحسد ، فقد كانت النافثة شيئاً جديداً ، وركبت الفيل وركبت زورلاً وظلت والفاً ست ساعات ، فقد كانت المياه مليئة بالأفاعي والقاسخ في أقصى جنوب الهند ، وأكلت الموز بالشطة في سفافورة ، وشربت الشاي بالملح في أندونيسيا ، وأكلت الأناناس مع الغربان في سيلان ، وأكلت الخبز المصنوع من السمك في جزيرة بال ، وأكلت الصنادع والتماعين البرية في هونج كونج ، وأكلت البيض وهو مل بالكتاكست ، وحتى لا أصاب بقليل من القرف فإنهم في الفلبين يهسيفون إليه بعض الفلفل والملح ، وارتديت الدوق في كيرالا ، ولبس الكيمونو في طوكيو ومشيت ربع عربان في هونولولو نو ؛ وكان لي أصدقاء من أصحاب الملائم ، وأصدقاء من أصحاب الملابس . . . وكانت صداقتي لا تستغرق إلا ساعات أو أيام ، وبعد ذلك أرحل إلى بلاد جديدة . . .

لقد كان العالم كتاباً كبيراً عريضاً طويلاً غنياً بالفاظه ومعانه . . . كنت أقرأ بعقل وقلبي ، وأقلب الصفحات بيدي ودرجلي . . . وكانت أضع حقيقة الوحيدة في مهب الطائرات والعواصف ؛ ودخلت المستشفيات في أندونيسيا ، وفي اليابان دخلت مستشفى الولادة ، وفي استراليا دخلت مستشفى الملكة ، وفي أمريكا دخلت عيادة كل أطبائها من المصريين ؛ كنت أكتب ليلاً ونهاراً ، وكانت أبعث بمقابلات لأخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة والجبل ، وعنديما أجد متsuma من الوقت كنت أكتب مذكرات .

* * *

Flem أكن وحدى . . . كانت الصحف تسبقني إلى السفارات ، وكانت تسبقني إلى أكشاك بيع الصحف حول العالم كلها .

بل إنني وجدت نسخة من «أخبار اليوم» في أحد محلات السجائر في «السوق الدولية» بمدينة هونولولو . . . ولما سألت عن صاحبها الذي تركها فإذا به أحد رجال السفارة الأمريكية في كيودها !

وكنت كلما وجدت مقالات منتشرة أحسست أنها صواريخ . . صواريخ متعددة المراحل ترتفع إلى أعلى ، وأعلى . . حتى اتخذت لـ مداراً فوق . . فوق ما كنت أتصور !

* * *

لقد كان الفرض من رحلي هذه أن أسافر فقط إلى ولاية كيرالا في الهند وأن أكتب تحقيقاً صحيفياً عن الولاية الوحيدة في الهند التي فاز فيها الحزب الشيوعي بحكومة شيوعية ١٠٠٪ . . وقد ثار حزب الحكومة المركزية على هذه الولاية واتهم حكومتها بالطفيان والاستبداد ، والتدخل في معتقدات الناس ، وتغيير كتب التاريخ . . .

وقابلت رئيس وزرائها نامبودريجاد . وهو رجل متوسط القامة ممتلئ ، وله رأس كبير ، وقابلني حاف القديمين ، وكذلك أولاده . . وكان يضع يده على رأسه كلما سأله سؤالاً ، وكانت كلما تلطمته إليه لاسمع الجواب ، كانت حركات يديه تتفق صورقلينين وماركس على الحائط وراءه . . وفي كل مرة ينفعل كنت أخفي أجمع الكتب التي سقطت على مكتبه وكلها عن ستالين . . .

وكان هذا الحديث الذي دار بيني وبينه هو الصاروخ الذي دفعني إلى الدوران حول الأرض . . فقد نشر هذا الحديث في نفس اليوم الذي سقطت فيه الوزارة في كيرالا !

ونقلت الحديث وكالات الأنباء العالمية . فقد كنت الصحف الوحيد الذي قابله أثناء الأزمة . . وكانت آخر من خرج من مكتبه ، متوقعاً هذه الكارثة له . .

* * *

وبعد ذلك سافرت إلى التبت لأقابل الدلائل لاما . . وقابلته . . وتحدثت إليه عن حياته ، عن أزمه ، وطلبت أن أقابله ، فرفضت السلطات ، فذهبت إليه في بيته ، ورفض الحراس أن أقابلة . . وقابلت وزرائه وادعيت أنني مريض قادم من مصر ، وأن شفائي على يديه . . ونقلت له على حفظة . . وأنا ملفوف بكل ما عندي من بطاطين . فقد كنا في الصيف ، وكان الجو بارداً جداً فوق الملايا . .

ومن تحت البطاطين والأغطية أخرجت الكاميرا وصورته . . وصورت أمه لأول مرة في حياتها ولأول مرة في العالم !

* * *

وسافرت إلى جزيرة سيلان بعثاً عن العشرين عاماً التي قضتها الزعيم أحمد عرابي باشا . . ذهبت إلى المكتبة . . وذهبت إلى صحيفة «الأوزر» الإنجليزية التي هاجمت عرابي باشا طول مدة إقامته . . وحصلت على وثيقة نادرة سجلت فيها الصحيفة كيف كان نزول عرابي وأصحابه إلى الجزيرة . . وكيف كان وماذا

كأن يأكل . . وكيف أن الصحف الإنجليزية اندشت جداً عندما مثل عراب باشا : هل الدين الإسلامي يحرم تعليم البنات ؟ فأجاب : لا . . وسأله : هل يحرم تعليم البنات لغة أخرى غير لغة القرآن ؟ فأجاب : لا . . وسأله : هل الدين الإسلامي يتنافى مع الطب ؟ فأجاب : لا . . فقالوا له : حتى لو كان الطبيب الذي يكشف على زوجتك ليس من دينها ؟ فأجاب : لا .

وذهبت إلى البيت الذي كان يعيش فيه في مدينة كولومبو ولا يزال يقتسمه اثنان أحدهما صنف والآخر طبيب . وذهبت إلى البيت الذي كان يعيش فيه في مدينة كاندي . . ومكتوب على هذا البيت باللغة الإنجليزية « عرب باشا » بحذف الألف . . وبطقوتها أيضاً هكذا . وقد أخبرني أصحاب البيت أن جدهم قد أوصام بالاحتفاظ به كما هو ، دون تغيير . .

وقابلت عميد مدرسة الزاهرة الإسلامية وأطلعني على وثيقة نادرة عن يوم افتتاح هذا المعهد الدين الكبير . . وكيف حضره عراب باشا وكيف أنشد له الطلبة نشيداً جميلاً . . ونقلت الوثيقة وترجمتها ونشرت التشيد . .

وفي أندونيسيا زرت مواطنة مصرية جميلة ولطيفة وكرمه اسمها فوزية . . وهي متزوجة من أحد أبناء أندونيسيا ، الذي يملك مصنعاً للزجاج في مدينة بوجور . . وكان معى في هذه الزيارة سفيرنا العمروسي والصديق لطف متول ملحقنا العسكري في ذلك الوقت ، وسفيرنا الآن في العراق ، والدكتور محمود رضوان مستشارنا الثقافي . والصديق أحمد والي ملحقنا الصحفي في جاكارتا ، في ذلك الوقت . .

وفي إحدى الجلسات أطلعني السيدة فوزية على تفضير الأرواح عن طريق « الللة » . . ولم أصدق في أول الأمر . . ولكن لاحظت أن كل الذين معى رجالاً ونساء يصلون . وأعادت التجربة . . ووسط البخور والملوء والآيات القرآنية . . رأيت الللة وهي تتحرك وتكتب . . ولاحظت أن هناك اثنين يحملان الللة وأنهما تتحرك وتكتب بلغات مختلفة . .

واستحضروا أرواح بعض المصريين . . ولاحظت أنها تكتب . . وأنها تكتب بعض النكت المصرية . . ولم أصدق أيضاً .

وأخذت عربة السفير والتقطت من الشارع اثنين لا أعرفهما . . وحملوا الللة ، ورحا نتو الآيات القرآنية وتلزيم الملوء . . وكانت الللة تكتب بلغات لا يعرفها معظم الحاضرين . . فقد كانت تكتب بالألمانية والإيطالية واليونانية واللاتينية ، وهي لغات أعرفها جيداً .

إلى أن طلبت من الحاضرين أن يستحضروا روح المرحوم والدى . . وكتبت الللة أنه لا يريد أن يحضر . . نشرت بشيء من الارتياح . وللت لابد أنها أكذوبة . . وأخيراً حضرت الروح وكتبت .

ولم تنتهِ دهشتي فقد كان مطهراً طبق الأصل من خط والدى ، وخصوصاً
إمساكه .

وكتب عن هذه الظاهرة . . ولا أعرف حتى الآن أي تفسير على لما حدث !
وعندما سافرت إلى مانيلا قابلت سيرينا الطواهرى ، وهو ابن الشيخ الطواهرى ،
شيخ الأزهر الأسبق .

وروى لي أن له أخاً كان مغرياً بتحضير الأرواح وأنه منذ وفاة أخيه ، يكره
هذه السيرة . ولا يحب الكلام عن الأرواح ، ولكنه مع ذلك يؤمن بوجودها
وبعد أن قرأ ما كتبه أنا عن الأرواح ، أصابه الفزع ، فهو لم يعد يستطيع
أن ينام في الليل . . لابد أن تفاه المصالح كلها .

وهذا ما أصابني أنا . . فلم أتمكن من النوم في الليل حتى بعد أن عدت إلى
القاهرة . . وكنت أتعجل من السيدة والدق - التي قالت عنها السيدة إنها مريضة
جداً - وكانت مريضة فعلاً ، وكانت ظاهرة بأنني أثيراً في الليل . . وكانت والدق
تهبس من فراشها وتطفئ النور وأنا نائم . . فكنت أنزعج وأعيد النور . . وظلت
ذلك وقتاً طويلاً .

وفي إحدى المرات سجلت من هذا الفزع الصياغ ، فلطفأت النور . . ولم أعد
أفهمه عندما أنم حتى الآن .

* * *

وسافرت إلى جزيرة بالى . . أقصى جزيرة في أندونيسيا ذات الثلاثة آلاف
جزيرة !

وهي جزيرة غريبة نصف نسائها عاريات . . أقصد كل النساء لا يلبسن شيئاً
فوق الحزام ، أي النصف العلوي كله عريان تماماً . . وهن لذلك فرحة !

* * *

وسافرت إلى استراليا ، وهي القارة التي لم يرها صحن عرب قبل ذلك . . وناديت
بأن تكون لنا سفارة وأصبحت لنا سفارة ، وقابلت فيها المصريبة الوحيدة التي
تعمل في أحد المطاعم . . ولكن وجدت ٣٥ ألف ليبانى . . وقابلت أفراد أسرة أسكيف .
وكلهم من أصحاب الملايين وكان أحدهم يبيع الآلة على ظهر حسان . . وفي إحدى
الخلافات التي أقامتها الجالية البنانية للتنصل الدكتور كريم عزقول . . ارتفع
الستار . . وسمعت موسيقى وأغافى عبد الوهاب وأغافى أم كلثوم .

وشعرت بالسعادة ، فقد كانت حلقة تكريم لفن بلادى وحظة بلادى .

وفي استراليا عندما كنت أجلس مع الرسميين كانوا لا يعرفون اسمى . وإنما
كانوا يقولون : يا ستر ناصر . . قل لنا يا ستر ناصر . . أو ماذا رأيت في بلادنا
يا أحد أبناء ناصر .

ونشرنا صور البركان قبل أن تنشرها مجلة «لايف» الأمريكية التي أرسلت
أربعة من كبار مصوريها . . .

* * *

وفي أمريكا ألقيت نظرة أعيرة على الفاتنة الرقيقة الحزينة الراحلة مارلين
مونرو . . ولا تزال عبارتها : إزيك يأنت . . ترن في أذن . . فقد عاشت وحيدة
محبوبة في جهالها ، وفي مجدها وفي قم الشهرة والمال والجلال ، وماتت من شدة
البرودة .

فكل القمم باردة ، وكل القمم ضيقة .

* * *

وعندما عدت إلى أوربا كانت هذه المرة الأولى التي أدخل فيها أوربا عن
طريق أمريكا .. ولكنها كانت المرة السادسة عشرة التي أزور فيها أوربا من جديد . . .

* * *

وأنا لا أدعى أنني ألمت بكل شيء . . ولا رأيت كل شيء . . ولا حتى رأيت
هذا الكلام ، وإنما نشرته كما كتبه . . بنفس الانطلاق والسرعة والمرح . .
فقد كان المرح والسخرية هما «التعويض» الوحيد الذي كانت تناوله نفسى من
التعب والإرهاق والوحدة .

فقد كنت مسافراً وحيداً . . في يدي حقيبة بها ملابس قليلة جداً ، وكلما
بلغت الملابس أقيمتها وأشتريت غيرها . .

وقد ملت السؤال الذي لا يتغير في جهارك العالم كله : هل هذه كل أمتعتك ؟
فأهز رأسي قائلاً : نعم .

ويسألوننى : لماذا ؟

ويكون ردى : أريد أن أكون خفيفاً . . فلا أستطيع أن أحمل حقيبة ثقيلة .
وقلباً ثقيلاً أيضاً !

وقد جاءت فصول هذا الكتاب صورة لأفكاري ومتاعي ومشاكلى . . فقد
كتبت هذه الفصول ، غالباً مقرضاً . في سريري ، هرباً من البعض ، وأحياناً
خوفاً من الآفانى والعقارب ، وكتبتها تحت أشجار الموز ، وكتبتها في ضلالي جوز
الهند ، وعلى منصة استأجرتها من حديقة اندونيس في مدينة سيدنى . وكتبتها
على مصابيح الجليسا في كيوتو ، وسجلتها وأنا مريض ، وسجلتها وأنا خائف
من الطريق الطويل الذى لم يمش فيه أحد قبل . . .

وكنت أتفاهم بكل اللغات التى أعرفها ، وكانت أتفاهم بالإشارة . . وكانت
أتفاهم عن طريق الترجمة ، وعن طريق ترجمة للترجمة . .

وأنا أتمنى أن يكون عندي وقت لكي أكتب كل رحلاتي إلى أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا ، بتفصيل وعمق . . .

* * *

وسيرى القارئ أنني في هذا الكتاب أحياً على أن ألعب على كل أصابع البيانو ، البيضاء والسوداء . ولا أستطيع أن أدعى أنني عزفت هناً علينا ، ولكنه لحن في استطاعته أن يأخذك ، أن يجعلك تعتذر عن موعد غرائي جميل !

وقد جاءت بعض فصول الكتاب غير متناسبة ، وأحياناً كنت أكرر بعض المعايير ، تماماً كاللطم الظاهر الذي يعيد ويزيد !

وقد حذفت عشرات من الفصول السياسية لدرجة ستجد أنك أمام صفحات قليلة عن دولة أنت فيها كثيراً مثل الفلبين !

فقد حدثني أنني سافرت إلى الهند ومن الهند إلى سيلان ومنها إلى سنغافورة ، ومن سنغافورة إلى أندونيسيا ومن أندونيسيا إلى الهند مرة أخرى . فقد جاءتني برقة تطلب مني أن أسافر فوراً لاكتشاف عن الصراع بين الهند والصين . . وبعد ذلك عدت إلى سنغافورة ثم إلى أندونيسيا ومنها إلى أستراليا . . فأنا أذكر الهند وأندونيسيا في أماكن متعددة . . فكثيراً ما كتبت عن الهند وأنا في أندونيسيا .. أو في أستراليا . .

وبغم مرضي وعداني وعفاوفي وطول الطريق ، وانتقال من الحر في الهند إلى الجليد في أستراليا ، إلى الحر والمطر في الفلبين إلى المطر في هونج كونج ، إلى العاصف والرعد في اليابان ، إلى الدفء والبراكين في هواي ، إلى الجليد في نيويورك .. رغم كل هذا كتبت ولم أتوقف عن الكتابة !

ولكن يعزفني عن هذا كله : أنني رأيت الدنيا ، وأنني درت حول العالم . . وأنني رأيت من العالم أكثر مما يراه رواد الفضاء المحبوسون في براميل من المعدن تنطلق بسرعة ٢٨ ألف ميل في الساعة وعلى ارتفاع ٢٠٠ ميل من الأرض . . لقد رأوا الدنيا من فوق ، ولكن مشيتها ، رأوا الغابات والخيطات ، وأنا رأيت المدن والقرى والناس . . وبعزمي أن الملائكة تمنوا أن يفقدوا نصف عمرهم أو ثلاثة أرباع عمرهم ، وأن يسافروا مثل !

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أقدم بعض ما تمنوه . وأنني لكل قارئ أن يسافر مثل ، وألا يتتعصب مثل ، وأن يسافر هو وأهله وأحب الناس إليه . لا أن يسافر وحده . وليس له أحد ، ولم يكن له أحد يودعه عند سفره من القاهرة ، ولم يكن له أحد يستقبله عند عودته إلى القاهرة .

خرجت وحيداً ، ورجعت أكثر وحدة !

* * *

والمسافر كما يقول المثل الإنجليزي : يجب أن يكون له عيناً صقر ليرى كل شيء ، وأن تكون له أذناً حمار ليسمع كل شيء ، وأن يكون له فم خنزير ليأكل أي شيء ،

وأن يكون له ظهر جميل ليحصل أى شيء ، وأن تكون له سلامة لا تسبّب من المرض ..
وأن يكون له - وهذا هو الأهم - سعيّان : إحداهما انتلاع بالسال والثانية انتلاع
بالصبر !

وقد حظيت هذا المثل جيداً .. وإن كنت قد فضيتك كثيراً ما الذي تحظى به كالصقر
وما الذي تحظى به كالأهmar .. ولكن لم أنس أن أكون جيلاً وأن أصبر . فلقاء مع الصابرين .
وقد كان الله تعالى يرى .. لقد أهذني من الموت عدة مرات .. أهذني من بعوضة مرض
الفيل ، وأهذني من الفرق ، وأهذني من الضياع في القبابات ..

وكنت أقول دائماً : إنه دعاء أهي .. خلص طلاق الدنيا من عمل سوى أن تخموه ..
وهي كثيراً ما تدعوا الله وكانت اندهش لهذا الإسراف في الدعاء ، وهذا الإلحاح على الله .
ولكن عندما رأيت الدنيا ، ومتاع الدنيا الواسعة ، تحركت أنها على حق ، فهناك أشياء
كثيرة لم أكن أعرفها تستحق الكثير جداً من عناء الله !

* * *

ولم أنس طول الرحلة هؤلاء الجبارية من المغامرين من أمثال حاركو بولو .. وابن
بطوطة .. ولم أنس الذين داروا حول العالم في سفن شرافية مثل ماجلان وبلسكي داجاما ..
وكولومبوس وأمرييكوس بونتي .. هؤلاء البلاطرة الذين ركبوا هذها بدائية في محظيات
مهولة . وفي طرائف بدائية .. بلا طعام ولا دواء ولا عراقط .. لقد كنت أذكرهم
في كل قارة اكتشفوها وأتنى إجلال لهم .

ولم أنس أبداً تلك الرحلة الوهبية الساحرة التي كتبها القس سوبتش جعنوان
«رحلات جيلفر» ..

فهذا البطل جيلفر قد ألت في السفينة في بلاد الأقزام .. وربطوه بالحبال وسحبوه
إلى قصر الملك ، وانتقل من بلاد الأقزام إلى بلاد المقالفة ، وكان الأطفال يلمون به
بسرب الشبه الشديد بيته وبين الإنسان .. ثم ألت في الأمواج إلى أرض المثقفين وهم
أناس في حالة غيبوبة عقلية ولديهم مشاريع وهيبة .. ووراء كل واحد منهم خادم يذكرة
بماذا يريد أن يقول ، وماذا يريد أن يقتراح .. وبعد ذلك سافر إلى بلاد السحر ..
فهناك رأى كل عظام التاريخ ، الذين أكدوا له أن التاريخ كله كذب في كتب ، وأن
المؤرخ يكتب ووراءه مدفع الحكم القوى ، فهو يكتب تاريخ الرجل القوى .. وألت
به السفينة بعد ذلك إلى أرض فيها أناس في غاية البلادة ؛ وهؤلاء الناس تحكمهم حيوان في
غاية العقل .. واحتاروا في أمر جيلفر هل يعتبرونه إنساناً أى غبياً مع أنه ذكي ؟ أو
هل يعتبرونه حساناً ذكياً مع أنه ليس حساناً ..

وأخيراً طردوه لأن له جسم الإنسان وذكاء الحسان ! !

وبعد ثلاث سنوات من هذه الرحلة التي أدرك فيها جيلفر أن كل شيء في الدنيا نسي ..

فأنت طرول في بلاد الألزام . . وقزم في بلاد العمالقة ؛ وهي في بلاد الحيوان ، وكذاب في العالم الآخر .

وبعد هذه السنوات من العذاب والهوان ، دق باب بيته . وفتحت له الزوجة الباب ، ثم طبعت قبلة عمل حده

وهو منذ هذه القبلة الكريمة الباردة أحد يكره الإنسان ويحب الحيوان . . وكلما ازدادت معرفته بالناس ، ازداد عشقه للحيوان !

ولم أجد أحداً يقبلني عند عودي ، ولا أحداً أقبله .

وحدث الله ، فانا أحب الناس ، في كل مكان . . ولا أريد أن أكره أحداً كما فعل جيلفر في كل البلد .

فأنا أحب الأسود والأسر والأصفر والأبيض . وكل إنسان مربوط بظروفه . . وكل إنسان مدفوع إلى الأمام بتاريخه . . والعالم يتكلم بعدة لغات وعدة صالح .

ورأيت أن الفوارق بين الناس قليلة جداً . . فكل الناس تحت الجلد متشابهون !

* * *

إنني لم أعرف الكثير جداً من الدنيا ، ولم أعرف إلا القليل جداً من نفسي . . فعیني مفتوحتان على الدنيا ، ولكنني بلا عينين عندما أنظر إلى داخل . . إلى الزحام

في داخل . . إلى الوحشة المظلمة في أعاق . . إلى الإنسان الذي فسيته يصرخ ولا أسمه ولا أتبينه . . ولا أعتقد أنني أستطيع يوماً ما . . فقد اتسعت المسافة بين وعيه . . أو . . بين وعيي . . وإن في حاجة إلى ترجمان . ترجمان صديقه . . يخبرني ملذاً أريد

أن أقول لنفسي . . ماذا أريد من نفسي ، ماذا أستطيع . . ما الذي أغير عليه . . إن كل الذي استطعت أن أعرفه في دوراني حول العالم هو أنني أستطيع الكثير . .

وأن كل إنسان يستطيع أن يفعل الكثير . . أن يأكل رغيفاً في اليوم ، وأن يحمل عشرين ساعة . . دون أن يتعب .

ففي كل إنسان قوة هائلة ، لا يستطيع أن يستغلها . .

وفي كل إنسان كنز من الحيوانية والقدرة على الفهم والقدرة على الاحتياج والصبر . وأنا لا نتفق من هذا الكنز إلا القليل . .

وأن الإنسان يأكل ويشرب وينام أكثر مما يجب .

وأنه يعمل أقل مما يجب . .

وأنه يخاف أكثر مما ينبغي . .

وأنه لا يعرف نفسه . . وأنه لا يعرف حدوده الشاسعة الواسعة . .

وربما كانت هذه عدوى فلسفة «ليوجا» . . فلسفة الاحتياج والصبر . . فلسفة الزهد في الحياة . . للفلسفة السلام مع الناس ومع النفس . . للفلسفة معانقة الجموع والمطش . . فلسفة التردد فعل الخوف والفرد عمل الجبن . .

وربما كانت هذه الفلسفة هي المرض الوحيد الذي أصابني وأنا أنتقل من معبد إلى حانة ، ومن حانة إلى غابة .. إلى جبل .. إلى قبة جبل .. إلى طالرة فوق محيط في أثناء عاصفة والناس نائم .. والظلام حالك .. فوق السحاب .. ساعات من الاستسلام .. لا أسمع إلا عركلات الطائرة .. أما قلبي فكان لا يدق .. كأنما كان يكتنف بقلب آخر في مصر يدق من أجل .. ويخفق ل ..

وعدت إلى مصر الغالية العزيزة ..

وف الطائرة أصقت في بالنافذة أقبل بلادى ، وفي المطار مددت ذراعي أعانق كل الناس .. بلادى هي أكرم بلد وأهلى هم أطيب الناس !

* * *

وانتهت رحلة الغريب في عالم غريب ..

أنيس منصور

القاهرة في نوفمبر ١٩٦٢

مقدمة الطبعة الثانية

بعد أن انتهت رحلتي حول العالم ، عدت من جديد إلى السفر . لقد جمعت القليل جداً من ملابسي ، وبعض الأوراق . واتجهت في سيارة جيب إلى أقصى الجنوب .. إلى الكونغو . ولم تتحرك هذه السيارة خطوة واحدة . ومع ذلك فقد وصلت بها وبسرعة ٥٠٠ كيلو في الساعة إلى مدينة كوكيا تفيلي في الكونغو . !

وهذه الفزوررة لها حل : إنني ركبت عربة جيب في داخل طائرة تابعة للأمم المتحدة مرافقاً لقواتنا العربية التي ذهبت تحمي ثورة الشعب بزعامة لمومبا .. وكانت هذه السيارة محاطة بالقناابل والمدافع وشباب أسر أقوى من القناابل والمدافع يحمي قضية الحرية في القارة السوداء ..

وارتفعت الطائرة وانخفضت درجة الحرارة في داخلها فقد كانت طائرة غير مكيفة .. وبدأت أرتعش من البرد وكأني عريان فوق جبال الهيملايا .. أو كأنني سقطت في ميناء سيني في عز الشتاء . وعادت الطائرة إلى مطار القاهرة لتصليح جهاز التكييف . ثم ارتفعت الطائرة وارتفعت درجة الحرارة وكدنا نختنق .. ولا أعرف إن كان الغرض من ارتفاع درجة الحرارة هو إقاحة الفرصة للمواد الملحية لكي تنفجر وتنهي هذه الرحلة ، ونتحول من مسافرين إلى شهداء من أجل السلام ..

وزلت الطائرة إلى أرض القاهرة ، وتم إصلاح جهاز التكييف . وحمدنا الله . عدت إلى مكافأ أمام عجلة القيادة أميل بصدرى عليها محاولاً أن استريح أو أهرب من المسارير التي بربت في كل جانب من جوانب السيارة ..

وحيطت الطائرة في الخروم في الشتاء الدافئ ..

وعادت تهبط مرة أخرى بين الأحراش في الكونغو^(١) .

وبعد أيام رجعت إلى القاهرة .. فقد استغرقت هذه الرحلة ألف الأميال وثلاثة أيام .. وقد مجلت بذلك أطول وأقصر رحلة قت بها في حياتي ! .

(١) أقرأ كتاب « بلاد الله .. خلق الله .. » .

ووصلت إلى الكويت المرة الثالثة . . ورأيت هذه الدولة النامية قد تغيرت معالها
بسرعة . . وزحفت على الصحراء بيوتها الجميلة الآتية . . ورأيت شيئاً أهن وأعظم من
بيوتها الجميلة . . رأيت شعب الكويت الذي انتعش آثاره وعمره ومسؤولياته نحو الكويت
ونحو الأمة العربية . . ول في الكويت أصنافاً كثيرة . . أدباء وشعراء وساسة . . وكلهم
ثروة لنا ، وطليعة لوعي العربي في شبه الجزيرة وفي الخليج العربي .
وتحتني أن أؤلف كتاباً عن الكويت . . وأرجو أن أتمكن من ذلك .

* * *

ووَقَعَتْ أَحْدَاثُ فِي الْعَالَمِ ، غَيَّرَتْ مَعَالِمَ الْخَرْبِيَّةِ . .
وَكَنْتُ أَتَمَّنِي أَنْ أَجْلِسَهَا . . وَسَأْفَلُ إِذَا مَا أَتَيْحَتْ لِي الفَرْصَةُ بَعْدَ ذَلِكِ . .
انطلق الرصاص على رئيس سيلان باندرانيكا . . وظهرت بهذه زوجته العظيمة في
مكانة الشرف المرأة الآسيوية . .

وقُتِلَ الرَّئِيسُ كَنِيدِيُّ . . وَهُوَ تَلْكَ الظَّاهِرَةُ الْغَرْبِيَّةُ فِي قَارِبِيْنَيْكَا . . فَهُوَ يَرْأَسُ
دُولَةً رَأَسَهَا بِيَقْلِيَّةٍ سَلَامِيَّةٍ . . تَلَهُ يَهُودِيُّ بُولِنْدِيُّ وَجَاهُ يَهُودِيُّ آخِرٌ وَقُتِلَ الْقَاتِلُ . . وَضَاعَتْ
مَعَالِمُ الْجَرِيَّةِ فِي وَضْحِ النَّهَارِ . . وَلَكِنَّ الْمُوْكَدَ أَنَّ اَمِيرِيَّكَا حَسِرَتْ شَابَاهُ عَلَيْهَا . . وَالْعَالَمُ كُلُّهُ
أَيْضًا . . وَبَكَتْ عَلَيْهِ عَيْنُهُ فِي كُلِّ الدُّنْيَا . . بَكَتْ شَابَاهُ وَشَجَاعَتْهُ وَجَهَتْ لِلتَّعَايِشِ السَّلَمِيِّ
بَيْنَ الشُّعُوبِ . .

وَنَهَرُو مَاتَ . . ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُطَهِّرُ الَّذِي كَانَ أَرْوَعُ مَعَالِمَ الْهَنْدِ وَآسِياً . .
وَالْعَقَادُ الَّذِي وَلَدَ مَعَ نَهَرُو فِي نَفْسِ الْعَامِ مَاتَ هُوَ أَيْضًا . . إِنَّهُ أَكْبَرُ الْمُفَكِّرِينَ
الْعَرَبِ ، وَأَوْسَعُهُمْ أَفْقًا وَأَعْلَمُهُمْ رَأْسًا وَأَشَدُهُمْ حِرْسًا عَلَى كِرَامَةِ الْفَكْرِ وَالإِنْسَانِ . .
وَمَاتَ أَجِيْنَالْدِي الزَّعِيمُ الْفَلَلِيَّ . . وَهُوَ يَشْبِهُ الزَّعِيمَ الْعَرَبِ أَحْمَدَ عَرَابِيَّ بَاشاً . .
وَغَرَقَتْ جَزِيرَةُ بَالِي الْجَمِيلَةُ عَلَى أَثْرِ بِرْكَانِ عَنْبَفِ . . أَصْبَعَ مَعَالِمَ الْجَرِيَّةِ . . هَلَمْ
مَعَابِدُهَا وَجِبَالُهَا السَّاحِرَةُ . . وَهَرَبَتْ الْقَرْوَدُ الْمُقْدَسَةُ تَحْتَمِي فِي أَشْجَارِ جُوزِ الْهَنْدِ ،
وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَشْجَارُ تَحَوَّلُ إِلَى وَقِيدٍ . . وَأَصْبَحَتْ الْجَزِيرَةُ شَلَةً مِنَ الْمَاءِ !
وَظَهَرَتْ دُولَةٌ جَدِيدَةٌ هِيَ مَالِيزِيَا تَضَمَّنَتْ لِلْبِلَادِ وَجِزَراً أَجْمَعِيَّ قَرِيبَةً مِنَ اَنْدُونِيَّسِيَا . .
وَسَفَاقَوْرَةُ أَصْبَحَتْ دُولَةً مُسْتَقْلَةً .
وَأَصْبَحَتْ لَنَا سَفَارَةً فِي اُسْتَرَالِيَا . . تَمَامًا كَمَا كُنْتُ أَحْلُمُ بِهِ . . هَذِهِ الْقَارَةُ الْفَنِيَّةُ
الْسَّعِيدَةُ .

وَحَنَّتْ مِنْ هَذِهِ الْعَلْبَةِ الثَّانِيَةِ كَلْمَةً « جَدًا » . . وَإِنْ كُنْتُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ
قَدْ نَسِيْتُ ذَلِكَ . . فَقَدْ سَجَلْتُ فِي الطَّبْعَةِ الْأُولَى فَرْحَتْ بِالْعَالَمِ الْوَاسِعِ الْمُلْوَنِ الْبَاهِرِ الْبَكْرِ . .
وَاحْتَفَلَتْ بِهِذِهِ الْدَّهْشَةِ . . وَأَبْقَيْتَ نَبْرَقَ الْعَالَيَّةَ . . فَنَّ الصَّبَعُ أَنْ يَنْدَهْشَ الْإِنْسَانَ
وَيَصْرُخَ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ . . وَلَيْسَ عَلَامَاتُ « التَّسْعِيْجُ » الْمُنْتَشِرَةُ فِي كُلِّ
الْكِتَابِ ، وَلَيْسَ كَلْمَاتُ « جَدًا » إِلَّا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ دَهْشَتِيْ لِمَ تَنْتَهِ . . وَحَسَاسِيْ لِمَ يَخْصِهِ . .

فاللهى رأى ما رأيت ، وسمع ما سمعت ، كيف لا ينبعش ؟ وكيف لا يذكر بعد هذه
الدهرة في معنى الصحاب الذى يراها !
فالدهرة هي بداية المعرفة الإنسانية .

فالإنسان ينبعش وبعد ذلك يتسامل . . وبعد أن يتسامل يفتش عن الإجابة . وقد
تساءلت كثيراً جداً ، وحاولت أن أجيب بقدر ما أستطيع .

وإذا كنت في الطبعة الأولى قد اندھشت وتساءلت ، ففي هذه الطبعة الثانية قد أجبت
كثيراً . عملت بنصيحة الأصدقاء . لقد نصحون بأن أعيد قراءة ما كتبت . وقد فعلت .
وأن أجعل الكتاب كلة حلقات متراقبة . وأن أحظى لها بروح المرح والخففة وأن أعن
وراء هذا المرح بعض المعلومات . وقد فعلت وأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك .

وقد لاحظت - مثلاً - أنني كنت مهوراً جداً بالراديوهات الترانزistor في اليابان .
وكنت أتأمل هذا الجهاز العجيب بدقة لا تنتهي . وقد أصبح هذا الرadio من صناعتنا
الناھلة . وأصبح في متناول يد الأطفال والشباب في كل مكان . فلم يعد شيئاً بالغراً .

حتى صناعة التلویز اليابانية التي رأيتها وكتبت عنها لأول مرة في تاريخ الصحافة العربية ،
هي الأخرى أصبحت من المشوّعات العلمية عندنا . فهناك محاولات جادة لزراعة التلویز
في مياه البحر الأحمر .

ولقى هذا الكتاب جمهوراً متعطشاً لمعرفة الدنيا ، وانتشر في كل مكان . ونجدت
طبته الأولى بسرعة أدهشتني . وضاقت الدار إلى نشرته . فهي حريصة على أن يبق الكتاب
معرضاً في المكتبات وقتاً طويلاً . يسأل عنه الناس ، ويتحدثون عنه . ولكن هذا الكتاب
فاجأ الجميع بأنه اختفى في حوالي ثلاثة شهور . . عشرة آلاف نسخة في مائة يوم !
وقلت قلت هذا الكتاب أجهزة الإعلام كلها .

الصحف تتحدث عنه . وأشارت إلى المتنع التي يلقاها كل قارئ . .
لييس أسهل من أن يأخذ القارئ الدنيا وهو جالس في مكانه .
والإذاعة تتلوه على شكل سلاسل . .

ولقترح أستاذنا الكبير محمد التابعي أن يصوره التليفزيون في حلقات . . وب يحدث
ذلك قريباً . .

وبحث عن هذا الكتاب قراء من اليمن ومن غينيا وغانا والكونغو وسوريناميا . . ووجدت
نفس مضطراً إلى أن أبحث عن نسخ من هذا الكتاب كنت قد أهديتها إلى أصدقائي ؛
لسيتها وأنا حائز بين الأم والسعادة . .

ثم كانت هذه الطبعة الثانية التي أتعرف بأنني أدخلت عليها تعديلات جبارة وربما
كان من الأنسب أن أقول : إنني أعدت كتابة الطبعة الأولى . وأصفت إليها مئات الصفحات .
وبذلك يصبح هذا الكتاب متماً ومفيداً في نفس الوقت .

وقد أقسم لي توطيق الحكم بشرفه وأولاده بأنه اشتري نسخة من جبيه . . أى من فلوسه !

الآخرى أن هذا الكتاب قد أحدث تغييرًا جذرياً في المسافة كاتب عظيم مثل خطة المكيم .

وأتفق بأن نفذ الطبعة الأولى بهذه السرعة يشجعنى ولا شك على أن أكتب رحلاتى إلى لوريا وإلى الشرق الأوسط فيها بعد . فقد سافرت إلى أوروبا ١٦ مرة . . رأيتها وهى مهلاة . . على شكل صفحى أسود ، وطوب وطين وفحم . . ورماد على وجوه النساء ، وفأوهات الأطفال وفي أفكار الرجال .

ورأيتها وهى تخلو في الليل ، وهي حية ظريفة أنيقة في النهار . .

ورأيت الشرق الأوسط . . رأيت العراق بعد ثورة الطاغية عبد الكريم قاسم . . ورأيت الأردن وسوريا ولبنان . . وعندى ما أستطيع أن أقوله . . وقد وقعت أحداث ، طهور واختنف أشخاص . . وشاعت آراء ومواقف .

لعل قد أسرفت في وعدي . ولكن القارئ متول عن هذا الإسراف ، فهو الذى شجعني . وأنا أستمد من تشجيع القارئ شجاعى ومتى وأهل في الحياة . .

وأنا في كل مرة أفكرا في رحلات الطويلة جداً هذه . . أتذكر القصة التي يرويها الكاتب الأمريكي جيمس متشير ، الذي ألف أروع قصة عن جزر هاوى . فهو يقول : إنه في كل مرة يسأل الناس عن سبب ذهابه إلى جزر هاوى مرة أخرى يقف على لسانه سؤال آخر يوجهه إلى نفس الشخص الذى يسأله : ولماذا أنت في جزر هاوى ؟ ولكن حياته يمنه من توجيه هذا السؤال . . أو رده أو صدده . . كأنه كوة ارتبطت بالحاسط . .

وأصبح من عادة متشير كلما سأله إنسان عن سبب وجوده في هذه الأماكن النائية أن يقول : يا سيدى حدث أنى عندما ذهبت إلى جزر هاوى لأول مرة . . أحببت فناء حلقة . . سهره وقيقة صوتها حرير . . وشعرها حرير أبيض . . والحياة معها حرير . . وقارب الساعة كانت أيضاً من الحرير . . إننا لا ننحر بالزمن . . وقررت في يوم من الأيام أن أتزوجها وذهبت لأنشرى لها من أحد محلات المجوهرات هدية على شكل قلب ذهبي ، وبينما أنا عائد إلى الفندق هاجعني بعض المصوّض وضر بوف وسرقو المحفظة . ولا أدرك بالضبط ماذا حدث بعد ذلك . لقد فقدت وعيي . . فقدت ذاكرتي أيضاً ! . وعندما أفاقت وجدت سلة من الذهب ملفوفة حول عنقها ويتدل منها قلب ذهبي . ولم أستطع أن أعرف ما معنى وجود هذه السلة . فنانا لم أعد أتذكر شيئاً بالمرة وسافرت بعد ذلك إلى الهند . . وعلى سفوح جبال الهند . . كنت أترفرف على بعض الطيور وبعض الناس الماكين الذين يزحفون على الأرض في قناعة وسعادة تامة . وبهرتني هذه القناعة وأخذتني هذه السعادة . وسقطت على الأرض . لا أعرف كيف سقطت . . ربما كان السبب هو أنى ضفت بعض الشىء على أحد الأحجار . . وشكراً لهذه الأحجار الكريمة . . فعندما سقطت على الأرض ارتفع رأسى بمجرة أخرى أكثر كرماً من الأولى . . وفي هذه اللحظة استعادت ذاكرتى . . وتندركت بوضوح شديد جداً هذه القصة . فقررت السفر إلى

جزر هاوى لأطلق بمحبب القلب الذى حرم منها الصور .. وصلرت إلى هاوى سائلة عن الحبوبة .. ووجدتها أما لعثرة الأطفال وقد زاد وزنها فلأصبح حول ماله كيلو .. ولاحظت أن الدراج الذى كنت استند عليها وأنا أمشى إلى جوارها قد أصبحت مليئة بالغضالت .. ولما عرفت أن زوجها يعمل حداداً على تها وتمنيت له مزيداً من الأطفال وتميت ها مزيداً من الغضالت وتميت لنفسى مزيداً من الفحص لكنى أرد بها على السؤال الذى يتكلر دائماً : ولماذا أنت فى جزر هاوى ؟

وهذه القصة ابتكرها منتشر مفسراً بها سبب وجوده فى هاوى - مع أن الإنسان ليس في حاجة إلى أسباب خاصة ليكون في مكان ما .. في أي مكان . إن أهل هاوى أنفسهم لم تخلقهم معجزة وإنما جاؤوا وتکاثروا ولا يزالون هناك . . .

أما السبب الحقير الذى جعل الكاتب الأمريكى يسافر إلى هاوى فهو أنه كان مسابطاً في البعيرية . سبب بسيط جداً . ولكن ليس جيداً .

وأنا شخصياً أحب القصة التي ابتكرها وأفضلها على السبب الحقير الذى ليس جيداً ولا منعاً !

وأتمى أن يسألنى الناس هذا السؤال ، وأتمى أكثر أن يسعفني خيال بقصة جميلة لسبب وجودى في كل هذه البلاد التي سقرا عنها في هذا الكتاب ..

* * *

أما الذى كسبته من هذه الرحلة المرهقة التي تركت علامات عميقه في نفسي . فالجنوب على ذلك جاء في آخر صفحة من قصة الكاتب الفرنسي « جيل فرن » التي ظهرت على الشادة وعنوانها : « حول العالم في ٨٠ يوماً » .. ففي الصفحة الأخيرة يسأل الخادم بطل هذه القصة واسمه فيلياس فوج : ما الذى كسبته من هذه الرحلة ؟ أنت تراهنست على مبلغ عشرين ألف جنيه . ولكنك أنفقت ١٩١ ألف جنيه .. والألف البالى أعطيتني إياها ؟ والذى لا يعرفه هذا الخادم هو أن الرحلة نفسها ممتعة ومثيرة ومفيدة .. .

وأن المكسب هو المشوار .. هو الشوق والحنين .. وانتظار الناس حول لكتى أولى ثم ما رأيت وكيف رأيت ..

ولو طلبت من أيها القارئ أن ألق قلمي الآن وأدور حول العالم من جديد ، نفس الطريق ، ونفس الأمراض ، ونفس المخاوف ، فإلئى لن أتردد .. فليس في الدنيا أروع من السفر وذكريات السفر ، وليس أروع من أن يستمتع بقراءتها بعد ذلك كل الذين لم يسافروا ، وكل الذين يعلمون ببلاد بعيدة جديدة !

أنيس مصادر

القاهرة في أغسطس ١٩٦٤

مقدمة الطامة الثالثة

يَقْلِمُ الدَّكْتُور طَهْ حَسَنٍ

هذا كتاب ينبع حقاً تقرؤه فلا تنقص محتواه بل تزيد كلما قررت في قرائته .
ويع أنه من الكتب الطوال جداً لغيره الكبرى هي أنك حين تقرأ لا تحتاج إلى راحة وإنما تود لو تستطيع أن تمضى فيه حتى تبلغ آخره في مجلس واحد ، لأنك تجد فيه المتعة والراحة والسلوى وإرضاء حاجتك إلى الاستطلاع .

ومن الحق أن هذه الرحلة الرائعة يمكن أن تقرن إلى الرحلات العربية القديمة .
ومن يدرى لعل أن تمتاز منها ببعض الخصال ، فصاحب الكتاب حلو الروح عفيف
الظل بعيد أشد البعد عن التكلف والتزيد والإدلال بما يصل إليه من الفراغ التي
يسجلها في كتابه .

إنما هو يعيش في الكتابة مع اليسر والإصلاح ، مرسلًا نفسه على سجنه ، مطلقاً
لقلمه الحرية في الجد والهزل وفيما يشق وما يسهل ، لا يتكتل الفصحي ولا جسمه العالمة .
إنما كتابه مزيج معتدل منسجم من الهيجين . . . وهو لا يقصد إلى أن يبرأك ولا إلى
أن يقرب عليك في لفظ أو معنى وإنما يستحبب لطبعه ويظهر ياره الطابع السمعة التي
تكره التكلف والتحذق والإسفاف .

وقد أحذت في قراءته ذات يوم فلكان أشد ما أصيق به المعارض إلى تعرض نصرتك
عما أنت فيه على كرهك هذا والصجر به . والإحساس الذي لا يفارقك أثناء القراءة هو
أنك مع الكتاب تشهد ما يشهده ، وتصنع ما يصنع وتجد ما يجد من الم أو الملة ومن سخط أو
رضا ، تسلل معه وتقيم حين يقيم مع أنك لا تخرج مكانك . وإنما هي براعة الكتاب
وأصحابه يستأثران بك ويخيلان إليك أنك تلزمهم في حركتك وسكنه كأنك ظل له لا تفارق
وأشهد بأن وجدت هذا الشعور منذ أحذت في قراءة الكتاب إلى أن فرغت منه .

وما أرى إلا أنا ساعي قراءة فصول كثيرة منه وهذا أقصى ما يمكن وحالة أن يبلع
من نفوس قرائه .

ويع أن الكتاب يسمى كتابه « حول العالم في ٢٠٠ يوم » فهو قد طوف فأكثر
التطراف ووصف فأحسن الوصف ، فهو لم يزد العالم كله ، وإنما زار الأجزاء البعيدة
من في الشرق الأقصى وفي أمريكا .

وما زالت هناك ببلاد كثيرة لم يعلم بها ولم يتحدث عنها ، فهو لم يزور من الصين إلا هونج كونج ، ومن يدري ملأا كان يقول لنا لو أنه زار الصين وبلاجها أخرى كثيرة في آسيا كالملايو والصين الروسية وكثيراً ما وجزيرتها العرب .
ولا أذكر العالم العربي في آسيا فأكثر الناس يعرفون عنه الكثير .

وما زلت أتمنى أجزاء طفولة من العالم يجب أن تضاف إلى الصين وإلى الأجزاء الآسيوية الأخرى التي لم يزورها . وهو بلد زار بعض البلاد الأوروبية ، ولكنه لم يزورها زيارة الرحالة .. كما أنه فيما أعلم لم يزور بلاجها كثيرة في أوروبا . ولم يزور روسيا الأوروبية ولم يزور البلقان . وتبين بعد هذا كله قارة كاملة تدعوه إلى زيارتها في الخارج وهي القارة الإفريقية على اختلاف أقطارها .

لست أول من نادى له وإنما أقوله متمنياً عليه زيارة هذه البلاد كلها ووصفها كما وصفت البلاد التي زارها مهما يكلفه ذلك من مشقة في السفر والإقامة والكتابة بعد ذلك .
وما دام قد بدأ فأحسن البدء فيجب عليه أن يتم ما بدأه فيزيد في إمتناع قرائه ، ثم هو لا يمنع قراء هذا الجليل وحده وإنما يمعن أجابلاً أخرى كثيرة كما استمتعت أجباباً كثيرة برحلات العرب وبكثير من رحلات الأوروبيين .

ومن الحق أن الذين سبقوه من أصحاب الرحلات لم يزورو الأراضي كلها ولم يصفوها ، وإنما اكتفوا بما زاروا من بعض الأقطار . ولكن الأستاذ الكاتب يستطيع أن يصدق بيت أبي العلاء :

إذ وإن كنت الأخير زمانه لات بما لم تستطعه الأولي
فأبو العلاء لم يدخل في هذا البيت لأنه أتى في شعره وفي بعض نثره بكثير مما لم يسبقه العرب إليه . ولم يلحقوه فيه إلى الآن . فما يمنع كاتبنا من أن يأت في الرحلات بما لم يستطعه من سبقه من الرحاليين . ولعله آخذ في بعض ذلك فيما يأت من الزمان .
وليس من شك في أنه قد أتى في رحلته هذه بما لم يسبقه إليه أحد من معاصره .
وأنا أكره له أن يصدق عليه بيت المتن :

لهم أرأ في عيوب الناس عيّباً كنفس القادة على الكمال

وفي الحمد لله قدرة على الأسفار واحتمال المشقات وقد منحه الله من الشباب والقدرة وحسن الصبر والاحتمال ما يمكنه من ذلك إن أراد . وأنا أرجو أن يعيشه الله على ما قد يحاول من ذلك ، ولا أخفي عليه أنه مشوق كل الشوق إلى أن أقرأ وصفه لأفريقيا . ولتكن ذلك في جزء أو جزئين . وهو قد أثبت بكتابه هذا أن الله قد يسره التلصاف في أقطار الأرض ووصف ما يزوره منها كأحسن وأتم ما يمكن الوصف . وما أظن أن « أخبار اليوم » تحول بيته وبين ما يسره الله له . لليلزم ولبيتكل على الله ، وأنا أهنته بكتابه هذا وأتمنى له النجاح والتوفيق حتى يبلع من إتمامه ما نحب .

طه حسين

القاهرة في أغسطس ١٩٦٦

مقدمة الطبعة التاسعة

بقلم: محمود تيمور

الزمن أخيراً في سلسلة الصور الوصفية التي أعالج بها رسماً شخصيات الأدباء والمفكرين المعاصرين لي ، أن أجمع في كل حلقة بين اثنين من هذه الشخصيات ، صاحباهما تتسع بينهما دائرة المشابهات ، أو على العكس من ذلك تتسع بينهما دائرة الفروق . فلما أمسكت بالقلم لأصور صديقنا الأستاذ « أنيس منصور » ، حاولت جاهداً أن أجده له شبيهاً ، فلم يتيسر لي الشيء ، وحاولت كذلك ما وعنتي المحاولة أن أجده له نقيهاً ، فز عل أن أوفق إلى النقيض ، فقد رأيتني أمام امرئ ليس من السهل اكتنال لمرء ، وأجاده سره .

نظرت إليه على أنه من الملائكة ، فلم تكشف له شخصيته بهذا الاعتبار ، وعذته من ذمة الشياطين ، فلست بدان أن ظلم له ، ذلك لأنـه في الحال مزاج طريف نادر من الملائكة الطاهرة ، والشياطنة المساكنة . . .

أشجاع من المتناقضات ترسم لك في هذه الشخصية الطيبة ، فإذا أنا أفردت صاحبها بالحديث ، دون أن أفرنه بنبيه ، فنبيه هو نفسه - في الحال - ذو شخصيتين أو أكثر من الشخصتين !

يتحدث إليك ، فـ« تـعـوـهـ » : ليـزـلـ لمـ يـجـدـ ؟ وـيـرـضـ عـلـيـكـ الرـلـيـ ، فـحـارـ فـهـ : ليـصـلـحـ أـمـ يـدـلـوـرـ ؟

انـ لـفـزـ عـصـ وـلـنـ هـذاـ لـفـزـ ليـتـلـورـ فـنـقـةـ وـاحـدـةـ ، هـيـ : اـبـسـامـتـ . . . تـكـ الـابـسـامـ الـتـىـ تـجـمـعـ فـتـصـاغـيـفـهـاـ مـعـلـمـ شـخـصـيـتـهـ . . . وـاـشـبـهـاـ بـجـنـينـ فـبـطـنـ آمـهـ عـلـلـ الـأـشـهـرـ الـأـوـلـ مـنـ تـحـلـقـهـ ، فـهـوـ عـلـ الرـغـمـ مـنـ صـفـرـ حـسـبـ ، وـدـفـةـ تـكـوـيـتـهـ ، يـعـوـيـ كـلـ الـعـنـاصـرـ الـتـىـ يـتـشـكـلـ مـنـهـاـ الـإـنـسـانـ الـمـسـتـقـبـلـ .

أـنـ تـواـجـهـ هـذـهـ اـبـسـامـ ، كـاـ تـواـجـهـ اـبـسـامـ الـجـيـوـكـنـدـاـ » . . . مـبـهـوـتـ حـيـرانـ ، لـاـ تـمـلـكـ هـاـ تـحـلـيـلاـ وـلـاـ تـعـلـيـلاـ . . . هـلـ هـيـ اـبـسـامـ كـامـلـةـ الشـكـلـ ، نـاصـعـةـ الـمـنـ؟ـ هـلـ هـيـ ظـلـ اـبـسـامـ لـاـ تـفـهـمـ مـنـ الـحـقـيـقـةـ الـأـأـبـعـادـ الـتـىـ يـظـهـرـهـاـ الـظـلـ ، لـاـ تـكـشـفـ سـتـراـ ، وـلـاـ تـعـلـىـ خـبـرـاـ؟ـ هـلـ هـيـ شـرـوعـ فـيـ اـبـسـامـ لـاـ تـعـرـفـ مـاـ وـرـاـهـاـ؟ـ هـلـ هـيـ حـاتـمـ اـبـسـامـ ، فـاتـكـ أـنـ تـنـابـعـ مـرـاحـلـهـاـ ، لـتـسـتـبـينـ مـرـاـيـهـاـ؟ـ مـاـ لـوـنـهـاـ؟ـ اـبـسـامـ تـرـحـيبـ هـيـ؟ـ أـمـ اـبـسـامـ

استهزاء ؟ أم ابتسامة الامبالاة ؟ أتر لها تقليل على واحدة من هذه الدلالات ، أم هي
تحوى كل هذه الدلالات مجتمعة في وقت واحد ؟

مهما نظرت للقول في التحليل والتسليل ، فليس ثمة إلا حقيقة واحدة : إن ابتسامة
«أنيس منصور» هي «أنيس منصور» نفسه - هي هو - أو قال : هو هي ، لا انفصال
بينهما ولا الخلاف .

سر «أنيس منصور» يمكن حلـف ابتسامته ، فإذا تقطعت إلى طرایـاها بذلك الرجل
بكل ما فيه .

ربما دار بينك وبينه نقاش ، وفتـرقـانـ عـلـ وـدـ ، وـلـ تـكـادـ تـخـطـوـ خطـواتـكـ ، قـارـكاـ
إـيـاهـ ، مـسـعـيـداـ حـدـيـثـ إـلـيـكـ ، حـقـ يـصـاصـعـدـ لـلـمـ إـلـيـ وـجـهـكـ ، إـذـ يـفـيمـ الجـوـ منـ حـوـكـ
بـأـصـدـاءـ هـذـاـ الحـلـيـثـ ، وـإـذـ أـنـتـ قـوـلـ لـنـفـسـكـ : شـدـ مـاـ هـزـاـ بـالـرـجـلـ ، وـشـدـ مـاـ نـالـ
مـنـ ! .. وـسـرـعـانـ مـاـ قـصـصـهـ مـهـتـاجـ الـخـاطـرـ ، لـتـحـبـ عـلـيـهـ ، كـيـ يـعـتـنـرـ إـلـيـكـ ، فـلـيـالـكـ
وـابـطـ الـجـائـشـ ، سـاـكـنـ لـلـشـفـ ، وـتـخـطـوـ مـاـ اـسـتـعـتـ أـنـ تـسـعـيـدـ مـاـ أـفـاظـهـ مـاـ يـعـيـنـكـ عـلـ
مـؤـاعـنـتـهـ ، فـلـاـ تـظـفـرـ بـاـ أـرـدـتـ ، وـتـرـاجـعـ عـنـ مـطـلـبـكـ ، وـكـأـنـكـ أـنـتـ الـمـطـعـرـ إـلـيـهـ عـنـ
تـرـعـكـ ، إـذـ تـلـوحـ لـكـ فـيـ ذـلـكـ الـوـلـتـ «ابتسامة الـجـيـوكـنـداـ» عـلـ وـجـهـهـ .. حـتـمـ أـنـ هـزـاـ
بـكـ ، وـفـالـ مـنـكـ .. وـحـتـمـ أـيـضاـ أـنـ لـمـ يـفـلـ ذـلـكـ قـطـ .. وـلـاـ غـرـابةـ فـيـ أـنـ يـجـمـعـ هـذـانـ
الـقـيـضـانـ فـيـ اـبـتـسـامـةـ صـدـيقـاـ «أـنيـسـ منـصـورـ» !

تقدـمـ لـهـ مـقـالـكـ لـيـجـيـزـ نـشـرـهـ ، فـيـقـرـرـهـ فـيـ تـرـحـابـ ، ثـمـ يـقـولـ لـكـ : مـقـالـ هـائـلـ !
وـيـثـرـ قـولـهـ فـيـكـ نـواـزـعـ الشـكـ وـالـيـقـيـنـ فـيـ آـنـ وـاحـدـ ، فـلـاـ قـدـرـىـ : أـمـقـالـ هـائـلـ فـيـ الـجـوـودـ
آـمـ هـائـلـ فـيـ السـخـفـ ؟ وـتـوـارـدـ عـلـ سـعـكـ جـمـلـهـ الـهـائـلـةـ ، فـيـعـرـيـكـ مـنـ هـوـهـاـ دـوـارـ !

إـذـ قـرـأـتـ لـهـ مـقـالـاـ فـيـ تـقـلـيـدـ شـخـصـ أـوـ تـقـيـيمـ كـتـابـ ، وـجـدـتـ نـفـسـكـ فـيـ مـنـاهـةـ ،
تـسـائـلـ نـفـسـكـ : أـمـادـحـ هـذـاـ النـادـ أـمـ قـادـحـ ؟ وـتـجـهـ عـقـلـكـ عـبـثـاـ فـيـ سـبـيلـ الـوـصـولـ إـلـيـ خـطـ
فـاضـلـ : هلـ المـقـالـ يـرـفـعـ لـلـشـخـصـ أـوـ الـكـتـابـ إـلـيـ الـأـوـجـ ؟ أـوـ هـوـ يـخـسـفـ بـهـ الـأـرـضـ ؟
وـلـوـ كـنـتـ مـنـ وـهـبـمـ أـنـهـ تـلـكـ الـحـاسـةـ السـادـسـةـ الـتـيـ هـيـ لـوـنـ مـنـ أـلوـانـ الـبـصـيرـةـ الـنـيـرةـ ، أـوـ
الـحـدـسـ الـكـافـشـ ، لـوـ جـدـتـ نـفـسـكـ مـنـ عـيـارـاتـهـ الـمـتـلـوـنـةـ أـمـامـ جـهـازـ كـهـروـيـ لـأـكـبرـ قـوـةـ
مـعـلـةـ لـأـيـلـيـثـ أـنـ يـصـدـيـ خـاـسـتـكـ السـادـسـةـ ، فـيـلـقـ عـلـيـهاـ بـضـعـ إـشـعـاعـاتـ ، كـيـاـذاـ هـيـ تـرـفـعـ
رـاـيـةـ التـسـلـیـمـ !

يـطـالـكـ الفـصلـ الـذـىـ يـكـتبـهـ فـيـ أـدـبـ أـوـ فـنـ أـوـ ضـرـبـ مـنـ ضـرـوبـ الـعـرـفـ ، فـتـرـغـ
مـنـ مـطـالـعـتـهـ وـقـدـ طـابـ لـكـ أـنـ تـرـاجـعـ نـفـسـكـ فـيـهاـ وـعـيـتـ : هلـ كـسـبـتـ جـديـداـ ؟ هلـ أـنـدـتـ
شـيـئـاـ ؟ وـلـاـ يـلـيـثـ أـنـ يـلـهـيـكـ عـنـ الـجـوـابـ شـعـورـكـ بـأـنـ وـجـدـانـكـ عـلـيـهـ مـاـ أـصـبـتـ مـنـ الـمـتـهـ ،
حـافـلـ بـمـاـ غـرـكـ مـنـ الـبـهـجـةـ ، وـفـيـ دـخـيـلـكـ تـلـعـبـ إـلـيـ الـزـيـدـ .

اجـمـعـ الـقـلنـ أـنـ «أـنيـسـ منـصـورـ» خـرـيجـ الـدـرـاسـاتـ الـفـلـسـفـيـةـ الـجـامـعـيـةـ قدـ اـسـتـادـ
مـنـهـ أـنـقـىـ بـمـذاـهـبـهاـ وـنـظـرـيـاتـهاـ وـأـعـلـمـهاـ جـانـبـاـ ، وـلـمـ يـأـبـهـ هـاـ جـمـيعـاـ ، وـلـمـ شـاتـهـ ،

متوجهًا إلى بناءِ حياةِ الفيافة ، فكانت فلسفته إزاحاً أن يرتوى بها ، ويروى منها قراءه الأباء .. فلقد رأى بنفسه أن يكون معلم فلسفات ، وعارض نظريات ، و محلل مشكلات ، وأبى على نفسه إلا أن يكون صانع مسرات .. انه « مخرج » لأفلام المباحث الفكرية ، فعمله يحمل من اسمه الأنثى أكبر نصيب .

من الدارسين من يجعلون قراءاتهم الدراسية كنظام الدين ، وترجمهم الوثيق ، ولكن « أنيس منصور » جعل كل ما قرأه في دراسته الفلسفية الجامعية نقطة بده وانطلاق .. فعن يخلق في مطالعاته ، لا يقنع بنوع ، ولا يقف عند حد ، يصوب ويصعد ، تارة يغوص إلى أعماق « أسطو » ، وطورا يعكف على « دلائل الخبرات » ، ولا ينسى نصيبه حيناً من تخصص تبارييع الهوى والشباب ، يقرأ المعرفة واللامعقول ، ويخوض في المعقول واللامعقول ، يمضي في ذلك مدفوعاً بالنزعة العارمة إلى تعرف المجهول في كل جانب من ذكر أو أدب أو فن ..

إن « أنيس منصور » من « قواصين » الكتب والمجلات والنشرات ، وكل ما خطه قلم على ورق .. يقرأ لك المآتتين من لصاحف ، ويسجن هضم ما قرأ ، ثم يعرض عليك خلاصاتها في سياق دائم .. وهو مرهف النونق في الاختيار والعرض ، لا ينتقد إلا ما يشغل ذهنك ، ويملاً سمعك ، من موضوعات الساعة وتضايا العصر ، فإذا عرض لك الماضي ربط بينه وبين الحاضر ، ونفي عنه جفافه ووحشته ، وأدفأ إليك قطوفاً من أطياط الثقافة والفكر في القديم والحديث .

ذلك كله ، جعل من « أنيس منصور » كاتباً صحفياً ، أصيل الثقافة ، رفيع الطراز ، ترسم فصوله وتعليقاته بالطابع الموسوي الذي يفكك على أكثر من جانب ويدور بك في أكثر من زاوية ، ولا يدعك إلا ملماً بأشنات الموضوع الذي يعرضه عليك .. .

« أنيس منصور » أسلوبه الذاق ، وهو أسلوب تتضح به شخصيته ، وأكبر عناصره تلك الجاذبية التي يجعل قارئه يحرص على أن يتبعه على تواصل الأيام ... كأنه يتابع رسالة موصولة الحلقات ، أو لكنه يوالي الاستئناع لقصص « ألف ليلة وليلة » التي لم يمل « شهريار » الاستئناع إليها في لباقي الطوال .. .

والجاذبية في أسلوب « أنيس منصور » تربّيك على أن تدور معه حيث يدور بقلمه فيما يتناول من الموضوعات ، وهو فيها يوماً من « الأحرار » وبهذا من « المحافظين » ، وبهذا من « العمال » ، وأنت في جميع أحواله يحدوك بطرافة عرضه ورشاقة تصويره على أن تقرأ له ، وتقتنع بما يقتضي به ، ولا تخرج آخر الأمر ، إلا وأنت راض عن نفسك وعنك ، مطمئن إلى موقفك منه ، وإن لم تكن تدرك عن أي شيء رضيت ، وفي أن موقف استقر بك المقام .

مفتاح الطابع الشخصي لكتابات « أنيس منصور » هو : « المفارقات » .. لا يكاد يخلو منها مقال أو حديث له ، بل إنها هي القالب التقليدي للكلمات اللاذعة أو الباسمة التي يذيل بها أحاديثه ، ويجريها بجري الحكم والأمثال .. وهو في هذا الطابع شبيه بـ

« أوسكار وايلد » ولابد أنه أعجب به في هذه الناحية ، ووافقت منه هو ... وليس من شك في أن « المفارقات » عنصر خلاب ، سلاح نفاذ ، إذ هي تقوم على أساس المفاجأة والإثارة ، وتنطوي على التكتم والسخرية والمفاكهه ، وفي هذا ما يشد الانتباه ، ويهز المشاعر ... وذلك ماجعل « أنيس منصور » مفتوناً بالخفاذه هذا العنصر الخلاب ، والسلاح النفاذ.

أما لغة « أنيس منصور » فهي جانب آخر من ابتسامته « الجيوكندية » ... حينما يطالعك بالفصيح من التعبير ، فيبهرك بما يتعجب من اللفظ ، وطوراً يتمدد متطرفاً اتخاذ كلمات عالمية متطرفة ، على حين أن مقابلتها العربية لا تعزب عنه ، ولا تستعصي عليه ... مرة تأخذنه « الجلالة » اللغوية ، فيستمسك باستعمال كلمة « المسمات » للتعبير عما يقال له « الرقوش » ، وحينما تجتمع به نزعة الالامبالاة ، فيجري قلمه بكلمة « صرمات » بدلاً من كلمة « الاسكاف » .

و « أنيس منصور » مؤلف كثير الإنجاب ... ولقد يتعذر على القارئ أن يلاحق كتبه التي يوازي إصداراتها ... وهو شغوف بانتخاب أسماء لكتبه تروعك بطرافتها ، فهو صاحب كتاب « ساعات بلا عقلوب » ، وكتاب « دادعاً أهل الملل » وغيره مما من الكتب التي تحمل لطافت الأسئلة .

ولا ريب في أن كتابه « حول العالم في مائتى يوم » من خير ما أنتجه ... ولعل إشارته إلى يرجح إلى شففي بالرحلات وكتب الرحلات ، حتى أن أتحمّت نفسى في هذا الميدان ، بما كتبه في وصف بعض السفرات التي قت بها فيما وراء البحار ...

وكاتب الرحلات الشاب لا بد أن تحوّلفر له المعيقة الملاحظة ، ورهافة الضفة ، وسرعة الاكتفاء والتقدرة على استبابة للراسخ والمعلم ، وبخاصة ما يدق منها على التذكرة العابرة ، وما يحصل منها بالعادات والسلوكيات وأوضاع الاجتماعية التي لا تخلو من غرابة ... وكل هذه المواقف تتجمع للأستاذ « أنيس منصور » وهو يضرب بصيه الأرض ، وينبع نظراته هنا وهناك ، فتصترق فهو لمبايا والمنبايا ...

وفي هذا الكتاب تحجل روح التطرف والمنادمة ، وفيه أوصاف شائقة المشاهدات والاعتراضات في أسلوب كبير التوابل .

ولـ مع ذلك الكتاب قصة :

الشريطة ، واستطاعت حجمه ، فتهبّت أن أشرع في قراءته ، كما استطعتم من قبل « الإلياذة » و « الأوديسة » ، متّهباً أن أمني في قرائتها بادئ بدءه . وتركـت كتاب « أنيس منصور » على مكتبي أخالـه النظر بين يوم ويوم ، لا أمد إليه يداً ... رحلة طويلة عريضة استغرقت مائتين من الأيام ، وأكثر من سـهانة صفحة من القطع الكبير وسـاعة وجدتني أتمـل بعض محـافـه ، والنظر فيما حـوتـ من صـورـ ، وبـقـةـ أـفـيـتـيـ كماـنـاـ تـهـبـتـ بـ طـائـرـةـ حـوـامـةـ « هـيلـوكـبـرـ » فـ قـلـبـ « هـنـجـ كـونـجـ » وسرـعـانـ ماـ طـوـتـنيـ زـحـمةـ النـاسـ فـ أـسـوـاـهـاـ وـ طـرـقـاهـاـ ، أـتـلـعـ إـلـىـ مـبـانـيـ الشـواـهـ

وأجب دروبها الملائكة بترائب السلح ، ثم أطعف على نوادها الليلية ذات الطابع البراق ...
ووقفت عيني على هذه الفقرة :

« الصيني رجل متفوق في عمله ، يفكر بيديه ، ويتأمل بمعدته ، لذلك الأدب
هزيل عنده . . . والموسيقى تدل على براعة الصينيين في شيء واحد ، هو أنهم استطاعوا
أن يجربوا عشرات القطط والغيران في آلاتهم الموسيقية . فالبيانو صر ام دام بين دجاجة
وراحها عشرات من الكتاكيت الصغيرة ، ضد عرمة كاسرة . . . أما القيثارة فهي تشبه
أفعى الله تكونت على صدر أحد الحيوانات تتضرر عصبة ورا أطلقه أحد المترجين . . . أما
بقية الأصوات الموسيقية فهي تشبه ضرب الحلل بالملague . . . ثم ضرب المستمعين بالجزم . . . »

ومضيت أثراً . . . واندمجت في القراءة . . . وكل جارحة في جسدي تبتسم !

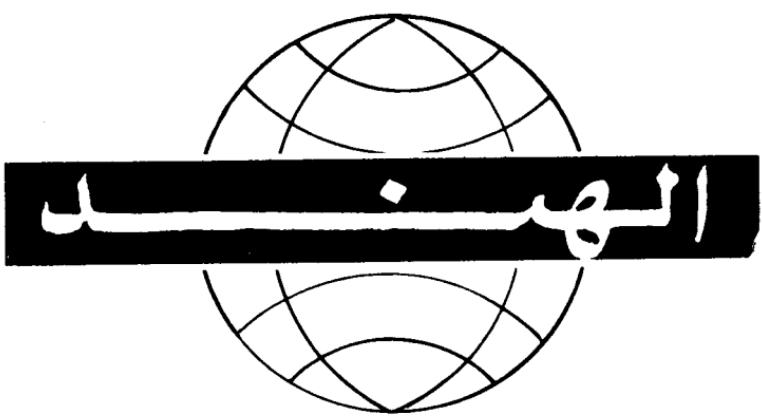
وأقبلت على « اليابان » . . . وأنست بینات « الجيشا » . . . وهبطت « أمريكا »
وزرت « هوليوود » . . . وتركت مدينة السينا والهوى والشباب . . . ونسى نفسي ،
حتى أيقظتني الصفحة الأخيرة من الكتاب ، فإذا بـ لم أثرا إلا شطر الكتاب الثان . . .
فعدت إلى الشطر الآخر من أول صفحة ، لاستكمل قراءة الرحلة .

ولقد أعادت رحلة « أنيس منصور » إلى ذاكرق كتاب « جول فرن » المسمى :
« الطواف حول الأرض في ثمانين يوماً » . . . والشيء الباعث على الحيرة هنا هو : « كيف
استطاع « جول فرن » إتمام طوافه في هذه المدة القصيرة ، وهو يتخذ وسائل المواصلات
القديمة ، من بوادر بدائية ، إلى فيلة بطينة انخطا ، إلى نعال غليظة توعق السير - على
حين استندت رحلة « أنيس منصور » أكثر من ضعف هذه المدة ، وهو الذي كان
لا يترك في تنقلاته طائرة إلا ليستقل أخرى ؟ . . . إن هذا حقاً لغز ، وما أحسب أن
حله بالأمر البسيط !

ليس كتاب « أنيس منصور » المحتوى على رحلته هو كل ما كتب من هذا اللون
فالحق أن فصوله ومقالاته ليست إلا رحلات متواصلة . سواء أكانت في آفاق الأرض
المحدودة ، أم كانت في العالم الفكرية التي ليس لها من حدود . . .

١٩٧٢/٦/٢٢

محمود تيمور



كل شيء وكثيراً

بعد لحظات في مدينة بعمباني ستشعر بأنك لست غريباً . . ولا أحد غريب عنك وإذا حاولت أن تتجه إلى أى إنسان ، فقد لا يتجه إليك . احتراماً لحربيتك الشخصية في الحركة ، وفي اختيار أى اتجاه يعجبك . وفي نفس الوقت من الممكن أن يتجه ناحيتك أى إنسان عن غير قصد . فتظن أن عدم القصد في الحركة والاتجاهات هي ظاهرة عامة . ولكن من المؤكد أن أحداً لا يصطدم بأحد . . على نحو ما يحدث عندنا في جميع شوارع القاهرة .

ففي القاهرة في استطاعتك أن تجد شللاً من الناس يتoshون بالعرض وعلى مهل ، كأن الشارع خال تماماً . وكأنهم وحدهم المشاة . ويدهشهم جداً أن يقوم واحد مثلك بتتبنيه الناس إلى أن هذا شارع عمومي . والدهشة التي ستراها على وجوههم ليس معناها أنك نبهتهم إلى حقيقة لم يكونوا يعرفونها . وإنما نبهتهم إلى أنك قليل الذوق فقط !

وفي الهند في استطاعتك أن تستغنى عن أذنيك . فكل الذي تسمعه لا معنى له . فهم يتكلمون لغات كثيرة ولهجات كثيرة جداً . حتى اللغة الإنجليزية وهي إحدى اللغات الرسمية في الهند ، لهم طريقة خاصة في نطقها . وعلى الرغم من أنهم يتكلمون الإنجليزية بشكل سليم ، من الناحية التحوية ، فإن اللهجة الهندية تجعلها لغة أخرى ويصعب عليك فهمها في كثير من الأحيان .

أنا شخصياً حاولت ذلك في الدقائق الأولى . .

وكان النتيجة أنني أدركت أن معرفتي بالإنجليزية أحسن بكثير جداً

من ملابس الهند . وبينك أنا زدتها شوية . لأن هناك هنداً بالملابس
قد تعلموا في إنجلترا !

ومعنى ذلك أنك من حين إلى حين ستعتمد على أذنيك في التفاصيم بهذه
اللغة الإنجليزية . . .

ولكن ستعتمد على عينيك أكثر . . .
فأنت ستملاً عينيك بأشكال وألوان لم تكن تخطر لك على بال . فالوجوه
غريبة جداً . وستلمع على الأقل في أي جهة تتجه إليها ، عشرين شخصاً فيهم
شبّ كثيف جداً من المهاجمان غاندي . وفي أول لحظة قد تتصور أن هؤلاء الناس
أقارب لغاندي . وبعد ذلك ستفهم أنه ليس من الضروري أن يكون الأقارب
متتشابهين إلى هذه الدرجة . ثم ستدرك بوضوح أنك في الهند . بلاد الديانات
والخرافات والملابس والأمراض والفقر والزهد والتسامح وغاندي والماعز والبقرة
والغزل وشركة إيرإنديا !

• • •

مطار مدينة بومباي غريب من أول نظرة . . .

فهو مطار كبير . والجو قائم أو خانق . فهو قائم بالوجوه الكثيرة التي
ازدحمت في كل مكان والتي تنظر إليك دون أن ترتكز عليك . فلست الوجه
الذي يستأهل الفرجة . فهناك ألف غيرك قد نزلوا من الطائرات قبلك ومعك
وسينزلون بعده .

أذكر أنني عندما نزلت من الطائرة وجدت سيدة تبتسم . ملامحها بيضاء
وملابسها بيضاء أيضاً . ولا أعرف إن كانت هذه وردة التي رأيتها في شعرها أو بقعة
حبر أحمر فاقع . ولكن من المؤكد أن ابتسامتها شخصية جداً . أي وجهة
ناحيتي . وظننت ، وربما كان هذا وهمأ أو غروراً مني ، أنها إحدى سيدات
السفارة . موظفة . سكرتيرة . زوجة أحد الموظفين الهنود جاءت لاستقبالى .
ولا حظت أن ابتسامتها مليئة بالوعود : وعد بأن تجده لي لوكاندة مريحة . وعد بأن
تقدّم لي فنجاناً من الشاي الهندي الذي على أصله . وعد بأن أركب في سيارتها
وأرى المدينة كلها في ساعات . وعد بأن أجده لديها عدداً من الكتب التي

تعطيني فكرة شاملة سريعة عن هذه البلاد الواسعة . . وعده بأن ترکز تظرتها على عيني أكثر ، وترکز ابتسامتها على ابتسامتي أكثر فأكثر . .

وخلجت من نفسي . . فقد كانت هذه السيدة لا تنظر إلى أحد . . وإنما تنظر في كل هذا الاتجاه . . ولا تبتسم لأحد ، وإنما تبتسم للمطار كله . . وللطائرات كلها . . وللسماء الواسعة . . كانت ابتسامتها لله . .

فقد كانت عمياً !

وكأنني أكفر عن هذه الخطية ، خطيبة النظر إلى سيدة عمياً ، تصورت أن ابتسامتها من أجلي ، ونظراتها من أجلي ، وأنها جاءت من أجلي ، رحت أنظر إلى الناس نظرة عامة . . وأبتسم لهم ابتسامة عامة . . كأنني أتفادى النظر إليهم ، وأتفادى الابتسامة إلى واحد منهم .

وف الزحام ، وكل شيء هنا في زحام ، ضاعت ابتسامي وضاعت نظري . . ورحت أتساند على أجساد الناس بعيني ، حتى لا أقع في دوامة الألوان . . ودوامة الروائح الغربية . .

إن أول شيء يواجهك وأنت نازل إلى بلاد الهند ، هي هذه الروائح . . إنها بحر آخر بالإضافة إلى بحر المطر . . وبالإضافة إلى بحر الرطوبة ، وبالإضافة إلى بحر الناس . . هذه الروائح لا تعجبك أبداً . .

لقد وهبني الله – الذي لا يحمد على مكرهه سواه – حاسة شم غير عادية . . فأننا أتعذب بها . لأنني أستطيع أن أشم رواحة أشياء كثيرة لا يمكن أن تهتدى إليها الأنف العادي . وكثيراً ما توهنت رواحة لا وجود لها . . تماماً كما يخلم الإنسان وهو مفتوح العينين . . فأنني هو الآخر عنده أحلام يقظة !

ولكن في الهند لم أعرف بالضبط ما اسم هذه الروائح : هل هي أطعمة أو بخور أو جثث موتى أو عرق . . وطين ومطر وأنواع أخرى من الطين لم أعرفها ، ومن الرمل لم نسمع عنها . .

وعرفت بعد ذلك أنه يوجد في بومباي أعشاب وأطعمة وأخنجرة تتصاعد من الأرض . . ومن الحقول ومن البيوت والدكاكين ، ومن الأجسام الحية والأجسام

الميّة التي تحرم بعض الديانات الهندية دفنه ، وإنما تركها للصقور والنسور تمزقها وتأكلها وتطير بها . . أو تطير ببقاياها . . أو من الأجسام التي أحرقها أهلها بالزيت والدهن .

أما الرطوبة الموجودة في الجو فهي عبارة عن ملايين من الستاير الدقيقة . أو ملايين الملايين من الخيوط الرقيقة التي تتعلق عليها هذه الروائح كأنها ملايين الملايين من الذباب والبعوض !

وعندما اقترب مني الجرسون طلبت إليه أن يتحقق لي هذه الأمينة الغالية : كوبًا من الشاي !

وبيدو أولاً كوب الشاي ليس أمنية ولا شيئاً غالياً عند أحد من الناس في الهند . ونعلم لهجتي هذه قد أضحكته – إن كانت ترجمتي صحيحة لهذه الابتسامة المعكوسة على وجهه – فقد كان يبتسم من جاذبيه حتى شفته العليا وربما كانت هذه ابتسامة . . وربما كانت محاولة لعدم الاكتئاب . .

وطبيعي جداً ألا يكون كوب الشاي شيئاً كبيراً في بلاد الشاي . . تماماً كما يطلب سائح أجنبي طبق فول مدمس في مصر ، ثم يتوقع من الجرسون أن ينحني له إجلالاً وإكباراً لأنه كلفه بشيء نادر !

فول في مصر ، وشاي في الهند ، وسمك في اليابان ، ونبيذ في إيطاليا ، ولحمه في أستراليا ، وأرز في أندونيسيا ، ليس بالشيء الهام !

وتذكرت ما فعلته في إحدى المرات عندما كنت أزور ألمانيا لأول مرة من حوالي عشر سنوات . فقد طلبت من إحدى الجرسونات في مدينة ميونخ أن تأتني بقطعة من اللحم المشوي – فضحت الفتاة بصوت مسموع وضحكـت أنا أيضاً ، ولكن لسبب آخر . فأنا ضحـكت عن طريق العدوى . فالجو يعدى بالضحك والمرح . . وقد أخفـيت بضمـحـكتـي هذه رغـبـتي الحـقـيقـيةـ فيـ أنـ أـعـرـفـ بعد ذلك السبـبـ الذي منـ أجلـه ضـحـكتـ هذهـ الفتـاةـ . هلـ أـخـطـأـتـ فيـ اللـغـةـ الـأـلـمـانـيـةـ ؟ لاـ يـمـكـنـ . فالـذـيـ قـلـتـهـ لاـ يـتـعـدـىـ عـشـرـ كـلـمـاتـ . ويـسـتـحـيلـ أنـ أـخـطـأـتـ فيـ لـغـةـ أـتـكـلـسـهـاـ منـذـ أـكـثـرـ منـ عـشـرـ سـنـوـاتـ عـلـىـ الأـقـلـ . يـسـتـحـيلـ أنـ أـكـونـ قدـ أـخـطـأـتـ . ولكنـ الذـيـ حدـثـ بـعـدـ ذـلـكـ جـعـلـنـيـ أـصـرـ عـلـىـ أـعـرـفـ مـاـ الذـيـ أـضـحـكـ

هذه الفتاة الحلوة . وإن كنت في ذلك الوقت لاحظت أن حلاوتها قد نقصت في نظرى قليلاً . فشعرها أكترت . وشفتها رقيقة جداً . ثم إنها تهش عادة وراء أذنها ، وليس سبب ذلك أنها تضع القلم هناك كثيراً ، تماماً كما يضع الفلاح خشب المحراث على عنق الثور أو البقرة ، ولكن سبب ذلك أنها لا تستحم .. وقد سجل أنني شيئاً يدل على ذلك عندما اقتربت مني ..

وقررت أن أسألاًها لأنها راحت إلى زميلاتها وروت شيئاً فضحكن ضحكاً عالياً..
وعندما عادت ومعها اللحم سأالتها بإصرار ، عن الذي أضحكها من كلامي .
ونجحت . ولاحظت أنها ليست أقل جمالاً كما تصورت . وإنما هي جميلة فعلاً .
 وأنها تضع الورود في ملابسها .. وروداً حقيقة ثم عصيراً لهذه الورود أيضاً .
والذى قالته لي هذه الفتاة جعلنى أضحك من الذي قلته لها ، وعلى الذي
قلته للبرسون الهندى فى مطار بومباى أيضاً . فقد قلت لها ما ترجمته بالعربية
هكذا : بالله ألا سمحت لي بقطعة من اللحم المشوى جداً إن كان هذا ممكناً .
طبعاً عباره سخيفه . ولغة أسفف . وإذا وجهتها أنت إلى أية فتاة فى مطعم
أو حتى فى «مسقط» ولم تضحك فهى غلطانة .. وإذا لم تمسك هذه الفتاة أقرب
ملاحة أو فوطة وتضعها فى فلك ، فهى ولا شك لا تعرف معنى الكرامة الوطنية .
فليست هذه لغة ولا لهجة !

وإنما عذرى أننى تعلمت ذلك فى الكتب .. علمونا أن نكون مؤدبين جداً .
على أمل أن ننسى كلمة « جداً » .. ونكتفى بأن نكون مؤدبين فقط !
وفهمت من الفتاة الألمانية أن هذه العبارة تكفى جداً : قطعة لحم مشوية
جداً من فضلك !

وفهمت أيضاً أنه لا داعى لأن أقول عباره « مشوية جداً » . لأن معنى ذلك
أننى أقطع كل أمل فى أن يستمر الكلام بيني وبينها .
فأنا إذا قلت لها : قطعة لحم فقط فسوف يدور هذا الحوار بيننا هكذا :

تقول هى : قطعة لحم ؟

فأقول : نعم

وتقول هى : مشوية ؟

فأقول : يمكن تكون مشوية جداً .

وفرد هي : مشوية جداً إلى أية درجة ؟

وأقول مندهشاً : هل عندكم درجات للمشوي أيضاً ؟

وتقول وهي تبادلني الدهشة بدهشة أخرى : وأنتم كيف يكون اللحم عندكم ؟

ليس على درجات ؟

فأقول وقد أحسست أن المناقشة قد أضيّف إليها طعم العسل : والله في مصر
أفضل أن تأكلها مسلوقة !

فتقرار هل : تحب تأكلها هنا مسلوقة ؟

وتسألني بلهفة وكان كرامتها قد جرحت ، إذ كيف توجد لحوم مسلوقة في مصر ولا توجد لحوم مسلوقة في ألمانيا . . وإذا كان عندنا نيل في مصر فعندتهم في ألمانيا أنهار مثل الراين وفروعه : إذا كنت تريده لحماً مسلوقاً فهو موجود . .
وكأنني انكسفت من أن أصبح تلميذاً لواحدة فنانة شاعت الظروف أن

تعملها جرسونة في مطعم : لاني سأكل أي شيء يعجبك أنت !

ولأول مرة أشعر بالامتنان للبعوضة التي لسعتني في قفالي . . فأعادتني بذلك إلى مطار بومباي لأمس بيدي قدح الشاي فأجاده أقل التهاباً من قفالي . وأعادتني إلى العبارة التي قلتها وأضحكـت الجرسون الهندي . وقد فهمـت فيها بعد أن ابتسمـةـ هذا الجرسـون ، تـعتبر نوعـاً منـ القـهـوةـ بالنسبةـ للـهـنـودـ الذينـ لاـ يـضـحـكونـ عـادـةـ .

فكـأنـ هـذـاـ الجـرسـونـ قدـ قـهـقـهـ بـجاجـيـنـ عـالـيـنـ جـداـ عـنـدـمـاـ قـلـتـ لـهـ :ـ بالـهـ أحـضـرـ لـىـ كـوـبـاـ مـنـ الشـائـيـ الـهـنـديـ الـمـعـتـرـ إـذـاـ كـانـ هـذـاـ مـكـنـاـ ؟

و واضحـ جـداـ أـنـ سـوـالـيـ سـخـيفـ ،ـ لأنـ هـذـهـ هـيـ بلـادـ الشـائـيـ .ـ ولـابـدـ أـنـ يـكـونـ الشـائـيـ مـتـوفـراـ ولـابـدـ أـنـ تـكـونـ مـهـمـةـ الجـرسـونـ أـنـ يـأـقـيـ بالـشـائـيـ ،ـ فـأـىـ وقتـ مـلـنـ يـطـلـبـهـ .ـ سـوـاءـ كـانـ الـطـلـبـ عـلـىـ طـرـيقـتـىـ ،ـ أـوـ عـلـىـ طـرـيقـةـ الـهـنـدـ .ـ وـفـقـيـقـةـ لـمـ أـلـاحـظـ هـنـدـيـاـ وـاحـدـاـ يـشـرـبـ الشـائـيـ خـارـجـ الـبـيـتـ .ـ وـيـظـهـرـ أـنـهـمـ يـفـضـلـونـ عـلـ الشـائـيـ فـالـبـيـتـ لـأـسـبـابـ لـمـ أـعـرـفـهـ حـتـىـ الـآنـ .ـ أـىـ حـتـىـ السـاعـاتـ الـأـوـلـىـ مـنـ وـجـودـيـ فـيـ مـدـيـنـةـ بـوـمـبـايـ !

وأشرت إلى الجرسون مرة أخرى أن يأتى لي بالصحف التي صدرت في ذلك اليوم وحرست بأدب واضح أن تكون باللغة الإنجليزية . ولا أعرف كيف استقبل الجرسون إشارتي إلى أن تكون هذه الصحف بالإنجليزية . لا أعرف كيف كان رد الفعل . خصوصاً بعد أن لاحظ الجرسون أنني لا أتقى في ذكائه . . فأشار الجرسون بيده ورأسه بما يدل على أن هناك رجلاً مختصاً ببيع الصحف . .

وذهبت إلى البائع واشتريت الصحف ، وقلبت فيها ، ولم ألاحظ شيئاً يلف النظر . . وربما الذي لفت نظرى هو وجود صفحات أدبية . . ولاحظت أن هناك مناقشات تدور حول الأدب الأمريكي . . ورأيت صورة لكاتبة فرنسا الشابة — التي كانت شابة — فرانسواز ساجان . . ثم رأيت بعض النكت لبرنارد شو . وهزرت رأسى كأننى شعرت بالاطمئنان على أن الأدب العالمى بخير . .
وخرجت من المطار لأنتمى في الشارع . .

وهبت عواصف من الروائح العنيفة . . ورأيت على الأرض بقعاً من الدم وعندما أطلت النظر إليها لم تكن دماً . . وإنما لونها أقرب إلى الدم البنفسجي قليلاً . . وهو اللون المعروف في الريف باسم « دم الغزال » . . ولم أشعر أننى في حاجة إلى أن أسأل أحداً عن سبب وجود هذه البقع . . إنه نوع من اللبان يسمونه — بان — يمضغه الناس هنا . . ثم يصدقونه على الأرض ، على عكس ما يفعله أبناء اليمن الذين يمضغون القات ، ثم لا يصدقونه على الأرض ، وإن كان هذا اللبان لا يصيب الناس هنا بالحمول ، لأنه عبارة عن لبان نباتي . . فهو مجموعة من الأعشاب وثمار الأعشاب يصنعونها أو يلقوها في ورق ، ثم يمضغونها . . وثمنها أعلى من ثمن اللبان الأمريكي ، وبائع اللبان يجلس على الأرض . . ومعظم الناس هنا أقرب إلى الأرض ، وفي الليل تجدهم مئات الآلاف نياماً على الأرض . . دون أن يفصل بين أجسامهم وبين الأرض شوال أو سجاد أو حتى مخدة . .
وبائع اللبان يبيعه في ورق شجر . .

والناس كلهم يمضغون اللبان . . بائع اللبان وأستاذ الجامعة والوزير . . واللبان مفيد للأستان ، تماماً كما نعتقد في الريف عندنا أن « اللبان الـدـكـرـ » مفيد للحلق أو مزيل للبلغم . . واللبان يغذى الأسنان ويصبغها بلون وردي . .

وربما استفادت شركات معجون الأسنان العالمية من هذا اللون الأحمر فوضعته في معجون الأسنان . . فمعجون الأسنان الفرنسي : إيماء ديمان لونه أحمر . . وهو يصبح اللثة بلون وردي . وكذلك معجون الأسنان الإنجليزي « سينال » به مادة حمراء تشبه الأحمر الذي يضعه الهند في هذا اللبان . .

وربما كان الغريب في أمر اللبان الهندي هو أنه يشبه اللبان الذكر لأنه معروض بصورة بدائية . . وفي نفس الوقت بشكل خام ، ومن الأفضل تصنيعه محلياً .

ولكن الذي يدهشك هو كيف يصدق إنسان محترم على الأرض ، ولا أعرف إن كان السبب هو شعوره بأنه لا يضيف إلى الأرض شيئاً بهذا البصق ، فهـى قدرة ، وإن كانت هذه البصقات أشبه ببقع في لوحة سريالية قائمة . . أو ربما كان السبب هو أن اللون الأحمر لا يخرج من المناديل مهما غسلوها — أذهلتني هذه الفكرة ..

وكانى توليت تعذيب نفسي في كل مرة أرى واحداً يمضغ ، فأظل طول الوقت أتوقع أن يصدق أمي على الأرض !
وكثيراً ما خاب أملـي ، فحمدت الله على أن أكثر من عشرين شخصاً لم يصدقوا أمـي على الأرض !

وبسرعة لاحظت أن الرجل الهندي رشيق . عـشوق القوام . وبين الهندـ رجال طوال . . كالعالقة . . ولاـحظت أن بشرـهم مشدودـة وإن كانت أـميل إلى اللـون الأـصفر . . وهذا اللـون خـليط من الأـصفر والأـسود ، ولـمسـة أـزرق . أما المـلامـح فأـورـبية . . جـرمـانية . . الشـفة رـفـيعة . . والـأنـف دـقـيق . . والـعيـنـان واسـعـتان . . والـفـك اـنسـيـابـي . . والـجـبـهـةـ متـوـسـطـة . . والـشـعـرـ أسـدـ فـاحـمـ نـاعـم . . كلـ الشـعـورـ سـوـدـاءـ فـاحـمةـ فيـ لـونـ الـلـيلـ فيـ الشـنـاءـ . . والـأـسـنـانـ مـسـتـوـيـةـ وـنـاصـعـةـ الـبـيـاضـ . . ولاـ تـوـجـدـ أـكـراـشـ .. كماـ أـصـابـعـ الـيـدـيـنـ رـفـيعـةـ كـأـصـابـعـ عـازـفـ الـبـيـانـوـ ..

ولـكنـ أولـ ماـ يـلـقـاكـ منـ الـهـنـدـ هوـ رـائـةـ غـرـيـبـةـ يـضـعـونـهاـ فـيـ الشـعـرـ ، وهـىـ مـسـتـخـلـصـةـ منـ جـوزـ الـهـنـدـ .

أماـ السـيـدـاتـ فـهـنـ أـمـيلـ إـلـىـ السـمـنـةـ . . وـخـصـوصـاـ الـأـرـدـافـ .. وـتـضـعـ كـلـ وـاحـدةـ نـقـطـةـ حـمـراءـ فـيـ أـسـفـلـ الـجـبـهـةـ .. تـدلـ عـلـىـ أـنـهـاـ مـتزـوجـةـ . . وـشـعـرـهاـ أـسـدـ جـداـ

تحسدها عليه كل نساء أوربا وأمريكا . . ووجهها مستدير . . وشفتا المرأة أميل إلى الامتلاء . . وعنقها مسحوب . . وأذناها صغيرتان . . والمرأة الهندية يجب أن تستر كتفيها وساقيها . . أما ما عدا ذلك فليس عورة . فهي مثلاً تكشف بطنها كلها . . كل الوسط وأسفل التهدين ، وأعلى العجز . وسرتها تبدو واضحة تحت الساري الهندي الذي هو قطعة واحدة من القماش الحريري . . قطعة واحدة ولا نعرف كيف تلفها حول نفسها . . الهنديات خارج الهند يراغعن التقاليد طبعاً ، فيخفين هذا الجانب من الجسم . ولذلك لا يمكن أن نرى هندية واحدة في شوارع القاهرة وقد عرت هذه الشقة الحرام من جسمها . . وإنما كانت فضيحة !

وهذه المنطقة من الهند منوع فيها شرب الخمور معاً باتاً . . لا على الأرض ولا في الطائرات ولا في السفن القرية من المبناء . . ومسموح فقط للأجانب وبترخيص خاص . وفي الفنادق فقط . أما في الأماكن العامة فستحيل . وعندما تهبط من الطائرة يسألوك رجل الجمارك إن كانت معك خور . فإذا كنت هندية احتجزوا الخمور . . أما إذا كنت أجنبية ، فيسمح لك عادة بأن تأخذ زجاجات الخمور معك !

وقد لاحظت منظراً غريباً وأنا مسافر في الطائرة الهندية إلى نيودلهي . . لقد ارتفعت الطائرة إلى طبقة عالية من الجو . وشعرت بالبرودة الشديدة جداً وطلبت من المضيف - فقد كان رجلاً لأن الدنيا ليل - أن ينقذني بريطانية . . ثم بريطانية أخرى . . ولكن هذه الأغطية لم ترحمي من الهواء البارد الذي يتسلل إلى قدمي من أرضية الطائرة وجوانبها وسقفها . وطلبت من المضيف الرجل أن يلحقني بأى كوب شاي ساخن جداً . وأى إيسبرين إن أمكن . وغاب ليعود معه كوب من مشروب بارد جداً لا أعرف طعمه . . وربما كان من المشروبات الغازية مثل الكوكا أو السيدر أو غيرها . . وعدت أطلب إليه كوباً من أى شراب ساخن . . حتى من الماء الساخن . . ويبدو أن الساعة كانت متأخرة ، وأننا على موعد مع الفجر . . ولا أعرف إن كانت الديوك توُذن في الهند . . أو أن الفيلة هي التي ترفع زلائمها ، ابتهاجاً بقدوم الفجر . . ولكن الرجل لم يعد . أو لعله انشغل عن بشئٍ ما .

وأشار جاري بأن آخذ لى « بقاً » من هذه الزجاجة التي في يده وكان تحت الغطاء والدم يضرب في عينيه وفي وجهه ، وأنفاسه اللاهثة تتعالى ، والزجاجة تكاد

تسقط من يده .. ولكنني رفضت أن أرتكب هذه الخالفة لقانون البلاد ، أيا كانت الأسباب . وحتى لو فكرت في أن أخالف القانون ، فليس بهذه الصورة ، ولا بهذه الزجاجة .. ولا يمكن أن يكون في هو الثاني ، وفم هذا الرجل المخمور هو الفم الأول .

وعندما اقتربالمضيفمنا ، سبب جارى زجاجته ، وأخفاها تحت الغطاء وتعالى شخيره .. واعتقد أن المضيف قد يعرف هذه الحيلة .. ولأنه رآها كثيرا . فلم يشاً أن بهم .. وأشار برأسه أنه هو شخصيا لا مانع عنده من أن أدق نفسي بجرعة من هذه الزجاجة ، وأنه سيبعد عنا وبذلك يتستر علينا . وناولنى كوباً من الشاي الساخن ..

وكل ما أحسست به هو حرارة الكوب ، وحرارة السائل الذى في داخله .. أما طعمه فأنا لا أعرفه . ولم أتبينه بوضوح ..

وبعد ساعات من الطيران المؤلم اكتشفت أن جارى قد ألقى بالزجاجة تحت قدميه . لقد أفرغها على الأرض بشئ من الامتنان ، فقد كانت الزجاجة صاحبة الفضل الأول والأخير في أنه اشتعل بالدفء ، وفي أنه نام .. وفي أن نومه كان شخيراً عالياً ، فأطار النوم من عيني ومن عيون أناس آخرين إلى جوارنا ! وفي ضوء النهار الذى تسلل إلينا من فوق السحاب . ومن تحت السحاب رأيت وجوه الناس بوضوح . لقد كان معظمهم من الهند .. وإن كان الرجل الحالس إلى جوارى فاتح اللون .. فهو رجل إسباني .. مع أن ملامحه لا تفرق عن الهند فى شيء ..

وقد بادرنى هذا الرجل بالكلام .

وكنت ألمع من النافذة المساحات الواسعة جداً للأراضي الهندية .. لونها أميل إلى الحمرة .. تماماً كلون قرع العسل .. أو في لرن المانجو الهندي .. والمساحات المختسدة واسعة ولونها قاتم .. ولم أكن أستطيع أن أتبين نوع النبات المزروع في التربة ..

وعرفت من الرجل الإسباني أنه سينزل في فندق اسمه « فونسيكا » وسألته إن كان لهذا الاختيار أى سبب واضح فأجاب بأنه يعرف هذا الفندق .. وأنه يتردد كثيراً على الهند ..

وأعرف أنني مصرى فهز رأسه وهو يقول لي : مصر والهند .. مهد الحضارة الإنسانية . فأنت لن تشعر بالغربة في هذه البلاد .

وأعرفت فيما بعد أنه كان محقاً في آرائه عن الهند .

فهم أناس طيبون جداً ، وفي غاية الاهلوء . وحياتهم للسلام قائم على شعور عميق . وكراهة الهند لإسالة الدماء تنبع من أعمق أديانهم وتاريخهم . فالزهد هو العنصر المشترك في كل الديانات الهندية .

ففي الهند أناس لا يأكلون اللحوم ، ولا المواد المستخرجة من الحيوانات فلا يشربون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا الجبن ، ولا يأكلون البيض ، ولا السمك ، ولا يذبحون الأبقار . لأن البقرة مقدسة ، وهي رمز الحياة والخصوصية . وهي حيوان سعيد في الهند . وسعادة البقرة واضحة في دلاتها ودلعها وتمخرطها في الشوارع .. في أحسن الشوارع . وفي دخوها أحسن المحلات دون أن يمسها أى إنسان ..

أما الثور فعل الرغم من أن أمه بقرة وجده بقرة ، وابنته بقرة أيضاً ، إلا أنه ليس محترماً . وتنطبق عليه أقسى أنواع القوانين والعقوبات . فهو منبوذ .. وفي الهند فئة من المنبودين عددها حوالي ٦٠ مليون نسمة .. ولا أعرف بالضبط عدد الثيران . ولكن هذا الحيوان المنبود يجر العربات ويحرث الأرض ويضر به الفلاحون على قفاه ليل نهار . واليد التي تصربه على قفاه ، هي نفس اليد التي ترتفع بالتحية لأمه أو بحدتها أو حفيدتها !

ولم ألاحظ أن هناك أية تفرقة جنسية عند الهند غير هذه التفرقة بين الثور والبقرة !

وظلت كلمات هذا الرجل الإسباني ترن في أذني وقتاً طويلاً ، وربما كان سبب النصاق كلماته في أذني أنه قالها بلهجة أعجبتني . أو أنه قالها في لحظة كنت أتبيأ فيها عقلياً لفهم الحياة في الهند . وإن كنت أخالفه في رأيه في الهند إذا بقاياها فلا حدود لهذه المعركة .

منه لم أعرف بالضبط ما الذي يقصد ، ولا أى أنواع الهند ، فأنا لم أر شجاراً في الهند ، لم أر اثنين قد أمسك واحداً منها في خناق الآخر لأنفه الأسباب كما يحدث في إسبانيا وإيطاليا واليونان وتركيا ، مثلاً !

ورويت لهذا الإسباني ما الذي أصابني عندما زرت إسبانيا ، وكيف أنني لأسباب تافهة جداً ، وجدتني في خناقة دامية مع إحدى بائعات الفاكهة في مدينة مدريد . مع أنني لم أتجاوز حدود الأدب ، إلا إذا كنت قد نسيت أن أقول لسيدة غجرية تبيع التفاح بالواحدة يا صاحبة العصمة !

وتشاء الصدفة أن يكون فندق « فونسيكا » هذا قريباً من سفارتنا بنيدولفي ..

وصاحب هذا الفندق رجل برتغالي : والبرتغال كانت لها مستعمرة صغيرة على الشاطئ الغربي للهند اسمها « جوا » ، وكلها من الهندول ولكنها نقطة ارتكاز قديمة جداً للبرتغاليين عندما رست سفنهم مئات السنين على ساحل الهند ؛ وقد استردت الهند هذه المستعمرة بعد ذلك ..

وكل موظفي هذا الفندق من أبناء « جوا » أيضاً ..

ولهم طريقة خاصة في الكلام . ولسبب غير واضح يفخرون بأنهم من هذه المستعمرة الصغيرة .

وفي هذا الفندق عدد كبير جداً من الأوروبيين . ومن الغريب أنني وجدت معظمهم من أبناء السويد والنرويج ، ولا أعرف ما الذي يبيعونه إلى الهند ، ربما كان الورق والحديد والصلب .

وقد أتعجبني هذا الفندق فقيه مطعم أوربي وفيه أيضاً أطعمة أوربية . وهم يحرضون على أن يقدموا الطعام الأوروبي . فثلا يقدمون الشوربة الساخنة ، مع أن الجو نار والعة . وهم حريصون على أن يقدموا المسطردة . والمسطردة والعة نار أيضاً .

والهنود يأكلون أطعمة حريفة . حرارة . . . وهم يضعون هذه الشطة أو هذا الفلفل على كل طعام وشراب . بل لاحظت أنهم يضعون ذلك على الحلويات . على السكر مثلاً . وعلى الحلوى الذي يقدمونه مع الشاي . وهذه ظاهرة موجودة في كل البلاد الحارة . فعلى الرغم من أن الشمس تتوالى وضع الشطة في كل شاعع ، وفي كل حجر وفي كل نسمة هواء إلا أن أهالي البلاد الحارة لا يكتفون بهذا القدر من الشطة الشديدة فيضيفون هذه الشطة النباتية .

ربما كان الشعب هو أن حرارة الجو تؤدي إلى كسل في الكبد . وإلى خمول

في الجسم ، فيحس أبناء البلاد الحارة بانسداد نفسيهم عن الطعام . وربما كان عدم الإقبال على الطعام الذي سببه الجلوس ، هو الذي دفعهم مع ذلك إلى الزهد ، فالزهد والتقصيف ليس شيئاً صعباً وليس شيئاً غير طبيعي . وإنما هو حالة تملئها الضرورة ؛ فالزهد يتمشى مع انسداد نفوس الناس عن الأكل والشراب ، فهم لا يريدون أن يجعلوا تفسفهم بلا ثمن . بلا مقابل . ولذلك يجعلون للإضراب عن الطعام معنى دينياً . ربما يجاز بهم الله عليه !

وأشهار هذه المناطق الحارة بالشطة والقليل وكل التوابل . هو الذي استدرج الأوربيين إليهم . وجعلهم يخوضون حروباً دائمة من أجل الحصول على التوابل ، حتى كانت التوابل تساوى وزنها ذهباً .

وغرف هذا الفندق ، مقلولة ليلاً ونهاراً وطبعاً . وكل فندق أيضاً تفادياً للحرارة والذباب والبعوض . وفي الهند وحدها مئات الأصناف من البعوض وفيها كل أمراض البعوض والذباب وفيها كل حشرة خلقها الله ، لها أصل وفصل ومعجبون وضحايا . ثم علماء يدرسون ويسجلون حركاتها . وفي الهند مراكز للأبحاث لها سمعة عالمية .

وفي الغرفة - غرفتي طبعاً - يوجد جهاز تكييف .. أو على الأصح جهاز تبريد هوائي . وهو يجعل درجة حرارة الغرفة باردة . ولكن يسمح في نفس الوقت بدخول الرطوبة . ولأن هواء الغرفة بارد طول الوقت كانت احتجاج إلى كثير من أكواب الشاي . ومع أكواب الشاي يدخل البسكويت والمربي والبيض واللبن والزبدة واللبن ، ونظارات لا أنها من عيون الحرisonات . فيها الكثير من القدح وفيها الكثير من الإشراق . وفيها أكثر من ذلك : خوف من هذا المتوجس الذي يأكل كل هذه الممنوعات دون أن تنطبق السماء على الأرض . أين عدالة السماء ؟ أين رحمة الأبقار ؟ أين غضب الآلهة ؟ كيف تسكت على أجنبني مثل يأكل البيض ولا تنهي الدنيا ، ويشرب اللبن ولا تزحف مياه المحيط فتغرق الهند من أجل هذه الخطيبة التي يرتكبها بنظام : ثلاث مرات في اليوم !

وبشعور من يريد أن يؤكد لهذا الحرison المسكين أن هذه ليست مخالفات لقانون السماء ، كنت أكل البيض وأشرب اللبن في حضوره ؟ فلا السماء وقعت ، ولا هو اقتنع !

ولا أدعى أبداً أن شجاعتي قد لازمتني طول الوقت .. أبداً . لقد تخلت عنى منذ نزلت أرض بومبای . لقد دخل جسمى الكثير من المخاوف ، لقد أصبحت أنا الخوف نفسه .. الخوف من ماذا؟ لا أعرف . الخوف من أن أصحاب بأى مرض؟ لا أعرف .. أى الأمراض؟ لانى خائف بصفة عامة .

وعلى الرغم من أن المستشار الصحفى فى سفارة الهند فى القاهرة قد أفهمنى أنه لا داعى للخوف . فهذا الخوف إهانة له .. وإهانة لخمس ملايين المتود يعيشون فى سلام ومعظمهم لا يعرف المرض ..

ولكن زغبى فى أن أعرف ، هى التى تغلبت على خوف . فأنا أريد أن أعرف بأى ثمن .. أريد أن أمشى فى شوارع الهند وحواريها . وأن المس أبقارها وأن أملاً أنى بيخور معابدها .. ما الذى يمكن أن يحدث؟ لا شئ!

إن الدكتور فاوست الذى تحدثت عنه أساطير العصور الوسطى باع نصف عمره لكي يعرف ..

إن حواء هبطت من السماء إلى الأرض . ووضحت بالسماء وجنة السماء ، لأنها أرادت أن تعرف .. أن تعرف طعم التفاحـة . أو طعم المعصية فقررت أن تعرف . فكأنها اختارت المعرفة ، بأى ثمن . ولو كان ذلك هو النزول إلى الأرض . ولو كانت تلك الأرض هي الهند !

لاني لا أبالغ في قيمة ما سأعرفه ..

ولكن الذى جعلنى أبالغ هو خوف الشديد من كل مرض . وسبب خوف هو أننى أجهل الطب . وسبب خوف أيضاً أن الأمراض قد لازمت حياتي . ولا أقول لازمت جسمى . فقد رأيت المرض في بيتنا .. لم يبرحه .. وحتى الآن .. وقد رأيت الأطباء يدخلون ويخرجون .. يدخلون وجوبيـنا ملائى ، ويخرجون وجوبيـنا فارغة . وجوبيـنا ليست ملائى أيضاً . فالذى كان يملأ جوبيـنا الصغيرة ، لا يمثل إلا ركناً هزيلـاً من جوبيـهم الكبيرة !

وعندما ذهبت إلى سفارتنا ، جلست إلى شاب لطيف من موظفى السفارة وراح يحدثنى عن حياته فى الهند ثم كشف لي عن عنقه . لقد كان مليئاً . وقبل أن يغطى عنقه مرة أخرى أشار إلى أن عنقه ملتبـب منذ أربع سنوات ..

وعندما غصت في مقعدي وأسأله عن السبب أجاب بأن مياه الهند مليئة بالطفيليات . وأن الأرض تختلط بالمستنقعات والمحارى وأنه لا يمكن لإنسان أن يشرب الماء في الهند إلا إذا كان مغلياً .. ولا أن يستحم طبعاً !

وهنا أحسست جهلي الشديد بطرق غلي المياه وتطهيرها . ومررت على كل موظفي السفارة أسألهما ما الذي يفعلونه كل صباح . كيف يشربون ؟ كيف يغسلون وجوههم وأجسامهم . وإن كانت الإصابة بمثل هذا المرض الجلدي تظهر بعد أيام أو بعد أسابيع أو بعد سنوات .. ثم كيف تكون الوقاية منه .. وكيف يكون العلاج إذا لم تتفع الوقاية ؟

وعرفت زجاجات الكولونيا .. وزجاجات الكحول .. تماماً كما كنت أفعل في باريس .

فالفندق الذي نزلت به في باريس في الحي اللاتيني كان اسمه «نيودلهي» - أيضاً ! وهو بالقرب من ميدان سان ميشيل . وليس بهذا الفندق دش ولا حمام .. ومعظم الفنادق والبيوت في باريس ليست بها حمامات . وإنما عليك أن تحمل ملابسك وتستحم في أحد الحمامات العمومية . والحمام العمومي يبعد عن اللوكاندة مئات الأمتار .. أو إذا كنت كسولاً ، ولابد أنك كذلك ، ما دمت في بلاد حارة وذهبت إلى باريس في الربيع أو في الصيف فعليك بزجاجات الكولونيا .. والزجاجة كان ثمنها عشرة قروش . ثم هات قطعة من الأسفنج وبلّها .. وامسح جسمك كله .. كل يوم . وعلى فكرة معظم رجال ونساء باريس لا يعرفون الماء . ويقال إن هذا هو الشيء الوحيد الذي تعلمته محمد عبد الوهاب من فرنسا لأنه يستخدم الكولونيا في الاستحمام !

ونصحني بعض الأصدقاء من غير الهند طبعاً ، أن ألتقي بالكحول على جسمى بعد الاستحمام بالماء الساخن . ونصحوني أيضاً بأن أحلق لحيتي بعد الحمام حتى لا تتسرب الطفيليات إلى دمي ، خصوصاً أن دمي يسيل بعد كل مرة أحلق فيها .. وهنا أدركت كيف أن إطالة الحياة في الهند حكمة طيبة .. فهم يهربون من الطفيليات الموجودة في الماء بأن يتركوا شعرهم يطول ولا يسيلون دماءهم بأمواس الحلقة . بعض الهند فقط من طائفه السيخ هم الذين يفعلون ذلك .

وعددهم حوالي مائة مليون نسمة . ثم يضع هؤلاء الشيخ سيفاً إلى جوار الحية دليلاً على أنه ليس بسبب البخل أطالوا الحاهم . والدليل على ذلك أنهم وضعوا آلة الحلاقة إلى جوار الشعور الملفوفة في شبكة تشبه الشبكة التي تضعها المرأة عندنا ، قبل ذهابها إلى الحلاق ، أو إذا كانت على البلاج وتخشى من الهواء — هذا إذا كان شعرها ناعماً . أما إذا كان خشنًا . فهذه الخشونة تجعله في مأمن من الهواء طبعاً !

ونصحني آخرون بأن أطيل لحيتي . . . وإطالة الحياة في الهند شيء غير ملفت . وربما ظن بعض الناس أنني مجامل للهند . أو أنني توطنت . . تماماً كما يفعل المستشرون الذين يزورون البلاد العربية .. أو كما يفعل الفنانون في باريس . !

وأطلقت لحيتي أسبوعاً . وبذلت أشعر بالوخز تحت الشعر . وخشيت أن أهرش . وتفاديت الهرش بالفعل لأن الهرش سيؤدي إلى ظهور دمامل . وأخشى أن تلتهب اليمامل وبذلك تصبح أكثر تعرضاً لأى مرض جلدي . وبإرادة من حديد ، لم أهرش مطلقاً . ولكن في يوم ضبطت نفسي متلبساً بالهرش أثناء النوم ! وحلقت لحيتي بالقص . . ثم بالموس . .

وبعد ذلك كنت أستخدم الكولونيا ، فكانت تلسعني وتكويني كأنها مليون موس حلاقة .. وكأن هذه الأمواس جميعاً نوع من ماء النار المتجمد !

ولاحظت في الصحف الهندية أنه لا يوجد إعلان واحد عن أمراض الحلاقة . وهذا طبيعي . ولم ألاحظ أيضاً أي إعلان عن صابون الحلاقة . واستنتجت من ذلك أن هناك أمواساً أخرى يصنعونها في البيوت . وأن هناك نوعاً من الصابون يصنعونه في البيوت . أو ربما كانوا يلجأون إلى استخدام بودرة نباتية . تزيل شعر الوجه واللحية . والشارب أحياناً . . ووجدت هذا النوع من البودرة . وخوفي من الجروح ومن أمواس الحلاقة ومن الطفيلييات ، جعلني أفكر في استخدام هذه البودرة . ولو لا أنني خشيت في آخر لحظة أن تكون هذه البودرة آثاراً مؤذية لا أعرفها لاستعملتها !

* * *

وفي يوم جلست بغرفتي المختوقة ..

ولابد أن أصف شكل الغرفة لتعرف . كيف جلست . الغرفة بها سرير .
طبعاً بها سرير . والسرير بالضبط تحت جهاز التكييف . ولو نمت والجهاز
مفتوح فسأقوم من النوم وأنا لرح ثلج . ومعنى ذلك أنني لن أقوم . وإذا
أقفلت جهاز التكييف ونمت . فمعنى ذلك أنني سأقوم من النوم مسلوفاً ،
أي غارقاً في شوربة من العرق .

وكان الحل هو أن أغير وضع السرير .

وغيرت وضع السرير والمقاعد والمناضد والأباجورة .

على كل حال جلست أمام المنضدة في نفس الوضع السابق ..

ووجدت أن عواصف من جهاز التكييف تلسعني في جنبي .. فأدرت
المنضدة والمعد إلى وضع آخر . . وضغطت على الجرس . . وبعد دقائق جاء
المadam لأطلب منه أن يعاونني على إصلاح جهاز التكييف وأن يقفل الحنفية
التي ينزل منها الماء بصورة تضايقني وأن يربط مفتاح النور لأنني أخشى أن توؤدي
هذه الرعشة الموجودة في اللعبات إلى عمل ماس وإحراق الغرفة وتعطيل جهاز
التكييف .

وبدون أن يقول لا أو نعم أو حاضر أو ربما أو حتى يهز رأسه ضرب الباب
وراءه واختفى .

وبعد دقائق جاء نفس الجرسون ومعه ثمانية أشخاص . واستوضحته عن
سبب مجئ كل هؤلاء الأشخاص فقال لي أنهم سيصلحون كل ما في الغرفة :
واحد لإصلاح التكييف والثاني لإصلاح النور والثالث لإصلاح الحنفية والرابع
لإصلاح المعد الذي أجلس عليه فقد شكا منه زبون سابق ونسيت إدارة الفندق
أن تصلحه .. أما الخامس الذي جاء بعد ذلك فهو يريد مجموعة من طوابع بريده
مصر ! .. أما السادس فهو أحد سعادة السفاره .. والسابع هو سائق التاكسي
الذى نسيت أن أدفع له الأجرة .. والثامن الذى جاء بعد ذلك فهو صاحب
التاكسي جاء يسألنى كم دفعت للسائق لأن العداد كان مكسوراً !

وهذا هو أول استقبال رسمي قابلته به نيودلهي عاصمة الهند العظيمة بسكانها
الذين يبلغ عددهم ٤٩٠ مليوناً وبضع مئات من الألف ! .

● بِسْمِ اللَّهِ ..

سأدعوك إلى مطعم «موتي محل» أشهر المطاعم الشعبية في الهند . . المطعم صغير . وعلى بابه يقف أحد المندوبين في درجة حرارة تشبه درجة حرارة أسوان في الصيف . ووراء باب المطعم توجد درجة حرارة أقل من ذلك بثلاثين درجة . عدد المزاحض قليل . الإقبال شديد جداً على هذا المطعم .

لا تحاول أن تقرأ قائمة الطعام . فغيرك أشطر . ضع إصبعك على أي شيء واطلبه من الجرسون .

أنت لا تعرف ما الذي ستأكله . . كثيرون مثلك حاولوا وفشلوا . سألني ناك «الجرسون» بأكواب من الماء . نصف باردة . فهم في الهند لا يشربون الماء المثلج . إنهم يواجهون الحرارة القاتلة .. بشرب الشاي .. والشاي فيه سكر قليل .. وهو طبعاً أحسن من أي شاي تشربه في القاهرة في أي مكان . شاي له ورق له طعم ولون ورائحة . . ما علينا !

وبعد الماء ستحضر السلطة . أشكال وألوان . كثيرون من الأجانب عندهم حب استطلاع شديد . أكلوا من كل شيء .. وفي نهاية كل صنف ينفحون من النار .. من الشطة يعني !

هناك أرز به قطع من الفراخ .. لا بأس ..

وهناك مكرونة بها أشياء ، أغلب الظن أنها جبنة ومعها بعض الطماطم . وطعم آخر لا يمكن أن تعرفه .. ومن الصعب عليك أن تعرفه .. لأن كل

ما تستطيع أن تقوله للبرسون : إيه الرائحة دي ؟

لا داعي فقد تكون هذه هي رائحة الجرسون نفسه . ويصبح سؤالك بائساً جداً . ولكن بعد التجربة والرمرة في الأكل ، وجدت أن أحسن طعام هناك هو « التندورى » وهذه هي الكلمة الهندية الوحيدة التي عرفتها بعد ساعة من وصولي إلى المدينة ، إنها فرخة كاملة .. فرخة شكلها غريب . مصبوغة باللون الأحمر ، أحمر فاقع .. لقد غمسوها في هذا اللون ٢٤ ساعة . والفرخة مشدودة ممطولة .. جناحاها طويلاً ورجلاتها طويلة .. وعلى ظهرها أثر كدمات . أو آثار ضرب عنيف .. هكذا تصورت .. فقد وجدت هذه الفرخة المشوية بها علامات عميقة في جسمها . وتخيلت أنهم في الهند ينطلقون وراء الفراخ ويضربونها حتى تموت ثم يرمونها في اللون الأحمر . وبعد ذلك ينقلونها إلى النار ، ثم إليك !

ولكن الأمر مختلف عن ذلك وقد أخطأتك في ظني . فهي فرخة عادية . ذبحوها . ثم صنعوا بها هذه العلامات العميقة في جسمها . بعد أن سلخوها تماماً كالأرانب . وهذه العلامات تسهل عملية وصول النار إلى جسم الفرخة ، ثم وضعوا فيها بعض التللف أو بعض الشطة . قليلاً جداً .

أما فيما عدا هذه الفرخة فلا يوجد طعام يستحق الذكر في الهند كلها .. هذه الفرخة هي العلامة المميزة للمطبخ الهندي .

نسيت أن أقول لك إنه لا داعي لاستخدام الشوكة أو السكين .. بيده أحسن وأسهل .. ولست وحدك الذي يفعل ذلك .. فكل الناس حولك يأكلون بهذه الطريقة .

ومع هذه الفرخة يقدمون لك نوعاً من الخبز يشبه الرقاق وهو على هيئة أوراق الشجر الكبيرة . وإنم هذا الخبز « بان » وطعمه لذيد .

وبعد ذلك أطلب أى فاكهة طازجة .. فهذا أفضل وأحسن .. المانجو هنا ثمن الرطل منها يساوى قرشين أو أقل من ذلك . فهي أرخص وأكثر أنواع الفاكهة هنا .

بقى شيء هام . انتظر سيقدم لك الجرسون مجموعة من الحبوب واللحجارة مد بيده إليها . لا تخاف . إنها مجموعة من البنوس والحبان والمستكة وقطع

من سكر النبات . . ونباتات أخرى لم أعرفها حتى الآن ولكن سأسأل عنها فيما بعد . تستطيع أن تضع منها ما تشاء في فلك . يقولون إنها تساعد على الهضم .. وأنت حر في أن تأخذ هذه الأعشاب المهمضة هنا في المطعم أو أمامه .. فأمام المطعم يجلس رجل يبيع اللبن .. نوعاً ممتازاً من اللبن . هذا اللبن عبارة عن خليط كبير من أعشاب وأملاح ونباتات وبهارات . تصل إلى العشرين .. ويوضعها لك في ورقة شجر . وعليك بعد ذلك أن تمضغها . سيكون لونها أحمر .. سيمتلئ فلك . ستعمل كابلجمل تماماً .. تمضغ وتنفس . وإذا ظهر شيءٌ عن بين أسنانك أو نزل على شفتيك فلا تمسحه . فالناس حولك كذلك .. انظر إلى نفسك في المرأة عندما تعود إلى البيت . لا تخف من نفسك ستبدو كأنك أكلت إنساناً بدمه .. وفي استطاعتك أن تبصر على الأرض وأمام الناس . وإذا رفعت رأسك إلى أعلى بحركة عصبية وظن الناس أنك محافظ العاصمة فلا تكذبهم . فهو يفعل مثلك تماماً !

وستكتشف أن اللبن ليس أكلة شعبية أو لبناً شعبياً . أبداً فعنده غال .. يصل إلى روبيه . والروبيه ثمنها حوالي سبعة قروش . . . والناس هنا يجدون متعة في مشاهدة باائع «اللبن» وهو «يجوح» هذه المضجة ويختار لها الألوان البيضاء والحراء والصفراء والسوداء .. وكلما تأخر البائع في عملية الخلط كان معنى ذلك اهتماماً خاصاً بالزبون ..

وإذا لم يكن يعجبك هذا . . «اللبن» الهندي فإليك أى لبان آخر لا قيمة له كاللبن الأميركي أو اليوناني . . وعليك أن تواجه احتقار الناس إذ كيف تبلغ بك الغباوة هذه الدرجة فتصور أن هناك في الدنيا لبناً أحسن من اللبن الهندي ؟ ! وعلى فكرة - أنت طبعاً أعجبك الأكل . إنه لذيد وغريب . . وهو أكل أرستقراطي . . بق شيء مهم من هذا كله . ويوسفني أن أقوله لك . ولكن الصراحة لا عيب فيها . . عليك أن تضع يدك في جيبيك وتدفع حسابك . . فتحن في الهند . ويجب أن تفعل كما يفعل أهل الهند . فلا أحد هنا يدعوه أحداً إلى الغداء أو العشاء ..

فادفع الحساب لنفسك !

مرة أخرى ..

المنظر : محل جايولد في نيودلهي . المحل ضيق والأضواء خافتة وفه
تكييف هواء . وتدخله أحسن العائلات ..

الزمن : الساعة الخامسة بعد الظهر . الأمطار شديدة جداً . والحرارة
مرتفعة خانقة ..

في اللحظة التي أدخل فيها المحل .. أرى فتاة تبسم وأحبيها فترد التحية .
وأفسح لها الطريق فتتقدمي .
وأشير إلى أحد المقاعد .. فتجلس ..

ويجيء الجرسون فأسئلها ماذا تريدين فتهز رأسها .. فأقول للجرسون : تعال
بعد شوية ..

وأقترب منها قليلا دون أن أسألها عن شيء ..
أنا : تعرفي أن ملامحك شرقية خالص .. مش كده !
هي :

أنا : طبعاً أنت شرقية ، أمال يعني هي الهند دى غريبة .. أما سؤال باين
صحيح .

هي :

أنا : تعرف أن البنات في بلدنا لما الواحد يعاكسهم يعملوا زيك كده ..
برضه ما يردوش ..

هي :

أنا : قال إيه دلال .. وقال إيه تقل .. على كل حال بعض الرجال بيحبوا
الدلال ده . لأن هذا يغري الرجل أكثر . يخليه يحس أنه أمام حاجة صعبة ..
ولأنه لازم يعمل مجهد كبير علشان يكسبها .. يخطفها .. لأن الرجل بطبيعة
صياد يحب يمسك بندقية ويضرب . ويحب يخطف البنت من أنياب الأسد ،
ويمكن مفيش هناك لا أسد ولا أرب .. والبنت عارفة الحكاية دى .. تلاقتها
هي كمان تسوق فيها .. مش بس كده . وأول ما تعرف أن الرجل متعلق بيها ..
تقول له : فلان خطبني .. وفلان بيتكلم .. وفلان بيتقدم .. يعني هي عاوزه

تخلق له أكثر من أسد وتحط نفسها بين أنبياهم . وعليه هو بقى أن يشدها من هذه الأنبياء الوهمية .. إشمعنى العرسان والخطاب ما ظهروش إلا دلوقت ؟ كانوا فين قبل كده ؟ المهم أن البنت عاوزه تخلق صعوبات للراجل .. وأكثر من كده .. تروح تكلمه عن أهلها وأصلها وعن أخلاقها . وتحط نفسها فوق فوق .. يعني فوق جبل علشان يخنى ورها .. يطلع لها الجبل كمان .. برضه مش عاوزه تردى ؟ زى بعضه .. أنا حافرخص إنك مش موجودة . وأكلم نفسى .. أنا عاجبني الكلام .. الله يا واد ليه الحكم وليه الكلام اللي زى الجواهر اللي بتنزل من بقلك .. برضه مش عاوزه تصحىكي ؟ .

هي :

أنا : وفيه حاجة بتعملها المرأة .. تتظاهر بأنها خلاص وقعت في دبابيد الرجال .. ويشعر الرجل بأن المرأة تخلت عن دلالها وتقلها . وأنها لم تستطع أن تقاومه .. وينبسط وكرشه يكبر . ويقول يا واد مفيش منك . طبعاً الرجل حمارمنا لأنه مش فاهم ليه الحكاية .. ولو كان الرجل ياخد باله من الصياد لما ييجي يضرب بالرصاص يلاحظ أن الرصاصة عندها تخرج من البنديقة أحياناً تكون شديدة للدرجة أنها تخلية يقع على الأرض . ولكن في نفس الوقت تكون الرصاصة قد أصابت الفريسة .. فاللى يشوف الصياد وهو واقع يتھياً له أن الرصاصة جت فيه هو .. في حين أنه هو القاتل .. وكذلك المرأة اللي يشوفها واقعة ومستسلمة كده . يتھياً له إنها هي القتيل مع أنها القاتلة . برضه كلامي مالوش معنى ؟ طيب جامليني .. قولي كده حاجة تدل على أن إحنا قاعدين مع بعض .. بيبي وبينك أنت أكثر منا كلاماً .. أنا لم أجده هنا في بيت واحد عندكم راديو ولا حتى في سيارة ولا في مكتبة .. وعرفت الحقيقة وهي أن الهندود كل واحد قد بلع الراديو اللي عنده .. فالراديو اختفى من البيت وظهر على ألسنتهم .. علشان كده كلامكم كثير .. باينه النكتة دي ؟

هي :

أنا : .. طيب اصصحى .. أجبرى بخاطرى .. أنت كده وحشين مع الأجانب .. برضه مش حتتكلمى .. هزى رأسك زى أنا ما عملت للبرسون ..

اغمزى بعينك .. طيب اعطسى . طيب خدى نفسك انفخى بمناخيرك زى كلب البحر . على فكرة احنا عندنا أكبر جينية حيوانات في الدنيا .. وفيها حيوان زيلك . ساكتة زيلك . حيوان زيلك . بلاش حكاية الحيوانات دى ..

هي : . . .

أنا : يعني عاوزه تفهميني أن المند مع الأجانب بالشكل ده ؟ !

هي : . . .

« ويجيء الجرسون يسأل ماذا نريد »

أنا : اتنين حاجة ساقعة .. دا حتى انت أخذتم البرود من الإنجليز مع أن بلادكم نار في نار .. الهواء نار .. والشمس جهنم .. والأرض والعة .. والشطة والعرق والرطوبة .. حاجات تخلى الواحد يتجنن .. أنا كنت أفهم إن لما واحد ييجي يعاكسك زبي .. طبعاً دى مش معاكسه ولا حاجة كنت تيجي وآخداه ..

هي : . . .

أنا : .. بالخضن على طول .. برضه مش عاوزه تصبحكي خاييفه من الناس .. إنت عارفه كام واحد شايفك دلوقت .. مائة واحد .. كلهم بيقولوا عليك كلاماً لا يعجبك .. كلهم بيقولوا ليه البت الباليخه دى .. ليه الحجر ده .. ليه البقر ده .. مش عاجبك ده سبيبه .. قولى له يسكت .. إنما على رأى المثل : لا أنا عاوزك ، ولا قادر على بعدهك .. إنت مكسوفة مني ؟

هي : (ضحكت وهي تنظر إلى ناحية من المطعم) ..

أنا : (نظرت فوجدت رجلاً يكرش ومعه فتاة صغيرة) اسمعى إنت عارفة أنا قابلتكم راجل في بلدكم دى .. مثاث من الوزراء والسياسيين والصحفيين والأدباء والرهبان والسواقين .. ولم يضايقنى إلا رجال السلوك الدبلوماسى .. قعدتهم تعرف .. تصورى إنت إإنك قاعدة مع راجل طول الوقت يقول لك : ربما .. قد يكون .. فيما أعتقد .. من المحتمل .. من المفروض .. كلام بالشكل ده .. يقرف ولا لا .. طبعاً يقرف .. وأنا لما أشوف واحدة زيلك وأرى نفسي عليها كده .. من غلبي .. وحياتك من غلبي كل الكلام ده .. يعني كوييس كده إاني

أتكلم طول الوقت وإنك ساكته . برضه من غلبي . والله . ما شفت واحدة حلوة
من نهار ماجيت البلد دي .

هي : . . .

أنا : يا نايمين قوموا اسحروا . يا نايم وحد الدائم . يا نايم نامت عليكى
حيطة . يا بت ردى . يا بت انطقى . نشفت ريق الله يشف . طريقك
في البلد إللي غرقانة مطر وطين دى . . .

هي : . . .

أنا : شوف بي .. أنا حاغنى لك بشويش . مش عاوزه تسمعى أغاني
بلدنا . والله فيه شبه كبير من أغانيكم . أقول لك إيه . أقول لك : عطشن
ياصبايا . أقول لك النحل ياهوه . أقول لك واحد اتنين . . خمسة في ستة
بتلاتين يوم . اسمعى أغنية يقولها الناس في الفلاحين عندنا : يا عم جوزة
من الهند مركب عليها غاب . ومدندهش بالذهب وجمعة الأحباب . أنا خت
منها نفس والعقل مني غاب . يا عم جوزة من الهند . الله الله .. ياسلام يا واد .
ياسلام . اسمحى لي أبدى إعجابي بنفسى وكمان حاسقف لنفسى . التسييف
هنا في بلدكم مالوش المعنى اللي عندنا .. أقول لك حكاية بي .. طيب قولى أيوه .

هي : . . .

أنا : زى بعضه كأنى باتكلم فى الراديو . أحكي لك حكاية . أول
ما جيت البلد دي . ضربت الجرس ما جاش الجرسون . مرة واتنين وثلاثة ..
وبعدين زهقت . فوقفت قدام باب الأوپة ولقيت جماعة من الجرسونات
وأقفين فقعدت أسفف لهم . وتلتفتوا جميعاً ولكن ولا واحد منهم اتحرك .. وإنما
راحوا يضحكون وأنا مندهش جداً . أسفف وبرضه عاملين بيضحكوا ..
مش فاهم أنا . وأخيراً ناديت واحد منهم . ولما دخل الأوپه قلت له : إزاي
يا أخى أنا عمال أسفف ومفيش واحد منكم راضى يتحرك . فقال لي : احنا
كنا فاكرين حضرتك حر قص . لأن السقف عندنا في الرقص بس . ولكن مش
علشان تنادي الجرسون . وعلشان كده احنا وقفنا مبوطين منتظرین نشوف
رقص بلدكم ! .

هي : . . .

أنا : الله يوجع دماغك .

(وأخرجت من جبى بعض التقدود ووضعتها في الطبق وأشارت إلى الجرسون وقت) .

هي : إلى أين أنت ذاهب ياقيس ؟

أنا : إيه . بتقولي إيه . وبتكلمي عربي فصيح بخرب بيتك . طيب قولى كده من الصبح يا فضيلة الشيخة . .

هي : أدينى قلت يا دلعدى . . .

أنا : وكما بالبلدى ؟ إنت منين .. وساكتة ليه طول الوقت .. ومين جابك هنا ؟

هي : جابنى هنا .. حضرتك .

أنا : حضرتى يعني إيه ؟

هي : طبعاً أنا جابة علشان حضرتك .. لأنك مش حترف طريق البيت .. وأدينى جيت أنا والسوقاوى .. وهو واقف بره ..

أنا : سواق بتاع مين ..

هي : بتاع الناس اللي انت معزوم على العدا عندهم ..

أنا : يا بنت الإيه .. وانت بتشتغل عندهم إيه ..

هي : مربيه ..

أنا : مربيه لمين .. دا الأستاذ اللي انت بتشتغل فى بيته معندوش أولاد .. يمكن مربيه له هو ..

هي : إيه بي الكلام ده ..

أنا : . . .

هي : سكت ليه .. بي علشان ما أنا لابسه سارى وسمره وشوية وشعري له ضفيرة بقى هنديه خلاص .. بقى شكل الناس دول .. مفيش حاجة تخلىني أفترق عنهم .. الدم .. مش باین ..

أنا : الدم إيه .. دملك كان واقف ولا قاعد أنا عارف .. بقطعلك ميت حنة ..

هي : ياللا بيتنا ..

أنا : بيتنا إزاي ؟ بس أفهم .. إيه اللي خلاك انكست طول الوقت ..
إيه خلاك قاطعة النفس مرة واحدة كده ..

هي : هو انت إدتي فرصة .. أنا بصيت لقبيتك دخلت في عبي مرة واحدة كده .. وهات يا فلسفة .. والناس اللي قاعدين قدامنا هناك في الركن قعدوا يقولوا من بعيد بعيد .. اسكنى .. ما تتكلميش . خلية هو يتكلم .. وأنا لما كنت بضمحلث كانواوا ههه اللي بيضحكوني ..

أنا : ناس مين دول ؟ أنا ما شفتش حد خالص !

هي : ده .. اللي اسمه مش عارفه إيه .. اللي ساكن جنبينا ..
أنا : عرفته الكلب .. هو اللي عمل الفصل ده ..

هي : مش تقوم بي ؟

أنا : آه تقوم بي .. أنا تعان شدئ إيدى ..

هي : ياه .. للدرجة دى .. إنت زعلان مني ولا إيه ؟

أنا : وأنا حاز عل منك ليه .. بس أنا عاوز الناس اللي شافوك ساكتة يشوفوك وانت بتتكلمي ويشوفوك وانت بتشدئي .. وبتحايل على علشان أقوم .. يعني عاوز رد اعتبار لكرامتي ..

هي : تكونتش عاوز تغنى ..

أنا : عاوز والله .. قولى معايا : كسفوه .. كسفوه .. ولما جه يتتكلم كبسوه .. كبسوه ..

هي : ياريتني فضلت هندية على طول ..

أنا : ياريتكم .. كنت لقيت حاجة أكتبه ..

هي : بقىت وحشة دلوقت ؟

أنا : بس لازم أنا اللي أمشي قدامك .. في الهند كده ..
(ووقفت أمام الباب .. وتقدمه من انسائق) ..

هي : صحيح ... تعرف بي حضرتك أن كل الكلام اللي أذا فته ده تمثيل
في تمثيل ..

أنا : إزاى بيـ؟

هي : تعرف بيـ إنى مش مربيـة عند فلان ده . . . تعرف إنى زوجـة صاحب السيارة دـى .

أنا : يانـهار إسود . . . انت مراتـه . . يا خـبر . والله أنا آسف جداً . . لـنـما بيـ الكلام اللي أنا قـلتـه دـه مدـح لـذوقـه . . إنه راجـل عنـده ذـوق و عـرف يـختار . .

هي : أـيوه عـرف يـختار مـراتـه لكن ما عـرفـش يـختار أـصحابـه . .

أـنا : لأـ .. أـرجـوكـ مش للـدرجـة دـى . ثم إـنـي ما أـعـرفـكـيش . .

(وتـوقفـتـ السيـارـة فـجـأـة .. وـظـهـرـ صـدـيقـ وـركـبـ إـلـى جـوارـ السـاقـاتـ) .

أـنا : أـهـلاـ اـنتـ فيـنـ ؟

هو : « يـنظـرـ إـلـى الفتـاة » فيـنـ إـزاـيـ؟ . مش رـاحتـ تـجيـبـكـ . مش كـانـ فيهـ مـيعـادـ بـيـتنا .. أناـ أـرسـلتـ لكـ أـختـ مـرأـقـيـ ..

أـنا : مـينـ ؟

هو : مـينـ إـيهـ؟ مش واـخدـ بالـكـ؟ ليـهـ حـصـلـ حاجـةـ؟ . دـى أـختـ مـرأـقـيـ إـزاـيـ مشـ عـارـفـهاـ يـاـ أـخـرىـ : إـنتـ مشـ قـابـلـهاـ يـوـمـ حـفـلـةـ السـفـارـةـ ..

أـنا : اسمـعـ .. أـرجـوكـ ! وـقـفـ الـعـربـيـة .. نـزـلـتـ هـنـا .. أناـ دـمـاغـيـ حـيـطـقـ .. نـزـلـوـنـيـ .. نـزـلـوـنـيـ هـنـا .. يـاـ فـرـقـةـ مـمـثـلـيـنـ .. يـاـ فـرـقـةـ الـرـيـحـانـيـ وـإـسـمـاعـيلـ يـاسـيـنـ يـافـرـقـ كـارـيـوـكـ .. نـزـلـوـنـيـ ..

هـوـ وـهـيـ : عـلـىـ فيـنـ ؟

أـنا : أـروحـ أـكـتبـ الـكـلامـ دـهـ كـلهـ ..

« مـفـيـشـ سـتـارـ عـلـشـانـ بـيـنـزـلـ »

● صاحب القدس رفض!

في الصباح الباكر جاءت الصحف . .

والصحافة في الهند ممتازة . . صفحاتها أنيقة . والطباعة جيدة . وال الموضوعات معروضة عرضاً ممتازاً . وأسلوب الصحفيين هنا لا يختلف عن أي صحفيين في أوروبا وفي أمريكا أيضاً .

قرأت مجموعة من الكلمات ألقاها الزعيم الهندي نهرو في البرلمان . فصريح جداً نهرو . ومناقشاته حقيقة . والناس هنا يحبونه . بل يكترون له شيئاً أكثر من الحب . ولا يخفون خوفهم عليه وعلى صحته . ويتساءلون : ماذا يحدث للهند بعد نهرو؟ ويؤكد المندوب أنه لا يوجد رجل واحد يقف إلى جوار نهرو . أو يصل إلى مركزه . وإن كانوا يذكرون في نفس الوقت رجالاً ممتازين يقفون وراءه . ولا يبعدون عنه كثيراً !

والناس الواقعيون يقولون إنه لا خوف على الهند . ولا خوف على الشعوب بعد وفاة زعمائها . فقد عاشت الشعوب ومات الأفراد . وليس هو إلا الأفراد الممتازون إلا سائق سيارات التاريخ . فإذا مات السائق فالسيارة تتوقف من تلقاء نفسها إلى أن يظهر سائق آخر وبسرعة ومع سرعة إنطلاق السائق الجديد يتنهد بعض الركاب ، ولكنهم يمضون في طريقهم . والزعماء هم آباء الشعوب . وقد عاشت الشعوب بعد وفاة آبائهم . فأنت مثلاً ، ألم يعش أبوك بعد وفاة أبيه؟ لقد عاش وأنجبك ، وأنت بعد والدك ستعيش وهكذا .

ولكنهم في الهند يشيرون إلى نهرو بتقديس أو احترام شديد . ويسمونه البانديت جي . أي صاحب السيادة أو سيادة الرئيس . .

وبالفعل نهرو شخصية فذة . تاريخه السياسي طويل . دخل السجن وتعب . وخرج من السجن واستأنف كفاحه . وهو رجل مثقف وواسع القراءة وتعلم في إنجلترا . وله كتاب وله أسلوب في الكتابة باللغة الإنجليزية . ثم عنده إحساس غريب بأنه أب للشعب المندى على اختلاف ألوانه وأديانه . وهو يتصرف على أنه أب .

وقد وصفه غاندي بقوله : صادقوني إذا كان جواهر لال نهرو ليس في السجن الآن ، فليس معنى ذلك أنه خائف من السجن . فنهرو قادر على أن يذهب إلى المشنقة وهذه الابتسامة العربية على وجهه ! وظلت هذه الابتسامة على وجهه حتى اليوم لأن ينفذ أمراً صدر من غاندي أن يتسم دائماً

وقد كنت في نيودلهي في أحلك المواقف السياسية بالنسبة للهند . . ففي الشمال يوجد زحف صيني على الحدود . أو على الخط المعروف باسم خط ماكموهان . .

ويوجد الدلائل لاما الذي هرب من التبت أمام القوات الصينية ، والذي من أجله سافرت إلى الهند . .

وفي أقصى الجنوب توجد ولاية كيرلا التي تجح الحزب الشيوعي في أن يفوز في انتخاباتها بالحكم . وبذلك جاءت وزارة شيوعية رغم إرادة نهرو . أو رغم أنف حزب المؤتمر الذي يترأسه نهرو . .

والرأي العام والصحف تطلب من نهرو أن يضرب ..

ولكن نهرو لا يضرب . فليس الضرب من سياسته . فلا هو يريد أن يضرب الصين في هذه المناطق الجبلية من أقصى شمال الهند .. لأنه ليس من المعقول أن تفقد الهند صديقتها الصين من أجل بعض مئات من الكيلو مترات الجبلية . .

ولا يستطيع أن يضرب مواطنه في كيرلا ..

ودارت المناقشات في البرلمان وثار عليه أحد أعضاء حزبه . لكنه كان أعلمهم وأكثرهم هدوءاً . كانوا يضربون المنصة بأيديهم . وكان يتسم . وكانت ابتسامته تشرق وتحفت

بسريعة .. كأنها شرر ولاعة .. وبنفس المدوء الذى دخل به البرلمان خرج به ..

وتصدر الصحف تؤكد أن نهرو هادئ . إذاً فكل شيء هادئ ..

وقد حدث أن أدلت ابنة نهرو وهى رئيسة حزب المؤتمر الذى يتزعمه أبوها فى مؤتمر صحفى فشتمت الشيوعيين فى جنوب الهند . وسئل أبوها عن رأيه . فأجاب بأن هذه هي ابنته . ثم ضحك وقال : لا أريد إنشقاقة آخر فى داخل أسرتى ! والرئيس نهرو من مواليد ١٨٨٩ من مدينة الله أباد وهى نفس السنة التى ولد فيها العقاد وطه حسين وهتلر وشارلى شابلن وال فلاسفة مارتن هيدجر وجبريل مارسيل والمورخان توينى وعبد الرحمن الرافعى . وهو ولاشك أكثرهم حيوية ونشاطاً وأحبهم أيضاً . فهو إلى جانب أنه كاتب وسياسي وزعيم . هو إنسان من أشد الناس إيماناً بالسلام بين الشعوب ..

وأذكى عبارة لنهرو تقول : الاشتراكية بالنسبة لي ليست فقط نظرية أعتقدها . وإنما هي عقيدة حيوية . وأنمسك بها من كل عقل وقلبي .

وهو صادق فيما يقول . والناس يعلمون أنه صادق وأنه حريص على ذلك في داخل الهند .. وفي خارجها أيضاً . و موقفه بين الكتل السياسية في العالم ، والتزامه جانب الحياد بين المعسكرات السياسية . تؤكد أنه يريد أن يحقق السلام في العالم كله ..

وهو مطلب صعب ولاشك . ولكنه يساوى ما يبذله من مجهد في سبيل تحقيقه ..

والصحف التي أطالعها كل يوم تؤكد هذا المعنى .

وتؤكد أن الصين حتى لو صبغت جبال الهملايا بلون الدم .. فإن هذا لن يغير من موقف الهند - أقصد لو صبغت هذه الجبال بدماء الهند طبعاً ! والصحف أيضاً تتحدث عن الدلائل لاما ، ذلك المعبد الذى يحكم بلاد التبت روحياً . هذا الشاب الطيب هرب ومعه بعض الرهبان إلى الهند وقطع في هذه الرحلة ألف الأميال الجرداء على ظهر جمل . ويقال على ظهر بغلة . ويقال على ظهور حواريه والمؤمنين به . وأنا لا أصدق هذا الرأى الأخير . فقد رأيت المناطق الجبلية التي مشى عليها الدلائل لاما بعد ذلك وأعتقد أنه لا يكفيه مليون مؤمن لكي يركبهم عبر هذه الجبال والوهاد ، وفي تلك الليلات

الباردة . . أى ثلث سكان التبت . خصوصاً أن بلاد التبت صحراء باردة جداً . ولذلك يسمونها سقف العالم . حيث توجد أقدم النظم التي عرفتها البشرية وعدلت عنها لسخافتها : الحاكم الإله الذي يختاره الرهبان .. ثم أغرب من هذا كله نظام تعدد الأزواج . أى عدد من الأزواج للمرأة الواحدة !

والصور التي أراها للدلائل لاما توّكّد أنه شاب رشيق ووسيم ومرح .. فعلى الرغم من المصائب التي اخْطَطَت فوق دماغ شعبه المؤمن في التبت وفي العاصمة لاما . فإن قداسته لا يتوقف عن الابتسام . لماذا ؟ ربما كان السبب ، هو أن الدلائل لاما باعتباره إله لا يحق له أن يحزن . فهو يجب أن يتوّكّد لشعبه مدى قدرته على الاحتمال . فهو يضحك ، تماماً كما تضحك الشمس من وراء السحب .. والأمطار لاتهمها !

أو لعله يريد أن يقول لشعبه إنه كان يعرف ذلك من قبل . وأن الذي حدث هو كلام مكتوب في اللوح المحفوظ عنده . أليس إله؟ بل إنه إله عظيم قادر على كل شيء . ومن ضمن قدراته التي لم تظهر بعد أنه سيعود إلى التبت وسيطرد الصين من بلاده – عدد الصينيين حتى هذه اللحظة ٧٠٠ مليون نسمة !

وقد قرأت كل ما كتبت الصحف عن الدلائل لاما ..

ونزلت إلى المكتبة أشتري كتاباً عنه . لم أجده إلا كتاباً واحداً كتبه رجل سويدي عن بلاد التبت . وكتاباً آخر كتبه رجل ألماني عن بلاد التبت أيضاً . ولم أجده مجموعة التصريحات التي أدلى بها الدلائل لاما عن هذه الرحلة السرية الخطيرة التي قام بها في حماية المؤمنين من رجاله ورغم الحراسة الصينية الشديدة على حدود الهند . ورغم أن الحكومة الصينية وعدت كل من يعثر على الدلائل لاما حياً أو ميتاً بمبلغ كبير من المال ، فإنه استطاع أن يهرب . ويقال إنه هرب ومعه أكياس من الذهب . ويقال من الماس . ويقال من الأسرار والطلاقس التي ستؤدي – إذا ما وصل إلى الهند سالماً – إلى خراب بيت ماوتسي تونج .

هكذا نشرت الصحف الهندية . ولا بد أنها كانت تسخر من الدلائل لاما ، ولكن واجب الضيافة يحتم عليها أن تلتزم الأدب . والتزمت الأدب الشديد !

وعندما بدأ الدلائل لاما يدل على بتصریحات للصحف یهاجم فيها الصين ،
محرجاً بذلك حکومة الهند ، أشاروا عليه أن يتلزم هو أيضاً الأدب .
والالتزام الأدب ولم ینطق إلى أن قابلته أنا ، فخرج عن حدود الأدب وشتم ..
شم الهند الذين یحرسونه ویمنعون زائراً كريماً - هذہ کلمته - مثلی جاء یزوره
من آخر الدنيا لیسألة عن الصحة ولیدعو له الله أن یعيده إلى بلاده سالماً !
وتمشياً مع أقدم التقليد الدبلوماسية أرسلت خطاباً إلى قداستة الدلائل لاما
في مدينة ميسوری في أقصى الشمال من الهند استاذن في المثال بین يديه . .
وكان خطابي في غایة الأدب طبعاً .

وأذكر أنني قلت في الخطاب ما نصه بالحرف الواحد : سیدی ومولای اسمح
لعبد ضعیف جداً جاء من مصر (عدد سکانها ۳۰ مليوناً) کلهم یحبونك
وحزینون على ما أصابك على أيدي أعدائك من الصينيين . اسمح له بأن یتشرف
فیلسیس بيده النظيفة طرف ثوبك . . ولقداستک الحق في أن تختار المکان من
الثوب الذي یشرفني أن ألسنه . . واسمح لهذا العبد أيضاً أن یسألک عن صحتك
الغالیة . . بل التي لا تقدر بمال . . واسمح له بأن یتشرف بالحلوس على مسافة
تسمح له بأن یراك ، وتسمح له في نفس الوقت أن یسمع صوتک الهاامس . واسمح
له إن شئت أن یلتقط لك صورة ترفع قدره في عین القراء في مصر والعالم العربي ..
وإذا وافقت يا صاحب القداستة ، فهذا ما یتوقعه العبد من مولاہ العظیم . وإذا لم
تفعل يا صاحب القداستة ، فإنه لن یفقد الأمل ، ولن یعود إلى القاهرة في الطائرة
التي تقطع المسافة في ۱۵ ساعة إذا لم توقف . وقد لا یعود إلى القاهرة وإنما سیمیت
من الحسرة على أنه لم تسعده لقیاک . . فإذا مات من أجلک فستظل روحه ترفرف
حولك ..

فارحم هذه الروح من الدوخة حولك ، واسمح لها بأن تسعد بالقرب من
طلعتک البهیة . وأدام الله قداستک . وأطال في عمر ألوهیتك . . الخلص دائمًا
والمسکین إلى أن تأذن له . . » .

وانظرت طويلاً . ورحت أقطع الوقت في شرب الشای وأكل الأناناس
وشرب اللبن والبيض وإغاظة كل جرسونات اللوكااندة . .

وفی يوم دق جرس التليفون وكان المتحدث أحد موظفى اللوكااندة وقال لي

إن خطاباً جاعن من الدلائل لاما ..

وقررت في هذه اللحظة أن أحلق لحيبي . وأن أغرق جسمى في الكولونيا ..
وأن أتعطر لكي أكون جديراً بهذا الشرف الذى لم يسبقنى إليه أحد . وتخيلت
العناوين التى ستتصدر بها صحف «أخبار اليوم» في القاهرة : أول صحفى يقابل
الدلائل لاما .. أول حديث للدلائل لاما مع أخبار اليوم .. الدلائل لاما يوقع
بأصابع قدميه على صورته هدية منه لقراء صحف أخبار اليوم .. التوقيع بأصابع
القدم تقليعة لنجم السينما فى أمريكا .. أكبر دليل على أن الدلائل لاما
أمريكانى .. إلخ .

وسمعت طرقات على الباب .. وكان الجرسون ومعه الخطاب . وبسرعة
فتحت الخطاب وطارت عيناي من أول الصفحة إلى آخرها .. اخسن عليك
دلائل لاما .. اخسن على الذين جعلوك إلهآ .. إنهم مجموعة من البهائم لا تستحق
إلا شاباً أبله مثلك .. !

لقد كان الخطاب بالرفض ..

قداسته يعتذر عن مقابلتى لانشغاله ..

انشغاله في أى شيء هذا الدائنخ .. العريان الذى لا يجد قوت يومه ..
هذا الصعلوك الذى استغل سذاجة الناس فجعل من نفسه إلهآ .. هل من المقبول
أن أصل إلى الهند ثم أكون على مسافات ساعات منه ولا أرأه .. لا يمكن
يا قداسة اللاما .. أو جناب الدلائل .. لا يمكن أن أعود إلى القاهرة دون
أن أراك أو دون أن أتحدث إليك .. الموت أهون .. اعتزال الصحافة والكتابة
والانتحار أهون من هذا كله .. إنك طاقة القدر بالنسبة لي .. وأنا الذى
سأفتحها بيدي وأطلب من الله ما أريد وسأقفلها بيدي أيضاً .. أنا أفهم أنك
تتألم على غيري يا طريد الاشتراكية !

ورحت أقلب في الأوراق أبحث عن أصل هذا الشاب .. وكيف وقع الاختيار
عليه ليكون إلهآ ..

على كل حال لا تزال أمامى بضعة أيام في العاصمة قبل أن أتمكن من
السفر ..

● إِلَهُنَّ انتظارِي!

الآن أصبحت عندي فكرة واضحة عن الدلائل لاما الرجل الذي يحكم بلاد التبت . هذا الشاب ليس له أصل واضح . فلا أبوه إله ولا أمه . ولا أى إنسان من أسرته تصادف أن اقترب من بيت الناس الذين حكموا بلاد التبت من ألف السنين . وإنما هذا الشاب وقع عليه الاختيار ليكون إلهًا . فهو إله بالاختيار . أى إن الناس لم يولدوا ليجدوا أنفسهم مؤمنين به . وإنما انتظروه وتوقعوه وآمنوا به . ثم لم يعترضوا عليه أمه ويعرفون أباه . وأبوه وأمه من القراء وعليهما ديون كثيرة مستحقة . ولا بد أن تكون السيدة والدته قد طلبت حلة من جارتها . أو كوزاً من الأرض أو قاليبين من السكر . ومن المؤكد أنها لم ترد هذه السلفيات .

أما كيف يختارون قداسته ؟ فهذا سر من أسرار الرهبان الذين يحكمون هذه البلاد حكماً حقيقياً ، وليس الدلائل لاما ، إلا ذيلا لهم . أو إلا زواجه للدكان الخفي الذي يديره هؤلاء الناس . وأنا أعرفهم وقد رأيتهم وصافحتهم ولا أزالأشعر بالامتنان لهم . وأنا أعود فأوكده الآن .

فهو لاء الرهبان ، لا أعرف عددهم بالضبط ، يختارون من بينهم واحداً ولا بد أن يكون هذا الواحد أكبرهم سنًا وأكثرهم صلباً . لا بد أن تكون مساحة الصلع التي عنده أكبر من أي صلعة موجودة في الأديرة . لا أعرف كيف يتأكدون من ذلك . وأقرب إلى ظني أنهم يقومون بعمل مسابقة في مجال الصلع بين الرهبان . حتى يفوز هذا العجوز . ولاشك أن مركز هذا العجوز من الناحية الدينية ،

تسمح جداً بتصوير أية انتخابات ولو كان شعر رأسه طويلاً كثيراً كشعر الأسد.

وبعد أن يختاروا هذا العجوز الأصلع يطلبون إليه في عشرين يوماً . .
ويقال ثلاثة وعشرين يوماً أن يبحث لبلاد التبت عن إله . . ويظل هؤلاء
الرهبان يبقون ليلاً ونهاراً ويرجون هذا الراهب أن ينقذ البلاد من الشياطين التي
تربص بها . . في هذه الأيام العشرين . ولكن الراهب الأصلع . يحبس نفسه
في صومعته يفكر . وفي نفس الوقت يفكر في طريقة لإنقاذ البلاد من الشياطين
في الأيام التي خلت من وجود إله . وأخيراً يتعطف الراهب ويتألم ويعلن
أنه قد عثر على طريقة . وأن هذه الطريقة ستؤدي بغير شك إلى اختيار
أصلع الآلهة لحكومة التبت !

وفي احتفال مهيب في مدينة هاسا ، عاصمة التبت يظهر الراهب ويعلن للشعب في صمت وأسى أن مهمته شاقة جداً ، ولكنه في نفس الوقت لا بد أن يوقفه الإله إلى اختيار إله جديد . أما الإله الذي سيوقفه ، فهو الذي اختنق قبل ظهور هذا الإله الجديد . فمن الظواهر الغريبة في هذه البلاد أن الإله يختنق في سن الثالثة والعشرين . لا أحد يعرف أين يذهب هذا الإله . ولكنه يختنق . وفي نفس الوقت تظل روحه ترفرف حول بلاد التبت من أوها لآخرها — مساحتها نصف مليون كيلو متر مربع !

والطريق الذى سيسلكه الراهب الأصلع معروف للرهبان . فهو عادة يحمل طعامه وشرابه وبعض ملابسه إلى شاطئ إحدى البحيرات ويظل ينظر إلى سطح الماء ليلاً ونهاراً : تماماً كما تنظر أنت إلى مرآة في ضوء الشمسعشرين يوماً متواصلاً . دون أن تغيب الشمس ! وبعد هذه المدة المعروفة لدى الرهبان ، يرى الراهب الأصلع ، الذى انعكست صوره وجهه على الماء ومن الماء إلى صلعته . صورة الغلام الصغير الذى سيكون إلهاً للتبت . ويرى ملامحه ويتأكّد منها . من عينيه ومن أنفه . وخصوصاً من أنفه . لأنّه لا يمكن أن يكون الإنسان إلهاً إذا كان أنفه ضيقاً وإذا كان يتتنفس بصوت عالٍ . فالتنفس بصوت عالٍ يقلل من هيبة الآلهة !

ويتأكد الراهب الأصلع من ملامح الطفل الذى يراه . وفى نفس الوقت يتأكد من ملامح والديه . ويؤكد الرهبان أن كل هذا يبدو واضحاً فى الماء . ويؤمن الراهب العجوز بأنه قادر أيضاً على أن يعرف عنوان بيت هذا الطفل ويصف شكل البيت . . تماماً كما يفعل الذين يفتحون المندل فىرون فى الفنجان الذى به قطرات زيت ، شكل الناس وعناوين بيومهم .

وبعد أن تم ملامح الصورة أمام الراهب ، ينحني راكعاً أمام البحيرة . . شاكراً للإله السابق معاونته الصادقة في اختيار خلفه العظيم . ويعود الراهب إلى صومعته وقد ارتاحت نفسه . ويعلم الفرح التبت . لأنها قد وجدت لها الإله المناسب . وتذلل أيدي الناس معلقة . ويظل الدعاء معلقاً بين السماء والأرض . وتظل العيون حائرة بين ملامح الإله الجديد . . أما أحلام الناس فهى طائشة ضائعة ، لم تتحدد لها وجهة بعد . .

ورحمة بهؤلاء المؤمنين ، يعلن الراهب أنه قد حدد يوم كذا ليكون احتفالاً بالإله الجديد . .

وتسرح نفوس الناس . ويتظرون . .

أما الراهب العجوز ، فهو يذهب إلى إحدى القرى القائمة على إحدى البحيرات التي وقع اختياره عليها ، ويختار الطفل الذي رأه على صفحة الماء . وينقل هذا الطفل إلى الدير . . وتجرى على الطفل بعض العمليات القاسية جداً من بينها ختان الطفل . . ومن بينها أيضاً رسم علامات على ظهره وعلامات على قفاه وعلامات على قدميه . . هذه العلامات يستخدمون فيها الإبر المثلثة .

ويقال : إن سبب ذلك هو تطهير هذا الإله من الشياطين . . أو تمييزه عن غيره من الناس . خصوصاً إذا جاء الموت . .

وبعد ذلك يدخل هذا الطفل المقدس الدير . . وهناك يتلقى أصول العبادات وأصول هداية الناس . وكيف يكون لها . . فالبشر هم الذين يعلمونه كيف يكون لها عليهم وعلى غيرهم . . وهم طبعاً يتظاهرون أمام الناس بالتقديس له . ولكنهم في الواقع يستخدمونه لأغراضهم . . فهم الذين صنعوا هذا الإله ، وهم الذين يعبدونه !

ويتقدم الشعب بكل أنواع التقديس لهذا الإله الجديد الذي لا يراه الناس إلا نادراً . وفي المواسم الدينية . . وفي هذه المناسبات السعيدة يقدمون له الهدايا والطعام والأموال . . وإلى جانب أنه إله فهو حاكم للتبت . وله كل أموال هذه الدولة الصغيرة التي تضم أناساً يعيشون في ظروف قاسية جداً يجعلك تتساءل : ولماذا يعيشون ؟

وعندما كانت الصين تهاجم الدلاي لاما ، كانت تسخر منه بقولها إن خروجه من التبت هو في الواقع إطلاق لسراحه فقد كان سجينًا في الأديرة . . ثم تقول أيضاً : إن الصين قد أطالت عمر الدلاي لاما عندما طرده . . فالدلاي لاما ، يعلم أن كل الآلهة الذين حكموا التبت قد اختفوا وهم في الثالثة والعشرين . . فالرهبان هم الذين يتولون قتل هؤلاء الآلهة ! والدلاي لاما هو أحد اثنين يحكمان التبت . .

فهو الحاكم الروحي الذي يملك الأرض ومن عليها وما عليها . . وهو يقيم في دير فوق تل بالقرب من العاصمة . .

أما الثاني فاسميه بانشا لاما وهو يحكم التبت إدارياً . . ولكن هذا الحاكم لا قيمة له ولذلك يعيش طويلاً . . يعيش إلى أن يموت كأى مواطن عادى ! والتبت تشبه جمهورية «سان مارينو» التي تقع في شمال إيطاليا . . وهي إمارة مستقلة استقلالاً تاماً وعليها سور مرتفع . وكان بها أحد أندية القمار وبها برجان ويحكمها اثنان من الملوك ! . . جمهورية يحكمها ملكان ! كل واحد منها لمدة ستة أشهر . . وهي الجمهورية الوحيدة في أوروبا الغربية التي بها حكومة شيوعية ! والفارق الوحيد هو أن التبت قاومت النظام الشيوعي . . ولكنها الآن قد ضمت نهائياً للصين . . وقد أقام الصينيون بها طرقاً طويلاً ممتدة على حدود الهند . وأطاحوا بهذا النظام الديني وعينوا بصفة مؤقتة أحد رجال الدين ليتولى هذه السلطة الروحية للدلاي لاما . . ظاهرياً طبعاً !

* * *

وبعد أن عرفت ما أراه ضروريآ عن هذا الدلاي لاما الذي أرسل خطاباً رقيقاً يتعذر فيه عن مقابلتي ، فقابلت خطابه هذا بإجراء غير مهذب وغير رقيق . .

تشهد بذلك سلة المهملات قررت أن أراه وأنجذب إليه ، ول يكن ما يكون !

بعد هذا كله بدأت أبحث عن طريقة للسفر إلى مدينة ميسوري حيث يرابط الدلائى لاما ورجاله فى سفوح الهملايا فى أقصى شمال الهند وعلى مقربة من حدود التبت ..

إن الرحلة إلى ميسوري هذه لن تكون بالسيارة أو بالقطار .. وإنما سوف أدخل على الطريقة التي رأيت بها الدلائى لاما ..

وأنا آخذنا ، من يدك لمقابلة قداسة الدلائى لاما .. والأخذ باليد سينكرر كثيراً ، كلما أهلت علينا طلعة الدلائى لاما ..

ومن الممكن أن ت safar إلى ميسوري على قدميك .. ومن الممكن أن ت safar إليها على ظهر حمار أو ثور .. أو بطائرة هليوكوبتر ..

أما من نiodleى فالرحلة ستكون في سيارة خاصة تستأجرها ذهاباً وإياباً ، وأجر السيارة حوالي عشرة جنيهات إذا ذهبت ورجعت في اليوم .. أما إذا بقيت حتى الصباح فيجب أن تدفع أكثر .. هناك وسائل مواصلات أخرى كالقطار مثلاً ، ولكن القطار يقطع هذه المسافة في ١٨ ساعة ليلاً ونهاراً .. والطريق من نiodleى إلى ميسوري متعدد ، هذا إذا كان عندك صبر على المرور في الطين والوحول والأمطار .. ولا تغصب إذا فوجئت بأن السائق قد توقف فجأة ثم ترك السيارة بلا سابق إنذار .. فلا تظن أنه هرب وإنما قد اعترضت طريقه بقرة ، والبقرة مقدسة ولذلك فهو لا يستطيع أن يطردها أو يلمسها ، وإنما يجب عليه أن يتركها حتى تمشي من تلقاء نفسها ، وفي هذه الأثناء لا مانع من أن يركع لها ركعتين .. لا تضحك ولا تدهش فهناك ما هو أغرب وما هو أكثر غرابة من ذلك .. ستتجدد القرى على الجانبين شبيهة بالريف المصري .. بيوت من الطين وأناس كالطين أيضاً .. ولكن هنا العدد أكبر والأمراض واضحة على وجوههم وعلى أجسامهم .. ستتجدد حولك مساحات شاسعة من الأرضي الزراعية .. مع الأسف هذه الأرضي لا قيمة لها .. فالامطار تحولها إلى بحيرات ويموت البذر والزرع .. وإذا تبقى للفلاح شيء أخذته السيول .. أخذت أبناءه وطيوره وحيواناته ثم هدمت بيته .. فلا يبق له شيء ..

كل عام تحدث مجاعات في بلاد الهند الغنية بالأرض والماء والأشجار ، ويموت من المرض والسيول والجوع مئات الآلوف . ومع ذلك لم تتمكن الدولة من وضع برنامج يطبقه الناس لتحديد النسل .

ستجد ببعض البلاد أن وسيلة المواصلات الوحيدة فيها هي الدراجات والدراجة يقودها شاب ويركب وراءه أربعة أو خمسة من الناس .

كل واحد منهم في حجم هذا الشاب مرتين وثلاثة . وسرى الإرهاق والعرق على وجهه والناس مشغولون في الكلام وحديث . ستقول : أعود بالله ، هذه وحشية .

قل ما تشاء فلقيمة العيش صعبة هنا . إن الركاب يتبعون أيضاً من أجل الملائم التي سيعطونها له . إن حالتهم تدعو إلى الشفقة أيضاً . وسرى أن هذا الشاب يقطع بدراجته مسافات تبلغ العشرة كيلومترات وهو يلهث .

وعلى الجانبيين ستجد أشجاراً . هذه الأشجار لها أرقام مسلسلة . فالدولة رقمت الأشجار . فقد كان الناس يقطنونها ليستخدموا خشبها في الأفران . وكانت الحكومة تناجأ باختفاء جانب من الأشجار فجأة . فلا تعرف من الذي قطعها . ولذلك جعلت لها أرقاماً ليسهل أن يتمسح الحراس عليها .

سأروي لك مشهداً رأيته وأعتقد أنه يتكرر كثيراً . وقفت بي السيارة أمام سيل جارف وانتظرنا بعيداً حتى يتوقف المطر . ظللنا سبع ساعات .

ونحن في السيارة نأكل ونشرب ولا نعرف كيف نقطع الوقت ومن حين آخر نفتح النوافذ للتهوية وكان السيل يحتاج البيوت ومن تحت البيوت تظهر رموز الناس . النساء والرجال والأطفال والأبقار وبعض الناس كان يصعد إلى الأشجار . ولكن هذه الأشجار كان يسبق الناس إليها عدد كبير من الطيور بعضها متوجه جداً كالصقر السوداء .

وقد رأيت طفلاً يقاوم السيول ويصرخ . ولا أحد يستطيع أن ينقذه ولم يكدر الطفل يصل إلى حجر مرتفع ويمد يده عليه حتى رأيناه يرتد ويختفي تحت الماء . لقد كان في استقباله هناك ثعبان ضخم لدغه . فقتله ، وراح الثعبان يسبح حياً . أما الطفل فظهر بعد لحظات جثة طافية .

لم أنم تلك الليلة . وظللت أحلم أنني أنام تحت شجرة . وفجأة تتحول الشجرة إلى أفعى وإلى حيات ، على هيئة غصون تتلوى .. وهذه الغصون أوراق ، وهذه الأوراق هي أحجحة البعوض .. أما المثار فهي تشبه رعوس التمور والقرود وكلها تبرق .. فأصحاب من النوم مزعجاً وأتمنى أن أبقى متيقظاً حتى الصباح .

لعلك تقول لي : لاني نسيت الموضوع الأصلي وهو الرحلة .. إن هذا من صميم الموضوع .. وإنما فادا عساك أن تفعل أو تفكير في رحلة تطول إلى ١٤ ساعة ولا تستطيع أن تقدم أو تتأخر .

وعندما تصلك إلى مدينة ديرادون ستتجد أن المنظر قد تغير قليلا .. فالمدينة مليئة بال محلات التجارية لأنها مدينة سياحية . ولكن الناس هم الناس ستتجد أسماء مطاعم وفنادق وبارات .. طبعاً قد لا تلفت إلى ذلك ولكن لو عرفت أن الكلمة « بار » هذه من الكلمات النادرة جداً في الهند ، فستعرف أنك في مدينة راقية . فالنحوم ممنوعة في الهند . ومسموح بها لعدد قليل جداً من المحلات العامة وفي أيام معينة وساعات معينة . أما كل بلاد الهند فالنحوم فيها ممنوعة منعاً باتاً ..

وبعد ذلك تبدأ الصعود في الطريق الجبلي . هذا الطريق يحب إلا تمشي فيه السيارة أسرع من عشرة كيلومترات في الساعة . سيكون المشي بطيناً جداً والسائل هنا يسمع القوانين وينفذها حرفيًّا . وربما كل الناس في الهند كذلك . وبعد ذلك سيدأ الصعود إلى الجبل . الطريق مرصوف وجميل . إنه يشبه أى طريق جبلي في أوروبا . ويظهر أن كل المناطق الجبلية واحدة ومتتشابهة . الطريق طوله ١٢ كيلومتراً . هذا الطريق يدور ويدور حول الجبل . كما يدور الشال حول العمامه .. أو « الأشلين » حول ساق عساكر الحدود .. ستفطع السيارة هذا الطريق في ساعة بالضبط .

الفنادق هنا كلها جيدة . ستكتشف أنك أحضرت معك الملابس الصيفية .. وستذهب إلى الفندق .. والفندق جيد . وحجراته واسعة جداً . وهي لذلك باردة جداً .. وفي الغرف شيء غريب لا يعجبك وهو أن أبوابها مفتوحة معظم الوقت . أو يمكن قفلها بصعوبة . ولا تعرف إن كان السبب هنا هو أنه لا داعي لفقلها بالمرة . أو أن صناعة المفاتيح لم ترتفع بعد إلى مستوى هذا الفندق .

هذا الفندق اسمه « شارل فيل » وقد عرفت هذا الفندق من نيدلهى . فالذى يملك هذا الفندق هو نفس الرجل الذى يملك الفندق الذى أسكنه فى نيدلهى .

ووسيلة المواصلات واحدة هنا وهى الريكسا . .

والريكسا عبارة عن حفنة تشبه عربة كارو قد نزعت عجلاتها . . وبدل العجلات والمحصان أو الحمار ، يوجد عدد من المندوب القصار القامة يحملون هذه الحفنة وينطلقون بك فى أى اتجاه . وهم يلهثون وتزداد وجوههم صفاراً وتزداد عيونهم أحمراراً . وتحس أنك إنسان رأسمالى أو إقطاعى . أو على الأقل فيك كل عيوب الإقطاعيين والرأسماليين ، بالمعنى الذى تشير إليه أكثر الكتب الاشتراكية تطراً . فانت تستاجر إنساناً ، أو تستبعد إنساناً أو تركب إنساناً كأنه حيوان . . كأنه ليس آدمياً مثلك . وتضع رجلاً على رجل ، فوق كف هولاء المساكين . . وبعد هذا تسمى نفسك متحضرأ .

ولكن ما الذى يمكن عمله . . فانت لست المسئول عن هذا النظام غير الإنساني . . وإنما المسئول الأول والأخير هو الفقر . . وصعوبة المواصلات هنا ، وندرة الحيوانات أيضاً . . وكثرة الناس ، وشدة الحاجة ، ثم تشريفك إلى هذه المنطقة !

ولو فعل كل إنسان مثلك وعدل عن الركوب لأسباب إنسانية لارتكب أكبر الجرائم ضد الإنسانية . . إنك بذلك تقتل هولاء الناس من الجوع . . فانت في اللحظة التي ت يريد أن تعاملهم كبشر ، تقتلهم أيضاً من الجوع . . ومن الممكن أن تفعل مثل فتعطيهم مبلغاً من المال على سبيل الصدقة ، ولكن كم فقيراً تستطيع أن تتصدق عليه . . كم فقيراً في دولة بها ملايين الفقراء ؟

على كل حال اركب ودع هذه المشكلة الإنسانية للدولة الهند فهى مشغولة بها أكثر منك : .

و قبل أن يذهب بك الخيال مثلكما ذهب بي ، يجب أن تتأكد من أنهم سيسمحون لك بزيارة الدلائى لاما . .

من هم الذين سيسمحون ؟ لفهم نفس الذين رفضوا زيارتي له !

وهنا اسمح لي أن أروي لك ما حصل . . فإنه شيء مثير جداً . . ولذلك
الريكسا جانباً . فليست لها أية ضرورة ولا قيمة الآن ما دام الطريق بعيد جداً
إلى الدلائل لاما مسدوداً !

لقد اتصلت بالتلفون بقصر الدلائل لاما .

وعرفت أن قداسته ينزل في قصر اسمه « بيرلا هاوس » . وهذا القصر محاط
بحدائق اسمها « الغابة المقدسة » . كل أشجارها مقدسة . . ومن نوع منعًا باتاً أن
يدنو منها إنسان . ولا أعرف لماذا يقدسون الأشجار في هذه المناطق . ربما لأنها
نادرة . فهم يمنعون أنفسهم من الاستفادة منها . . أو ربما كانت خدعة إنجليزية
ليمعنوا الناس من الاقتراب من هذا البيت أو من ملعب الجولف . الحقيقة التي لم
أتتأكد من هذه الواقعية . ولو أردت فعل أجد أحدها . . فنحن هنا في قمة الدنيا . .
نحن هنا في جبال الهيملايا الشاهقة . .

وقال التليفون ذكرت اسمى ووظيفتي . . وأكملت ما جاء في خطابي . ولكن
الذى حدثنى قد صارحنى بأنه هو الذى بعث بالخطاب . وأن قداستة الدلائل لاما
مشغول جداً هذه الأيام . ولم أشأ أن أعن آباء الدلائل لاما : ولم أشأ أن أعن
آباء هذا السخيف الذى كلفته حكومة الهند برعاية شئون الدلائل لاما حتى لا ينطق
أو حتى لا يكلم أحداً من الناس ، أو حتى لا يتصل بالصحفيين ويدلى بتصريحات
تؤدي إلى أزمة بين الصين والهند . . وأفهمنى هذا السخيف بأن هذه هي مهمته وأنه
مضطر إلى التمسك بوظيفته . وأنه لن يسمع لي ولا لغيرى بمقابلته هذه الأيام .

وحاولت ألا تنتهي المكالمة عند هذا الحد ، وقبل أن ترن ساعة التليفون في
أذن معلنة نهاية آمالى ، قلت له إذن أنتظر يوماً أو اثنين . .

وعاد هو بكل قناعة يقول لي : أو أسبوعاً . .

وأقفل السكة في وجهى . وفي هذه المرة ازداد إصرارى . فالدلائل لاما الآن
على مسافة مئات الأمتار منى . وكان في الصباح على مسافة مئات
الكيلومترات ..

ولم أكل فطوري . وارتديت ملابسى الخفيفة جداً . فقد نسيت أن الجو
هنا بارد كسويسرة في أوائل الربيع . وارتديت البالطو ، وابتلعت ، قرصين من

الإسرى . وأشارت إلى أحد عمال الريكسا أو تابلة الريكسا على الأصح . وحملوني والمسافة طويلة باردة . وهم يلهثون ويسلعون ويوجعون قلبي من الألم . ويتوهبون ليسريحاوا ، وينظرون إلى وجهي ، لعلى أقدر مجدهم . وقدرت مجدهم طبعاً . ولكن لم أجد قلبي ريقاً بعد هذه المكالمة التي صدمتني في أعز ما أملك .. صدمتني في آمالى .

ونزلت بي الريكسا في طريق منحدر . وعلى العينين وجدت لوحة عليها : الغابة المقدسة .. ولم أجد شيئاً يستحق القدسية .. لا الغابة ولا الدلائل لاما . وأشارت إلى الذين يحملون الريكسا أن ينزلوا إلى مداخل قصر الدلائل لاما .. ووقفوا عند بوابة من الخشب والأسلاك .

واقتربت منها . وسألني العسكري : هل عندي موعد ؟ فقلت : طبعاً على موعد مع صاحب القدسية ..
وسمح لي بالتجهيز إلى بوابة أخرى .

وعلى الجانبين كنت ألاحظ أبناء التبت .. إنهم جميعاً يرتدون الملابس الحمراء . ولاحظت أن هذه الملابس يلبسوها على اللحم . رغم بروادة الجو . وأن هذه الملابس تشبه الروب دى شامبر وقد لفوها بحزام .. ثم إنهم حفاة تماماً كرهبان الفرنسيسكان . ولاحظت أن معهم عدداً قليلاً جداً من النساء . وهذه طبعاً ليست مشكلة . فهم يؤمنون بتعذر الرجال للمرأة الواحدة ! ولاحظت أنهم غسلوا ملابسهم ونشروها . وشممت رائحة الطعام . وبيدو أن الطعام كثير . والسعادة واضحة على وجوه هؤلاء الناس . رغم أنه من الصعب أن تتبين مشاعر هذه الوجوه الجامدة لكن بصيصاً غريباً يلمع في عيونهم يمكن إدراكه بسهولة على أنه سعادة !

ووجدت أمائى خيمة .. وهذه الخيمة بها جنود هنود . واقتربت منهم وقلت بصراحة لابد أن أقابل الدلائل لاما .. لابد . وأن أحد الجنود الملحقين بخدمة الدلائل لاما قد رفض طلبي الذي أرسلته من نيودلهي . ثم عاد فأكيد هذا الرفض في التليفون . وأنه لا يمكن أن أصبح على هذه المسافة القريبة وأبقى بعيداً عن عينيه وأذنيه . لابد أن أقابلهم وبأى شكل وبأى طريقة حتى لو أدى ذلك ..

و قبل أن أكمل هذه العبارة ، وفي الحقيقة لم أكن أعرف كيف سأكمل هذا التهديد الذى لا معنى له ، والذى لا يمكن أن أحقيقه ، تقدم مني أحد الرهبان ، ورأى وحياني . وسألني باللغة الفرنسية : ماذا ت يريد ؟ فشرحت له حكاياتي . وشرحت له كيف أن أحد المندوب قد أساء إلى سمعة الدلاى لاما . وأنى مضططر أن أكتب هذا الذى دار بيلى وبينه . وهى فضيحة . ثم إننى أريد أن أعرف إن كان هذا هو رأى الدلاى لاما في كل من يجيء لزيارتة من أقصى الدنيا ..

ورأيت على وجه هذا الراهب الذى يرتدى الملابس القاتمة ، ويعمل رئيساً للوزراء ؛ أنه لم يسترح إلى موقف هذا الهندى .. وإلى موقف كل المندوب الذين صادروا حرية الدلاى لاما .. والذين جبوسو في هذا المكان باسم حمايته والدفاع عنه .

وهز رأسه واحتفى .

وجلست أتحدث إلى أحد الجنود وأروى لهم ما رأيت في الهند وما الذى أعجبنى .. واحتبرت لهم مجموعة من القصص ، وأنا أتصور أن هذه القصص قد تكون لها قيمة في مقابلة الدلاى لاما أو في تسهيل هذه المقابلة الصعبة .. فوصفت لهم المظاهرات التي ملأت شوارع القاهرة تهتف بحياة الدلاى لاما .. ثم الطوب الذى سقط فوق سفارة الصين الشعبية احتجاجاً على الموقف الشائن من قداسة الدلاى لاما .. ثم أخرجت من جيبى ورقة مكتوبة باللغة العربية وقلت : إن هذا خطاب من والدى توصينى بأن أطلب إلى الدلاى لاما أن يباركها ويشفيها من مرضها .. وخطابات أخرى من تلميذات المدارس ونجوم السينما والصحفيين والفنانين ومضيفات هيلتون .. الجميع يطلبون البركات من قداسة الدلاى لاما .

فأنا لست صحفيًا فقط ، وإنما أنا مندوب عن ملايين المصريين الذين أوفدوا للسؤال عن صحته ، والاطمئنان على أنه بخير وعافية . فإذا عرفت ذلك وتأكدت منه بنفسى .. ولا بد أن يكون بنفسى .. كتبت إلى القاهرة لتهأ المظاهرات ، ويتوقف ضرب سفارة الصين بالطرب ! وهذه مهمتى ببساطة ..

ثم إنني بدأت أشكو من البرد . . وإذا بي أطالب - وهذا حق - الدلائلاما
أن يشفيني بعد أن تسلل البرد إلى جسمى وأنا في بيته المقدس !
وهز الجنود رعوسمهم موافقين على مطالبي العادلة . .
ولم يكن لهؤلاء الجنود أى نفوذ ولا قيمة . . ولكنى كنت أحاول أن أقنع
نفسى . . وأن أتمنى على الاختراع أو أستعد لمواجهة أى احتمال آخر .
وظهر الوزير وقبل أن أصارحه بلهفتي وقلقي . أشار برأسه قائلا : لقد
أطلعت قداسته على هذا التصرف السخيف من جانب الرجل الهندى وهو
سيقاياك غداً .

إذن هناك خلاف بين الدلائل لاما وبين المندوب المكلفين بحراسته . . وزراء
الدلائل لاما ، المثقفون الذين يتتكلمون لغة فرن西ية سليمة حريصون ، على الترد
على هذه القيود التي فرضتها الهند . . فكأننى أول مناسبة يثبتون فيها وجودهم ويخالفون
تعاليم الحكومة الهندية ويسمحون لي بمقابلة الدلائل لاما ، رغم أنف هذا الرجل
الهندى الذى يتولى العلاقات العامة لصاحب القدسية .

وشكرت رئيس الوزراء ، وطلبت إليه أن يبلغ صلوانى لقداسته الدلائل وأن
يبلغ الوزراء تخيناتى . .

وشكرت الجنود . . وشكرت رجال الريكشا . . وأعفيتهم من حملى إلى
الطريق الصاعد . وطررت من الفرحة . . بعد أن أعطيتهم مبلغاً كبيراً من المال . .
وطلوا يلاحقونى بالريكشا وأنا أرفض أن أركب معهم . وحاولوا إقناعى بأن هذا
حقى . وأنا أرفض . وحاولوا أن يفهمونى أنهم أقوىاء . وكان إصرارى على
الرفض .

ولأول مرة أشم هواءً نقىًّا . . ولأول مرة أملاً صدرى . ولأول مرة أجسلنى
في قبة العالم . ولأول مرة أتمنى أن يطلع النهار بسرعة .
وفى الفندق طلبت طعاماً ساخناً وكثيراً ، وابتلعت حبوباً منومة أستعجل
بها طلوع الشمس . . .

• • •

وطلعت الشمس . . .

واليوم فقط أشم هواءً حقيقياً ..
هواء لا تمتسه أجهزة التكيف من الشوارع ..
هواء ليس نهاية الناس . ولا فضلة خيرهم ..
هواء لم تدوده المروحة المشنوفة في السقف ..
هواء اليوم من الجبل .. النافذة مفتوحة أمامي .. الطبيعة كلها رائفة جميلة
مغسولة ..

المطر جعلها مصونة مكونة في ورق سلوفان .. أو كأنها تنفست بالحرير
الهندي الشفاف . كل شيء له لون ثابت صادق لا يتغير .. كل شيء صدق .
لا سياسة ؛ لا أديان ؛ لا لغات ؛ لا جنسيات . فهذه الأشجار قد ظهرت قبل
الدين والسياسة واللغة . ظهرت قبل الإنسان وما تزال كما كانت عالمية في معناها
وكلامها وألحانها وعطورها .

طول ليلة أمس كانت الأمطار ثقيلة تلطم وجه الأرض . كان ثقباً في
السماء قد افتح . أو كان الملائكة كانوا يغسلون الكواكب والنجوم استعداداً لأحد
أعيادهم التي لا نعرفها ..

في هذه اللحظات غرقت قرى كثيرة في الهند . هالك فلاجون . أما الأبقار
والجوميس فقد استراحت من أصحابها . انفلتت .. إن الليلة إجازة عندها من
الحراث والعربات . أما الأطفال الذين باغتهم المطر فقد ماتوا .. وتحولت جثثهم
إلى زوارق طافية تركبها الغربان والصقور وتتفجر إليها الأفاعى .. لقد استراح
هؤلاء الأطفال أيضاً ..

وأمام الفندق الذي أقيم فيه مئات من عربات الريكسا .. ينام فيها أصحابها .
إنها مأواهم الوحيد وهي بقرتهم الحلوب . إن أول شيء يعلمونه في الصباح هو أن
يعرضوا الريكسا في الشمس لكي تجف حتى لا ينفر منها الزبون .. وليس مهمـاً
أن تجف ملابسهم هم ..

النافذة ما تزال مفتوحة على شاشة من فضة .. على شاشة من زجاج لامع ..
كل شيء ساكن . كأنه ينتظرنـى أن أرسمـه .. كل شيء يحاول أن يقلد الصور
المطبوعة . فالشجرة لا تتحرك ولا الورد ولا الدروب اللامعة التي تشبه أشرطة من

الحرير الأزرق مطرزة بعلامات بيضاء .. وعلى الموائط صور بنات جميلات ..
صورة لأودري هيبورن .. وصورة أخرى لمارلين مونرو .. وصورة لأنج리د برجمان ..
صباح جميل فعلاً . كل شيء حلو . .
كل شيء صنعته السماء .. فالإنسان لم يصح من نومه بعد ليفسد هذا الجمال
الإلهي !

كل شيء هادئ كأنه يتظر مني أن أتم عليه .. أن أناديه بالاسم فأقول :
أشجار السرو هنا ؟ !

فينحنى صف من الأشجار على هيئة « نعم » وتطير العصافير إلى أعلى
وتتحول : كل منها إلى نقطة فوق كلمة نعم .
وأنادي الورود وأنادي البلايل .. وأملاً صدرى منها ولا حاجة لي أن أناديها ..
كل شيء يحولك إلى شاعر . ويجعل قلمك فرشاة .. ويجعل لك ألف رئة
وألف أذن . ويغريك بأن تند يدك لتلمس ما تراه كأنه قطعة من الحلوى ..
وتشعر أنك أمام مائدة ضخمة وأنك وحدك في صدر المائدة .. وأنك الداعي
وأنك المدعو .. وأنك صاحب البيت والضيف .. وأنه لا معنى لأن تنتظر أحداً .
فليس هناك أحد سواك ..

ومن بعيد أسمع بعض الأجراس .. إنها أجراس معلقة في عناق الأبقار .
لقد بدأت بنات الطبيعة في رحلتها اليومية الأبدية . إذاً أبناء آدم لم يستيقظوا بعد ،
فانزل الدنيا بغير مداموا نياماً : فالفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها .
ولا يوقظ الفتنة إلا الشمس وإلا الجوع .. فالشمس هنا عكازة القراء ..
 فهي وحدها تدق أبواب أصحاب الأعمال والساخرين وتفتح نوافذهم .. ومن نوافذهم
يرون الباعة وعربات الريكسشا ..

وببدأ الشمس تتحسس طريقها وراء السحاب .. والسحب هو « رغوة »
الصابون التي غسلت بها الملائكة السماء والأرض .. ذاب الصابون ولم يبق إلا هذه
الرغوة هائمة مثل إيشارب حول رأس الهملايا ..

وتعود الشمس تهز الأشجار .. فتساقط من الأشجار قطرات الندى كأنها
دموع على الهلوء والسلام الذي ول . وأما الطيور فتهبس مذعورة وتصرخ كلها

فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ كَأَنَّهَا جُنُودٌ بِأَغْمَانِهَا رَئِيسِهَا فَرَاحَتْ تَوْهِمَهُ أَنَّهَا لَمْ تَمْ .. أَوْ كَأَنَّهَا تَرِيدَ أَنْ تَعْتَذِرَ لِلنَّهَارِ عَنْ هَدْوَهُ الْفَجْرِ وَسَلَامُ الْلَّيلِ .. وَكَأَنَّ الرَّاحَةَ خَطِيَّةً يَحْبُّ الاعْتَذَارَ عَنْهَا ..

وَالْمَاءُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ .. تَحَاوَلُ الشَّمْسُ أَنْ تَسْرُدَهُ الْآنِ .. إِنَّهَا تَبْخُرِهِ .. إِنَّهَا تَرْفَعُ إِلَى أَعْلَى لِيَسْقَطُ فِي شَبَاكِ السَّحْبِ .. فَالشَّمْسُ هِيَ أَمْهَرُ صَيَادِ .. إِنَّهَا تَلْتَقِطُ الْمَاءَ مِنَ الْأَرْضِ وَتَخْفِيهِ فِي السَّحْبِ ..

وَكَلِّمَا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ فِي السَّمَاءِ تَعَالَتِ الْأَبْخَرَةُ مِنَ الْأَرْضِ تَحْيِيَهَا .. أَبْخَرَةُ الْأَتْرَبَةِ وَالثَّلَالِ وَالْأَشْجَارِ وَبَقَايَا النَّاسِ وَالْحَيَّانِ وَأَنْفَاسُ الزَّهْرِ وَالثَّمَارِ وَالتَّوَابِلِ وَالدَّمْوعِ وَالْخَنَازِيرِ وَالْأَبْقَارِ وَعَرْقِ الْكَادِحِينِ التَّائِمِينِ عَلَى الْأَرْضِ الْمُبْلَلَةِ .. وَكَأَنَّ اللَّيلَ يُسُوِّي بَيْنَ النَّاسِ .. بَيْنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ .. بَيْنَ الْمَهْنَدِيِّ وَالْأُورَبِيِّ بَيْنَ الْلَّاجِئِينَ مِنْ أَبْنَاءِ التَّبْتِ وَبَيْنَ مَنْ جَاءُوا يَتَفَرَّجُونَ عَلَيْهِمْ .. بَيْنَ الْبُوذِيِّ وَالسَّيْخِ .. بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ النَّمْلَ ..

وَعِنْدَمَا طَلَمَ الْفَجْرُ اخْتَفَى النَّاسُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا صَنَعَتِهِ السَّمَاءُ لِلنَّاسِ .. وَعِنْدَمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ .. اخْتَفَى مَا صَنَعَتِهِ السَّمَاءُ ، وَظَهَرَ مَا صَنَعَهُ النَّاسُ بِالنَّاسِ وَلِلنَّاسِ ..

رَحَامٌ شَدِيدٌ مِنَ الْكَلَامِ الْصِّينِيِّ وَالْمَهْنَدِيِّ وَالْإِنْجِلِيزِيِّ وَالْعَرَبَاتِ وَالْحَيَّانَاتِ وَأَنْرَوَاعِ الْصَّرَاخِ وَالْعَنَّاتِ .. وَالْبَابُ يَدْقُ وَيَدْخُلُ الْخَادِمُ بِوَجْهِهِ الَّذِي لَا مَعْنَى لَهُ وَالَّذِي لَهُ رَائِحَةٌ وَفِي يَدِهِ الصَّحْفُ وَالشَّايِ ..

وَأُلْقِيَتْ عَلَى الْفَقِيْدَةِ الرَّاحِلَةِ – عَلَى الطَّبِيعَةِ الْجَمِيلَةِ – نَظَرَةٌ وَدَاعٌ .. لَقِدْ فَتَحَتِ النَّافِذَةَ ، فَانْفَتَحَتْ نَفْسِي .. وَرَأَيْتُ النَّاسَ .. فَانْسَدَتْ نَفْسِي .. فَسَدَّدَتِ النَّافِذَةَ ..

وَاخْتَفَى الصَّبَاحُ الْجَمِيلُ .. فِي مَدِينَةِ مِيسُورِيِّ !

وَقَبْلِ الْمَوْعِدِ الْمَحْدُودِ ذَهَبَتْ إِلَى حِيثُ الْبَوَابَةِ الْأُولَى .. وَالْبَوَابَةِ الثَّانِيَةِ .. وَمَشَيْتَ فِي طَرِيقِ عَلَى جَانِبِيِّ رَهْبَانِ .. ثُمَّ مَشَيْتَ فِي طَرِيقِ آخَرٍ مَرْصُوفٍ بِالظَّلَطِ الْأَحْمَرِ وَالْأَصْفَرِ ..

ووجدت نفسي وجهاً لوجه أمام القصر الإنجليزي الذي يقيم فيه الدلائل لاما ..
القصر أصفر اللون .. ونواذه بنية اللون .. وله زجاج نظيف كبير .. وأمام القصر
مدينة صغيرة .. وبها عدد كبير جداً من الناس . قد سبقوني إلى هذا المكان .
وبين لحظة وأخرى يظهر أحد الرهبان وبهمس بكلام وعبارات . لابد أنها
شبه مقدسة .. ولا بد أنها تشبه الـ د.د.ت. تقتل السموم والشرور التي تحوم
حول المكان ت يريد أن تنقض على الدلائل لاما .. في الهند آلة كثيرة وليسوا
على وفاق مع قداسته .. رغم أن قداسته بودي أو فيه شيء من البوذية ..

ويختفي هذا الراهب ويظهر راهب آخر وحركة فه مختلفة عن الأول وكأنه
يستخدم كلمات أكثر لإبادة للشرور والشياطين .. ويظهر ثالث .. ويظهر
يميناً وشمالاً ولا ينظر لنا .. لأنه لا خوف منا .. ويبدو أنه تأكد من خلو الجو
 تماماً من كل سوء ..

أما وجوه الناس فأشكال وألوان ومعان غريبة .. هذه أم ومعها طفلها كلما
حاول أن يتكلم سدت فه . وهست في أذنه بكلام غير مفهوم طبعاً .. ويستكثف
الطفل ويحاول أن يقاطع أمها وهي تصلي .. وهذه عجوز أنت بيقرتها .. وهذا
شاب مجذوم .. وهذا رجل يحمل على كتفه اثنين من الأطفال ..

وفجأة يظهر راهب .. كأنه يباغت الشرور التي لابد أن الدعوات لم
تصبها والصلوات لم تسقطها .. ثم يظهر الرهبان جميعاً ويفسحون الشرفة للدلائل لاما
الذي يرفع يده ويختفي رأسه ومن وراء منظاره الزجاجي تلمع عيناه .. تلمع أكثر
من ملابسه الملونة الزاهية بالأحمر والأزرق والأصفر ..

ويقترب من قداسته بضعة سنتيمترات ويقول :

تكد .. ثك .. رو .. لي .. آه «لحظة صمت» .. بي .. أهو ..
لي تهوه .. شى .. منه .. بو .. تو .. توهان .. هاما .. سوفوت «صمت
طويل» .. اده له .. آه !

ليست هذه أخطاء مطبعية .. وإنما هو كلام حقيقى .. كلام مقدس له
أول وله آخر . وأنا رأيت أوله وهو يخرج من بين شفتين ناعمتين رقيقتين تستديران
وتصبحان كخاتم سليمان ، ثم تند إحداها إلى الأمام في اشمئزاز مقدس ،

والأخرى تهبط إلى أسفل في قرف الملي . . ورأيت آخر هذا الكلام وهو ينزل فوق رعوس حانية عارية .

رأيت الكلام ينزلق على الرعوس فتلقفه الأيدي المبسوطة عند الركبتين . . ورأيت معناه في العيون الدامعة والصدر التي تعلو وتهبط حائرة بين معانٍ هذه الآيات البلكونية — فقد كان قداسته واقفاً في البلكونة — ولابد أن هذه البلكونة ترمز إلى إحدى السماوات أو الأبراج التي في السماء .

وجأة يختفي الدلائل . . ويقفل الرهبان الأبواب وراءه حتى لا يصاب بأنفاسنا الإنسانية الآثمة . . وحتى لا تزعجه أصوات المؤمنين الذين يطلبون المزيد من الآيات والنظارات . . والمزيد من لعناتي أنا !

١٢ ساعة ذهاباً وإياباً في الظل والمطر والبرد ورائحة العفونة والبعوض وبعد ذلك : تكك . . تكدر . . موه . . أوه !

روح يا شيخ منك الله !

وعدت في قرف شديد إلى الفندق . . ولم ألتقي إلى الحشد الذي يمثل عدداً من أبناء التبت لم تسعدهم الظروف لمشاهدة الدلائل لاما . ولو مددت يدي أو رجلي لقلوها بالترتيب حسب الحروف الأبجدية !

وفي اللوكاندة اتصلت برئيس وزارة التبت أطلب إليه أن يوافق على مقابلتي للدلائل لاما . لأن أراه عن بعد . . فلم تكن هذه مقابلة . إنما هي مواجهة . كما يتواجه المجرمون والكلاب البوليسية في أقسام البوليس .

ولك الآن أن تعرف أينا المجرم وأينا الكلب البوليسي ، بعد أن أخبرتك بطريقة خروج الحروف والكلمات من بين شفتي الدلائل لاما ! وبعد أن عرفت الكلب البوليسي الآن ، فلا يمكن أن أكون أنا المجرم . فالاعتداء على راحتني وعلى آمالى واضح جداً !

وقد لمست من صوت رئيس وزراء التبت لهجة ليست ودية بالمرة . فلا أعرف إن كان الرجل قد رجع في كلامه . أو كان الرجل الهندي الذي يتولى قطع العلاقات العامة والخاصة للدلائل لاما قد أثر عليه .

ولاحظت أنني ذهبت في كلامي معه إلى أقصى درجات التوصل والرجاء .

وفهمت من رئيس الوزراء أنه لا يستطيع أن يقابل الصحفيين في هذه الأيام . واستوضحت منه معنى « هذه الأيام » . وهذه الأيام بالنسبة لنا نحن البشر معناها هذا الأسبوع أو هذان الأسبوعان على الأكثـر . ولكن بالنسبة للآلهـة .. فلابد أن تكون « هذه الأيام » معناها السنوات أو القرون ! ومع عبارة خرجت من فم رئيس الوزراء تقول : اتركي أفكـر . بدأـت أنا في التـفكـير ..

وفي الصباح الباكر كنت قد نفذـت فـكري .. وجاءت الـريـكـشا وتمددـت عـلـيـها مـلـفـوـفاـ بالـبطـاطـين وـملـفـوـفاـ بالـفـوط وـالـبـاشـاكـير . وـانـدـهـشـ النـاسـ . وـقـلـتـ لهم بـصـوتـ غـيرـ وـاضـعـ : إـنـيـ مـرـيـضـ وـعـلاـجـيـ الـوحـيدـ عـنـ قـدـاسـةـ الدـلـاـيـ لـاماـ ..

وـبـيـنـ طـيـاتـ مـلـابـسـيـ تـوـجـدـ كـامـيرـاـ ..

أـمـاـ الرـجـلـ الـذـىـ يـحـمـلـ الـرـيـكـشاـ مـنـ الـخـلـفـ فـهـوـ مـصـورـ مـعـرـفـ ،ـ وـقـدـ استـدـرـجـتـ إـلـىـ هـذـهـ الـمـنـطـقـةـ بـيـنـ الـجـبـالـ وـرـاءـ أـمـلـ بـرـاقـ جـداـ هوـ أـنـيـ موـفـدـ مـنـ إـحدـىـ شـرـكـاتـ السـيـنـيـاـ الـعـالـمـيـةـ لـعـمـلـ فـيـلـمـ عـنـ الدـلـاـيـ لـاماـ .. وـوـعـدـتـ بـأـنـ يـكـونـ ضـمـنـ الـذـيـنـ سـيـشـرـكـونـ فـيـ تصـوـيرـ هـذـاـ الـفـيـلـمـ .ـ وـأـشـهـدـ أـنـ هـذـاـ الشـابـ الـمـصـورـ كـانـ فـيـ غـايـةـ الـإـخـلـاـصـ .ـ وـمـعـ الـأـسـفـ لـأـعـرـفـ اـسـمـهـ الـآنـ فـقـدـ أـحـضـرـ مـعـهـ عـدـةـ كـامـيرـاتـ وـعـشـرـاتـ الـأـفـلـامـ .

واجـزـنـاـ الـحـواـجـزـ الـواـحـدـ بـعـدـ الـواـحـدـ .ـ وـاقـرـبـنـاـ مـنـ الـخـدـيقـةـ .ـ وـدـخـلـتـ الـبـابـ الـخـارـجيـ وـالـصـالـةـ وـالـسـلـامـ .

وـرـآـنـ رـئـيـسـ الـوـزـرـاءـ فـسـبـقـنـ إـلـىـ فـوقـ ،ـ إـلـىـ حـيـثـ يـعـيـشـ الدـلـاـيـ لـاماـ ..ـ وـيـدـوـ أـنـ درـكـ هـذـهـ الـحـيـلـةـ .ـ وـأـدـرـكـ أـيـضاـ أـنـ هـذـاـ اـنـتـصـارـ عـلـىـ الرـجـلـ الـهـنـدـيـ قـاطـعـ الـعـلـاقـاتـ الـعـامـةـ ..

وـعـلـىـ الـحـفـةـ صـعـدـتـ السـلـمـ .

الـآنـ أـصـفـ لـكـ الـبـيـتـ أـولـاـ ..ـ السـلـمـ مـنـ خـشـبـ كـسـلـامـ الـبـيـوتـ الـإنـجـليـزـيـةـ ،ـ وـمـفـروـشـ عـلـيـهـ سـجـادـ مـنـ جـلـودـ الـأـغـنـامـ أـوـ الـجـمـالـ أـوـ حـيـوانـ الـلـامـاـ ..ـ وـلـكـنـ الـخـشـبـ وـالـخـدـرانـ نـظـيفـةـ كـلـهاـ .ـ وـتـفـوحـ مـنـهـ رـائـحةـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـبـخـورـ .ـ وـكـلـ شـئـ

هامس تماماً . والسلم ضيق ودرجاته ضيقة . وهو يلتوى فجأة . وعند الالتواء تجد نفسك في مواجهة لوحات على الجدران . والأرض مغطاة بسجادة فخمة ، جميلة الألوان . وتتسلل من السقف نجفة . وكل الأبواب مقفلة . ولكل يضعوا الخفف على الأرض ، كان لا بد من زححة بعض المناضد والمقاعد ..

وابتسم رئيس الوزراء وأشار لي بأن أنه من تحت البطاطين وأنه لا داعي لهذه الحيلة التي جازت على الرجل الهندى . وأن هذا يكنى . ولكنني تمسكت بعض الأغطية وبعض الفوط الملفوفة حول عنقى . ورغم حرارة الجو في هذا القصر الدافى ورغم خوف من تiarات الهواء عند افتتاح شباك أو باب . فإنى ظللت ملفوفاً مربطاً وعلى استعداد لأن أقول آه .. بأعلى صوتي .

ومن ورائي افتح باب صغير . وعند افتتاحه انفتح الرءوس التي ظهرت فجأة ، وتقدم الدلائل لاما ..

والآن أراه بوضوح وأصفه لك عن قرب : شاب متوسط القامة . لامع الوجه والابتسامة أيضاً .. وصوته غليظ وشعر رأسه قصير . ويمشى مرفوع القامة . وقد لاحظت لمعاناً غريباً في عينيه . مع ميل إلى أن يغمض عينيه يسرى عند الضحك .. وهو لا يضحك وإنما يقهقه . ولم يكدر يرانى حتى تعالت ضحكاته ومديده المقدسة ووضعها على رأسى . ثم لمس أنفى . ولا أعرف إن كان المقصود هو أنفى بالذات ، أو أن يده أخطأت الطريق إلى فى لعلى أقبلها .. ثم اتجه مباشرة إلى كرسى وثير وجلس واضعاً شبشبَاً على شبشب .. فبعد أن جلس خلع الشبشب الذى يرتديه .. ثم وضع واحداً منها على الآخر . تماماً كما كنا نفعل في الريف عندما نتشارج ، فنضع طوبية فوق طوبية دلالة على أن المعركة مستمرة . وكنا نقول ونحن صغار : طوبية فوق طوبية تبى المعركة منصوبة !

ولاحظت أن قدى قداسته لا ترقى إلى المستوى اللائق .. ثم إن أظافره مصبوغة بلون أصفر . لا أعرف إن كانت هذه صبغة أو أى شى آخر ..

وتحت الأغطية صرخت بشكل مكتوم : الله يخرب بيتك يادلائى !

فقد وجدت في ساقيه آثار دمامل .. آثار هرش .. أى أنه بيده التي لامست وجهى قد هرش في ساقيه .. وهذا فقط لم أعد في حاجة أن أقوم بتمثيل

دور الرجل المريض . فأنا بالفعل مريض وأنا في انتظار أى مرض . والذى هربت منه في نيودلهي ، قد سبقنى إلى ميسورى . وعلى أعلى المستويات .. فوق الهملايا ، وعند رجل إله !

وقلت : آه — ردآ على سؤال منه ، فقال المترجم : هل أنت مريض ؟
وقلت : آه — ردآ على سؤال آخر : وهل أنت صحفى ؟
وقلت : آه — ردآ على سؤال لم أكن أتوقعه : وهل تريد حديثاً معى وصورة أيضا ؟

وهنا نزعت الأغطية . بعد أن أحست بأنى خنقت نفسى من غير مبرر .
 وأن بعض هذه الأغطية كان يكفى للضحك على « قاطع العلاقات » الموجود في
الدور الأرضى ..

وجلست إلى جوار الدلائى لاما ، لكنى تظهر لي أول صورة نشرت له فى
العالم العربى . أو صورة تنشرها « أخبار اليوم » للدلائى لاما . وأنا أبتسם
له وهو أيضا . وسبب ابتسامى أننى رويت له نكتة . وسبب ابتسامته أنه يضحك
عادة . وأنه ليس فى حاجة إلى أى سبب لكي يضحك . وفي صورة أخرى لمانشرها
بعد مارأيت نفسى أقهقه . أما السبب فهو أن الدلائى لاما طلب منى أن أبلغ تحياته
إلى المؤمنين به . المساكين فى شوارع القاهرة والإسكندرية والمنصورة وغيرها من
المدن !

سألت الدلائى لاما : كيف هربت من التبت إلى الهند ؟
فأجاب بصوت غليظ : سر ..
وسأله : هل أخذت معك كميات من الذهب ؟
فأجاب : سر

قلت : هل تنوى نشر مذكراتك بعد ذلك ؟
فأجاب : سر

سأله : ما سر حرصك على أن يكون كل شيء سرا ؟
فأجاب : سر ..

قلت : ولكن كل شيء معروف عنك . . فمعروف عدد رجالك . . وماذا تأكلون وماذا تشربون ؟ إن الذين يتولون حراستك هم الذين ينشرون أخبارك في كل مكان .

فأجاب : إنني أعرف ذلك .

قلت : إذا لا يوجد أى سر . .

فضحلك . . ثم عدت أسأل الدلائِي لاما : هل أستطيع أن أعرف كيف تعيش هنا ؟

وأشار إلى ملابسه وإلى غرفة في مواجهتنا وفضحلك . .

وهنا التفت إلى المترجم أسأله إن كان المقصود هو أن قداسته قد زهر وأنه يكاد يطatum من هدومه . .

ولكن المترجم لم يشأ أن يقول شيئاً . .

وعدت أسأله : ما الذي قلته قداستك الآن ؟

فضحلك ولم يقل شيئاً .

وتلفت إلى المترجم أسأله . ويظهر أن المترجم يريد أن يقول لي : هذا سر .

وسألت الدلائِي لاما : هل جاء دورك لكي تخنق في سن الثالثة والعشرين كما هي العادة ؟ أم وجودك في بلاد أجنبية يجعلك تعدل عن هذه العادة ؟

وضحك .

وقبل أن ينطق قلت له : هذا رأي الصحف الصينية !

وسأله : ما هي حدود قدرتك كإله ؟

واعتقد أن السؤال كان صعباً ولم يكن متوقعاً !

فأشار إلى الغرفة الضيقة .

والتفت المترجم يقول : إنه يصل دائماً . .

أى أنه يطلب من آلهة أكبر أن تعاونه على أداء رسالته . .

يعنى هذا الدلائِي لاما غلبان مثلنا !

وطلبت إلى الدلائِي لاما ، قبل أن ينهض وقبل أن يزهق من عشرات الصور

الى التقطت له ، والى التقطها المصور الهندى صاحب الطموح العظيم ، أن يسمح
لـ بتصوير صاحبة القداسة والدته . فالناس يتلهفون على التطلع إلى وجهها
السماوى ..

وهر رأسه بالموافقة ..

وألقيت باخر اللفات الى خنقت عنى ، واتجهت إلى الغرفة الضيقـة الى
كثيرا ما أشار إليها قداسته ..
والغرفة ضيقـة جدا ..

وعلى الأرض توجد سجادة ضيقـة . سجادة للصلـاة ..

وأمام السجادة توجد لفة كبيرة من الورق .. هذه اللفة تضم الأدعـية والتراتـيل
الـى يؤدىـها الدلـائـى لاما ، كل يوم في الصـباح قبل أن يـياشر مهام الـوهـيـته ..
والـلفـة يـبلغ طـولـها نحو عـشـرين متـرا . والـكلـمـات مـكتـوبـة عـلـيـها بـالـطـولـ . أـى
الـسـطـرـ الواـحـد طـولـه عـشـرون متـرا . ولـكـى نـقـرـأـ السـطـرـ الـذـى يـليـه يـبعـدـ اللـفـةـ منـ
أـوـهـاـ إـلـىـ آخرـهـ . والـلـفـةـ الـواـحـدةـ بـهـا عـشـرون سـطـرـاـ طـولـياـ .

ولـيـسـ هـذـهـ إـلـاـ إـحـدـىـ الـلـفـائـفـ الـخـاصـةـ بـهـذـاـ الـيـومـ فـقـطـ . وـقـيلـ لـيـ إنـ
قدـاستـهـ يـقـرـأـ حـوـالـىـ عـشـرينـ لـفـةـ فـيـ الـيـومـ الـواـحـدـ !

إـلـىـ هـذـهـ الـرـجـةـ هـوـ مـشـغـولـ فـيـ الدـعـاءـ لـشـعبـهـ الطـيـبـ ؟

وـعـلـىـ الـجـنـدـرانـ تـوـجـدـ لـوـحـاتـ لـطـوـاوـيـسـ ..

لا أـعـرـفـ إـنـ كـانـتـ هـذـهـ الـلـوـحـاتـ هـاـ أـيـةـ دـلـالـةـ دـينـيـةـ عـنـدـ الـبـوـذـيـنـ الـذـيـنـ
ابـتـدـعـواـ منـصـبـ الدـلـائـىـ لـاماـ فـيـ أـوـاـخـرـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ .. أوـ أـنـ هـذـهـ الـلـوـحـاتـ
تـخـصـ الإـنـجـلـيزـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـسـكـنـونـ هـذـاـ القـصـرـ . وـأـنـهـمـ أـتـواـ بـهـاـ مـنـ إـمـرـانـ مـثـلاـ ..
وـقـدـ لـاحـظـتـ فـيـاـ بـعـدـ عـنـدـمـاـ زـرـتـ قـصـرـ الـإـمـامـ أـحـمـدـ مـلـكـ الـيـنـ السـابـقـ
فـيـ صـنـعـاءـ مـثـلـ هـذـهـ الـلـوـحـاتـ الـتـىـ تـضـمـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـطـوـاوـيـسـ الـلـتـيـهـ الـأـلـوـانـ ؟
وـلـمـ أـجـدـ أـحـدـاـ أـسـأـلـهـ عـنـ دـلـالـةـ هـذـهـ الـطـوـاوـيـسـ ، وـإـنـ كـنـتـ أـعـرـفـ أـنـهـاـ لـوـحـاتـ
مـرـسـوـمـةـ عـلـىـ سـجـاجـيدـ لـإـرـانـيـةـ .

وـلـعـلـ الدـلـائـىـ لـاماـ قـدـ اـسـتـعـارـ أـلـوـانـ مـلـابـسـهـ مـنـ هـذـهـ الـلـوـحـاتـ .

وـبـيـنـاـ أـنـاـ مـنـدـهـشـ لـلـفـائـفـ الـطـوـيـلـةـ ، وـلـلـسـجـادـةـ الـتـىـ تـشـبـهـ شـرـيطـاـ مـنـ الـوـرـقـ

مخصوصاً بغير عناء .. وللشيشب الصغير جداً الموضوع فوق السجادة ، حتى لا تطير ، إذا انفتح الباب أو الشباك فجأة ..
وفي هذه اللحظة تقدم أحد الرهبان وزغلني في جنبي .

والتفت لأراه وقد أمسك زجاجة عطر . وعلى الطريقة البدوية لمس يدي بالزجاجة فنزلت قطرة من عطر لونه أصفر . وأذنلت العطر من أنفي . وكان لا بأس به . وقبل أن أسأله عن مصدر هذا العطر ، وإن كان يشفي من الأمراض ، وجده قد اختفى ..

وبعد أن أطلت التأمل في الغرفة التي ليس بها أى شيء أكثر مما قلت والغرض من التأمل هو أن أبين للدلاي لاما . أن في الغرفة شيئاً يغري بالتفكير والتأمل . والذى فكرت فيه وتأملته هو كيف يعتقد هذا الرجل العبيط أنه إله ! وخرجت بسرعة لأن السيدة والدته في انتظارى ..
والله هرجلت يا واد .. الدلاي لاما وأمه أيضاً !

والله طاقة القدر افتحت لي مرتين !

والطريق إلى غرفة قداسة الأم عبارة عن ممر صغير . وألم التفت إلى شيء في الممر . فلم يكن هناك أى شيء .

وانفتح الباب . وطلت سيدة تضع منظاراً على عينها . والسيدة ترتدي فستانًا من النايلون الأبيض . وظننت أننى جئت في الوقت غير المناسب خصوصاً وأن قداستها ما تزال في قيص النوم .

ولكن قداستها ابتسمت وأشارت لي بالحلوس وهي تمد يدها تسلم على ..
توقفت مدة أخرى . فأنا لم أكن أعرف أن السلام على قداستها ليس حراماً ..
وقابلت ابتسامتها وبساطتها بقولي : أنا كنت أتصور إنك أكبر سنًا !

فقالت وكلها أنوثة عادية جداً : كم سني !
قلت : في الأربعين .

فضحكت وهي سعيدة جداً . هل تعرف أن أى ما تزال على قيد الحياة وأنها شابة !

ومعنى ذلك أنها صغيرة . ولكن ما معنى أنها ما تزال على قيد الحياة ؟ هل كان المفروض أن أنها تموت وهي في ريعان الشباب ، تماما مثل الدلائل لاما الذي يجب أن يختفي في أجمل سنوات عمره ! لا أعرف ولم أستوضحها . فنظرها وملابسها وخجلها والزكام الذي بدا يغزو أنفه ويلسعه من الداخل ، كأنني تنشقت بعشرات المليون بعوضة ، كل هذا معنى من الاستمرار في الكلام معها وفالتقط صور لها في أوضاع مختلفة . في الفستان ووراء الناموسية النايلون أيضا .

وعدد أسألاها : هل كنت تتوقعين أن يكون ابنك دلائل لاما ؟

قالت : شعرت بهذا . وكنت أحيانا أحلم بأنه على رأس جيش . وأحيانا بأنه يطير في السماء . وكان المرحوم زوجي يتهمني بالجنون ..

وقد رأيت وجه قداستها يتلون بالاحمرار . عندما أكدت لها أنها شابة .. وأنها أصغر بكثير جدا مما تصورت .

حتى أم الإله لم تنس أنها أثني . وربما كانت هي الوحيدة التي لا يعنيها أمر دولة التبت من أولها إلى آخرها . إن دخولها إلى الهند قد ملأ غرفتها الصغيرة بالملابس النايلون والأبيض والأحمر والسوبيات . وأعتقد أنني لمحت بعض اللبان الأمريكي وبعض السجائر أيضا !

وسألتني قداستها : من أى بلد أنت !

فقلت : من القاهرة عاصمة مصر .

وقالت : وهل جئت لترى صاحب القداسة ابني !

قلت : طبعا .

وسألتني : ما رأيك ؟

وهل يكون لي رأي . طبعا رفعت يدي مضمومتين إلى أعلى . أحيى مجرد ذكر اسم صاحب القداسة الدلائل لاما !

واستاذنت منها . لأنركها على حريتها تزع الفستان النايلون وترتدى مسوح الراهبات . فهي راهبة طبعا . ولا يحق لها أن تتزوج لعدة أسباب : أولا لأنها أنجبت لها والتبت لا تؤمن بتعدد الآلهة . . وثانيا لأنها أنجبت أربعة

إخوة للدلائل لاما ، رجلين وامرأتين . وإحدى بنتيها تعيش في منطقة دار جيلنج على مسافة قريبة من الدلائل لاما – هذه المنطقة هي أحسن مناطق الهند في زراعة الشاي ، ويوجد شاي عالمي باسم دار جيلنج . ولعلك تلاحظ أيها القارئ أنه مضت عدة صفحات لم أشر فيها إلى كوب واحد من الشاي دخل به جرسون أو رفضت أن أشر به . . والحقيقة أنني فقدت طعم الشاي واللبن والنوم والدنيا . . وفي اللحظة التي تحقق فيها أمنيتي بروؤية الدلائل لاما بدأت أشعر بالزكام والسعال ، وقدت طعم الشاي واللبن والحياة .

ونزلت السلم بدون ريكشا . وقد سبقنى الشياطون – أو الذين يحملون الريكشا – ولم ألتقط شيئاً إلى الناس على الباب أو أمام الباب . حتى ضابط العلاقات الهندية ، لم أجده في نفسي رغبة في أن أنظر إليه . ورأيت أنه من العبث وتبذيد الطاقة أن أنظر إليه بشيء من الشماتة . أو الاحتقار !

وخرجت والناس المؤمنون والرهبان يتلفتون ناحيتي . وكل عيونهم تحسلي وقول بكل هجات أهل التبت . يا بختك .. إتس .. إتس !
والكلمات الأخيرة هنا الحزن المميز للزكام والسعال الذي انتقلت عدواه من صاحب القداسة إلى أنني !

ولو أعرف على أي شيء يحسلي هؤلاء الناس . هل يحسلي على المشوار الطويل الذي قطعه من مصر إلى الهند . أم من العاصمة الهندية في سيارة قدية حتى وصلت إلى هذه المناطق الحادة القاحلة . . أم على المغض الذي بدأ يلعب بأحشائي .. .

أما السعال فقد انفرد يتمزيق صدرى . . كان السعال «فنان» عصبي المزاج ، كلما كتب شيئاً راح يمزقه . ولكن بدلًا من أن يلقي بما يمزقه في فمي أو في أنفي . فإنه يحتفظ به في صدرى . في مكان ما في صدرى !
إتس .. إتس .. وإنحصار على قداستك !

* * *

وبنفس السيارة الطويلة العريضة عدت إلى نيودلهي ، بعد أن ودعت الشياطين ، ودعت المصور الذي تركته يحمل بذلك اليوم الذي تجئ فيه عدسات

السينما العالمية لتلتقط قصة حياة صاحب القداسة ، ويكون هو من ضمن الواقفين
وراء الكاميرات ..

وعندما ودعته ، اضطررت إلى أن أقرّ به . فقد كان نائماً في أحلام سعيدة ..
وفي ركن من السيارة بدأت أفرض نفسي ، لأنّا كدّ إن كنّت حياً أو ميتاً ،
فلم أصدق نفسي وأنا أقول باللغة العربية : أول صحفى في العالم كلّه يقابل الدلائل
لاما شخصياً ، ويأخذ منه الزكّام .. ومن المؤكّد أنّي أول صحفى في الكورة الأرضية
يصور أم الإله ، ولو طلبت مني أن أتزوجها . لو عدتها فوراً !



انه قداستة الدلائل
لما يتلقى الدعوات
ويوزع البركات بمنتهى
المسخاء .. !

● هفاط تَصْسِونْ بِهَا !

انتهت مهمتي الأولى في الهند ..

والمهمة الثانية هي أن أذهب إلى ولاية « كيرالا » في أقصى جنوب الهند ، لأكتب قصة الصراع بين الحزب الشيوعي وبين الحكومة المركزية في نيودلهي .. فالهند مجموعة من الولايات كل واحدة لها برلمان ولها وزارة . وهي جميعاً تتلقى التعليمات من الحكومة المركزية . وبعض الولايات الهندية يبلغ سكانها ثمانين مليون نسمة ! وولاية « كيرالا » تقع على الساحل الغربي للهند . إلى الجنوب من هذا الساحل .

ويقال : إن اسمها « خير الله » . وإن هذه التسمية قد أطلقها العرب على هذه البلاد . وال المسلمين قد دخلوا إلى الهند من هذه النقطة . واليهود أيضاً . فعندما انحدر المعبد في أورشليم هرب اليهود على سفن فينيقية إلى هذه البلاد وأقاموا لهم معابد كثيرة . وخصوصاً في مدينة كوتشين .

عاصمة هذه الولاية اسمها « ترفندرام » . . الاسم فقط جميل . ولكن المدينة نفسها ليست كذلك .

جعلت ألف في شوارع نيودلهي بحثاً عن أية معلومات عن ولاية كيرالا .. لم أجده في المكاتب إلا منشورات صغيرة . وأحياناً فصولاً ضمن الكتب . وفي نيودلهي مكتبات ممتازة بها كل الكتب التي صدرت في إنجلترا بالذات . ولم يكن أمامي إلا الحزب الشيوعي . وذهبت إلى مركز الحزب الشيوعي

وسألت عن كتب هذه الولاية . وهناك وجدت بعض الكتب . وبحثت عن خريطة هذه الولاية أيضا وبدأت أجمع كل ما تنشره الصحف الهندية عن الموقف في كيرلا . عن مظاهرات الطلبة ورجال الدين . وعن الهجوم على رئيس الوزراء نامبو درياباد . وجمعت صوره وخطبه . ولاحظت أنه رجل قوى الحجة . وأن له تصريحات خاصة . وهذه التعبيرات مألوفة ومتكررة عند كل الزعماء الشيوعيين . وقد ساعدتني وزارة الخارجية الهندية . فأبرقت إلى ولاية كيرلا وطلبت إلى المسؤولين هناك أن ينتظروني وأن يجذبوا لي مكانا في أحد الفنادق . وسافرت بعد أيام إلى مدينة «مدراس» في طريق إلى ترفندروم عاصمة كيرلا .
و«مدراس» مدينة كبيرة واسعة ..

وهي تقع على الشاطئ الشرقي للهند إلى الجنوب . وهي أيضا لا تختلف عن المدن الأخرى فيها نفس الروائح وربما كانت هناك أقوى . والجو هنا طبعاً حار والرطوبة عالية والبعوض كثير جداً . والناموسية المزدوجة لسريبرى لانكى لمحز البعوض . والفليت الذى يرشون به غرفى لا يقتل البعوض . وأن هناك احتمالاً كبيراً في القضاء على أنا إذا استمرت الرشاشة تبصق هذه المواد السامة في وجهى .
وجلست في ردهة الفندق الكبير أقلب الصحف . ووجدت أشياء طريفة .
قرأت موضوعاً عن البوليس النسائي . فقد بلأت هذه الولاية إلى الاستعانت بالبوليس النسائي وجعلت له زياً خاصاً . ويبدو أن هذه الفكرة قد أثارت سخرية الناس ؛ وأنا أعرف كيف يسخر المتهود ، ولكن لا أعرف كيف يضحكون . فربما كان الشعب الهندي هو الشعب الوحيد في كل القارة الآسيوية الذي لا يضحك أو من النادر أن تجد على وجه أى إنسان أى بارقة ابتسامة .. على عكس كل القارة الآسيوية التي تضحك شعوبها بلا مناسبة !
ربما كان هذا ما يسمونه التوازن الدولي !

وقرأت مقالاً طريفاً . والمقال على شكل نداء موجه إلى الشعب في ولاية مدراس ..

المقال يطلب من الناس أن يكفوا عن قتل الثعابين ..
ويتساءل الكاتب لأى سبب يقتل الناس هذه الزواحف المسكينة . هل

هناك عذاب أو لعنة أصابت كائناً حياً فحزن فقط أرجله وفضل أن يزحف على بطنه مثل الأفاعي؟ ألا توجد في قلوب الناس رحمة.. ألا يذكر الناس أن الله لم يخلق لهم الأيدي ليقتلوا بها الكائنات التي بلا يدين ولا رجلين؟ ثم لماذا يقتل الناس هذه الأفاعي؟ يقتلونها لكي يسلخوها.. ثم يبيعوا جلدتها.. ولا يمضى وقت طويل حتى يتتحول الجلد إلى حزام لامرأة.. أو جزمة لفتاة.. أو شنطة بد لعروس.. فهل كل هذه المجازر الشائنة من أجل إرضاء المرأة؟ هل المرأة تساوى كل هذه النساء؟

ثم من الذي يذبح الأفاعي من أجل المرأة؟ إنه الرجل.. الذي أذله المرأة وجعلته كالأفعى، يزحف على يديه وعلى رجليه وعلى شرفه.. وعلى جثة كرامته! إن الرجل ينسى ما فعلته المرأة به..

أو لعله يتذكر جيداً ما فعلته المرأة.. ولذلك فهو يقتل هذه الحيوانات المسكينة انتقاماً من المرأة!

وشيء هام جداً أشار إليه الكاتب..

وقال لنترك هذه الاعتبارات الإنسانية.. إن هناك اعتباراً اقتصادياً هاماً جداً، يحتم علينا، وأسباب وطنية، أن نترك هذه الثعابين تعيش بيننا.. كما تعيش حيوانات أخرى كثيرة لا فائدة لها ولا ضرر أيضاً..

إن هذه الثعابين تأكل الفيران، والفيران إذا لم تأكلها الثعابين فإنها تأكل حقول القمح..

ويصرخ الكاتب قائلاً: هل عرفتم هذه الحقيقة؟ إن الفيران هي التي تأكل القمح قبل أن يتتحول إلى دقيق لكم والأولادكم.. فلماذا لا تكون الأفاعي والثعابين تدافع عننا بلا مقابل؟

وال فكرة وجيهة.. وهي مشكلة من المشاكل الموجودة في هذه المنطقة.. ولا بد أن لها نظيرًا في الولايات أخرى.

ورفعت سماعة التليفون لأسأل عاملة التليفون: هل قرأت صحف اليوم؟ ولم تفهم هذا السؤال الذي يعتبر دخولاً في موضوع لا تعرف هي عنه أي شيء..

أو لعل هذه الفتاة قد تعودت معاكسة الزلاع ، ولذلك فهى لا تستبعد أن يكون كلامى معها مجرد مداعبة . وسيكون لهذه المداعبة ما بعدها ..
يجوز ..

وكان ردتها استنكاراً ملفوفاً في ثوب مهذب من الدهشة المهنية – أى الدهشة التي تختتمها طبيعة المهنة – وأعدت السؤال مع شئ من التوضيح قلت لها : هل قرأت ما كتبته الصحف اليوم من أنه يجب على المواطنين ألا يقتلوا الشعابين التي تأكل القرآن التي تأكل القمامة ؟ هل هذا رأيك أنت أيضاً ورأى اللوكاندة ؟ هل أنت تقتلون الشعابين ، أم أنكم من أنصار الحياة . أى أن الإنسان يجب أن يعيش وأن يترك غيره يعيش . غيره من الناس والأفاعى ؟ وبالاختصار هل في غرفتي ثعابين أو قرآن ؟

أما الضحشك الذى سمعته في التليفون فلم يقابلها إلا غيظ شديد مني . وألم متواصل في خلودي وفي قفالي . قبلات وصفعات من الععرض الذي تسلل إلى داخل الناموسية . وأنا اعتذر عن استخدام كلمة «تسلي» هذه . فعندها أن الععرض قد وجد صعوبة في الوصول إلى وجهي . والحقيقة أن الطريق كان مفتوحاً . وكان رد عاملة التليفون أن كاتب هذا المقال رجل مجنون . والحقيقة أنها قالت صحيحة مجنون !

وقبل أن تسألني عن صناعتى ، اكتفيت بهذه الشتيمة الموجهة إلى أحد أبناء مهنتى . ودخلت الغرفة في انتظار ثعبان أو فأى !

وفالليل خرجت أتمشى في المدينة . وركبت أحد التاكسيات . إنها هنا كثيرة . فالتاكسىات في مدينة نيودلهى كلها من ماركة موريس الصغيرة . وكل سائقها من طائفه السيخ . فالسائق يملأ المقعد وعمامته تضرب في سقفه . ومنظره غريب جداً . إن الذى يراه في القاهرة يحس لأول وهلة أنه حانقى .. أو سائق عربة موقى . والمرور هنا أيضاً على اليسار . وكل دول الكومنولث البريطانى تمشى سياراتها على اليسار ، مثل قطارات السكك الحديدية . أى على عكس المرور عندنا وفي كل الدنيا !

وسألت سائق التاكسى : هل تعرف كيرالا ؟

وأجاب : طبعاً .

وسألته عن الأحوال هناك وما رأيه هو الشخصى . وأصبح رأيه معروفاً عندما قال لي إنه من مواليد كيرلا ، وإنها جميلة . وإن الأزمة السياسية التي فيها لابد أن تنتهي ولا بد أن ينتصر حزب نهرو مهما فعل الشيوعيون . وعرفت منه على الرغم من أنه شيوعى . ولكنني يعيّب على الحزب الشيوعى هناك تفككه . فلو كان الحزب قوياً لبقي في الحكم إلى الأبد .

ولم أجده في آرائه السياسية ما يشجعني على الاستمرار في هذه المناقشة . . .
وسألته عن الحياة هناك وعن الأمراض . وعرفت منه أنه لا توجد أية أمراض مشهورة . وإنما هناك كل الأمراض الموجودة في الهند مصافحة إليها مرض الفيل . وهذه بالإضافة ليست من عند السائق . وإنما من عندي أنا والذى أضافها ليس أنا الذي يكتب الآن ، وإنما أنا الذي يخاف . الذي في خوف دائم من كل مرض .
ومن اسم أي مرض .

والذى قرأته عن مرض الفيل أرعبنى . . .
فهذا المرض ينقله النباب وينقله البعض أيضاً .

دودة هذا المرض لا تنشط في الدم إلا بعد منتصف الليل والساعة الثانية صباحاً . أى في الوقت الذي يكون فيه المريض نائماً . ولاشك أن هذا يعتبر في منتهى الذوق من الدوادة الحقيرة . . حتى الدود عنده ذوق في الهند !

إذا جاء الطبيب ليكشف عن سر التهاب عين أو أنف المريض أو عنقه فلا بد أن يكون ذلك في هذه الساعات من الليل . فدودة مرض الفيل لا تعمل إلا في هدوء ، أى في هدوء المريض . فإذا تحرك المريض توقفت عن العمل . .
وهم في هذه المناطق من الهند يلتجأون إلى نوع من النباب أو الحشرات التي تنتص دم الأماكن الملتهبة في الجسم . ولكن مرض الفيل المعروف ، والذى يؤدي إلى تضخم جسم الإنسان ، لا علاج له . وإن كان بعض الأطباء يستخدم مركبات السلفا . ولكن حتى الآن ليس له علاج أكيد . ففرض الفيل هو نوع من التورم . النفة في كل أعضاء الجسم دون أن يكون ذلك مؤثراً . أى أنه مرض النفة غير المؤثرة !

و هذه الدودة إذا دخلت الجسم انطلقت إلى الأعضاء الداخلية بسرعة . .
وظلت كامنة هناك تنمو وتتضخم في صمت ، ولا تظهر أعراض الإصابة بها
إلا بعد مائة يوم . ولا تنتهي الدودة تماما إلا بعد سنة !

والدودة الرفيعة الدقيقة الخاصة بالإنسان لها اسم رقيق جدا هو : لو لو ..
وعلموماتي أيضا أن هذه الديدان الفيلية موجودة في كل جزر المناطق الاستوائية،
وموجودة في إفريقيا واستراليا . . أى باختصار في كل البلاد التي سأقوم
بزيارتها . . أما الوقاية منها فكل الكتب الطبية تؤكد أن الد.د.ت هو أحسن
شيء اخترعه الإنسان والـ د.د.ت . الغرض منه طبعا القضاء على البعوض الذى
يحمل هذه الدودة . . وليس علاجا للمريض إذا أصيب بها . فليس أمامي إلا
الوقاية : أولا بالـ د.د.ت . وثانيا بالناموسية .

فإذا عرفت أيها القارئ أنه توجد هنا في هذا الجانب من الهند جميع أنواع البعوض وجميع أمراض البعوض، ويوجد معهد خاص بدراسة البعوض الذي يوجد منه في الهند وحدها ٢٥٠ نوعاً، أدركت المأساة التي أعيشها. أو أدركت المأساة التي أطلق إليها بسرعة ٢٥٠ كيلو مترا في الساعة - هي سرعة الطائرة الصغيرة في أحسن حالاتها !

وربنا يسٰر . . وربنا هو الذى ينجى من المرض قبل الإصابة به وبعد الإصابة به . ولا أحد يعرف أين يموت ولا متى ولا كيف ولا بأى شىء . ثم إنه ليس من الضرورى أبداً أن أموت بكل هذه الأمراض . ثم إن البعض فى الهند ليس فى حاجة إلى شخص غلبان يضاف إلى الـ ٥٠٠ مليون نسمة الموجودة فى الهند . فالبعوض – والله الحمد – لا يشكوا من قلة العمل ولا نقص الغذاء .

وبهذا الاستسلام والتوكّل على الله سافرت إلى ولاية كيرالا .. وزلت الطائرة في مطار عربان من الأشجار ومن الناس . الدنيا سر طبعاً . وإن كانت هناك نسمة خفيفة تدل على أننا على شاطئ البحر . والناس هنا عددهم أقل والقليل منهم يتفرج على هذه الطائرة . وملابسهم هنا تغري بالفوجة فهم يرتلون «الدلوى» هذا ما عرفته فيما بعد . وهو قطعة من القماش ملفوفة حول الجسم وملفوقة من

الخلف . لم أحاول أن أعرف كيف يلغونها ثم يتحركون بها وبسرعة .. كل الناس الذينرأيهم في المطار حفاة .. وبعضاهم يرتدى الحاكمة وفي جيوب الحاكمة توجد أفلام باركر أو شيفرز .. ولكن مع ذلك أيضا حافى القدمين ! .

ومن بعيد لحت أشجار جوز الهند .. والكثير جداً من الأشجار التي لا أعرف أسماءها .. وبعد ذلك بدت الأرض كلها خضراء ..

وتقدم من شخص كل ملامحه تدل على أنه أحد الرسميين .. وسألني إن كنت فلاانا الفلااني فقلت نعم .. فلم يرحب بي وإنما أخبرنى على الفور أنه تلقى من وزارة الخارجية إشارة تفيد بأننى قادم إلى هذه الولاية وإنه قد أعد لي كل ما أريد .. وحجز لي غرفة في الفندق الكبير .. أو الوحيد في العاصمة .. وإنه سيحاول غداً أن يحدد لي موعداً مع من أريد من الوزراء أو رئيس الوزراء ..

وشعرت بالارتياح الشديد ..

ونقلتى السيارة إلى الفندق .. والفندق واسع جداً .. ومريحة .. وغرفتي كانت على الحديقة .. الغرفة صغيرة ولها حمام ملحق بها .. ولا أعرف لماذا لم أجده مريحاً في ذلك الوقت .. ربما كان سبب ذلك أنه لا توجد ناموسية .. ولكن الناموسية منصوبة حول سريري .. وأمام غرفتي ترايبيزة وإلى جوارها كرسى لا يثبت في مكانه .. لا أعرف من الذى ينقله فى المساء ثم يأتى به فى الصباح .. نفس الكرسى .. فقد علمت الكرسى بأن كتبت عليه اسمى .. ومن الغريب أن كل الكراسي تختفى ثم يعود كل واحد إلى مكانه ..

ومنظر الأشجار العالية جميل .. والجو هادئ .. والهواء منعش .. والناس في حالم ، ولون الأعشاب أخضر أميل إلى الزرقة .. ولم يزعجني إلا الغربان وهى تخطف الأناناس من الأطباق أمامى .. وفى الأيام الأولى لوجودى في هذه المدينة كنت أضيق بالغربان وبسوء أخلاقتها .. ولكن عندما عرفت أن الأناناس يشبه الخيار عندها ، في رخص الثمن وفي كثرته ، كنت أرجو أن تخليصنى الغربان من هذه الكميات الهائلة التي لا أعرف كيف أنتهى منها ..

وأناناس لذيد .. والموز والمانجو هنا ليست لذيدة بالمرة .. فالجوز كبير جداً في حجم القثاء .. والمانجو أحياناً في حجم البطيخة الصغيرة .. ولكنها غير لذيدة

ولكن توجد كميات كبيرة من الكوكونتس . أو البندق الهندى . وهو الذي
الطعم جدا . ويأكلونه هنا ساخنا مثل أبو فروة .

وقد لاحظت وجود عدد من الصحفيين من السويد والسويد ومن ألمانيا وعرفت
أنهم جاءوا إلى هنا لنفس السبب ..

الكل يريدون أن يعرفوا ما الذي يحدث لهذه الوزارة الشيوعية الوحيدة في كل
الولايات الهندية . أو كيف تغير الوضع في إحدى ولايات الهند . أو ما مدى
قوة نهر ؟

واندهشت جدا كيف أن الصحفيين السويديين والألمان الأوروبيين
غير حريصين إطلاقاً على أن يلتقطوا صورة لرئيس الوزراء . صورة لهم مع
رئيس الوزراء .

إن أحداً في مصر لن يصدق أبداً أنني جئت إلى هذه البلاد وقابلت رئيس
الوزراء إلا إذا ظهرت معه في صورة .. أو على الأقل زملائي الصحفيين !

بل إننا كثيراً ما نجد في الصحف المصرية والعربية صورة لصحفي مع أحد
الوزراء ، كأن القارئ لا يصدق أو لن يصدق إلا إذا نشرت الصحف صورته
مع الوزير . مع أن مقابلة صحفي لوزير في القاهرة ممكن جداً . ومحبوب جداً .
ولن يندهش أحد لم ير صورة للصحفي والوزير معاً !

ومفهوم من كلامي هذا أنني لابد أن أظهر في صورة مع سيادة رئيس
وزراء كبير الذي قلب الدنيا في الهند .. والذي أصبح مركز آمال الأحزاب
الشيوعية في الهند . وفي كل آسيا . فهو يعتبر نقطة تحول خطيرة في الحركة
الشيوعية في الهند .

اتصلت بوزارة الاستعلامات . وطلبت تحديد موعد مع رئيس الوزراء .
ولم تكن هناك أية صعوبة في مقابلته وطلبت مقابلة وزير الشؤون وهو وزير
مسلم اسمه عبد الحميد . ولم أجده أية صعوبة .

في كل مرة أتحدث إلى وزير في بيته يدور هذا الكلام بالحرف الواحد .
أقول : ولكن أنا لا أعرف البيت .
فيقول : السائق يعرف .

— أى سائق ! ..

— سائق أى تاكسي !

وفعلا وجدت أن أى سائق تاكسي يعرف بيت أى وزير . فمدينة تريفاندروم عاصمة ولاية كيرالا صغيرة وليس فيها إلا شارع واحد رئيسى .. ثم إن بيوت الوزراء معروفة لأنها بيوت رسمية . وليست بيotta خاصة .

هذا ما تصورته ولكن الواقع شئ آخر .. الواقع أن جميع شوارع وميادين العاصمة ليست لها أسماء ، بل كل مدن الولاية يوجد بها شارع له اسم .. وإنما لكل شارع أ صاف . فيقال : الشارع الذى يبدأ بالمتاحف وينتهى بالمعبد ، أو الذى يبدأ با.. بلاق وينتهى بالجذبجي ، هكذا .

فهو لاء الوزراء إذا لا يهربون من الإجابة على أسئلتي وإنما هذا هو الجواب الوحيد الذى يملكه أى واحد .. حتى رئيس الوزراء ..

تحدد الموعد في الساعة الحادية عشرة صباحا في بيت رئيس الوزراء «نامبودرياد» وهو الرجل الثاني في الهند فالصحف لا تتحدث إلا عن رجالين : نهر و هذا الرجل .

إنه ابن الأكابر . فأبوه من أعرق عائلة دينية في كيرالا على الإطلاق فهو ينتمي إلى أسرة «نامبودري» وهم سادة طائفة الناير وسادة الأسرة المالكة التي تسمى ثامي . ويكتفى لتعريف مكانة هذه الأسرة أن النبيذين كان يجب أن يقفوا على مسافة عشرة أميال من أى فرد من طائفة الناير وعلى مسافة ١٥ متراً من طائفة الثامبي ولكن على مسافة ٣٥ متراً من طائفة نامبودري !

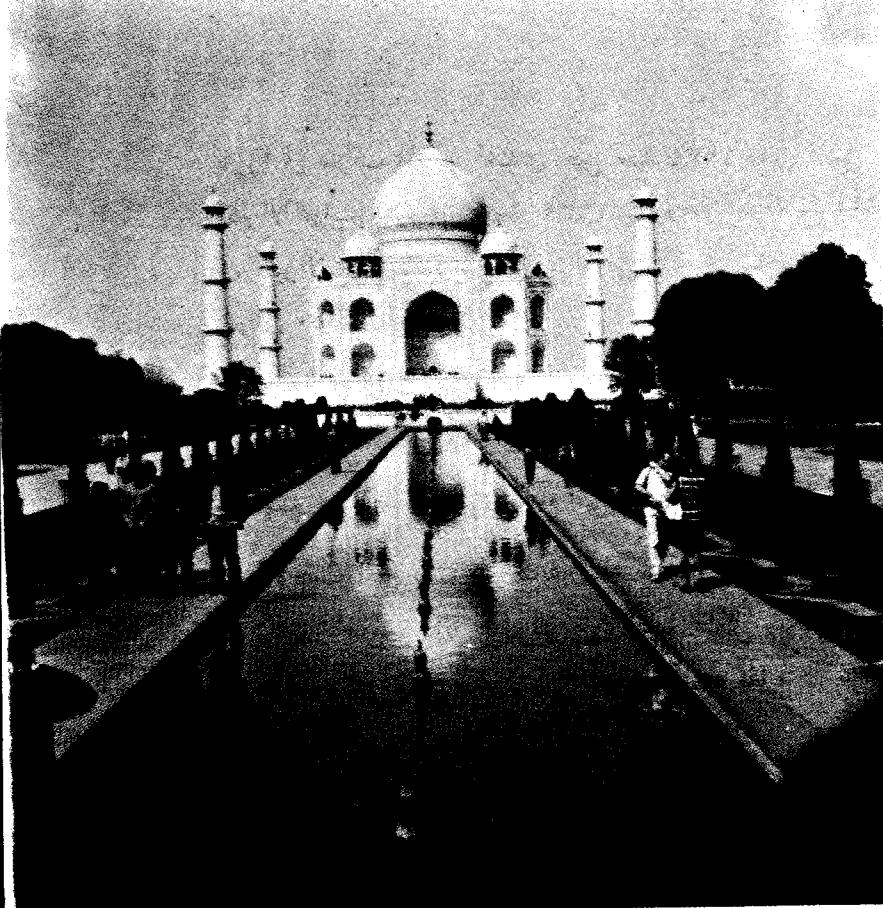
هذا هو إذا ابن الأشراف المتدينين جداً الذي يتزعم حكومة شيوعية ملحدة . ومنذ أيام سأله الصحفيون ما هو الحل ؟ . فقال : في يد الله ! فضحكوا قائلين : وهل تومن بالله ! .

فأجاب : يعني ! .

فقالوا : يعني إيه ! .

وكان ردده : أهروه كلام .

وهذا الرجل قد تشرد باسم الحزب الشيوعي ودخل السجن وكان عضواً



تاج محل : تحفة
العمارة ورمز الحب
والوفاء في كل العصور



في أحد الأيدي لابد من
ذ توسيع الألوان والعطور
ولبخور ..

بارزا في حزب المؤتمر الهندي حتى سنة ١٩٣٤ حين انشق عنه ، وتزعم «لجنة
كيرالا للحزب الشيوعي» سنة ١٩٣٩ . . وهذا هو الاسم الحقيقي للحزب الشيوعي
في كيرالا الآن . ودفع ما ورثه من أبيه للحزب . وقد قدر لـ هذه الثروة
بحوالى ٥٠ ألف جنيه .

والطريق إلى بيته يمر في غابة من الأشجار المحلية . . الطريق رطب ظليل
هادئ ساكن . . وتدخل السيارة في بوابة عليها حراس ويقول لهم السائق كلاماً
لم أفهمه ، ولا بد أن يكون معناه إني على موعد .

وقفت أمام بيت من طابقين له حديقة صغيرة . وأمام المدخل يتقدم منا
سكرتير خاص . إنه حافى القدمين أيضاً ككل سكان كيرالا . . وينظر في
ورقة معه ويقرأ اسمى ويقول لي : نصف ساعة كفاية . .

فأقول له : كفاية أشكرك .

وفي المدخل توجد غرفة استقبال ، انتظرت فيها لحظة حتى يتصل رئيس
الوزراء في التليفون وينجزه بمحضوري .

على الحائط صورة لغاندي يبدو أن الرئيس السابق قد تركها في هذا المكان
أو ربما كانت صورة جديدة . . فغاندي فيها يلبس قميصاً أحمر اللون !

• • *

وأشار السكرتير إلى السلم قائلاً : اتجه إلى اليسار دائمًا وادخل مباشرة .

واتجهت إلى اليسار ، إلى السلم ، فالطابق الثاني إلى اليسار . ودفعت الباب
أمامي . وكان الرئيس نامبودريجاد في وجهي جالساً إلى مكتب كبير . .
المكتب عليه كتب معلولة ومقلوبة . الكتب تناسب مع ضخامة الرجل ،
إنه ممتلئ الجسم ، ويلو أكثر امتلاء عندما يتحدث . ولا وقف لبس على
رأيته قصير القامة وكانت أرآه في الصور طويلاً ثم جلس واتجه لي مباشرة وقال
دون أن يعطياني فرصة للكلام :

— من القاهرة؟

— أيوه ..

— متى هنا؟

— في كبار لا من أسبوعين . وفي الهند كلها من شهر ..

— أين؟

— في نيودلهي والولايات الشمالية .

— مراسل دائم؟

— إني جئت في مهمة خاصة .

— ما اسم الصحف التي تمثلها؟

— اسمه دار أخبار اليوم .

— أخبار . هذه الكلمة الهندستانية معناها الصحف اليومية .

— عندنا صحيفة يومية اسمها الأخبار والصحيفة الأسبوعية اسمها أخبار اليوم .

— وكم صحيفة في القاهرة؟

— الصحف الكبرى ثلاثة .

— كلها بأية لغة؟

— بالعربية . ولكن هناك صحف أخرى بلغات أجنبية .. بالفرنسية والإنجليزية واليونانية والأرمنية .

ودهش جداً لهذا العدد من الصحف الأجنبية وأمال رأسه للوراء وقال : ولماذا كل هذه الصحف !

— لأن عندنا جاليات أجنبية تقرأ كل هذه الصحف .

— وماذا يعمل هؤلاء الناس عندكم؟ وكم عددهم؟

— بضع مئات من الألف .

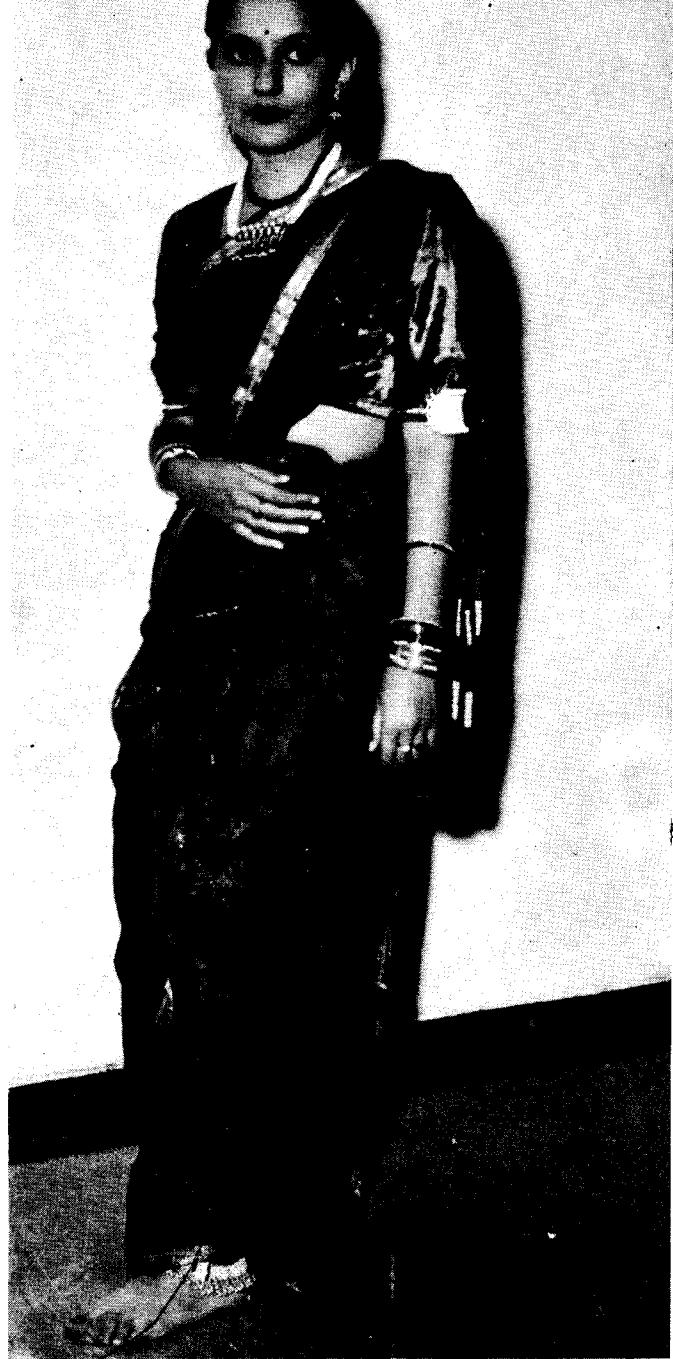
— ياه لماذا؟ وهل هناك يهود؟

— بضعة آلاف .

— وأية لغة يتكلم اليهود عندكم؟

— العربية ولغات أجنبية أخرى لكن معظمهم من المصريين الذين عاشوا فيها من

أجيال .



من الحرير كل هذا الثرى .. أما الألوان
فهادفة . وأما الجمال فأكثـر هدوءاً ..
عن لرب تبدو المدينة أكثر وضوحاً ..
وتبدو هذه البقعة في الجهة دليلاً على أنها
سيدة متزوجة ..





وکت أول صحن أنت بقداسة الدلاي لاما .. (ليس واضحًا
ف الصورة أن قداسته مذكور . ولكن عانيا من ذلك فيها
بسد) !



واحدة أو واحد من أتباع الدلائل لا ما الدين
هربوا وراءه من التبت إلى جبال himalaya ..

منظراً مالوف جداً في الهند . . هذا
الأنثى لا يلدغ وإنما هو يعصر
الإنسان حتى الموت . . وهذا الرجل
شحاد !



عازة في إحدى الفرق الموسيقية . .
الموسيقى حزينة ولكن المعان تدعوا
إلى حب الحياة وإلى الإيمان .





يمكن تمييز أبناء الولايات الهندية من
ملابس و زينات المرأة . . أما ملابس
الرجال فهي متشابهة إلى حد كبير .

— الشيوعية ما أخبارها ؟

— ممنوعة قانوناً . لا نشاط شيوعي عندنا ؟

— ما اسم عاصمة سوريا ؟

— دمشق .

— دمشق فيها نشاط شيوعي أقوى من النشاط الذي كان في القاهرة .

— كان فيها . على كل حال لم تعد الشيوعية مشكلة إنما المشكلة هنا .

— هنا .. ! فين ؟

— في كيرلا . أو في الهند كلها .

وضحك . ولعنت عيناه جداً ووضع يده على رأسه الكبير وهو عندهما يتحدث
يتهله طويلا ثم يشهق ويفتح فمه ويرجع برأسه إلى الوراء ثم يندفع منه
الكلام كأنه احتبس ثم أفرج عنه مرة واحدة .

وعاد يقول : هنا لا توجد مشكلة شيوعية . ليس لنا مشاكل . وإنما هي
مشاكل الأحزاب الأخرى الضعيفة . ماذا نعمل نحن ؟ لقد جئنا بصورة دستورية .

— لتفهموا بإلغاء الدستور فيما بعد ؟

وضحك نامبودريجاد وكأنه يقول : قديمة !

وقلت : هذا هو مصدر الخوف منكم . ليس اليوم ولكن غداً .

— لا داعي للتفكير في الغد . أنا أريد أن يناقشني واحد منهم الآن ..
دعوهم إلى المناقشة والحلوس معى على مائدة واحدة وأنا أقدم لهم ما عندي
وهم يعرضون ما عندهم . رفضوا . قالوا عندنا كتاب أسود .. انتظرناه . فلم
يصدر حتى الآن . ماذا أعمل ؟

— لا شيء إلا أن تبقى في الحكم كما أنت . مهما كان رأيهم ورأى المتظاهرين
لقد رأيتم أمس بالألوان .

— يهتفون لنا ..

— كلا .. يهتفون ضدكم ..

— أنا لا أخاف من المظاهرات ..

— إذًا ما الذي تخاف منه ؟ ..

— بيني وبينك لا شيء نحن أقوىاء ! . وأنا لا أraham كذلك . . أين كانوا ماذا فعلوا للناس . أين كشف حسابهم . كل ما يقولونه هو : استقروا .

— طبعاً غير معقول أن تستقيل حتى لو هدأت الأحوال . . وهم يعلمون ذلك والصحف كل يوم تكرر هذا المعنى ..

— إنهم يعطلوننا وبالتالي يعطلون مصالح الشعب . ومن بين هذا الشعب أناس أتوا بهم إلى البرلمان وأتوا بهم فيما قبل للوزارة .. من الذي يستفيد من هذا كله ..

— لاحظت أنك بعد مقابلتك للرئيس نهرو صرحت في أكثر من مؤتمر صحفي أنك متفائل جداً وأن احتمال تدخل الحكومة المركزية بعيد جداً . . فعلى أي أساس بنيت هذا التفاؤل .

— مجرد إحساس لا أكثر ولا أقل .

— يعني لا يوجد تصريح من نهرو بذلك .

— لا .

— إن خصومك عندما قابلوه نهرو كانت لهم تصريحات مخالفة . . فقد شعروا أن تدخل الحكومة قريب جداً وأنكروا من أن رئيس الجمهورية سيطرتك أنت وزارتكم الشيوعية ! وأنهم لذلك متفائلون .

ولمعت عيناه تحت المظار الغليظ وعاد يتهبه ويشهق ويختلج في مقعده جداً ثم يبتسم ساخراً ، وهو يقول : كل الإحساسات غير مضبوطة . . ومن أجل هذا نحن نطالب بأن تكون هناك أساس علمية لا خلاف عليها .. هذا هو أساس الخلاف بيننا وبينهم . . المسألة عندهم عواطف ومشاعر .. والمسألة عندنا أرقام وقضايا منطقية .. طبعاً لابد أن يكون هناك خلاف طبعاً .. لاشك في هذا .. وكأنه كان يتحدث إلى نفسه ونظره إلى السقف .

— وهذا هو أيضاً سبب الثورة عليك في الكنائس .. لأنك ضد هذه المشاعر التي ليست علمية ..

— ضدها .. أبداً ، ماذا فعلت .. أجراس الكنائس أليست تدق كل يوم ؟

وفجأة دقت الأجراس وارتعش رئيس الوزراء فوق مقعده ! وكأنه سمع صوتاً
يقول له : إن الله معنا ..

ثم عاد يقول : لقد سمعت .. ماذا فعلت أنا .. الصلاة قائمة .. ورجال
الدين آمنون .. يقولون لك إننا ملحدون هذا صحيح ولكن هل قضى إلحادنا
على دينهم .. هل دعونا إلى ذلك .. إنهم كاذبون أفاقون .. ليس لديهم ما
يقولونه !

- عندهم ما يقولونه عن الأرض والعقارات وقانون إصلاح الأرض .
واعتدل في جلسته ونظر إلى نظرة جادة شرسة ، وكأنني أحد أصحاب
الأراضي حيث أعرض على صدور القانون .. وبعد لحظة عندما تأكد أنني
لست كذلك ابتسم وراح يحرك يديه الإثنين قائلاً : هل تعرف أن القانون أصله
من اقتراحات أحزاب المعارضة .. ما رأيك ؟ فإذا تقدم به الشيوعيون صار
كذا .. لماذا وافقوا عليه أولاً .. ثم وافقوا عليه ثانياً .. والآن يعارضونه لقد وافقوا
عليه أول الأمر على أساس أنه لن ينفذ وافقوا عليه للمرة الثانية على أساس أنه
بعيد الاحتمال .. فلما حملناه على الجد .. ثاروا !

وفجأة وبلا أي مقدمات تلفت ناحيتي واقترب مني قائلاً وعاد يسأل من
جديد ؛ والصحف تطبعونها باللينوتيب ؟

- نعم ..

- باللينوتيب أو الحروف تجمع ثم تربط وتطبع عليها الصحف .

- عندنا لينوتيب وأنترتيب . والدار التي أعمل بها عندها ٢٠ ماكينة لينوتيب ..

وتوزيع صحيفتنا الأسبوعية يقرب من ٤٠٠ ألف .

- رقم كبير جداً وباللغة العربية ؟

- نعم ..

- وما أخبار العراق ؟

- قرأتها في الصحف ..

- والأحوال مستقرة في العراق بعد ذلك ياترى !

- لا أعرف ..

وحاولت أن أسأله أنا . . وأنا أقاطع أسئلته التي تنطلق الواحد وراء الآخر .

قلت : وهل هناك أحزاب شيوعية أخرى لها نفس قوة حزبكم هنا ؟

طبعاً هناك حزب شيوعي في ولاية إندا라 وكانت لهأغلبية الأصوات وإن لم تكن لهأغلبية الأعضاء . . ولا أستبعد أن يكون بالغ القوة في الأعوام القادمة .

— وأحزاب شيوعية في الولايات الأخرى . .

— إنها في حاجة إلى تنظيم .

— وهي ستنظم كلها وتصبح قوية ؟

وضحك كثيراً وبرقة عيناه وأدركت أنه سيفنادي الجواب على هذا السؤال الذي معناه متى تسيطر الأحزاب الشيوعية كلها على الهند .

وأجاب : الذي تقصد إليه بعيد . . فال موقف عندنا صعب جداً . . فنحن منقسمون إلى أقسام كثيرة طائفية لغوية . . وأنت ماذا سترى في ولاية كيرالا !

— قابلت رجال الدين .

— أنا أعرف ماذا قالوا لك أنا عرفهم أكثر منك . . وهل قابلت زعماء المعارضة ؟ . . وأعرف ماذا قالوا لك . . وهل قابلت رجل الشارع . . هل هو صدنا ، لا أعتقد .

— وقابلت رئيس الوزراء وأنت تعرف ماذا قال لي . .

وضحك ونظر إلى التمثال الأبيض على مكتبه . . إنه تمثال لينين . . وأمامه كتب أخرى عليها أسماء لينين وماركس .

وهنا دخل أحد أبنائه . ولما سأله إن كان هذا ابنه ؟ قال : نعم .

ونادى رئيس الوزراء أولاده الذين كانوا في الداخل . . وجاءوا . . إنهم ثلاثة من الأطفال وفتاة . . والتفوا حول أبيهم ووقفوا جميعاً يتطلعون إلى عدسة التصوير . . وكان أبوهم ورائهم . . كأنه أكبر الأطفال سناً . . مع أنه أخطر الرجال في الهند مركزاً وأشدتهم عناداً ، ولكنه كان لا يعرف هل يبي في الحكم . . أم يخرج ! . . هل يستقيل أم يعزل !

إنه رئيس وزراء ولكنه لا يملك من أمره شيئاً .

وكلت آخر صحفى قابله وهو رئيس وزراء فقد قرر نهر و إقالته من الوزارة بعد
 مقابلتى له مباشرة !

* * *

وفي الليل سقطت الأمطار بغزارة . بل إن كلمة بغزارة هذه ليس لها معنى
 على الإطلاق . فالذى حدث لا يمكن أن يكون مطراً . وإنما هو نوع غريب
 من ذوبان السماء فوق أدمغة الناس . السماء كانت قبة من الثلوج سنتها الشمس
 فسقطت مرة واحدة . وتحولت الأرض إلى قنوات . إلى بحيرات وتحول الناس
 بقدرة قادر من مشاة إلى سباحين . .

وبين الناس نزعت حذائى . . بل لم يكن لهذا الحذاء أى معنى . وعذرنا
 الناس الذين لا يلبسون أحذية . .
 وللات المظاهرات كل مكان وفي اتجاه واحد .

ومشييت في اتجاه المظاهرات وأنا أعرف أنها ضد الحكومة فقط . ولكن
 أى الأحزاب ضد الحكومة ! لا أعرف . والذى استطعت أن أفهمه فقط من
 هنافات المتظاهرين هي كلمة : سندباد أو اندباد . ومعناها يعيش .
 والناس هنا يتكلمون عدة لغات من بينها لغة . . ما لا يلم . . والتاميل . . وفي
 الهند كلها توجد ألف لغة ولهمة ومائتا دين . . .

وانهالت الهنافات . وارتفعت المشاعل . ووقف أحد الحفاة يخطب في
 الناس . وانقض الناس يهتفون . وفي صباح اليوم التالي لم أر شيئاً غريباً لا في
 الشوارع ولا في محلات التجارية .

لقد انتهت المظاهرات في سلام . وعاد الناس إلى عملهم . ولكنهم في الوقت
 نفسه ينتظرون سقوط الوزارة .

* * *

وبقى كل شيء على ما هو عليه . . .

وعدت إلى الفندق ، كان شيئاً لم يحدث . . واستأنفت نشاطي الغذائي . .

وهذا النشاط يبدأ عادة بأن أشير إلى الجرسون وبعد لحظات تجيء أكdas الأناناس وبعد دقائق تخطفها الغربان . . ويضحك الجرسون وأشير إليه بأن يأتي بالأناناس وتجيء الغربان وتخطف الأناناس لأنشغالي بمقاومة البعض وابتلاع بعض الأقراص والحبوب . . ثم لأنشغالي بعد ذلك بتطهير أثر البعض بالمواد المطهرة . وأتوهم بعد ذلك أنني نجوت من المرض .

وبعد الغداء وعلى غير العادة جاء مدير الفندق يسألني إن كنت لا أزال في حاجة إلى البالطو . ولم أفهم ما الذي يقصده . فعاد يقول لي : البالطو الذي أخذته للوقاية من المطر !

فصرخت : ياخبر . . لقد جرفته الأمطار وضاع في الزحام أمس .
وتركتي الرجل دون أن أكمل اعتذاري عن البالطو الذي استعرتة منه أمس . .
وضاع . وقبل أن أكمل حلاقة حتى ، لأكون في حالة معنوية جيدة تسمح لي
بالاعتذار الكامل عمما حدث مع استعدادي لدفع ثمنه ، جاعني الجرسون ومعه
الفاتورة . . وكان ثمن البالطو سبعة جنيهات .

دفعتها والنار والوعة في كل جسمى ، كأنني سقطت في إحدى مستعمرات البعض . . فقد كان البالطو قد ياماً مزقاً وقدراً . . وكان من الواجب أن يمحاسبى على تكاليف غسله في المطر . رغم أنه ضاع بعد ذلك . وأنا لا أستبعد أن يكون أحد جرسوناته قد سرقه . . فقد لحت واحداً منهم في المظاهره .

هذا ما قلته لنفسي وأنا أغالطها .

فقد كان من المستحيل أن أعرف أحداً أو ألمح أحداً ، أو حتى أرى أحداً !
وعلى مسافة بضع مئات من الكيلومترات ، من عاصمة كيرالا توجد بقعة
قدسية للهند الحديثة . .

والآن أصف لك ما الذي أراه ، وكيف أراه . .

أنا أجلس الآن في آخر شبر من بلاد الهند . هذا الشبر اسمه « رأس كومورين » . . وعنه تلتقي مياه بحر العرب من الغرب ومياه خليج البنغال من الشرق ومياه المحيط الهندي من الجنوب . . أما البحر الرابع فهو ب Heller فوق روسنا

منذ ٢٤ ساعة وبلا توقف . . ولو سقط هذا المطر وبهذه الصورة المخيفة لمدة ساعة واحدة في القاهرة لأمسك كل ساكن في القاهرة بسنانه ووضع طوق النجاة حول عنقه ، وربط أمام باب شقته في الدور الثاني زورقاً كبيراً !

وأنا جالس على الأرض . . ومعي أحد أغنياء ولاية كيرلا . إنه من الأسرة التي كانت مالكة . واسمها « ثامي » إنه تعلم في إنجلترا . . ومع ذلك يمشي حاف القدمين . ويقف حول وسطه فوطة تماماً كالتي كان يلبسها قدماء المصريين . . ويوضع على عينيه منظاراً أمريكياً غالياً . وفي جيب قبصه الحريري قلم شيفرز من الذهب . . وفي يده ساعة من الذهب والماض . ومع ذلك يجلس على الأرض . . إنها التقاليد . وتناول طعام الغداء . ولم نحضر معنا طبقاً واحداً ولا شوكة ولا سكينة . وإنما أحضرنا معنا عدداً من الأواني الصغيرة في حجم سلطانية الزبادي . وجاء معنا خادم عار تماماً إلا من فوطة يد صغيرة جداً لفها بشكل ما !

ووضع الخادم أمام كل واحد منا ورقة من أوراق شجر الموز ، خضراء ناعمة مغسلة . . فهذه الورقة هي الصينية وهي الأطباق . . وأفرغ لكل منا كمية كبيرة من الأرز المسلوق ووضع عليه ملعقة من زيت جوز الهند . . ثم بدأ يفرغ العلب أو الأواني الصغيرة . وأعطي كل واحد ملعقة . . ملعقة بطاطس مسلوقة . . ملعقة تايبيوكا وهى تشبه البطاطا ثم ملعقة كاري في طعم النار . . وألواناً وأشكالاً من المانجو المخلل والمملح والمخلوط بالمربي والمانجو بلا ملح ولا شطة . . وبعد ذلك قطعاً من الموز المجفف والموز المشوى . . وحبوباً غريبة الأشكال والألوان . . وبعض الزبادي بالبطاطن . . كل ذلك قد وضع الواحد إلى جوار الآخر على ورقة الموز . . ثم وضع كوباً من النحاس به سائل لونهبني . . هذا السائل هو عصير الدوم . . وهو مليء بالشطة أيضاً .

والخطوة الثانية هي أن يتركنا الخادم على حريرتنا . أما حريرتنا فهي أن نلخبط هذا كله بأيدينا وأن نجعل منه كرة واحدة وأن نأكلها بالحناء والشقاء ولم يكن في هذا الطعام لحم . فصاحب البيت من المندوس الذين لا يأكلون اللحوم . . حتى اللبن لم يكن حليباً ، وإنما هو لبن زبادي . . والزبادي عبارة عن حميرة صنعتها البكتيريا . . يعني ليس حراماً !

ولاحظت أن زوجة صاحب الدعوة جاءت وسلمت وجلست وتحديث بعض الوقت بلغة إنجليزية سليمة . . وعندما نهضنا للطعام — أى وقفنا لكتى مجلس الطعام — انسحبت في هدوء ، ولم تأكل معنا . وبيلاو أن هذه هي العادة في البيوت المحافظة . . فالنساء لا يأكلن مع الرجال .

وبعد هذا الغداء النباتي الخفيف اتجهنا إلى نهاية الهند ونزلنا منحدراً من
الرمال واتجهنا إلى الصخور التي كان يعبد عليها رهبان الهند بين الماء والعواصف
في وحدة أو وحشة تامة ..

وفي هذا المكان البعيد الهادئ أقامت الهند مبني تدر كاريأاً للمهاتما غاندي .
هذا المبني لا يضم شيئاً . وإنما فيه صندوق حديدي مكتوب عليه . هنا يرقد
رماد المهاةما غاندي ..

بعد مقتل غاندي أحرقوه . وما تبقى من جسمه من رماد وضعوه في هذا
الصندوق الحديدى !

كأن غاندي أراد أن يمد في حدود بلاده .. أراد أن يضيف إليها ولو قليلاً ..
أراد أن يعطيها بعض الذي أخذته منها .. مع أنه عاش جائعًا عارياً حافياً ..
فأعطها حفنة من رماد حياته .. لقد أعطتها الكثير جداً !

وتركتنا معبد غاندى . . وصفت السماء . . كأن السحاب ستار ارتفع أو
نزل لظهور الشمس المحرقة على مسرح الكون . . حتى العواصف سكنت . .
كأن الطبيعة حبس أنفاسها . وببدأنا نحن تلهث ونفخ . . وعادت السحب مرة
واحدة ونزل المطر . . وببدأ موج البحر يثور . . كأن الطبيعة تحاول أن تفصل
بين البحور الثلاثة . . فهناك ثورة على الحدود كالتي بين الهند وباكستان وبين
ألمانيا وروسيا . . أو كأن البحر لحاف استراحت تحته العواصف لحظات ثم
ضرر بيته وخرجت .

لقد اكتشفت هنا حقيقة هامة لم أكن أعرفها . .
اكتشفت سر هذا التقلب في الأرض والسماء . . فتحن هنا في منطقة خط الاستواء . . وخط الاستواء هو « حزام » عريض من النار تلفه الأرض حول وسطها وهي لذلك تمثيل وتعوج وتقصص . . بكتفيها وساقيها وصدرها . . كأن السحب

هي شعرها الأسود الغزير ، وكان الرعد هو بعض أسنانها ، وكان البراكين هي دقات قلبها .. وحركاتها ليست رشيقه كأنها راقصة مبتدئة .. مع أنها عجوز وعمرها بالمليين .. ولكنها لم تتعلم ، فليس هناك أحد ينافسها .

وعندما لا يجد الإنسان أو الحيوان أو حتى الأرض من ينافسها فسترى نفسها أعظم راقصة في الكون .

ووجأة سكن كل شيء : الهواء والموسم والمطر والسحب .. كأنها لحظة تغير «النور» كما يحدث في الكباريهات .. وأظلم كل شيء ..

وكان الأرض توقفت عن الاهتزاز وكأنها ألت بحزامها في وجهنا وقالت : طيب ارقصوا أنتم ! .. ورقصنا من الألم ! ..

• • •

ونحن أطفال كنا نتصور أن الطريق إلى الجنة يمر على النار .. وأن هذا الطريق معلق فوق نار جهنم كحبيل الغسيل . وأن هذا الحبل أدق من شعرة الرأس وأكثر حدة من موسي الحلاقة .. وأن الإنسان يمشي على هذا الموسي أو على هذه الشعرة وقد يسقط في النار . وقد يصل الجنة : ولم نسأل أنفسنا في ذلك الوقت : ولماذا يصل إلى الجنة ولماذا يقع في النار ! وهل هذا الحبل حقيقي أو هو مجرد رمز .. وشغلتنا الدنيا عن الآخرة وعن الجنة والنار ولم نسأل أو نتساءل . وكأننا أرجأنا هذه الأسئلة إلى سن الشيخوخة أو المرض أو الإحالة إلى المعاش والتفكير في هذه الأشياء على مهل .

ولكنني منذ أيام وجدتني أنفك ليلاً ونهاراً في هذا الخيط الدقيق الذي يمر على النار إلى الجنة .. فأنا هنا في الليل لا أدرى ماذا أفعل .. لا شيء أبداً .. فلا سينا ولا سهرات ولا حفلات ولا موسيقى ولا غناء ولا راديو في أي مكان .. ليس في الفندق ولا في المطاعم ولا في السيارات ولا عند الجيران .. وأنا لا أستطيع أن أستمع إلى أي جار .. ففوق السرير مروحة تدور ليلاً ونهاراً .. وفي الحمام مروحة .. وفوق السقف جهاز تكييف .. فأناأشعر دائماً أنني على ظهر مركب .. أو أنني لم أهبط من الطائرة بعد .. وفي كل مرة أدخل إلى السرير

أشعر أنني لابد أن أربط حزامي وأنظر من الشباك إلى السحب والبرق والرعد ..
 تماماً كما يفعل المسافرون في الطائرة .

أو كأنني أعيش في وابر طحين .. إنه يطعن ساعات الليل والنهار ويجعلها
ناعمة كالدقيق .. ولكن ليس لها أول ولا آخر !

وأنزل من السرير وأدخل الحمام فأجد على الباب ورقة صغيرة تقول : لقد
وضعنا الد.د.ت. من أجل صحتك ، على كل حال إذا شعرت بأى ارتفاع في
درجة الحرارة ففى استطاعتك أن تستدعى الأطباء الآتية أسماؤهم .. وقد انفقت
معهم إدارة الفندق .

ملحوظة : طبعاً نفقات انتقامهم واستدعائهم فى ساعة متأخرة من الليل على
حسابك .. ونحن فى خدمتك دائمآ ..

وعلى الباب الرئيسي للغرفة أجed هذه اللافتة : « إذا لم تكن أطفأ النور
والمرودة وجهاز التكييف فيحسن بك أن تفعل الآن . فتحن نفسك لصالحك ».
وأنا أتمنى أن أغلق هذه الطواحين كلها وأنعم بلحظة هدوء .. لحظة واحدة ..
ولكن إذا أفلتها قتلني الحر وخنقني العرق .. وإذا تركتها ونمت هلكت من هذه
العواصف . وإذا فتحت النوافذ دخل البعض وإذا بقيت في الغرفة فهذا عذاب .
إذا خرجت . فإلى أين أذهب فالدنيا حر جداً والمطر غزير جداً . ولا توجد
مطاعم فيها موسيقى ولا أماكن يسهر فيها الإنسان إلى مابعد العاشرة مساء ..

وإذا ذهبت آخذ دشاً عملاً بنصيحة بريجيت باردو ، فهي عندما لا تجد
ما تعلمه أو تفكّر فيه فإنها تذهب إلى الحمام ، فإنني أرى حالى أنا .. فالماء
على مواد زيتية عجيبة ولا يكاد يمر على جسمك حتى تشعر بأكلان شديد جداً ..
وإذا لم أستحم ازداد هذا الأكلان .

وإذا عطشت فإذا أشرب .. هل أشرب طول الليل وطول النهار شيئاً وقهوة
لأنها مكونة من ماء مغلي .. إذاً فقل على النوم السلام .. وكذلك في الأكل وفي
المشي وفي الحديث إلى الناس أيضاً إنهم يتحدثون الإنجليزية . كثير منهم . والذين
يتحدثون الإنجليزية لا تفهم منهم شيئاً . وقليلون جداً يتحدثون الإنجليزية بطلاقة
ورصانة رائعة !

وأنا هنا أتمنى أن يمتنع لي « العلماء » جهازاً يشبه الراديو . ولكنني جهاز لاستقبال الهواء فقط . فأنما أضبطةه مثلاً على بلاج سيدى بشر فيأتي بهواء سيدى بشر ، أضبطةه على بلاجات الريفيرا والكوت دازير وشاطئ ميامي فإذا هذا الهواء كله حرير ناعم حلو معطر يهتف على وجهي ! .

الدنيا هنا واسعة جداً . والناس طيبون جداً . وكل شيء عندهم .

ولكنني أراها ضيقة ، أضيق من عين الإبرة . ومن هذه العين يخرج هذا الخيط الدقيق الذى أمشى عليه وأجلس — أقصد أيام — عليه القرفصاء ، والذى أكل منه .. كالجلجين الذى يتغذى من الحبل السرى من بطن أمه .. إنه خيط دقيق أيضاً .

فالذى أراه قليل ، والذى أسمعه قليل والذى أذوقه قليل ، وساعات النوم هي عدد أصابع إحدى يديك .

وأخيراً بدأ الخيط يتسع .. بدأت الشعرة الدقيقة تصبح صغيرة غليظة . ففي بلاد الهند مناظر طبيعية فاتنة حقاً . لديهم غابات وطرق زراعية وشواطئ ومدن جميلة وخصوصاً في أقصى الجنوب .. بل إن الناس هنا ملائمهم حلوة : النساء وحتى الرجال أيضاً .

إن الصراط المستقيم بدأ يتسع ويلتوى .. إنه أصبح كورنيشاً على النيل والسين والراين .. لماذا ؟
لأنى بعد أيام سأروع الهند !

* * *

وكلما سألت عن سبب إقفال دواوين الحكومة قيل لي : إنه مهرام ..
عبد مهرام ! .

وفي نفسي أقول - لابد - أنه أحد الهند أو أحد الزعماء .. فلا داعى للمناقشة .. والذين سألتهم ينطقون هذه الكلمة وكأنها حقيقة كالشمس ، فكيف أتساءل أنا عن الشمس . فأهذا رأسى كأهذا نسبت السيد مهرام هذا ! . واستدعيت أحد الخدم ، وسألته فقال : إنه مهرام أحد خلفاء المسلمين . إن الاحتفال جداً سيكون ممتعاً .. لابد أن تراه ..

وأقلب في رأسى وكأنه جيب ممزق في جلباب قديم . . وأسحبه إلى الخارج ،
وأعيده مكانه . . وكان رأسى جيب حقيق كله ثقوب فتساقط منه كل شىء . .
من هو مهرام هذا . . هل هو محمد أو المهدى؟

وأخيراً انتهى مهرام هذا إلى « محرم » شهر محرم . وأعياد شهر محرم . وأنا
لا أعرف ما هي أعياد شهر محرم في الهند . . حتى لا أعرف إن كنا في
شهر محرم أو في شهر ذى القعدة . فالصحف هنا لا تذكر إلا الشهور التي
تبدأ ببنایر وتنتهي بديسمبر .

. وذهبت إلى حيث ستبداً المهرجانات وسمعت ورأيت الأعاجيب . . هذا
العيد هو ذكرى يوم ١٠ محرم ، يوم مقتل الحسين بن علي . وهو عيد الشيعة ،
وفي العام الماضي رأيت مدینتى النجف وكربلاة في العراق . وزرت مسجد
الحسين والإمام على . ورأيت أبناء العراق وقد لبسوا السواد ونقلوا السواد إلى أبوابهم
ونوافذهم . . وأيامهم وليلاتهم ملأوها بالدموع . . واتجهوا إلى أجسامهم فراحوا
يضربونها بالحديد والسيوف ، ندماً على مقتل الحسين .

وهنا في مدينة « تريفاندروم » عاصمة ولاية كيرالا . . يحتفلون بمقتل الحسين
بصورة مزرية مضحكة ، فيبدأ المهرجان بتطول تشبه طبول الأراجواز بالضبط ؛
ويتقدم المهرجان عشرون شاباً وطفلاء ، وقد دهنو أجسامهم بالزفت وراحوا يرقصون
ويخرجون ألسنتهم للناس ويتهجمون على الحلات العامة وعلى المشاة ويطلبون منهم
 شيئاً لله وبالقوة ، وقد التفوا حولي . . وكانت قد أطلقت شاربي ولحيتي ولبسـت
بالطـو مطر فصرت كأنـى أحد المبشرـين . .

وخشيت على ملابسى من الزفت فأعطيتهم بعض الروبيات فتركوا المهرجان
واراحوا يقتسمونها . . وبعد هؤلاء « المزفين » يجيء عدد آخر من العراة وقد صبغوا
جلودهم باللون الأصفر الأرقـط تماماً كجلدـنـي . . وصبـغـوا وجهـمـ باللونـ الأصـفـرـ
وجعلـواـ فيهاـ ملامـحـ الفـرـ أـيـضاً . . وبـعـدـ هـذـاـ يـجيـءـ الخليـفةـ عـلـىـ ظـهـرـ الحـصـانـ وـقـدـ
ارتـدىـ طـاـقـيـةـ صـوـفـ . . وأـخـيرـاًـ نـمـوذـجـ صـغـيرـ مـنـ الفـضـةـ لـمـسـجـدـ الحـسـينـ . .ـ وـالـطـبـولـ
وـالـأـصـوـاتـ وـالـصـفـيرـ تـكـسـحـ الجـمـيعـ !

ويتجهـونـ إـلـىـ النـهـرـ وـيـنـزـلـونـ إـلـىـ جـمـيعـ ثمـ يـرـمـونـ فـيـ النـهـرـ بـجـمـوعـةـ مـنـ الـأـيـدـىـ

المصنوعة من الفضة ومن الذهب .. وأشياء أخرى في كل بلاد الهند في هذا اليوم .
ملحوظة : فاتني أن أنهى إلى أنني أكتب هذا كله وأنا جالس مقرفص في
السرير وفي ناموسية .. والناموسية هي أغرب مخبأ ضد غارات الناموس .. مخبأ
مرتفع مضاء كل شيء فيه واضح .. والناموس الذي يغير على ساكن هذا المخبأ
يطلق صفارات الإنذار قبل أن يلسعني ... أشكره !

فإذا جاءت أفكارى مقرفصة مثل فاعذرنى ، وإذا جاءت أفكارى منكوشة
كشعرى فاعذرنى ..

والذى يراني جالساً يخيل إليه أننى قمت من النوم مع أننى لم أقم .. والذى
يرانى نائماً يخيل إليه أننى جالس - مع أننى أناخايل على النوم .

والذى يرى أحمرار عينى يتوهם أننى شبعان نوم ، إن أحمرار عينى سببه
أننى أمسحها في جدران الليل ..

ولولا عجزى عن التهوض من الفراش لبحثت في القاموس عن كلمة أخرى
للناموسية ، لأنها ليست عربية . وأعتقد أن المجتمع اللغوى يسمىها « المبعضة »
نسبة إلى البعض ، وعلى وزن « المذبة » أو المنشة ، لأنها « تذب » الذباب .

ولما كانت هذه الناموسية واسعة الفتحات لا تمنع إلا بعض الناموس كان
لابد أن أغير اسمها إلى : المبعضة لبعض البعض !
.. والله أعلم ؟

* * *

يافتح يا عليم يارزاق يا كريم ..

فللت منى هذه العبارة وأنا أقلب في الصحف التي صدرت اليوم .. لقد
قرأت مقالاً قصيراً يلعن أجدادى ويتهمنى بأخطر أنواع التهم .. ويقول لمنى
لم أر إلا كل ما هو قبيح وقدر في الهند . وأن الهند التي فتحت ذراعيها لواحد
مثلى كان جزاً منها ... الخ !

فقد نشرت « الأخبار » و « أخبار اليوم » و « آخر ساعة » و « الجليل »
كل ما كتبته عن الهند ويبدو أن هذه المقالات قد ترجمتها وكالات الأنباء ..
وقرأ الهند هذه المقالات . وثاروا عليها ..

ولما عدت إلى القاهرة بعد ذلك بشهور عرفت أن السفارية الهندية قد نشرت ببلاغاً رسماً تلعن فيه الكاتب - الذي هو أنا - وتلعن فيه الفلسفة التي تعلمها وأوربا التي أفسدته . . وقلت إني ذهبت إلى الهند أفترش عن باريس ، وأنى ذهبت إلى معابد الهند أبحث عن صناديق الليل في روما . . ولو عرفت السفارية الهندية أنني عندما ذهبت إلى باريس نزلت في فندق اسمه نيودلهي ، لعرفت مدى اهتمامي بكل ما هو هندي حتى في فرنسا .

وهنا فقط أدركت أنني هدف حقيقي . . وأن أي هندي يستطيع - لو عرفني - أن يلقي بي في نهر من هذه الأنهار فأصبح طعاماً لا يأس به لبعوضة الفيل التي تنفحني حتى أصبح فيلا ، ثم أصبح بعد ذلك لحماً أيضاً لحيوانات الغابة الرائعة القرية من العاصمة ..

ولكن إحساسى بأن الهند متسامرون جداً . وأنهم لا يحبون الدماء . وأنهم يقابلون كلمات هذه بروح متسامحة ، جعلنى أفك فى البقاء يوماً أو يومين آخرین قبل أن أحزم أمتعى وأسافر إلى جزيرة سيلان أفترش فيها عن السنوات العشرين التي أمضتها الزعيم أحمد عرابى هناك . .

ولكن الحقيقة أننى ازددت خوفاً . وبذلت أفسر نظرات الجرسونات تفسيراً خاصاً . فانا لا أستبعد أن يكونوا قد قرأوا ما نشرته الصحف ولا أستبعد أيضاً أن تكون الغربان قد دربوا على الهجوم على وجهى وخطف عينى إذا لم تجد طعاماً . فكل شيء في الهند ممكن . فهم يسلبون القرود والثعابين والمفل .

لقد رأيت واحداً من الهند يخرج كيساً به ثعابين ويطلق هذه الثعابين فإذا هي تزحف اثنين اثنين . وثلاثة ثلاثة . . ثم إذا هو يطلب ويزمر فتصبح هذه الثعابين على شكل حروف . . هذه الحروف يتكون منها اسمى . . بالتقريب . وأغرب من ذلك أن هذا الحاوي الهندى سألى إن كان هذا اسمى ، فأنكرت أول الأمر فقط هو باسمى كاملاً .

ومن المستحيل أن يكون هذا الرجل قد عرف اسمى . فقد كنت في الطريق بين نيودلهي ومدينة « تاج محل » . . وتوقفت بي السيارة فجأة . وخرج هذا الحاوي من حقول القصب !

ولذلك لا أستبعد أن تكون هذه الغربان قد سلطها أحد الحواة المثقفين الذين
قرأوا هذا المقال .. أو أحد الحواة الذين يعملون للدولة كخبير في تطبيق الأجانب
من الهند ..

وكان لابد أن أنهى مدة إقامتي بالهند .. فلا يزال أمامي طريق طويل جداً .
ولكن لو قدر لي أن أزور الهند مرة أخرى لفعلت فھي بلاد فيها كل شيء ..
كل الألوان وكل الأديان وكل الطبقات .. ومئات اللغات وألوف اللهجات ..
والذين يملكون ألف الملايين .. والملايين الذين لا يملكون أى شيء حتى طعام
اليوم الواحد !

مظاهرة انتخابية في إحدى المدن الهندية .. ومهما
كانت أسباب المظاهرة فالهند ليس فيه عنف
ولا ميل لراقة الدماء .



● تأهيلات هندية !

قالت الأسطورة : جلس الإله يستريح بعد أن خلق العالم . . . وبدأ الإله يفكك في حياة المخلوقات . . . وكيف تكون هذه الحياة . . . وعرضت له مشكلة كم يكون عمر كل واحد منها . . .

وأخيراً قرر أن يجعل عمر كل كائن حتى ٣٠ عاماً .
واستدعي الحيوانات واحدةً واحدةً وبدأ بالحمار وقال له : جعلت عمرك ٣٠ سنة ما رأيك ؟

قال الحمار : يا إلهي ماذا فعلت ؟ إن هذه الحياة طويلة . ساقطعها كلها في العمل والكافح . أتوسل إليك يا إلهي أن تنقص هذا العمل الطويل . اقصف عمرى أرجوك : . . .

وجعل عمر الحمار ١٨ سنة فقط . . .

وبعد ذلك استدعي الكلب وقال له : سيكون عمرك ٣٠ سنة ما رأيك ؟ وهنا نبح الكلب قائلاً : يا إلهي هذا كثير . إن هذا العمر طويل . . لا أريده . . لا أستطيع أن أحتمله . . هل يرضيك أن أقضى العمر كله في النباح ومطاردة الناس . . أرجوك يا إلهي . . أجعل عمرى قصيراً .
وجعل عمره ١٢ سنة .

وجاء دور القرد وعندما سمع أن عمره سيكون ٣٠ سنة ثار و بكى وقال للرب براهما : يا إلهي حرام . . هذا كثير . . هل يرضيك أن أقطع كل هذه الشهور والسنين أقفر من شجرة إلى شجرة وأتعلق من ذيل ٣٠ سنة . . أرجوك ! .

وجعل الإله عمره ١٠ سنوات . وأخيراً جاء الإنسان وقال له الرب : ما رأيك سيعمل عمرك ٣٠ سنة .. هذا كثير أو قليل ؟

وبكي الإنسان وقال : تقول ثلاثين سنة يا إلهي . إن هذه حياة قصيرة جداً . لاني لم أبدأ حيائلاً أفرغ من بناء بيتي وزراعة بعض الأشجار وأريد أن أستريح . إن هذه الأعوام الثلاثين لا تكفي . ثم ما مصير زوجتي .. وما مصير أولادي عندما يكبرون ولا يجدون أباً لهم ينهم ماذا يفعلون . أرجوك يا إلهي . أتوسل إليك أعطني عمراً أطول لكى أربى أولادي وأطمئن إلى مستقبلهم أرجوك يارب ..

أجاب الرب : سأعطيك ٣٠ سنة أخرى أخذتها من عمر الحمار والكلب هل هذا يكفي ؟

فأجاب الإنسان : لا يا إلهي .. هذا لا يكفي لأن أولادي سيكون لهم أولاد وأريد أن أرى أولاد أولادي .. أريد أن أعيش معهم .. أن أحافظهم أن أحظضهم .. أرجوك يارب .. أرجوك ..

وقال الرب : لقد أعطيتك الكثير ولكنك كائن طاع لا تشبع .. سأعطيك ٢٠ سنة أخرى أخذتها من حياة القرد فهل يرضيك هذا ؟
وشكره الإنسان واختفى بين الغابات .
ومنذ ذلك اليوم وعمر الإنسان ٨٠ عاماً .

والثلاثون عاماً الأولى منها هي حياته هو . وهو في هذه السن يكون قانعاً راضياً .

وبعد ذلك تجى ١٢ سنة التي أخذها من عمر الحمار . وفيها يعمل الإنسان ويكلد ليلاً ونهاراً من أجل أسرته .

وبعد ذلك تجى ١٨ سنة التي أخذت من عمر الكلب وفيها يتحول الإنسان إلى رجل يرقص ويلعب مع أحفاده ويخطف الطعام منهم ويقنز من مكان إلى مكان فلا يربطه بالناس إلا شيئاً قليلاً ..

وبعد ذلك تجى السنوات التي أخذها من القرد ويكون عجوزاً يندم على

أيام النط من شجرة إلى شجرة . . ولا يجد من هذه الأشجار كلها إلا عكازاً
في يده !

وكل إنسان هو خليط من الحمار والكلب والقرد . .
وقد عرفت تاريخ هذه المراحل وعليك أن تبحث عن نفسك . أى واحد
من هؤلاء . . .

* * *

وعلى سبيل التجربة ومعرفتي لنفسي اكتشفت أمس أن ملابسي كلها ممزقة . .
البنطلونات والقمصان ولاحظت أن ألوانها أيضاً تغيرت . . ففي الذي كان
رصاصياً أصبح اليوم نحاسياً . . وبنطلوني الذي كان نحاسياً أصبح اليوم برونزياً . .
إنها أشعة الشمس والغسيل والمكوى وكثرة الاستعمال . . ولو عرفت كم
عدد القمصان التي معنـى لدهشت كيف أسفـر بها خارج بلادنا . إن الذين رأوا
الحقيقة التي أحـملـها لم يـصدـقـوا أبداً أنـي سـأـقـيـ خـارـجـ الـقـاهـرـةـ ٢٢٠ـ يـومـاًـ . .
إنـهاـ مـلـابـسـ تـكـفـيـ أـىـ إـنـسـانـ مـلـدةـ أـسـبـوـعـ فـيـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ . .

ولـكـنـ قـرـرـتـ أـلـاـ أـشـرـىـ أـىـ مـلـابـسـ مـنـ الـهـنـدـ وـلـاـ مـنـ أـنـدـونـيـسـياـ . . وـقـرـرـتـ
أـنـ أـشـرـىـهـ مـنـ سـنـغـافـورـةـ . فـفـيـ مـلـابـسـ جـمـيـلـةـ وـرـخـيـصـةـ . وـعـنـدـمـاـ ذـهـبـتـ إـلـىـ
سـنـغـافـورـةـ عـدـلـتـ رـأـيـ . . وـقـلـتـ مـاـ تـزـالـ أـمـاـيـ بـلـادـ أـخـرـىـ أـجـمـلـ وـأـحـسـنـ . . بـلـاشـ
يـاـ وـادـ دـلـوقـتـ . .

وـالـوـادـ لـمـ يـصـدـقـ خـبـرـآـ . . وـرـاحـ يـلـبـسـ المـزـقـ وـيـقـلـعـ المـزـقـ . .
وـمـلـابـسـ الصـيفـيـةـ تـبـدوـ شـتوـيـةـ هـنـاـ فـيـ الـهـنـدـ . .

إـنـهاـ ثـقـيـلـةـ جـداـ . معـ أـنـاـ فـيـ الـقـاهـرـةـ نـقـولـ إـنـهاـ خـفـيـفـةـ جـداـ . وـأـلـدـ أـصـدـقـائـيـ
ذـهـبـ فـيـ نـقـدـهـ لـلـدـرـجـةـ أـنـهـ قـالـ لـيـ : ياـ أـخـيـ بـلـاشـ الـهـلـوـمـ الشـفـقـتـيـ دـىـ !
وـأـمـسـ فـوـجـيـتـ بـدـعـوـةـ مـوـجـهـةـ لـيـ مـنـ رـئـيـسـ وـزـرـاءـ مـنـغـولـيـاـ . الدـعـوـةـ فـيـ
فـنـدـقـ اـشـوـكـاـ الـأـيـقـنـ . .

وـلـابـدـ أـنـ أـرـتـدـيـ بـدـلـةـ كـامـلـةـ . وـهـذـهـ مـسـأـلـةـ تـضـايـقـنـيـ جـداـ . فـاـنـاـ أـكـرـهـ
الـكـرـافـةـ وـأـكـرـهـ الـبـاحـكـةـ وـأـكـرـهـ الـيـاقـةـ الـتـيـ تـلـتـفـ حـوـلـ عـنـيـ . . وـأـحـسـ أـنـيـ مـرـبـوطـ
مـنـ شـعـرـ رـأـسـيـ إـلـىـ السـقـفـ كـأـنـيـ كـيـسـ قـطـنـ أـوـ شـوـالـ أـرـزـ . .

وتدكرت أن لي بنطلوناً عند الترزي وطلبت منه أن يستعجل البنطلون ...
واكتشفت أن هناك حذاء آخر عند الجزمجي . البنطلون يجب تصليحه والخذاء
يجب تصليحه ..

وأخيراً وقبل الحفلة بساعة حضر البنطلون والخذاء ..

وحمدت الله فأنا الآن على ما يرام ومن باب الاستطلاع نظرت إلى الخذاء
فأعجبني تصليحه .. لا توجد آية آثار للخيط ولا للماكينة أو الإبرة ..
عال .. وأمسكت البنطلون فوجدت أن التصليح واضح جداً .. رقعة على العين
ورقعة على الشمال والخيوط واضحة جداً . الخيوط تمسك الرقعة حتى لا تقع .
والخيوط ألوان أيضاً حتى لا تخفي على العين .. ولعل الرجل أراد أن يلتف نظري
إليها حتى لا أظن أنه لم يعمل أو لم يبذل مجهوداً ..

وفي الحفلة التي شهدتها نهرو ورجال السلك الدبلوماسي كلهم . أحسست
أن هذه الحفلة قد أقيمت للفرجة على الرقعتين .. واحدة هنا وواحدة هناك ..
وأحسست أن هذه الابتسamas الكثيرة موجهة لي .. كلها مواساة أو كلها
تربيقة .. ولم أجد مكاناً أضع فيه يدي . لا أستطيع أن أضعهما في جيبى فهذا
لا يصح وثانياً هذا يكشف الرقعتين . ولا أستطيع أن أضع يدي في يد أحد
لأنني لا أعرف أحداً ..

فوضعت يدي ورأى ..

وكلاً من الجرسون الذي يحمل المشروبات . قلت له : أنا مريض ..
آسف .. مريض .. شربت .. متشكر ..

وأحياناً كنت أنسى فأضع يدي إلى جواري .
وأتذكر فاردهما إلى مكانهما فجأة فترطماني في سيدة فأستدير لأعتذر
فأضرب واحدة أخرى .. أو واحد آخر ..

ووقفت إلى جوار الحائط .. ظهرى للحائط ..

وعاد الجرسون يطاردنـي فقلت له : وحياتك مريض .. إنـي مريض «باللوز»!
وهذا صحيح لأنـ الترـزي قد وضع لوزـ للبنـطلـون كالـى يـضعـهاـ الجـزمـجيـ للـخذـاءـ القـدـيمـ ..
طبعـاً لا داعـيـ للـندـمـ .. إنـ الغـلـطةـ غـلـطـتـيـ أناـ ..

كان يجب أن أبعث بینطلوني للجزجي ، وأن أبعث بجزمني للترزى !
وهنا فقط أدركت أننى وحدى الذى ما أزال فى مرحلة الحمار — أى يجب
أن أعمل . وعملت !

* * *

وفي الليل جلسنا معاً . شلة . . وجاء نهض واحد منا وأقفل الراديو على أم
كلثوم وهى تقول : وأقول أقابلك فىن !

وقال : تقابليه فىن ؟ هنا يا أخي فى النار والرطوبة . .
وجلس وكأنه قام بعمل عظيم . وهو فعلاً قام بعمل عظيم بل جسيم لقد حرمنا
من أغنية جميلة .. ثم التفت إلينا بحركة عصبية وقال : ما تجبوش تسمعوا كلام
بلدى حلوا ؟

ولم ينتظر حتى يقول واحد منا : نعم .. والحقيقة أننا جميعاً لم نكن قادرین
على أن نقول كلمة واحدة .. الدنيا ليل ، والحرارة مرهقة ، والرطوبة مرهقة أيضاً .
ولا مانع من أن يقول أى شيء . فهو لن يضيف إلينا تعباً ولا قرفاً أكثر من الذى
نعاينيه . . .

وواحد منا وجد عنده بقايا قوة فقال له : قول يا أخي . قول يا سيدى . .
نعم . سمع . هس !

وجلس صاحبنا على الأرض وظهره للمقعد وقال : يا جرح . . يا جرح .
وقلنا كلنا في نفس واحد : يا إيه ؟ موالي ده والا إيه ؟
ولكنه مضى يقول الموال وهو ينظر إلى أعلى . كان هناك فتاة تطل من
نقب السقف : يا جرح الجبال ماتوا . .

وأنت فاضل حى . . .

منين أجيبي لك الطيب . . .

صفصف علينا الحى . . .

من الصغر لل الكبر عمال تالمى . . .

راح يقول ليه بين أيادي الحى . .

رد جرحى وقال . .

ومين قال لك أنى أنا حى . .

مين اللي مات له طبيب ولسه فاضل حي .
 زى الضرير يمسك فى حبال دايبة ..
 والشمعة بتموت ولهبها بيفضل حي ..
 ومن غير أى تفكير قال واحد آخر باللغة الصعيدية :
 تعالى يا طبيب شوف ما جrai ..
 رش الدوا بالدناشى ..
 وإن عشت يا طبيب لأديك ما جrai ..
 وإن مت يا طبيب ما بدناشى !

وتفسير الكلمات الصعيدية : ما جrai الأولى معناها ما جرى لي . وما جrai الثانية معناها : فلوس . وبالدناشى الأولى معناها : قليلاً قليلاً . وبالدناشى الثانية معناها : ما بيدناشى ! أرجو أن تكون قد فهمت . . وأنا أعتذر لإخواتي الصعيادة إذا كانت هذه الألفاظ أى معانٍ أخرى خبيثة .
 وقال ثالث : أحسن كلام بلدى سمعته هو الذى يقول :

ليالى الهرج تطلع شمسها بكره
 وليلة الوصل تطلع شمسها المغرب

ومضى يقول : شوف المعانى الحلوة . . تصوروا ليلة الهرج طويلة . . شمسها تطلع في اليوم الثاني . . وليلة الوصل قصيرة شمسها تطلع بعد ما تغرب على طول ..
 وسكننا كأننا تعبنا من الكلام أو من الاستماع إلى الكلام .

وفجأة تححدث الصديق الأول وقال : حد فاكر أغنية : أكل الحشى
 ما ينفعشى للمطروب الشيخ الصفتى .. أغنية مشهورة قديمة . عاوزين تقولوا
 إن كلكم مودرن . كلكم شبان . أعوذ بالله . أنت مالكم هابتكلموش كده
 ليه . . النهاردة ليه في الأيام . . النهاردة التلات . . يبقى اليوم معناه ليه يا أستاذ
 يا بتابع الأيام وفوائد الأيام .

ورد عليه واحد منا قائلاً : اسمع وأنا أقول لك . شوف يا سيدى . الحكيم

البلدى القديم قال :
 السبت للصيد ..
 والحد للبنا يا عم ..

و يوم الاثنين سافر ..
و يوم الثلاثاء خدم ..
و يوم الأربعاء تداوى
و في الخميس ينفك المم ..
و يوم الجمعة شرح أحوال النساء ياعم .. يعني التهاردة ناخذ دم ليه رأيك ..
مش ننام أحسن .. أحسن ما نعيا التهاردة و تعالج يوم الأربع ..
و كان التعب كخيط قديم .. تمزق الخيط و تفرقنا واحداً وحداً .. كل
واحد يتتابع .. كان في بطنه ذبباً عاوياً يريد أن ينطلق إلى الفراش .. و كان
الفراش حمل وديع ..
و مني كل واحد منا إلى غرفته .. و فجأة ارتفع صوت أم كلثوم يقول و كأنها
تححدث إلى النوم الذي لا أجد له : ولما أشوفك يروح مني الكلام وأنساه !

• • •
منذ آلاف السنين كتب السلطان « بابار » أحد ملوك منغوليا مذكراته :
لوعرف أبناء وطنى فوائد الشطة ، كما عرفها أبناء الهند لغزو العالم كله !
ولحسن الحظ لم يعرف شعبه فوائد الشطة والكمون والفلفل ..
والأوريون عندما اكتشفوا هذه البلاد امتلأت أنوفهم برائحة الشطة وأفواهم
بطعمها . فنقلوها من الشرق إلى أوروبا و كانوا يبيعونها بأسعار غالبة جداً ،
كانت الشطة تباع بوزنها ذهباً وفضة .. .
وفي الهند وفي كل البلاد الآسيوية الحارة تجدهم يتناولون كميات كبيرة جداً
منها .. وانت لا تعرف لون الشطة فقد تكون حمراء أو صفراء أو سوداء أو
خضراء .. ولكنها تدخل كل الأطعمة . إنهم يضعونها أيضاً في الفاكهة وفي الحلو .
المهم أن تكون هناك شطة !
ويظهر أن الشطة هذه لابد منها في المناطق الحارة . فالناس من شدة الحرارة
كسالي جداً ، والمعدة كسول والكبد كسول ، والدم يتتسكع في الشريانين ، والفك
يتسع في الأعصاب .. كل شيء في حالة تردد نام .
والشطة هي النار التي تلسع كل عضو وكل فكرة .. وهي الكرباج الذي
ييتلعه الهند ليسو قيم من الداخل إلى الحياة .

وأمس صدر كتاب في الهند لعالم إنجليزي كبير اسمه البروفسور «رأى» هذا الكتاب كله عن مزايا الشطة التي تنشط الدم والهضم . ولأنه لو لا هذه الشطة لمات الناس من الأمراض المعاوية والكبدية ..

ومن رأيه أن الإنسان يجب أن يتناول الشطة بقليل ما يستطيع . وهو ينصح الأوربيين أبناء الشمال الذين يعيشون على اللحوم أن يضعوا القليل من الشطة في اللحوم . وبذلك لا يصابون بالقرف الذي يصيبهم عادة . وأحسن طريقة لطبع الشطة هي أن تضعها والطعام يغلى . ففي هذه الحالة تحول إلى مواد كيماوية نافعة جداً .. فهي أحسن بكثير من تناول أقراص قبل الأكل وأملاح بعد الأكل وحبوب أثناء الأكل ، كما يحدث في أمريكا وأوروبا .

والذين لا يذوقون الشطة محرومون من متعة حقيقة . فالشطة هي لذة ملتهبة وهب لذذ ..
ولو .. فلن أذوقها !

• • •

الهنود تعلموا من الإنجليز أشياء مختلفة والذى تعلموه ولا يزالون يزدونه كما هو ..
فيم تعلموا اللغة الإنجليزية وينطقونها بطريقة لا يمكن فهمها في كثير من الأحيان ..
وتعلموا منهم النظام والطاعة ..

فهم يقفون في طوابير أمام الأتوبيسات وأمام شبابيك التذاكر . هم منظمون
فعلا وإدارات الحكومة والشركات منظمة الإجراءات فيها بسيطة . وكل الأعمال
تم بنظام .

وشي آخر تعلموه أيضاً . لا أعرف ماذا أسميه . ولكن سأذكر لك الأمثلة
وعليك أن تجد الكلمة المناسبة . فقد اختلفنا هنا في وصفها ..
مثلا أنا أسكن في أحد الفنادق ..

وفي الصباح يدخل الخادم يحييك ويشير إلى أنه سينظف الغرفة ..
وبعد لحظات يخرج . وبعد لحظات يجيء خادم آخر ويشير إليك أنه سينظف
الغرفة .. ولا يثير دهشتكم أنه يوجد اثنان من الخدم لغرفة واحدة .. وبعد لحظات
يخرج ويدخل ثالث . وهنا تلتفت ماذا عساه أن يفعل هذا الثالث والرابع ..
وفي اليوم التالي يجيء ثلاثة أو أربعة آخرون طبعاً ليس هذا اهتماماً غير عادي

بشخصك . فأنت مهما كنت لا يعرفك أحد هنا . وهؤلاء الخدم معينون
قبل تشريفك بزمان . . .

وتفسير ذلك أن كل عمل له رجل خاص . فالذى يعد لك السرير
غير الذى يكنس لك الأرض ، غير الذى يغسل لك الحمام ، وغير الذى يأتى لك
بالماء . غير الذى يأتى لك بالفطور . غير الذى يحضر لك العشاء .
لهم كثiron جداً وأجورهم رخيصة جداً .

أذكر أنني أشرت إلى أحد الخدم أن يجمع بعض الأوراق من الأرض فهذا رأسه وبعد لحظات عاد ومعه خادم آخر وانحنى هذا الخادم وجمع الأوراق من الأرض. وأذكر أن جهاز التكييف تعطل . وأشارت إلى الخادم فذهب وأحضر رجلا آخر . مع أن إصلاح جهاز التكييف لا يحتاج إلى أخصائى . أو خبير في متخصص .. فقد كنت أريد ربط مسياح فقط !

وحاولت أن أدق الحرس ليجيء الخادم ولكن لم يفعل ..

فاستخدمت التليفون وجاء الخادم ونبهى إلى أن التليفون يجب أن يستخدمه فقط بعد منتصف الليل . أما قبل ذلك فيجب أن يستخدم البحرس .. وحاولت أن أتفاهم مع أحد الخدم وبيدو أنه لم يفهم كلامي . قلت له وأنا أضحك : ابعث لي المختص .. فأنا أريد أن أخافق معه .. هل أنت المختص الخنافق ! فهز رأسه جاداً جداً وقال إنه ليس المختص ..

وجلس أقرأ . وبعد لحظات جاء الخادم ومعه رئيس الخدم . : قلت له
صباحكأ . أنت المختص بالحنق .

ولم يضحك الرجل وقال : لا . . .

وخرجت . . وعرفت أنه سياقى بمدير الفندق ! . .

• • •

يقيم هنا في الهند طبيب مصرى جاء يدرس بعض الملاриا في الهند وسيقى
هنا بضعة شهور .. زرته في الفندق .. ليس في غرفته إلا كتب وخرائط وعينات
للبعوض في الهند .. وهو مشغول بالأمراض ومقاؤتها .. وكيف ترش الأ.د. دت.
على الحدود بدرجة معينة وبطريقة معينة .

قلت للدكتور : تفتكر إن الطريقة الوحيدة للقضاء على البعض هي أن

ترش البيوت فقط – وماذا ستعمل الهند في المساحات المائة الهائلة والغابات والحقول إن الناس معظمهم ينامون خارج البيوت .. فالبعوض سيصيّبهم خارج البيت ولن ينتظرون في داخل البيوت حتى يعودوا . . .

ولكن الدكتور قد أعد لكل سؤال جواباً . وقال : إن البعوض لا يلدغ حبيباً اتفق . فهناك قواعد للدغ البعوض . هناك بعوض يقيم بعض الحالات قبل أن يتمتص دم الإنسان ، وهناك بعوض لا يلدغ إلا الإنسان النائم . والبعوض لا يلدغ الإنسان المتحرك . على كل حال هناك ٤٣ نوعاً من أنواع البعوض موزعة على مقاطعات الهند .

وكل بعوضة لها طريقة في نقل المرض .
ولكن الذي يلدغ عادة من البعوض هو الإناث فقط !

وببلاد الصين قد ضربت المثل على إمكان تحقيق المستحيل . فقد قضت على الذباب في وقت قصير ، الشعب كله قام وقضى على الذباب . والهند تحاول هي الأخرى أن تقضي على البعوض . وهناك وحدات طبية كثيرة تعمل على أسس علمية سليمة وتعاونها الصحة العالمية . ويظهر أن النتائج مؤكدة .

وفجأة تلقت الدكتور قاتلاً : طبعاً أنت ستضحك مني الآن . طيب والله العظيم السُّتُّ اللي هناك دي فيها شبه من بعوضة الفيل اللي تنقل مرض الفيل .. وهو موجود بالهند بكثرة شديدة جداً ..

وسكت الدكتور وعاد يهمس في أذني بأغاني البعوض ويقول : ولكن سيفيك أنت .. ربنا هو المنجي .. يعني أنا لم أعتقد أن آخذ أي دواء .. الواقية خير من العلاج .. يجب أن ينام الإنسان في ناموسية ..
قلت : وفي الشارع ماذا يعمل ..

قال : ولا حاجة .. خلها على الله .

وسكتنا نحن الإثنان .. هو يفكّر في البعوض . وأنا أفكّر في الواقية من البعوض ..

وأخيراً تكلم الدكتور : على فكرة البلد اللي حتسافر لها .. هذه البلد هى مرکز بعوض مرض الفيل في العالم كله ..

فصرخت فيه قائلة : ياللّا قوم بيتنا ..

- على فين !

- على الأجزخانة ! ..

* * *

وف اليوم التالي جاءنى صديق آخر ملهوفاً كأنه يحمل لي كنزًا ثميناً :
نصيحة كانت مثل طوق نجاشى . . هى المظلة التى سأهبط بها إلى بر الأمان . . هى
دعاء الوالدين . . هى الحكم ببراعقى . . هى وصية الحكم لقبان . . قال لي :
أنت مسافر غداً ولماذا اخترت هذه المنطقة بالذات أنت لا تعرفها . .
ولم تكن هناك أية فائدة من المناقشة . . و مد يده إلى المنظار فسحه . . لقد
أخى دموع عينيه . . ولكن المنظار فضحه . . إن منظاره الزجاجى كان يبكي
من أجلى . .

البلاد التى سأسافر إليها غداً تبعد خمسة آلاف كيلو عن هذا المكان .
أمطار دائمة وعواصف ورعد وبرق . . وأوحال . . كل قطرة عليها بعوضة ،
وف جناح كل بعوضة مليون جرثومة . . وكلها فى انتظار أى إنسان . . فلماذا
أكون أنا ذلك الإنسان دون سائر الناس !
ولكن لفته وخوفه وقلقه كان معناها أنى المقصود بهذا كله . . بالمطر والوحى
وكل الأمراض . .

فيجب ألا أشرب الماء مطلقاً . . لأن الماء فى موسم الأمطار يختلط بالمحارى
ولا يمكن تطهيره أبداً إلا بغليه ثلاثة مرات . . أول مرة للدرجة التبخر . . وبعد ذلك
أتركه حتى يبرد ثم يغلى مرة أخرى حتى درجة ٨٠ . . وبعد ذلك يغلى الماء للدرجة
التبخر وأتركه حتى يبرد وأعصر عليه بعض الليمون . .
ولابد أن أتام داخل ناموسية . . لأن هذه المنطقة هي مركز توريد ذباب
مرض الفيل فى العالم كله . . والإنسان عندما تلدعه هذه الذباب فإنه لا يصاب بأى
ألم ولا تظهر عليه أعراض هذا المرض فى نفس اليوم أو الأسبوع . . وإنما بعد سنوات !
هذا إذا تناولت الأقراد المضادة لهذا المرض . .

* * *

وإذا ذهبت إلى حديقة ، فيجب ألا يكون ذلك فى ساعة مبكرة من النهار ،

أو ساعة متأخرة من الليل . ففي الحديقة أشجار لها عطر – طبعا . فالبلاد مليئة بالغابات ويحب ألا تغريني هذه العطور والألوان الحمراء والصفراء المنتشرة بين أزهار الشجرة وأوراقها . فهذه الأشجار تجذب نوعاً من الأفاعي ، له سم يقتل بعد ٤٨ ثانية – أيوه ثانية – والذين شبهوا المرأة بشجرة تلتف حولها أفعى لم يكونوا خياليين . فالسم وراء العطور والألوان !

وهناك نوع من الأفاعي اسمها « الكوبرا السلطانية » أو « الكوبرا الملكية » بعضها ينام على الأشجار ذات العطور وبعضاً ينام بلا عطور . وهذه الأخيرة سمها يقتل في نصف المدة .. أي في ٢٤ ثانية .. أي قبل أن يقول الإنسان : آه .. يعني الموت هنا أسرع من الصوت !

وإذا سمعت في غرفتي صر صاراً فيجب ألا تقفل عيني فأنام . يجب ألا أنام أبداً . فهناك نوع من الأفاعي صوته يشبه صوت الصر صار بالضبط . وهذا النوع من الأفاعي أعمى . ولكنه يهتدى بأذنيه إلى الأماكن التي يسمع فيها أنفاس التأمين . وهو يعض وليس ساماً . ولكن مفاجأة العضة يناس !!
انتهى بند الأفاعي . . .

* * *

وليای أن أسكن في فندق له حديقة .. ففي هذه المنطقة ملايين الفرود وكلها شرسة . وحادثة الصحفى الأمريكى الذى ظل طول الليل يكتب . وفي الصباح وجد الآلة الكاتبة والأوراق وملابسها كلها غير موجودة .. وأبلغ إدارة الفندق .. وفي قسم البوليس أتوا له بالتهم وفي يده السلاسل ومعه الآلة الكاتبة وكوم من الأوراق الممزقة .. وكان المتهم قرداً !

* * *

أماحدث اكتشاف طبى .. فهو أنى يجب ألا أصاب بأى إمساك .. والإنسان معرض دائماً للإمساك في البلاد الحارة لأنه يشرب سوائل مثلجة . ولأنه متعب ولا يعرف كيف ينام .. ولكن يجب ألا أسرف في الشطة فهى ولاشك تؤدى إلى اختفاء الإمساك وظهور أمراض أخرى من بينها الإسهال والدوستيريا . وهذا المرض الأخير – ولا داعى لذكر اسمه – قاتل في هذه البلاد ..

* * *

ثم لابد أن أضع منظاراً على عيني لأن هناك نوعاً من التراب ملتهب ..
إنه كالبارود . إنه يخلو العين بمعنى أنه يمسح سوادها نهائياً . فاحترس !

* * *

ووضع يده على كتفي : لكن ربنا يسترها ويراك !
ثم عاد يقول : وأهم من هذا كلها مدينة « الله آباد » وهي المدينة التي ولد
فيها الرئيس نهر .. .

هذه المدينة بالقرب من إحدى القرى . فيها أجمل فنيات الهند . وكلمة
« كده ولا كده » معناها أن أحشو من نوم ثقيل لا أعرف كيف بدأ فأجدني
مربوطاً من ذيل جلبابي وجلبابي مربوطاً في ذيل فستان .. صاحبة الفستان هي
عروسي الهندية .. كيف بدأ هذا ؟ بدأ بأنني قلت كلمة كده ، ولا كده أي
أبديت اهتماماً . فمعنى ذلك أن الفتاة أعجبتني . والإعجاب معناه الحب والحب
معناه الزواج فوراً . وأهلها يفرون للعروسة ويحملون العريس على الأعنق بعد
أن يدقوا رأسه بعصا خضراء ويملاووا فيه بشراب أحمر فيدوخ وتوضع أمامه
النيران وعلى النير ان يلقون بالسمن وتزداد النار اشتعالاً . وبالرفاء والبنين ..!
وانتهت نصائحه ..

وهمست أنا في أذنه : أنت سمعت هذا الكلام من فلان .

قال : نعم .

قلت : أنا الذي قلت له هذه الحكایات كلها ..!

قال : يعني هزار !

قلت : صحيحة كلها لكن ليس معقولاً يا أخي أن تجتمع كل هذه المصائب
من أجلي وتصيبني أنا وحدي دون السبعين مليوناً في هذه الولاية .

قال : يعني مسافر !

قلت : طبعاً مسافر ..!

قال : ويراك ..

وسافرنا معًا وأنا أكثر خوفاً منه . فأنا الذي أعطيتهطمأنينة التي لا أجدها ..
كنت كالشجرة التي تمددت تحتها روحه المسالمة وجعلته يغط في نوم عميق ..
أما أنا فتحرقني الشمس وتهزني الريح ..

.. ليس صحيحاً المثل الذي يقول : فاقد الشيء لا يعطيه !

فأنا فقدت الطمأنينة ومع ذلك أعطيتها له .. !

بل الذين يفقدون الأمل هم الذين يتحدثون عنه . والذين يفقدون الحب هم

أكثر الناس تغنىً به .. إن الشمس التي هي مصدر الحياة للدنيا كلها، ليست فيها حياة !

ملحوظة : نحن هنا في الهند .. وكل الناس حكماء وفلاسفة !

* * *

لا تسمع في مدن الهند صوت راديو ولا تجده في البيوت ولا في السيارات

مع أنه معروض في المحلات التجارية . والسبب أنهم يكرهون الضوضاء أو لا

يقدرون على شرائه ! .

* * *

إذا تزوجت في الهند فأنت ضامن أن حماتك لن تزورك أبداً . لأن هذا

حرام .. وإذا زارتكم فرة واحدة كل بضم سنوات . ولا يجوز للحمة أن تأكل

أو تشرب في بيت ابنتها لأن هذا حرام أيضاً . وإذا زرتها فالخير ان هم الذين

يقدمون لها الطعام والشراب .

* * *

وعلى الرغم من الأمطار الغزيرة والأنهار التي تغرق مئات القرى كل يوم

فإنك تجد في مدينة نيودلهي عربات لبيع الماء البارد ، هذه العربات تابعة محلات

كبيرة تشبه جروبي في القاهرة ولكن مع الفارق الكبير جداً !

* * *

في الهند توجد المتروسيكلات التي تتسع لأربعة أو خمسة من الركاب وهي

رخيصة وسريعة وتحل أزمة الأتوبيسات . وهي أحسن وسيلة لإنقاذ أزمة المواصلات

في القاهرة !

أول شيء يلفت النظر هن فساتين السيدات . إن المرأة تلبس السارى وهو

قطعة من الحرير تلف حول الساقين وترمي على الكتف . ويبعد كأنه فستان

من قطعتين منفصلتين تماماً .. بلوزة قصيرة جداً . وجيب تحت السارى .

ويبدو من تحت الوسط .. وأنت ترى منطقة عارية من جسم المرأة عرضها شبر .

إذا لفت هذا نظرك ، وضبطتك المرأة وأنت تنظر إليها فإنهما تندesh جداً ويبعدو

عليها الضيق . كأنك أنت الذي زحزحت البلوزة عن الجيب ! . يا سم !

يسمون الجرسون هنا : بيرر وهي كلمة إنجليزية معناها : شباب وأعتقد أنها أحسن من الكلمة «جرسون» الفرنسية التي معناها ولد أو شاب صغير . فأخيائنا يكون الجرسون في سن الوالد أو الجد . وفي ألمانيا يسمونه : هر أو بير وفي إيطاليا يسمونه : كامرييري . وفي العراق يسمونه : بوى وهي الكلمة الإنجليزية معناها ولد أي جرسون وفي العراق والكويت ينادون الجرسون مهما كانت سنه ؛ تعالى يا ولد ! . . . ولكن في الهند أحسن . . . والعرب القدماء كانوا يسمون الجرسون بالنندل . . ما رأيك ؟

لهم هنا يكرهون القسوة . . يكرهون أن يقضى إنسان على حياة إنسان أو حيوان .. إن الناس يكرهون تحديد النسل لأن هذا قتل لأرواح بريئة .. لهم يرثون الحيوانات ترعى في أحسن شوارع العاصمة . الأبقار في الشارع والقروড على الشجرة . ولا يقتلون المثل أو الصرصار أو الثعبان أو البورص فلهما جميعاً رزق ، ولنا جميعاً رب اسمه الكريم !

والهنود لا يدعون أحداً إلى بيتهم وإذا دعوك فلا تنتظر أن يقدموا لك شيئاً على الإطلاق .. وإذا سمعت الأطفال يرددون ويحيطون ، وسمعت صوت ملاعق أو أطباق أو أكواب فمعنى ذلك أنهم انتهزوا فرصة المصابيح التي أضيئت بمناسبة زيارتك وجعلوا يغسلون أطباقهم وملابسهم ؟

الشاي يقدمونه لك ومعه طبق من الحمص واللب المقشر وبعض اللوز أو البندق وبعض الأرز وقطع من الخبز وكلها غارقة في الشطة !

إن الشعب الذي عدده ٥٠٠ مليون نسمة لا يعرف معنى الكلمة مليون ولا ملايين فعندهم الكلمة لاك وهي تساوى ١٠٠ ألف وعندهم الكلمة : كرور وهي تساوى مائة لاك !

مركز المرأة في آسيا كلها أحسن من مركزها في أفريقيا . فهى هنا في الهند رئيسة أعظم حزب وهو « حزب المؤتمر » . وهى وزيرة ونائبة وزير ومستشاره وقاضية وهى وكيلة البرلمان ورئيسة مئات من الهيئات الرسمية .

كنت قرأت مرة لألبرتو مورافيا عبارة على لسان رجل مشكلته أنه لا يعرف كيف يحدد النسل فيقول : نحن فقراء غير قادرين على الذهاب إلى السينما أو الحدائق فإذا نعمل ؟ إننا ننام في ساعة مبكرة . وتحى الأولاد !

ومررت بهذه العبارة ضاحكاً ولم أقف عندها طويلاً .. والهند هي أحسن تفسير لهذه الجملة .. فالليل عندهم يبدأ من بعد الظهر حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي فلا سهرات ولا حفلات ولا سينمات !

وتحى ملايين الأطفال .. طبعاً !

كل شيء هنا يتم ببطء شديد . الزمن بطيء والصيف بطيء ، والشتاء بطيء والحياة بليدة جداً . إنها الحرارة التي تصيب الكبد فتنقل متاعبه إلى بقية أعضاء الجسم . ويقال إن الإنجليز عندما دخلوا هذه البلاد قرروا أن يعودوا إلى بلادهم لو لا الكسل الذي أصابهم ففكروا فيها ثلاثة قرون !

أحسن ما في الهند هو طريقة التحية عندهم .. فأنت لست في حاجة إلى أن تصافح كل الموجودين عند دخولك وخرورك ووداعك .. وإنما يمكن أن تضم كفيك وترفعهما إلى أعلى .. وفي هذا تحية لواحد .. ولل مليون واحد !

ليس على لسان غير هذه الأغنية : أكلك نار .. شربك نار .. بعدهك نار .. قربك نار !!

ولا يمكن أن يفهم أحد في القاهرة معنى نار ، إلا إذا سافر إلى الهند . النار حقيقة .. تخرج من أنفك وتدخل في صدرك .. الطعام كله شطة حمراء وكما يوجد هواء سائل توجد أيضاً نار سائلة تتوضع في كل شيء .. النار في يدك وفي فلك ، وفي معدتك .. نار يا حبيبي نار ..

* * *

الهواء هنا غير موجود .. لقد زحف البحر على البر فانسحب الهواء . أنت تنفس بخاراً من الماء . ولو سقطت سمكة من السماء الآن فلن أدهش ، لأننا جميعاً نخوض في الماء .. بل لو سقطت هذه السمكة مشوية فلن أدهش بل لو سقطت وهي في منقار عصفور محسو بالأرز بالكارى ومكتوب عليها السعر فلن أدهش أبداً .. فتحن في بلاد الملابين . ملايين الناس . والحواء والأديان واللغات والحيوانات .. كل شيء جائز !

* * *

لقد كنت في الهند كالسيارة التي ارتفعت حرارتها ، وتعطل فيها جهاز التبريد .. اروحة واقفة .. الماء يغلي .. ولا أستطيع أن أوقف المотор لكي تنخفض درجة الحرارة ..

* * *

والجرائم هنا تشبه السمك إنها تسبع في هذه البحار وتنقل من إنسان إلى آخر وبسرعة ، ويكون ضحاياها بالألاف !

* * *

ملابسى متتصقة بجسمى . كأن عشرين جرداً من الماء أقيمت على رأسى وعلى ظهرى .. ويبدو أن هذا منظر مألف في الهند .. فالآجانب لم يتعدوا بعد على هذه النار .. أما أبناء الهند فلا أحد يشكوا من العرق أو من النار ..

* * *

قرأت كتاب «أذرع وسيقان» . لعبد الحميد جودة السحار . إنه عندما كان في الهند كان ينام عارياً وأمامه مروحة .. إني في نفس الوضع .. الغرفة مقفلة التوافذ .. وأنا عريان .. المروحة أمامي كأنها فراشة دائمة .. وأنا أريد أن أزعج جلدي لأنه لحاف ثقيل يرفع درجة حراري . ولذلك اقترحت على مدير الفندق أن يأتي بمروحة أخرى لتقوم بتبديد هذه المروحة التي تبصق النار في كل شيء حولها ، وفي وجهي .

* * *

قرأت «لسومرست موم» أن الإنسان في الهند يشعر بأنه فوق .. فوق

الناس جميعاً فحياته مستحيلة من غير أن ينخفض من كل ما يحمله من ملابس
ومن طعام ومن هوم . . إن راحته الكبرى في أن يجلس فوق . . فوق الجبال
بعيداً عن مشاغل الدنيا . .

فعلاً . . أستطيع أن أكون كما أريد هنا في الهند . . أن أمشي عارياً حافياً . .
أن أنام على المسامير . . فعلى مئات الألف . . أن أقف على ناصية أحد الشوارع
وقد حلقت رأسى بالموسي ولفت غطاء حول نصفي الأسفل وفي يدي طبق
كما يفعل رهبان البوذية . . وأنظر من الناس أن يضعوا في الطبق ما تجود به
نفوسهم . . ولن أكون أعجوبة . . لن يتلتفت أحد إلى هذا الشحاذ الذى ضاقت
عنه بلاده ، فجاء في «بعثة شحاذية» إلى الهند . .

ملايين الناس . . رائخون في الشوارع وجالسون على الأرصفة . . ينظرون
إليك ولا يهمهم أمرك . . أنت الآن في الهند حر . . تماماً . . بل أكثر حرية
من أبناء الهند . . حر من عيون الناس ومن كلام الناس .

تستطيع أن تكتوى بالنار على الوجه الذى تريد . . بالهواء بالاطر بالمشي
بالجلوس . . بالأكل بالإضراب عن الأكل . .

نار ! وأرجو أن تكون الألف ممدودة حتى آخر هذه الصحيفة !

* * *

قررت أن أمسك نفسي . . لا أصرخ . . لا أكون عصبياً . . قررت لا تكون
لي أعصاب . . قررت أن أكون مثل بيت انقطعت منه أسلاك النور والراديو
والتلفون . . حتى عندما تسري الكهرباء في هذه الأسلاك يجب أن تكون
فلسفى هي : ودن من طين والودن الثانية من طين أيضاً .

لماذا ؟ لأنه لا فائدة من الصراخ . . لا فائدة من الثورة . . فأنا لا أستطيع
أن أصلح الدنيا حولي . . ولا أستطيع أن أغير طباع الناس لكي تعجبني . . يجب
أن أتغير أنا . . لا لكي أعجب الناس ، ولكن لكي أعيش مع الناس ، حتى
لا أصطدم بالناس . . أو على الأقل لكي أستريح . .

وأقسمت بيني وبين نفسي أن تكون هذه هي فلسفتي اليوم فقط . . واليوم
على سبيل التجربة . .

ومددت يدي إلى الجرس . وضغطت عليه . وفي هدوء تام مددت يدي إلى كتاب وجعلت أقلب فيه .. صفحة بعد صفحة ، واستغرقت في الكتابة والقراءة واكتشفت فجأة أنه منذ عشر صفحات لم يحضر الخادم . فنهضت بسرعة مندفعاً نحو الجرس .. وتذكرت الاتفاق بيني وبين نفسي وألقيت بنفسي في المقعد . وتمتني أن تكون نفسي هذه قد سبقتني إلى المقعد . لكي أفعصها وأنا أرمي فوقها بثمانين كيلو من اللحم والشحم ..

وفي هدوء تمثيلي جداً مددت يدي إلى نفس الكتاب وقلبت فيه وأنا أقرأ الصفحات ولا أراها . وحاولت أن أقاوم غيظي فجعلت أغنى وأقول : يا عطارين دلوني الصبر فين أراضيه .. وقلت لنفسي . إذا كانت للصبر أراض . فهي الهند . إنها تتحدىك .. إنها تستنفذ أى رصيد من الصبر مهما كان .. إن النبي أيبوب عليه السلام لو جاء إلى هذه البلاد لأحسن أن صبره ليس إلا قليلاً من « الفكة » الصغيرة . فكل مواطن هنا مليونير في الصبر وهدوء الأعصاب .. نعمة من عند الله . يعني يبقى لا أكل ولا لبس ولا صبر كان ؟!

وفجأة دق الباب ودخل الخادم . وفي هدوء قلت له : من فضلك عاز شاي ! ولم يقل الخادم شيئاً وانطلق وانطلقت وراءه أناديه .. وتذكرت الاتفاق الذي لم يمض عليه سوى دقائق . ثم قلت له في هدوء : من فضلك عاز شاي . يكون الشاي لوحده والمية السخنة لوحدها .

وأختي الجرسون رأسه ومشي .. وناديته : يا أختي استنى لما أكمل كلامي .. المية تكون مغلية .. يعني المية من غير شاي .. والشاي ناشف ومحظوظ في طبق .. وبيني وبيني نفسى قلت : حتى لو جاب الشاي زى الطين والله ما أنا متكلم .. ساعة صبر مش قادر .. ساعة واحدة بس !

وبعد دقائق عاد الخادم ووراءه خادم آخر .. ووقفت أتفرج على البراريد والفناجين وأطباقي الشاي الجاف ولم أفهم لماذا كل هذه الهيبة .. ولم أنطق بكلمة . وعندما خرج الاثنان وجدت ما يائى : براداً من الشاي .. وبراداً من الماء المغلى . وطبقاً من الشاي الجاف .. وبراداً من القهوة .. ولم أجد قالبًا واحداً من السكر . فددت يدي إلى الجرس . وجاء الخادم في ثانية . ودخل

الغرفة وجمع كل البراريد وخرج دون أن يقول كلمة . ودخل خادم آخر ومعه براد ماء ساخن وطبق فيه شاي جاف وبعض السكر .. وخرج وناديت الخادم لأفهم منه ما هذا الذي حدث ..

وعرفت أن الخادم الأول قرر أن يعمل في مكان آخر من الفندق ولما سألت عن السبب قال لي : إنك تهين الخادم .

فقلت : أهينه كيف ؟ لا أعتقد أن هناك أى سبب يجعلني أهين أى خادم هنا . ! وناديت الخادم وسألته عن هذه الإهانة .. لكي أعتذر له إذا كنت مخطئاً ورفض الخادم أن يحدثنى عن حقيقة الإهانة . ولكنها أهانى عندما قال : يا سيدى لأنى خادم وليس من حقى أن أعرض .. مهما فعلت .. مهما قلت .. فأنا خادم وأنت سيد ..

وهنا أحست أنى مزقت الاتفاق بيني وبين نفسي وقلت : أرجوك أهيا السيد .. أنا خادمك .. أريد أن أعرف لماذا أهنتك .. أرجوك .. إذا لم تقل فوراً فسأنزل للمدير وأطلب منه أن يكرهك على الاعتراف .. فأنت أهنتنى أيضاً .. إنك أهنتنى في الصميم وجعلتني أمزق اتفاقاً غالياً !

وقال وهو لا يلمرى معنى ما أقول : آسف يا سيدى إذا كنت قد تسبيت في هذا كله .

وأخيراً قال : يا سيدى أنت كل يوم .. كل يوم تطلب مني نفس الطلب . وتطلبه بالتفصيل .. إنك تقول : براد من الشاي ملىء بالماء المغلى وإلى جواره طبق به شاي جاف .. كل يوم تقول لي نفس الكلام .. كأنى حمار أو بغل .. إنك تسىء الظن بي إلى درجة لا يتصورها العقل .

وقلت له : أنا آسف .. لي تجارب كثيرة في الفنادق .. هذه التجارب جعلتني أتوقع أن يحدث أى شيء .. وأنا لا أريد وجمع دماغ .. آسف .. وانحنى الرجل .. ورفع رأسه في ضيق وهو يقول : هذه هي آخر مرة أعمل هنا .. أنا قررت ذلك .. وهذه هي آخر مرة أقدم لك فيها الشاي ! وأقفلت الباب وجلست وأعصابي مهززة . تشبه أسلاك تليفونات لها دوى ولكننى لا أدرى ماذا يدور فيها .. ومددت يدى إلى براد الشاي ..

وعقدت اتفاقاً سريعاً بيني وبين نفسي .. وقررت أن أشرب فنجاناً من الشاي وفنجاناً من القهوة .. وبلا سكر .. وأنا أحافظ بأعصابي في برا .. (كلمة برا ؛ نسبة إلى البرد ، مع أن الماء فيه يغلي) .
وأصبحت في كل يوم أجلس أمام البراد وأصب ما أجد فيه دون أن أفتح في .. لا بالكلام ولا بالشرب !

* * *

كل شيء هنا له معنى وله قصة يعرفها الناس ..
مثلاً إذا نظرت إلى شعر الرأس . هل هناك شيء أبسط من شعر رأس الرجال ؟ ولن أعرض لشعر السيدات . فليست فيه أية تقاليع ..
هناك رجال يطلقون شعر الرأس واللحية طول العمر . ودينهم يمنعهم من أن يقصوا شعرة واحدة .. ويضع الواحد منهم عمامة كبيرة ملفوقة حول شعر أطول من أية امرأة ، هذه العمامه ملونة : خضراء زرقاء حمراء . كأنها كرافته وصاحبها يلوهها كما يريد ، واللحية طويلة أيضاً . ومعظمهم يضعون على اللحية شبكة كالتي تضعها الفتيات فوق الشعر .. وبعضهم يكتفي بأن يضع منديل مشودداً حول اللحية ..

هؤلاء هم «السيخ» وهم من أنشط الأقليات الهندية . وتجدهم في كل مجال من مجالات العمل . ويظهر أن رجال السيخ يمتازون بقوام سليم . وهم بنات وزوجات من أجمل فتيات الهند مع الأسف !

ويوجد في مطعم «جاييلورد» في نيودلهي رجل من السيخ مشهور ، وسبب شهرته أنه ليس في رأسه أو وجهه أو لحيته شعرة واحدة . وهو لذلك حزين جداً . إنه أقرع الرأس واللحية والشارب .. حتى حاجبه مرسومان بقلم من الفحم !
وهناك رجال يضعون المشط في الرأس ..

وهناك رجال يصفرون شعر الرأس بعد سن معينة . ويضعون في هذه الصفار مشطاً نصف دائري .

ويوجد في الهند أناس يخلقون شعر الرأس تماماً .. بالموسي ويتكون مجموعه من الشعر في منتصف الرأس ولا يخلقونها طول العمر ..
وهناك المسلمون الذين يطلقون شعر اللحية ، ولكنهم يقترون به قليلاً بصورة

تلفت النظر لأنهم ليسوا من السيخ . وهم لا يعرفون من اللغة العربية إلا «السلام عليكم» .
أما شعر المرأة فطويل أسود يوجع قلب كل نساء أوربا !

* * *

والملابس تروي قصة أخرى . . .
فهناك «الدوبي» وهي قطعة من القماش الطويلة جداً تلف حول الجسم .
وأحياناً على شكل بنطلون يشبه اللباس الذي يرتديه أبناء البلد في الإسكندرية . . .
قماشه أكثر من اللازم .

وهناك من يكتفى بأن يضع شريطاً من القماش يغطي به مساحة ضئيلة جداً
من الجسم من أسفل . أما الباقى فغيريان .
هناك من يرتدى الجاكيتة الطويلة جداً كالبالطو وتحتها بنطلون ضيق جداً
وملاحق للساقي .

والرجل العظيم نهرو كان يرتدى هذا الزى دائماً . . .
وأشكال من الجاكيتات والبنطلونات والملابس الداخلية غريبة . . .
أما رداء الرأس فهو أعجب . . هناك عمامٌ مشدودة ، وعمائم مفكوكه ،
وعمائم لها «عرف» كالدبلك وعمائم لها ذيل كالطاووس . . وعمائم «زعره»
بلا ذيل ولا منقار .

* * *

إن الهند ليست دولة ولكنها قارة واسعة .
الرجل الهندي يستطيع أن يعيش في أسوأ الظروف وفي أصغر مساحة من
الأرض وبأقل طعام وشراب ممكن . ولا يشكوا ويجد من دينه وفلسفته بلاده
ما يجعله يرضى بهذا القليل من كل شيء .

ولكن أي أجنبي في الهند يملك من الحريرات مالا يملكونها في بلده . . فأنت
في الهند تستطيع أن تمشي نصف «عيان» وأن تطيل لحيتك وشاربك . وأن
تنظر إلى الأرض ، وأن تنظر إلى السماء . . وأن تأكل والطعام في يدك وأن
تضفعه على الأرض . . وأن تموت من الجوع وأن تموت من الشبع . .

* * *

فـ الهند صحافة تختفي بك ، وصحافة تشمك ، وصحافة تدعوك ، وصحافة
تدعو عليك . . وصحافة تجعلك تكره الصحافة !

وبيـن الصـحفـيـن الـهـنـدـيـن مـن يـعـرـف بـلـادـكـ؟ كـانـه يـحـدـثـ عنـ أـسـرـتـه وـأـلـادـ وـأـنـ . . وـبـيـنـهـم مـن يـنـظـرـ إـلـيـكـ إـلـىـ بـلـادـكـ، كـانـهـا غـيـرـ مـوـجـودـةـ ، وـكـانـ الـأـرـاضـيـ الـتـي تـحـلـلـها بـلـادـكـ هـيـ جـمـعـ «ـبـياـضـ» عـلـىـ الـخـرـيـطـةـ وـعـلـىـ الـكـرـةـ الـأـرـضـيـةـ . .

* * *

كـلـ شـيـ هـنـا مـوـجـودـ ، مـنـ المـسـكـنـ أـنـ تـحـبـ الـهـنـدـ وـأـنـ تـكـرـهـ آـسـيـاـ كـلـهـاـ . .
وـمـنـ المـسـكـنـ أـنـ تـهـيـ نـفـسـكـ لـأـنـكـ جـثـتـ إـلـىـ هـذـهـ الـبـلـادـ . .
وـنـهـرـوـ هـوـ أـعـظـمـ رـجـلـ فـيـ الـهـنـدـ ، وـلـاـ يـعـرـفـ الـهـنـدـ مـنـ لـمـ يـعـرـفـ نـهـرـوـ ،
وـلـاـ يـعـرـفـ آـسـيـاـ مـنـ لـمـ يـعـرـفـ الـهـنـدـ ، وـلـاـ يـعـرـفـ مـسـتـقـبـلـ الـعـالـمـ مـنـ لـمـ يـعـرـفـ آـسـيـاـ !
وـالـهـنـدـ هـيـ رـأـسـ آـسـيـاـ . . وـهـيـ شـعـرـهـاـ الطـوـيلـ وـالـقـصـيرـ . . هـيـ الـعـامـةـ
أـمـ دـيـلـ ، وـالـعـامـةـ بـلـاـ دـيـلـ . هـيـ العنـوانـ الـذـيـ كـلـهـ مـعـنـىـ ، وـهـيـ عنـوانـ لـاـ عـلـاقـةـ
لـهـ بـالـمـوـضـوـعـ . هـيـ أـغـرـبـ مـاـ فـيـ آـسـيـاـ وـأـغـرـبـ مـاـ فـيـ الدـنـيـاـ . . لـكـنـهـاـ شـيـ كـبـيرـ . .
كـبـيرـ جـداـ !

* * *

نشرـتـ الصـحـفـ الـيـوـمـ أـنـ الـحـكـوـمـةـ قـدـ تـمـكـنـتـ مـنـ القـبـضـ عـلـىـ ٨٠ـ قـرـدـاـ . .
وـهـذـهـ الـقـرـودـ كـانـتـ تـهـجـمـ عـلـىـ دـوـاـوـينـ الـحـكـوـمـةـ وـتـمـزـقـ الـدـوـسـيـهـاتـ ، وـقـدـ اـنـفـقـتـ
الـحـكـوـمـةـ مـعـ عـدـدـ مـنـ الـصـيـادـيـنـ لـلـقـبـضـ عـلـىـ هـذـهـ الـقـرـودـ بـسـعـرـ ٨٠ـ قـرـشـاـ لـلـقـرـدـ الـواـحـدـ .
وـتـمـكـنـ هـوـلـاءـ الـصـيـادـوـنـ مـنـ إـمـسـاكـ الـقـرـودـ . . أـمـاـ طـرـيقـهـمـ فـهـيـ أـنـهـمـ أـتـواـ
بـقـرـدـ صـغـيرـ وـرـاحـوـ يـضـرـبـونـهـ وـالـقـرـدـ يـصـرـخـ . . فـجـاءـتـ الـقـرـودـ الـكـبـيرـةـ
لـإـنـقـاذـهـ فـسـقطـتـ فـيـ الشـبـكـةـ . .

واـحـتـجـ الـصـيـادـوـنـ عـلـىـ ضـائـلـةـ الـأـجـرـ ، وـهـدـدـوـ بـإـطـلـاقـ الـقـرـودـ . . فـأـعـطـهـمـ
الـحـكـوـمـةـ عـشـرـةـ قـرـوشـ أـخـرـىـ لـكـلـ قـرـدـ !

* * *

فـوـجـيـ النـاسـ فـيـ الـعـاصـمـةـ هـنـاـ بـأـنـ وـجـوهـهـمـ مـغـطـاةـ بـالـسـوـادـ . . بـالـهـبـابـ . .
وـظـنـ بـعـضـهـمـ أـنـ هـذـاـ بـفـعـلـ الشـيـاطـيـنـ أـوـ الـأـرـواـحـ الشـرـيرـةـ وـذـهـبـوـ إـلـىـ الـبـولـيـسـ . .
وـاـكـتـشـفـ الـبـولـيـسـ أـنـ هـذـاـ الـهـبـابـ الـذـيـ يـمـلـأـ وـجـوهـهـمـ وـأـجـسـامـهـمـ وـطـعـامـهـمـ قـدـ
هـبـطـ مـنـ إـحـدـيـ مـدـاـخـنـ الـمـصـانـعـ الـجـاـوـرـةـ . . وـلـيـسـ بـفـعـلـ الشـيـاطـيـنـ . .

* * *

فـ المـ هـنـدـ يـ سـأـلـونـ عـنـ الجـوـ وـعـنـ حـالـ الجـوـ ، معـ أـنـ المـ هـنـدـ صـيفـ مـعـظـمـ السـنـةـ
وـلـيـسـ هـنـاكـ تـغـيرـ مـلـحـوظـ فـيـ الجـوـ . . . وـالـصـحـفـ كـذـلـكـ تـهـمـ أـيـضـاـ بـالـجـوـ . . . كـانـ
هـذـهـ الصـحـفـ تـصـدـرـ فـيـ الجـلـتـرـاـ !

* * *

عـنـدـمـاـ وـصـلـ رـئـيـسـ وزـراءـ منـغـولـيـاـ إـلـىـ نـيـوـدـهـيـ وـزـعـتـ سـفـارـةـ منـغـولـيـاـ هـذـهـ القـصـةـ
الـجـمـيـلـةـ . . . وـالـقـصـةـ هـمـاـ مـغـزـيـ . . . وـهـيـ مـنـ الـأـدـبـ الشـعـبـيـ فـيـ مـونـغـولـيـاـ . . .
يـقـالـ : إـلـهـ كـانـتـ هـنـاكـ دـوـلـةـ صـغـيـرـةـ سـعـيـدـةـ . . . لـيـسـ فـيـهاـ فـقـرـ وـلـاـ مـرـضـ وـلـاـ
شـجـارـ بـيـنـ النـاسـ . . . السـمـاءـ فـيـ وـفـاقـ دـائـمـ مـعـ الـأـرـضـ وـرـسـائـلـ السـمـاءـ إـلـىـ الـأـرـضـ
يـحـمـلـهـاـ الـمـطـرـ وـتـحـمـلـهـاـ الطـيـورـ وـتـكـتـبـهـاـ الرـهـورـ وـتـخـفـيـهـاـ الشـارـ حـلـوـةـ وـرـائـحةـ جـمـيـلـةـ . . .
وـفـ يـوـمـ جـلـسـ الـمـلـكـ بـيـنـ الـحـاشـيـةـ يـقـولـ : بـلـادـنـاـ سـعـيـدـةـ وـأـعـتـقـدـ أـنـيـ مـصـدـرـ
هـذـهـ السـعـادـةـ . . . قـلـوـ لـمـ أـكـنـ مـلـكـاـ عـاقـلاـ عـادـلـاـ طـيـباـ ماـ وـجـدـتـ الـبـلـادـ هـذـهـ السـعـادـةـ
الـتـىـ تـرـاهـاـ عـلـىـ وـجـهـ الـطـفـلـ وـعـلـىـ وـجـهـ أـمـهـ وـأـبـهـ . . .

وـلـكـنـ الـمـلـكـةـ تـلـتـفـتـ إـلـىـ الـمـلـكـ وـقـالـتـ : بـلـ لـوـلـاـ وـجـودـيـ أـنـاـ . . . إـلـنـىـ عـرـفـتـكـ
شـابـاـ طـائـشـاـ كـثـيرـ الزـوـاتـ . . . كـلـ يـوـمـ عـلـىـ حـالـ . . . أـنـاـ التـىـ وـضـعـتـ عـقـلـيـ فـيـ
رـأـسـكـ . . . وـرـأـسـكـ هـوـ الـذـىـ يـدـبـرـ هـذـهـ دـوـلـةـ وـأـنـاـ التـىـ أـدـبـرـ رـأـسـكـ . . . فـأـنـاـ إـذـنـ
الـتـىـ أـدـبـرـ هـذـهـ دـوـلـةـ . . . أـمـاـ سـعـادـتـهـاـ ، فـأـنـاـ مـصـدـرـهـاـ الـوـحـيدـ . . .
وـتـلـتـفـتـ الـمـلـكـةـ إـلـىـ الـحـاشـيـةـ . . .

وـلـكـنـ أـفـرـادـ الـحـاشـيـةـ تـهـامـسـوـاـ وـقـالـوـ فـيـمـ بـيـنـهـمـ : إـلـنـاـ مـصـدـرـ السـعـادـةـ . . . فـالـمـلـكـ لـاـ يـرـىـ
إـلـاـ بـعـيـونـاـ وـلـاـ يـحـكـمـ إـلـاـ بـنـاـ فـنـحـنـ وـهـمـ عـيـنـاهـ وـأـذـنـاهـ وـيـدـاهـ . . . وـنـحـنـ السـلـالـمـ إـلـىـ الـشـعـبـ
وـمـنـ الـشـعـبـ . . . وـإـذـاـ كـانـ الـمـلـكـ عـقـلاـ ، فـلـاـ عـقـلـ بـغـيرـ جـسـمـ . . . وـنـحـنـ الـجـسـمـ . . .
وـاـخـتـلـفـ الـجـمـيعـ . . .

وـأـخـيـراـ اـتـفـقـواـ عـلـىـ أـنـ يـسـأـلـوـاـ أـحـدـ الـحـكـمـاءـ . . .

وـذـهـبـواـ إـلـىـ أـحـدـ الـحـكـمـاءـ وـسـأـلـوـهـ : مـاـ سـرـ السـعـادـةـ فـيـ بـلـادـنـاـ ، أـهـوـ الـمـلـكـ أـهـيـ
الـمـلـكـةـ ، أـهـمـ الـحـاشـيـةـ ؟

وـلـكـنـ الـحـكـمـيـ نـظـرـ إـلـيـهـ ضـاحـكاـ وـقـالـ : لـاـ أـحـدـ مـنـ هـوـلـاءـ ، وـإـنـماـ سـرـ السـعـادـةـ
فـيـ بـلـادـنـاـ يـحـتـنـيـ وـرـاءـ أـرـبـعـةـ مـنـ الـأـصـدـقـاءـ هـمـ : الـفـيـلـ وـالـقـرـدـ وـالـأـرـنـبـ وـالـيـعـامـةـ . . .
هـوـلـاءـ الـأـصـدـقـاءـ الـأـرـبـعـةـ يـعـيـشـوـنـ فـيـ سـلـامـ وـحـبـ وـسـعـادـةـ . . .

وقال الحكم : فِي يَوْم اخْتَلَفْتُ هُوَ لَاءَ الْأَرْبَعَةِ أَكْبَرُ سِنًا . . . وَأَهْمَمُ أَصْغَرْ سِنًا . . . وَقَدَ الْأَرْبَعَةُ بِالْقَرْبِ مِنْ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ فِي السِّنِ أَيْضًا .

فَقَالَ الْفَيلُ : عِنْدَمَا كُنْتُ صَغِيرًا كَانَتْ هَذِهِ الشَّجَرَةُ أَقْصَرُ مِنِّي . . .

وَقَالَ الْقَرْدُ : عِنْدَمَا كُنْتُ صَغِيرًا كَانَتْ هَذِهِ الشَّجَرَةُ تَلُو ظِلَّاً أَصْغَرَ مِنْ جَسْمِي .

وَقَالَ الْأَرْنَبُ : عِنْدَمَا كُنْتُ صَغِيرًا كُنْتُ أَكُلُّ أُورَاقَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَهِيَ مَا تَزَالُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ . . .

وَقَالَتِ الْيَامَةُ : هَلْ تَعْرِفُونَ أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ كَانَتْ بَذْرَةً فِي مِنْقَارِي وَأَنَا الَّتِي أَقْيَطَتُهَا عَلَى الْأَرْضِ . . .

فَأَمْنَوْا جَمِيعًا بِأَنَّ الْيَامَةَ هِيَ أَكْبَرُهُمْ سِنًا وَلِذَلِكَ كَانُوا إِذَا سَارُوا صَعْدَ الْقَرْدِ عَلَى ظَهَرِ الْفَيلِ وَصَعْدَ الْأَرْنَبِ عَلَى ظَهَرِ الْقَرْدِ . . . أَمَّا الْيَامَةُ فَهِيَ تَحْلِسُ عَلَى رَأْسِ الْأَرْنَبِ وَهِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تَلْقَطُ الثَّمَارَ مِنْ أَعْلَى الْأَشْجَارِ .

وَمِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمْ تَعْدْ هَنَاكَ ثُمَرَةٌ مِمَّا كَانَتْ عَالِيَّةً لَا يُسْتَطِعُ هُوَ لَاءُ الْأَرْبَعَةِ أَنْ يَقْطُوفُهَا . . .

وَعِنْدَمَا يَكُونُ هَنَاكَ خَطَرٌ فَإِنَّ الْيَامَةَ تَطِيرُ إِلَى أَعْلَى وَتَلْهُمُ عَلَى اقْرَابِ الْخَطَرِ . . . فَيَهْرُبُونَ جَمِيعًا : الْفَيلُ يَحْمِلُ الْقَرْدَ ، وَالْقَرْدُ يَحْمِلُ الْأَرْنَبَ ، وَالْأَرْنَبُ يَحْمِلُ الْيَامَةَ . . . الْخَلاصَةُ : لَا يَوْجِدُ شَيْءٌ كَبِيرٌ أَكْثَرُ مِنَ الْلَّازْمِ وَلَا يَوْجِدُ شَيْءٌ صَغِيرٌ أَكْثَرُ مِنَ الْلَّازْمِ . . . فَالْكَبِيرُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الصَّغِيرِ ، الصَّغِيرُ يَنْفَعُ الْكَبِيرَ . . .

وَمِثْلُ الشَّعْبِ الْمَصْرِيِّ يَقُولُ : النَّوَافِذُ تَسْنَدُ الزَّيْرَ . . . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الزَّيْرَ يَحْتَاجُ إِلَى نَوَافِذٍ لِكَى تَسْنَدَهُ !

* * *

قرأت كتاباً بعنوان «الشرق شرق» للكاتب المرح جورج ميكش - أرجو أن تتفقها جورج ميكش بهذه إحدى أمنيات الكاتب الإنجليزي الجنسية المغربي المولد - والكتاب يتحدث عن الهند واليابان . وفورموزا ، وهونج كونج ، وتايبلاند ، والفلبين ، وتركيا . . . والكتاب ٢٩٠ صفحة ممتدة مضخكة . . .

وجورج ميكش يدهش من الذين يقولون : إن آسيا «قاره» أو يقولون «الشعب» الآسيوي . . أو «الروح» الآسيوية . . أو التقاليد الآسيوية .

فآسيا ليست قارة وإنما هي مجموعة من القارات ، وكل واحدة منفصلة جداً

عن الأخرى . . فالصين قارة في آسيا . . والهند قارة في آسيا . . وكل واحدة مختلفة تماماً عن الأخرى .

ويضحك من الذى يقول : « الشعب » الآسيوى ، لأن آسيا مجموعة من الشعوب المختلفة ببعضها عن بعض . . فالهندي لا يشبه الصيني والصيني لا يشبه الفلبيني . . والأفغاني لا يشبه اللبناني . . وكل واحد من هؤلاء له طريقة خاصة في الأكل وفي الملبس . .

وإذا كانت معالم الجمال عند المرأة الصينية هي نعومة البشرة وقلة الشعر في الجسم . . فليس كذلك عند المرأة الهندية . . أو عند الرجل من طائفة السيخ . . بل إن في داخل كل دولة من هذه الدول ولايات كبيرة . كل واحدة تساوى عدة دول أوربية . . ففي الهند وحدها توجد ولاية عدد سكانها ٥٠ مليوناً . وفي أندونيسيا جزيرة واحدة عدد سكانها ٦٥ مليوناً ، وفي اليابان جزيرة واحدة عدد سكانها ٤٠ مليوناً . . في هذه الدول شعوب ، وشعوب ومئات اللغات ومئات الأديان — كالملايـن مثلاً . .

والذين يقولون « الروح » الآسيوية . . أى مجموعة الصفات التي يمتاز بها جميع أبناء آسيا . ماذا يقصدون ؟ هل تستطيع أن تقول ما هو وجه الشبه بين الياباني والبنـي أو بين المغول والتركي . . لا توجد روح واحدة وإنما توجد عشرات الأرواح وكلها تتفق على شيء واحد هو كراهية « الاستعمار » . . كراهية الأجنبي . . والكلمة الملعونة في كل آسيا هي « الاستعمار » ، معناها استعمار رجل أبيض لرجل أصفر ، بغير سبب وبغير تقدير لظروفه . فالرجل الأبيض يقول للرجل الأصفر : أنت غير قادر على حكم نفسك إذن أنت قادر على حكم نفسك بغيرك . . وهذا الغير هو أنا ؟ . .

ولا زال في آسيا دروس وعبر وعظات لم يعرفها الغربيون بعد . أما أعظم درس للغربيين والبيض عموماً فهو أنه لم يعد لهم عيش هنا . فإذا لم يكن واحد منهم يصدق ذلك فليحضر إلى هذه القارة ليرى !



جزءٌ من المئات

عندما وجدت نفسي مرة أخرى في مطار مدراس شعرت بسعادة غريبة .
ولم يكن عندي منسع من الوقت لكي أقتبس في نفسي عن أسباب هذه السعادة .
أو لم أجده أدى داع لأن أبحث عن أصلها ومن هم آباء وأجداد هذا الشعور الذي
نزل ضيفاً على قلبي وعلى عقلي ، فجعلني أتمدد على كنبة خشبية وإلى جواري رجل
يهرس بصفة دائمة في أماكن عميقه دقيقة من جسمه ، ومع ذلك لا ألتقط إليه ،
 وإنما أنظر إليه كأنه فتاة جميلة تضع الأبيض والأحمر تمهيداً لظهورها في
أحد عروض الأزياء !

هذه الدرجة كنت سعيداً . أو كنت مشغولاً بسعادتي عن النظر إلى هذا
الرجل أو إلى رجال آخرين . . حتى الضوضاء في المطار لم تضايقني . وحتى
عندما جلسنا في غرف متباudeة ومعلق على أبوابها كلمات منوع الخروج منع
الدخول . . وحتى عندما فوجئت بأن صحيفه هندية أخرى قد نشرت تعليقاً على
مقالات التي ظهرت في القاهرة . وراحـت تلعن اليوم الذي نزلت فيه بلادهم ! .

ولذا لم أكن مخطئاً ، فأنا أعتقد أن مصدر شعوري بالسعادة هو أنني مسافر
إلى بلد جديد . لا أعرف إن كان هذا البلد أحسن من الهند ، أو أغني من
ناحية الألوان الدينية والاجتماعية . لا أعرف . . إن الرحالة العربي ابن بطوطه قد
أضاع ثلاثة أرباع عمره يتغزل في جمال الهند . فقد فرأ على مدخل أحد المعابد
الهندية في العاصمة عبارة تقول : هنا . . فقط توجد الجنة !

ولكن يكفيني أن أذهب إلى مكان جديد . فأى بلد جديد هو الجنة بالنسبة للبلد الذى قبله . . فليس أروع ولا أمنع من رؤية بلد جديد . . من معرفة شيئاً جديداً . من الخوف من جديد والقلق من جديد . . والاطمئنان من جديد !

وعندما تقدمت إلى ضابط الجمارك طلب مني جواز السفر . فأعطيته الجواز ووقفت . ويبليو أن سعادتي كانت زائدة عن التروم فلما سألني عن وظيفي وأين كنت في الهند فأعطيته بضعة عناوين لأناس أعرفهم وآخرين لا أعرفهم في الهند . ثم طلب مني بعدم اكتراش شديد أن أذهب إلى الغرفة المجاورة .

ولما سأله عن السبب لم يشاً أن يرد . ولكن لاحظت أن الوقت المتبقى لقيام الطائرة لا يزيد عن عشر دقائق . فنبهته إلى أن الطائرة قد استقرت الآن على أرض المطار ومن الضروري أن أذهب إليها فوراً . . ولكنه أصر على أن أبي قليلاً إلى أن يتصل بعض المسؤولين .

وأشار الرجل إلى خمسة من موظفي الجمارك وأمسك ورقة وقلمًا وسألني في غاية

الجد :

— معك حشيش ؟ !

— لا . . .

— معك أفيون ؟

— لا . . .

— معك ذهب !

— لا . . .

— معك مجوهرات . .

— لا . . .

— مخدرات طيبة ؟

— لا . . .

— مواد ملتهبة ؟

— ملتهبة يعني ليه ؟

— آه . . طيب أشوف المواد التي معك وأنا أقول لك (وامتدت يده إلى

حقيقة وراح يقلب فيها . . . فيجد قصاناً وظروفاً وعلباً فارغة وزجاجات حبر وكولونيا وأملاح الصنودا والإسبرين) أمال فين المواد اللي أنت بتقول عليها . .

ـ يا أخي أنا ماقلتش حاجة . . أنا سألتكم فقط . . . مجرد استطلاع، لكن أضيف إلى معلوماتي شيئاً جديداً . . خصوصاً وأنا ما تزال أمامي مطارات كثيرة ورجال جمارك كثيرون . . . مجرد حب استطلاع من جانبي فقط !

ـ معك قنابل . . أحماض . . . أفلام تصوير . . . أنت ماذا تعمل ؟

ـ مكتوب في جواز السفر . .

ـ لم أتمكن من قراءته . .

ـ أنا أدلك عليه . . (لاحظت على وجهه رغبة واضحة في أن التزم حدود الأدب . وأقف عند المكان الذي يجب أن يتزمه أي مسافر خارج من الهند) .

ـ بالضبط ماذا تعمل !

ـ مطرب ! (قلتها وأنا أحاول أن أكون ظريفاً) .

ـ معاك فلوس طبعاً !

ـ لا . . .

ـ معاك كم من الفلوس ؟

ـ الستر (لم يفهمها) .

ـ بالعملة الهندية كم ؟

ـ الستر لا يقدر بأى مال . . .

ـ هل هو قطعة من الأحجار الكريمة .

ـ الستر كلمة عربية معناها شعورك بأنك لست في حاجة إلى أحد . . وأن يخرج الإنسان من بلد كما دخلها بلا فضيحة ! (حاولت أن أوضح) .

ـ إذن كيف ستعيش في جزيرة سيلان .

ـ سأعمل في إحدى الفرق الغنائية هناك .

ـ الفرقة التي وصلت أمس ؟

ـ فقلت : لا أعرف (وأنا فعلًا لا أعرف) !

ـ لحظة واحدة من فضلك !

ودار كلام باللغة الهندية طوبل طوبل .. وظللت أضحك أنا . وأحسست أنني بابغ جداً . وأن الضحك في هذه الأوقات لعب بالنار وإشعال للبزبين في مهب الريح .

وأتجهت إلى الرجل وقلت له : إنني أداعبك فقط .. ومهنى الحقيقة هي الصحافة ... صحفى يعني ... والله صحفى في بلدنا ... وأنا أحاول أن أداعبك قبل أن أرحل من بلادكم العظيمة بابتسامة عريضة ...

وجعل الرجل يقلب في جواز سفرى وهو حائز بين الأسف والضحك والأدب والواقعة ، والغناء والصحافة ...
وأنغيرا قال لي : معلمك فلوس .

— معى هذه (وأعطيته روبيه هندية) .

— ما هذى ؟

قلت إنها أزيد من المبلغ الذى نص عليه القانون . . . فالقانون ينص على أن يحمل المسافر معه ٧٥ روبيه وأنما معى ٧٦ روبيه .. !

ولم تعجبه النكتة وراح يقلب في الحقيقة ... وأشار إلى أحد الشياليين أن يحملها . وعندما خرجت من الجمرك طالعت إحدى الصحف ..

وفي الصفحة الأولى قرأت أن أحد المطربين في فرقه موسيقية قادمة من بيروت في طريقها إلى كولومبو كان يختفي في ملابسه سبائك من الذهب !
وقرأت أن هذه الفرقه الراقصة قتشوها تفتيشا كاملا . اشتراك فيها رجال ونساء وكلاب البوليس . وكان معهم ذهب ولوث وحشيش وأفيون . .
ومن المفروض أننى أحد أفراد هذه الفرقه !
وشكرت ضابط الجمرك واعتذر لها .

وتقديم لي هو أيضا بالاعتذار الكاف ، لا عن التفتيش وسوء الظن بي ، ولكن على التأخير . . فقد قامت الطائرة إلى سيلان . ولا بد أن أنتظر طائرة أخرى في اليوم التالي ..

ونمت جالسا أو جلست نائما على مقعد غير مريح حتى صباح اليوم التالي .
وكنت أهرش تماما كأى واحد من موظفى المطار .. ولو رأى أحد المهتمين بالقضايا

السياسية لأعطاني الجنسية الهندية فوراً !

* * *

وف اليوم التالي كأى تلميذ ضربوه علقة ، ركبت الطائرة محطم الجسم .
فلم تكن جلستى مريحة . ولا ليلتى هادئة . فقد أحسست بأنى أخذت شلوتاً .
والسبب هو محاولتى أن أكون ظريفاً وأن أنكت . وتعلمت ألا أضحك فى الهند
بعد ذلك . وقررت أن ألتزم نفس السياسة فى جزيرة سيلان . فأبناء سيلان وأبناء
الهند أولاد عم ، إن لم يكونوا إخوة .

والمسافة التى تقطعها الطائرة بين مدراس وكولومبو كانت الأساطير القديمة
تحدث عنها وتتكلم عن وجود جسر تاريخي عبر المحيط الهندى . هذا الجسر أقامته
القرود بأن تماست بعضها فى بعض . حتى قام أحد الأمراء وعبر على ظهر
القرود من الهند إلى سيلان . ولذلك فالقرود حيوانات مقدسة ! .

فهناك أكثر من قصة وأكثر من تاريخ يربط شبه جزيرة الهند ، وجزيرة
سيلان .

وف الطائرة جلست إلى جوار رجل أوجع رأسي بالكلام . ولكنى استسلمت
للنوم الذى كأنه سد أذفى بالقطن ووضع ترباساً على فى ودق مسارين فى
مقعدى ، فلم أكن أتحرك لا يميناً ولا شمالاً . . .

ولما يشى الرجل قرر أن يوقظنى بشخيره ، ولكنى تمسكت بموقفى ، أقصد
بمحالى التي أنا عليها . وكل نكتة جاءت فى رأسي شنتها فوراً . وكل محاولة
للتعليق على شيء أخذتها فى حينها . وتخيلت نفسي بطلاً يخوض معركة ضد
الكلام . ونجحت فى أن أسكنت نفسي بنفسي . . .

حتى عتنما هبطت الطائرة أرض سيلان ورأيت البهجة على وجوه الناس ،
وحتى عتنما عرفت أن الطائرة قد أصابها عطل فى أحد محركاتها ، وأننا وصلنا
بمعجزة لم أهنى نفسي على سلامه الوصول .. ولكن صفت لنفسى لنجاحى فى
أن أسكنت . . .

ونقلتى السيارة من المطار إلى الفندق .

ولم أحدد الفندق الذى أريده ... ولكن من نافذة السيارة وجدت المناظر

جميلة وجدت النسمة يغسل نفسي ... وفتحت صدرى لكي أسهل للهوا
الطريق إلى قلبي ، ويبدو أن قلبي نام . وأن عقله استرخى ... وانشأته . وتمددت
في مقعدي وانهزت فرصة لأبدى إعجابي للسائق بيلاده . وكأنه كان يتوقع ذلك
فأضاف هو أيضاً أو صافاً جديداً إلى جزيرة سيلان ...

وفي شارع طويل على جانبه الأشجار العالية . انطلقت السيارة . وانحرفت .
ودخلت في بوابة من الأشجار الغليظة ثم توقفت . وأمام باب الفندق وجدت عدداً
كبيراً من السائحين الإنجليز . . الوجوه بيضاء . والعيون حلوة .. والملابس نظيفة ..
والكلام همس . . والضاحك سعيد . .
والفندق عبارة عن جناحين . .

الجناح الجديد هو الذي يضم المطعم وقاعات الحلويات .. والبار ومكتب
الاستعلامات ..

أما الجناح القديم فهو الذي نزلت به . .
وفي أعلى طابق كانت غرفتي . .

ومن نافذة فندق «مونت لايفينا» بجزيرة سيلان أطل على البحر ..
لا شيء غير عادى .. الموج عال يضرب الشاطئ . الموج ثائر ولكن ثورته
بيضاء . الموج أبيض والشاطئ أحمر . فلا استطاع البحر أن يغير لون الشاطئ
ولا استطاع الشاطئ أن يغير لون البحر . السحب عالية جداً . ولكن يكون مطر
قبل ساعة . الأطفال في ملابسهم البيضاء وأحديثهم البيضاء يركبون المراجيع ...
إعلانات (باتا) في كل مكان . لا شيء جديد . ومن الممكن أن تجد هذه
المناظر في الإسكندرية أو بور سعيد .

ولكن لو أنك أمضيت شهراً في الحر والعرق والمطر والطين والنوم من الساعة
الثانية والتاسعة كل يوم ، لو أنك ركبت طائرة ذات محركين يلعب بها الهواء
ويلى بها فوق سطح السحب . ورأيت وجوه المضيفات أصفر في لون الليمون ...
لو أنك مددت بذلك إلى الصحف التي صدرت في نفس اليوم ورأيت صورة
طائرة ذات أربعة محركات قد اشتعلت فيها النار .. ولو تأملت المضيفة السمراء
ذات العيون الزرقاء وهي تمسك قطعة من القماش الأحمر وتقول لك : إننا الآن

سنمر على المحيط ، وهذا هو جهاز النجاة . عندما تسقط الطائرة إلى الماء ، ضع هذا على صدرك ، اربطه جيداً . انفخ في هذه الأنبوة . ستبقى عاماً حتى تنجي السفن أو الطائرات لإنقاذنا .. ولكن إن شاء الله نصل بسلام ! ..

وبعدها بلحظة واحدة ترى الأضواء الحمراء تعلن أننا يجب أن نربط الأحزمة فالطائرةستمر في أحد المطبات الموائية ..

لو أني قضيت عشرات الساعات فوق السحاب وفوق الماء ، لا ترى الدنيا إلا من فوق ... لا تراها إلا على هيئة نقط وبقع وعلب كبريت .. لو أني شرعت أني لأول مرة تشم هواء قادماً من البحر .. هواء طبيعياً .. لو أني شرعت هكذا لوجدت أن منظر البحر في سيلان شيء عجيب غريب . حتى طعم الهواء .. حتى طعم الرطوبة الموجودة في هواء سيلان ..

لقد كان مني أمل أن أصل إلى هذه الجزيرة وأستغرق في النوم أي عدد من الساعات . وأكل كل الأشياء التي حرمتها على نفسي .. وبعد النوم أسرع حتى الصباح ، صباح أي يوم أو يومين أو ثلاثة .. مش مهم !

ولكنني في هذا اليوم أحسست بأنني لست في حاجة إلى نوم أو أكل أو شرب أو سهر .. إن مجرد شعوري بأنني وصلت إلى هذا المكان من الجزيرة ، آمناً سالماً .. هذا الشعور ملاً عيني بالنوم ، ونفسى بالراحة ، ومعدنى بالطعام .. واكتفيت بهذا القدر .

لأنني أتعلّم إلى السقف في الظلام .. كأنني أراه لأول مرة . وكأن الفنادق التي نزلت فيها كانت بلا سقف .. أو كأنني كنت أنام على السقف فليس فوق رأسي شيء ، إلا الضيق والقرف ..

إن المصايب في الغرفة أراها شيئاً آخر .. أراها مضيئه خافتة كأنها نهداً فتاة جميلة .. فتاة خرافية ترضم الليل لينا مخلوطاً بالشاي .. ليس هذا غريباً فنحن في جزيرة الشاي ..

حتى السيجارة في يدي لها معنى آخر .. إن دخانها يتتصاعد إلى أعلى .. لأنني أراها شيئاً آخر .. أرى السيجارة قلماً من نوع غريب .. القلم ساكن وحبره

الأيض هو الذى يتحرك ويكتب على ورقة فوق .. القلم تحت والورقة فوق ..
والخبر يتضاعد إلى الورقة . وأنا الذى يمسك القلم لا أعرف ماذا يقول .
هذه هي جزيرة الشاي ، أشهر شاي في العالم ..

هنا مزارع ليتون وبروك بوند . هذه الجزيرة استعمرها الهولنديون ١٥٠ سنة ،
وطردهم البرتغاليون واستعمرواها ١٥٠ سنة أخرى . وطردهم البريطانيون
ولا يزالون فيها منذ ٢٦٣ عاما .. والآن قد أصبحت جمهورية مستقلة كالمملكة
وبالستان ولكن ضمن التاج البريطاني ..

قت إلى النافذة أغلقتها .. فإنى أحب البحر ولكن صوته يذكرنى بصوت
مليون محرك طائرة و مليون مروحة و مليون جهاز تكييف . وحاولت أن أغلق
النافذة فلم أستطع . فليست هناك نوافذ وإنما ستائر فقط .

وجلست أشرب الشاي .. شاي له أصل من ناحية اللون : أبوه الذهب وأمه
الوردة .. الشاي هنا له وطن .. فالشاي في هذا الفنجدان مأخوذ من هذه الشجرة
التي تبعد عنى مائة مترا ..

• • •

وكان لابد أن أنتقل إلى فندق آخر في قلب العاصمة . واختارت فندق « جول
فيس » .

وبقيت في الفندق أياماً ..

عندما اطلعت على كشف الحساب في فندق « جول فيس » في مدينة
كولومبو عاصمة سيلان .. رقعت بالصوت فعلا .. لا أعرف كيف ، ولكن
هذا ما حدث ..

ولما سألتى الصراف عما حدث قلت له : مغتص كلوى من تغيير الجوا ..
وترحمت على أرخص وأحسن فندق تركته في الهند . في مدينة تريفاندروم
عاصمة كيرلا كنت أنزل في فندق ماسكوت ، الفندق تديره الحكومة ، الغرفة
على الطرقة بها مروحة . والسرير موضوع في منتصف الغرفة . وعليه ناموسية ،
وهناك غرفة كبيرة بها حمام ، وفي الحمام « كوز » يتسع لطفل صغير عمره تسعة
شهور وقد ابتلع بطيخة !
ولكن الله يرحم أيام هذا الفندق .

في الساعة السابعة يدق الخادم بابي ويفتحه ويدخل ويضع لي الصحف اليومية . وفي الساعة الثامنة والنصف أذهب إلى غرفة الطعام لأنتناول الفطور : شاي وبيسن وشمام أو موز أو مانجو وبعض البندق .. أى كمية تعجبني ومربى وزبدة وعيش محمر .

وفي الغذاء شوربة .. وسمك مقللي ثم لحم دجاج ومعه أرز بالكارى ولم آخر ... ثم لحوم مشوية ومعها بعض جوز الهند المفروم وبعض المانجو المفروم وبعض البندق مرة ثانية وفنجان من القهوة ..

وفي الساعة الخامسة يدق الخادم باب غرفتي ..

ويضع صينية على منضدة صغيرة أمام الباب الذي يطل على حديقة جميلة بها أشجار جوز الهند والمانجو والدوم .. هذه الصينية عليها الشاي واللبن والبسكوت وبعض حبات المانجو والموز ..

وفي العشاء : شوربة ولحوم وفواكه بكميات كبيرة جداً ..

هل تعرف كل هذا بكم ؟ لا أحد يصدق .. كل هذا بحوالى ١١٠ قروش ! كل هذا مع الاحترام التام والتحيات والسلام .. وهذا يفتح لك الباب وهذا يقبل لك الباب . وهذا ينزل لك الناموسية ، ورابع برش ا.د.د.ت وخامس يسحب عليك الغطاء وسادس يقبل لك الأبواب ويسألك متى تشرب شاي الصباح ..

وطبعاً كل هؤلاء يستدفع لهم البقشيش ..

كان ذلك في الهند !

أما فندق «جول فيس» فقد حاسبني على أساس ستة جنيهات غير القهوة والشاي والمكالمات التليفونية والصحف وغير ٥٪ نظير خدمة أخرى .. وغير أن رحم الله فندق ماسكوت .. إن المعلومات التي تجمعت عندي عن الفنادق التي أنزل فيها بعد ذلك قد أطارت التوم من عيني .

• • •

يقال إن آدم عليه السلام عندما نزل من الجنة إلى الأرض كانت جزيرة سيلان هي أول مكان نزل فيه . وبعض الناس يعتقد أن مكان قديمه لا يزال واضح الأصابع ..

وقد ذهبت إلى هذا المكان ولم أجد أثراً لقدي والدنا آدم .. وإنما وجدت الكثير من المياه والرطوبة . ولم أستبعد أن تكون رحلته من السماء إلى الأرض شاقة مرهقة . ولابد أن العرق تصيب منه . على كل حال إن الجبال ما تزال تحفظ بعض هذا العرق .. بعضه على هيئة بحيرات وبعضه على هيئة دموع في أعينا نحن السائرين ذوي الملائم المحدودة !

وأحسست ييد على كتفي تضربيها بعنف .. إنه أحد الأميركيين التجار .
لقد رأى الفاتورة وقال لي : ادفع يا بطل ! ..

قالها بالعربية : فسألته وكيف تعلمت لغتنا !

فأشار بيده : إنها قصة طويلة . لقد كنت في القاهرة وسهرت في الأوبرج
ورأيت أحسن راقصة عربية . إنها « نادية جمال » ..

فقلت له : قصدك سامية جمال ؟

فأجاب موكلها . لا .. لا .. إنها نادية جمال . أنا أعرفها .. حدثها عنى ..
قل لها هل تذكرين فو .. فو .. فوستر ..

قلت : كانت تدللك هكذا !

فأجاب : ادفع أولاً وأنا أحكي لك بعدين .

ودفعت وجاء بهمس في أذني : تحب تسمع حكايتها ؟

قلت : لا ..

قال : لماذا ؟

قلت : معنديش فلوس !

• • •

هذه الجزيرة الصغيرة تعتمد على زراعة الشاي وبيع الشاي للعالم كله ولا شيء يشغل الناس هناك غير بيع الشاي .. والشاي يزرعونه على سفوح الجبال . وكلما ارتفعت السفوح عن سطح البحر ، كان الشاي أحسن .. والشاي الذي ينبع في أرض منخفضة هو شاي ردئ جداً والشاي درجات . شاي ناعم وخشين ، وطويل وقصير ، ورائحته قوية أو ضعيفة ، ولو نه فاتح أو غامق .. ومعرفة طعم الشاي ووضعه في رتبة أو درجة سائلة صعبة وليس سهلة كما كنت أتصور .. !

أما شجرة الشاي نفسها فهي تعيش في الأرض ١٤ سنة . . . وجدوها غليظة وقوية . . وأوراقها تشبه أوراق الملوخية . . وفي كل يوم يقطفون أوراق الشاي . . طبعاً ليس كل الأوراق . . وإنما بعض الأوراق التي ظهرت حديثاً ولونها أصفر فاتح ، وربما كان عدد الأوراق المقطوفة من شجرة لا يزيد على كبسة واحدة . . عملية الجمع مرة كل أسبوع . . ومرة كل أربع سنوات ينزعون كل أوراق شجر الشاي ، وينزعون أغصانها أيضاً لكي يثبت عليها ورق أصفر جديد . . والشاي لا يمكن زراعته في بلادنا لأنّه يحتاج إلى أمطار مستمرة وإلى حرارة شديدة وإلى ظلال وإلى تربة حمراء .

وكل فدان من الأرض به خمسة آلاف شجرة . . وهناك نظام جديد لزراعة الشاي ينص على زيادة عدد الأشجار إلى سبعة آلاف شجرة . . وهناك نظام جديد آخر يقضي بأن تكون زراعة أشجار الشاي بطريقة «التعقيل» أي عن طريق «العقل» كالعنب عندنا . . وكان الفلاح الهندي والسيلافي يعتمد على زراعة الشاي عن طريق البذور . .

وفي جزيرة سيلان مئات الآلاف من الأفدنـة مزروعة شايا . . ولكن مع الأسف يملك الأجانب ٨٠٪ منها . . والأجانب هناك هم الإنجليز . . فلهم مزارع واسعة جداً . . والمزرعة تتكون من عشرات الآلاف من الأفدنـة تقوم فيها المصانع والفيلات الأنثقة جداً للمهندسين وكبار الموظفين .

• • •

وانتشار الشاي في العالم له قصص غريبة . . فيقال مثلاً إن أحد الملوك كان يغلي الماء في «حلة» ليشربه فسقطت فيه ورقة من شجرة فلاحظ أنها أعطت الماء لوناً جميلاً . . وكانت هذه «الحلة» هي أول فنجان من الشاي في العالم . . وكان ذلك من خمسة آلاف سنة . .

وبعد ذلك انتقل الشاي من اليابان إلى الصين إلى الهند إلى سيلان إلى أوروبا . . والعملية التي يتم بها تحويل ورقة الشاي الخضراء إلى الورقة السوداء التي تراها تستغرق في المصنع حوالي ٢٢ ساعة . .

وتبدأ العملية بأن تنقل العاملات سلال الشاي إلى إحدى العربات وتنقلها

العربات إلى المصنع .. وفي المصنع يوضع الشاي الأخضر على ألواح تتعرض للهواء الساخن الطبيعي أو للهواء الساخن الصناعي والغرض من ذلك هو تجفيف الرطوبة الموجودة في الشاي على الأقل إلى النصف .

وبعد ذلك ينقل الشاي إلى عملية أخرى .. وهي وضعه في الآلات لتحطيم أوراقه .. وبعد تحطيمها يجعلها مبرومة .. والغرض من تحطيم أوراق الشاي هي إخراج العصارة الموجودة فيها .

وبعد ذلك تبدأ عملية تجفيف أخرى .. تجفيف بخار الماء .. فلا يبقى إلا الشاي المركز فوق الورق المبروم المحطم .. ويدخل الشاي في أفران كهربائية تهزه بصورة مستمرة .. وبذلك تصبح الرطوبة الموجودة في الشاي هي عبارة عن ٣٪ من الماء الذي كان به عند دخوله المصنع ..

ثم ينتقل الشاي المحطم الجاف الذي أصبح أسود اللون، إلى الغرائبيل تهزه ، أما الشاي الناعم فينزل إلى الأرض النظيفة، والشاي الخشن يعود مرة أخرى لتحطيمه وتتجفيفه من جديد .

وهذا الشاي الناعم ينتقل إلى عملية تجفيف في الهواء العادي ..

وبعد التجفيف ينتقل الشاي إلى عملية فرز أخرى .. فرز حسب طول الورقة ..

• • •

ولكن العملية الهامة جداً بعد ذلك هي عملية معرفة رتب الشاي ودرجاته .. والذي يحدث أن عينات صغيرة تؤخذ من الشاي في المعمل ، ويوضع الشاي البالغ في الفناجين ويوضع عليه الماء الساخن لمدة ست دقائق .. ولا بد من تقطيع الفناجين .. وكل ست دقائق يتقدم الرجل «الدواقة» لتنوّق طعم الشاي .. ويعرف بتجربته الطويلة ، رائحة الشاي ودرجة حموضته ولونه .. والرجل الدواقة له طريقة خاصة في معرفة رتب الشاي .. فهو «يشفط» الشاي بصورة عنيفة حتى يملأ به كل حلقة .. وينتظر لحظة ثم يلقي بكل ما في فمه ، ويجرب ذلك مئات المرات في اليوم ..

والرجل الدواقة لا يشرب الخمر ولا يلعن لكي يحافظ بمحاسنة فه سليمة .

St. 336.

Bi hamdi ka ya bari al alameen

Va Anthar Rahimu Va Anthal Mueen.

Va iyyaka na'budu fee kulli heen

Va iyyaka ya rabba na nasthaeen.

Izas subhu ahda ilayna sana

Arafna bi sham sika nooral Haya

Bi jad vaka nahya va anthal Ilah

Tha alay tha ya Arhamar Rahimeen.

Fa barik sarandiba fee ilmiha

Va mah hada Aada bi hanzabira.

Va Ali aladdahri zikras miha.

Va ahsin li abna ihal Aakhirah.

بِحَمْدِكَ يَا يَارِئَ الْعَالَمَيْنَ
وَأَنْتَ الرَّحِيمُ وَأَنْتَ الْمُعْنَى

وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ وَنَحْنُ كُلُّ حَمِينَ
وَإِيَّاكَ يَا يَارِئَنَا نَسْتَعِينَ

إِذَا الصُّبُحُ أَهْدَى إِلَيْنَا سَنَا
عَرَفْنَا بِشَمْسِكَ نُورَ الْجَبَّا

بِحَمْدِكَ شَيْءًا وَنَتَ الْأَلَّةُ
تَعَالَيْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمَانَ

فَبَارِكْ سَرَنْدِيبَ فِي عِلْمِهَا
وَمَعْهَدَ أَدَابِهَا الزَّاهِرَةَ

وَعَالَ عَلَى الدَّهْرِ ذُكْرَ اسْمِهَا
وَأَخْسِنَ لِأَبْنَا بِهَا الْآخِرَةَ

بِهَا التَّشِيدَ اسْتَقْبَلَ الْكَلِيْةَ الْمَاهِرَةَ فِي مِنْيَةِ
كَوْلُومِبُو عَاصِمَةِ سِيرِلَانْకَا (سِيلَانْ) الْزَّمِيمِ
الْمَصْرِيِّ أَمْمَدَ غَرَافِيَ يَوْمَ ١٢ سِبْطَنَمَ سَنَةِ ١٩٣١

صور من مقالاتي التي نشرتها في مجلة
آخر ساعة عن رحلتي إلى جزيرة
سيرلانكا (سيلان) .



January 11th, 1883.]

THE WEEKLY CEYLON OBSERVER.

EGYPTIAN EXILES IN CEYLON.

THE ARRIVAL.

We announced briefly yesterday, the S.S. "Mareotis" with Arabi and his party on board was sighted at he afternoon and by 5 p.m. was safely anchored in Colombo harbour. The news of the "Mareotis" in sight in the meantime spread far and wide, by the time the steamer dropped anchor, a considerable number of people, chiefly of the Muslim community, with a sprinkling of other races, assembled at the wharf to witness the landing of the exiled Arabi and his associates; but they were destined to disappointment! The police had some difficulty in keeping the wharf jetty clear, but on the there was much less enthusiasm displayed than had been expected. Immediately on the steamer being, the Master Attendant, Capt. Donnan, the Port Surgeon, Dr. Garvin, boarded her, after about half-an-hour's delay the doctor passed vessel. This was immediately the signal for a no board, anything but pleasant no doubt to the crew of the ship, for notwithstanding the rumour government had prohibited people from going on which by-the-by proved to have no foundation. A number of boats containing many of the religiousists, were at the vessel's side long before the Port Surgeon had passed her.

"Mareotis" left Suez on the 27th Dec., and reached Colombo on the last day of the voyage against weather. The run of 14 days was a monotonous one, being marked by no accident or record. The health of all on board was good, there being only a case of smallpox, numbers 77 in all, in charge of Dr. F. M. F. Mahomed, assisted by Selim Attallah, the medical attendant of 20 Egyptian exiles who brought their families. The principal exiles are the seven pashas, who were members of the ministry in Egypt, and whose names are:—Abdul Aziz Pasha (late Minister of War), Abdur Rehman Pasha (late Minister of Foreign Affairs), Mahomed Femy

A correspondent, writing on the 11th, says:— "Yesterday, when it was known that Arabi had arrived in this port, many natives and others went to see the steamer to see him, but it is said only a few succeeded. It was told some of these lucky ones that Arabi's favourite wife was not on board, but had to remain in Egypt till after an interesting stage in the lives of married ladies is over. All this morning thousands of all classes, creeds and colours crowded the roadway and wharf all anxious to see the Pasha landed. The jetty (landing) was kept clear by the guardians of the peace in the shape of two heads and a posse of our heroes of the red cap, who did their real best with English and Chinese umbrellas to keep an open space for Egypt's living mummies to pass out. (How the shade of poor Cheops would stare if still allowed that mundane supervision of old Egypt's affairs!) Well, to resume: about noon the first arrival at the jetty consisted of one tall, sinister-looking rather light-colored gentleman in European dress, long overcoat and Turkish red cap, who came in a boat by himself, while in another boat at the same time came eight or nine ladies all in flowing Turkish robes of black silk, a turban of which passed over and shaded the head, but which was gracefully lifted up by the hands disclosing parts of the faces of the owners, three, or four of whom were as fair as any European lady (one in particular). All wore the Turkish veil across the face, just under the eyes. They were all stout strong women. The fair one above alluded to took off the curtain or veil of white muslin and had a good look at the crowd, and immediately put it up again; but the glimpse thus obtained disclosed a fine lady, like a fair and beautiful woman who must have her descent from others than the children of the banks of the Nile. All the leaders were shown into two carriages, and the gentleman above alluded to into another which was followed by the two in which the leaders were. He thought the gentleman was Arabi, but no: he had not yet landed. The greater part of the natives followed these three carriages, thinking they were the leaders, and so when about 2 p.m. our real leaders were not half such crowd to be accompanied by another darker man himself. He (Arabi) looked quite

Home on the
ships embarked
a few question
status of Man
information, &
whatever in th
only had no
rule.

Very late
Egyptians in
houses of whic
almost bare.
supposed the
on their han
fingers, and a
but it seemed
have permeated
our Executive
dinner on the 11
demonstration th
the late leaders
behind Europe
appliances in regar
men are concern
as yet to learn
life of an Egypt
derstand that
the wives an
medical atten
habits but
as their an

THE
the la
J. B.
Mr.
t

صورة من المجلة الإسبوعية (سيلان أو بزرف) بتاريخ
١١ يناير سنة ١٨٨٣ وقد نشرت مقالاً عن زعماء الثورة
العربية الذين فاهم الإنجليز في جزيرة سيلان



فـ هـا الـيـتـ كـانـ يـعـشـ الزـعـمـ
أـحـدـ عـرـابـيـنـ فـيـ مـدـيـةـ كـوـلـوـمـبـ .

وـقـ هـا الـيـتـ فـيـ مـدـيـةـ كـانـيـ كـانـ يـقـيمـ الزـعـمـ
أـحـدـ عـرـابـيـنـ وـأـلـادـهـ . . . الـأـلـافـ تـقولـ وـيـتـ
عـرـبـ . . أـيـ بـيـتـ عـرـابـ . . .



وتدوّق الشّاي يتم بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة للشّاي .

وعن طريق تدوّق الشّاي يمكن معرفة درجته ومعرفة سعره أيضًا .

وكل الشركّات لها معامل في جزيرة سيلان ويعثون بتجاربهم إلى المركز الرئيسي في لندن .. وفي لندن تجري تجارب أخرى في الشّاي .. وكثيراً ما جاءت الأنباء من لندن تطلب من المعمل أن يعيد النظر – أقصد يعيد «التدوّق» من جديد .

والشّاي درجات .. وكل شعب له لون خاص من الشّاي .. وهذا في الشركات الإنجليزية أساس متخصصون .. كل واحد في شاي خاص .. هذا في شاي جنوب أفريقيا .. وهذا في شاي بريطانيا .. وهذا في شاي الجمهورية العربية . والشّريف عندنا يفضل الشّاي الناعم الأسود القوي . فحتى يصلك هذا الشّاي الأسود يكون قد قطع رحلة طويلة من الحقل إلى النار إلى المعمل ثم إلى البورصة ثم إلى الصناديق ، و ١٥ ألف ميل في البحر !

لا داعي لأن تهز فنجان الشّاي ولا داعي لأن تقلبه على وجهه .. إنني سأقرأ لك هذا الفنجان وهو معتدل مستقر في طبقه ، وهو مليء بهذا السائل الأحمر .

اسمع ياسيدى .. بهذا الفنجان الذي شربته أنت ، يصبح عدد الفناجين التي شربت اليوم ٨٠٠ مليون فنجان في العالم كله . والشّاي الذي تشربه في القاهرة قد جاء ثلثاء من الهند ، والثلث الباقى من الصين . والصين هي أول دولة في العالم عرفت الشّاي .

ويكفي أن أقول لك : إن أول إنسان شرب الشّاي كان سنة ٢٧٢٧ قبل ميلاد المسيح . هذا الإنسان هو الإمبراطور شن توانج . وكان من عادة هذا الإمبراطور أن يغلى الماء قبل شربه ، وقد حدث وهو يشهد عملية غليان الماء أن – كما قلت لك من لحظات – سقطت ورقة جافة من إحدى الأشجار وانزعج الإمبراطور ولكنه لاحظ أن هذه الورقة قد غيرت لون الماء فوضع أوراقاً أخرى وأعجبه اللون والطعم . وكان الإمبراطور أول شرّيف الشّاي في العالم . ويقال إن جنكىز خان قد نقل الشّاي بهذه الصورة من آسيا إلى أوروبا ..

وببدأ الشاي ينتقل إلى كل هذه المنطقة حتى إن إمبراطور اليابان عندما عرف الشاي جعله خاصاً بالأسرة المالكة وكان ذلك سنة ١٨٥ وكان الإمبراطور يقيم الحفلات لشرب الشاي ..

وأوروبا لم تعرف الشاي إلا في القرن السادس عشر . وحرمة الكنيسة ~~لهاجمة الأدياء والشعراء وأعلنوا الحرب على شرب الشاي الذي يفسد الأخلاق ويضعف القوى العاملة~~ . وكان الأوربيون يشربون الشاي بغير سكر .

وتقول الأديبة الكبيرة مدام دى سفينيه : إن أول امرأة في العالم خلطت الشاي بالبن هي مدام سابيليه وكان ذلك في سنة ١٦٨٠ .

وأديب إنجلترا الكبير الدكتور جونسون اعترف صراحة بأنه يشرب الشاي وأن البراد الذي يصنع فيه الشاي لا يبرد أبداً . واعتبره المجتمع الإنجليزي رجلاً صريحاً أكثر من اللازم ، بل قيل عنه إنه رجل لا يستحق من إدمانه الشاي وتناوله علينا أمم النساء !

وأؤكد لك أن الشاي الذي ستشربه سيكون أجمل لوناً وأجمل رائحة فقد ذقت هذا الشاي قبلك . فهنا في مدينة كولومبو توجد بعثة رسمية من مصر ، وقد رأيت البعثة وهي تتدفق الشاي وتختاره لك .. ورأيت عملية الخلط وذقت الشاي المخلوط . لقد رأيت الشاي الحقيقي .. هذا الشاي ستولى وزارة التموين خلطه لك . لن تركه للتجار كما حدث في الشاي الذي تشربه الآن . فالتجار لا يخلطون الشاي كما يجب . لأنهم يقدمون لك الشاي الصيني . أما الشاي الهندى أو السيلاني الممتاز فهو يحتفظون به .

وهذا الشاي الذي ستشربه قد رأيته على أشجاره .. رأيته أخضر اللون . أو على الأصح أصفر اللون . ومشيت مع هذا الشاي خطوة خطوة . ورأيت عملية « تمريك » أي جعل ماركات للشاي .. والشاي له درجات كثيرة جداً ورتب تبلغ الأربعين أو الخمسين رتبة .. رتب حسب لون الورقة وحسب لون التقل وحسب الطعم وحسب اللون وحسب الرائحة .. وكل شيء له أصول وقواعد .

وينقل الشاي في صناديق كبيرة إلى معامل الشركات .

وهناك تجربى عليه تجارب غريبة . فالشاي الوارد من المزرعة يعرضونه على

رجل «ذوق» وبالعربي الفصيح «ذوقة» مثل رجل علامة وبخاتة ورحالة .. وكل فنجان يتذوقه يكتب عليه أنه من نوع كذا ودرجته من فئة كذا وسكته يجب أن يكون كذا .. هذا الرجل يتغاضى حوالي ٥٠٠ جنية في الشهر وهذا الرجل التواقة لا يشرب الشاي أبداً إنه قرفان منه . فهو يملأ عينيه وأنفه وفمه . إنه يقضى حياته كلها يضع الشاي في فه ثم يلقي به في برميل كبير .

إن صانع الشاي لا يتذوقه وإذا ذاقه فلا يشربه .. فاحمد الله أنك تشرب الشاي ولا تذوقه !

* * *

ومن المؤكد أنك لا تستطيع أن تعمل الشاي .. فالشاي الحقيقي له قواعد .. وأنا أنقل لك ما قرأته في كتاب «أصول الشاي» :

أولاً : يجب أن تضع بعض الماء الساخن في فنجانك قبل أن تصب فيه الشاي .. ثانياً : إذا غليت الماء يجب أن يكون ذلك مرة واحدة . فالماء الذي غلي كثيراً يفسد طعم الشاي ولو نه ورائحته . ويجب ألا تغلى الماء كثيراً . ويمكن أن ترى الماء يغلي فتنزل البراد بعيداً عن الوابور أو البوتاجاز .

ثالثاً : إذا كان البراد يتسع لأربعة فناجين مثلاً يجب أن تضع فيه خمس ملاعق شاي صغيرة . يعني ملعقة أزيد دائماً . لماذا ؟ لم أفهم . ولكن هذه هي الطريقة المثالية .

رابعاً : اترك البراد وبه الماء المغلي والشاي لمدة ست دقائق ولا بد أن يكون البراد مغطى لأن الضوء يفسد لون الشاي ورائحته وطعمه .

خامساً : أحسن طريقة لتذوق الشاي هي أن «تشفطه» وأن تكون عملية الشفط هذه قوية حتى يملأ الشاي فلك وينبه كل أعصابك .. الطريقة الرقيقة المواتي في شرب الشاي مفسدة لطعم الشاي .

طبعاً الطريقة المثالية هي أن تضع الشاي في «قلة» أو إبريق وأن تشربه كما يفعل أبناء الريف ويكون للشاي - وهو ينساب في حلقك - صوت كثيف الصفادع .

لم يقل الرجل «الدواقة» هذه العبارة ولكنها محاولة مني لتعريف نظريته . . .
سادساً : شرب الشاي من المستحسن أن يكون مع الأصدقاء وجدنا
لو كان مع فتاة أنت تحبها . وسبب ذلك أن الشاي : يجب أن يشرب على فترات
متباudeة ، يجب أن تشربه على شوق . . أما إذا كنت وحدك فأنت تشربه مرة
واحدة أو تركه نهائياً . ولذلك فاشرب الحلبة أو اليونون . . أحسن ! ..
ولكن عندما تكون معك فتاة فإذا كان الشاي من صنعها فستتجاملها
وتشرب وستجد لذة . وإذا كان الشاي من صنعك فستتجاملك هي وتشرب
بلذة وستصدق أنت كلامها وتؤمن بأن الشاي مصنوع جيداً . . وستشرب
بلذة . . ولذة أخرى . .

سابعاً : أحسن طريقة لشرب الشاي أن تشربه من غير سكر . .
ثامناً :رأى الشخصى هو أنهى جربت كل هذه القواعد ووجدتها
فعلا مضبوطة فيها عدا القاعدة السابعة . .

• • •

وأمس حدث لي شيء غريب . .
أبناء الهند وسيلان يلبسون اللوثى وهو عبارة عن فوطة تلتف حول الوسط
وليس فوقها إلا قميص . .
وقد تجد من بين هؤلاء الناس من تعلم في إنجلترا أو أمريكا ويتكلم الإنجليزية
بطلاقة .

ولكن عندما اشغلت بحرارة الجو هنا وعندما أغرقته الأمطار الشديدة
ووجدت أن هذه الملابس هي أنسنة زى ، فالجو الحار لا ينفع معه البنطلون
والجاكيت بل إن البنطلون عبء ثقيل جداً والأحذية لا ضرورة لها ما دامت
مياه الأمطار تصل إلى منتصف قصبة الرجل وأحياناً إلى الركبة . . ثم إن اللوثى
هذا يمكن رفعه إلى الخصر عند الضرورة . .

وقد حدث عندما كنت في جنوب الهند أن استمرت الأمطار تتتساقط يومين
متاليين لا أستطيع أن أخرج من غرفتي . وإذا خرجت فلكلى أنا أتأكد من أن
الأمطار لن تصل إلى سريري . . ورأيت أنها فرصة لكي أجرب اللوثى . .
وطلبت من مدير الفندق أن يغيرني أي «لوثى» عنده . ودخلت الغرفة ووجدت

أن الدوى هو عبارة عن ملابس سرير . . ولكن كيف ألفها حول وسطي ثم
كيف أربطها ربطاً متيناً حتى لا تسقط وبدون حزام . لم أتمكن أبداً . فإذا
ربطتها من هنا سقطت من هناك . . وقررت أن ألفها حول وسطي وأضع
فوقها الحزام لكي يمسكها . . لاحظت وأنا أمام المرأة أنه لا ينفعني إلا أن
أضع على صدرى إبريقاً كباقي العرقوس وأنزل إلى الشارع وأنادى : شفا
وخير يا عرقوس !

وقررت أن أخرج . . إنى أحد الملايين . لن يلتفت إلى أحد . . ولكن
لاحظت إنى شددت الدوى على وسطي أكثر من اللازم . وإنه « دوى » محزق
قوى . دوى بناقى كده . فككت الحزام وأعدت لف الدوى وبحبخت الحزام
قليلًا وخرجت إلى الشارع أنظر إلى الناس ، ولم يهتموا .. أو هكذا قلت لنفسى ..
وبدأت أقوم بحركات عصبية ، فالإنسان عندما يشعر بالحرج يحاول أن يضع
يديه في جيئه . . كأنه يتساند على نفسه حتى لا يقع .

ولكن لا جيوب . وحاوت أن أضع يدى على وسطي حتى لا يسقط
الدوى . . ومن شدة ارتباكي غصت في الماء وتبلل الدوى ووصل الماء إلى
ركبى وشعرت بالبرودة في الزحام . . ورفعت الدوى إلى أعلى . . وشددته
فوق الحزام . . ووجدت أن الحذاء لا لزوم له . . فنزعت الحذاء وأمسكته في
يدى . لاحظت إنى لا أزال ألبس جوربى . . فنزعت الجورب ووضعته في
الحذاء . . وانحشرت وسط الناس . . وفي الزحام تزحزح الدوى وانسحب من
تحت الحزام كأنه هو الآخر يريد التحرر . . وكأنى مغتصب له وهو يريد أن
يعود إلى صاحبه . . كان الدوى حام زاجل فإذا أطلقته عاد إلى الفندق . .
ووضعت الدوى على كتفى .

والصورة الآن هكذا : المطر على وجهى شديد جداً . . شعرى منكوش ..
وجوز جزمة في يدى ، والجزمة قد ابتلعت جوربى وزجاجتين من ماء المطر ..
الدوى على كتفى .. والقميص التصق بجسمى .. وتلفت إلى الناس فوجذبهم مثلى ..

وحمدت الله على إنى لم أنس ملابسى الداخلية – بعضها فقط !
لقد دفعت ثمن هذا اليوم غالياً . . من السعال والزكام والعرق والنوم تحت
أغطية من الصوف فى عز الصيف وفي قلب المنطقة الاستوائية !!

● هنا عندي عراقي

عشرون عاماً من حياة الزعيم أحمد عرابي لا يعرفها أحد.. قضاها في المنفى لم يقربه أحد.. لم يتتحدث إليه أحد.. لم يكتب عنه أحد.. الذين عرفوه ماتوا.. الذين اشتراكوا معه في الجهاد ماتوا.. الذين أحبوه وساروا وراءه ماتوا ، لم يبق منهم إلا خادمة عجوز تسكن بالقرب من بيته في مدينة كاندى ، إنها لا تتكلم ولكن عندما تسمع اسم عرابي تبكي .. لم يبق إلا أربعة من أصدقاء أبنائه في كنوجوود كوليدج ، ولكل واحد من هؤلاء قصة ورواية .. ولم يبق إلا سيدة أخرى هي التي تحمل البيت الذي كان يسكنه أحمد عرابي .. !

* * *

ولكن كيف عاش عرابي ؟ وأين كان يسكن ؟ وماذا عمل ؟ وما هي المشروعات التي تقدم بها ؟ ..

هل تعلم أن عرابي هو الذي أدخل الطربوش إلى الجزيرة ؟

هل تعلم أن المسلمين يرتدونه حتى اليوم ؟

هل تعلم أن عرابي هو الذي أدخل الزى المصرى إلى الجزيرة ؟ حتى الأطعمة أدخلها عرابي ..

هل تعلم أنه - وهو الذى لم يتعلم الإنجليزية إلا في رحلته من السويس إلى سيلان - دعا المسلمين إلى تعلم اللغة الإنجليزية وأن المسلمين هنا ثاروا عليه إذ كيف أن الإنجليز اضطهدوا ونفوه ثم يتعلم لغتهم بعد ذلك ؟

* * *

عندما زار الدكتور محمود فوزى جزيرة سيلان دعته (مدرسة الزاهرة) في ١٧ مايو سنة ١٩٥٥ لرفع الستار عن لوحة أحمد عرابي .. واللوحة رسها أحد الطلبة عن صورة من إحدى مجلات القاهرة .. وتحدث في ذلك اليوم مدير

المدرسة السناتور عزيز . . وروى كيف أقام عربي في هذه البلاد وكيف كانت مشروعاته وكيف أحبه الناس . .

وفي نهاية كلمة السناتور عزيز وقف طلبة المدرسة ينشدون باللغة العربية التي لا يفهمونها نفس النشيد الذي ودعت به المدرسة الزعيم أحمد عربي يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠١ ، أى قبل رحيله إلى مصر بستة أيام . . وكان ذلك آخر تكريم لعربي .

وقف الطلبة ينشدون :

بحمدك يا بارئ العالمين
وأنت الرحيم وأنت المعين
فبارك سر نديب في علمها
ومعهد آدابها الراهن
وأحسن لأنبائها الآخرة . .

الغ

و « سر نديب » هي جزيرة سيلان كما كان يسميها العرب . .
وعندما سمع الزعيم عربي هذا النشيد بكى وأطال البكاء . . وقد تعود في أيامه الأخيرة أن يبكي من شدة الأسى والحزن . . وكان يخشى أن يموت بعيداً عن بلاده التي أحبها . . وكان الشيب قد توج رأسه تماماً مع أنه لم يكن قد تجاوز السنتين إلا قليلاً ولكنه شاب قبل الأوان . .

وقصة العشرين عاماً تبدأ بعد الحكم على عربي بالنفي مدى الحياة .

نقل عربي من القاهرة إلى السويس ومعه ستة من زملائه في الثورة . .

كان عددهم جميعاً ٥٧ من الرجال والنساء . . وفي ميناء السويس ركبوا بالباخرة الإنجليزية « ماريوتيس » وهي سفينة صغيرة حمولتها ١٣٩١ طناً . . وكان يحرسهم عشرون من الجنود المصريين يرأسهم موريس بك . . وكان يرافق الزعماء السبعة مترجم هو سامي عطا الله .

قطعت الباخرة الرحلة في ١٤ يوماً . . ولم تقع حوادث أثناء الرحلة . . ولكن عكف الزعماء جميعاً على تعلم اللغة الإنجليزية . . حتى عربي كان يضع

في جيده كتاباً عن تعلم اللغة الإنجليزية وكان ينصح بقية الرعماء بضرورة تعلم هذه اللغة .

وتدل التقارير على أن صحة الرعماء كانت طيبة جداً فيما عدا عبدالعال حلمى فكان يشكو دائماً من ضيق التنفس ، وكثيراً ما كان يصхо من النوم يصرخ ، فيهض الباكون لإنقاذه .. ولا يعرف أحد على التحديد نوع المرض الذى كان يشكو منه . وعبدالعال حلمى هو أول من مات من هؤلاء الرعماء .. فقد توفى في مدينة كولومبو وله قبر يزوره المسلمين . وعلى مدخل الضريح يوجد اسم عبد العال حلمى .

وفي أثناء الرحلة شكا عرابى من اللحوم التي تقدمها السفينة .

وسأل إن كانت من لحم الخنزير فقيل له إنها ليست كذلك .. فسأل إن كانت هذه الأبقار قد ذبحت أو خنقت .. فقيل له إنها مخنقة .. وامتنع عرابى عن تناول اللحوم هو وكل ركاب السفينة ..

وقبل أن تصلك الباخرة إلى سيلان كانت صحيفة «الأوزرفر» السيلانية الأسبوعية قد نشرت مقالاً شيئاً في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٢ هاجمت فيه عرابى وثورة عرابى . وفي اليوم التالي أعلنت الصحيفة أن الباخرة التي تنقل عرابى قد غادرت مياه السويس في ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وأنها ستصل إلى ميناء كولومبو يوم ١٠ أو ١١ يناير سنة ١٨٨٣ .

وأنقل كلام نفس الصحيفة - وهي المصدر الوحيد - بتاريخ ١٩ يناير ١٨٨٣ :
بدأ الناس يغدون من كل أنحاء الجزيرة .. معظمهم جاء من مدينة كاندى .. جاءوا ومعهم أطفالهم ونسائهم ، ومعهم حيواناتهم .. لئنهم جميعاً يحملون بروية البطل عرابى .. ويسمونه أحمد عرابى المصرى .

وفي يوم ٢٠ يناير كتبت نفس الصحيفة : ظهرت في الأفق من بعيد الباخرة التي تقل الثوار المصريين وفي مقدمتهم أحمد عرابى ، ويبدو أن الباخرة لن ترسو على الشاطئ قبل الكشف على صحة الباشوات ، وعلى ذلك فلن يتم نزولهم إلى الشاطئ قبل صباح اليوم التالي .. وعلى المسلمين في الجزيرة أن يستحضروا من جديد مبادئ الدين الإسلامي ، فهو الدين الذى يدعوا إلى الصبر والكفاح .

وأنقل الآن الوثيقة الوحيدة في العالم التي تصف كيف تم نزول الزعماء إلى ميناء كولومبو . لاني أنقل عن صحيفة الأوبزرفر أيضاً : « اقتربت الباخرة من الشاطئ . لا شيء غير عادي عليها ، كل ما هناك هو بعض العساكر المصريين بملابسهم الزرقاء ، وبعض بحارة الباخرة . . والشيء غير العادي هو الموجود على الشاطئ . . الناس يقفون على أطراف أظافرهم . . أرى الآن أن أحد الزوارق قد ابتعد عن الشاطئ وكان عليه بعض كبار الضباط البريطانيين ، صعدوا إلى الباخرة . وأقاموا فيها حوالي ساعة ونصف ساعة . . ولابد أنهم تحدثوا إلى عربي وإلى زعيم . . أما لماذا طال الوقت فلأن أحداً من الزعماء لا يعرف اللغة الإنجليزية . . ولابد أن الضباط البريطانيين قد طمأنوهم على الحياة هنا » .

وقالت الصحيفة : وقد صعد مراسلنا إلى ظهر السفينة وقابل عربي . . وهو يسجل أن عربي يبدو عليه أنه إنسان طيب وأن السماحة واضحة في وجهه وله ابتسامة فيها بساطة وفيها كبراءة أيضاً . . ويبدو من كلامه وحركاته أنه إنسان من السهل أن تحبه . . والزعماء قد سأלו المراسل عن الحياة في الجزيرة وعن مستوى المعيشة ، إن هذا يدل على أن الزعماء السبعة قد وطنوا أنفسهم على الحياة في الجزيرة واستسلموا للأمر الواقع !

وكتبت صحيفة الأوبزرفر في ٢١ يناير سنة ١٨٨٣ تصف نزول الزعماء فقالت بالحرف الواحد : لقد كانت الحماسة أمس بالغة . . وارتقت اليوم إلى أقصاها .. فقد هز القلق الناس بدرجة غير معقولة وكل واحد منهم يريد أن يرى الزعيم المصري عربي . . المسلمين أكثر المترجين قلقاً . . وكانت الساعة المحددة للنزول إلى الشاطئ هي السابعة ، ولكن البوليس لاحظ أن التزول سيكون عسيراً جداً ، ولذلك طلب من الجماهير أن تبعد عن الميناء وإلا فلن ينزل عربي بل سيق في السفينة .

ومضت الصحيفة تقول : إن أول من نزل إلى الشاطئ كان على فهمي وأفراد أسرته . . نزلوا في زورق وفي صمت تام والجماهير تهams فقد تصورووا أنه أحمد عربي . . وحتى عندما نزل إلى الشاطئ وركب إحدى العربات صارت الجماهير تطارده وهو يبتسم . .

وبعد ذلك وقفت سيدة بجلباب تركى من الحرير الأسود ونظرت إلى الجماهير ثم رفعت النقاب عن وجهها وأعادت النقاب . . لقد كانت بيضاء اللون كأية فتاة أوروبية ملائمها جميلة جداً . . وكانت هناك ثمانى نساء آخر يات شقراوات كأنهن أوروبيات . . ثم نزل بعد ذلك محمود سامي و محمد فهمي ، الاثنين معاً وتحير الناس أيهما يكون عرابي باشا .

أما عرابي باشا فقد نزل من الباخرة في الساعة الواحدة بعد الظهر ، نزل هو وأفراد أسرته وكان عددهم ستة . وهنا هتفت الجماهير . . وهجموا على عرابي يقبلون قدميه ويديه . . وكان الرجل على الرأس كأنه يستقبل مظاهرة في القاهرة أو الإسكندرية . . وأحسن الناس بحيرة شديدة هل يمشون وراء عرابي دون أن يروا بقية الزعماء . . أم ينتظرون حتى يروا البقية . . لم يصبر على هذا الامتحان العسير إلا القليلون جداً ، وظلوا يتطلعون إلى بقية الزعماء . . أما الألوف فقد مشت وراء عرابي . .

ثم نزل طيبة باشا وأفراد أسرته وعددهم ثلاثة ..
ونزل يعقوب حلمى باشا وأفراد أسرته وعددهم ١٢ . . ولما تلفت يعقوب باشا إلى الجماهير راح يحييهم ويصافحهم واحداً واحداً . . وظن هؤلاء الواقفون أنه عرابي باشا فأشار يعقوب باشا إلى أن عرابي قد نزل منذ وقت طويل . .
وآخر الذين نزلوا إلى الشاطئ كان أحمد فهمي باشا ومعه خمس من بناته ومثلهن من الأولاد . . وكان بادى الحزن والأسى . . وظن بعض الواقفين على الشاطئ أنه مريض . . فتقدم بعضهم يعطيه ثمار جوز الهند ، وكان يقبلها شاكراً .
ونزل كل واحد من هؤلاء الزعماء في بيت مستقل . . أما الزعيم عرابي فقد نزل في بيوت متعددة ثم استقر في بيت واحد .

وفوجئ الزعماء بأن هذه البيوت لا يوجد بها أثاث !!
ونشرت صحيفة الأوزرفر مقالاً طويلاً تتساءل فيه إن كانت الحكومة البريطانية تعلم ذلك أو أن الاتفاق تم مع حكومة الخديوي على هذا كله . . ثم قالت : إن الجزيرة ترحب بقدوم هؤلاء المتمردين ولا مانع عندها من أن تخلي لهم جانباً من مستشفى الأمراض العقلية . . أو تبني لهم بيتاً واحداً على الجدران كالسجون ، واسع النوافذ كالقصور .

ولم يمض وقت طويلا حتى علم كل المصريين أن الخديو قد جعل لكل منهم مكافأة يومية قدرها روبية - أي ثمانية قروش بسعر اليوم - كلهم في ذلك سواء . وتقول الصحيفة إن مراسلها قابل الزعيم عرابي في بيته وسأله : وماذا ستصنع بأولادك !

فقال عرابي : سأدخلهم المدرسة .

- ولكن المدرسة مسيحية وعلى رأسها قسيس ؟

- هذا لا يؤثر في الموقف فأولادى حفظوا القرآن .

- وهناك مدرسة خاصة للبنات .

- هذا أحسن على كل حال . . .

- وهل عندك مانع في أن المرأة المسلمة تعالجها طبيب مسيحي ؟

- لا مانع .

- وهل المرأة المسلمة تثق في العلاج الذى يصفه الطبيب المسيحي ؟

- إنها تترك الأمر لضمير الطبيب نفسه .

- وهل للرجل غير المسلم ضمير ؟

- أعتقد ذلك .

وعلى المراسل على ذلك بقوله : ليس عرابي بالرجل الجاھل . ولكنھ يعرف كيف يصوغ معلوماته القليلة في عبارة ترضى البسطاء من الناس . .

وبعد نزول عرابي وزملائه إلى جزيرة سيلان واستقرارهم في مدينة كولومبو لا نسمع عنهم أية أنباء . ولا نرى أى كلام عنهم في الصحف . . فقد سكتت صحيفة الأوبزرفر تماماً ، ولم تعاود شتم عرابي إلا بعد أن صدر عفو الخديو عباس حلمى الثانى في ۱۱ يونيو سنة ۱۹۰۱ .

وقد أقام عرابي في كولومبو حتى سنة ۱۸۹۲ في بيت موجود الآن في حى بوريلا وفي شارع أوف كوتا ؛ والبيت كانت مساحته كبيرة جداً لا تقل عن عشرين فداناً . وكان معظم هذه المساحة حديقة واسعة أو على الأصح غابة . . وقد نزعت أشجار هذه الحديقة وأقيمت عليها البيوت . . أما البيت الذى كان يسكنه عرابي فلا يزال كما هو فيها عدا بعض التعديلات التى أدخلت عليه . . فقد

كان للبيت مدخلان : أحدهما يطل على الشارع والثاني لا يزال يطل على الحديقة .. وقد انقسم هذا البيت الآن إلى قسمين . . القسم المطل على الشارع يسكنه الصحفى « دفنون مالدرىتش » رئيس قسم الأخبار بصحيفة « تايمز أوف سيلان » المسائية وتوزيعها ٢٠ ألف نسخة . . وقد حضر إلى القاهرة أيام العدوان الثلاثى على بور سعيد . . ويدفع ليختار شهرياً قدره ٢٠٠ روبيه أى ١٦ جنيهاً .

وهذا الجانب من البيت مكون من أربع غرف واسعة عالية الجدران . . والجدران لا تزال سميكة - طوبitan ونصف طوبية - والغرفة التي على يمين الداخل كان يجلس فيها عرابى ويستقبل ضيوفه . . ثم جعلها غرفة نوم . . وبعد ذلك نقل غرفة نومه إلى الداخل . . حيث القسم الثاني من البيت الذى يقيم فيه الآن صاحب هذا البيت الدكتور رولاند فوسير يا طبيب الحميات بالمستشفي الحكومى فى كولومبو .

قال الدكتور رولاند إنه اشتري هذا البيت في سنة ١٩٢٢ وكانت المنطقة المحيطة به كلها من الغابات والأعشاب البرية . . وكان يملك هذا البيت رجل آخر هو أوبيسيكا باندرانيكا ابن أخي رئيس الوزراء الراحل باندرانيكا . . ثم أدخل عدة تعديلات على البيت . . فأضاف إليه جراجاً للسيارات . . وعددًا من الأبواب والنوافذ .

وقال الدكتور أيضًا : إنه سمع عن عرابى باشا ، وكل الذى يعرفه أنه رجل طيب وأنه كان مشغولا بالقراءة والصلة وأنه أحد زعماء المسلمين . . ولكنه لم يره شخصياً ، ولكنه سمع من والده أن عرابى رجل عظيم . . ووالده لم يتحدث إليه . . ولكن منظر عرابى يقنعك بأن هذا الرجل بطل من الأبطال .

وقد أقام عرابى في هذا البيت تسع سنوات بالضبط . . واعتلت صحته . . وطلب من السلطات البريطانية أن تأذن له بالسفر إلى الشمال حيث الجو أحسن . . وسمحوا له . . ولكن عرابى كان له نشاط في كولومبو .

فهو الذى دعا إلى تعلم اللغة الإنجليزية . . وكان يخطب في المسلمين ويردد الحديث القائل : من تعلم لغة قوم أمن شرهم ومكرهم .

ولأول مرة يرى الرعيم عرابى الغضب والتمرد في عيون المسلمين .. إنهم بدأوا ينشقون عليه .. فقد لاحظ أن الذين يترددون على داره قد نقص عددهم .. فلما

سؤال عن السبب قالوا له : دعوتك لتعلم الإنجليزية !!

ورأى عربي أن يذهب هو إلى بيته . وراح يستمبلهم ويقعنهم الواحد بعد الآخر . . واقتنعوا به ودعاهم عربي لإنشاء مدرسة للمسلمين يتعلمون فيها أصول الدين . . وطلب من المسلمين أن يتبرعوا بالقليل من أموالهم لإنشاء مدرسة للتفقه في الدين . . ونجح عربي في أن يجمع ٢٥ ألف روبيه ونجح في أن يأخذ من الحكومة البريطانية مثل هذا المبلغ . وفي يوليو سنة ١٨٩٢ وضع عربي أساس «المدرسة الظاهرة» التي أصبحت الآن «الظاهرة كوليدج» ولا يزال الجانب الذي أنشأ في عهد عربي موجوداً حتى الآن وقد أضيفت إليه أجنحة عديدة حتى أصبحت تتسع لأنني طالب .

وأصبح عربي الرئيس الفخرى لهذه المدرسة . .

وبين الحين والحين كان عربي يزور المدرسة رغم أن المسافة بين مسكنه الجديد والعاصمة كولومبو تزيد على المائة كيلومتر من الطرق الجبلية الصعبة . . وترك عربي في كولومبو جثمان الزعيم عبد العال حلمي الذي توفي في ١٠ مارس سنة ١٨٩٢ . ولا يزال له ضريح يزوره المسلمون . .

• • •

أما يعقوب سامي ومحمد فهمي وطلبة عصمت . .

فقد انتقلوا مع عربي وأقاموا معه في مدينة كاندي .

أما البيت الذي سكنته عربي في مدينة كاندي فهو لا يزال قائماً ! إنه في شارع هالولا . وهالولا هو اسم إحدى القرى التي ينتهي بها هذا الشارع . . والبيت مقام على ربوة وكان إيجاره الشهري مائه روبيه . . وقد استأجرته السلطات البريطانية من أسرة فيمانيكا . والبيت من دورين . وهو عبارة عن غرفتين كبيرتين في الطابق العلوي بينهما صالة واسعة . . وهناك سلم خشبي يفضي إلى الدور الأرضي حيث توجد ثلاثة غرف . . إحداها كان بناما فيها عربي والأخرى لزوجته أو لزوجاته .

وقد أقام عربي في هذا البيت عشر سنوات . .

وكان في مدينة كاندي بيت آخر يقيم فيه محمد بك وهو أكبر أبناء عربي ويقال إن زوجته كانت سيدة من سيلان . وكانت يسمونه الباشا الصغير . . وفي مدينة

كاندى توفي محمد فهمى فى يوليو سنة ١٨٩٤ ، واندثرت الآن معلم قبره . .
وقد شاهدت هذا القبر فى مدينة كاندى . . وبعد ذلك توفي يعقوب سامي
فى أكتوبر سنة ١٩٠٠ ودفن بجوار محمد فهمى . .

وبدأت بعد ذلك السنوات المديدة فى حياة عرابى باشا . . وأصبح يياض
شعره كالثلج ، بل ودنياه كلها صارت بيضاء مبهمة فقد ضعف بصره . .
وفى سنة ١٩٠٠ أفرج الخديبو عن طلبة باشا ، فعاد إلى مصر ومات بعد خمسة
شهور . . ومحمود سامي البارودى فقد بصره نهائياً وعاد إلى مصر . ومات
في ديسمبر سنة ١٩٠٤ . . وبقى على فهمى وعربى معاً . .
وراحت أقتنش فى مدينة كاندى عن الدين عرفوا عرابى . . أو عرفاً أولاده ،
معظم الناس سمعوا عنه ولم يروه .

قابلت شرى جورو وهو سمسار متلاعنة فى الثالثة والسبعين من عمره وقال لي
إنه رأى عرابى باشا . وكان رجلاً ضخماً طويلاً ممتلئاً . . إنه نوع غريب من
الناس لم يكن مألوفاً بالنسبة لهم . . فالناس يمشون إلى جواره وكأنهم أقزام . . وكان
عرابى باشا يركب حصانه وينتقل بين الشوارع وينخرج إلى الجبل أو يزور بعض
أصدقائه . .

وقال شرى جورو إن أولاد عرابى كانوا زملاءه فى مدرسة سانت بول . .
كانوا ثلاثة أو أربعة . . إنه لا يذكر على التحديد . . وكانت أشكالهم تلفت
النظر . . فقد كان لونهم أبيض . . وكانوا منعزلين . . ولا يتحدثون إلى أحد .
وسألنى إن كنت أعرف أحدهم الآن فقلت له أعرف أحدهم هو المرحوم
عبد السميع وكنا نعمل في جريدة الأهرام معاً وقد توفي منذ سنوات . .
وسألنى : هل كان أبيض اللون ؟ !
قلت : لا .

قال : أنا لا أعرف هذا . . ولابد أنه ولد بعد ذلك . فقد كان عرابى
متزوجاً من عدد من نساء سيلان . . ولكن صغيرات في السن جميعاً .
أما صاحب البيت الذى يسكنه عرابى فهو « فيها نيكا » الأب وكان صديقاً
لعرابى . وبعد سفر عرابى إلى مصر قرر صاحب البيت وهو من أغنياء كاندى

ومن أصحاب مزارع الشاي أن يحفظ له باسم عربي .. ولايزال اسم عربي مكتوباً بالإنجليزية على جانب الربوة التي أنشئ عليها .. الاسم هو «عربي هاوس» . وقد توفي فيمانيكا الأب . وورث البيت ابنه الدكتور فيمانيكا الذي مات سنة ١٩٥٦ .. وأرملته تعيش الآن في لندن .. وقد زارت الجمهورية العربية في سنة ١٩٥٨ ..

وأهدت سفارتنا في سيلان علبتين من التشوّق كان يستخدمهما أحمد عربي . ولايزال الطابق العلوي من هذا البيت مفلاً .. فقد أمرت السيدة بإغفاله حتى تعود .. وقد علمت من أخت زوجها التي تقيم الآن في كولومبو بشارع هوجز كورت رقم ١٤ .. أن في هذه الغرفة المغلقة صوراً للزعيم العربي وبعض الأدوات والملابس التي كان يرتديها ، وأن زوجة أخيها احتفظت بهذه الآثار تنفيذاً لوصية زوجها الدكتور فيمانيكا .

وقالت لي أخت الدكتور فيمانيكا : إنها تذكر بوضوح عربي باشا .. إنه لم يكن يتحدث إلى أحد . ولكنه علاق وضخم وأنه كان يركب الحصان وأن الناس كانوا يخترمونه جداً .. وأن هذا الشارع كان معروفاً في أيام عربي باسم عربي .. وأنها تعلم أن أحد أولاده كان يسكن بالقرب منه .

وقالت لي : إنني أذكر واقعة واحدة .. أذكرها لأنني رأيت فيها لأول مرة المرأة المصرية .. فقد رأيت سبعاً منها أو أكثر . وكن جميلات ولوهنن أبيض وعيونهن جميلة .. هذا اليوم احتفل فيه عربي «بطهور» أحد أولاده .. وقد ذهبت أنا وأختي إلى بيت عربي .. ورأيت المصريين والمصريات . وقد جلست النساء في الطابق الأرضي .. ولم أر زوجة عربي . وسمعت في ذلك الوقت أن له زوجة بيضاء . وأنه تركها في القاهرة ، وأنه تزوج من بنات سيلان ، ولا أحد يعرف كم عددهن .. وأنا أعلم أن المسلمين يرثون في زواج شخصية مثل عربي باشا من إحداهن شرفاً لكل أسرتها ..

وقال الصحفي محمد رفيق نائب رئيس تحرير الأوبزرفر أيضاً ، إن جده كان صديقاً لعربي باشا .. وإن تاريخ حياة جده هذا قد جبله على فواد طلبة ابن طلبة باشا في كتابه عن «سيلان الساحرة دائمًا» وأنه عندما مات جده كان عربي

باشا في مقدمة المشيعين . وأن المسلمين رأوا في هذا شرفاً عظيماً .. وكانت هذه هي آخر مرة يرى الناس فيها عربي باشا ..

وقال لي محمد رفيق : إن عراقي باشا هو الذى أدخل الطربوش فى الجزيرة .
وأننى سمعت من والدى أن أحداً لم يكن يلبس الطربوش قبل عراقي .. وأن عراقي
هو الذى أدخل البنطلون الأبيض أو السروال إلى الجزيرة .

وقال أيضاً : إن عندهم طاهية في البيت هي ابنة الطاهية التي كانت تعمل في بيت عربي . . وأن هذه الطاهية لا تزال حتى الآن تقدم أطعمة غير مأكولة في الجزيرة من بينها الكتفنة والقطايف والغريبة والبازنجان والقوطة الحشوة . . وتصر الطاهية على تقديم هذه الأطباق لأنها تحب للزعيم الذي يحب هذه الأطعمة وكان يطلبها من أمها دائمًا . .

أما الطاهية العجوز نفسها فليس لديها إلا الدموع .. وهي ترفض أن تتحدث عن عراقي باشا .

والكلمات القليلة التي سمعتها منها معناها : أن الناس هم الذين قتلوا عربي ..
وأن القتلة هم هؤلاء المسلمين .. فلو كانوا أقوياء لطردوا الإنجليز من مصر ومن
الجزيرة .. وأن المسلمين كانوا يتزاحمون على عربي .. ولكن عربي كان
يتأوه آخر الليل دون أن يشكوا لأحد ..

والكلام الذى فهمته منها أن عراibi فى آخر أيامه كان قد ينس . . ولم يمنعه من فقدان الأمل ، إلا إيمانه بالله وبعدالة قضيته . .

وفي أيامه الأخيرة كان يتحدث عن قرب سفره إلى مصر .. ولم تكن لدى عربي معلومات عديدة عن سفره ، ولكنها شعور يتعدد في نفسه .. وكان أصدقاؤه يستمعون إليه وهو يتحدث عن حنينه إلى الوطن ويشفقون عليه . وكان عربي يقول دائماً : أريد أن أموت في بلدي ، وأن أدفن في الأرض التي دافعت عنها . وقد ساحت كل الناس وغفوت عنهم ..

وأصدر عباس حلمى الثاني قرار العفو عن عربى وعن على فهمى . .
وأنس عربى بالسعادة . وكان يتحدث دائماً عن الوطن والعودة ، وأن
الله لم ينجب أمه . وأن الله قد حقق له الشىء الوحيد الذى يريده . .

لقد صدر قرار العفو ولكنه لا يعرف كيف يعود إلى مصر .. فليس معه مال ..
وقالت صحيفة الأوبزرفر : أما السفر إلى مصر فليس هناك اعتمادات مالية
لذلك .. والحكومة لم تتخذ بعد قراراً في هذا الشأن والفرصة أمام المسلمين سانحة
ليبيدو إعجابهم وعطفهم على الرعيم أحمد عرابي بصورة عملية مالية !
وسافر عرابي باشا على الباخرة الألمانية « برنسيس لايبرين » في ١٨ سبتمبر
سنة ١٩٠١ ووصل إلى السويس في أوائل أكتوبر واتجه بالقطار إلى القاهرة .
إلى النسيان ولیموت في ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ نسياً منسياً !

و قبل أن يغادر عرابي سيلان ، ذهب إلى المدرسة الراحلة التي أرسى أساسها
وغنى له الطلبة – وهو يبكي – نشيدهم الساذج الطيب ..
وعندما استقل عرابي الباخرة التف الناس حوله .. وعندما تقدم ابنه محمد بك
طوقوا عنقه بالزهور . وبكى الناس . بكت النساء والرجال . ودخل عرابي غرفته
وراح يبكي . ولأول مرة منذ شهور نام عرابي واستغرق في اليوم .

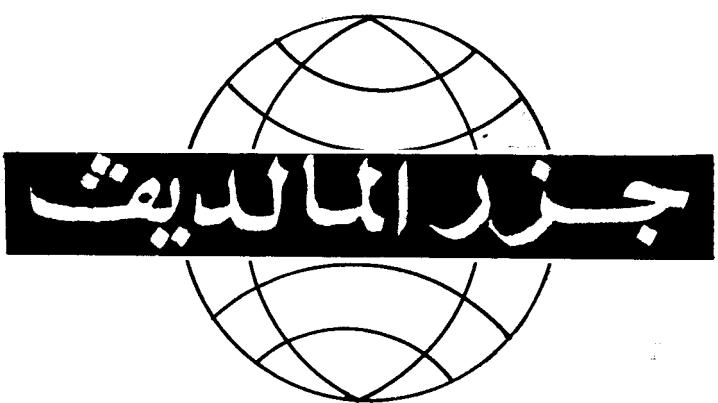
* * *

وهناك مشروع وافق عليه الرئيس جمال عبد الناصر بشراء بيت عرابي الموجود
في كاندي وتحويله إلى متحف أو مكتبة أو مكان سياحي ..
ومشروع آخر لبناء نصب تذكاري للزعيمين اللذين ماتا في كاندي وهما
يعقوب ساى و محمد فهمى ، وأن الاتفاق تم مع حكومة سيلان على أن تعطينا
قطعة أرض في كولومبو ، في مقابل قطعة أرض أخرى في القاهرة تبني عليها سفارة سيلان .
وقال لي السناتور عزيز عضو مجلس الشيوخ ومدير « الكلية الراحلة » إن لديه
مشروع لبناء جناح جديد في الكلية التي أنشأها عرابي . وأنه طلب من الجامعة
العربية مساعدته مالياً . وأن الجامعة وعدته بذلك .
ومن المتظر أن ينقش حجر الأساس في القاهرة ويرسل إلى كولومبو .

* * *

إن قصة عرابي لم تكتب بعد .. إن المئات من صفحاتها مكتوبة باللغة
السنائية ، لغة أهل سيلان . والقليل جداً مكتوب بالإنجليزية . والكثير جداً مات
مع أبطال هذه القصة .

لقد مات عرابي مؤمناً بأن دمه لن يضيع هباء . لقد انتم مواطنه له ..
فبعدأربعين عاماً من وفاته خرج الإنجليز من مصر ومن سيلان .. !



● بلاد السمك

حدث انقلاب على مسافة ٤٠٠ كيلومتر من كولومبو . ولا أحد يدرى به مع أنه يهمنا جداً . فالذين قاموا بالانقلاب جماعة من المسلمين . أصلهم عربي . ولا يوجد في بلادهم أجنبي واحد . ولا توجد كلاب أيضاً . ثم يوجد بهذه البلاد ضريح واحد . صاحب الضريح هو الرجل الذي حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه أبو البركات البربرى . واسمه مكتوب على الضريح . ومكتوب أيضاً اسم الملك الذي أسلم على يديه . . فأسلم كل الناس . عملاً بالعبارة التي تقول : الناس على دين ملوكهم !

البلاد التي أتحدث عنها اسمها جزر المالديف . .

ولا أدعى أنني سمعت بهذه الجزر في حياتي ، وفي المرة الوحيدة التي رأيت فيها اسم هذه الجزر على خريطة آسيا ظننت أن المالديف هو اسم الرجل الذي قام بتصميم الخريطة !

وجزر المالديف عبارة عن مجموعة جزر صغيرة يبلغ عددها ألف جزيرة . . مقسمة إلى ١٨ مجموعة . . ومعظم هذه الجزر في حجم جزيرة الرمالك . والأرض جيرية بيضاء مغطاة بأشجار جوز الهند وأشجار المناطق الاستوائية . . فنحن هنا طبعاً في منطقة استوائية دائمة الحرارة والرطوبة والأمطار .

وأهل هذه البلاد يعيشون على صيد السمك ، وخصوصاً التونة ، والسمك يصلروننه إلى جزيرة سيلان . وهم مرتبطون بها ارتباطاً حيوياً . ويدينون لهذه

الجزيرة بالكثير من الفضل خصوصاً في إبان الحرب العالمية الثانية عندما ضربت غواصات اليابان زوارق صيد السمك والسفن التي تحمل السمك وكاد الناس يموتون جوعاً . وعاونت سيلان أهل المالديف وعددهم مائة ألف نسمة . ومعظم أبناء المالديف من أصل سيلاني . حتى اللغة المالديفية خليط من اللغات الأردية والسنگالية والسنسركريتية والعربية أيضاً .

وكلمة مالديف - معناها جزيرة السمك . فكلمة مالد : معناها سمك وديف : أصلها « ديب » أو « ذيب » ومعناها جزيرة . والكلمة كلها سنسركريتية . وكان ابن بطوطة يسمى هذه الجزر باسم جزر ديب الحل .. أو ذيبة المخل أو محل ديب ..

وابن بطوطة الرحالة المغربي قد زار هذه الجزر في سنة ١٣٤٥ وأقام بها عاماً واشتغل فيها قاضياً . ولم يعجبه في نساء المالديف أنهن يمشين عاريات الصدر . وقد تزوج من بنات المالديف وحجب امرأته عن عيون الناس . وبعد ذلك سافر إلى سيلان .

واللغة التي يستخدمها أبناء المالديف يكتبونها هكذا : جزر .. ال م ال دى ف .. زارها بن بطوطة .. وزارها . أبو البركات البربرى .. فهم يكتبون الكلمات بحروف متفرقة . أما اسماء الناس وخصوصاً الأسماء العربية فإنهم يكتبونها كما هي . بنفس الشكل .

وقد قابلت في مدينة كولومبو أحمد حلمي ديدى .

وهو السفير الوحيد لجزر المالديف في سيلان وفي العالم كله . والرجل مليء الجسم أسمر وكل ملامحه هندية أو سيلانية وشعره أسود .. ويتكلم الإنجليزية . والمكتب الذي زرته فيه ، هو مكتب السفارة .. أو السفارة . وفي المكتب أناس كثيرون .. رجال ونساء وصوت آلات كاتبة وخريطة لهذه الجزء .

وعندما جلست إلى السيد حلمي ديدى .. وهو من الأسرة التي تحكم المالديف . فالمملوك اسمه السلطان ديدى . وكلمة ديدى غير معروفة معناها بوضوح . وإن كان يقال : إن كلمة دى معناها يعطي . فربما كانت كلمة ديدى معناها الرجل الكريم .

والمالديف تخضع لنظام ملكي منذ ثمانية قرون .

وقد تحولت إلى النظام الجمهوري سنة واحدة ، وبعد ذلك عادت إلى النظام

الملكي . ومن المتظر أن تعود إلى النظام الجمهوري للمرة الثانية بعد استفتاء شعبي ينوى حكم السلطان ديدى وأسرته .

أخبر السيد حلمى ديدى أن أحد التجار قام بانقلاب ضد الحكومة . وأنه جمع عدداً من الرجال وأعلن استقلال جزر المالديف . أو بعض هذه الجزر . وطالب الأمم المتحدة بالاعتراف بالدولة الجديدة . ويقول : إن الإنجليز وراء هذا التاجر الجاهل الذى اسمه عبد الله عفيف . والذى يناصره فقط أبناء جزيرة واحدة مساحتها عشرة كيلومترات مربعة وعدد سكانها ستة آلاف نسمة .

* * *

وقد استولى البرتغاليون على هذه الجزر . ولكن أهل المالديف طردوهم . . . ولم يمكث مشهورة .

وتابع هذه الجزر بدأت بالفعل سنة 1887 عندما تعاقدت بريطانيا مع السلطان معين الدين ديدى . وتقضى هذه الاتفاقية بأن تتعهد حكومة الملكة فكتوريا بالدفاع عن هذه الجزيرة ضد العدوان الأجنبي . .

وفي سنة 1948 تجددت المعاهدة بين إنجلترا وجزر المالديف ، فتعهد الملك جورج السادس بالدفاع عن هذه الجزر ، ثم طلب من السلطان أن يأذن له باستئجار إحدى الجزر لتقيم عليها الإذاعة البريطانية إحدى محطات الإرسال في هذه المنطقة من جنوب آسيا . . وقد أقامت بريطانيا أخيراً مطاراً هائلاً على إحدى الجزر واسها جزيرة جان في مكان متوسط بين عدن وسنافورة . فالمطار يبعد ألف ميل عن كل منها . .

أما الإيجار الذى تدفعه إنجلترا عن هذه الجزيرة فهو مبلغ ألف جنيه استرليني .

وفي سنة 1953 جددوا المعاهدة وكانت حكومة المالديف جمهورية فى ذلك الوقت بسبب اضطرابات داخلية . . وعلى أثرها عاد النظام الملكي فجدد البريطانيون المعاهدة مع الدولة الملكية الجديدة . .

وحا قالهلى السفير ديدى إن أهل الجزيرة الذى استقل بها عبد الله عفيف هذا قد عانوا الشقاء والبؤس ، ومعظمهم هرب إلى جزيرة ماله ، وهى الجزيرة العاصمة وأخيراً قام السلطان على رأس قوة من البوليس من ٥٠ رجلاً - قوة البوليس كلها

٣٠٠ رجل — واستطاع أن يحتل مجموعة جزر سودوا التي كانت قد أعلنت انفصalamها واستقلالها التام عن بقية الجزر .

ولم نعد نسمع شيئاً عن هذه الجزر ولا عن ثورتها ..

وفي الأيام الأخيرة حين قام عفيف هذا بمحاولة عمل انقلاب آخر ، كان من الواضح أن البريطانيين وراء هذا الرجل . ولكنه أمام ضغط الشعب وأمام إصرار الناس على مواقفهم من هذا الرجل ، نقله الإنجليز إلى جزر سيشل ، كان في نية عفيف هذه المرة أن يفسد الاستفتاء الشعبي الذي يجري لانتخاب رئيس جمهورية جديدة للمرة الثانية ..

* * *

وقد فوجئت بوجود خمسة من أبناء المالديف يدرسون العلوم الدينية في القاهرة . ولاحظت أن واحداً منهم يحمل لقب ديدى . ولكنه أخفاه وتستر عليه . كأنه عار أن يكون واحداً منتسباً إلى الأسرة التي كانت مالكة . مع أنه لو أتيق هذا اللقب على ما هو عليه ، فإن أحداً في مصر لا يدرى به .. ولكن يبدو أن هذا هو شعوره أمام زملائه الأربعه .

وعرفت من هؤلاء الشبان الخمسة أنهم عندما يعودون إلى بلادهم سيتولون مناصب القضاء .

وبهذا هؤلاء الشبان إلى أن الدكتور حسين فوزي قد كتب عن جزر المالديف . وأعجب بها جداً . لو لا أنه تنظر عليهم بعض الوقت . وهم لم ينسوا له هذه العبارات الساخرة التي أطلقها على البلاد — عفا الله عنه — .. وطلب العفو له ليس من عندي ، ولكن من عند هؤلاء الشبان الخمسة !

وقد روى لي الدكتور حسين فوزي أنه أعجب جداً بهذه الجزر وأنها جنة الله في أرضه . وأنه يتمنى لكل إنسان ، لو استطاع ، أن يزور الجنة العائمة .

وأخبرني الدكتور حسين فوزي أنه روى للملك السابق أحمد فؤاد أن سلطان المالديف له طريقة خاصة في حل أية أزمة وزارية . وقال : إن الملك فؤاد سأله

بلهجهة العربية المكسرة : فيه كمان أزمات وزاريات في جزر امالديف ؟ فقال له نعم . وسأله وكيف يفعل السلطان بالوزراء . .

وضحك عنلما أخبره الدكتور حسين فوزي أن السلطان يضع الوزراء في زورق ويأمرهم بالرحيل بعيداً عن البلاد . وكان الملك فؤاد في أزمة وزارية وأعجبته الفكرة ولم يتمكن من تنفيذها .

ولإنما نفذت في ابنه فاروق بعد ذلك !

ومنذ أيام قرأت أن ماء المحيط قد أغرق بعض هذه الجزر . ويقال أغرق ٧٠٠ جزيرة . وحرصت وكالات الأنباء على نشره على أوسع نطاق . . ولكن إغراق مثل هذه الجزر لا يعتبر خبراً . لأن الخبر أن الماء سوف ينحسر عنها بعد أيام إنها لعبة الماء مع الجزر من ألف السنين !

سـنـغـافـورـة



● أرخص بلد في الدنيا

(١)

أجمل مدينة رأيتها حتى الآن هي سنغافورة . . إنها جزيرة عدد سكانها مليون ونصف مليون ومساحتها ٢٠٠ ألف فدان ولها حكومة يرأسها حاكم صيني . . فقد استقلت أخيراً . .

والوزارة كلها من الصينيين لأن عدد الصينيين هنا مليون والباقيون من أبناء الملايو والهنود وجاليات أجنبية أخرى . .

المدينة حلوة نظيفة فيها كل ما يتمناه عروسان من ملابس وهدايا وعطور وفسحة . المحلات التجارية هنا ممتلئة جداً . إنها محلات بكرش . وكروشها طالعة لبرة . . الأسعار رخيصة جداً . شنطة اليد من جلد الثعبان ثمنها ستة جنيهات ، زجاجة العطر التي تباع في القاهرة بعشرة جنيهات ثمنها هنا خسون قرشاً . البلوزات والجبيات والراديوهات الصغيرة كلها تباع هنا على عربات اليد كما يباع الترمس والقول السوداني . .

والقمصان التي يلبسها الشبان هنا تظهر على أجسام الأغنياء عندنا أو بعض الطيارين فقط . أما ملابس النساء ففي غاية البساطة والجمال . .

والذى يدخل محل « جون ليتل » أو « روبنسون » هنا يفقد عقله على مدخل أى واحد من هذين المحلين . . وقد كنت أتصور في يوم من الأيام أن بيروت

هي المدينة الوحيدة التي يجد فيها الإنسان كل شيء وبيروت فعلاً بها كل شيء إلا شيئاً واحداً هو : الشخص ..

الأسعار هنا رخيصة جداً جداً والسلع الموجودة هنا كثيرة جداً ..

الحقيقة أن أول يوم نزلت فيه إلى الشارع أحسست بدوخة وأنني أخطأت الطريق إلى سنغافورة . وأنه كان يجب أن أمر على البنك الأهلي أولاً ، وبعد ذلك أجئ هنا ، ما الذي تريده .. هل تريد أن تتحقق ، موجود أماكن الضبحة واللهو كأية عاصمة في العالم .. كباريس ولندن بل وتوجد هنا « سينيراما » وهي ليست موجودة حتى في أوروبا .. وموجودة هنا كباريهات لا يمكن حصرها .. وتوجد فتيات جميلات من كل بلاد الدنيا والمثل الذي يقول : لبس البوصة تبقى عروسه ، هذا المثل طبعاً ليس دقيقاً وإنما من رأي أن يكون المثل هكذا : لبس العروسة تبقى عروسه لبس البوصة تبقى بوصلة ..

وكان من عادق عندما أنم أن أفل بباب غرفتي وأنام وأفل الحقيقة الكبيرة التي معى .. ولكن بعد أن رأيت هذا الذي بهرنى وقهرنى في سنغافورة تركت باب الغرفة مفتوحاً وتركت الحقيقة مفتوحة وكتبت ورقة للخادم أول فيها : وحياة أبوك ما عندكش طريقة أخلص بيه من الكراكيب اللي أنا جايها معايا ..

طبعاً القميص الذي يلبسه الخادم يباع عندنا بشمن مرتفع .. وكذلك الحذاء الإنجليزي الذي يلبسه .. وال الساعة الزينة التي في يده .. وقلم الباركر ٦١ جيبيه .. ومنظار شمس أمريكي .. غير الأشياء الموحدة عنده في البيت .. ولا بد أنها تجنبن ..

إنها مدينة رائعة بلا شك ..

بلد على هيئة جزيرة .. من أية ناحية أنظر من الفندق أرى الماء .. ومن بعيد أرى جزراً صغيرة .. أما في الميناء فهناك مئات السفن .. ومن هذه السفن تدخل خزانة المدينة مائة مليون جنيه سوياً ..

وسكان الجزيرة من أبناء الصين .. والصينيون في غاية النشاط والنظافة والبساطة ..

والرجل الصيني لا يتعب من العمل وذكى ويرغب فى أن تنشرى منه بأى شكل ..
والفتيات الصينيات يعملن أيضاً . وأعتقد أن الفتاة الصينية سمراً خاصاً .

* * *

تناولت طعام الغداء مع فتاة صينية جاءت من أندونيسيا تزور أقاربها هنا
وسألتها : لاحظت أنك تأكلين الكثير جداً من الأرز .. فهل يا ترى أنت كل
يوم كده ولا التارده بس ؟

قلت : ليه .

قلت : يعني سؤال كدة ..

قالت : كل يوم : لابد أن شكلى فظيع وأنا أللهم الأرز .
- أبداً .. ولا فظيع ولا حاجة .. دا شكلى أنا وأنا باأفتح عليك .
- ليه ..

- إذا كنت بتأكلى الكمييات دى كلها .. امال مش باين عليك ليه ؟ ..
وفعلاً لا يبدو عليها أنها تأكل على الإطلاق .. كأنها لا تشرب ولا تنفس
ولا تنام .. مختصرة جداً .. وليس هى وحدها ولكن ٨٠٪ من بنات الصين
هكذا .. يعني خلقة ربنا بيقى !

سألتها : ما هي وسائل الإغراء عندكم ..

قالت : إزاى .. من فاهمة ..

- يعني إذا كانت الواحدة منكم لابسه بيجاما ليلاً ونهاراً .. والرجل يرى
ملامعها بوضوح جداً .. فما الذى لا يراه الرجل ويحاول أن يحرى وراءه ولا يناله
إلا بالزواج ..

- مش فاهمة ..

- إزاى بيقى .. يعني مفيش حاجة في جسمك مستخيبة عن عين الرجل ..
ـ إن الرجال لا ينظرون هكذا .

- « هكذا » : يعني ليه .. يعني زبى أنا .. هوه أنا بصيت إلا وأنا بأكلمك
دلوقت . لا صحيح .. عاوز أعرف .

تفتكر إن البدائين اللي عايشين عرياناً لا يتزوجون ..

— طبعاً يتزوجون كده بالغريرة . كالحيوانات تماماً . دون أن تكون هناك
وسائل للإغراء أو الفتنة .

— لازم الإغراء عندكم . . .

— عند كل الناس . طيب إنت لابسه كوييس كده ليه . . وقف قدام
المرايا قد ليه ! ليه علشان إيه ! مش علشان الرجالة ! أنت مكسوفة . هو أنت
لوحدك . كل البنات كده .

— قصدك أن الفتاة الصينية لا يمكن مقاومتها . . .

—رأيي مفيش داعى . لأنني أضعف أمام الفتاة الصينية . . ولا أقوى
على مقاومة أية فتاة جميلة بالصين أو باليابان . .

— أنت تفرجت على الحالات التجارية هنا . . .

— بعضها .

— شفت البائعات .

— آه . . جميلات . . يعني مش كفاية البضائع لازم كمان البائعات . .
البضائع لا يمكن مقاومتها فا بالك إذا كانت البائعات جميلات أيضاً .

— تحب تشتري حاجة . .

— أبداً . .

طبعاً لا يمكن أن اشتري قلم رصاص فأنا في منتصف الرحلة وما زال أمامي
أكثر من ١٥ ألف ميل وبعد ذلك أمامي ٣٠ ألف ميل أخرى إلى القاهرة . .
لا يمكن أن اشتري شيئاً ولا أضع في حقائي أى شيء . . لاني أكره « الشيلة »
الثقيلة حتى لو كانت أجمل فتاة صينية .

لقد تعودت هذه الأيام أن أترك باب غرفتي مفتوحاً وباب حقيبي مفتوحاً
وباب قلبي مفتوحاً . . اللعنة على المقاطيع فليس في الدنيا أحسن من حياة
بلا مقاطيع ولا أقفال !

(٢)

وستغافورة معناها مدينة الأسد ولها قصة غريبة . . . فقد اشتراها ضابط إنجليزي بخمسة لاف جنيه من سلطان جوهر منذ ١٤٥ عاماً . والضابط الإنجليزي اسمه رافلس ، وكان يبحث عن قاعدة بريطانية يضرب منها الهولنديين . . . وقرر رافلس أن يجعل هذا الميناء حراً ، تدخله كل البصائر وكل الفلوس بجميع ألوانها . وما زالت ستغافورة حرة ، وما تزال فيها كل فلوس هذه المنطقة .

واسم رافلس هذا في كل مكان له ميدان ورصيف وشارع . . . والمكان الذي هبط إليه بالجزيرة فيه تمثال للرجل الذي اشتراها لحساب الإمبراطورية البريطانية .

الساعة الثالثة صباحاً أقف أمام الفندق الوحيد الذي وجدت به فرحة خالية فينهض من فوق إحدى المناضد خفيراً الفندق . . . وينفتح باب كبير وتضاء الأنوار وأمد يدي إلى أحد الدفاتر الكبيرة وأسجل اسمى والجهة التي قدمت منها وجنسيني وعد الأ أيام التي سأمكثها في الفندق . . .

قلت للباب : أوضة كويسية .

« يهز رأسه » .

فيها تكيف ؟

— وفيها مروحة أيضاً . . . وبسريرين ؟

— وسريرين ليه بي؟

— مفيش غيرها . . . ولدبة يوم واحد . . .

— وبعدين ؟

— بكرة تبحث لك عن فندق آخر .

— كده . . . طيب أعمل إيه بالسرير الثاني ؟

— « يهز رأسه » ضع عليه الشنط .

— دى شنطة واحدة . . .

— (يهز رأسه) أبعث لك شنطة أخرى تضعها إلى جوار شنطتك . . .

- طيب شيلوا السرير ده . . وتبقى أوضه بسرير واحد . .

- إذا شلناه نحسبها بسريرين برضه . . هي كده .

- بقى من رأيك أنى أؤجر الأوضة من بطني . .

- « يهز رأسه » .

- وعلى كده أدفع فيها كام .

- ٢٨ دولاراً . .

- إيه ٢٨ كام . . دولار إيه . .

- دولار ملايو . . يعني حوالى أربعة جنيهات استرلينية . .

- يعني لازم بكرة أفتر وأتغدى وأتعشى هنا . . مش معقول . .

- على حسابك .

- يعني إيه . .

- ٢٨ دولاراً . . نوم فقط . . والأكل على حسابك . .

- ليه بقى مانخلع النوم على حساب كمان . .

- الدور الرابع أودة ١٠٢ . . تصبح على خير « بالإنجليزية » .

وتصعدت إلى الدور الرابع . . ورأيت غرفة واسعة جداً وسريرين وتليفوناً وجهاز تكييف وميكرووفوناً إذا أردت أن تستمع إلى موسيقى الروف جاردن .

ونزعت ملابسي وتمددت على السرير أفكر في الفندق القادم . . ومددت يدي إلى « دليل سنغافورة » ورحت أبحث عن الفنادق الأخرى . . ووجدت صفحتين كلهما عن الفنادق وأوصافها وأسعارها ، وقرأت عن الفندق الذي نزلت به فوجدت أن السعر ليس ٢٨ دولاراً كما قالى لي البواب . . إن السعر هو ٣٢ دولاراً لأن غرفتي بحمام وماء ساخن وبارد . . وأن الفندق يبعد عن مدينة سنغافورة حوالى ثمانية كيلومترات .

ومددت يدي إلى المصباح لكي أطفي النور فوجدت ورقة صغيرة أنيقة موضوعة على السرير مكتوبًا عليها : أهلاً . . أهلاً . .

فالقلقت بها على الأرض في حركة عصبية يائسة وانقلبت الورقة على الوجه

الآخر وكان مكتوب عليها أيضاً : أهلاً .. أهلاً ..
عبارة أخرى : يعني أنفق !

(٣)

وف الصباح قابلت السيد إبراهيم عمر السقاف من أغنياء سنغافورة . .
يقولون إنه يملك مئات الملايين . وله عمارات في القاهرة من بينها عمارة الإبراهيمية على
الكورنيش أمام سينما الجزيرة . وكل أفراد أسرة السقاف جاءوا من حضرموت
وتفرقوا في البلاد . وفي الحجاز والعراق وأندونيسيا والملديف وفي الجمهورية العربية
المتحدة . وغير معروف على التحديد مصدر ثرواتهم المائة . وإذا قابلت أي
فرد من عائلة السقاف قال لك إنه ورث هذه الثروة عن والده . والله من
أين أتي بها . أتى بها عن والده أيضاً ، وهذا صحيح فعندهم أربعة أجيال على الأقل
من الأغنياء جداً .

والسيد إبراهيم السقاف رجل نحيف قصير القامة . يعمل الآن قنصلاً فخرياً
لجمهورية العراق . . وهو يتحدث اللغة العربية بلهجة أهل الحجاز .
ويتحدثها بشبهة مفتوحة لأنه لا يجد أحداً يتحدث إليه . فأبناؤه لا يعرفون العربية
وإنما يتحدثون الإنجليزية أو الملاوية .

حدثني السيد إبراهيم السقاف فقال إنه كان يملك إحدى الجزر . وهي
أكبر من سنغافورة وهي قريبة جداً من سنغافورة لا تبعد أكثر من عشرين
كيلو متراً واسمها جزيرة القمر . وقد اشتراها بحوالى خمسة آلاف جنيه . .
وكانت مليئة بأشجار المطاط وجوز الهند . ويوم أن اشتراها كان رطل المطاط
بحوالى خمسة قروش . ويوم تركها كان رطل المطاط قد وصل إلى ثلاثة قرشاً . .
وهو لم يبع هذه الجزيرة وإنما أهداها إلى جامعة چوججا كارتا بأندونيسيا . .
ومساحة هذه الجزيرة حوالى ٣٥ كيلو متراً مربعاً .

والقصر الملكي في مكة كان يملكه السيد إبراهيم السقاف ثم أهداه للملك
عبد العزيز آل سعود . وقال لي إن الصحف المصرية نشرت أن الرئيس عبد الناصر
قابل الملك السعودي في قصر السقاف ولا يزال الناس هناك في مكة يسمون القصر
الملكي بهذه التسمية . .

وقد اشتغل السيد إبراهيم السقاف بالصحافة وبصورة غريبة . فقد أصدر صحيفه يومية وثلاث مجلات أسبوعية ومجلتين شهريتين في وقت واحد ، ولأول مرة ظلت هذه الصحف تصدر لمدة تسعة شهور وخسر فيها جميماً نصف مليون جنيه !

وسألت بعض أبناء سنغافورة فقالوا : إن خسارته كانت أكبر من هذا بكثير وعنده اليوم مجلة شهرية تصدر بالإنجليزية اسمها العالم الإسلامي . وفي نيته أن يوقفها لأن رئيس تحريرها قد عينته الحكومة نائباً عاماً وليس عنده متسع من الوقت ليصدر مجلة شهرية في ٣٢ صحيفة .

وعلى مكتب السيد السقاف بعض الصحف العربية وهي تصل إلى هنا بعد صدورها في القاهرة وبغداد بيومين أو ثلاثة ..

وسألني السيد السقاف هل تعرف أحداً من عائلة السقاف .
قلت : الملحق الصحفي بسفارة أندونيسيا عندنا اسمه السقاف .
قال : لا أعرفه .

قلت : وأعرف أدبيات في مصر يحملن نفس الاسم .

قال : أنا لا أعرفهن .. يمكن ، طرف قرابة العائلة كبيرة ..

وضع يده في درج مكتبه وأعطاني بطاقة الشخصية . وبالبطاقة مليئة بالكتابة المطبوعة على الوجهين بالإنجليزية وهذا نصها :

داتوه السيد إبراهيم بن عمر السقاف رئيس المجلس الاستشاري الإسلامي بسنغافورة . رئيس جمعية الدعوة الإسلامية لبلاد الملايو . رئيس مجلس إدارة الكلية الإسلامية العليا في بلاد الملايو . قاضي الصلح . القنصل الفخرى للعراق في سنغافورة وأنحاء بلاد الملايو . رئيس منظمة زعماء الأديان بسنغافورة . رئيس تحرير ست صحف ومجلات أسبوعية شهرية .
وبعد ذلك عشرات الأرقام التليفونية .

وقرر السيد السقاف أن ينسحب من الحياة العامة لأنه تعب وأنه تجاوز الستين ويقال السبعين .

سألته : ما مشر وعاتك القادم ؟

قال : أبدا .. أسافر إلى القاهرة وأنقل ابني إلى سويسرا وربنا يساعدنا في
الفلوس ..

قلت : في الفلوس يعني ليه ؟ . إنت متتصور أنك حت Shimيل فلوسك كلها على
صلرك .

فضحوك وقال : إنت بتصدق كلام الناس . والله كل فلوسي لا تزيد
على بضعة ملايين ومعها بعض آهات .
.. آهانى أنا طبعا !

(٤)

اليوم نشرت الصحف خبرا هاما :

جمعت الحكومة في سنغافورة الباعة المتتجولين وبنت لهم أكشاكا على
الكورنيش . الأكشاك نظيفة جدا وتشرف عليها الحكومة . وضعت أمام
الأكشاك مئات المناضد والمقاعد ، وهذه الأكشاك تبيع المشروبات والمأكولات
الشعبية ومعظم هذه المأكولات يطبخونها أمامك .

وأعجب الأطعمة هي الصينية بلا شك ، والصينيون أناس في غاية النظافة
والنشاط . والمرأة الصينية جميلة ونشطة وحلوة ومحترفة كده ... وتحب المرأة الصينية
هنا في الشوارع وال محلات العامة بالبنطلون والحاكتة .. وهو زى يشبه اليجامات
بالضبط وكلها من الحرير . وتلبس القبقاب الخشبي الخفيف ومعظم الصينيات يعن
في هذه الأكشاك .

جلست أنتظر الجرسون فجاء ولم أفهم كلمة واحدة مما يقول . فعدد الذين
يتحدثون الإنجليزية في سنغافورة قليل جدا . وقررت أن أذهب إلى أحد الأكشاك
وأختر الطعام الذي يعجبني . وأشارت بيدي إلى بعض اللحوم فقال الرجل
بالإنجليزية : ساتو .. ساتو ..

والساتو اسم أكلة ملاوية وليس أكلة صينية . وهي عبارة عن لحوم
موضوعة في أسياخ من القش أو الخيزران الرفيع .. وهي مشوية في مادة حلوة ..

ومعها نوع من الأرز يسلقونه في سعف النخيل . وسعف النخيل محلول على هيئة حفظة صغيرة . ويضعون الأرز في البخار وهو في سعف النخيل ويتتحول الأرز إلى عجينة تماماً وعليك أن تغمس الأرز واللحم في شطة مصنوعة من الفول السوداني وجوز الهند والمانجو .

الأكلة لذيدة جداً ..

وكان معى الدكتور زكي بدوى الأستاذ بجامعة سنغافورة وهو من خريجي الأزهر ومن مواليد قرية النخاس بمديرية الشرقية وقد تعلم فى إنجلترا ، واشتغل بالتدريس فى الأزهر بعض الوقت وعاش هنا فى سنغافورة مع زوجته الإنجليزية وأولاده .

والدكتور زكي واسمه بالكامل محمد أبو الحير زكي بدوى تكلم الإنجليزية بطلاقة وبلهجة إنجليزية صحيحة ، ويتكلم العربية بلهجة شرقاوية فظيعة لم أسمع لها مثيلاً فى حياتي ، وتحتاجى على لسانه ألفاظ غير مألوفة ولا أدرى كيف احتفظ بها وهو يمر فوق الحيطات والجبال ولم يفكر فى أن يلتقطها إلى الأبد . والدكتور زكي هو العربي الوحيد فى جزيرة سنغافورة ويعرفه كل الناس وتلتجأ إليه الحكومة إذا ما وقعت فى مشكل بالنسبة لأى عربي .

وله مواقف صارخة أيام العداون على بور سعيد ، فكان يخطب فى الجامعة ضد الإنجليز مع لائهم أصحاب الخزيرة . وكان يكفى أيام العداون على بور سعيد أن يقول لساق التاكسي لائم اعدوا على بلادى . . . فيرفض السائق أن يتناقضى الأجر ويرفض صاحب المطعم ويرفض الطبيب أن يتناقضى الروشتة .

وكنا نركب فى سيارة الدكتور زكي عائدين إلى الفندق فقلت له : سنتي يا دكتور ؟

قال : سنانك بتوجهك ..

قلت : بتوجهنى .. ولازم لي واحد جواهر جى .

قال : إيه ده بتتجول إيه ؟

قلت : يا شيخ باضحك .. أنت ماشفتش فيلم عبد الوهاب وراقصة إبراهيم يقولوا الكلام ده فى الفيلم .

وأشار بيده إلى مستشفى أنيق جداً . وإلى مجموعة المرضات الحسناوات وقال : تعرف النوم هنا بكلام . بعشرة جنيهات . مجرد النوم . غير الأكل وغير العلاج وغير زيارات الطبيب المتكررة .. إيه رأيك ! ؟

قلت : اللو كاندة أرخص . محفظي يا دكتور .

قال : يلزمك واحد جواهري برضه ؟

قلت : يلزم لي الدكتور وزير الاقتصاد .

ملحوظة : اعتذر عن تساقط بعض الحروف وبعض الأفكار .. فأنا أكتب بقلم بازكر جديداً ولا أعرف كيف أحركه على الورقة .. فهو يشبه الحذاء الجديد ضيق وجاف وأفكاري تتغير به .. أما لماذا اشتريت هذا القلم . فلأنه أرخص من الأقلام الرصاص .

(٥)

وقفت في ميدان رافلس بسنغافورة أمام محل روبنسون الذي يشبه شيكوريل في القاهرة مع فارق قيمته عشرة ملايين من الجنيهات . . يشبه من ناحية البناء فقط ومن ناحية موقعه في شارع رئيسي . وكلما مررت سيارة أشار صديقى الصيني قائلاً : هذا مليونير صيني .. وهذا مليونير . وهذا عنده على الأقل مائة مليون جنيه . وهذه زوجة أحد أصحاب الملايين . وأنخوها مليونير أيضاً ..

ولو كان هذا الصيني من عامة الناس لقلت إنه ساذج . أو فشار أو مت指控 لأبناء جنسه . ولكن هذا الصيني طيب وتعلم في إنجلترا ويتكلم الفرنسية والألمانية واليابانية ويتعلم العربية الآن . لأنه يريد أن يزور القاهرة وبيروت لمدة شهر واحد . وكان قد قابل فتاة مصرية في روما من عائلة الدراويش أو دراويش أو أبو درش لا أعرف . ويقول : إنه وعدها بالزواج سنة ١٩٥٥ ولا يزال حريصاً على وعده ويطلب مني أن أعلن ذلك وأن أذكرها بالحب القديم .

وقرر صديق الطبيب الصيني أن يجتمعن بأحد أصحاب الملايين على سبيل الفرجة . فأنا لم أر في حياتي مليونيراً واحداً سوى كروب صاحب مصانع الصلب

في ألمانيا ، وسوى « على خان » وبعض أصحاب الملايين العرب ..
وذهبنا معا إلى بيت المليونير المعروف جدا في الملايو وسنغافورة واسمه
« تك تشا » . ييدو هذا الاسم لا معنى له وييدو كأنه من اختراعي ولكن ذكر
هذا الاسم في منطقة يشبه الكوكتيل من أسماء روكييل وروتشيلد وعشرة
بنوك أخرى !

الشاب الذي قابلته في السابعة والثلاثين رقيق لطيف مهذب جداً وصوته
جميل عندما يتحدث الإنجليزية المكسرة ، وزوجته فاتنة أول مارأيتها قلت :
ما عندكيش أخذ ، يا مدام ؟
قالت : ماليش أخت .

قلت : فعلاً مش ممكن يكون لك أخت .

لا لأنها حلوة فقط ، ولكن لأن « المدام » أبوها مليونير وتقدر ثروته بحوالي
٢٠٠ مليون جنيه موزعة في بنوك هونج كونج وسنغافورة . ولا داعي لأن أصف
كيف كان هذا القصر الذي تعيش فيه ، وكيف أنه في قمة جبل وأن أمامه
عشرات من السيارات المرسيدس والكاديلاك والرولررويس ولكن أروع .
ما فيه هو الذوق الصيني الساحر . ولا يمكن وصفه لامن قريب ولا من بعيد ..
هل أصف الأبواب أو النوافذ أو المفارش أو فناجين الشاي . لو كان
عندى فنجان واحد وطبق من هذا النوع لأقتله معرضًا في طريق المهرم وأجعل
الدخول بعشرين قرشا !

أما كيف أصبح هو مليونير؟ فالمسألة بسيطة جدا . لقد ورث هذه الملايين
عن والده !

ثم فتح شركة بدأت مساهمة ثم انفرد بها ورأس مالها الآن حوالي سبعة
ملايين جنيه . وسيفتح بنكا في القريب العاجل بسنغافورة أو في هونج
كونج . أما أمواله فودعة كلها في لندن ..

أما كيف جاءت هذه الثروة إلى والده فهو الآخر ورثها عن والده وهو الرجل
الذي دخل هذه البلاد وليس معه مليم واحد .

جده رحمة الله عليه .. رجل قصير القامة .. صورته أمامي على الحائط .

يجلس على دكة ، رجل ذكي ، ولاشك ، جاء إلى هذه البلاد على ظهر مركب شراعي صغير وكان ذلك منذ ٧٠ عاما .. جاء هذا الرجل أو لا بمفرده ، ترك زوجته وأولاده في الصين .. ومكث هنا وحده عشرة أعوام ثم استدعي زوجته وأقاموا جميعاً في سنغافورة . وفوجئ الأولاد بأن أبيهم قد افتح دكاناً صغيراً وأنه ينام في هذا الدكان ليلاً ونهاراً . وفوجئ الأولاد بأن والدهم قد اشتري بيته صغيراً وجعل للبيت حديقة ، وأنه هو الذي يحرث الحديقة . وأن لديه عشرة من العمال كلهم من الشبان الصغار واشترط عليهم ألا يتزوجوا قبل مضي مدة معينة ، وأن كل من سيتزوج سيخفض مرتبه . . لاحظوا أن هذا الرجل يعمل ليلاً ونهاراً وأن نصف العمال يعملون ليلاً ، والنصف الآخر يعمم نهاراً . وأنه لا ينام إلا ساعة واحدة في اليوم فقد أصيب بأرق دائم . .

أما الذي يبيعه هذا الرجل فهو نوع من الزيت اسمه «زيت الفر» . . هذا الزيت يشقى من الروماتيزم وأوجاع المفاصل والظهر . وكان هذا الرجل يقوم بتوزيع هذا الزيت مجاناً على الفقراء الصينيين . وكان يتطلب من كل صيني أن يتحدث ولو دقيقة واحدة لأحد أقاربه عن مفعول هذا الزيت . وبما كان هذا الرجل هو أول تاجر في العالم كله . استخدم رجال الدين في الدعاية لزيت الفر . فقد أصيب أحد الرهبان بالآلام حادة في أصابع قدميه وعالجه بهذا المロهم ، وعندما حاول الراهب أن يدفع الثمن أخبره الرجل العجوز بأن الثمن هو كلمة واحدة عن الدواء الذي يعطيه للناس مجاناً . كلمة واحدة قبل الصلاة أو بعدها . .

وفي اليوم التالي اختفى هذا العجوز ، وظن الصينيون الطيبون أن هذا الرجل ليس إنساناً فراحوا يبحثون عنه فلم يجدوه . وبعد ثلاثة أيام ظهر الرجل في دكانه ، جلس حزيناً ، وكلما سأله الناس عن السبب قال إنه مضطر أن يبيع الزيت بالفلوس بعد أن عاشر ربه على أن يعطيه للناس مجاناً ، غير أنه رأى في المنام أن الآلة يصررون على بيعه بالفلوس من أجل العمال الذين يعملون عنده . ومن أجل طفل في بطن سيدة تزوجت سراً من أحد العمال .

وأقبل الناس على الزيت يشربونه .

أما الزيت فلا يعرف أحد من أى شيء استخلصه هذا الرجل . وشركة النمر تنتج الآن الكثير جداً من الأدوية والأطعمة وعشرات المواد الغذائية وأدوات الزينة . كلها من صنع شركة النمر التي أسسها هذا الرجل الذي قدرت ثروته بعد موته بأكثر من ٢٥٠ مليوناً من الجنيهات !

هل تعرف أن هذا الرجل لم يركب سيارة قط ولا عربة ولا حصاناً .. هل تعرف أنه اشتري ثلاثة أحذية في كل حياته .. هل تعرف أنه لا يعرف القراءة .. هل تعرف أنه لم يعرض قط ، هل تعرف أنه كان يحتفظ بأسنانه كاملة وبنظره سليمان ، وأنه مات غريقاً في الثانين من عمره .

إن أصحاب الملايين في سنغافورة وفي الملايو وفي أندونيسيا كلهم من أبناء الصين ..

والحكومة الموجودة الآن يرأسها رجل صيني هو زعيم حزب العمال الشعبي ، والحكومة السابقة كان يرأسها يهودي صيني اسمه «مشعل» غير اسمه وجعله مارشال .

وفي سنة ١٩٥٩ أقفلت أسرة «النمر» هذه صحيفتها الكبرى وفاجأت المحررين بقرار الإيقاف . وآخر عدد صدر لها هاجمت فيه عبد الناصر وقالت : إن تهديده لإسرائيل حقيقي وليس على سبيل «التهويش» أو المناورة السياسية وأن الدول الكبرى يجب أن تضرب رأسها في الحائط لأنها فشلت في معركة بور سعيد !

لقد أقفلوا هذه الصحيفة وافتتحوا صحيفة أخرى في الملايو ..

أما الرجل العجوز قبل أن يموت تبرع بربع بعشرين مليوناً من الجنيهات لفقراء الصين المقيمين في سنغافورة .. وأنفق أربعين مليون جنيه آخر على إنشاء حدائق النمر الموجودة هنا في سنغافورة . وهي من أروع الأعمال الفنية التي يمكن أن يصفها إنسان .. فكلها من التمايل الملونة البارزة وبالحجم الطبيعي .. والدخول عام بالجانب .. وهي تصوّر حياة الصين كلها قديماً وحديثاً . والعادات والتقاليد والرذائل والفضائل والحرافات في الأدب والتاريخ وصور التعذيب التي كان يلجأ إليها الأباطرة . إنها رائعة مثيرة مخيبة مذهلة إنها تزيل الأوجاع والآلام وتزيل

الزمن الذى يشبه العرق فى حياتنا . إنها أكثر إسحرا من زيت النمر .
إن هذا الشاب الذىرأيته ليس مليونيراً ، وإنما هو ملايينير !

(٦)

اليوم فقط أول أيام الشباب هنا في سنغافورة . رئيس الوزراء الصيني دعا الشباب إلى مساعدة الدولة في قطع الأشجار وإحراق الأعشاب وتمهيد التربة لإنشاء حدائق وملعب للشباب . تطوع اليوم للعمل أكثر من عشرين ألف شاب . تقدمهم رئيس الوزراء بالقميص والبنطلون وبدأ يعمل . لم ي عمل دقيقة ولا خمس دقائق وإنما عمل خمس ساعات متواصلة . رفض أن يأكل الطعام الذي قدمته زوجته الحامية . وإنما جلس على الأرض إلى جوار العمال المتطوعين وفوجئ العمال برئيس الوزراء يجيء مرة أخرى بعد الظهر ويستأنف عمله بنفس القميص والبنطلون ومعه ثلاثة من خدمه وسائق سيارته .

وأعلن رئيس الوزراء هنا أنه لن يمضى أكثر من شهر واحد حتى تكون هذه المساحة من الأرض قد تحولت إلى قطعة من الجنة .

لقد مررت على هذه الأرض عند منتصف الليل . إن الشبان يعملون تحت الأضواء القوية . سألت إن كانوا هم نفس الشبان الذين عملوا بالنهار ؟ قالوا إنهم دفعة أخرى . عددهم لا يقل عن شبان النهار . فسألت إن كان رئيس الوزراء قد حضر فقالوا : لقد حضر فعلا . ولكن الشبان منعوه طلبوا إليه أن ينام ليعاود العمل في الصباح .

نشرت الصحف عن العمال المتطوعين وعن روحهم المعنوية وعن السعادة التي عملوا بها . وكيف أنهم كانوا منظمين . وقالت صحيفة «التايمز» في افتتاحيتها : إن هذه الأرض لكم لأن المستقبل لكم أما نحن فذاهبون . إننا المعدية التي نقلتكم من شاطئ الماضي إلى شاطئ الحاضر . فانزلوا إلى الأرض التي هي لكم لا تنتظروا

أجرا أو ثواباً أو حتى شكرنا . بل نحن الذين ننتظر هذا منكم لقد أودعنا باسمكم
ثروة في بنوك الغد !

(٧)

تعطل المرور واتجهت السيارات إلى الشوارع الضيقة . والمرور في الهند وسylan
وستغافورة على الشمال دائماً ، وعجلة القيادة على اليدين في السيارة - تقاليد إنجليزية
ونزلت من السيارة لأنها لأنثى عن مصدر الطبلول والموسيقى ورأيت طلائع الفرح ..
والورود والبخور والموسيقى النحاسية يضربيها بصورة صارخة .. وهناك شبان
في ملابسهم الزرقاء ووضعوا على رءوسهم قبعات حمراء . وعربة صغيرة توزع
عليهم المظلات والمراوح .. وبعدم تجئ عربات نقل ضخمة عليها أعلام
ولا فنادق باللغة الصينية وفيها أحجزة تسجيل تذيع موسيقى صينية حالية . ثم فرقه
موسيقية أخرى لها لون خاص و لها لحن خاص . وعربات نقل كبيرة عليها لافتات
ورود وأعلام .. والناس فيها يضحكون ويتنافتون إلى المترجين وكل واحد منهم
في فمه سيجارة .. وعربات غريبة الشكل .. وفرقة موسيقية . ثم طابور طويل
مزدوج من الناس قد أمسكوا جبلاً وراحوا يجذبونه إلى الأمام .. والحبيل مربوط
عربة نقلت عليها الزينات . ولكن العربة تتحرك من تلقاء نفسها وليس في
حاجة إلى حبل ولا ناس يشدونها وعليها زينات وفيها بعض الناس قد جلسوا وحولهم
الورود . ولابد أن يكونوا والدى العروسين ثم فرقه موسيقية أخرى .. وعربة
نقل ضخمة وضعت فيها المداديا وكلها من الأفقيّة الصوفية الإنجليزية الفاخرة ..
وكل قطعة قاش ، اسم الرجل الذي أهدىها إلى العروسين .

ثم عربة أنيقة جداً . ويبليو أنها خرجت من الباخرة أمس على الأكثر
إن لم تكن الآن وعليها صورة أنيقة . إنها صورة العريس نفسه ، أما صورة العروس
فلم تظهر ويبليو أن التقاليد لا تسمح هنا بنشر صورة العروس ..

والآن أرى بوضوح العروسين أو أهل العروسين .. فقد ارتدوا جميعاً ملابس
بيضاء ناصعة وتعلقوا بإحدى العربات الغربية الشكل .. ويظهر إنهم ي يكونون على
فارق العروسين .. تماماً كما يحدث في الريف عندنا .. ولا بد أن هؤلاء السيدات
من أهل العروسين .. أخت العروس وأمها وأخت العريس وأمه .. والدموع على
خلودهن جميعاً .. ووراءهن عشرات من النساء والرجال ومعهم المباخر والورود
والمسيقى التي تضرب النحاس بعضه بعض بعنف والناس قد اصطفوا على الجانبين
وسألت فتاة صينية واقفة إلى جواري ولا بد أنها رأت دهشة باهتمام غريب :
أمال فين العروسين يا مدموزيل .

وضحكت .. وضحكـت .. هذه جنازة .. ميت .

قلت : أمال فين الميت ؟ هو العريس هنا بيقولوا عليه ميت ؟ ميت في العروسة
ولا هو الرجل الذي مات حريته .. بيـقـ مـيـتـ عـنـدـكـمـ ؟
والله حلوة الفكرـةـ دـىـ .. الحرية معناها الحياة والجواز معناه الموت : حلوة
قوـىـ ! أمال فين المـيـتـ ؟

قالـتـ : هذا الذي رأـيـتـ صـورـتـهـ .. وجـمـانـهـ فـيـ العـرـبةـ الـتـيـ يـجـلـسـ فـيـهاـ إـخـوـتـهـ
وـأـلـادـهـ .. وـهـوـ المـيـتـ .. مـيـتـ حـقـيقـ !

وهـذـهـ بـالـفـعـلـ جـنـازـةـ .. وـالـدـمـوعـ عـلـىـ فـرـاقـ المـيـتـ !

وـعـرـفـتـ بـعـدـ ذـلـكـ أـنـ كـلـ هـذـهـ الزـهـورـ وـكـلـ هـذـهـ الـهـداـيـاـ سـيـحرـقـونـهاـ عـلـىـ قـبـرـ
الـفـقـيدـ .. وـأـىـ هـذـهـ الـهـداـيـاـ سـتـصـعـدـ مـعـ الدـخـانـ إـلـىـ السـمـاءـ .. حـيـثـ صـعـدـتـ
رـوـحـ الـفـقـيدـ : أـمـاـ هـذـهـ الطـبـولـ الـعـادـيـةـ فـهـيـ لـطـرـدـ الشـيـاطـيـنـ : إـنـهـ تـنـظـفـ الـطـرـيـقـ
أـمـامـ رـوـحـ المـيـتـ حـتـىـ يـصـعـدـ إـلـىـ السـمـاءـ بـسـلامـ .. وـالـمـوـسـيـقـ فـعـلـاـ مـزـعـجـةـ يـهـربـ مـنـهاـ
الـغـرـيـتـ !

إـنـهـ جـنـازـةـ مـيـتـ .. مـيـتـ بـحـقـ وـحـقـيقـ !

(٨)

اليـومـ أـحـسـسـتـ فـعـلـاـ أـذـنـ لـهـ طـبـلـةـ .. إـنـ جـلـدـهـ يـشـبـهـ جـلـدـ الطـبـولـ ..
غـلـيـظـ لـاـ يـحـسـ بـالـأـصـوـاتـ الرـقـيقـةـ .. إـنـىـ لـاـ أـنـصـورـ مـاـ حـدـثـ لـىـ .. إـنـىـ لـمـ

أعد أستمع إلى أى موسيقى ولا أية أغان مع أنى - ولا فخر - أحفظ كل أغانى عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم . . وبلغت بى الجرأة أنى غنيت لعبد الوهاب !
أمام عبد الوهاب !

وسمعت أن جلود الطبول مصنوعة من جلود حيوانات لا داعى لذكر اسمها حتى لا يرتبط كلامى في ذهنك بصورة هذه الحيوانات .

لا أعرف ماذا حدث .. إننى أتهم نفسي بأن وزنى زاد .. يعنى أنى تخنت ..
والميزان يكذبى ولكن شعورى يقول : لا .
واليوم أحسست أن التخن كله فى أذنى .

كنت فيها مضى أسمع أفكار الفل .. كنت أسمع المفتاح وهو يتغثر في الشقة التي في الدور الأول في بيتنا وأنا أسكن في الدور الخامس . . وكنت أسمع الراديو في أى مكان بعيد ، وأعرف ماذا يقول ، وكنت أدخل في مراهقات على قوة سمعى . . وكانت الموسيقى تحرك أذنى .. تحركها كما تتحرك أذن « ميكى ماوس » في أفلام والت ديزنى .. كأن أذنى تخرج بعيداً وتلتقط الأنغام وتعود وتصبها في رأسى .. كانت الموسيقى كالمشط « يسرح » شعورى . وكانت شعورى « مسببة » لا تحتاج إلى مجهد موسيقى أما الآن فشعورى « مجده » يتغثر فيه المشط وبكاد ينكسر .

معقول أن هذه الموسيقى التي تنبعت من الميكروfon إلى جوار سريرى لا تهزنى لا تشيلنى وتهيلنى في الأرض وترمى داخل الدوّلاب فأرتدى ملابسى وأصعد إلى سطح الفندق .. إلى حيث تجئ هذه الموسيقى ؟ أبداً وحياته ولا حاجة ولا كأننى أسمع شيئاً ، ولا حتى عندي أية رغبة في النوم من فراشى .. إنه برود ..
جمود .. موت !

هذه الكلمات الأخيرة قلتها لنفسي بصوت عال .. فأنا عندما أتحدث إلى نفسي أرفع الكلفة وأشتم وأقول ألفاظاً لا يصح نشرها . ولم تعجبني لمجتى مع نفسي . لم تعجبني الصورة التي أرى بها نفسي الآن .. كأننى أنظر إلى نفسي في مرآة مكسورة .. مرآة مصغرة .. في مرآة تجعل وجهي متوجهاً كأننى

أنظر من فوق سور حديقة .. أو كأنى أتفادى صفة على خدى الأيمن أو الأيسر .

ومشكلتى قفزت فجأة أمامى ..

فلم يكن ذلك برودا ولا جمودا ولا موتا وإنما هى مأساة يجب أن أعيشها يومين على الأقل .

لقد طار عقلى عندما دخلت غرفى ولم أجد ملابسى .. إنها ليست بالشىء الذى له قيمة ، ولكن لا أستطيع أنأشترى غيرها الآن .. فليس فى جيبى مليم واحد ، وإنما بكل فلوسى محولة على بنوك ، بينى وبينها عشرات الساعات بالطائرة ، وأمسكت التليفون وصرخت أقول : إنت فين ياما ماما .. ماما تونجو . وجاء صوت « ماما تونجو » هامسا عجوزا يتغير على أسلاك التليفون كأنه صرصار أعرج .

وبعد دقائق جاءت مديرية الفندق .

وقلت لها : أين ملابسى ؟

قالت وصوتها يخرج بالإنجليزية الصينية المكسرة : ملابسك «؟ لا أعرف .. سؤال الخادمة .

وأمسكت التليفون وسمعت كلاما صينيا لا أعرفه .. وأنزلت السماعة . وقالت : بعد لحظات سترى .

وبعد لحظات جاءت الخادمة .

وعرفت الحقيقة : لقد حملت كل ملابسى .. البدلة الوحيدة والبنطلونات والحاكمات حتى الكرافات والمنديل والقمصان .. كل ما عندي .. لم ترك إلا البيجاما التي أرتديها ..

أما كيف حدث ذلك فهو أننى خرجت أزور أحد أصدقائى في الفندق في الصباح الباكر . وتناولت الفطور عنده . وقرأت الصحف وسمينا نشرات الأخبار ، ويظهر أننى فتحت حقائبى أفتدى عن شئ وأخرجت الملابس كلها وتركتها فوق السرير . ولم أفك أبدا أن أعيدها إلى الحقيقة .. ويعلم الله أن الملابس

كلها مكوية ومسوولة في نيوادهى قبل سفرى ، ولكن الخادمة لم تخيل أبدا أنها مسؤولة أو مكوية - وعل كل حال هذه شهادة ضد الغسالين والمكوجية في المند ثم أخذت كل هذه الملابس .

ونظرت إلى الخادمة فأحنت رأسها وكأنها ترکع وتقول لي : إن شاء الله بعد غد ..

وصرخت فيها : بعد إيه ؟ يا نهار أسود .. دنا حاجز في الطيارة بكرة .

- ولكن بكرة أجازة .

- إذن آخذهم من غير غسيل .

- ولكن الملابس في بيت الغسالة الآن .

- أروح لها البيت ..

- إنها عادة تتفسح يوم الأجازة ولا توجد في البلد .

- تتفسح فين ؟

- في جزيرة بعيدة ..

- الغسالة بتتفسح وعندها فلوس منين ؟

- من حضرتك ..

- حضرتني ؟ ليه ؟ هيه حتاخد مني قد أيه ؟ .

- كم قطعة ملابسك ؟

- والله ما أنا عارف ..

واستأذنت ماما تونجو وخرجت ..

وسبحت الغطاء وابتلت بعض الحبوب لكي استعجل النوم وأحلم بأن ملابسى المسؤولة قد نشرتها إحدى المصيفات على جناحى الطائرة .. وبين الحين والحين أتخيل المصيفة وهى تفتح باب الطائرة وتقلب الملابس !

(٩)

لو كنت أعرف كيف أشتري أى شئ في الدنيا ؟ ! .

لو كنت أعرف كيف أدخل أى محل وأمد يدى إلى الأقشة والقمصان

والكريافتات والزجاجات العطرية والراديوهات الصغيرة وأدوات الحلاقة والزينة ثم
أقلب فيها وأنظر إلى ماركتها بأعصاب من حديد وأقول للبائع :

— قل لي من فضلك . أنت أسعاركم غالبة كده ليه ؟

— غالبة .. إنت أول واحد قال الحكاية دي .. دعني أفكـر .. قال
الحكـاية دي مين من مائة سنة !

— أنت غلطان يا حضرة .. هنـاك واحد قال كـده قبل منـي .. عـارف مـين ؟
الـرجل اللي اشتـرى جـزيرـة سـنـغاـفـورـة .. عـارـف اسمـه ؟ اسمـه رـافـلس ..
الـراـجـلـهـ دـهـ اـشـتـرىـ الجـزـيرـةـ دـىـ بـخـمـسـةـ آـلـافـ جـنـيـهـ وـلـكـنـ بـعـدـ فـصـالـ يـبـيـهـ وـبـيـنـ
الـمـلـكـ اـسـتـغـرـقـ عـدـةـ شـهـورـ .. يـعـنـىـ كـانـ شـايـفـ ثـمـنـهاـ غالـيـ قـوـيـ .. مشـ مـهمـ
برـضـهـ أسـعـارـكـمـ غالـيـهـ .

— ليه غالـيـهـ ؟

— أولا زجاجة البارفـانـ دـىـ ثـمـنـهاـ كـامـ ؟

— زجاجة مـاجـرـيفـ .. أـكـبـرـ مـقـاسـ ثـمـنـهاـ أـرـبـعـةـ جـنـيـهـاتـ وـنـصـ تـبـقـ
غالـيـهـ ؟

— طـبعـاـ غالـيـهـ .. لـقـدـ رـأـيـتـهاـ فـعـدـنـ بـثـلـاثـةـ جـنـيـهـاتـ فـقـطـ .

— معـكـ حـتـ .. وـمـعـ ذـلـكـ فـنـحـنـ أـرـخـصـ مـنـ أـىـ بـلـدـ ثـانـيـةـ فـالـدـنـيـاـ .

— طـبـ وـرـيـنـيـ دـىـ بـكـامـ دـىـ ؟

— عـلـبـةـ بـوـدـرـةـ مـنـ الـذـهـبـ .. مـطـعـمـةـ بـالـذـهـبـ .. مشـ غالـيـهـ .. بـسـتـةـ
جـنـيـهـاتـ .

— وـرـيـنـيـ دـهـ مـنـ فـضـلـكـ ؟

— شـتوـىـ .. بـلـوـفـرـ أـوـرـلـونـ رـجـالـىـ .. يـساـوىـ كـامـ فـعـدـنـ ؟

— أـظـنـ يـساـوىـ جـنـيـهـينـ .. صـوـفـ إـنـجـلـيـزـىـ .. أـقـصـدـ صـوـفـ اـسـتـرـالـىـ ..

ورـيـنـيـ دـهـ وـالـهـ .. بـكـامـ دـهـ ؟

— بـلـوـفـرـ أـوـرـلـونـ حـرـيـمـىـ .. بـجـنـيـهـينـ بـرـضـهـ خـدـ بالـكـ فـيـهـ حـرـيرـ أـيـضاـ .. وـمـكـنـ
نـديـهـ لـكـ أـرـخـصـ .

— لا .. مشـ عـاـوزـ .. وـرـيـنـيـ الجـزـمـ الإـنـجـلـيـزـىـ كـدـهـ ؟

— أتفصل أقعد هنا .. مقاسك ؟

— بكم يا حضرة .. لابد أنها أغلى هنا .

— أربعة جنيهات .. جزمة إنجليزى .. يدوب العمر وهية ما تدوبش .

— متشكر .. سلام عليكم . (قلتها بعنطرة شديدة أقرب ما تكون إلى قلة الذوق أو قلة الأدب) !

— عليكم السلام ..

أتفنى أن يدور هذا الكلام بيني وبين أى بيع .. أملى أن تكون عندي شجاعة المرأة عندما تدخل أى محل .. وتشوف ده وده وتقلب في كل حاجة . البدل والبنطلونات ولعب الأطفال والحلل والأكواب .. ساعة .. وف

آخر النهار تشتري إبرة لوابور الحاز !

نفسى أدخل أى محل وحدى وأشتري أى شيء ..

وهذه هي المرة الثالثة التي أسافر فيها إلى سنغافورة في خلال شهرین .. في أول مرة توافت فيها عشرة أيام .. واشتريت ملابس داخلية .. وجدت عدداً من الناس يشرون فحشرت نفسى وسطهم .. وعندما فقدت شجاعتي أمام البائعات والبائعين قررت أن أنسحب ؛ وضبطني باائع خضار سألنى ماذا تريد ؟
قلت : ملابس داخلية ..

وأنسل المترو وجعل يقيس طولى ، وعرضى ويكتب في ورقة .. وبعد لحظات عاد لي بلفة كبيرة ومددت يدي وأخذتها ودفعت الثمن .. ولم أعرف عددها ولا إن كانت تصلح لي أو لا تصلح .. إن محلات الحضروات تتبع الملابس الداخلية أيضاً !

واليوم أحلم بأن أذهب إلى هذا محل وأستدعى هذا البائع الغشاش وأحاسبه على الإساءة إلى سمعة أكبر محل في سنغافورة .. الإساءة إلى محل « جين ليتل » الذي يوجد به من البضائع ما يمكن لكسوة سكان مدينة كبيرة كالقاهرة وأفاريزهم في الريف ..

وتحميت أن يدور بيني وبينه هذا الكلام :

— إزاي ياراجل إنت بتبيع لي ملابس داخلية تتمزق من غسلة أو غسلتين

هذا غش .. هذا ضحك على الأجانب .. أنت إذا كسبت مني جنيهاً فلن يزيد في ثروة المليونير صاحب الخل .. ولكنه يسمى إلى سمعته .. وسمعة سنغافورة كلها .. أهذا يرضيك ؟

ويقول الرجل : يا أستاذ أنا لم أسمى إلى أحد .. ولكن كل قطعة اشتريتها حضرتك مكتوب معها على ورق أنيق كيف يجب غسل هذه الملابس .. حضرتك قرأتها ؟ ..

ـ الحقيقة لا .

ـ الغسالة قرأت هذا الكلام ؟

ـ لا . طيب يا أخي مش لازم تنبهوا الزبائن إلى هذه التعليمات ؟

ـ عنديما يكون الزبائن لا يعرفون اللغة الإنجليزية ..

ـ افرض يا أخي .

ـ يبقى ناقص نعلمه كيف يرتدى هذه الملابس .

ـ حضرتك بتهزز معابيا ..

ـ العفو يا أفندي .. حتى طريقة ارتداء الملابس مكتوبة في التعليمات ، ومع ذلك إذا كان فيها عيوب يمكن إصلاحها فنحن على استعداد لإصلاحها .

ـ مش المهم ده .. المهم سمعة الخل وسمعة البلد ..

ـ نحن نشكرك على غيرتك على بلادنا ..

وأحسست بكسوف وأنا أدير هذه المناقشة في رأسى .. وبعد أن ذابت كل ملابسى اكتشفت أن لها طريقة خاصة في الغسيل .. وأن هذا الرجل لو تحايل على لكي أرد إليه هذه الملابس فلاني لن أستطيع .. فقد أصبحت تشبه «شيش» الشابيك .. كلها فتحات طويلة وعرضية ..

ولكن كيف أدخل أي محل وأشتري أية حاجة .. نفسى أشتري .. نفسى أعرف .. أفضل في وسط الناس وأقول : هات .. خذ .. هات .. إليه القرف ده .. هات ..

يارب لقد أعطيتى الشجاعة فارتديت ملابس مزرقة ، فأعطي الشجاعة لكي أشتري ملابس جديدة !

أشياء غريبة !!

فـ سنغافورة أحياء صينية كاملة وفيها ما يشبه حـى السيدة زينب تماماً ..
خصوصاً ميدان السيدة .. به عربات عليها كلوبات وأمامها مقاعد يرى فيها الناس
الأطعمة على النار وينتارون منها ما يعجبهم . وقد يذوق الواحد منهم الطعام فلا
يعجبه فيلقـ بـهـ فـيـ الأـرـضـ وـلـاـ يـدـفـعـ مـلـيـاـ وـاحـدـاـ ..

* * *

من الممكن أن تطلب من باائع الصحف نسخة من آية جريدة وتظل تقرأ
فيها عشر دقائق ثم تردها إليه لأنها لم تعجبك .

* * *

لا توجد طريقة لنداء الحرson في أي مطعم وإنما يجب أن تنتظر حتى
يقرب منك وينظر إليك فتنظر أنت إليه .

* * *

مدينة الملاهي هنا أروع ما فيها المحلات التجارية ، إنهم يبيعون فيها كل
شيء .. أجهزة الراديو الترانزستور الصغيرة جداً والكبيرة جداً .. ويباعون الحرير
والأصواف والعطور التي جامت من باريس اليوم أو أمس على الأكثر ،
والاسطوانات من كل بلد ومن كل حجم ويتحايلون عليك ويطاردونك ..

* * *

لاحظت أن الصينيين ليسوا صفراء دائماً بل هناك صينيون يبغـونـ بيـضـ اللـونـ
جـداـ .. رأـيـتـ صـينـيـاتـ شـقـراـواتـ .. ولا يـعـيـزـ هـنـاـنـ عنـ الـأـوـرـوـبـيـاتـ إـلـاـ عـيـونـهنـ
وـشـعـرـهنـ الأـسـودـ النـاعـمـ ..

* * *

فـ سنغافورة تستطيع الفتاة أن تلبـسـ الملـبـسـ الـأـوـرـوـبـيـةـ وأنـ تـلـبـسـ الـبـيـجامـاـ
الـحرـيرـيةـ وأنـ تـلـبـسـ القـبـقـابـ .. القـبـقـابـ الصـينـيـ جميلـ .. وأنـ تـلـبـسـ الـفـسـتـانـ
الـمشـقـقـ شـقـاـ طـولـيـاـ كـأنـهـ آـهـةـ طـوـيـلـةـ جداـ .. والـشـقـ يـبـدـأـ منـ ذـيلـ الـفـسـتـانـ عـلـىـ
الـحـانـبـ أوـ عـلـىـ الـظـهـرـ أوـ مـنـ الـأـمـامـ .. يـاـ أـخـيـ وـلـاـ أـحـدـ يـنـظـرـ ؟

* * *

تسمع وأنت جالس في الفندق طبولاً ودقّاً غريباً طول النهار .. وتنظر من النافذة فتجد رجلاً يدفع أمامه عربة .. أو رجلاً يركب دراجة .. هذه هي المندادة هنا .. فهم لا ينادون على السلم وإنما يدقون لها الأجراس والطبول .. وكل سلعة لها جرس خاص .. وأحياناً تجد البائع وبعده بخمسين متراً ترى طفلاً يضرب قطعتين من الخشب الواحدة بالأخرى .. كأن لسانه ولسان أبيه قد نشفا فراح يدقهما معًا !

* * *

هل رأيت في حياتك - قبل عنق خروشوف وأيزنهاور - الدولار الأمريكي مع الروبل الروسي والاسترليني والروبية الهندية والسيلانية والأندونيسية والكب اللاوسي والخنيه المصري . كل هؤلاء معًا على منضدة واحدة ؟ ! هذا من المناظر المألوفة هنا في مطار سنغافورة ، فهناك تجد رجلاً حانياً يغير لك كل أنواع العملات وبسهولة جداً .

* * *

البوليس هنا يرى الناس يملأون جيوبهم بكل أنواع العملات المهربة من كل بلد في الدنيا .. ولا يفتح فه بكلمة واحدة .. فسنغافورة مدينة للتهريب .

* * *

وفي استطاعتك أن تأخذ التاكسي من المطار إلى أي بنك وتضع فيه كل أموالك وتحولها إلى أي بلد في العالم في عشر دقائق .. اغمس عينيك لأى رجل صيني والباقي يتولاه هو بعناية وعناية أجمل بنات الصين .

لقد ظنت أن كل هؤلاء الناس الذين يمشون بالألف ورائى بسبب « الغمز » المتواصل من عيني .. فقد أصبت عيناي بالتهاب جعلهما يندرجان اللمنع طول النهار ..

وبعد ذلك اكتشفت أنهم في طريقهم إلى حفلة في الفندق الذي أنزل فيه !



● لامكان لـ؟!

ووجدت نفسي فجأة على طائرة صغيرة تابعة لشركة خطوط الملايو .. وابتسمت المصيفة - وقالت : مع السلامة .

والحقيقة أني لم أجد نفسي فجأة ، وإنما عندما دخلت الطائرة أحسست أنني انزلت تماماً عن الجزيرة الخلوة والمدينة الخلوة والأشياء التي تتلاؤ كعيون أبناء الصين وكأسنانهم وكالزراير في فساتين بنات الصين ..

وكان الكرسى الذى أجلس فيه ضيقاً .. كأنه فستان محزق . أو كأنه كرسى صيني .. أو كأنه دعوة عملية لأن أخس ولو قليلاً ..

في هذا الجو الحترق وجدت نفسي ..

ونحركت الطائرة واختفت الابتسamas ووجدت عيني في قفا الذى أمى .. القفا نظيف والحلاقة عالية جداً .. فشعر الرأس يبدأ على ارتفاع شبر من ياقه القميص . وقبل أن أعن ميوعة الشباب في هذه المنطقة . وجدت أن القفا الذى أمى هو رجل عجوز مع أن كل شعره أسود وأسنانه بيضاء .. عجيبة !

وفي مطار جاكرتا وجدت الماناظر التقليدية التى لاتعجب ولا تسر .. وجدت أعمال التفتيش على أشدتها . لقد رأيت سائحاً أمريكياً نزعوا ملابسه من الحقائب .. وزعوا قبصه من البنطلون . وتوقعت أن توارى السيدات وجهوهن بعد أن يتولى رجال الجمارك نزع بنطلون الرجل . لو لا أن الأمريكي مال على الرجل وهس في أذنه بشئ ضحك له الأمريكي فقط . وتشكلت فيه الرجل الأندونيسى .

لقد كان الأميركي يرتدي القميص والبنطلون على الحلم !
ولا أعرف سر اختفاء الأميركي بعد ذلك ، هل سمحوا له بالخروج ؟ أم
أنهم يتولون تفتيشه بصورة « أعمق » في إحدى الغرف الملحقة بالمطار ..
شيء فظيع !

ووجدت نفسي في أندونيسيا .. أى على عتبة ثلاثة آلاف جزيرة . الجزيرة
التي وضعت فيها قدمي اسمها جزيرة جاوة . وجاكرتا هي عاصمة كل أندونيسيا .
وهذه الجزيرة بها سبعون مليوناً من المسلمين ، أندونيسيا كلها ۱۲۰ مليوناً . وليس
بين هؤلاء المسلمين جميعاً واحد يمد يده إلى الغريب الذي جاء من بلاد الأزهر
الشريف وأخذ عنه حفائمه ، أو يدلله على طريقة يتفاهم بها مع أحد . فالناس
هنا يتكلمون لغتهم طبعاً والقليل جداً منهم يعرف الإنجليزية . ويظهر أن كلمة
مصر معناها أيضاً مصر في لغة أندونيسيا ولكن ينطقونها بشكل آخر ..

أنا الآن ملطوع أمام باب المطار . فقد سمحوا لي بالخروج .. فأنا مصرى
وهذا يكفى . فهم هنا من أعز الأصدقاء . وأنا أعتقد أن بخروجي من المطار ،
بعد أن رأيت ما فعلوه بالأميركي منتهى الترحيب . يكفى أنهم لم يضربوني قلمرين
وشلوتين .. يكفى أنهم لم يجعلوني فرحة لمن يساوى ولمن لا يساوى ، ولم أجد حولي
أحداً يساوى شيئاً !

وخرجت أجر كرامتى وأعشر نفسي بين الناس ..

والعربات قليلة جداً ولكنها مليئة بالناس .

ومشكلتى واضحة جداً وهى كيف أصل إلى أى فندق ومن هذا الفندق
أتصل بالسفارة .

وف هذه الأثناء ظهر رجل كنت قد هزرت له رأسى في الطائرة . ويبدو
أن هذه المزءة لها معنى خاص . ويبدو أن هذا المعنى الخاص كان بعيد
الأثر . ولو سألتني لماذا هزرت رأسى لعرفت أن السبب هو أننى اصطدمت به
وكدت أوقع المنظار من فوق أنه وآلتى به تحت قدمى – تحت سبعين كيلو جراماً
هي وزنى ، ليحمله بعد لحظة واحدة ، حفنة من الدقيق الأبيض ..

وجاء الرجل ودعانى إلى السيارة التى ستقله إلى الفندق .. إذن هذا الرجل قد

حجز فندقاً . فهو من أبناء الملايو وكثير التردد على أندونيسيا فله فيها أعمال كبيرة . إنه رجل يشتغل بالسينما والملاهي والألعاب الرياضية .

ولى جواره جلست في السيارة . وأمامي ناس كالفيلة وورائي أيضاً ناس كالأبقار كلهم ضخام الأجسام . فهو لاء هم الرياضيون ، أو هم السيرك الذى يتجول به من دولة إلى دولة . ولما عرف أننى مصرىرأيت السعادة على وجهه واعتدل في جسلته ليبدى لي إعجابه .. أو أسباب إعجابه بمصر وأبناء مصر . وكل الذى توقعت أن يقوله . لم يقل منه شيئاً واحداً .. فلا عرف الأهرام ولا لاحظ وجه الشبه بين أنه المطبق وأنف أبي المول ولا بين جسلته الآن على المقعد وبين الكاتب المصرى الحالس القرفصاء ..

ولئما قال لي بمحاس : لقد رأيت سامية جمال !

فسألته : إن كانت سامية جاءت هنا ..

وكان رده : لا ..

وسأله : إن كان هو سافر إلى مصر ..

وكان جوابه : لا .. رأيتها في أحد الأفلام ..

ومن حركة شفتيه أدركت طعم سامية جمال في فه . ومن بريق عينيه أدركت انعكاس ساقيها اللامعتين .. ومن اهتزازته في مقعده . أدركت كم هي مثيرة بالنسبة لهذا الرجل ، ومن تراجعه إلى الخلف تخيلت مساحة السرير الذى يتمنى أن يتمرغ عليه !

وقال لي إن حكومة الملايو منعت أفلامها المثيرة . وعرفت فيما بعد أن الرقابة في أندونيسيا تحذف رقصات كاريوكا وسامية جمال . أما السبب فهو أن ظهور هذه الرقصات يصادم الشعور العام هنا . فالناس يعتقدون أن كل ما تصدره مصر هو أفلام دينية وتفسيرات لكتاب الله .. وإذا ظهرت هذه الرقصات . فإن الجمهور لا يعرف أين يضع هؤلاء الرقصات بين آيات الله وأحاديث رسوله .. إلا إذا كان الغرض من ظهورهن هو بيان الطريق اللذيد الذى يؤدى إلى جهنم ، وبش المصير !

قال لي هذا الرجل الرياضى إنه حدث في الملايو أن شاهد الناس أحد

الأفلام المصرية الذى يتحدث عن بطولات العرب وكيف أن الناس يعتبرونها نوعاً من الحجج ، ولذلك فبعضهم يدخل السينما وقد خلع الحذاء .. ومعظم هذه الأفلام قد سقطت في مصر سقوطاً مريعاً ولكنهم في الملايو يرونها بصورة أخرى لحسن الحظ .

عندما اتفعل هذا الرجل في استجوابي عن راقصات مصر . أدرك أن جهلي بهن واضح ، بدأ يشك في أنني مصرى . ولذلك قررت على الفور أن أروي قصصاً شخصية جداً عن راقصات مصر وعن علاقاني بهن وغرامياني وليساعنى الله في كل ما قلت . فلم أكن أريد سوى أن أقدم أوراق اعتمادى لهذا الرجل .. وإلا تسليته حتى نصل إلى الفندق ، وأنا حسن النية جداً .. وأننا لن اعتذر لراقصات مصر فقد تحدثت فقط عن حاضرهن ومستقبلهن والله يعلم أننى لم أشر إلى ماضيهن !

فالماضى للتاريخ ، والحاضر لهن . والمستقبل للجميع !

نسبيت أن أقول إنى كنت أرفع صوتي بالكلام ليتمكن من سماعى كل هؤلاء الوحش الذين أرغمونى على وضع يدى في جيوبى . فقد ضغطوا عليها حتى كادت تتتحول إلى كفته .. ويفتهر أن من عادة هؤلاء الوحش الأدمية أننى إذا قلت شيئاً أعجبهم ، عندما يترجم لهم ، فإنهم يسحبون يدى ويصافحونها بعنف إعجاباً بما قلت . ولعل هذا هو السبب فى أننى أنكرت صللى بأية راقصة في مصر ، أو فنانة عربية .

وقفت السيارة وقبلها وقف قلبي أيضاً ..

وكان الفندق اسمه « ديزاند » وهو الفندق الوحيد في العاصمة . والذى تختكره معظم السفارات . ومن النادر أن يجد فيه الإنسان مكاناً إذا لم يكن قد حجز ذلك من قبل والحجز ممكن . ولكن المشكلة هي « من قبل » .. من قبل كم يوماً أو كم شهراً !

تركتى الرجل لأدبر شأنى . فسألت عن غرفة لم فلم أجده .. وقال لي موظف الاستعلامات في استنكار شديد : كيف يمكن أن تجد غرفة الآن .. إن أقرب غرفة يمكن أن أحجز لها لك تخلو بعد أربعة أسابيع !

ولا ينصحني بأن أحجزها لأنها مخنوقة ، وهو يفضل غرفة أخرى مطلة على الشارع . وهي ستخلو بعد شهرين !

وأخيراً عثر على غرفة عندما قلت له إنني مصرى ولا أعرف أحداً هنا ، فيما عدا موظفى السفارة الذين لا أعرفهم . وإن كان من السهل أن أتصل بهم وأطمع في مساعدتهم .

وصدقت السلام وانفتح الباب عن غرفة في حجم ثلاثة توابيت فرعونية .. وأحسست على الفور أننى أحد قدماء المصريين .. سأتمدد فى تابوت وأضع ملابسى فى تابوت وطعامى فى تابوت ثالث .. ولست فى حاجة إلى دورة مياه . فالملقى لا يغتسلون . لأن الموت قد ظهر لهم من كل ما هو جسد . أى من كل ما هو عرق وتراب وقبلات !

وليس فيها مراوح ولا تكيف مع أن الأرض هنا فى مستوى سطح البحر . وإنى على خط ٦ جنوب خط الاستواء . أى على نفس الامتداد بين كولومبو ونصف جزر المالديف .. فالدنيا حارة جداً .. والرطوبة تصل إلى ٨٠٪٪ . وفي الغرفة - والله العظيم أقول الحق - يوجد سرير صغير والسرير من شدة المعدل التصق بالحائط .. تماماً كما يفعل المارة عندنا لسبب ما !

وتحميت أن أنام أمام باب اللوكاندة !

وابتلعت هذه «الأمنية» بکوب من الشراب بارد ، لم يعجبني طعمه . ولكن مع ذلك شربته دون أن أعرف طعمه إلا عند آخر قطرة . كنت أظن أن الأمينة هي عبارة عن أقراص شديدة المراة ، وأن هذا السائل سيحملها إلى أعماق دون أن أشعر بطعمها ولكن جف ريق من جديد ولم أعد أشعر إلا بطعم هذه الأمينة المريرة !

وتنذكرت ما دار بيني وبين أحد الأصدقاء فى القاهرة عندما سألنى : هل تسافر إلى الهند وأندونيسيا ؟

ولم يشأ أن يتوقف عند هذا السؤال وإنما مضى يقول : في هذا اجرو الحال .. ووسط هذه الأمراض التي لاحد لها ..

قبل أن أقول «ياريت» ، راح يضاعف من مخاوفه بقوله : هل تقوم بهذه المغامرة !

وكانى لم أسمع إلا السؤال الأول فقلت متربداً وفي رأسي صور مهرجانات السينما التي تقام في البندقية وفي برلين وفي كان ونيس وسان سباستيان وصور ذكريات وآمال جديدة ورغبات في المهرب.. ثم فرحتي ببلاد لم أرها كالمهد وهي بلاد حارة وغريبة وعجيبة . واعتقادي أن التاريخ الجديد سيكتب هنا في آسيا . وأن الخطر القادم سيكون من الصين ومن الهند ، وأملي في أن وزنى سينقص ولو خمسة كيلو .. فأنا وزنى الآن ٨٢ كيلو وأريد أن أصل بأية طريقة إلى ٧٨ ، أو ٧٩ ولابد أن حرارة هذه البلاد والتعب .. لابد أن هذا كله سيتحقق لي هذا الحلم .

وكان ردى :

أ.. ر.. و.. ح!

ولم أجده في كل هذه البلاد الحارة إلا كل الوسائل الناجحة لزيادة الوزن ، فالجو حار جداً . وهذا يجعلك تشرب الكثير من السوائل .. و يجعل المشي صعباً عليك ليلاً أو نهاراً .. فلا بد من السيارة .. وهذه البلاد كلها تأكل الأرز . وهذه البلاد الحارة تصيب الكبد والمعدة بكسل شديد . فلا بد أن تضطع في طعامك بعض الشطة . والشطة تفتح الشهية فتجعلك تأكل أكثر وأكثر . ثم إن هذه البلاد كلها لا تسهر الليل . وإنما تنام من الساعة الثامنة أو التاسعة على الأكثر . ولا يوجد هنا أي نوع من أنواع الملاهي الليلية .. وأنا من الذين تعودوا على السهر على الأقل حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً كل يوم .. وكلما وجدت نفسى في حالة ضيق أو غيط احترقت كيات السكر الموجودة في دمي وأحسست بالجوع وعدت إلى الطعام من جديد . وهناك أناس إذا غضبوا لا يأكلون آخرهم إذا غضبوا أكلوا .. ولم يكن للطعام أي معنى . وأنا من هولاء وكأننا - نحن الذين إذا غضبنا أكلنا - ننتقم من الذين أغضبوا ونرثونا فنا كلهم !

وتكون النتيجة هي زيادة كمية الأرز ونقصان في الحركة وسوء هضم .. ونحاول أن نقضى عليه بزجاجات الصودا - وهذا سائل أيضاً - أو بمالح الفواكه - وهذا سائل أيضاً - أو بتناول كيات من الزبدة الطازة وهي أحسن وسيلة للسمنة !

سألت عن السبب الذي من أجله لا يصاب الناس بسمونة في الهند أو سيلان أو حتى هنا في أندونيسيا .. مع أنهم يأكلون بالضبط ما نأكله وأكثر . فلماذا ؟ قيل لي لهم يأكلون الأرض بغير سمن أو زيت .. ووجدت نفسى عاجزاً عن أكله . لأن رائحته فظيعة . وحتى أكله بالرزيت صعب جداً لأنهم يطبخونه بزيت جوز الهند . وطعمه حلو . ولأنهم لا يشربون الماء كثيراً في بلادنا .. الإكثار من الشاي يساعدهم على الهضم ، ويصيّنهم بالأرق . ولأنهم يمشون كثيراً جداً والشمس لا تضايقهم .. وهذا مالاً أستطيع أن أفعله .

ولكن قررت في أندونيسيا أن أبدأ تجربة جديدة وهي أن أمتنع عن الأرض وعن السوائل وأن أمشي كثيراً وأنام قليلاً .. ومن اليوم الأول عدلّت عن هذا القرار فقد دعاني ملحقنا الثقافي إلى الغداء ورأيت من الذوق أن أكل معه .. وأكلت وكانت جائعاً . وشربت كمية من السوائل تكفي لتبريد ثلاث سيارات في طريقها إلى الإسكندرية بالطريق الصحراوى .. وفي العشاء كان كل الحالسين معني من المواطنين . ورأيت أن الذوق يقضى بأن أكون لطيفاً وأن يتمتد في إلى كل يد تحمل طبقاً من الأرض بالكارى ، وطبقاً من اللحم بالشطة ، وطبقاً من السلطة بالفلفل . وكوباً من الماء بالبعوض . وكوباً من الشاي بلا سكر ..

وفى اليوم الثانى نسيت هذا القرار تماماً ..

نسيت لأن الإنسان ينسى كل شيء يكرره أو يضايقه .. فالنسوان هو «الكلاشة» التي تخليع المسامير من أحذية حياتنا ونحن لا نلدي .. نسيت لأننى مشغول بأشياء أخرى ، هذه الأشياء تضايقنى وتقلّبلى في فراشى كاللغم في النار . وهذا يضايقنى مرة أخرى . وكل الذى يضايقنى يحرق السكريات في جسمى وجسمى لا يغفل عن مطالبه . فهو يتطلب التغويض سراً والتغويض لا يكون إلا بالطعام ..

فإننى كلما تضايقـت من كثرة الطعام ازدادت رغبـى إليه ..

كأنـى قرـرت أن أمـتنع عن الأـكل لأـسبـاب جـسمـية ..

والنتـيـجة : شـجـرة جـمـيز انـضـمت سـراً إـلـى «الـجـمـيزـة السـرـيرـية» لأـشـجارـ الجـمـيزـ

فـالـقـاهـرة ١

وفي اليوم التالي دعاني أبطال المصارعة إلى حضور التبرينات التي تسبق المباراة .. لماذا دعوني ؟ لأنني أصبحت صديقاً لهم . ولأنني صحفى من بلاد بعيدة ، ولأنهم يتلقون بأول صديق . وبيدو أنهم فهموا أننى مهم بالرياضة ولا أعرف إن كانوا قد فهموا أننى من المعجبين بأبطال المصارعة ، لا أدرى ، فانا لا أعرف لغتهم والرجل الذى يترجم لهم قد سافر إلى أقصى الجنوب ليقوم بالدعـاية لهم .

وجاءت بطاقة الدعوة . وذهبت إلى أحد الأندية الصغيرة ودهشت عندما وجدت جمهوراً لا يقل عن مائة من الرياضيين . وعندما دخلت توقف اللعب وامتدت الأيدي تصافحنى من وراء الجدران المنخفضة . وجلست في جانب .. ولكن فوجئت بمقدار فخم قد وضعت لي .. وببدأ الفار يلعب في عبى .. وبعد ذلك تزايد عدد الفتران عندما وقف واحد منهم وأعلن بعبارة قوية مدوية شيئاً لم أفهمه .. وبعد ذلك رأيت العيون تتجه نحويني وتبتسم وتنتظر منى أن أقول شيئاً ووقفوا ووقفت وابتسمت وأنا لا أفهم وقلت بالإنجليزية : ألا يوجد بينكم واحد يفهم الإنجليزية !

وسكت الرياضيون لحظة .. وتوقف اللعب نهائياً . ولم أر آية دلالة من دلالات الفهم على وجوههم .. وبعد ذلك توالت التصفيق .. ولم أفهم وظللت واقفاً وظلوا جالسين .. ومعنى ذلك أننى يجب أن أخطب .. أن أقول فيه كلمة .. أحسي بهم . أعبر لهم عن حيرتى وخيبة أملى ووقنـى الذى لم تخطر لي على بال !

وفي دوخة وذهول أعتقدت أننى قلت كلاماً شيئاً بهذا :
أيها الأصدقاء .. لابد أن هناك خطأ . فأنا لست من الرياضيين .. وإنما أنا أزعـم في بلادنا أنـى ألعب التنس .. وأقسم أنـى نسبـت هذه اللعبة .. فقد حاولـت أن ألعب التنس منذ أسبوعين في أعلى جبال سيلان مع جمـاعة من المهـندسين .. وسقطـت على الأرض .. وأكلـت الرمال جانـباً من جـلد يـدي .. وهوـه أنا لو كنت غـاوـى رياـضـة مـعـقولـاً أغـاوـى رياـضـة زـى دـى .. شـوفـوا الـراـجـلـ أبوـكـرـشـ دـه .. شـوفـ الـراـجـلـ الليـ بيـرقـ دـه .. شـوفـ الـراـجـلـ الغـرقـانـ فـيـ العـرـقـ ..

شوف الرجال اللي عاوز يأكلني ده .. الحقوني .. مفيش حد فيكم بيعرف عربي ..
عاوز أهرب من الناس .. عاوز أجربى . أريد الخلاص .. الحرية . مرديكا ..
مرديكا .. *

وكلمة مرديكا معناها بالأندونيسية : الحرية ..

وفوجئت بأن الناس رددوا ورأى مرديكا .. مرديكا !

وف ذهول تام جلست أستريح وأستعد للهرب بأية صورة ..

ولكن فوجئت بنعنه على كتفه .. إنه رجل في الخمسين من عمره
لطيف على وجهه ابتسامة ترحب بك . بل تدعوك إلى الغداء والعشاء والإقامة ،
ابتسامة كريمة جداً ، وقال : اسمح لي أبيها السيد العزيز .

وهنا دخت حقيقة ..

وأعتقد أنه قال : أنا أترجم كلماتك الدقيقة إلى اللغة الأندونيسية .

ولم أستطع النظر إلى وجوههم .. وأعتقد أنني خرجت كما يخرج السكران
طينة من الكباريه عائداً إلى بيته !

● مالا يعجب سيدات مصر!

ولحسن حظى انتقلت إلى بيت صديق - منذ ساعات - ملحقنا الثقافي الدكتور محمد رضوان .. ولحسن حظى مرة أخرى كانت زوجته وأولاده ما يزالون في القاهرة ولذلك وجدت لي مكاناً في بيته . وجدت لي غرفة وسريراً . وصديقاً أسلى معه . وأعرف منه الكثير عن أحوال أندونيسيا وأهل أندونيسيا الطيبين الدائمي الضحل ..

وأشهد أنني ما كرهت الأرز والدجاج في حياتي كما كرههما في بيت هذا الصديق ، فالأرز كثير وفي كل ساعات النهار والليل . والدجاج رخيص وكثير أيضاً . والطريقة التي تقدم بها الخادمة هذا الطعام تصايفنى جداً .. وبعد ذلك لم تصايفنى .. ولكنى لم أحب الأرز والدجاج . والخادمة فتاة سمراء أندونيسية .. ولكنها أندونيسية جداً في كل ملامحها .. ففي أندونيسيا أناس من أصل صيني وآخرون من أصل ياباني ، وأناس من أبناء حضرموت . ومن أصول عربية . وعلى فكرة الفتاة الأندونيسية تحب الرجل العربي . لا أعرف السبب . ربما كان السبب دينياً . مع أن العرب الذين يزورون على هذه البلاد ليسوا مرتدين إلى هذه الدرجة !

والخادمة قصيرة القامة نظيفة جداً ، فهي تستحم ثلاث أو أربع مرات في اليوم . وربما كان استحمام خادمة ليس شيئاً له أهمية الآن . ولكن المرأة الأندونيسية والرجل أيضاً نظيف . وهم يلبسون الملابس على الملم . حتى لاتنتقص هذه الملابس بأجسامهم فلأنهم يغسلونها في النشا وبذلك تكون متبااعدة عن الجسم .

والسيدة المصرية عندما ترى الفتاة الأندونيسية لأول مرة – وقد حدث هذا – يرتفع قلبها ولا ينزل إلا بصعوبة . فهي رشيقه حلوة وبسيطة . وبشرتها كخند التفاحه ملساء ناعمه مشدودة . ثم إنها مختصرة وأميل إلى النحافة مع أنها تأكل الأرض واللحم والفواكه . ويظهر أن طريقة طهو الأرض هنا هي التي تقطع نفس الأرض وتخلصه تماماً من المواد النشووية .. فلا يبقى منه إلا شيء لا هو عجين ولا هو أرز . ثم إنهم لا يعرفون السمن البلدى ولا الزبدة ولا المواد الدهنية التي نضعها في طعامنا .. وكلمة الأكل «المسبك» ليس لها معنى عندهم . إنها غريبة على الآذان كغريبة أن يقول لهم : إنه يوجد بلد في العالم ليس به بعوض !

والفتاة مثلها الأعلى أن تكون من النوع الذى نسميه في مصر : العرسى ! وهذه الخادمة من الممكن أن تستحم وتنصل ملابسها عنى عينك .. ومن الممكن أيضاً أن يكون هذه الخادمة صديق . وهذا الصديق تدعوه إلى غرفتها ليتناول بعض الطعام . بعض طعامك .. ممكن جداً .. ومن الأدب أن تسك .. ومن التقدم أن تبدو لها متساماً . ومن الحرية أن تحرر حريتها !

وطبعاً كل هذا لا يعجب أية سيدة مصرية ..

ولذلك لا تقاد السيدات المصريات يصلن إلى هذه البلاد حتى يبدأ موسم فصل الخدمات بالحملة .. أي موسم افتتاح أغصان البان، وزراعة أشجار الجميز ! وعندما دعيت إلى حفلات خاصة لاحظت أن الفتاة الأندونيسية لا تأكل إلا قليلاً جداً . وتندesh إلذا عرفت أنها تعيش على الحد الأدنى من .. الطعام . ملعقة من الأرض وقطعة من اللحم . وبعض الفاكهة والقليل جداً من الماء . أو من السوائل . فهي تعلم أنها رشيقه وهي تحرص على ذلك .

والحياة في مدينة جاكرتا ليست مسلية بالمرة . فلا يوجد بها هو ولا مرح . ولئما يوجد بها فندق واحد . وفي مواجهة هذا الفندق يوجد مطعم .

ويوجد الحى الصيني . وهو متنة .

فأبناء الصين يمثلون النشاط التجارى والحياة والمرح والأستقرارطية . إن عدمهم في كل أندونيسيا حوالي ثلاثة ملايين . ولكنهم أصحاب المصالح الحقيقية .. إنهم الأقلية الساحقة .. والأندونيسيون هم الأغلبية المسحوقة .. وهم أصحاب المصانع والقصور والمطاعم والشركات والسيارات . وهم الذين يتولون التهريب من الثلاثة

آلاف جزيرة وإليها .. إلى ستفافورة وهو نج كونج والفلبين .. .

وف الحى الصينى تجد الدنيا كلها .. تجد صورة صغيرة من ستفافورة الصينية .. تجد السلم من كل لون .. تجد المرح .. كل ألوان المرح .. تجد الأطعمة الغريبة .. تجد دور السينما .. تجد كباريهات الرقص ..

ولعلك تلاحظ أننى قلت كباريهات الرقص فانا لا أعرف كيف أسمى الاثنين يرقسان معاً .. ومتبعادان جداً . ولا يكلم أحدهما الآخر .. ثم ينصرفان . فالشاب يتقدم ويقطع تذكرة وتتقدم له فتاة ترقص معه في مكان عام مفتوح وتنهى الرقصة ويدهب بكل واحد حاله .. أو هكذا يبدو لنا !

وهذا طبيعى في الرقص ، مadam الرجال يلبسون الملابس على اللحم ، النساء كذلك !

وكل شئ تشتريه هنا يجب أن تفاصل فيه على قدر ما تستطيع فلا توجد أسعار محدودة لأى شئ !

بما في ذلك الفتاة التي تطلبها للرقص على مسافة بعيدة منها !

وف تلك الأيام شاهدت فيما مصر يا عن بور سعيد ..

لقد ظل هذا الفيلم معروضاً شهوراً طويلة .. واحتاجت السفارة الفرنسية على عرضه وظل الفيلم معروضاً .. ورأيت الناس يقفون ساعات لكي يمحزوا لم مقعداً ، ولم أتمكن من مشاهدة هذا الفيلم ، فأنا أعرف بور سعيد ، وأعرف كيف كانت لنا .. وكيف أصبحت لنا . ومن الأفضل أن أترك مكانى لمن لا يعرفها !

وكنت أنتقل في سيارات الأصدقاء .. ولو لا ذلك لاضطررت إلى أن أركب البيشا .. وهي عربة يجرها شاب .. أو عربة تحرك بقوة ساق شاب وهو ييدل على دراجته .. وهذه هي وسيلة المواصلات الوحيدة في البلاد . ومن الغريب - أو ليس غريباً - أن هذه البيشا يملكونها رجال صيني !

ربما بدت هذه الملحوظة غير هامة بالنسبة لك ، ولكن أين لك غرابتها أقول لك : تصور أن رجلاً يهودياً هو الذي يملك الترام والمترو والأتوبيس في القاهرة الآن !

وبعد أسبوع أمضيته في أندونيسيا ، تجمعت عندي كل المؤهلات — فيما عدا الشكل — التي تجعلني أندونيسيّاً مائة في المائة . فأنا أحبيت البلاد وأحببت أهلها . وأكلت أرزها ولحمها . ولم أعد أخاف من غارات الملايين من بعوضها ، وأركب البيتشا .. وأهم من هذا كله فأنا أضحك بسبب ومن غير سبب .. ومن غير سبب أكثر !

ثم إن هذه البلاد تحتفل بأعيادها يوم ١٧ أغسطس .. ولذلك فأعيادها على مسافة ٢٤ ساعة من عيد ميلادي .. وكل شيء يدل على أن هذا العيد سيكون شيئاً خطيراً . وقد تلقيت دعوة من وزارة الاستعلامات تدعوني إلى مشاهدة الرئيس سوكارنو وهو يخطب . ثم مشاهدة الحفل الكبير الذي سيعقب ذلك . ولم أتمكن من متابعة ما تنشره الصحف في ذلك الوقت . أما الصحف الإنجليزية فهي قليلة والصحف الأمريكية أيضاً . وكذلك الكتب الأجنبية .. وجاء يوم « توجوبلاس » ومعناها ١٧ أغسطس ، واحتشدت الشعوب الأندونيسية من كل الجنز ..

واستعرضت قوات الجيش .. ومن الغريب أن زوجة أحد الوزراء كانت ضمن الحرس الوطني ..

وكانت الشمس أكثر التهاباً من حماس الجماهير .. وخطب سوكارنو .. وفي خطابه عبارات كثيرة باللغات الأوروبيّة . وإشارة إلى « المحجيم » و« المطهر » و« الفردوس » للشاعر الإيطالي دانتي الليجيري . ووصف سوكارنو المراحل التي مررت بها الثورة .. فقال إنها اجتازت جحيم الاستعمار ودخلت في التطهير الاشتراكي وهي على أبواب الفردوس الموعود .

وتذكرت أن الرئيس جمال عبد الناصر قد استشهد في كتابه « فلسفة الثورة » مسرحية « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » للأديب الإيطالي لوبيجي بيراندلو .. فقد تصور الرئيس عبد الناصر هو وزملاؤه من الثوار أنهم كانوا مثل ست شخصيات عندهم أفكار وعندهم حماس وصدق ، ولكن ينقصهم البرنامج والخطة ..

وطال العرض العسكري وشوتنا أشعة الشمس .. وخرجت المثل ..

وفي الليل شاهدنا الحفل الساهر ..

لقد كان استعراضاً لألوان الرقص الشعبي من كل الجنزر الأندونيسية ..
ألوان وراء ألوان .. والفتيات كل واحدة منها كالثعبان والموسيقى كالسامير
أو كالملل قد تسلل إلى جسمها فيقرصها أحياناً باليقاع ونظام موسيقى .. وأحياناً
تكون لساعات التمل بصورة مرتجلة .

ثم صفق الناس إلى غير نهاية عندما ظهرت فتاة ورقصت نصف عارية
أو ربع عارية وكان رقصها طويلاً جداً .. إنها ابنة سوكارنو !
والرقص من معالم الحياة والثقافة في أندونيسيا .

إن سوكارنو نفسه لا يجد أى سرج في أن يرقص .. مع أنه في هذه الخطبة
هاجم الميوعة وهاجم الروك آند رول بالذات . ولم يكن التوبيخ قد ظهر بعد !
وأذكر أن الصديق عبد الحميد جوده السحار عندما ذهب ضمن وفد
ثقاف إلى أندونيسيا سأله في المطار : وأين الراقصات ؟
وزالت دهشته عندما عرف أن الرقص من أهم الفنون الشعبية .

وأذكر أن سفيرنا أقام حفلة في بيته وحضر الحفلة عدد كبير من الوزراء
ثم حضرها عدد كبير من أبناء الجنزر الذين كانوا يطلبون ويزمرون وهم جالسون
على الأرض .. وقد اندهشت عندما نهض أحد العازفين وطلب من زوجة أحد
الوزراء ، وكان وزير الأوقاف ، أن تسمح له بأن يرقص معها .. ورقصت
زوجة الوزير مع ابن الغفير . وعندما أحست بدوخة كت أظن أن الدنيا انقلبت ،
 وأن الدوخة التي أصابتني تشبه سلندرات مطابع الصحف وأنها إن شاء الله ستكون
فضيحة بجلابيل !

ولكن هذه الدوخة كانت شخصية جداً . وأصابتني وحدى . أما الأندونيسيون
فلم يفعلوا أكثر من الضحك والانشغال براقصات آخريات !

والمرأة هنا تستمتع بحريات أكثر ..
المرأة مقاييس لحضارة أي مجتمع .

هل هي سيدة ؟ هل هي خادمة ؟ هل تمشي وراء الرجل ؟ إلى جواره ؟
أمامة ؟ إنها في أوروبا تمشي إلى جواره . وفي أمريكا تمشي أمامة .

و مكانة المرأة تدل على عقلية الرجل .. لأن الرجل هو الذي يضع القوانين
و هو الذي يطبقها .

ولا شيء يدل على عقلية الرجل ومدى ثقافته وتقدمه أو تأخره غير نظرته
إلى المرأة .

وفي أندونيسيا أرى الرجل هنا يحترم المرأة ويجعلها تقف إلى جواره وأحياناً
يقدمها عليه . والمرأة الأندونيسية هي ست بيت تحب بيتها وتخدم زوجها . ولا
ترى عيناً في أن تكون ست البيت هي خادمة الزوج . وهي ليست خادمة بعقليتها ،
بل خادمة بوظيفتها . ولكن عندما تخرج إلى الشارع أو إلى الحفلات فهي
«ست» وهي «أخت» .. وهي محترمة ..

وأندونيسيا تضع الفتى إلى جوار الفتاة في كل مراحل التعليم بما في ذلك
المراحل الثانوية - على عكس بلادنا .. وأندونيسيا بدأت هذه التجربة في ظل
الاحتلال الياباني أى من سنة ١٩٤٢ . ونجحت التجربة . ولا توجد في أندونيسيا
جرائم خلقية . لا اغتصاب ولا اعتداء على الفتيات ، لأن الفوارق بين الجنسين
متلاشية . فالشاب يشارك الفتاة في كل مكان .. في البيت .. ولا أحد يعترض ،
وفي الشارع وفي المدرسة والحفلات وفي السينما .. والشاب الأندونيسي لا يعاكس
الفتاة في الشارع .. بل إن الشاب الأندونيسي رقيق جداً . إنه من النوع الذي
يعجب الفتاة في كل مكان . إنه خيالي شاعر رقيق ..

فالفتاة لها أصدقاء . وبعض هؤلاء الأصدقاء يعرفن أبوها . وينصحها أن
ترى هذا وأن تمشي مع ذاك . ولكن الفتاة الأندونيسية تبقى محترمة في كل هذه
الأحوال . ومن الممكن أن يذهب الصديق إلى بيت والدها . ومن الممكن أن
يستأذن الوالد ويترك ابنته مع الصديق دون أن تشعر الفتاة أو أبوها بأى خوف
أو ضيق .. أبداً .. إنها مسألة عادية جداً .

ومن الممكن أن تجده أمام معظم بيوت أندونيسيا فتيات وفتيات يتكلمون وعلى
وجوههم عبارات طويلة باهتة أو صارخة للحب والهيمام ..

سيدات أندونيسيا في دهشة من سيدات بلدنا الآتى لا يظهرن في الحفلات
الرسمية .

والحقيقة أن السيدة العربية تدهش للحريات التي تتمتع بها الفتاة الأندونيسية ..
والبساطة التي تعيش فيها .. ولأن الصدقة والزماله والحب مسألة عادلة جداً
لا تحتاج إلى قانون أو إلى تشريع .

والمرأة الأندونيسية تحب البيت والأولاد . وهي ككل النساء ت يريد أن تكون
أما وتفضل هذه الأمة على أي عمل .

والمرأة الأندونيسية رشيقه أنيقة .. وجميلة . لا أعرفكم عدد الأندونيسيات
في القاهرة . ولا أعرف ما هي ملامحهن ولكن الذي أراه بالملائين فاتن ورائع ..
إنها رشيقه تراها في الستين من عمرها فتبسو في الأربعين ، لقد رأيت في منزل
الصديق أحمد والي الذي كان ملحقاً حظياً ظاهيه في الخامسة والستين .. رشيقه
لامعة الوجه تمثى على قدميها أميالاً كل يوم .. ليس لها كرش .. لا يوجد في
جسمها مليمتر من اللحم أزيد من اللازم ..

والبلاد كلها غابات .. وفي الغابة يعيش الرجل والمرأة بلا فوارق .. فالغابة
لكل الناس .. لا أحد يملك شيئاً ..

وفي الغابات يختفي العاشق واللصوص .. وما أكثر العشاق ، وما أكثر
اللصوص !

● پهان .. کون؟

أعتذر عن عدم ذكر أسماء السادة المحترمين الذين اشتراكوا في حضور هذه الجلسات فقد وعدت .. ووعد الصحفي دين عليه .. لقد كان السفير .. والملحق العسكري والملحق الصحفي والملحق الثقافي وزوجاتهم ..

والمهم أنني رأيت بعئني ولم أسمع وقد بدأ الفار يلعب في عبي فعلا. وبذلت أرئ أن لعب الفار معقول . ولم أعد أحاول أن أجعل من أفكارى مصاديد لهذا الفار ، بل لأننى أحاول أن أخطط عبي ليلعب الفار على أساس رياضية صحيحة ! ولا أريد أن أوثر في أحد قبل أن أروي الأشياء الغربية التي رأيتها وحاوت أن أفهمها . ولم أصل بعد إلى رأى .

يظهر أن هناك روحًا أو نفساً أو شيئاً مختلفاً عن الجسم . وإلا فما هو الفرق بين الميت والحي . هناك فارق طبعاً . هو هذه الحياة . ولكن ما هذه الحياة ؟ نقول : نشاط .. طاقة .. حرارة . دورة للدم .. تفاعلات مستمرة .. لا تتوقف ليلاً ونهاراً .

ويظهر أن هذه الحياة أو النفس أو الروح لها وجود حقيقي خارج جسم الإنسان .. ولكن عندما تخرج أو تطرد أو تنطلق من الجسم فإنها تبقى متاثرة بهذا الجسم . فالجسم يشبه الثوب . وإذا كان الثوب مبللاً فسيترك أثراً في الروح . وإذا كان من الحرير أو من الشوك أو من النار أو من القلق فإن الروح تبقى بعد الموت كذلك .

ولإذا أنت حملت حقيبة ثقيلة لمدة ساعة أو خمس ساعات . . ثم وضعتها على الأرض ، فإن ذراعك ستتبقي متعبة كأنك لم تضع الحقيقة بعد . وإذا أنت ركبت باخرة يوماً أو شهراً أو حسين عاماً متواصلة . ثم نزلت منها إلى الشاطئ فستشعر بعد هبوطك إلى الشاطئ أن صوت البحر مايزال في أذنيك وأن الأرض ما تزال تهتز تحتك . .

وبينما أن هذا هو الذي يحدث للروح . . فهي تعيش في سجن اسمه الجسم . وكل خلية حية في هذا السجن عبارة عن قيد، عن سلسلة.. إنها ملايين السلالس لمئات الألوف من الساعات . . فإذا تم الإفراج عن الروح بالموت ، فسيبيقي أثر هذه السلالس ، هذه القيود ، وستبقى الروح متأثرة بهذه القيود؛ بهذه الحياة التي قطعها فوق سفينة قلقة . . سفينة بها عشرات الغرائز التي تشبه قطاع الطرق والخصوص . .

يبعدوا لي هذا . . وإن كنت لا أعرف التفسير العلمي الدقيق لما رأيت ..

• • •

والآن أدخل في الموضوع . لقد حدث هذا كله أمس في مدينة « بوجور » على مسافة ٧٠ كيلو متراً من جاكرتا . . البيت الذي نحن فيه الآن خليط من أبناء دمياط وجاكرتا . وكانت الساعة الرابعة عصراً، وقد علمت أن هذا الوقت غير مناسب لإجراء هذه التجربة: والتجربة اسمها باللغة الأندونيسية « جالان كون » ، ويقال إن معناها « المينكل العظمى » ويقال ليس لها معنى .

وقد أصدرت الحكومة هنا قراراً صريحاً بتحريم هذه التجربة . فقد شغل بها الطلبة عن مذاكرة الدروس ، وقد تفرغت لها العائلات . وهي في أندونيسيا أكثر انتشاراً من قراءة الفنجان وفتح الكوشينة عندنا . .

وفي استطاعتك أن تجربها في بيتك . . فلم أر أسهل ولا أعجب منها في حياتي . .

هات سلة . . سلة عادية جداً . وضع فيها خشبة طويلة على هيئة صليب . وضع على هذا الصليب قميصاً . وفي أعلى القميص أرسم صورة وجه على ورقة وضع في أعلى الرأس عودين من البخور .

ثم ضع في مقدمة السلة قلماً من الرصاص . ضع القلم بين فتحات السلة .
وعليك بعد ذلك أن تحمل السلة أنت وصديق لك على أطراف الأصابع . على
أن يمسك زميل آخر بورقة أمام القلم . أطلق البخور . وردد كلمات : جalan
كون .. جalan بيس .. ومن الممكن أن تقرأ الفاتحة أو أي كلام ديني ..
هكذا سمعت ..

بعد ذلك ، أي بعد دقيقة سترى السلة تندفع إلى الأمام وتكتب بلغة الروح
التي حلت في هذه السلة .

تستطيع أن تكلمها ، أن تأسلاها : من أنت ؟
وسترد عليك - كتابة - بلغتها ..

اطلب منها الروح التي تريدها .. ستحضر حالا ..

ومن هذه الأرواح التي رأيت كتابتها روح رجل حشاش توفى في باب الشعرية
اسمه « محمود صالح » .. إنه يروى النكت .. نكتاً قديمة جداً ، لم نسمعها أبداً ،
ويبدو أنه كان يعمل كناسياً أو بائعاً للخضر في القاهرة .. ثقافته لا تزيد
على ذلك .

وقد لاحظت أن السلة تكتب بلغة عامية جداً .

ملحوظة : اللذان كانوا يحملان السلة اثنان من الأندونيسين ولا يعرفان
كلمة عربية واحدة .

ثم طلب الحاضرون روح السيدة « روز اليوسف » ولم أكن موجوداً .
فقد شتمت الحاضرين جميعاً .

وكتبوا لهم : مفيش معاكم حد حصن ؟
قالوا : لا ..

كتبت : بلاش لعب عيال ..

وطلبت منهم أن يصرفوها .. قالوا لها : انصرف .

وبعض الأرواح تطلب من الحاضرين أن يأذنوا لها بالبقاء . وبعضاً يصر
على البقاء .

ومن ضمن الأرواح روح رجل اسمه ناصر الدين .. وهو عصبي .. فهو

يضرب السلة في وجوه الحاضرين . ويصر أن يكتب دائماً ..
وستلت إحدى الأرواح : ألا يمكن أن تظهر الروح بدون سلة .
فأجابت : هل يمكن أن تتشن من غير ثوب ..
طبعاً من الممكن . ولكن الأرواح يبدوا أنها لا تعرف كل شيء .. وإنما
هي تتحدث بتجاربها السابقة في الحياة .

* * *

ولا يوجد من يعتقدون في تحضير الأرواح أحد في أندونيسيا لا يسأل السلة
عن صحته وعن حياته .. وعن مستقبله .. وعن مرضه وعن أحوال الناس
الآخرين .. ومنى يسافر فلان ومتى تلد فلانة ومتى تتزوج فلانة .. وهل فلان
هذا طيب ، وهل زوجته كذلك ..

كل أحوال الدنيا والدين ، الكبيرة والصغيرة يسألون فيها هذه السلة ..
وقد أصدرت الحكومة في أندونيسيا قراراً بمنع استخدام هذه السلة إطلاقاً ،
وكان هذا القرار على أثر حادث غريب . فقد شاهد البوليس ثلاثة من الأطفال
يحملون في أيديهم سلة ويمشون بها في الشارع وكان ذلك بعد منتصف الليل .
والذى حدث أن السلة كتبت لهم : أريد أن أذهب إلى بيت فلان .
وكان هذا البيت يبعد عن العاصمة عشرة كيلو مترات . ولما ضبطتهم
البوليس مرق السلة واعتقل الأطفال الثلاثة .
وأصبحت هذه السلة منوعة .

* * *

وهناك تجربة أغرب من الجلإن كون بzman ..
هذه التجربة رأيتها في بيت أستاذ جامعي تخرج في جامعات القاهرة :
وعاش في القاهرة عشرين عاماً . والتتجربة تحتاج إلى ضبط أعصاب أكثر ..
اقفل الغرفة عليك . واجلس في الظلام واقرأ آية سورة من القرآن .. ولكن
هذا الأستاذ قال لي إنه يجب اختيار بعض آيات من القرآن . وعندما تختارها
اطلب من « خادم » الآية أن يحضر .
أما حضور خادم الآية . فقد كان بصورة غريبة .. إنه يضرب أى شيء

فـالغرفة : يزحزح المنضدة أو يضرب الم亥ط . ولكن لا ترى شيئاً . .
وامسك قطعة من الزجاج الأسود اللون واسأـل هذا الخادم أو هذا الجنـيـة أـسئـلة ، وانظر إلى الزجاجة ستجد الكتابة بلون لامع كأنـها عقاربـالساعة
أـو كأنـها النـيون . .

أـنا شخصـياً رأـيت هذا . . فـأـكثر من عـشـرين بيـتاً . .
ولـم أجـد بيـتاً واحدـاً لا تـحضرـ فيه الأـروـاحـ أو العـفارـيتـ أو الجنـ المسلمـونـ
ويـكتـبونـ بالـلغـةـ الـعـرـبـيةـ . . والـكـتابـةـ واـضـحةـ جـداً . .
والـكـثـيرـ مـنـ الشـعـبـ الـأـنـدوـنيـسـيـ يـؤـمنـ بـهـذـهـ الطـواـهرـ ويـسـتـخـدمـهاـ فـيـ حـيـانـهـ
الـيـومـيـةـ . .

قالـ ليـ هـذاـ الأـسـتـاذـ الـجـامـعـيـ أـمـامـ كـلـ أـعـضـاءـ السـفـارـةـ الـعـرـبـيـةـ هـنـاـ . . إـنـهـ
يـسـتـطـيعـ أـنـ يـمـرـيـ هـذـهـ التـجـربـةـ أـمـاـيـ . . وـأـنـهـ يـسـتـطـيعـ أـنـ يـكـسـرـ رـجـلـ أـىـ إـنـسـانـ
الـآنـ، وـأـنـهـ يـسـتـطـيعـ أـنـ يـكـسـرـ رـجـلـ أـىـ حـيـوانـ بـعـدـ جـلـسـةـ وـاحـدـةـ فـيـ غـرـفـةـ هـوـ .
بلـ إـنـهـ ذـهـبـ إـلـىـ إـجـرـاءـ تـجـربـةـ عـلـىـ أـحـدـ أـعـضـاءـ السـلـكـ الدـبـلـوـمـاسـيـ الـعـرـبـيـ
دونـ أـنـ يـقـولـ لـهـ . . أـوـ دـوـنـ أـنـ يـعـرـفـ . . ولـكـنـ التـجـربـةـ كـانـتـ قـاسـيـةـ فـأـشـفـقـتـاـ
مـنـهـ . . لـقـدـ طـلـبـ مـنـاـ أـنـ نـوـاقـقـ عـلـىـ أـنـ نـجـعـلـهـ يـوـقـظـ هـذـاـ الدـبـلـوـمـاسـيـ الـعـرـبـيـ فـيـ
سـاعـةـ مـحدـدـةـ مـنـ الـلـيلـ . . وـيـجـعـلـهـ يـنـهـضـ مـنـ الفـراـشـ وـيـمـسـكـ وـرـقـةـ وـقـلـمـاًـ وـيـكـبـ
رـسـالـةـ نـعـرـفـهـاـ نـحـنـ مـقـدـمـاًـ .. وـيـذـهـبـ بـالـرـسـالـةـ وـيـضـعـهـاـ فـيـ مـكـانـ مـعـينـ نـعـرـفـهـ نـحـنـ ..
كـلـ هـذـاـ وـهـوـ لـاـ يـعـرـفـ . .

وـرـفـضـنـاـ . . وـلـكـنـهـ يـؤـكـدـ أـنـهـ يـسـتـطـيعـ ذـلـكـ . . وـيـؤـكـدـ أـلـوـفـ الـأـنـدوـنيـسـيـنـ
أـنـهـ يـفـلـعـلـونـ ذـلـكـ فـيـ بـيـوـتـهـ . .

وـالـزـوـجـ الـذـىـ يـعـرـفـ أـنـ زـوـجـتـهـ تـشـتـقـلـ بـتـحـضـيرـ الـأـرـوـاحـ بـخـشـىـ عـلـىـ نـفـسـهـ
مـنـهـ . . وـلـذـلـكـ يـشـتـغـلـ هـوـ أـيـضاًـ بـتـحـضـيرـ الـأـرـوـاحـ وـيـسـخـرـ رـوـحـاًـ خـاصـةـ لـحـايـتـهـ
مـنـ زـوـجـتـهـ . .

إـنـىـ لـمـ أـسـمعـ مـثـلـ هـذـاـ العـدـدـ مـنـ قـصـصـ الـأـرـوـاحـ فـيـ حـيـانـهـ كـلـهـاـ .

• • •

أـمـاـ النـوـمـ بـعـدـ هـذـهـ القـصـصـ ، وـأـمـاـ الرـاحـةـ بـعـدـ هـذـهـ الطـواـهرـ الـغـرـبـيـةـ المـفـزـعـةـ ،

فخرافة .. النوم هو أصعب شيء ولكن هؤلاء الناس ينامون وبعمق .. أما أنا
فكان الله في عوني !

وطلت السلة حائرة بين أيدينا طول الليل .. أو على الأصح ظلت الأرواح
حائرة بين أيدينا طول الليل .. وكلنا يستدعي موته أو أقارب موته وينتظر
وتذهب السلة وتترنح .. ويكتب القلم بلغة لا يعرفها إلاثنان اللذان يحملان السلة .
واستدعينا سعد زغلول وبتهوفن وسيد درويش ونابليون وشفيقه القبطية
وسارة برثار ..

والسلة عادة تأخذ الأوضاع التي تناسب الروح التي تحمل بها ..

فعندما ظهرت روح بتهوفن اعتدلت السلة وراحت ترتجف بجنون . والذين
يقولون «جنون» يعرفون أن بتهوفن قد وصل إلى حالة الصمم التي أفضت إلى
الجنون .. طبعاً واحد موسقار مثل بتهوفن يصاب بالصمم لابد أن يؤدى به
ذلك إلى ما يشبه الجنون أو الجنون نفسه !

وعندما استدعوا روح شفيقة القبطية يؤكلون أن السلة كانت ترقص .
على واحدة ونص .. أنا شخصياً لم أتبين ذلك بوضوح وإن كنت لا أستبعد .
وعندما ظهرت روح نابليون كانت السلة ثقيلة وشاحنة كأنها مدفعة . وأحسن
اللذان يحملان السلة بشيء من القرف كأنهما يربان خيول نابليون تلوس حرمات
المساجد في القاهرة !

وسيد درويش عندما حل في السلة مالت إلى جانب ثم عادت واعتدلت
وتتساقطت على الجانب الآخر .. وتتدلى القلم من السلة كأنه الغابة التي توضع
في الجوزة .. ويستنتجون من ذلك أنه صحيح أن سيد درويش كان يتعاطى
المخدرات وأن الرجل لم ينكِر ذلك عندما استدعوه !

• • •

لعبة مسلية يلعبها الناس في كل بلاد أندونيسيا .
أنا رأيت هذه الظاهرة ودارت مناقشات بهذا الشكل الغريب ودهشتني لم تنته ..
وقد لاحظت السلة دهشتي واستنكارى .. وثارت وطالبت بإخراجي

من الغرفة . وقالت إن وجودي يضايقها . .
وقلت : إن حركتها تصايقنى وتجعلنى أشعر بشيء من الترف هو خلاصة
اللحوف والدهشة والاحتقار لها ولنفسى إذا صدقـت شيئاً من هذه الخرافات .
ولكن كل هذا الكلام قرأته مكتوباً أماى . .

فهاتوا « الثبت » – وهى كلمة عربية فصيحة ومعناها « ثابت » أى السلة
والقلم واسألوها أنت !

• • •

اليوم ١٨ أغسطس . . .
أحسست فجأة أنه لم يعد عندي ما أقوله . . خلاص . . القلم ريقه نشف
والدنيا أماى كلها بيضاء . . لقد تعبت عيناي من القراءة والكتابة . . كل شيء
أيضاً كأنى كنت أغمس القلم في سواد عيني . . فلم يعد سواد .

كنت إذا جلست إلى المكتب أحس أنى بكرش من كثرة المعلومات التى
عندي . أما الآن فإننى أرى المكتب يزحف على بطني ويفصله عن جسمى فأحس
كأنى تمثال نصفي استقر فوق الورق لا يكتب ولا يقرأ .

ولكن لابد أن أكتب . . لابد أن أقول شيئاً . . إن كل ما في رأسي هو
بقايا أشياء . . في رأسي طفافية سجاير وكل ما فيها أعقاب . . رأسي براد شای
شربوه ، لم يبق فيه إلا التفل . . وقلمي هذا هو « بزبوز » البراد . . إنه مسدود ..
وبين العين والعين تنزل قطرة .

إنى أكتب هذه السطور وأبتسـم . .

إنها ابتسامة رجاء ، ابتسامة دعاء ، ابتسامة توسل . . ابتسامة هي بقايا ثقة
في النفس . . ابتسامة الشحاذ للمارة في الشارع . .

ولكن ولا فكرة في رأسي . .

إنها ابتسامة تشبه اللمعان والبريق الذى يسبق التقاط الصور . . ابتسامة
تفىء لأفكارى الطريق إلى الورق . . ابتسامة أطلقها قبل التقاط أفكارى الهماربة .
إن قلمى يلتوى في يدى . . وهذه الابتسامة تشبه « الجواهرة » التي تخرج
من فم الثعبان لتضيء له الطريق إلى أوكرار العصافير . .

إنها تشبه المشاعل التي كانت تلقىها الطائرات قبل إصابة الهدف ومع ذلك
ليست في رأسى فكرة واحدة ..

لا عصافير ، ولا صور ، ولا أهداف .. لا شيء ..

أريد أن أقول : إن اليوم هو عيد ميلادي .

طبعاً مسألة شخصية لا تهم أحداً .. وإذا حاولت أن أجعل لها مناسبة
فسأخذت قصبة كفاح .. قصة البن الذي هزته الأيام حتى جعلته زبدة .. هذه
الزبدة هي أنا وحياتي الآن ..

قصة الحديد الذي دخل النار فأصبح صلباً لاماً طرياً ..

هل أقول كنت طالباً فقيراً من أب فقير .. كافع هذا الأب حتى أكمل
تعليمي ..

قصة ابن لأم مريضة تعبت وشقيت حتى تعلم اينها وعمل .

لا أقول هذه القصة ولا أحبتها وأرفضها فهي مليئة بالادعاءات .. فأولاً :
أتصور أنني كنت فقيراً وأنا اليوم غني .. وهذا وهم ..

ثانياً : كأنني أقول إنني كنت لا شيء ثم أصبحت شيئاً .. وهذا وهم ..
وثالثاً : كأنني أريد أن أقول إن المسافة بيني الآن وبين الماضي قد بعدهت
في الزمان وبعدت في المكان ، وأنني لابد أن أذكرها حتى لا ينسى الناس ..

الناس ؟ وهل هذا مما يعني الناس ؟ إن أحداً لا تعنيه هذه القصة ..
ثم هناك وهم آخر هو أنني قطعت الطريق وحدى دون مساعدة من أحد ..
أو دون حظ ؟

لا شيء قد تغير .. لا شيء .. فأنا ما أزال فقير النفس .. متسلول العقل ..
مهلهل القلب .. وأنا وأفكاري وعواطفني على باب الله .. !

أما لماذا أكتب الآن .. فالسبب هو أنني أجمل مولداً جديداً ..
مولدى الجديد ..

فقد تلقيت من «أخبار اليوم» ثلاثة برقيات . كل واحدة منها هي شهادة
ميلاد ..

قالت البرقية الأولى : موضوعك عن الدلائل ممتاز نشرناه في الصفحة الأولى من أخبار اليوم .. موضوعك عن مشكلة كيرالا منشور في الصفحة الأولى من أخبار اليوم .. صورتك مع رئيس وزراء ولاية كيرالا منشورة على ثلاثة أعمدة في الصفحة الأولى .. أهنتك على بمحاجتك المتواصل الذي يقدره الجميع هنا . والبرقية الثانية تقول : موضوعك عن عربي باشا ممتاز أهنتك ولدك أحسن الترتيبات .

والبرقية الثالثة : موضوعك عن عربي باشا ممتاز ستنشره آخر ساعة بصوره ووناقشه أهنتك وأتمنى لك حظاً سعيداً .

لم أطلي شمعة وإنما حملت هذه البرقيات وصنعت منها شمعة وأشعلتها هناك بعيداً .. بعيداً في أعماق . . .

* * *

وانهارت هذه الفرصة السعيدة ، أو التي يجب أن تكون سعيدة ودعوت عدداً من الأصدقاء إلى أن يتناولوا طعام الغداء على حسابي . .

وليس معقولاً أن يقبلوا الدعوة .. فأنا ضيف عليهم . وقبلوا الدعوة ولكن بشرط أن أكون أنا على حسابهم . وهذا ما توقعته عندما دعوتهم طبعاً !

ولكنها حركة مكشوفة من جانبي كما فهمت . وأنا معذور فالفلوس لا تصل هنا إلا بصعوبة . والفلوس هنا لها أكثر من سعر . في البنك لها سعر . . وأمام البنك لها سعر . . وفي الشارع بعيداً عن البنك لها سعر . . ولكن الروبية الأندونيسية لا قيمة لها إطلاقاً في أي بلد آخر . إنها تشبه تذاكر الترام لا يمكن الاستفادة منها إلا في تراثوايات جاكرتا !

وذهبنا إلى أحد المطاعم الصينية . وكانت هذه فكرني وكنا خمسة .. سيدات ورجالاً .. وجاء الجرسون الصيني وقدم لنا قائمة الطعام .. والحقيقة أنها قوائم الطعام . .

وبدأت المناقشات الغريبة :

— من فضلك هات نمرة ٩٢ .. خمس مرات ..

هذا الرقم هو أحد مائة صنف مكتوبة على قائمة طعام طويلة جداً وباللغة

الصينية وترجمتها بالأندونيسية .

— يعني إيه نمرة ٩٢ ؟

— إنهم يضعون لكل طعام نمرة .. ونمرة ٩٢ هذه نوع من العصافير المشوية . وبعد دقائق جاء الجرسون ومعه عشرات الأطباق .. الشوربة بالشطة أو الشطة بالشوربة وأكواوم من الأعشاب من بينها أشجار الخيزران الخضراء المسلوقة .. وأعشاب أخرى تشبه البرسيم .. وحشرات تشبه الأسماك التي توحمت على الجمبري .. وأكواوم من الأرز المسلوق أو المسحوق أو المعجون .. وبدأت المناقشة مرة أخرى :

— معقول ده عصافير ؟ ..

— طبعاً أمال يعني أرانب ..

— أرانب يا شيخ بلاش قرف والنبي بلاش تجبيب سيرة الأرانب أحسن نفسى تغم على .. إنها تشبه القرآن .

— بلاش سيرة الفيران من فضلك .. أحسن أنا عندي قصة مقرفة .

— بلاش دلوقت .. خليها بعد الهباب ده .. وده إيه ده ؟!

— ده سرطان البحر ..

— أعود بالله ..

— من حق ، فيه حرم زميلنا « ... » عندها إيه ؟ ..

— بلاش السيره .. ربنا يشفينا وخلاص .. ربنا ما يكتب علينا المرض في أندونيسيا .. ده حتى الأسيرين بالروشتة .. شربة الزيت بالروشتة .. لا المرض هنا ولا الموت هنا ..

— ما حدش يعرف نكته ياجماعة ..

— أى والنبي .. بي ده معقول عصافير .. وناشفه كده ليه .. أمال فين الأجنحة بتاعتها .. وفين الكبدة والقنة .. أسأله كده ..

— جرسون .. بس مش عارف كبدة يعني إيه باللغة الأندونيسية .. دراج يشير إلى قلبه وهو يقول للجرسون إنه يريد شيئاً كهذا .. واحتفي الجرسون وعاد ومعه كمية من البصل .. وضحكتا ؟

- أما لو كانت دى أرانب .. تبقى مصيبة ..
 - حرام عليك .. أرانب فى البلاد الحارة دى ... أعوذ بالله .. خرج
 ثانى ... أف .. يا خبر ... إيه النار دى .. نار ..
 - وحشة خالص ...
 - بتتكلموا جد ... !
 - بنصلحك ... المطاعم الصينية نظيفة جداً ... ويمكن الاعتداد عليها دائمًا .
 وأحسست بالملل كأننا فى الفصل الأول من قصة «عودة الروح» لتوفيق
 الحكيم .. ففى هذا الفصل تدور المناقشات حول ورك الوربة وطوله وعرضه ومن
 الذى أكله ومن الذى اشتراه ومن الذى يطبخه .. إلى أن ظهر لنا صديق سادس
 وصحب مقعداً وجلس إلى جوارنا .. وطلب هو الآخر رقم ٩٢ وببدأ يتكلم مباشرة:
 - تعرفوا أن أحسن أنواع الصفادع هى التى أكلتها فى باريس ..
 - إزاي ؟
 - إنها طريقة لينة لها طعم للذيد .. ولكن هنا وأشار إلى الأطباق التى أمامنا ..
 حاجة لأنهم لا يعرفون كيف يحررونها فى السمن .. ثم لفهم يقتلونها .. طبعاً
 لا يذبحونها .. وهى صغيرة .. هات شطة يا جرسون .. إيه ده .. يا نهار ..
 واكتشفت بعد ذلك أن هذا الذى أكلناه ، لا هو صفادع ولا هو أرانب ..
 ولكن حشرة أخرى .. تمشى وتتمام على الجدران !

* * *

وضحكـت كثيراً في ذلك اليوم على الطريقة الأندونيسية أو على الطريقة
 المصرية .. ومن غير سبب ولسبـب ..
 ولم أكـد أصلـل إلى بيت صديقـ أحمد والـ حتى سـألـى سـؤـالـاً غـريـباً ،
 وطلـبـتـي أن أجـيبـ عنه بـسرـعةـ . قالـ ليـ . مـعاـكـ فـلوـسـ قدـ لـيهـ ؟
 قـلتـ : ليسـ كـثـيرـاًـ .
 قالـ : كـمـ ؟
 قـلتـ : مـائـةـ جـنيـهـ ! لـماـذاـ ؟
 قالـ : كـمـ وـرـقةـ ؟

قلت : عشر ورقات !

قال : يا نهارأسود .. أخيراً وجدت لك عملاً في أندونيسيا .

قلت : لا أفهم .

قال : في استطاعتك أن تدق الأبواب وتقول لله يا أسيادى الله !

.. . لقد خفض الرئيس سوكارنو قيمة الورقة من فئة ألف روبيه إلى مائة روبيه والورقة من فئة الـ ٥٠٠ إلى ٥٠ روبيه ..

وكان الغرض من هذا القرار هو القضاء على التهريب الذي يتولاه الصينيون إلى خارج أندونيسيا .

وأعلن الراديور أن الرئيس سوكارنو سيشرح الموقف للشعب . وجاء في بيانه الذي استغرق ١٢ دقيقة وأعلن فيه أنه راض تماماً عن هذا القرار وأنه يراه ضرورة لابد منها . وأن الطبيب يلجم أحياناً للدواء المر لشفاء المريض . ولكن لابد من الصبر والتضحية .

وأقبل الناس الراديور وعادوا إلى الكلام عن تخفيض العملة . وغابت الابتسامات على الحادث ، آه على الكارثة التي حلت بي في ذلك اليوم السعيد .. إنني مع الأسف لا أستطيع أن أمد يدي إلى أحد ، فقدتها أمي ، ثم رفعتها إلى أعلى وطلبت من الله أن يغتنم عن السؤال !

● أجراس طول الليل !

اليوم سافرت إلى باندونج .. الطريق إلى هذه المدينة التاريخية جميل . فيه غابات وأشجار وآساه وجبال وبراكين .. وحمامات للسباحة لا أعتقد أنني رأيت لها مثيلاً في أي بلد في العالم .. إن مساحة بعض الحمامات تساوي مجموع الحمامات الموجودة في كل نوادي القاهرة .. بل إنها أروع وأجمل ..

أما جاكرتا فحارة جداً .. والهواء يبلو أنه معتقل .. ومدينة جاكرتا تسمع فيها أجراساً غريبة طول الليل ..

ولكن إذا خرجمت من تحت الناموسية واجتزت حديقة بيتك – كل البيوت لها حدائق – فستجد أنهم مجموعة من الباعة المتجولين .. كل باائع له نداء خاص ، أقصد له جرس خاص .

ومن هذه الأجراس ستجد كلمات غير مفهومة : آه .. أوه .. آى .. آى .. آى .. إنهم ينادون على اللحوم والأرز والشاي والفواكه .. فال محلات التجارية تتركز في بعض المناطق .. ولا تجدها في مئات الشوارع ولا توجد وسيلة للمواصلات في جاكرتا إلا الريكيشا ويسمونها اليتشا ..

وجاكرتا تشبه بيروت . وقد لا تجد الهواء في « ساحة البرج » إلا بصعوبة في حين أن جبال لبنان رائعة .. إنها تشبه جبال المغناطيس فهي تمذب كل ما في جيوبك من مال وأنت سعيد !

وجاكرتا تشبه « بون » عاصمة ألمانيا الغربية .. فهذه المدينة هي قرية صغيرة

منخفضة أيضاً وليست صحية .. بل إن الناس يشكون فيها من الإرهاق والتعب المستمر.. لقد مكثت في بون أسابيع عديدة وكانت أهض من النوم وأنا مريض فعلاً كأني كنت أنام تحت السرير . أو كأن السرير كان يتمدد فوق .. أما باندونج هذه فهي جميلة .. مدينة أوروبية .. فيها فنادق ممتازة نظيفة وفيها نوادٍ ليلية . وفيها كل شعوب العالم . ولكنها في نفس الوقت مدينة أندونيسية فالفنادق قليلة ومزدحمة .

وقد طرقنا الفنادق واحداً واحداً .. ولم نجد غرفة واحدة ، وأخيراً عثرنا على زميل قديم في الدراسة . إنه يعمل أميناً لأرشيف السفارة العربية هنا وكان ينزل في غرفة بها سريران وتبعد إدارة الفندق إلى أننا سنتم جميعاً في غرفة واحدة .. وهذا ضد اللوائح . ولكننا قررنا أن نبيت في هذه الغرفة وإدارة الفندق قررت أن نبيت اثنان فقط .

وكنا نتناوب البقاء في هذه الغرفة . واحد يبقى في المطعم وأثنان في الغرفة فإذا جاء الليل سهرنا حتى ساعة متأخرة جداً . ونتهز فترة نوم الخدم وتسلل إلى الغرفة .. حتى الصباح .

وكل غرفة مزودة بكتاب من ست صفحات يحدّث عن كيفية استخدام التليفون الآلي - أي العادي عندنا - ومعظم الفنادق هنا لا توجد بها تليفونات وإذا وجد فهناك خط واحد فقط !

ومع ذلك فباندونج أحسن وأجمل مدينة في أندونيسيا كلها !

• • •

والمرأة الأندونيسية تعيش حياة المرأة الأوروبية . وهناك فتيات جميلات يمشين بالحملة في الشوارع ويتسمن لك ابتسامت عريضة جداً . ونحن في القاهرة نقول عن البنات الجميلات لهن بنات نادي الجزيرة أو شارع سليمان باشا وهنا يقولون : بنات شارع آسيا وأفريقيا الذي عقد فيه مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ .. أو بنات : آسيا وأفريقيا .. أ .. أ ..

وكنت أظن أن « أ .. أ » معناها في اللغة الأندونيسية أنهن جميلات جداً أو درجة أولى .. ففي اللغة الأندونيسية لا يوجد جمع . فلا يوجد رجال أو

أشجار أو بنات .. وإنما يوجد رجل .. أو شجرة شجرة .. أو بنت بنت .. فتكرار الكلمة الواحدة معناه الجمع .. وهم الآن يضعون فوق كل كلمة رقم ٢ للدلالة على أنها جمع ..

فهنات باندونج تستطيع أن تضع فوق كل واحدة منها رقم ٢ ، ٣ ، ٤
فهن أجمل ما في شارع : أ ! أى آسيا وأفريقيا !

والذى يرى غابات وبحيرات وجبال أندونيسيا . وحقول الأرز يشعر فعلا أنه أمام مائدة ضخمة .. مائدة خضراء عليها أطباق جميلة وبها ملاعق من ذهب وشوك من فضة وجرسونات وطهاء كلهم ممتازون .

ولتكنك في كل مكان تجد الناس يضحكون .. إنهم شعب ضاحك ولكنهم شعب قليل المرح .. فهم أكثر منا ضحكاً ولكنهم أقل منا مرحًا . والفرق بين الضحك والمرح كالفرق بين الذي يأكل الكثير من الطعام وبين الذي يتذوقه ويبتدع فيه أشكالاً وألواناً .. ونحن أكثر ضحكاً من الشعب الإنجليزي ولكننا أقل منهم مرحًا .. فليس عندنا أديب جعل من المرح فلسفة ومن السخرية سلاحاً كما فعل برنارد شو وأوسكار وايلد وويند هام لويس .

فالرجل الأندونيسى ضاحك دائمًا .. بل إنه مغرق في الضحك ولكنه لا يدرك النكتة ولا يخترعها .. ولا يطلب المرح ولا يتضمن فيه .. ويظهر أن المستعمرين لم يتر كوا لأندونيسيا شيئاً إلا الكنوز المطمورة في الأرض . والذى تركوه لأندونيسيا يحتاج إلى صيانة ودفع . فأندونيسيا لها شواطئ ٣ آلاف جزيرة لا يمكن الدفاع عنها أبداً .. ولذلك كانت ثروات أندونيسيا في غربال أو مصفاة ، فهي تساقط من تلقاء نفسها ..

والذى يهز الغربال ويضغط على المصفاة هم الصينيون .. إنهم أنشط الناس
وهم الأقلية والأندونيسيون هم الأغلبية ..

ولكنهم يضحكون .. دائمًا .. حتى إذا لم يكن على المائدة طعام وهم سعداء
بالطعام الذي تعلن عنه الأجراس !

• • •

والجو هنا جميل ونظيف .. فباندونج عالية بعيدة عن سطح البحر ومحاطة

بالغابات من كل الجهات . والناس هنا أحسن مزاجاً وأصنف بشرة . وقد تعودوا على رؤية الأجانب ولذلك فهم لا يندهشون لوجودهم ..

ومن الغريب أنك تجد عدداً من الهولنديين الذين كانوا مستعمرین لأندونيسيا - وبعض هؤلاء الهولنديين يحدثك عن خيبة الأمل التي ستصيب أندونيسيا بعد خروجهم منها لأن الأندونيسيين لن يتمكنوا من زراعة الشاي ولا استخراج البرول ولا استخلاص الحديد من الأرض .. بينما كانوا أثرياء أيام الاستعمار الهولندي . واللهجة معروفة لنا نحن أيضاً . لقد قالها الفرنسيون والإنجليز والأتراك عندما خرجوا من مصر . و قالوها عندما أهمنا القناة و توقعوا أن تقف الملاحة وأن تهجم الصحراء على القناة فتسدها وتحول السفن كلها إلى رأس الرجاء الصالح ..

وكل ذلك لأن المستعمرین قد تركوا هذا الفراغ الهائل الذي توهموا أنه سيبلغنا ! وهو كلام لا معنى له . ولابد أن يقوله الرجل الأبيض الذي خرج من إفريقيا السوداء وآسيا الصفراء !

وقد حدث في أحد المطاعم أن تعرفت على سيدة هولندية هي وزوجها وقد تأكدت من أنه زوجها لأنه لا يتحدث معها كثيراً أو قليلاً . وإنما ينظر إليها كما ينظر إنسان إلى فيلم رأه عشرين مرة ، أو إلى نكتة بايخة سمعها ألف مرة .. وفي كل مرة يلمسها يعتذر إليها . أو يعتذر إلى يده التي أخطأت الطريق إلى فتاة أخرى تبعد عنا بمسافة شخصين يلتهمانها بالنظر وبالكلام وباللمس .. والدفاع عنها بالحملقة إلينا !

قلت للزوجة الخزينة : جميلة أندونيسيا ؟

قالت : جداً .. هل أعجبتك ؟

قلت : جداً ..

قالت : أى شيء أعجبك فيها ؟

بساطتها .. ورقها .. وضحكاتها ..

ـ كم يوماً عشت فيها ؟

ـ ليس العمر بالأيام ولا بالستين ..

ـ شاعر أنت ؟

— العواطف هي التي تخلق الصورة التي يعبر بها الإنسان .. فاللوحة تختر الإطار الذي يناسبها .. والطعام يختار الطبق الذي يناسبه . فأنت لا تضعين اللحم في كأس .. ولا تضعين النبيذ في طبق .

— إذا لم يكن هذا شعراً فما الذي تسميه ؟

— أسميه صدقاً في التعبير أو محاولة لأن أكون صادقاً معك ..

— معى أنا ؟

— هل عندك مانع من أن أكون صادقاً معك ؟ .. وهل الصدق معك من اختصاص رجل آخر ؟ . هل تجاوزت حدودي ؟ أنا آسف !

— لا أسف أبداً . إنما أنت وصلت إلى نتائج بعيدة عن خيالي وبسرعة .

— أكرر أسفني .

— أو كد لك أنك أخطأت فهم ما أقول .. إنما أنا أتحدث عن أندونيسيا .
وعن الصدق عامة وليس عن الصدق معى ..

— ولكنني أتحدث إليك .. ولا أتحدث إلى الشعب الأندونيسي .

قالت : اسمع هل في بيتك أن تفسد هذه الليلة الجميلة ؟

قلت : إنما حاولت أن أكهر بها . أن أثير فيها بعض العواصف .. لكنني
نواجه هذه العواصف بأن يمسك كل منا بالآخر ضد الريح وبذلك نصبح كأننا
حائط منيع !

قالت : ومن أين تهب الريح ؟

قلت : من هنا .

والتقت عيوننا عند رجل واحد ..

وضحكـت وهي تقول : إنه ابني من زوجـي الأول .. وكان أندونيسيـا !
وكـنت أظنهـ صديـقـها .. وكـنت أظنهـ قد تـجـاهـلـهاـ وـانـشـغـلـ عـنـهاـ ! .

واستـمعـتـ منـ هـذـهـ السـيـدةـ إـلـيـ حـجـاقـاتـ الرـجـلـ الأـيـضـ فـيـ أـنـدوـنيـسـياـ — وـلمـ
أشـأـ أـحـدـهـ عـنـ حـمـاقـتـهـ فـبـلـادـنـاـ . وـكـلـامـهـاـ معـنـاهـ أـنـ هـذـاـ الرـجـلـ الأـيـضـ
لـوـ التـزـمـ العـقـلـ وـالـحـكـمةـ ، لـكـانـ ماـ يـزاـلـ عـلـيـ قـيـدـ الـحـيـاةـ هـنـاـ .. وـلـظـلـ سـيـداـ
لـمـصـبـ هـوـلـاءـ الـمـلـونـينـ ..

والسيدة الهولندية الأب ، الأندونيسية الابن . لم تدرس التاريخ ..
ولو درست التاريخ لعرفت أنه يحتم خروج الرجل الأبيض .. سواء كان مهذباً
أو حقيراً .

فلا بد أن ينتهي الاستعمار .. والاستغلال ..

ولابد أن تعود كل أرض إلى أهلها .. ولابد أن تعود كل قطعة أرض إلى
الذى يحرثها وتسابق على سطحها حبات القمح مع حبات العرق !

ونفضلت هذه السيدة ووجهت للشعب الأندونيسي نصيحة يعرفونها جيداً
وهي أن الهولنديين كانوا أرحم بزمان جداً من أبناء الصين . فالاستعمار الهولندي
كان واضح اللون ، أما الاستعمار الصيني فهو يتستر وراء نفس اللون الأندونيسي ..
فلامح الجسم واللون واحدة . ثم إنهم آسيويون ومعظمهم عنده الجنسية الأندونيسية ..
ولكنهم يودعون أموالهم بعيداً عن هذه البلاد !

وانتجه الحديث عن الأسعار والمنتجات التي تبيعها مدينة باندونج ..

وسمعت نصيحتها وذهبت في الصباح الباكر إلى محلات بيع الجلود .. فلم
أجد جلد القساح رخيصاً كما قيل لي .. فقد وجدت أن جلد التمساح الذي طروله
متر ثمنه حوالي ثلاثة جنيهات : وقد رأيت أن هذا الثمن بالمقارنة إلى الفلوس القليلة
التي معى ، غال جداً ، وحاول أحد الباعة أن يعطيني أسرة كاملة من التمساح
بعشرة جنيهات ولكنني رفضت مدعياً أن التمساح في السودان أرخص . والبائع
يناقشنى عن مكان السودان . ولكن لهجتى الحادة القاطعة جعلته يتراجع ويرتطم
بالحد الأدنى للأسعار . ويقف عند العشرة جنيهات !

وبخشت عن الأقمشة ، على سبيل الفرجة ..

ولاحظت أن الألوان صارخة ، وعليها لوحات فنية .. ولكن النوق مش
ولابد . أما التماثيل المصنوعة من الخشب ومن العاج ومن العظام فهي رائعة ورخيصة
 جداً . ووجدت أنه من السخف أن أملأ حقائبى بهذه التماثيل . لا لشيء إلا
 لأنها رخيصة !

وحاولت أنأشترى بنطلوناً ..

ولم أجده مقاسى في أي مكان .. ولم يحاول أحد أن يعذرني بتفصيل بنطلون

على قدى .. أو يعذى بالانتظار حتى يموت أحد الأميركيكان ثم يبكيه بتطلونه !
وعدلت عن الشراء نهائياً .. وتولاني فزع غريب عندما سمعت أن الثوار
ـ هناك ثوار ضد الحكم القائم ـ يحاولون الزحف على باندونج .. وأنه لن يمضى
وقت طويلاً حتى تكون أسرى حرب ..

وقد سمعت أن هؤلاء الثوار قد ألقوا القبض على السفير المصري . ولم يتركوه
إلا عندما تأكدوا من أنه عربي وأنه مسلم . فقد أزعموه على الصلاة وطلبو إلينه
أن يقرأ الفاتحة وقرأ الفاتحة . ثم طلبو إلينه أن يؤذن للصلاة . وأذن للصلوة .
ثم اختلف هؤلاء الثوار فيما بينهم . . بعضهم تشكيك في أن يكون هذا
السفير عربياً . فوجهه أبيض أميل إلى الحمرة . وعي睛اه خضراء وشعره أصفر ثم
أنه يرتدي الملابس الأوروبية . .

وأخيراً اتفق الثوار على أن يطلبوا إليه أن يقرأ سورة معينة من القرآن .
وشاءت الصدفة أن يكون السفير قد حفظ القرآن .. جانباً من القرآن عندما
كان طفلاً فقرأ هذه السورة .. واستوقفوه ليتلوا آية بالذات عدة مرات .
وتأكدوا أنه عربي وأنه مسلم وأنه ليس جاسوساً أمريكياً أو إنجليزياً يعمل
لحساب الحكومة ضد الثوار .

ومن الصدف النادرة أن هذا السفير كان يقود سيارته بنفسه ..
وستستطيع أن تخيل الرعب المزوج بالإعمااء الذي شل حركة السفير وهو
يقود سيارته بعيداً عنهم .

وقد أقسم لي كثيرون من العرب ومن المصريين ومن الرسميين في باندونج أن
هذه الواقعة قد حدثت . ولكنهم نفوا أن يحدث أى زحف على باندونج فهم
لا ينكرون وجود ثوار ، ولكن ينكرون أنهم بهذه القوة !

وربنا ستر ولم يحدث هجوم .. ولذلك عدنا سالمين إلى العاصمة . فريسة
للبعوض من جديد !

Ⓐ أنا في جزيرة النهود

الشيء المثير الذي كان يجذب السياح إلى جزيرة «بالي» هو منظر النساء عاريات الصدر ..

إن السياح يجذبون إليها من أنحاء العالم لكي يشاهدو تقاليدها ومعتقداتها التي تختلف تماماً عن تقاليد ومعتقدات ٢٤٩٩ جزيرة أخرى ..

إن أندونيسيا بلاد إسلامية ولكنها تحترم معتقدات الأقليات فيها .. وكان «أقلية» صغيرة وسط الشعب الإسلامي في هذه الجزء . ومع ذلك حافظت حكومة أندونيسيا على حرية العقيدة في الجزيرة الصغيرة الشهيرة .

جزيرة بالي يسمونها جزيرة النهود لأن معظم نسائها يعيش عاريات الصدر .

والذين سافروا إلى بالي إذا سألتهم قالوا لك إنهم ذهبوا ليراوا الجنال الرائعة والطبيعة الغنية والموسيقى الساحرة .. إلى آخر هذا الكلام !

إننا نعيش في عصر جين راسل وجينا لولو وصوفيا لورين وكلوديا كاردينالى ، وكلهن ذوات صدور عارية شاغحة ، وقد وصفت الدعاية السينمائية جين راسل بأنها صاحبة الصدر الذرى — نسبة إلى القنبلة الذرية — ولكن عندما رأيناها في القاهرة وجدنا صدرها ذرياً فعلاً ، ولكن نسبة إلى كيزان الدرة .

والصدر العالية مسألة هامة شغلت الفنانين والأدباء والشعراء .. ويقيم في هذه الجزيرة عشرة فنانين أوروبيين لا يرسمون إلا الصدر العاري فقط ..

وشاعرنا نزار قباني له ستة دواوين في وصف اليهود .. وشاعرنا على محمود طه عندما رأى تمثال فينيوس عالياً وصفها بأن لها ثديين عاليين « كأنهما يرعنان القمر » .

والفتاة اليوم لا تزيد - إذا تزوجت - أن يكون لها أولاد، حتى لا يفسدوا صدرها بالرضاعة فيترهل .. وقد عرفت شركات الجمال هذا الخوف عند المرأة فصنعت لها « السوتيليات » أشكالا وألواناً ، من الحرير ومن الكاوتش ..

* * *

ارتفعت بنا الطائرة فوق السحاب . وعلى الرغم من أنها بمحركين فإن طائرات « جارودا » الأندونيسية جيدة، والخدمة فيها ممتازة أيضاً . وبعد ساعتين نزلنا في مطار سورايايا .. ثم عادت الطائرة إلى الارتفاع فوق سحب كثيفة واهتزت بعنف حتى أحسستنا بأننا سنموت دون أن نرى « بالي » أو الجزيرة التي سقطت من الجنة . ويقال إنها سقطت من بين قدى آدم عليه السلام .

و« بالي » تبعد عن القاهرة .. كثيراً جداً ، والفرق الزمني هو ست ساعات وحين يخرج الناس من دور السينما عند منتصف الليل في القاهرة ، نصسو نحن من النوم .. ومساحتها نصف مليون فدان، وتقع تحت خط الاستواء بثانية درجات .. فنحن هنا في نصف الكرة الجنوبي .. وليس عندنا أمطار وإن كنا قريباً من الشتاء ، وعندنا درجة رطوبة عالية ، والذي يرى الشمس عند الشروق ، يجد لها قطعة من النار الملتهبة ، حمراء ذهبية دامية ، بل إن أشعتها تزييف من الدم .. أو شلال من الدم .. أو طاقة مفتوحة في حائط جهنم .

وعندما هبطت الطائرة إلى أرض المطار في مدينة دنباس التصقت وجوهنا بالنافدة نريد أن نرى سكان بالي .. طبعاً لم نجد إلا رجال المطار في أيديهم جرادل الماء وسلام وأعلام حمراء وبضاء ، وفي ملابس كاملة ، ودخلنا الجمرك فتم تفتيشنا بدقة ، مع أنها قادمون من جاكرتا ، أي من عاصمة أندونيسيا .

وركبنا السيارة إلى « فندق بالي » الكبير . وفي الطريق إلى الفندق كنا نختلس النظر إلى المارة .

وبعد ذلك عندما اقترينا من المدينة رأينا البنات يركبن الدراجات ، بالألاف ..

وجوههن سراء ، والبشرة ناعمة ، والعيون حلوة ، والشعر طويل ناعم وعليه عمامه بيضاء ، كأنهن خرجن من الحمام توا . والسيقان ممتلئة كأنها من الصلب المرن ..

ورأينا النساء جميعاً في ملابس عادية . وكنت أطلع إلى وجوه الركاب . إنهم جميعاً يخفون حقيقة مشعورهم . وكان إلى جواري رجل أمريكي . قلت له : — ما رأيك ؟

قال : وأنت ما رأيك ؟

— فقدت النطق .. فين الد ...

— يظهر أن المرأة أكلت صدرها .. لقد اخترني !

وكان العرب فيما مضى يقولون « تجوع الحرفة ولا تأكل بثديها » .. أى أن المرأة الحرفة تفضل الموت على أن تعرى صدرها أو على أن تبيع نفسها .. والعرب طبعاً لم يدركوا عصر المرضعات والدادات والمثلاط والراقصات . اللائي يعشن من صدورهن وهن في نفس الوقت يستمتعن بالحرية وأشياء أخرى كثيرة !

ولم يعرفوا أن هناك جزيرة اسمها بالى تعيش على ثديها . فذهب الناس إليها بملائين الجنيهات فاشترى بعض النساء البلوزة والسوتانيان !

وإذا عرفت البلوزة والسوتانيان فلن يجيء إليها الناس بعد ذلك !

وفي كل الشوارع تجد عشرات المعابد .. وهي تشغّل مساحات كبيرة من الأرض ، والناس هنا يفضلون تقديم الهدايا للهائل على أن يأكلوها .. ويفضّلون الحياة في ظل المعابد ..

وفي الليل تسمع أنواعاً غريبة من الطبول .

فالديانة هنا هي الهندوسية ، وهي تختلف عن ديانة الهندوس في الهند ، فقد أضاف إليها أهل بالى الكثير من المعتقدات الدينية ..

فالرجل من حقه هنا أن يتزوج أكثر من امرأة ، والرجل من حقه أن يطلق زوجته .

ولكن الجزيرة ظلت معزولة عن الدنيا لم يمسها أوربي واحد إلا في سنة ١٥٩٧ ، وكان هولندياً ، ومن يومها دخلها الهولنديون بالتدريج ولم يحكموها حكماً مباشراً إلا في سنة ١٨٨٢ ، ومع المولنديين دخل المسيحيون وبعض الهندوس أيضاً ، أما المسلمين فقد جاءوا بعد ذلك بعشرات السنين ..

والجزيرة لا تعتمد كثيراً على السياحة ، وإنما تعتمد على الزراعة وعلى صيد الأسماك وزيت جوز الهند .. والسياحة في أيدي الصينيين .. وفي كل مرة تجد معبداً أندونيسياً ، تجد إلى جواره فندقاً ومطعماً يملكونهما رجال صيني .

وكل شيء في هذه الجزيرة له قصة ، والقصة لها رقصة ، والرقصة لها موسيقى ، وله أوقات ..

فالسنة هنا ١٣ شهرآً تبدأ بنيلاث وتنتهي بشهر أفير .. وعدد أيامها ٢١٠ أيام ، ولا يمضي يوم واحد دون أن يكون هناك احتفال لأى سبب .. فالكثير من أهل الجزيرة يحافظون على تقاليدهم الموروثة ..

فالأم عندما تحمل ، يجب أن تتحفل الأسرة بهذه المناسبة السعيدة ، فيجيء الراهب ويقرأ قصص البطولة على الأم ..

ويروى لها قصص الأخلاق الكريمة ، ومعه تدق الموسيقى ..
وعندما يولد الطفل تتحفل الأسرة بهذا الضيف الجديد وتستقبله استقبالاً حاراً ، ويذهب كل أفراد الأسرة إلى الغابات فيجمعون ورقة من كل شجرة بحيث لا يزيد عدد أوراق الشجر على ٧٤٢٥ ورقة !

ثم يضعون هذه الأوراق تحت قدمي الأم ، وعلى الأم أن تخطاها عليها ورقة ورقة ، والراهب وراءها يسد خطها ويتمي أن يعيش ابناها بعد هذه الأوراق ٧٤٢٥ مرة ؟ ! .. ثم يحرق البخور ويأكلون جميعاً عشرات من أطباق الأرز المسلوق الموضوع فوق أوراق الموز ، ثم يأكلون رجل سلحفاة مائة ..
ويشربون عليها عصير اللوم ، ثم بعض الأسماك المحفوظة ..

وبعد ثلاثة أيام يعاد الاحتفال بالطفل الصغير ..

ولكن في هذه المرة يجب على الأم أن ترقص مدة ساعة .. ومعظم النساء يرقصن مدة ثلاثة ساعات بلا توقف .

وعندما يصبح عمر الطفل ٤٢ يوماً ، تختفل الأسرة كلها باستهمام الطفل لأول مرة ، تختفل أيضاً بتجاه الأم بعد الإغماء الذي أصابها . أما الراهب فلا يحضر هذا الاحتفال .
وأخيراً يعود أهل الطفل .

وعند منتصف الليل يحيى الراهب ، ويجلس بينهم دون أن ينطق بكلمة ، ويلتفون حوله ويسألونه ماذا حصل ، ولكنه لا يرد .. ويشير الراهب إلى الفرقة الموسيقية لكي تعزف لحنآ خاصآ وتعزف الفرقة وترقص نساء الأسرة العجائز أولاً ، والشابات ثانياً ، ثم البنات الصغيرات ، ويشير الراهب إلى خنزير فيذبحونه ، ثم إلى بطة فيذبحونها ، ثم إلى كتكوت صغير فيذبحونه .. ثم يضحك .
وهنا ترقص الأسرة كلها . .

وعندما يبلغ الطفل عاماً تختفل به الأسرة وتناديه باسمه الذي لم يكن يعرفه .. وفي هذا الاحتفال يجب أن يرقص الأب ، والطفل لا يلمس الأرض قبل مضي عام ونصف عام . .

وبعد ذلك لا تختفل الأسرة مطلقاً بأى عيد من أعياد ميلاد أى طفل ، ذكرآ كان أو أنثى .

وأول احتفال بعد ذلك عندما يصبح الشاب أو الفتاة في سن البلوغ . والشاب يبلغ في السابعة عشرة ، أما الفتاة في الرابعة عشرة .. وهذا حادث هام جداً عند الهنود .

وعندما تدرك الأم أن ابنتها قد بلغت ، تحرق البخور وترتل الألحان الدينية ، إلى أن يحيى الراهب ويدق الباب وتفتح له الفتاة وبياركها ويرش عليها الماء . وأروع الحفلات هي ولا شك حفلة الزفاف . ولا يزال الزواج حادثاً هاماً في حياة كل الناس ، في هذه الجزيرة وفي أى مكان آخر .. والأسرة تأتي بأثخر ما عندها من طعام وشراب ومال وملابس وزينات ورهبان .

وقد رأيت حفلة زواج استغرقت ١٨ ساعة . لقد حملت طعامى معى .. اللحم والأرز والسلطة والموز وجوز الهند والباباى – فاكهة تشبه قرع العسل – والقهوة ومقدماً مريحاً وبعض الصحف وبعض الشطة !



إحدى الرقصات المقدسة في أندونيسيا . .
وبصفة خاصة في جزيرة بالى التي تدين
باليديانتين البوذية والهندوكية . .



أم أندونيسية وقد حملت طفلها بين طيات ثوبها - منظر مألف جدأ ►



البساطة الشديدة أهم علامات الأزياء
في أندونيسيا عند الرجال والنساء .



المهم في هذه الصورة حب الزهور والظهور
أيضاً .. الزهور في اليد والرأس ... الخ .

كان بيت العريس يبعد عن الفندق حوالي ٢٩ كيلو متراً . والوسيلة الوحيدة إلى هناك ليست إلا عربة يجرها حصان ويسمونها هنا : الدوكار ، في بعض مناطق مصر يطلقون عليها نفس الاسم !

المهم أننا ذهبنا أولاً إلى بيت العروس . . ولم يكن هناك إلا أهلها و قالوا لنا إن العروسين في الطريق . ودخلت العروس مزينة وارتدى بلوزة من الحرير .. لا أعرف ما اسم هذا اللون . أعتقد أن اسمه « سيكلامان » وفي الريف عندنا يسمونه « لحم الموانم » . غير أنه لا يمكن أن توجد هاتم في الدنيا لحمها بهذا اللون . وتحت البلوزة الملفوفة حول الصدر ، توجد جيب ملفوفة أيضاً . ولكنها من الحرير المشجر ، الأحمر والأخضر والبني . . وفي أصعبها خاتم لا أعتقد أنه من الذهب .. وفي أذنها قرط أحمر اللون وهي تعمل راقصة .. وفعلاً جسمها لا عيب فيه . . جسم سليم عدل – بكسر العين .

والعرис كان يمشي وراءها . . إنه يلبس الطاقية كعادة أهل « بالى » . وهي قاشه يشبه الشال في الريف عندنا ، ولكنه من القماش المشجر . ويرتدى قيقاً مكويأً . . وبدلاً من أن يلبس البنطلون ، يضع حول وسطه فوطة كبيرة زاهية اللون ، ملفوفة ومعقودة من الأمام ، وفي قدمه حذاء ، وفي أصعبه مجموعة من الحواتم .. والعريس يعمل مدرساً في إحدى المدارس . . وهو باسم الوجه .. وصلى العروسان أمام الراهب في خشوع . . بينما وقفت الحجاة تشعل النار في الخطب .. ويظهر أن هذه هي مهمة الحجاة هنا : إشعال النار خارج البيت لا داخله !

ثم ينهض العروسان ويلفان حول هذا الكوم من القش ١٧ لفة . . وفي اللفة الرابعة عشرة تقف أخت العروس وأخت العريس ، وقد أمسكتا بخيط ، تعرضاً طريق العروسين . ولكن كل العروسين ، الواحد بعد الآخر ، يبعد الخيط من طريقه ، مرة بعد مرة . . وفي اللفة السابعة عشرة يتقدم العريس ويقطع الخيط ويأخذ نصفه ويضعه بين شعره . . وتأخذ العروس النصف الآخر وتضعه في شعرها . . ثم يجلسان مرة أخرى أمام الراهب .

ويمضى الراهب في صلواته وتعاويذه ثم ينزل العروسان أمام البيت . . وهناك

تجرى طقوس أخرى . . فكل منها يحمل شجرة جوز هند صغيرة . وعلى العريس أن يغرس شجرة العروس في مكان ما ، والعروس تفعل نفس الشي . والعريس يمسك الشجرة بيده اليمنى ، والعروس تمسكها بيدها اليسرى . ومع العريس تذهب أمه ، ومع العروس يذهب أبوها . . ويعودان بعد ذلك إلى بيت العريس . . وفي الطريق إلى بيت العريس ، تمشي أخت العروس وقد أمسكت بنراع العروس ، وأخوه العريس يمشي إلى جواره . . وتتردد العروس في دخول بيت الزوجية فيدفعها العريس إلى الأمام .

وفي بيت العريس توجد أكdas وأكdas من المدايا . . كلها عبارة عن مقاطف وسلام وقفف وكبات من الأرز المسلوق وأرجل الخنازير والدجاج . . وبين الحين والحين يتقدم أحد الجيران بهدية . . إنها أيضاً أرز مسلوق في « مشنة » لها غطاء من الخوص الملون .

وبعد هذه الطقوس يدخل العريس غرفته وينزع ملابسه ويرتدى ملابس أخرى . . وكذلك تفعل العروس . .

وبعد عشر دقائق يخرج العريس . . وتخرج العروس . .
ويبدأ جلوس المدعون . .

هل تعرف من الذى يقدم الطعام ، ومن الذى يقدم السجائر ؟
إنها العروس . . لقد انتهت الزفة وأصبحت زوجة عادمة . . وعلى حاتها أن تستريح ابتداء من هذه اللحظة .

هل تعرف أن التقاليد تقضى بأن الحمامة تبدأ في معاكسة العروس أول يوم فقط . وتضر بها وأحياناً تبصق عليها . . وتغيرها بأنها من أسرة فقيرة وأنها اختارت رجلاً غنياً . . في حين أن كل سكان الجزيرة من الفقراء !

• • •

أهم الاحتفالات جميعاً في هذه الجزيرة ؛ وفي أماكن كثيرة جداً في العالم هو تشيع الميت . .

والآهرام عندنا هي أكبر مقابر في التاريخ . .
وهي تدل على حفاوة المصريين القدماء بالموت والبعث بعد الموت . .

وكذلك هؤلاء الهندوس يرون أن الموت هو مجرد انتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر ..

والبيت الذي يدفن في الأرض ينتقل على مهل ..

أما الذي يحرقونه فهو ينتقل بسرعة ، وكأنه انتقل إلى السماء في صاروخ .. ولذلك لابد من حرق الميت .. وعملية الحرق لا تتم بعد وفاة الإنسان .. وإنما يجب أن يستعد أهل الميت ليوم الحرق لأنه يكلفهم الكثير جداً من المال .. فلابد من القرابين الغالية من اللحوم والملابس وأدوات الطبخ وغرف النوم .. وكلها يجب إحراچها أيضاً . أما الذي يكلفهم أكثر ، فهو النعش ، لأنه لا يكون من الخشب العادي ، بل من الخشب الغالي جداً ، ويجب أن يكون على هيئة ثور .. وهذا الثور يركبه أصغر أبناء المتوفى .. والميت والثور وأصغر أبناء المتوفى يحملهم جميعاً أقارب الميت .

أما الجنائز فتقديمها أجمل فتيات الأسرة ، وقد حملت كل منهن برجاً عالياً من عدة طبقات . وكلما ارتفع البرج ، كان دليلاً على ثراء الميت .. وفي أعلى البرج توضع دجاجة حية .. والدجاجة ترفف بمناحيها ..

وفي مكان ما توضع كل هذه الأشياء ، وبعد صلوات طويلة ، وموسيقى وغناء وتراتيل ، يقف الراهب ويشير بيده ، وقد أدار ظهره للميت .. وهنا ينبعض ١٣ رجلاً ويصبون الزيت فوق كل هذه الأشياء ، وتشتعل النار وبعد مدة نصف ساعة تفوح رائحة الميت .

وتنهي الحفلات في هذا اليوم .

وفي اليوم التالي ذهبت مع الألوف في سيارات وعربات .. واجتمع أهل القيد حول بقايا النار ، وفي موسيقى عاوية جمعوا هذا الرماد ووضعوه في إناء واتجهوا إلى البحر .. وألقوا به في مكان حدده الراهب .. وعادوا إلى بيتهم .

ولا يكاد يمضي يوم من الأيام دون أن يكون هناك رقص أو غناء ديني فعندهم ١٩٨ عيداً دينياً .. وبعض الأعياد تقتضي الرقص والغناء حتى الصباح .. وعدد هذه الأعياد « الصباحي » ٣٢ عيداً . أكبرها عيد يوم ١٣ أغسطس .

وكل رقصة لها قصة دينية . . وهذه القصة يرويها أحد المنشدين في أثناء الغناء والرقص .

ولا شك في أن أبناء وبنات بال من أربع الراقصات في العالم . .

فالطفل يتمرن على الرقص والغناء وهو في الثالثة من عمره . . وقد رأيت أطفالا في الخامسة والسادسة من العمر يعزفون بخفة وإتقان تام على آلات معقدة جداً . . ورأيت فتيات صغيرات في التاسعة والعاشرة يرقصن ساعات كاملة ، دون أن ترى على وجه واحدة منهن أية علامات التعب ، أو يظهر عليها العرق . . وهذا يدل على أنها ترقص بأقل مجهود ممكن .

والفتيات الصغيرات هن راقصات خاصة ، أشهرها رقصة اللاجونج . .

وحفلات الرقص هذه كان يعدها الفندق هنا في مدينة دنبارس ، ولكنهم عدلوا عنها في هذا العام . . والحفلات كلها تقام بعيداً عن المدينة ، وفي قرية « ياوبيني » على مسافة عشرة كيلومترات من هذه المدينة ذهبنا لتشهد رقصة اللاجونج . . .

لقد جلس الناس في مكان يشبه الجرن في الريف ، كلهم على الأرض . والفرقة الموسيقية مكونة من عشرين عازفاً على الطبول الطويلة المستديرة والمربعة وعلى الحديد ، ومن نافخين في المزامير أو عظام أصلها أرجل بقر أو خيول . . وفي أقصى اليسار إذا كنت تنظر إلى الفرقة الموسيقية — توجد شبه خيمة . ووراء هذه الخيمة اختفت الراقصات . . وبين الحين والحين ، ترفع راقصة طرف الخيمة من أسفل قبليو قدمها ويصرخ الناس كأنهم رأوا شيئاً لا يجوز أن يروه . . وتتعدد الرقصة وترفع الستار إلى أعلى شيئاً فشيئاً وصرخات الناس تتبعها . . وأخيراً تخرج واحدة ثانية وثالثة . . وعشرون فتيات في سن الثانية عشرة . . وقد ارتدين ملابس جميلة ويرقصن يميناً وشمالاً . وملئ عيون كالحرز الأسود ، تتحرك معاً يميناً وشمالاً ، كأنهن إحدى اللعب اليابانية . . ولهن حركة عصبية غريبة . فالواحدة تمبل إلى أحد الجانبين حتى تكاد تسقط على الأرض ، ثم ترتفع في سرعة خاطفة . . أما أصابع اليدين فهي تتمشى مع نغمات الموسيقى في دقة تامة . وحركات هذه الرقصة معقدة جداً . ولكن الخطوات مضبوطة تماماً كأبرع

راقصات البالية في أى بلد أوربي .

و هذه الرقصة كانت لا تقام إلا في القصور ولكنها أصبحت الآن شعبية ، وهي تروى قصة أحد الملوك الذي كان يتشاءم لأنفه الأسباب . فإذا مشى في الطريق و تعرّف حجر ، عاد إلى البيت إيماناً منه بأن هذا الحجر دليل على النحس .. وإذا عطس فهو يرتعد ، ظناً منه أن روحه كادت تخرج منه . . وفي يوم من الأيام وقف غراب فوق رأسه - والغراب دليل على النحس في هذه البلاد أيضاً - وكاد الملك يموت . . فهجم على الغراب و قتلته . ولم تمض أيام حتى مات الملك نفسه ، وفي اللحظة التي تخرج روحه فيها ، يظهر الغراب فوق رأسه ، فالغراب لم يمت ... ومعنى ذلك أن النحس سيلازمه في رحلته إلى العالم الآخر .

أما كيف تعبّر الفتيات الصغيرات عن هذه القصة ، وكيف تصور أصابعهن الصغيرة طيران الغراب و رفرفته فوق رأس الملك ، وكيف ازعجت لروية الغراب ... بل كيف ازعجت هذه الموسيقى البدائية ، شيء لا يمكن وصفه ..

والذين رأوا باليه «بحيرة البجع» على مسرح الأوبرا في القاهرة أو في باريس أو روما ، ودهشوا ولم تنته دهشتهم سيصابون بذهول إذا رأوا في جزيرة بالي «رقصة الحوريات الأربع» .

و رقصة الحوريات الأربع ناعمة لطيفة لا تخلو من معنى ديني وأخلاقي و فني . . الحوريات أربع فتيات في سن الثانية عشرة ، ويجب ألا تزيد الواحدة على هذه السن أبداً . . هكذا التقليد . . وقد ارتدين ملابس فضية و وضعن الورود على الرؤوس و حول الآذان . . والرجال أيضاً يضعون الورود خلف آذانهم وفي آذان التمايل أيضاً . . و مرت علينا الراقصات وأخذ كل منا وردة و وضعها وراء أذنه . . وكلما سقطت الوردة لأى سبب عادت إحدى الفتيات ووضعت وردة أخرى . . وبعد ذلك يبدأ الرقص . . .

ولست في حاجة إلى أية لغة لكي تفهم قصة هؤلاء الحوريات . . فقد حدث ذات مرة أن ذهبـت أربع حوريات إلى البحر و نزعـن ملابسهن الممحورة . . وفي ذلك الوقت مر صياد ، وهو شاب جميل ، ونظر إلى الحوريات وأعجبـته واحدة منهن ، فأخذـن ملابسـها ثم توارـى وراء الأشجار و راح ينـفحـ في النـاي . .

وسمعت الحوريات صوت الناي فأنطلقن إلى الشاطئ . وارتدت كل منهن ملابسها واختفبن عن الأنظار . إلا الرابعة ، أجملهن جميراً . فإنها لم تجد ملابسها . آه لو رأيت هذه الراقصة وهي تبحث عن ملابسها . آه لو رأيت الموسيقى التي تشبه المنشات وهي تكنس الأرض بحثاً عن هذه الملابس . إنها لوحة بدائية مثيرة . وهنا يظهر الصياد ، وترجوه الفتاة وتركع عند قدميه .

ويوافق على أن يعطيها ملابسها بشرط أن تتزوجه ، وتقبل الفتاة ، ولكن الصياد يرفض أن يتزوجها لأنه لا يجب أن يتزوج فتاة بالإكراه . وإن كانت تقاليد الزواج هنا هي أن يخطف الفتى عروسه ويختفي في بيته ثلاثة أيام ، ثم يضع أهلها أمام الأمر الواقع .

ثم يقول لها كلاماً معناه : لاني لا أريد الزواج منك الآن . ولكن فيما بعد ، فقد أحبيتك منذ وقت طويل . وترفهموا الموسيقى .

* * *

وهناك رقصة تشبه رقصة العرب في محافظة البحيرة ...

وأنا لا أزال أذكر هذه الرقصة بوضوح فلها عندي ذكرى لا يمكن أن أنساها . في محافظة البحيرة نجد العرب يرقصون ويندون : وين .. وين .. ياعرب ويلتغون على شكل دائرة وترقص بينهم فتاة ثم تشير بعصاها إلى واحد من يمسكون لها الوحدة بالتصنيف فيتجه إليها ويرقص معها . ويسعده الواقفون لأنها اختارته دون غيره .

وهذه الرقصة يسمونها هنا « رقصة الدلال » . فالفتاة ترقص وحدها وفي يدها منديل ، ثم ترى المتذيل على أحد الحاضرين فيهض للرقص أمامها .. والذى يرفض أن يرقص أمامها - كما فعلت أنا - تعتقد أنه هانها إهانة شديدة . . . ولم أمسح هذه الإهانة إلا عندما تظاهرت بالعرج بعد نهاية الرقصة !

والفتاة لا تزال تختار الواحد وراء الآخر حتى يصل عددهم إلى 11 راقصاً ، وبعد ذلك ترقص وحدها والحزن ياد على وجهها وعلى ما أصابها ، لأنها لم تجد الفتى الذى تريده . ويخرج لها من بين الحاضرين أحد الراقصين المخترفين

ويرقص معها ساعة كاملة وهي سعيدة به . . . وتحتم الموسيقى هذه الرقصة
لا بالتدريج ولكن «قطم» . . . مرة واحدة !

وأجمل الرقصات التي رأيتها في جزيرة بالي ، هي رقصة «البارونج» وهو
حيوان يرمز به للخير ويشبه الأسد . وهذا الحيوان قد نزل من مكان لا يعرفه
أحد ليساعد الناس في القضاء على «الرانجا» وهو الشر . . . وهو يشبه
الغوريلا . . أما إله الخير فيمثله اثنان من الرجال يلبسان معاً هيكلان من القماش
له ذيل ورأس وأنياب ، ويرقص الرجالان معاً برشاقة وقد تعلما بعض التهريج
لإرضاء السياح الأجانب ، فقد رأينا الأسد هذا يعاكس الأطفال الصغار وينحرج
عن نطاق الموسيقى . . .

ويبدأ الصراع بين الخير والشر ، فالشر يريد أن يقتل شاباً صغيراً وحيداً
أمّه . فيتدخل أحد خدام الخير ويعطي هذا الشاب الحياة الأبدية . ولكن الشر
لا يعلم ويحاول قتله ، أو أكله فيفشل . . .

ولا يسعك إلا أن تنبه وأنت ترى ضربات السكين والموسيقى معاً . .
ومحاولة وضع الأنابيب في جسم الشاب ومعها الناي . . فعلاً منظر جميل جداً .
كل ذلك يجري على التراب ومن حفاة لا يعرفون القراءة أو الكتابة وينتقلون
من هذه القرية إلى المدينة التي تبعد عنهم ٢٠ كيلومتراً .

ومن بين الراقصين رجل عريان في السبعين . . إنه أخف وأرقى من كل
الراقصين . . إنه يقفز إلى أعلى وينزل على السلم الموسيقى في غاية الرشاقة . . وقد
علمت أن هذا الرجل سافر إلى أمريكا وظهر في برودواي ، ولكنّه لم يتمكن من
إظهار براعته — لأنّه أصيب بسعال شديد — لقد كانت هذه الرحلة لأول مرة
في حياته واضطُرَّهُ الأمريكيةون إلى ارتداء ملابس كاملة . . !

ولكن هل ينتهي الصراع بين الشر والخير . طبعاً لم ينته ، فقد رأيت أنصاراً
إله الخير يحاولون قتل إله الشر . . وينجحون في قتله ويرقصون . . ولكن الشر
يعود إلى الحياة وهم يرقصون . . فيحزنون حزناً شديداً ويضربون أنفسهم
بالسكاكين والسيوف وينتربعون على الأرض . . وفجأة يظهر الخير ويندّو
المحل على الشبان . ولكن الخير يختضنه ويقول لهم كلاماً على لسان السيدة التي

تروى قصة هذا الصراع : إن الشر لن يموت وأنتم متفقون .. يجب أن تتساوا
كالأسنان في الدفاع عنى .. ولكنكم لم تفعلوا ...

ويزداد حزن الشبان ، ولكن الخير يتركهم ويتجه إلى صراع الشر الذي
فوق أحد السلام ... ويصعد إليه الخير ويختفي الآثاث .. وبين آونة وأخرى
تسقط علينا ملابس إله الخير وملابس إله الشر .. ومعنى ذلك أن الصراع مستمر
 أمام عيوننا وفي أماكن أخرى لا زراها .

واللوحة الفنية الكاملة هي رقصة الوداع .. إن هذه الرقصة ليس فيها
موسيقى .. ولأن الفرقة الموسيقية تتكون من هؤلاء الراقصين وهم يجلسون حول
عمود النور في ظلام .. ويتقدم واحد منهم ويشعل المصباح والراقصون يصرخون
 حوله ويرددون كلمة : « كاتشاك .. كاتشاك .. » مئات المرات .. ويرقصون
معظم الوقت وهم جالسون ثم يترنحون ويرتّجى بعضهم على بعض في صورة فنية
جميلة . وبين هؤلاء تظهر فتيات صافيات البشرة والألوان .. فساتينهن زاهية ،
 وعلى رءوسهن أكdas من الورد والياسرين على هيئة تاج تبرز منه ريشة ذهبية ،
 وبيداً الرقص .. وهم جالسون ، وهم نصف جالسين .. وهم واقفون ، وهم
 راكعون ، وهم ساجدون .. كل حركاتهم مضبوطة جداً ، رشيقه ناعمة جداً ..
 وبيداً الرواى يمحى لنا قصة الوداع .

وكل قصة وكل حوار له رقصة رائعة .

وفي عيد استقلال أندونيسيا ، أقيمت حفلات استعراض رائعة في القصر
الجمهوري . ومن بين هذه الرقصات كانت رقصة الوداع . وقامت بها مائة
فتاة وصفقت الجماهير وصفرت .. ولكن عندما بدأ الرقص أحمس الناس بخيبة
أمل هائلة ، فعلى الرغم من أن الفتيات جميلات . فإن الرقص لم يكن جميلاً .
 فكل الفتيات كن من العاصمة ، وليس بينهن واحدة من جزيرة بالى .. وعلى الرغم
 من وجود مسرح وأزياء أنيقة وموسيقى ، فإن رقص بالى الذي يقوم به الرجال
 العراة والحفاة وفي الطين ، كان أروع ...

وكانت هذه هي أحسن تخيبة لجزيرة بالى .

هذه الأعياد ترفع فيها الأعلام وتدق فيها الطبول لتدعو الناس في

جزيرة بالى إلى رؤيتها . . وهذا ما يشغل الناس ليلاً وحتى الصباح . .
أما الذى يشغلهم نهاراً فشى آخر .

ففي كل بيت تجد عدداً كبيراً من الديوك . وأمام كل بيت تجد أقفاصاً
دائريّة . وفوق كل قفص قالب طوب وتحت القفص يوجد ديك كبير تبدو
عليه الشراسة .

فصارعة الديوك هي المواية المفضلة هنا .

ولو رأيت الأموال التي يدفعها الناس عند مصارعة الديوك لاحسست أنهم
من أصحاب الملايين .

والديك ثروة وصاحب الديك يستطيع أن يتفاخر أمام الناس كصاحب خيول
السباق الناجحة . فهذا فلان صاحب الديك ثعلب أو الديك قرد أو الديك رعد ،
والشارع يعرفها الناس بالديوك الموجودة بها . . وقد ظللنا نصف ساعة نبحث عن
الشارع الذي يوجد به مكتب شركة الطيران ولم نهتد إليه . . والذى أدهشنا أن
الناس يسألوننا : بالقرب من أى ديك ؟

وطبعاً لم نعرف . وأخيراً عرفنا أن مكتب الطيران في شارع « الديك الأبيض
بلا نقطة سوداء » .

وصاحب الديك يظل طول اليوم يسن أصابع الديك وبنقاره . . وكان أصحاب
الديوك فيما مضى يضعون السموم في أصابع الديوك وفي مناقيرها ولكنهم عدلوا
عن ذلك لأن هذه السموم تنهي المعركة بسرعة وذلك بقتل أحد الديكين أو
الاثنين معاً !

واكتفوا بوضع سكين مربوط إلى ساق كل ديك . . سكين قاتل .

والغريب أن عدد المقامرات أكبر من عدد المقامرين . ومن الممكن أن
تبعد الزوجة تكسب من هذا القمار ويخسر الزوج . ويقال : إن المرأة اختارت
القمار لتنعم بالراحة في بيت أهلها بعيداً عن الزوج ؟

أما جمهور الديوك فيشبه جمهور الكرة عندنا . .

وبعد انتصار الديوك تقام حفلات رقص وغناء في الشوارع المجاورة وبعض
الناس ينقشون اسم الديك على أذرعهم ، أو على صدورهم ، أو يطلقون اسم

الديك على أولادهم أو على دكامتهم . . وفي بيت صاحب الديك الذي فشل في المصارعة يخيم الحزن والغم .
وكان أبي من هواة مصارعة الديوك أيضاً !

* * *

ومن أهم معالم هذه الجزيرة سيدة جميلة هي الآن أرملة طروب واسمها السيدة « نى باللث » وهى زوجة الفنان البلجيكي لوماير . تسكن في البيت الذى تركه الفنان لها بالقرب من شاطئ صافور وفندق سيجارا . . والمسافة بين بيته وبين الفندق حوالى عشرة كيلومترات ..

ذهبت إليها في الساعة الرابعة بعد الظهر . وهو موعد قيامها من النوم هكذا قالوا لنا ، ووجدنا باب البيت أو المتحف مفتوحاً ودخلنا فلم يقابلنا أحد . اللوحات على الحائط لهذه الأرملة الجميلة وكلها من رسم زوجها لوماير . لوحات بالزبرت وأخرى على الخشب وعلى القماش وعلى قشر جوز الهند ، وانتقلنا من غرفة إلى غرفة . . ووجدنا سيدة قد تمددت على سرير . . وراجعنا . . ولكن خادمة عجوزاً طلبت إلينا أن ندخل وخشينا أن نزعج السيدة النائمة ، ثم عرفنا أنها هي الأرملة . ودخلنا ووقفنا إلى جوار سريرها نتظاهر بأننا لا ننفرج عليها ، ولكن السيدة ظلت في سايع نومة ، كأن أحداً لا يتحرك في الغرفة ، لقد تمددت على السرير عارية تماماً وأدارت وجهها للحائط ولم نر إلا جسمها النحاسي الطويل الممتلئ ، وإلا بشرتها الحية ، وإلا جانبها من وجهها اللامع . وخرجنا بعد أن تعمد بعضنا أن يحدث أية ضجة لإيقاظها . ولكنها لم تتنقلب !

وعرفنا من الخادمة أنها ستصحو في الساعة الرابعة والنصف . . وهي تصحو عادة من تقاء نفسها . . وسألناها وكيف تعرف الوقت بالضبط ؟
وأبدت الخادمة حيرتها وأشارت إلى السقف ومعناها دى حاجات بتاعة ربنا ؟
وفى اليوم التالى قابلناها على الشاطئ . لقد نزلت تستحم وحدها وحارست عدسات السائحين بين أيديهم وبين أمواج البحر ثم خرجت سراء بالى إلى الشاطئ تتنفس الماء عن جسمها وتلقى به فوقنا وكانت تقول : حصوة في عين اللي ما يصلى على النبي !
ورددنا هذه العبارة بلغات مختلفة . .

وأما الأمريكيون فقالوا : تساوى مليون دولار !

وأما الفرنسيون فقالوا : إنها غجرية رائعة .
والإيطاليون قالوا : ياما .. وكيف يموت أى إنسان إذا كانت هذه زوجته ؟
ولغات أخرى لا أعرفها .. بالياباني والصيني والأندونيسى ..
سألتها : وكيف تمضين الوقت ؟
قالت : ألم تأت أمس إلى البيت ؟
قلت : جئت فعلا .
قالت : هكذا أمضى وقتى .
قلت : في النوم ؟
قالت : وفي الاعتدار عن النوم الطويل للسائرين أمثالكم ..
ولم أجرؤ على سؤالها كما فعل سائح أمريكي : ألم تفكري في الزواج ؟
فأجبت : لا أفكر .
وقال : ولماذا ؟

قالت : ليس هناك من هو أحسن من زوجي !
وسألهما أمريكي آخر : وأنت الآن ألا تسمحين لأحد أن يرسمك كما كان
يفعل زوجك ؟
فأجبت : لا أسمح .

ونعمت بعينها غمرة أوربية فقلنا لابد أن هذه من عاليم المرحوم !
وانقلنا معها إلى البيت . وعرضت علينا لوحاتها وكانت تقف إلى جوار
كل لوحة .. ونظر إليها وإلى اللوحات .. وكنا نقول : هي أجمل .. وكنا
نقول : ولكن اللوحات أبقي !
إن بيتها وسور بيتها وملابس الخدم والأبواب والنماذج وكل شيء فيه عمل
فنى كامل .. وصورها العارية تماماً هي من أروع ما رسمت ريشة زوجها الفنان
الكبير .

والذى لم ير هذه الأرملة الجميلة كانه لم ير شيئاً هاماً جداً في جزيرة بالى
فهي تمثل حياة فنان كبير جاء من بلجيكا وقع في غرام هذه الراقصة واختارها
لنفسه ، وعاش لها كل سنواته الأخيرة .. وإذا كانت الفتاة لم تستمتع بالحياة

مع الفنان الكهل فإنها قد صحت من أجل جزيرة بالي ، فهى تشبه عروس النيل
التي كان الفراعنة يلقون بها في النيل ليفيض . . وقد فاض نيل السائرين هنا
بملائين الجنبيات كل عام . . فالناس يحيطون من آخر الدنيا ليروا الرقصات
الدينية والمعابد وهذه الحسناء . .

هذه هي جزيرة بالي — بالك

بالي . . هو اسم الجزيرة أما « بالك » فهو اسم زوجة الفنان البلجيكي الذى
تعيش فى أروع معرض صنعه زوجها فى أروع جزيرة .

* * *

ما رأيك فى رحلة إلى هذه الجزيرة التى يصعب أن تحددها على الخريطة . .
أنا أقول لك على السكة : أركب الطائرة من القاهرة إلى بومباى بالهند
في ٩ ساعات ، ومن بومباى إلى مدراس فى أربع ساعات ، ومن مدراس إلى
كولومبو عاصمة سيلان فى ثلاثة ساعات ، ومن كولومبو إلى سنغافورة فى ست
ساعات ، ومن سنغافورة إلى جاكرتا عاصمة أندونيسيا فى ساعتين ، ومن
جاكرتا إلى سورابايا فى ساعتين ، ومن سورابايا إلى دنباسار عاصمة جزيرة بالي
فى ساعة واحدة . . والمسافة قصيرة كما ترى وهي فرقة كعب لا تزيد أبداً
على عشرة آلاف كيلومتر !

(٢)

الجزيرة تشبه المعبد الكبير . كل ما فيها صلاة ، ولكنها معبد بناء ويصل
فيه فنان . ولذلك فالصلوات فيها فنون : رقص وغناء وموسيقى .

ليلاً ونهاراً .

وكل أبناء الجزيرة فنانون . . الصغار والكبار .

وفي جزيرة بالي أرشق الرجال . . وأجمل النساء في كل أندونيسيا . والوانهم
سماء فيها صفرة خفيفة . . ولكن المرأة الأندونيسية رشيقه وقوامها نحيف . . ومن
النادر أن تجد امرأة بدينة . . نادر جداً . .

عشت في هذه الجزيرة أسبوعاً لا أرى إلا الرقص وإلا الغناء ، كأنني أخطأت

الطريق إلى بالي . . وذهبت إلى أحد معاهد الموسيقى حيث الأطفال والشيوخ
يتترنون على الرقص قبل استعراض كبير . .
وأروع ما رأيت هناك هو حفلات الزواج وحفلات حرق الموتى . . وصلوات
وطقوس وهدايا .

وكل الناس ي يكون في الأفراح وفي المآتم . .
لأنهم يشعرون أنهم فقدوا عزيزاً عليهم . .

اذكر أني ذهبت لروية عقد قران . . البيت متواضع جداً . . وبشه ببيوت
الفلاحين عندنا . . العروس حلوة صغيرة في السن . . والعريس أكبر منها بحوالى
عشرين سنة . . ولكنه رغم ذلك رشيق ووسيم . . جلس العروسان أمام الراهب وهو
المأذون الهندوسي – والهندوسية هي دين الجزيرة – وراح يقول كلاماً طويلاً لم
أفهمه .

وطالت الصلوات والدعوات .

بحثت مقعدي إلى الوراء وجلست في أحد الأركان ورحت أتحدث إلى
المرشد الذي جاء معنا . .

وقلت : هذه فتاة جميلة فعلاً .

وأشرت إلى إحدى قربنيات العروسين . . ونظر المرشد إلى فتاة في الثامنة عشرة
من عمرها سمراء نحيفة عينها سوداوان وشعرها أسود ولها ملامح مرسومة بعنابة
غريبة وضحك المرشد قائلاً :
عاوز تتجوزها .

فصحكت . . وعاد هو يسألني ضاحكاً : عاوز تتجوزها .
فقلت ضاحكاً : أيوه ...

وطبعاً هذا كلام . . مجرد كلام .

وابناء أندونيسيا يصحكون على الفاضية وعلى المليانة . . وعندما يفهمون
يصحكون وعندما لا يفهمون يصحكون أيضاً .

وعدنا إلى الراهب إنه لا يزال يقوم ويجلس ويطلق البخور ومللت مراسم
الزفاف . . فوقفت أمام بيت العروسين أتعلم إلى الرجال وهم يحملون جوز

المهد ووراءهم النساء . وقد وضعت كل مهن وردة وراء أذنيها ..

وبعد ساعة عدت إلى بيت العروسين فوجدت الراهب لا يزال يقول كلاماً ،
والعربي باسم الشغر والعروس سعيدة .. وبين الحين والحين ترفع رأسها ولكنها
تقول شيئاً . والكلام حرام عند عقد القرآن ..

دخلت أرى آخر مراسم الزواج .. .

وأشاروا إلى لكي أجلس .. وجلست وراء الراهب ..

ثم أتي بمقعد وجلس أمامي .. وراح يقول كلاماً ويلف بالبخور حول
رأسى .. ويقدم لي جوز المهد .. وأمد يدي وأطبق يدي على قطعة من جوز
المهد الجاف كالحجر . ويدور الراهب حولى ..

وجعلت أتلفت وأحسب الوقت الذي سيقطعه الراهب في اللف حول
عشرين رجلاً وسيدة من الأميركيين والألمان والفرنسيين والإيطاليين جاءوا
لمشاهدة عقد القرآن .. سيسفر ساعتين على الأقل ..

ولكن الذي حدث هو أنه بعد أن دار ولف حولى .. تركني وعاد إلى
مكانه .. وبعد لحظات أتوا بمقعد ووضعوه إلى جواري وفوجئت بفتاة تجلس
إلى جواري .. إنها نفس الفتاة التي قلت عنها إنها جميلة .. وراح الراهب يدور
حولي .. وأصبت بذهول .. إنهم أخذوا المسألة « جد » .. مش معقول .

لأنني أنظر إلى وجه الفتاة فأجده قبيحاً . وأرى عينيها كعیني البقرة .. وأرى
أنفها كأنه مقبرة وشعرها الأسود القائم كأنه مجموعة من السلاسل وخيوط النايلون
الأسود كلها سلحف حول عنقى .. حول حياتي .. وأنظر إلى قدميهما وقد اخذتا
لون التراب .. وأرى فستانًا يشبه قماش المراقب ..

وأتلفت ورأى فأجد كل السائرين الأجانب في دهشة وبعضهم في ذهول
وبعضهم يضحك من قلبه ويقرضني ويقول : مبروك ..

— مبروك إيه !؟

قررت أن أجرب .. أو أهرب .. وفعلاً نهضت من مكانى وانطلقت إلى
خارج البيت .. ولكن أحداً لم يعترضنى .. لم يمسكنى .. وبخت عن حنطور
وانطلقت إلى الفندق .. وبخت عن أحد من المرشدين أسأله عن حقيقة ماحدث .

.. ولكن المرشدين جمِيعاً خرجن مع السائحين في أماكن مختلفة من الجزيرة ..
ذهبت إلى مكتب السياحة .. فلم أجد أحداً . جلست في غرفتي فلتّا ،
لا أعرف كيف أفكّر ولا كيف أواجه الزواج .. وماذا أعمل بالفتاة .. وأنا
لا أعرف ما هي التقاليد بعد ذلك . وهل سأخرج من الجزيرة سالماً .. وإذا
خرجت بقوة القانون فأين ذهب بها .. ثم كيف أخلص من هذا الموقف الغريب؟
قابلت مدير الفندق ودار هذا الحوار المتعب جداً بيني وبينه . قلت :

اليوم شاهدت حفلات الزواج ..

قال : أعجبتك ؟

قلت : جداً ولكن يظهر أنها مليئة بالمفاجآت ..

- آه طبعاً .

- من الممكن أن يدخل الرجل أعزب ويخرج متزوجاً دون أن يدرى ؟

- طبعاً ..

- طبعاً إزاي ؟!

- عاداتهم غريبة جداً هنا ..

- افرض أن واحداً دخل أعزب وخرج متزوجاً دون أن يدرى .. فماذا يعمل ؟

- ولا حاجة .

- ولا حاجة إزاي ؟ افرض مثلاً يعني .. واحد زبى مثلاً يعني .. أهوا أنا
سائح أجنبي .. ذهبت إلى أحد الأفراح وأعجبتني فتاة مثلاً وقلت لها إنها تعجبني .
فهل يعني ذلك أنها تصبح زوجة لي مباشرة ؟ .. مفيش حاجة أقل من الزواج .

- يحصل كثير قوى ..

- و بعدين ؟

- الناس يترجون هكذا ..

- افرض يعني أن هذا حدث لي .. مثلاً يعني .. فاذا عمل بمثل هذه
الزوجة .. ؟

- إنها خادمتك .. خذها معك إلى أي مكان .. إن بنات بالي لا يتكلمن
ولا يعترضن على إرادة الزوج .. والمرأة في بالي لا تعرف الطلاق ولا الرجال أيضاً ..

إلا في ظروف نادرة جداً . .

- مش فاهم . . افرض مثلاً يعني . . أن هذا حصل لي . وترك هذه الزوجة في بالي فإذا يحدث . . .

- ستبقى زوجة لك إلى الأبد . . سواء تعيش معها أو تتركها . . .

- يعني لا تتزوج بعد ذلك ؟

- لا . . .

- من الممكن أن تموت هذه الزوجة من الجوع .

- ليس إلى هذه الدرجة . . .

- ولكن يجب أن ترك بيته فوراً بعد الزواج .

- وأنت مشغول بهذه الدرجة بالزواج هنا ؟

- أبداً . . أصلى عاوز أكتب مقالة كده . . .

- مقالة . . أنا عندي موضوعات غريبة . . عن أنواع الزواج الغريب هنا . .

هنا أعجب أنواع الزواج . . .

- زي إيه كده . . .

- أيوه . . حكايات طويلة . . نلتقي في الليل . . إنخ .

كلام غير مربيع وكلام كله عامي . .

وفي الليل حاولت أن أجده لأأسأله عن الزواج الغريب . ولا بد أن يكون زوجي لهذا من أغرب القصص . . وربما كان من أقلها غرابة . . ومعنى ذلك أنني يجب أن أنظر ما هو أغرب . .

وفي الليل كان لابد أن شاهدت إحدى الرقصات الجماعية على مسافة ٧٠ كيلومتراً من الفندق . . وكانت الرقصة رائعة ولكن كان بيني وبينها ستار أسود . هذا الستار يتحرك أمامي يميناً وشمالاً . . كأنه مرسوم في داخل عيني . . إنه صورة الزوجة التي لم تكن على بالي . .

وبعد انتهاء الحفلة ذهبت إلى غرفتي . . لم أذهب إلى المطعم . . أحسست بضرورة قاسية إلى أن أجلس وحدي . . وفوجئت بأن شبيحاً يجلس أمام غرفتي . إنه نفس الفتاة وأمامها لفة من الملابس . عندما رأني ابتسمت ونهضت واقفة . .

وابتسامتها حلوة . وأنا حائز لا أعرف كيف أكلمها ، وكل ما أعرفه من اللغة
الأنجونيسية لا يزيد عن عشرين كلمة .

وحاولت أن أعمل جملة واحدة معناها : إيه اللي جابك هنا ؟ وإيه الحكاية.
ويبدو أنها فهمت كلامي وكان ردتها : بو . . . أباه بي . أوه
وأنظر إلى وجهها فأجده يبتسم .. وجهها حلو . ويبدو أنها غسلت وجهها
وارتدت فستاناً جديداً .. وسألتها عما إذا كانت قد تناولت العشاء .. فلم تجب ..
وطلبت لها عشاء ورأيتها وهي تأكل يدها الكبيرة .
والصيبة أنني لم أجده أحداً أسأله .

وجلستنا نحن الإثنين على مقعدين متواجهين . أنا أضيع يدي على خدي وهي
تراجعت في مقعدها وهات يا نوم .. وأنا في دهشة من نومها العميق .. وعندما
استغرقت في النوم تركتها ودخلت غرفتي ..

وبين الحين والحين أنظر إليها من وراء الباب فأجدها نائمة ..
وف الصباح وجدتها قد غسلت وجهها ولا أعرف أين .. وجلست في
حيوية ونشاط وبشرتها صافية ناعمة .. وأنا أحمر العينين مصدوع الرأس .. ولم تكدر
تراني حتى نهضت تبتسم قائلة : سلامات باجي .
ومعناها صباح الخير ..

وأمرت لها ب الطعام .. ولم أجلس لأرى كيف تأكل وإنما قررت أن أذهب
لهذا الراهب أنا وبعض الأصدقاء لأجد لي حلا .. فالمسافة بيني وبين سفارتنا
في جاكرتا طويلة .. إنها أربع ساعات بالطائرة ..
أما هنا فلا أجده أحداً أسأله عن الزواج والطلاق والنفقة ومقدم الصداق
ومؤخر الصداق ..

وتصادف أنني مررت أمام غرفة أحد الأصدقاء في الفندق وسمعت ضجة
وهمساً وضحكاً متواصلاً .. إنه مقيم في هذه الغرفة وحده .. فما الذي حدث ..
وفتحت الباب .

وقابلته عواصف من الضحك .. إن هذا الصديق هو مليونير أمريكي
يحب الدعاية ، ومعه فلوس في حجم المقطم ولا يدرى ماذا يفعل بها .. إنه

يلهوا ويلعب .. تصوروا أنه قد دبر كل هذه التمثيلية من أولها لآخرها مقابل مبلغ من المال ..

وبعد ذلك نظرت إلى البنت فوجدتـها حلوة مرة أخرى .. حلوة .. وسألـي :
مارأيك تتجوزـها ؟

قلـت وقلـبي زـى الحديد : أبيوه مستعد !

(٣)

الـأـيـدـيـتـ أـنـكـ تـبـحـثـ عـنـ صـوـرـكـ وـأـنـتـ صـغـيرـ لـتـعـرـفـ كـيـفـ كـانـ وـجـهـكـ
وـجـسـمـكـ ، وـكـيـفـ كـانـ لـوـنـ شـعـرـكـ الـذـيـ ذـهـبـ وـلـمـاعـ عـيـنـيـكـ الـذـيـ خـفـتـ !
الـأـيـدـيـتـ أـنـكـ تـسـأـلـ وـالـدـلـكـ عـنـ طـفـولـتـكـ .. مـاـذاـ كـنـتـ تـعـمـلـ وـمـاـذاـ كـنـتـ
تـقـوـلـ ؟

وـجـزـيـرـةـ بـالـىـ هـىـ طـفـولـةـ إـلـإـنـسـانـ ، وـفـيهـ كـلـ شـىـ يـدـلـ عـلـىـ سـذـاجـةـ تـفـكـيرـهـ
وـبـسـاطـةـ إـدـرـاكـهـ لـنـفـسـهـ وـلـغـيـرـهـ ..
وـأـنـاـ أـحـدـثـ هـنـاـ عـنـ طـفـولـتـنـاـ جـمـيـعـاـ ..

الـخـزـبـرـةـ لـبـيـسـتـ صـغـيرـةـ كـاـنـتـ أـتـصـورـ وـبـيـدـوـ أـنـ الـعـقـلـ إـلـإـنـسـانـ لـمـ يـكـنـ
صـغـيرـاـ كـاـنـتـصـورـ أـيـضـاـ ..

وـالـنـاسـ يـقـضـونـ نـهـارـهـ فـيـ الـحـقولـ أـوـ أـمـامـ الـأـنـوـالـ الـبـدوـيـةـ ، أـوـ حـفـرـ الـخـشـبـ ،
أـوـ تـلـوـينـ الـقـاشـ ، أـوـ تـلـوـينـ قـشـ جـوـزـ الـهـنـدـ ، أـوـ التـرـبـينـ عـلـىـ الرـقـصـ وـالـمـوـسـيقـ ،
أـوـ تـدـرـيـبـ الـدـيـوـكـ عـلـىـ الـمـصـارـعـةـ . أـمـاـ الـلـيـلـ كـلـهـ لـلـمـوـسـيقـ وـالـغـنـاءـ وـالـرـقـصـ . لـأـسـبـابـ
دـيـنـيـةـ . وـيـظـهـرـ أـنـ إـلـإـنـسـانـ يـحـتـاجـ إـلـىـ دـيـنـ لـيـتـقـنـ أـىـ عـلـمـ . فـهـمـ يـتـقـنـونـ الرـقـصـ
وـالـغـنـاءـ وـالـمـوـسـيقـ وـبـرـاعـتـهـمـ فـيـ هـذـهـ الـفـنـونـ مـذـهـلـةـ . فـالـأـطـفـالـ يـبـدـأـونـ الـعـزـفـ وـالـغـنـاءـ
فـيـ الثـالـثـةـ .

وـالـفـتـيـاتـ يـرـتـدـيـنـ تـيـجاـنـاـ مـنـ الـورـدـ وـفـسـاتـينـ مـنـ الـحـرـيرـ الـمـلـوـنـ وـحـافـيـاتـ
الـأـقـدـامـ وـكـائـنـ أـورـاقـ وـرـدـ تـنـاثـرـ .. أـوـ كـائـنـ بـقـايـاـ مـلـائـكـةـ أـوـ قـطـعـ مـنـ السـماءـ .

والمعابد هنا أهم المباني كلها .. وفي كل مكان رقصات القرد وغابات القرود ولوحات القرود .. وكلمة «قرد» في لغة جزيرة بالى لها مشتقات كثيرة ويطلقونها على كثير من الأطعمة والنباتات الغربية .. مثل كلمة «ماكينة» في اللغة الإيطالية التي يطلقونها على ماكينة الحلاقة على الطائرة !

وأنت هنا في بالى يجب ألا تخاف من الناس أبداً .. فهم مساملون طيبون . ولكن الجزيرة رائعة .. إنها كفتاة جميلة عيدها أنها تختلف المواعيد .. حاجة بسيطة !

ولكنها حلوة ويزداد حرصك عليها فتصل للسماء أن تشفيفها من مرض المواعيد . إنها ليست أجمل الجزر التي رأيتها ولكنها أغربها جميعاً . لقد رأيت جزر كابرى وصفلية وكورسيكا وكريت وقبرص وسيلان وسنغافورة .. والآن أعيش في جزيرة جاوة .. ولكن بالى أغرب هذه الجزر جميعاً .

وكل الدعاية لهذه الجزيرة تقول : إن الناس هنا يعيشون على الفطرة .. ليس سكان الجزيرة وحدهم .. وإنما السياح أيضاً ..

هكذا قلت لنفسي وأنا نصف عريان أمام باب الفندق !

* * *

وفي الطائرة المسافرة إلى جاكرتا كان من نصibi أن أجلس بجوار سيدة هولندية إحدى بنات المستعمرين لهذه البلاد لمدة ثلاثة فرون . وكان لابد أن نقول أى كلام فما تزال أمامنا أربع ساعات قبل أن نصل إلى جاكرتا . وعرفت أنها أمضت في جزيرة بالى أكثر من ثلاثة أسابيع .

ولم تعجبها هذه الجزيرة .. وقد كانت تفضل أن يبقى الناس بدائيين حفاة عراة كعرض حتى يستحق أن يأتي إليه الناس من أقصى بلاد العالم . ولكن كل شيء تغيرت معاله . فهناك سيارات ودراجات وأحذية وبلوزات وجبيات .

وعرفت أنها جاءت إلى هذه الجزيرة قبل عشرين سنة وتنهدت على الذي مضى ولم أسألها عن الذي مضى فلابد أن الناس كانوا كلهم عراة رجالاً ونساء ، ولا بد أن الحياة كانت هناك على الفطرة الكاملة ..

• والثنت فجأة ناحيبي وقالت : أين كنت أمس ؟

قالت : في الليل ذهبتنا لمشاهدة حفلة زفاف أحد الأثرياء .
وبعداً على وجهها القرف وقالت : كانت فضيحة .. فضيحة .. فضيحة ..
وسألتها : كيف ؟ لملاحظي أي شيء ..
قالت : ألم تر ما فعله البيض .. ثلاثة من البيض قاموا بقصون .. وضحك
الرجال والنساء .. وكانت فضيحة .. فضيحة !
أنا لا أذكر شيئاً من هذا الذي تحدثت عنه السيدة .. بل أنا لا أذكر
كيف انتهى هذا الاحتفال .. والاحتفالات تنتهي فجأة وبلا تنبيه وبلا حماسة .
وخشيت أن أسألهما كيف انتهى هذا الاحتفال ..

ولاحظت أنها عندما تحدثني لا ترفع عينيها عن النافذة ترقب حركة
الطائرة ، أما أنا فيجب أن أجعل أذني قريبة منها لأسمع ماذا تقول ..
وانشغلت عنها تماماً .. ولم أعد أسمع ماذا تقوله لي .. ولا أعرف إن كانت
تحدثني أو تحدث نفسها ..

وتذكرت أنها ذهبتنا فعلاً إلى حفلة الزفاف وأنا كنت نابعاً الحفلة باهتمام
شديد . وطال الاحتفال وعزفت الموسيقى .. ونحن لا نعرف كيف نعود إلى الفندق .
فالمسافة طويلة والأبواب مغلقة لأن العروسين يتشاهمان من الذين ينحرجون
قبل نهاية الحفلة .. ونخشي أن نطلب فنجاناً من القهوة فنحن لا نعرف كيف
يصنعون هذه القهوة ، نحن في حيرة تامة .

وفجأة فكرنا أن نضع المقاعد في أقصى المكان ونتمدد عليها وننام حتى
ينتهي الاحتفال .. ولكنه مكان موحش مفزع . والطبول لها صدى مخيف ..
ولو اقتربنا إلى الباب فنحن لا نعرف النتيجة فكل مدعو يضع وراء ظهره سيفاً ..
والطريق أمام البيت مظلم تماماً وفيه أشباح غريبة تروح وتتجو ..
والنوم مستحيل أيضاً ..

وفجأة تذكرت .. لقد ظهرت العروس ومعها صينية عليها فناجين صغيرة
وهي حركة آلية نهضنا جميعاً واقفين وجلست العروس وقدمت لنا القهوة وهي
جالسة وشربنا القهوة واقفين ..

ولا أذكر بعد ذلك إلا أنني صوت في اليوم التالي ثقيل الأذن والعين والجسم.
حاولت أن أسأل إدارة الفندق بصورة غير مباشرة .. ولكن أحداً لا يتكلم ..
لأنهم يتسمون فقط ولا يقولون شيئاً.

حاولت أن أسأل المرشد .. إنه هو الآخر يتسم ..
حاولت أن أسأل الأميركي والإيطالي اللذين كانوا معى .. لقد سافرا إلى
الشمال وسيعودان بعد أيام ..

أما ماذا حدث .. فعلم ذلك عند السيدة المولندية .. لقد كنت أحد الذين
شربوا القهوة المسمومة .. وحدث مغص .. وتفرغت على الأرض دائماً تماماً ..
ولا أعرف كيف نقلونا جميعاً إلى الفندق !

وكانت القضية !

إن كل الجنسيات تجدها هنا في جزيرة باي .. ولكن أكثر السائحين
— أقصد السائحات — من أمريكا وأكثرهن عواجيز وفوق ستة.. والغرف التي
عن يميني وشمالى تسكنها عواجيز أمريكيات يقضين الليل كله في السعال والكلام.
وكان من بين الأميركيين رجل طويل عملاق ضخم .. ولكن دمه خفيف جداً ..
أصبح صديقي بسرعة غريبة . وكنا نذهب إلى حفلات الرقص والغناء معاً . وبينما
الفندق ونظل ساهرين حتى تناول الطعام وتصحو العصافير ..

وكان «جيم» هذا لا يكف عن الضحك والأكل والشرب . ولكنه يحفظ
دائماً بروح معنوية شابة .. شاب حتى دائماً ، متنه دائماً ، على الرغم من أنه
تجاوز الخمسين من عمره .

وكانت تبرئ بساطته .. فهو إذا لم يجد مقعداً جلس على الأرض ، في التراب ،
في الطين . إنه لا يهم .. وإذا لم يجد طعاماً نام حتى الصباح بلا طعام .. وليس
لحياته برنامج أبداً وهو سعيد جداً .

في يوم ذهبنا إلى الفندق متأخرین عن موعد الطعام .. أما أنا فترت ودخلت
المطبخ وقابلت مدير الفندق أطالب بطعامي لأنه لا توجد مطاعم محترمة في الجزيرة ،
وطالبت بالحد الأدنى من الطعام : بعض اللحوم والسلطة أو عصير الطماطم ..
ولكن المدير أمر بإحضار طعامي كاملاً ونسيت في ثورقي أن أسأل «جيم» إن
كان يريد أن يأكل ، وعندما عدت إليه وجده يقرأ في رواية بوليسية كانت في

جييه . وجاء الطعام وأكل دون أن يسأل أو يعرض .. بل إنه كان يأكل أطعمة
لها رائحة كريهة جداً .. وإذا سأله الحرسون أجابه : ممتازة ..
وبعد أن يتركنا الحرسون يقول لي : إنه لم يدق في حياته أسوأ من
هذا الطعام !

وفلسفته في ذلك هي : أنه لا داعي لتحطيم روح أناس أقاموا فندقاً صغيراً
في جزيرة بدائية .. يجب تشجيعهم على إتقان عملهم وبناء فنادق أحسن
وأروع .. وثانياً : لأنه هو شخصياً ولد فقيراً وعاش كالفقراء .. وثالثاً : أنه جاء
إلى هذه الجزيرة ليستريح . وهو لن يسمح لإنسان أو طعام أن يضايقه ..
كلامه معقول !

وعندما كنا نذهب إلى حفلات الرقص كان «جييم» هذا هو آخر من
يبحث عن مقعد أو مكان قريب من الرقص ، وكان إذا رأى سيدة بدائية
واقفة نهض وأجلسها ، فإذا رفضت حملها ووضعها فوق المقعد .. والناس
يضحكون وهو سعيد ..

وأصبحنا صديقين ودعاني لزيارته في هونج كونج ..

وفي الطائرة وأنا عائد من بالى إلى جاكرتا كنت أقلب في الجولات فوجدت
إعلاناً في صفحتين في مجلة «لايف» ووقيت عيني على اسم أعتقد أنني سمعت
به من قبل .. ومددت يدي إلى جييم وأبحث عن البطاقة التي أخذتها من جيم
وعليها اسمه وعنوانه .. قرأت البطاقة وقرأت العنوان والشركة التي يعمل بها ..
إنه يعمل في شركة باسيفيك لبناء السفن ومركزها هونج كونج ورأسها ١٥٠
مليوناً من الجنيهات .. بل إنه مديرها العام وصاحب أكبر الأسهم فيها ..

، هذا الرجل يملك هذه الملايين ؟ . وبهذه البساطة !

لقد كنت أناديه باسمه مجرد من أي تكليف وأنا متعدد .. وأخيراً كنت
أناديه باسمه الصغير جيم هاي جيم .. هالو جيم ..
ولم أكن أعرف أنني وأنا أرفع الكلفة بيني وبينه كنت أرفع سبعة من الأصفار
ستكون ثمانية وتسعة إن شاء الله !

بهذه البساطة بل بسبب هذه البساطة أصبح مليونيراً !



● الْعَارَةُ السَّعِيدَةُ !

اضطررت وأنا في أندونيسيا أن أعود إلى الهند مرة أخرى . فقد قام حرب الحدود بينها وبين الصين . وكان الخلاف على خط إسمه خط ما كوهان . والخط قديم وهو يفصل بين الهند وبين الصين . وهو طبعاً خط على الخريطة . ولا وجود له على الأرض . وقد توغلت القوات الصينية إلى داخل الأراضي الهندية . واعتادت على قوات الحدود وثارت الصحف في الهند . وثار الرأي العام . وحركات الصين على الحدود تدل على أنه من المحتل أن يتسع نطاقها في أية لحظة .

والصور التي التقطت للقوات الصينية تؤكد أن طرد الدلائل لاما ، ليس إلا خطوة في برنامج طويل يهدف إلى تصحيح الحدود بين البلدين . أو بعبارة أخرى هذه الحدود لم يعد لها معنى الآن . فقد كانت هذه الحدود بين دولتين لم يعد لهما وجود الآن . فقد كانت بين الصين في عهد الإمبراطورية . وقد ذهب هذا العهد . وأصبحت الصين جمهورية . وبين الهند أيام كانت مستعمرة بريطانية واليوم استقلت الهند وأصبحت دولة أخرى !

وكلام مثل هذا كثير جداً . ولذلك تقدمت القوات الصينية وأطلقت النار وجرحت وقتلت وأسرت . وهددت إمارات صغيرة على حدود الهند وتعيش في رعاية الهند مثل ولايات : سكيم وبوتان وغيرهما .

وسافرت إلى الهند ماراً بسنغافورة مرة أخرى . وبكلكتا ثم نيودلهي . وعندما

سمع مستشار سفارتنا صوتي في التليفون كاد يفقد النطق من هول المفاجأة وقال وقد خانه ذوقه الدبلوماسي ، والصداقة الجديدة : وأنت ما الذي أتى بك .. هذه مصيبة !

وعرفت أن سفارتنا كانت قد وقعت في أزمة بسبب ما كتبته عن الهند . ولكن الهند كانوا أكثر تسامحاً وأكثر هدوءاً .. واعترف لي منهم الكثيرون بأن بلادهم في حاجة إلى إصلاح .. ثم أدى بلد في الدنيا .. بهذا العدد ، وحديثة العهد بالاستقلال ، أليست في حاجة إلى إصلاح .. ؟
ثم إن الهند ليست بلداً ولكنها بلاد وأديان ولغات !

وفي هذه الرقة ، وفي رحابة الصدر ، وفي النظرة الثابتة إلى هذه البلاد الواسعة العربية الغنية العميقية ، تمنيت أن أعود إليها وأن أعيش فيها .. وأن أمشي على قدمي وأن أفسح الطريق للأبقار والقرود وأن أتركها تعيش كما أعيش ..
فليس من حق الإنسان أن يقتل ليعيش هو ..

وفي رطوبة المعابد . وفي عقب راحتها وفي الأعياد ، وفي حساس الذين يعرفون عن الهند ، وعاشوا فيها مدة أطول . وتجابو بها معها أكثر . تمنيت أن أعود إليها سريعاً ..

ولم تطل إقامتي في الهند ..

فقد سافرت بعدها مباشرة إلى استراليا .. فلا فتحت حقائبى ولا بدلت ملابسى ..

وكل ما فعلته هو أنني توقفت في مطار سنغافورة .. وأمام رجل حافظ القدمين ، أو يرتدى حذاء يشبه صنادل الآباء الفرنسيسكان . ووقفت أعد له ما في جيوبى من روبيات هندية .. وأطلب إليه أن يحوها إلى جنيهات استرالية .. وكان من رأى هذا الرجل أنه من الأفضل أن أحتفظ بهذه الروبيات فسرعها أغلى في أستراليا . والروبية الهندية هي أحسن أنواع العملات في كل القارة الآسيوية .. ولكن أمام عدم اكتراث الواضح لهذه الصيحة ، قدم لي عدداً من الجنيهات انخفتها في جيبي .. واتجهت أسلى بالتطبع إلى الوجه الذى رأيتها من قبل .. كان كل شيء في مكانه لا يتغير .. وكأننى لم أذهب إلى أقصى الجنوب ..

وأصعد إلى أقصى الشهاد . . وبائعة السنديوثات كما هي . . وابتسمتها تسبقها إلى كل الناس . . وبائعة أوراق اليانصيب في مكانها . . وأقلام الشفاه الريستيان دبور وأقلام الحبر الشيفرز والباركر كلها على الأرض .. متجاورة وملحبوطة كما يتobao على رصيف محطة القاهرة البيض والسميط والطعمية واللبان .. والفتاة التي تتجهز غرف الفنادق لا تزال وراء النافذة الزجاجية ولا يزال وجهها إلى الأرض. تماماً كما رأيتها من قبل .. فهي لا تنظر لأحد .. وإذا رفعت وجهها لك ، فلن الصعب أن تعرف إن كانت تتحدث إليك وحدك . أو إليك وإلى الواقع جوارك في وقت واحد .. وهي لأنها تحفظ أرقام كل الغرف الحالية لا تنظر إلى الغرفة ..

حتى الأطفال الإنجليز الذين جاءوا يمدون أجازاتهم السنوية وعددهم بالمئات لا يزالون واقفين في الطابور . . لابد من الطابور . وكل واحد يمسك جواز سفره في يده .. إن بعض هؤلاء الأطفال لا يمشي وإنما يحبو .. وبعضاًهم حتى غير قادر على أن يحبو .. إنه مدد في سرير صغير تدفعه المصيفات من طابور إلى طابور .. !

وعندما ركبت الطائرة إلى أقصى الجنوب . . كانت معلوماتي عن أستراليا تحددها الدهشة والسعادة والرعبة .. .

كل النشرات الرسمية التي أتايى تذكر كل شيء إلا شيئاً واحداً .. إنها تتحدث عن المصانع الحديثة . وعن السكك الحديدية والمباني الجديدة .. . وهناك أرقام وإحصائيات عن مستوى المعيشة وكيف أنه مرتفع وكيف أن أستراليا اليوم هي جنة العالم كله . . تصورو واقارة كبيرة جداً يسكنها تسعه ملايين . أو يسكن جانباً منها تسعه ملايين فقط . . ومع ذلك فهذه القارة التي أغلقت الهجرة في وجوه كل الناس ، أو على الأصح في وجوه الملونين فقط . . أي السود والصغار وحتى البيض تشرط أن يكونوا أصحاب مهنة فنية .. .

وفي هذه النشرات صفحات كاملة عن تربية الأغنام وصناعة الصوف وتصدير الصوف واستيراده .

وصفحات أخرى عن السكان الأصليين لهذه القارة وكيف أن الحكومة في أستراليا حريصة على بقائهم ولذلك تضعهم في مدارس محاطة بالأسلاك كأنهم حيوانات نادرة !

وأقلب في النشرات وأتفرس في الصور وفي الوجوه . لا شيء إلا الصناعة
وإلا التنفس وإلا الأغذية وقطارات السكك الحديدية .. وصور رجال في غاية
ونساء في غاية الصحة .. وحدائق ونوادٍ وملاءع .
وكان إحساسى أن استراليا هى دكان كبير جداً أو مزرعة كبيرة أو ورشة ..
ولكن أين حياة الناس لا أعرف .
ودار الحديث مع جارى في الطائرة حول استراليا وكل واحد منا يتحدث
عن شيء ..
وهذا المتحدث استرالي ..

هو : إن بلادنا عظيمة وستكون أعظم من أمريكا في الخمسين عاماً القادمة .
أنا : يمكن جداً .. ولكن كيف يعيش الناس عندكم !
— أحسن حياة .. إن دخلهم مرتفع .. وفي بلادنا كل شيء . وهم يعملون
وناجحون .
— ولكن بعد العمل أين يذهبون .

— إلى بيوتهم . أو إلى الحدائق والنوادي . فنحن كما تعلم أشهر دولة
في لعب التنفس ..

— أقصد الرجل وزوجته أين يذهبان بعد نهاية العمل ؟
— إلى أي مطعم أو دار للسينما لمشاهدة أي فيلم سينمائى .. أو زيارة الأصدقاء .
— أقصد الفتاة والفتى أين يذهبان لقضاء وقت لذيد ؟!
— الإحصائيات تقول إن ٢٥٪ من الشبان يلعبون التنفس .. وملاءع التنفس
فيها المجتمع الاسترالي الحقيقى .

— أقصد بعد أن يلعبوا التنفس أين يذهبان ؟
— لا أكاد أفهم .

— معك حق .. أنا أريد أن أقول أين يذهب الشباب من الجنسين بعد
أن يفرغا من العمل ومن لعب التنفس ومن العشاء .. أين يمرحون ؟
— بلادنا كلها مرح .. إن أي بيت تدخله يتحول إلى رقص وغناء
في البيت أو في الحديقة .. إنها ليست مشكلة عندنا .. ولكن يبدو لي أنك
لم تفهم كلامي .. ماذا تقصد بالضبط من المرح ..

— أقصد المرح .. الميصة .

وفهمت أنه لابد من وجود الأب والأم عندما تخرج الفتاة للزحة . لم أصدق أن يكون هذا هو حال الفتاة في استراليا .

ولكن عندما نظرت إلى الرجل الذي أتحدث إليه وجدته عجوزاً .. وجدته .. يرتدى كرافته سوداء ..

ولذلك لا أستبعد أن يكون في حياته شيء ما .. مثلاً .. إينه أحب واحدة وهذه الواحدة كان قد قابلها في إحدى الحدائق دون أن يكون والدها معها .. أو تكون لهذا الرجل ابنة قابلت شاباً دون أن تأخذ رأيه .. وكانت النتيجة أنها تزوجت هذا الشاب .. ولا بد أن هذا الزواج فشل .

ولا بد أن من آمال هذا الرجل . والرجال الذين في سنه ، أن يتمكنوا من زراعة نوع من الأشجار يقوم بدور الأب والأم ..

ما زال تحت كل شجرة في الدنيا فتى وفتاة ، لا بد أن تبت نفس هذه الأشجار آباء وأمهات يحرسون الأبنية من الشياطين ..

— الميصة .. لا أظن أن هناك شعراً أكثر هيصة من شعبنا .. إنك تجد رجالاً في الأربعين أو الخمسين من عمره يرقص مع فتاة في الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة .. وهو سعيد وهي أكثر سعادة منه ..

— أنا أقول لك بشكل آخر .. إفرض أن شاباً أحب فتاة .. بلاش الحب . يعني استلطفها كده .. رآها في الطائرة أو في المطار أو في الفندق ، أو في أحد المطاعم أو في الشارع .. فأين يذهبان ؟

— ألا تقول إنه رآها في مطعم وكانت مع والديها ؟

— لم أقل مع والديها .. أين يذهبان بعد ذلك ؟

— عندنا حدائق عامة جميلة جداً ..

— والناس يجلسون فيها كما يريدون ؟
— طبعاً .

— يعني من الممكن أن يتعانق الشبان في الحدائق ..

— أووه .. إنت قصدك كده من الأول .. إن المسألة أسهل من كده جداً .

— إزاي؟

— كل الطرق تؤدى إلى الكنيسة .. ألم تقل إن الشاب رأها ومعها أبوها وأمها ..

— لم أقل لا أبوها ولا أمها ..

— كان لا بد أن تقول ذلك ..

على كل حال مهما قال هذا الرجل ، فانا في الطريق إلى استراليا وسأرى بنفسى ..

وقد هذه الأثناء مرت علينا المضيفة ببعض المشروبات فاعتذر ومال برأسه إلى الوراء وارتفع صدره الأحمر الكبير وهات يا شخير للمرة الرابعة في خلال ساعة واحدة . فكل الطرق تؤدى إلى النوم .. إلى نومه هو !

وعدلت عن التفكير في أي شيء وجلست أستمع إلى ما يدور في نفسي .. وتمنيت أن أسمع شخيراً في داخل لكل رغباني وهموي .. شخيراً متواصلأ كما يفعل أبناء استراليا .. أو على الأصح أحد أبناء استراليا .. فلأنى لم أر بقية العشرة ملايين ! « استراليا بها أيضاً ١٣٠ مليون رأس غنم — أي سدس أغنام العالم كلها ! »

• • •

بعد ٣٨ ساعة من الطيران من دلهى وصلت إلى سيدني ، أجمل وأروع مدن استراليا . وأنا أعتقد أنها أجمل مدينة رأيتها في حياتي . وقبل أن أحديث عن استراليا هل تستطيع أن تقول لنفسك في دقيقة أو خمس دقائق كل ما تعرفه عن استراليا ، موضحاً كلامك بالرسم .. أية معلومات لديك عن هذه القارة غير صحيحة .

إن استراليا قارة كبيرة يسكنها حوالي عشرة ملايين نسمة . وقد انتقلت فيها من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب .

والناس هنا كبار في الطول والعرض والنساء أيضاً . ربما كانت المرأة الاسترالية هي أصح امرأة في الدنيا .. إنها ليست جميلة ولكن ليست فيها عيوب جسمية مطلقاً .. ولم أر رجلاً عجوزاً ، ولم أر مريضاً . ورأيت شحادزاً واحداً كان يغنى ويعلق على صدره لوحة مكتوبـاً عليها : أشكر الأطباء الذين احتفظوا لي بعض

ضوء عيني لكى أراك وأشكرك !

طبعاً يوجه الكلام لمن يعطيه حسنة .. ولا أحد هنا !

يكفى أن ترى الحالات التجارية هنا لتعرف الرخاء والسعادة التي يعيش فيها الناس ، إن هذه الأشياء التي لن تجد لها معنى هي ملابس الختيارات معروضة في فترات جميلة : ولوورث وكول . ودافيد جونز . وفارمر . وبالمر .. هذه هي أجمل محلات لبيع كل ما يريده إنسان وحيوان في وقت واحد !

فحلات فارمر هذه توجد منها عشرات الفروع في آية مدينة استرالية . والمحل الواحد عبارة عن ستة أدوار تصعدها بالسلام التحركية .. وفيها مطاعم وفيها مقاه على الواقف وعلى القاعد .. وفيها أقشة وأدوات الزينة وكتب .. كل شيء موجود وبأسعار معتدلة جداً .. ولكن أين الذي يملك المال . وأين الذي إذا ملك يعرف كيف يشتري ! .

إن شارع كاسلرى وهو يشبه قصر النيل في القاهرة . قطعة من الذهب والماض والجاجتو - أقصد النساء هنا - وشارع جورج وشارع رو . وشارع هنتر . والعمارت هنا عالية تصل إلى عشرين و ٢٥ طابقاً . وكلها من الزجاج .. كل الواجهات والحوانب . ويبعد أن هذا فن معاصر جدید .

ومدينة سيدنى لؤلؤة .. إنها تقع على الجبال وفي الوديان وعلى جزر .. ويقسمها إلى نصفين خليج فاتن طوله ٢٠٠ كيلو متر .. ويصل بين طرف الخليج كوبرى تكاليفه ١٨ مليون جنيه وطوله أربعة كيلو مترات .. وفي أعلى الكوبرى قلعة ترى منها كل المدينة على ارتفاع ٥٠٠ قدم ، وفيها معرض ومن بين المعارض فترات جميلة عن الفراعنة « الذين كانوا أول من اخترع صناعة الصوف في العالم وأحتفظوا به سليماً لألف السنين » - مكتوب عليه هكذا - وبين جانبي الخليج وبين الجزيرة توجد لنشات صغيرة تنقلك في سرعة إلى حيث حديقة الحيوانات وحديقة النباتات ، وإلى أجمل بلجاجات رأيتها في حياتي . أجمل من بلجاجات دوفيل في فرنسا ونيس ومونت كارلو وأجمل من الريفيرا الإيطالية والفرنسية معاً ..

هل تحب أن تعيش في سيدنى ؟

أنا أجيب عن هذا السؤال قائلاً : أتمنى !

عندما سافرت من القاهرة كان ذلك في أواخر يونيو .. يعني الدنيا حر .. وعندما وصلت إلى الهند بدأ موسم «الموسون» .. الحرارة والأمطار الشديدة .. وكانت الهند في أشد درجات الحرارة التي لا يمكن وصفها إلا بأنها نار .. وبقيت في الهند أكثر من عشرين يوماً .. وفي أقصى الجنوب من الهند رأيت وذلت من الأمطار أضعاف ما رأيته في حياني كلها .. وعندما ذهبت إلى سيلان قالوا لي هناك : يا أخي حظك من نار .. تصور أن الدنيا ستمطر غداً؟
والآن في استراليا بدأ فصل الصيف .. إنه لم يبدأ إلا منذ أيام .. وكلما سألت أحد الأستراليين عن حالة الجو في بلاده قال : لطيف .. لطيف جداً!
وعندما هبطت بنا الطائرة في مطار داروين في شمال استراليا .. وكانت الدنيا حارة جداً .. صيف قاتل .. ولكن في الطائرة عرفت أن هذه المنطقة حارة .. أما الجنوب فهو مرتفع وقريب من الدائرة القطبية الجنوبية فهو لذلك بارد ..
وقالوا : برد يمكن أن يتحمله الإنسان .

وعند منتصف الليل وصلت الطائرة إلى سيلان .. وكانت الأمطار غزيرة .. يظهر أن الصيف هنا بارد ممطر .. يعني في الهند حار ممطر ، وهنا بارد ممطر .. ولاحظت أن كل الناس يرتدون البلاطي الخاصة بالمطر والبدل الصوفية ..
وسألت أحد الطيارين : أمال صيف إيه؟

فقال : طبعاً صيف .. إنت ما عندكش فكرة عن الشتا هنا .. ثلج ..! وكان منتهى أمل أن أشم هواء طبيعياً .. هواء بارداً بلا جهاز تكييف .. أن أشرب كوب ماء من الحنفيه ، ليس فيه ثلج .. أن أغطض في فراشي .. أنأشعر بالدفء اللذيد ..
ولكن يبلو أنه لا أمل ..

وكنت متعباً جداً .. فقد سافرت بنا الطائرة في الساعة السابعة صباحاً من مدينة دلهي إلى كلكتا .. ومن كلكتا إلى رانجورون إلى سنغافورة إلى جاكرتا إلى داروين إلى سيلان .. لم أنم ليلتين .. حاولت ولم أنجح في إقناع النوم بأن العدالة الاجتماعية تقضي بأن تعطيني بعض ما يعطيه للرجل النائم إلى جواري وللسيدة النائمة ورأني - إنها تشير بصوت مرتفع وهذه أول مرة أسمع فيها شخير

سيدة – وتلفت ورأى فوجدت زوجها هو الآخر يشخر .. وفهمت لماذا تزوجا
وفي غرفة نوم ضيقة في فندق «متربول» وضعت أستعنى ، ونزع ملابسي ..
وارتديت بين البطاطين الصوفية . ولم أشعر بشئ ..
ومضيت أول ليلة في استراليا ، دون أن أعرف أين أنا ؟ ولا في أي مكان ؟
ولا رقم غرفتي ؟ ولا إيجارها ؟ ..
النوم هو ما أريد ، وفي الصباح ليكن ما يكون !

• • •

استراليا هنا مجتمع إنجليزي على الآخر .. اللغة طبعاً .. والقاراء تدخل ضمن
الكونولث البريطاني وهو حاكم عام . والعلم الأسترالي هو نفس العلم البريطاني ،
ولكن أرضيته زرقاء وعليه نجوم ، هي رمز الولايات التي تتكون منها ،
وليس صحيحاً أن الأستراليين هنا حياتهم هيصة . وأنهم متاخرون . أبداً . المجتمع
الأسترالي متقدم جداً .

عندهم أحدث الآلات وأحسن المصانع .. وهم الذين يصدرون ٩٠٪ من
الصوف العالمي والخلود والألبان .. والأغذام هنا تعيش في نعيم لا يعرفه الكثيرون
من الآدميين في أماكن كثيرة جداً في العالم . متوسط الدخل العام ١٥ جنيهاً
في الأسبوع .

لا توجد بطالات ، وإنما يوجد عاجزون عن العمل تساعدهم الدولة . الأيدي
العاملة قليلة .. هذه القارة للبيض فقط . طبعاً ليس هذا رأي الصين ولا الهند
ولا اليابان . فكل هذه البلاد تطمع في أن تزحف على هذه القارة الحالية وتسلل
إليها . وقد بدأ الزحف فعلاً !

واستراليا خائفة من هذا الزحف .. ولذلك لا ترحب كثيراً بالملوئين ..
السود أو الصفر . والصحف أمس نشرت أن هناك عدداً كبيراً من الملوئين
المقيمين في استراليا منذ زمن طويل لم تنتهي الحكومة الجنسية الأسترالية . وهذا
معناه أن استراليا بدأت تسحب يدها قليلاً .

ويبدو أن استراليا لأنها بعيدة عن العالم ، وأنها لا تزيد أحداً ، لا هم
بالسياحة .. فلا توجد صورة واحدة لسيدني أو للبورن .. صورة واحدة !

فالسائح لا مكان له هنا . أو لا يوجد سائرون كثيرون . ولكن بعد سنوات قليلة جداً ستكون أستراليا من أكثر دول العالم تقدماً في الصناعة ، وفي الحياة الاجتماعية . والذين يحبون الحياة في إنجلترا تعجبهم أستراليا جداً .

لأن الحياة هنا إنجليزية تماماً ، ولكن على مستوى أحسن وأجمل وأكثر تحرراً . فأنت لا تستطيع أن تدخل أي مطعم من غير بدلة أو كرافته .. حتى المطاعم اللوكاندة نفسها لا يمكن أن تدخلها من غير كرافته .. حتى الصالة لابد من الكرافته .. وهنا قواعد خاصة في الجلوس والدخول والخروج والناس لا يرحمونك إذا أخللت بهذه القواعد ..

أذكر أنني في أول يوم نزلت إلى صالة الفندق .. وجدت الناس يرتفعون عيونهم عن الصحف وينظرون إلى .. لم أفهم .. وجلست .. وجاء الحرسون وقال لي : كرافته من فضلك !

وكما جلست وقفت .. والناس يتبعونني بعيونهم كأنني أمشي من غير بنطلون . وأنا أتشجع وأنظر إليهم فأراهم جامدين كأنهم جلسوا على مقعد حلاق عشرين ساعة . حتى جف الصابون على وجوههم وتحول الصابون إلى ياقات ناشفة حول أنفائهم .. وتنبأني أن أجمع أمواس الخلاق وأطيح برموسم كلهم ! وتلفت ورأي لأرى لافتاً على الباب مكتوب عليها «منع دخول الكلاب» ، وعرفت أن منع الكلاب سببه أن الكلاب لكي ترتدي كرافته ، يجب أن تكون لها ملابس . وحل حللاً لهذا الإشكال قررت إدارة الفندق منع دخول الكلاب .. وما يشبهها !

* * *

الحياة هنا غالبة ، لا شك . لأن الدخل مرتفع . والطبقة الوسطى حالتها المادية والاجتماعية ممتازة .. وكل يوم أرى في الصحف عدداً من المتزوجين الألاحظ أنهم جميعاً في سن متاخرة .. يعني من الثلاثين حتى الأربعين .. وعرفت السبب وهو أن الشاب هنا لا يتزوج إلا إذا تجمع القسط الأول من قطعة أرض أو بيت يريد أن يشتريه أو يبنيه ، وبعد ذلك يتزوج .. ثم إن الحريات العاطفية طبعاً مكفولة جداً جداً (أرجو أن تضيف أكبر عدد ممكن من كلمة : جداً) . بل إنني تصفحت مجلة اسمها « موضوعات الشباب » . وكأنني وجدت

كنزاً . وقبل أن أفتح الجلة قلت لنفسي : يا ترى ما هي مشاكل الشبان هنا .. مشاكل ليه .. بلاد غنية .. واسعة .. حرة .. نظيفة .. الشبان كلهم يلعبون .. والنساء والرجال في النوادي ليلاً ونهاراً .. وفي الليل يجلسون إلى التليفزيون يشاهدون الأفلام .. وهم يأكلون ويشربون .. أعتقد أن الشبان هنا ليست لهم أية مشاكل .. ما هي مشاكل الغنى ؟ .. ما هي مشاكل الحر ؟ ماهي مشاكل الصحيح الجسم ؟ ما هي مشاكل الناس الذين يعملون كلهم ويكتبون كلهم ، والغد مضمون ، والاليوم مضمون ! لا أعرف ربما كانت لهم مشاكل أخرى ! ما مشاكل الناس الذين لم يسمعوا عن الخوف .. عن أنفع شيء في الدنيا ؟ !

وفتحت الجلة .. الموضوع الأول عن أحسن راقصة في مجتمع سيدني ..

الموضوع الثاني عن نجوم النساء والأسكواش ..

الموضوع الثالث عن مستقبل الطيران ..

الموضوع الرابع عن هواة طوابع البريد ..

الموضوع الخامس عن أحسن أسطوانات الموسم ..

الموضوع السادس أبعث لنا بصورتك ..

الموضوع السابع مقالات بأقلام الشبان ومع كل واحدة صورة جميلة لشاب أو شابة حلوة ..

العدد الثاني موضوعات مشابهة .. العدد الثالث موضوعات لا جديد فيها إطلاقاً .. هذه الجلة منتشرة جداً ، غالبية المئتين قيمتها حوالي ٣٠ قرشاً وأسبوعية ! وعرفت أن الشبان لا يمكن أن يغافلوا الفتاة في الطريق .. هناك غرامة وعقوبة .. واعتراض البوليس على ذلك ، هو أن هذا إخلال بالمرور وبقواعد المشي ! ..

ولكن البوليس لا يتدخل بين الشبان في أماكن أخرى كثيرة ..

وأنا أنظر إلى النساء في الشوارع بدأت أفكر في موضوع غريب !

لماذا يفضل الرجال المرأة ذات « الأنوثة » .. ماذا يقصد الرجال بالأنوثة ؟ طبعاً الرجل له عضلات فهو يريد امرأة بلا عضلات .. الرجل يمشي في الشوارع كأنه مسحار تدقه الأرض في السماء ، وهو يريد امرأة تتلوى بين الأرض والسماء ..

الرجل قوى ويرضى غروره أن يقال له : أنت قوى ، وأن تكون المرأة هي صاحبة هذه العبارة ..

ويرضى غرور المرأة أن يقال لها إنها ضعيفة .. لأنها تحب أن تكون ضعيفة للرجل الذي تحبه . ويريحها أن تعتمد على قوى ، على الرجل ، وأن تكون في حماية رجل . ولذلك فالأنوثة لها معنى آخر خفي عند الرجل : إنه يريد المرأة الضعيفة والسلام .. الضعيفة بأى معنى !

والنساء هنا في غاية القوة والشباب والصحة .. النساء كلهن يلعنن ، أقصد يمارسن الألعاب الرياضية .. كل واحدة لها رياضة واحدة على الأقل .. النساء أو الأسكواش أو الباسكت . وكل واحدة حريصة على رشاقتها .. فالمراة هنا قوية سليمة البنية . ولا شيء يدل على أن العقل السليم في الجسم السليم ، أكثر من الرجل الأسترالي . والمرأة لا تعجب الرجل الشرقي فهي ناقصة الأنوثة ! مع أن المرأة من الممكن أن تكون فيها أنوثة وهي قوية .. بل إن مظاهر الأنوثة في المرأة هو اهتزاز جسمها في نعومة . هو مروونتها وليونتها .. هل تعرف ما هو السبب ؟ إنه قطعة من الخشب الجامد جداً في حذائها : الكعب العالي !

ف مصدر هذه النعومة هو هذه الصلابة ، ومصدر هذا الاهتزاز هو هذا الكعب الناشف .. وهذه الصحة والشباب يزيدان المرأة أحمراراً وحلوة .. على باب غرفتي من الداخل توجد ورقة صغيرة مكتوب عليها : الغرفة ليختارها ٧١ شلننا . والقطور والغداء والعشاء على حسابك .. الفندق غير مسئول عن ضياع أى شيء من غرفتك .. أعط المفتاح للاستعلامات دائمآً ..

القانون يقول : إن كل شيء لا يوضع في صندوق أو حقيقة مغلقة لها مفتاح ، فالفندق غير مسئول .. أى حصان أو رأس غنم أو بقرة يأتى بها الزلاء فالفندق غير مسئول عنها ، مالم يكن هناك عقد مبرم أمام أحد الحامين المعترض بهم رسميأً .. إذا حاولت أن تستخدم أية أدوات الطبع المثلثة فيجب إخطار الفندق بذلك حتى يقف إلى جوارك أحد الحامين تفاديأً للحرائق .. صدر القانون في مايو سنة ١٩١٢ » .

ومعنى ذلك أن الفلاحين الأستراليين كانوا يأتون بأبقارهم وخيوطهم إلى الفندق ..

لقد سمعت أن الفلاح الأسترالي كان يربط الحصان في النافذة وتبقي النافذة مفتوحة ..
وسمعت أن بعض الأستراليين عندما كانت تلعب الخمر برأسه كان يراهن بإحدى
بقراته ثم يذبحها ويشوتها في نفس الليلة .. ومن أجل ذلك صدر القانون .

ولاحظت أن هناك تنبية كثيرة إلى وجوب إغلاق الغرف - على عكس
المendl وأندونيسيا وسنغافورة وسيلان .. ولابد أن يكون لهذه التنبية معنى ..
وسألت فعرفت أن حوادث السرقة كبيرة .. وخصوصاً سرقة السيارات ..
ولما قلت : ولكن هل من المعقول أن يختفي إنسان سيارته في غرفة النوم ؟ ..
ضحك الناس ولم يقولوا شيئاً ..

وعرفت أن السرقة تبدأ من ماكينة حلاقة حتى السيارة الكبيرة .
ولاحظت أن هناك تعليمات أخرى لم يكتبواها .. فثلا إذا طلبت الفطور
في الغرفة فيجب بعد أن أفرغ من الطعام ، أن أضع الصينية أمام الباب ..
هذه أوامر اللوكالند ، والجرسون يذكر بها في أدب أحياناً .

ثم عليك أن ترتب فراشك .. فليست هناك خادمة لترتيب الفراش كل
يوم ..

طبعاً معها حق .. لا هو انت حنام كل يوم ؟ في البرد القاتل ده ؟ طبعاً
لازم تنام كل يوم ويوم .. ومن أجل ذلك تظهر الخادمة كل يومين .. وفي
خلال هذين اليومين يجب أن تكتنس وتتمسح وتغسل ، فكل الناس هنا يغسلون
ملابسهم .. ولا مانع عندي من هذا ، ولكن بشرط أن تكون الغرفة دافئة .
وفي يوم نبهني الخادمة إلى أنني أمزق الكثير من الورق .. وقد ظننت
أول الأمر أنها تشير إلى مطبوعات الفندق .. فوعدتها بشراء ورق آخر على حسابي .
واكتشفت بعد ذلك أنها تتعرض على وجود بعض الورق تحت السرير ، رغم
أنني كنت ومسحت أمس .. واعتذر بأنني حديث العهد بالغسل والكتنس
والمسح ، ولكن سأراعي ذلك في المرات القادمة .. في هذه الغرفة أو في الغرف
ال المجاورة إذا كان هناك نزلاء أكثر جهلاً مني !

• • •

أشرق الشمس أمس ..

هذا خبر هام جداً .. وليس هذا خبراً في القاهرة .. أن تشرق الشمس في الصيف في القاهرة !

ولكن شروق الشمس في أستراليا ، وفي الصيف ؟ .. إنه خبر في كل الصحف وكلمة على كل لسان .. فالناس يحلمون بشروق الشمس . وكان أمس الأحد . وأشارت الشمس فعلاً .

ارتديت ملابسي . وحملت بعض الصحف والكتب .. وذهبت إلى المحطة لأركب الزورق إلى الناحية الأخرى من مدينة سيدني الجميلة . الناس على المحطة بمالايوهات ، رالبنطلونات القصيرة .. وأصلحت بنطلوني لكي أصالحه على حذاني فأخفى الجورب ، الصوف الذي اشتريته منذ يومين . وحاولت أن أشد أكمام الجاكيتة لكي أخنو القميص الطويل الشتوى .

الأطفال والصغار يأكلون الجيلاتي .. ويرتدون القمصان الخفيفة .. الرجال العواجيز والنساء العواجيز وحدهم هم الذين يرتدون البنطلونات الصوفية المحترمة جداً .. فهناك بلاد الصوف ، بلد الأغنام .. وجلست إلى جوار بعض العواجيز لكي أبدو شاباً وبدأت المناقشات على ظهر المركب وبدأت أحکى لهم مغامرائي ورحلاتي في آسيا وأوروبا وكأنني ماركو بولو أو ابن بطوطة .. وفي أثناء المناقشة فتحت الجاكيتة وفتحت صدرى كأنى لا أعبأ بالبرد . والبلوفر المزدوج قد وضعته تحت الجاكيتة كأنى أخشى أن أنساه في أي مكان .. ولاحظت أن أفكارى سخيفة .. وأن أحداً لا يهم بي أو بملابسى ، أو إذا كنت أجلس في ثلاثة أو في غلابة .. فأنا بربان جداً ، ولا يهمنى إذا كان الناس جميعاً يشكون من شدة الحرارة .. ومددت يدى واشتريت جيلاتى ، طعمه للذيد .. ومددت يدى واشتريت عصيراً مثلجاً .. طعمه للذيد .. وأكلت لحماً بارداً .. للذيد .. وبدأت أعطس وأسعل .. فظيع !

ونزلت من الزورق وصعدنا جبلاً عالياً .. على قلبه وعند سفحه توجد حديقة الحيوان .. إنها صغيرة ولكنها منتظمة وأنيقة .. وبها مطاعم ومقاه وبها أماكن لبيع الماء الساخن فقط .. لأن الناس يحضرن معهم الشاي والبن ولا يتعاجون إلا للماء فقط .. ورأيت لأول مرة غراباً أبيض .. ورأيت الذي يأكل النمل ..

لقد لاحظت أنه يمشي في دواير . . ويفتقر أن جسمه يتسلط منه شيءٌ حلو . .
لأن الفمل يمشي في هذه الدواير ويتكاثر حول آكل الفمل ، . بصورة غريبة . .
فالفمل يموت في السكر ويموت به أيضاً .

ورأيت حيوان الكنجرارو الذي يعيش على الأرض والذى يعيش على الشجر..
ورأيت الغوريلا . . . ورأيت قروداً لا تمشي إلا على رجلين كأى إنسان .. ويفتقر
أن العالم الكبير داروين لم يكن على خطأ . . ورأيت الطائر الضاحك الذي تجعله
أسترالياهو والكنجرارو رمزاً لها . إنه يضحك فعلاً كأى رجل حشاش .. ضحكة
طويلة . . غليظة مستهترة !

وطلعت الشمس وأشرقت ونام الناس على الحشيش وتمددوا ورفعوا الملابس
عن السيقان . ونامت الفتيات على الأرض وعلى الظهر وعلى الوجه . . حيث
الشمس ساخنة ، والهواء بارد جداً . . يا ناس ..

ومضيت أدقّ نفسي بالمشي . . وذهبت إلى أقصاف عصافير الجنة . إنها
مجموعة من الطيور تعيش في نيوزيلندا وجزيرة تسمانيا . طيور غريبة الألوان
ولكل منها ريشتان اثنان فقط طويتان جداً .

وبدأت أحس بأن قدmi قد أعلنت الانفصال أو المصيان المدى . . لم تعد
تربيطني بها أية صلة جسمية أو نفسية . . وجلست وحاولت أن أدقّ قدmi
بالتدليل . بالهرش . . وأخيراً ذهبت إلى مكان بعيد . وجلست على مقعد وزرعت
حذائي وجوري وتمددت في الشمس . . ولم يكن أحد إلى جواري . . وأخيراً .
ومن قمة هذا الجبل ، سمعت وقع أقدام . . وكان عجوز وامرأة .. وارتديت جوري
وحذائي .. ولكنني فوجئت بأن الرجل قد نزع جوربه وحذاءه وبنطلوته وجاكته .
هذا الرجل العجوز . . ليستلق على إحدى الذكراك . . وعندما بدأ أنزع ملابسي
كانت الشمس قد تغطت بالسحب ..

أما النصف الآخر من اليوم فقد أمضيته في حديقة « الدومين » ويسمونها
حديقة المجانين . . ووقفت بين الخطباء . . كل واحد يخطب في موضوع يعجبه .
وهي تشبه حديقة هايد بارك في لندن حيث يشتم الناس الحكومة والكنيسة معاً !
وأمس أحست بأن هذه الخطبة هي نوع من التدليل العقلى . . بل هي

شيء أكثر من هذا . فالناس في الريف يغسلون البلايص « باللية » وبالطين وقطعة من الحجر .. ثم يضعون بلايص في ماء النيل . يغسلونها بالطين وينظفونها بالطين أيضاً .. أمس أحسست أنني مثل بلاص فارغ .. وأنهم غسلوه وملأوه ولما جم يشيلوه .. كسروه — مع الاعتذار للأغنية المعروفة .

ودخلت حديقة الدومين لأنضم إلى هؤلاء المخاني .. أول مجموعة كبيرة وقف فيها رجل بصوت غليظ جداً ..

ومجموعة أخرى .. تلف حول رجل رسم خريطة للشرق الأوسط .. الخريطة كلها مغطاة للون الأصفر ما عدا إسرائيل .. وفي يده كتاب مقدس يقول : لقد جاء في الكتاب أن الذي يحب الله يحبه ، والذى يلعنه الله يلعنه .. واليهود قد لعنوا الله فلعنهم وستخرجهم قوة أخرى من فلسطين .. لماذا ؟ ويناقشه بعض اليهود : من الذي قال هذا ؟

ويردون عليه : هل الله قال لك هذا الكلام شخصياً .. هل سمعته منه .. هذه هي القضية ..

فيقول : لأنني أصدق هذا الكتاب .. « ويشير إلى الكتاب المقدس » .. ويقولون : ونحن لا نصدقه ..

ويقول : هل ستعرفون لماذا سيخرج اليهود من فلسطين .. لأن الله وعد بذلك .. هل تعرفون لماذا أعطيت فلسطين لليهود .. لأن أحد اليهود اخترع المادة المتفجرة التي استخدمها الإنجليز ضد الألمان .. هذه المادة اخترعها وايزمان ..

فيقال له : إن زوجي كانت تعمل مع وايزمان .. وليس هذه المادة وحدها هي التي اخترعها .. إنه اخترع أشياء أخرى كثيرة .. ولكن اليهود عادوا إلى فلسطين لأنها بلادهم .. وأنهم اشتروها بفلوسهم من إنجلترا وأمريكا .. بفلوسنا يا حضرة الله .. اسمك ليه يا ..

ويقول : نعم بفلوسكم وبانحطاط أخلاقكم وسفالتكم ولكن الكتاب المقدس يقول إنكم ستخرجون .. وكتم تحاولون دخول مصر أخيراً فأخرجكم المصريون منها .. وهذا تطبيق لما جاء في الكتاب المقدس ..

ويرد عليه اليهود بكلمات نابية .. ويغضي الرجل في كلامه ، ويغضي اليهود في المناقشة ..

ولى جواره مجموعة ثلاثة من الناس التفت حول رجل آخر .. ويبدو أن هذا الرجل قد أدى له بمساعد يستدرجه في المناقشة ويستفزه .. ويلاحقه بالسؤال والجواب .. ويقول هذا الرجل : هل تعرفون ماذا تكتب الصحف للشباب ؟ .. اسمعوا هذه القصة التي نشرتها الصحف أمس .. اسمعوا : دخل الاثنان متعاقبين في غرفة مظلمة .. وامتدت يده إلى المفتاح ليقفل الباب .. فصرخت الفتاة بعائقها .. وعندها عائقها مالت على الحائط .. مالت على إيه ؟ على الحائط .. فأضى نور الغرفة .. وظل يعائقها .. وظل إيه ؟ يعائقها .. آه طبعاً ظل يعائقها حتى أيقظهما باقى الصحف ليعطيهما النسخة الجديدة من سفالة وواقحة الحياة اليومية .. هذا الجيل سيفسد .. هذه القصص أخطر من القنابل والصواريخ .. إنها تقتل في صمت .. إنها تذبح .. نتمنى نحن الشيوخ على مستقبل أولادنا ..

ويناقشه مساعدته : وأنت من تكون لكي تناقش هذه القضايا ؟
فيرد عليه : وأنت من تكون لكي تناقشني .. ماذا تكسب .. ماذا
تساوي .. إن الممثلة صوفيا لورين تكسب أكثر منك وأحسن منك ..

فيقول له : لماذا ؟

ويرد عليه : لأنك لا تملك ما تملكه .. عندك حاجة زبها ..
ويأتي بعض الحركات بيديه .. فيضحك الرجال ، وتحقق النساء وجوههن .
والناس يتجمعون حوله .

ومعظم الخطباء في « الدومين » من رجال الدين الذين يحملون لافتات كتب عليها : المسيح جاء للخلاص الناس .. المسيح هو الكون .. المسيح تعذب من أجلنا .. العلم خلق الخطيبة ، والخطيبة خلقت الحروب ..

وهناك قسيس أتى بنبر .. وأتى بفرقة موسيقية ، ووراءه عدد من السيدات يرتلن الألحان الكنسية .. وهناك قسيس أتى ببخار .. وحول رجال الدين توجد مطبوعات ومجلات وصلبان معروضة للبيع .. وهناك سيدة تحمل طبلة صغيرة تنادي بها الناس ليلتقطوا حولها .

وهناك رجل جاد جداً .. معه خريطة تفصيلية للانفجارات النارية .. وعلى الخريطة توجد عمليات ضرب وطرح تنتهي بأن القنابل السوفيتية والأمريكية إذا أطلقت معاً فسيتهي الكون كله ..

ويحاول الخطباء أن يستمروا الناس بخفة الدم . ولكن يظهر أن الجماهير لا تحب كثيراً الرجل الذي يبالغ في خفة دمه ، حتى لا يكون عنده أى دم . والجماهير تفضل الرجل الذي يجعلها تحس أنها أعلم منه وأكبر منه .. وقليلون قادرون على ذلك من العظاماء أو الخطباء — عندنا توفيق الحكيم إنه الوحيد الذي يرضيه أن يقال عنه : إنه بخبل وإنه سرحان جداً ، فيضحك الناس ويشعرون أنهم أكرم وأوعى — ليس هذا رأي وإنما هو رأي طه حسين عندما قدم توفيق الحكيم إلى الجميع اللغوى .

فقد رأيت أحد الخطباء يحدث العمال عن المرأة فيقول لهم إنها هي التي كسبت الدنيا والآخرة عن طريق عبط الرجل : من الذي كسب الانتخابات في أمريكا ؟ إنها زوجة أبنهاور . من الذي اكتسح الجماهير في واشنطن ؟ إنها مدام خروشوف ! من الذي يملك الشركات والمؤسسات في أمريكا ؟ إنهن النساء .. من الذي أخذ أموالنا وصحتنا ويخوننا مع غيرنا ؟ إنهن زوجاتنا !

ويقول : إن المرأة يجب أن تعمل أكثر وأكثر ، إنها لا تعمل .. إنها تأكل وتنجب الأطفال لأن الأطفال عمل كبير .. الكلاب تنجب .. والخيول تنجب .. ونصف الحاضرين لهم أمهات غير معرفات !

وضاعت الأرقام والبيانات والنظريات الاقتصادية التي ساقها هذا الخطيب الفاسد وسط هذه النكت والقفشات ، وضاعت وسط الضحك ، كما يضيع الأسلوب العربي المتن ، وسط الكلام العائى السخيف .

هؤلاء أناس لا مكان لهم في الجمعيات المنظمة ، ولا الصحف .. إنهم يقفون في «الشقة الحرام» بين القانون والثورة عليه . إنهم لا جثون عقلياً وعاطفياً .. إنهم وجدوا مكاناً ينفسون فيه عن مبادئهم وعقائدهم .. إنهم ليسوا مجانيين .

ولا يحدث أن تميل على صديق أو صديقة وتقول له كل ما في نفسك . وعندما تنتهي من كلامك تقول : والله أنا مش عارف إيه اللي خلاني قلت كل ده .

اللى خلاك قلت ده هو حاجتك إلى الراحة .. إلى أن ترمي الحمل الثقيل عن القلب وعن العقل .

إن الطائرة في حالة المبوط الاضطرارى ، تلقى بكل ما فى جنابها من بنزين ثم تهبط زاحفة على الأرض .. وهو لاء الناس زاحفون على الأرض وعلى آذان الناس وعقولهم .

إن «الدومين» هو مستشفى فى الهواء الطلق للأمراض الدينية والسياسية !

• • •

أمس اقرحت على الأستراليين هنا أن يأتوا ببعض السفن الكبيرة ويملاوأ فرائسها بالبخار ويلفوا بها حول القارة السعيدة أستراليا .. منعاً للحسد !

وفى بلادنا ليست لدينا معلومات كافية عن أستراليا ، وأستراليا لا تعطى أحداً أية معلومات لأنها قارة مكتفية بنفسها وليس فى حاجة إلى أحد .. إنها غنية . إنها تقدم للعالم نصف الصوف الذى يلبسه . فى العام الماضى قدمت للأأسواق مليارين من أرطال الصوف . ومع ذلك فالصوف هنا غال جداً . فاستراليا تبيع كل الصوف لإنجلترا . وإنجلترا ترد لها هذا الصوف أقشة ، واستراليا تبيع غالياً جداً . والأسعار كلها هنا غالية ، وكل الواردات عليها ضرائب كبيرة . وخصوصاً ما يرد من إنجلترا وأمريكا .

والناس هنا فى استراليا يتحدثون عن مستقبل بلادهم بكثير من الفخر والاعتزاز .. فالذين كانوا فى استراليا قبل الحرب الأخيرة يرددون الأعاجيب . فلم تكن البلاد بهذه الحضارة أو هذه المدنية . لقد زادت فيها العمارت الجديدة ٩٠٠٪ وزادت المطارات حتى أصبحت فى استراليا الآن ٦٥٠ مطاراً . والانتقال بين المدن وفي هذه المسافات البعيدة كلها بالطائرات . والسكك الحديدية هنا ممتازة ويكفى أن تجلس إلى جوار النافذة فى الديزل وترى ملايين الأفدان الخضراء وفيها ملايين الأغنام والأبقار والخنازير والخيول .. وهى مصدر ثروة البلاد .

إن الشارع الذى أقيم فيه به ١٤ عمارة كل واحدة ١٧ دوراً وكلها جديدة فى مقدمتها عمارة شركة الطيران « كانتاس » وهى أجمل عمارت فى مدينة سيدنى . وهنالك أنفاق تحت الأرض وجسور عالية وأكبرها كوبرى سيدنى .. والسيارات

التي تمر على أي طريق من طرقه الستة تدفع ضريبة صغيرة تتضاعف بعدد الركاب وحجم السيارة ..

وأستراليا هذه ليست دولة وإنما قارة كبيرة في حجم الولايات المتحدة .. ومساحتها ٣ ملايين ميل مربع . ونصف هذه المساحة حار . والنصف الآخر معتدل . . ويعتقد علماء الجغرافيا أن هذه القارة قديمة جداً . . وربما كانت أقدم المناطق في العالم التي عاش بها الإنسان . فتاريخ الحياة فيها يرجع إلى ١٠٠ مليون سنة مضت ، ويقال إن كل جزر الهند بآندونيسيا التي تقع شمال أستراليا كانت جزءاً من أستراليا القديمة .

وأستراليا قديمة جداً وجديدة جداً . ولم يذهب إليها الأوربيون إلا في القرن الثامن عشر . أو على التحديد في سنة ١٧٨٨ عندما نزل الرحالة الإنجليزي جيمز كوك يوم ٢٦ مايو واستولى على هذه القارة ورفع عليها العلم البريطاني . وفي ذلك اليوم نزل إلى الشاطئ ألف رجل أبيض . . ومن هؤلاء تكون المجتمع الاسترالي الأبيض وظل تابعاً لبريطانيا من ذلك اليوم .

و قبل هذا الرحالة الإنجليزي وصل إلى أستراليا رحالة آخر هولندي . ولكن رأى القارة من بعيد ولم يحيط إليها ، وبعده جاء رحالة برتغالي ورأى القارة أيضاً وعاد إلى بلاده ومات هناك .

وأستراليا معناها : الأرض الجنوبيّة . . لأنها في جنوب العالم المعروف . . أي جنوب آسيا . .

• • •

وتزايد عدد سكان أستراليا بقدوم المهاجرين من كل بلاد العالم بعد سنة ١٩٠١ عندما اكتشفوا مناجم الذهب ..

والآن أصبح عدد سكان أستراليا حوالي عشرة ملايين يسكنون هذه المساحة من الأرض . ففي كل ميل مربع يقيم ثلاثة أشخاص - بريطانيا كل ميل مربع يسكنه ٧٥٤ شخصاً !

ومن بين هؤلاء الملايين يوجد ٤٥ ألفاً من السكان الأصليين ..
هؤلاء السكان الأصليون هم أغرب مجموعة بشرية في العالم كله .. فقد حار

العلماء في أمرهم . . لم يتفق العلماء على أصل هؤلاء الناس . لا أحد يعرف . . ثم إن هؤلاء الأستراليين الأصليين قد عاشوا في هذه القارة ألف السنين . فلم يتركوا حضارة ، أو يبنوا بيتاً ، لم يصلحوا أرضاً . لم يستأنسوا حيواناً واحداً ، لم يكتبوا ورقة . . عاشوا هكذا في حال ارتخال . . إنهم يتركون بيوتهم ويهيمون على وجوههم . . حتى اليوم . .

ولهم طريقة غريبة في المشي . . فهم يمشون في خط مستقيم دائماً في حين أن الناس المتحضرين يمشون في خطوط ملتوية إذا صادفهم عقبة التفوا حولها . . أما هؤلاء فيمشون في خطوط مستقيمة . .

وهولاء الأستراليون يعيشون الآن على صيد السمك . وعلى الأعشاب وصيد الحيوان . . والدولة هنا تحاول أن تختفظ بهم حتى لا يتفرضوا . . فقد نقص عددهم في المائة سنة الماضية حوالي ٣٥٠ ألف نسمة . . ولذلك فإن الدولة تفتح لهم المدارس ، وتبني لهم البيوت ، وتحاول أن يجعل من بينهم مدرسين وقساوة . . وكثير من هؤلاء الأستراليين الأصليين قد تفوق في الفنون والغناء والرقص ، ولكنهم حتى الآن ما زالوا يعيشون على حافة الحضارة .

نسبة التعليم هنا ١٠٠٪ ومعظم الناس لا يشترون الصحف ولكنهم يشترون فيها . . فالصحف توزع في البيوت في ساعة مبكرة جداً . وبأسعار أرخص . هنا تصدر ثلاثة صحف يومية . واحدة عدد صفحاتها ٢٦ صفحة . . كل يوم وتوزيعها نصف مليون نسخة . . والعدد الأسبوعي في ٧٢ صفحة وتوزيعه ثلاثة أرباع مليون وثمانين خمسة بنسات أي حوالي ١٥ مليوناً !

• • •

ووجود هؤلاء الأستراليين الأصليين في أستراليا يجعلهم يرتدون من الملونين . . من السود والصفر . . ولذلك عمدت أستراليا إلى السياسة البيضاء . وقد كانت أول الأمر أستراليا للإنجليز . . وبعد ذلك أصبحت : أستراليا للأستراليين . وبعد الحرب الأخيرة وبعد أن زاد عدد المهاجرين من كل أوروبا أصبحت سياتها : أستراليا للبيض . .

إن الصفر من الصين والسمير من الهند ليس لهم مكان هنا . . ولكن الذي

حدث أن الصفر أحاطوا هذه القارة من كل النواحي . . فهم في الشمال في أندونيسيا ، وفي الشمال الغربي في سيلان والهند والفلبين ، وفي أقصى الشمال في الصين واليابان . . ومنذ أيام منحت أستراليا الجنسية الاسترالية لعدد من الصينيين الأغبياء لأنهم أقاموا مدة طويلة في هذه البلاد . وستعطي أستراليا الجنسية ٥٠٠ طفل أسترالي ولدوا من أمهات يابانيات أثناء الحرب الأخيرة . .

* * *

وقد نشرت صحيفة « الدليل للجراف » بتاريخ أغسطس سنة ١٩٥٩ مقالاً للمؤرخ البريطاني الكبير « أرنولد توبيني » يتحدث فيه عن مستقبل أستراليا في الخمسين عاماً القادمة . . طبعاً مدح البلاد وجهها وثروتها وتقدمها السريع جداً . . وهو طبعاً على حق في كل ما قال . . ثم تحدث عن هذه القارة الكبيرة التي يعيش فيها فقط عشرة ملايين كلهם من الأغبياء ، ورأى أن أستراليا إما أن تقسم ثروتها مع غيرها أو ستضيع منها هذه الثروة . . أو بعبارة أخرى يجب على أستراليا أن تفتح أبوابها للملوّنين . . للصفر . . للصينيين . . واقترح المؤرخ الكبير أن يجعل الأستراليون بالزواج من الآسيويات !
وأستراليا تنسع لـ ٣٧ مليون نسمة يعيشون في رخاء .

وفي مدينة سيدني الآن محلات ومطاعم صينية . بل هنا جالية صينية قليلة لا تتجاوز بضع مئات ولكنها جالية نشطة جداً . ويتناقض عددها في صمت ودون أن يشعر بها أحد .

وأكبر الجاليات الأجنبية هنا هي الجالية الإيطالية وتعدادها حوالي ١٤٠ ألفاً . وتليها الجالية اليونانية وعددتها ١٢٠ ألفاً ، ثم الجالية اللبنانية وعددتها يزيد على ٢٥ ألفاً . وقد رأيت النادي الجديد — أقصد العمارة الجديدة — التي بناها اليونانيون هناك . العمارة اسمها « النادي الهلبي » أي اليوناني . . عمارة أنيقة جميلة تكلفت رباع مليون جنيه . والعضوية فيها للجميع . وقد اختاروني عضواً للبرهنة على أنها ليست مقصورة على اليونانيين وإنما هي لكل الناس المقيمين والمسافرين .
والجالية الإيطالية في أستراليا تهتك بعض الأطعمة وبعض المشروبات .
ومعظم الجرسونات هنا من الإيطاليين ، وتوجد هنا مقاه صغيرة كالتي توجد في إيطاليا . وهنا قد عرفوا كلمة كابو تشينو — أي قهوة بلن — وكثير من الأستراليين

لا يعرف إن كانت هذه الكلمة إنجليزية أو فرنسية أو إيطالية .. لأن الإيطاليين قد أدخلوها في اللغة منذ وقت طويل .

• • •

وعلى الرغم من أن أستراليا مجتمع إنجليزي صميم فإن الجيل الجديد هنا بدأ يتحرر من القيد الإنجليزية ، بل إن الناس يشتمون الإنجليز ويتهمنهم بالبرود الشديد وبالكسل . قال لي رجل أعمال كبير جداً : إننا نكره هؤلاء الناس . لأنهم باردون .. وقدرون أيضاً . إن الرجل الإنجليزي من النادر جداً أن يستحم .. وأحسست برغبة شديدة في المرض ، فأنا الآخر لم أستحم منذ وقت طوبل .. البرد يا ناس على الرغم من أن الربيع بدأ رسميًّا منذ أسبوعين !!

وقال لي رجل أعمال آخر .. إنه عندما ذهب إلى إنجلترا كاد يختنق من برود الإنجليز ومن شدة تمسكهم بالتقاليد . وأعربت له أنا الآخر عن إحساسي ببرود الأستراليين وشدة تمسكهم بالتقاليد ، وأنه لا بد من أن يرتدى الإنسان البدلة كاملة طوال النهار وطوال الليل . ف بهذه البدلة يستطيع أن يدخل أي مطعم أو أي مكان يسهر فيه ، ومن غير البدلة والكرافطة يصبح طريداً طول الليل وطول النهار ..

أما الجيل الجديد هنا فقد بدأ يتحرر .. وببدأ يمشي بالبنطلون الضيق والقميص المربعات والقميص البقرى — أي نسبة للبقرة وأولادها المرسومة عليه ! وببدأ الجيل الجديد يطلق الأسماء الأمريكية على البلاجات .. منها بلاج ميامي .. وفلوريدا .. ولاس فيجاس ..

وفي الصحف الآن معركة بين أنصار التقاليد البريطانية والبدع الأمريكية . وبدأت الصحف تنقل للناس هنا أن الأمريكيين يسخرون من هذه الأسماء المسروقة .. ولكن الجيل الجديد مصر على هذه الأسماء ، مصر على الارتباط بأمريكا أكثر من ارتباطه بإنجلترا ..

ومع ذلك فالأفلام هنا تبدأ بالسلام الملكي فيقف كل الناس ، وتطل الملكة إليزابيث هى وزوجها وأولادها عند بداية ونهاية كل فيلم . وأستراليا ما زالت خاضعة للناتج البريطاني . وما زال لها حاكم عام بريطانى . وهذا نفس العادات

والتقاليد واللغة .. العادات في البيت وفي الشارع والمطعم ..

• • •

ولكن أعتقد أن شيئاً جديداً هنا قد حدث ... !

فثلا في البنك وهو مكان ليس فيه مجال للمجاملات ولا للرقابة .. إنهم أناس يشتغلون في الأرقام والحسابات ومشغولون جداً .. هذا في كل الدنيا ، ولكن هنا في أستراليا يعاملونك بأدب شديد جداً .. تذهب إلى أحد المكاتب لطلب تحويل أي مبلغ من المال ، تقدم إليك سكرتيرة وتفتح لك الباب ، وتسحب لك مقعداً وتظل واقفة حتى تجلس كأنك في طائرة ، وكأنها هي مضيفة .. وبعد لحظات تذهب بك إلى الموظف المختص وتقدمه لك .. ويسحب لك هو الآخر مقعداً ، وينظر لك حتى تجلس .. وفي لحظات كلها أدب ورقة ينهى لك ما تريده .. وينهض واقفاً ، ويسفكك إلى الباب يفتحه لك ويودعك ويتمنى لك رحلة سعيدة .. مع أن الفلوس التي كسبها البنك لا تتجاوز عشرين فرشاً .. وليس هذا في البنك فقط .. وإنما في الشركات وفي محلات التجارية ..

أذكر أنني دخلت محل « ولورث » وهو من أشهر محلات في أستراليا وفي كل دول الكومنولث .. و كنت أبحث عن الفرع الخاص بالصابون .. وظلت ألف في محل ، في أدواره السبعة .. وأجلس في المقهي وأحتسي الشاي .. ثم أصعد إلى المطعم وأتناول بعض السندوتش وبعد ذلك أنزل إلى المكتبة وإلى أقسام العطور والملابس .. ساعة من الوقت وأنا ألف .. ونسرت أنني جئت لشراء قطعة صابون .. وفوجئت بأن إحدى البائعات تمشي ورائي طول الوقت .. وعندي همت بالخروج سألهني : لماذا لم تشر شيئاً؟ . فقلت والله كنت عازز أشتري قطعة صابون .. لكنني مش لاق فين ..

وعادت بي إلى الدور الثالث واحتربت قطعة الصابون وثمنها لا يزيد على ثلاثة قروش وودعني حتى الباب وابتسمت ابتسامة تساوي ثلاثة آلاف فرشاً .. وفي شركة طيران كانتاس الأسترالية تذهلك معاملتهم .. أدب ورقة .. من المضيفة إلى الموظف .. كأنهم جميعاً « خدامين أبويا » .. لا أعتقد أن شيئاً من هذا يجري في المجتمع الإنجليزي ..

فعتدما كنت في لندن ذهبت إلى محل سلفريديج . . وهو من المحلات الكبيرة ، وحاولت صرف بعض الشيكات السياحية ولاحظ الموظف أن إمضاءاني كلها مختلفة بعضها عن بعض فدهش . . وقلت له إنني لم أتعود أن أوقع بحروف لاتينية . . وإنما بحروف عربية . . واقتنع الرجل وقبضت المبلغ وانصرفت . ثم نادى بعد ذلك قائلا : أرجوك أن تشرح هذا البعض زملاً ، لأنهم أغبياء ، ولأنهم يتصورون أن بلاد العالم تكتب وتتكلم الإنجليزية . . ولكنهم في أستراليا مودبون ومؤدبون كمان مرة . . وابتسامتهم تبدأ في بلادهم وتنتهي في بلاد الإنجليز !

أما الجيل الجديد . . فقد ترك الأدب والرقة للوالدين ، وانطلق هو نحو البساطة الأمريكية . . .

• • •

سألني بعض الناس : قايش بدلتك منين ا
قلت : من عندنا .

قالوا : طيب والتفصيلة !

قلت : من عندنا برضه .

قالوا : والبدلة دي بناعتك !

ونظرت إلى البدلة وقد تكرمت ونقص طولها من البرد قلت : كانت بناعني !

• • •

والحياة الاجتماعية والسياسية والنوابية إنجليزية مائة في المائة . . فهنا برمان من مجلسين . . مجلس نواب وأعضاؤه ١٢٦ عضواً . . ومجلس شيوخ وأعضاؤه ٦٠ عضواً . . المجلس الأول لمدة ثلاثة سنوات والثاني لمدة ست سنوات ويسقط نصف أعضائه كل ثلاثة سنوات . .

وفي كل ولايات أستراليا الخمس مجلس نيابي واحد . . وهذه الولايات الخمس تظهر على شكل خمس نجوم على العلم الأسترالي . .

الصحافة هنا تصدر ٦٥٠ جريدة يومية . . بل إن بعض الأحياء في المدن تصدر صحفاً يومية . .

وقد دهشت جداً عندما قرأت في الصفحة الأولى أمس أن وزيراً يتم زميلاً
له بالرسوة !

وعلمت أن قصة الوزيرين هذه لا بد أن يناقشها الخطباء في حديقة النومين.
وقررت أن أخصص يوم الأحد القادم لاستمع إلى قصة الوزيرين بصرامة ..

• • •

والمرأة الأسترالية هنا تساوى الرجل تماماً . . فـ كل شيء . .

إلا أن هناك قانوناً يجعل مرتبها دائماً يساوى ٧٥٪ من مرتب أي رجل
ولكن القانون يعطيها عندما تزوج نصف ما يملكه الرجل من أرض ومال وعقار !
والمرأة الأسترالية هي أول امرأة في العالم كان لها حق التصويت والترشح في
الانتخابات . فقد قرر ذلك قانون صدر سنة ١٨٩٣ .

والدولة تشجع الفتاة الأسترالية على الزواج وتشجع أيضاً على إنجاب أكبر
عدد ممكن من الأطفال ، فكل طفل يولد له ثلاثة جنيهات مساعدة من الدولة . .
للغنى والفقير . وفي كل دور السينما في أستراليا يرى الناس شريطاً مسجلاً لزوجين
أنجبا ١١ طفلاً من الذكور والإثاث . . ويظهر على الشاشة مندوب شركة التأمين
على حياة هذه الأسرة ومعه مبالغ كبيرة من المال قدمتها الدولة لهذه الأسرة .

والمرأة الأسترالية تهم جداً بصحتها وأبنائها . . فلا توجد امرأة لا تشارك في
ناد من الأندية ، ونظرة واحدة إلى فترينيات الحال في شوارع بيت وجورج
وكاسلرى وفي ميدان «كروس» تدللك على أن هذه القارة ليست إلا ملعاً كبيراً
لكل أنواع الرياضة . . وأهم الرياضات هنا التنس والكريكيت . . وقد فازت
أستراليا بكأس ديفيز للتنس ١٤ مرة . وكان ترتيب أستراليا الثالث في الدورة
الأولمبية السادسة عشرة في سنة ١٩٥٦ ، جاءت بعد الاتحاد السوفياتي وأمريكا .
وجمهور التنس معظمهم من النساء .

والمرأة الأسترالية حريصة على رشاقتها لدرجة أنها تموت من الجوع ولا يضاف
لها دوهم واحد من الشحم . . وكل يوم تزن نفسها عارية تماماً . . وكل يوم تنهض

من النوم وتمسك خيطاً تقيس به وسطها . . . وفي الأجزخانات توجد وصفات كبيرة لإنفاس الوزن وإذابة الشخم . وهناك عدد كبير جداً من الحال اسمها : حال الفيتامينات . . أو حال مائة سنة بلا شحم . . أو حال الوزن الذهبي . . وكل نساء أستراليا طويلات القامة . . ومعظم النساء هنا يلبسن البلوفرات الصوفية الملونة في كل فصول السنة . . حتى في الصيف يرتدين بلوفرات من الصوف والحرير . . والآن تمضي الفتيات بالبنطلونات القصيرة جداً في الشوارع . . وكل الحالات تذيع في الميكروفون بأصوات نسائية عن السلع التي عندها ومعظمها سلع حريمي .

والفتاة هنا تدهش جداً إذا أنت دفعت لها الحساب . . كما تفعل فتيات إنجلترا والسويد والدانمرك . . وهذه بداية عيوب التقليد الأميركي . . والمرأة هنا مهما كان دينها فإنها تستطيع أن تتطلق من زوجها دون أن ترجع إلى الكنيسة . وإذا انفصلت امرأة عن زوجها ، فإن الزوج الجديد يجب أن يدفع تعويضاً . . والتعويض ليس كبيراً جداً ، والقانون هنا يسمح للشاب أن يتزوج في سن ١٢ والفتاة أن تتزوج في سن ١٤ . الدولة تريد نسلاً كثيراً ، تزيد أن يزداد عدد سكانها من الداخل . . لا عن طريق الهجرة من الخارج . .

وفي سنة ١٩٦٤ ذهب أحد الوزراء إلى أوروبا لإقناع ثلاثة آلاف فتاة بالهجرة إلى أستراليا . .

ثلاثة آلاف عروسه طبعاً . .

واختار بنات إيطاليا لأنهن جميلات ولأنهن يجدن الطهي . . ولأن في أستراليا جالية إيطالية كبيرة . .

ومن بنات سويسرا لأنهن يجدن إدارة الأعمال . . وأستراليا دولة صناعية ناهضة . . .

مطلوب فتيات لأستراليا . . الرجال يشكون من قلة النساء . . على عكس الدول الأوروبية التي أكلت الحرب معظم رجالها ولم تترك إلا الفرثان والنساء ! وعندى حل — وهو مرفوض مقلقاً ولكنه معقول وليس جديداً — وهو أن تسمح الدولة ببعض الزوجات !

طبعاً تعدد الزوجات حرام في الديانة المسيحية . . ولكن البابا — وهو رأس الديانة الكاثوليكية — قد سمح بتعدد الزوجات في أواسط أفريقيا . .

ولكن سبب ذلك هو أن تعدد الزوجات عادة مقبولة في هذه القبائل الإفريقية . والإسلام عندما انتشر بين القبائل كان بسبب أنه لا يعارض في تعدد الزوجات . بينما كانت المسيحية تعارض . ولذلك رأى البابا أنه ليس من الضروري ، ولهذه الاعتبارات الخاصة ، ألا يصادم الشعور الديني بتحريم الجمع بين زوجتين . . فتفضل قداسته وفتح الباب على الآخر وسمح للرجال ، شيوخ القبائل خصوصاً ، بأن يتزوجوا أى عدد من النساء وأحياناً من الراهبات . .

وفي أستراليا ، ولهذه الاعتبارات التي تجعل أستراليا للبيض فقط . من الممكن الجمع بين أكثر من امرأة . . واحدة منها زوجة على الأقل . . والثانية والثالثة كالزوجات . . وفي هذه الحالة يجب على الدولة أيضاً أن تنظر بشئ من الارتياب إلى اللقطاء ، كما تفعل السويد !

فا دامت أستراليا حريصة على زيادة عدد النسل بين البيض بالذات . . فيجب أن تتحقق لكل من يأتي بولد جديد . . وما دامت مستوفقة ، معنى ذلك أنها سترفع يديها الاثنين عن القيود وعن تنفيذ القوانين التي تسأل : هذا الطفل من أين ؟ وأين وجدتكموه ؟ إلى آخر هذه الأسئلة السخيفية التي تؤدي إلى تحديد النسل وتؤدي في نفس الوقت إلى سد نفس الرجل ، فلا يقبل ولا يعاون . . وإلى كسر قلب الفتاة فلا تحب ولا يمتليء بطنهما بالحب !

هذا رأى أعرضه مجاناً لمن يهمه مضاعفة عدد سكان الأستراليين من البيض فقط .

ومع الأسف لم يتسع وقتى لكي أقدم بهذا الاقتراح إلى حكومة أستراليا . . ولا لكي أسلجه حتى لا يلطفشه مني أى شاب وشابة . . ويسرعان في تنفيذه تحت أقرب شجرة !

• • •

وأنا أنهز هذه الفرصة لأحدثك عن يوم في حياة فتاة أسترالية . . !

ليكن اليوم مثلاً هو يوم الأحد . .

إنها تنهض من النوم في السابعة صباحاً مثلاً . . وتلعب بعض الألعاب السويدية . . وبعدهن يستحم في هذا اليوم . . وتمسك الخيط وتقيس وسطها ، هل زاد ؟ هل نقص . . ؟ وتفق عارية على الميزان لتعرف . . وتفق أمام المرأة وترسم حواجزها . . قول كده ياسيدى في نصف ساعة ، والحاوجب لابد أن تكون غليظة وتسريح شعرها لا يستغرق بضع دقائق لأنه شعر حرير على الخالد يهفف ويرجع يطير إلى آخر الأغنية المعروفة . . وبعد ذلك تمسك الصحيفة اليومية ، ونقرأ النشرة الجوية . . ول يكن الجو لطيفاً فترتدى البطلون القصير . . وتضع الماء في الحقيبة ثم تختطف فجاناً من القهوة بالزبدة وبعض اللحوم الباردة وبعض أفراس الفيتامينات . . وتنطلق إلى الشارع ، إلى الترام ، إلى الميناء ، وتركب أحد الزوارق إلى حديقة الحيوانات وتمضى اليوم كلها هناك . .

وبعد الظهر تذهب إلى النادى . . أو إلى الشاطئ وتشرب البيرة في الساعة الخامسة . . وتذهب إلى السينما ومعها بعض الساندويتشات وتخرج من السينما في الثامنة وتناول العشاء وتنطلق إلى البيت لتلحق آخر برنامج في التليفزيون . . وتتحدث في مكتبها عن اليوم الرائع الذي أمضته تحت الشمس في الهواء ومع رجل أجنبي جاء إلى هذه البلاد لأول مرة . .

وتروى لزميلاتها قصصاً كيف أنه يدعى أن في بلاده عمارات عالية ومطارات ودوراً للسينما ، وأنهم يتكلمون اللغات الأوروبية في ظلال الأهرام وأبو الهول ! طبعاً وتنسي وزميلتها أنهن جميعاً ولدن وعشن وسيمتن في أستراليا دون أن يسافرن إلى أي بلد آخر . .

يوم لذيد . . ما رأيك ؟

وعندما تعود هذه الفتاة إلى البيت ستركب الأتوبيس . . ولن يتسع وقتها لقراءة المجلات . . ومعظم هذه المجلات هنا تتحدث عن الجمال والشباب . .

ويظهر أن المرأة هنا لم « تتأمرك » أى تصبح أمريكة فهي لا تحب الصحف المنشورة التي تتحدث عن الجرائم . . وربما كان السبب هو أن هؤلاء الأستراليين من سلالة الجرميين الذين كان الإنجليز يحكمون عليهم بالسفر إلى هذه البلاد على

سبيل العقوبة . . فالجريمة تجري في دمائهم . . ويظهر أن الجريمة تجري فقط في الدم . . ولكنها ليست الدم نفسه . . فهم أناس طيبون مساملون . . يمكن أنهم يريدون أن يعيشوا وأن يجعلوا لحياتهم طعمًا ولوًناً . . ويمكن أن واحدة منهم أبدت إعجابها الشديد بيلادى وأعجبت بأخلاق المصريين . . وبعيونهم وشعرهم الأسود الخشن . . وبثقافتهم وسفرهم بين القارات . . وسألتها إن كانت قد قابلت أحداً من المصريين !

وكانت هزة رأسها ، وهى تقول : لا ، أكبر دليل على غباوتي . .

ولكن عندما وزنت بين غباوتي ، وبين الخيبة العظيمة التي وجهتها لشخصى ، أحسست بالخسارة الفادحة التي أصابت بلادى . عندما أضاع أحد أبنائها هذا المجد العظيم بحسن نية !

ووعدت بلادى ، بيني وبين نفسي ، أن أعرضها عن هذه الخسارة عند أول فتاة أصادفها في أستراليا بعد ذلك !

ولاحظت أيضاً أن الفتيات فى أستراليا لا يملن كثيراً إلى استخدام التليفون . فال்டليفون هو وسيلة المواصلات عند الفتيات العاجزات عن الكلام بصوت مرتفع ويقلن ما يعجبهن وعلى عينك يا تاجر !

وهي تمشى فى الشارع بسرعة كأنها على موعد مع أحد الطيارين على سلم إحدى الطائرات النفاية التي تأخرت عن موعد قيامها دقيقة ونصف دقيقة !

• • •

والحياة هنا فى الليل غريبة . . فال محلات كلها تقفل أبوابها فى الساعة الخامسة مساء ، كل المحلات طبعاً ما عدا بعض المطاعم تقفل أبوابها فى الساعة التاسعة والنصف . وفي بعض الأحيان تقفل المحلات فى الحادية عشرة . . بعدد أصابع يدك محلات أخرى تقفل نوافذها فى الساعة الثانية عشرة ، أما الأبواب فتبقي مفتوحة حتى الثانية صباحاً وفيها هبصة وخور ورقص . . ولكن الكباريات هنا قليلة جداً . . ويظهر أن التليفزيون قد علم الناس البقاء فى البيت ، فال்டليفزيون قد نقل الأفلام والخلفات الراقصة كلها إلى الناس فى بيوتهم - جهاز التليفزيون بالتقسيط ٣٧ جنيهاً ، ونقداً وحالاً بمبلغ ثلاثة جنيهات !

والرجال إذا سهروا فهم يذهبون إلى البارات ويسربون البيرة واقفين . ويقطعنون الليل كله بين البار وبين دورة المياه — آسف دورة البيرة — !

ولا يوجد هنا طعام لوكس .. ولا شراب لوكس .. وإن كانت توجد فقط شوربة من ذيل الكانجرو .. هذا هو أحسن شيء يقدمه لك الأسترالي . والكانجرو تقاصده الحكومة الآن لأنه يأكل الأعشاب التي تأكلها الأغنام .. والأغنام أهم ..

أما الكانجرو فيمكن الاحتفاظ به في الحدائق للزينة .

• • •

ومدينة سيدني وعدد سكانها حوالي مليونين ، هي المدينة الوحيدة المودرن .. أما بقية المدن مثل كانبرا وملبورن ونيو كاسل وبريسبن ودارون وبيث ، فهي مدن إنجليزية شكلها وموضوعها وعاداتها وتقاليده .. والناس هناك ينظرون إليك بدهشة .. ويقاد الواحد منهم يسألك : أمال حضرتك جاي ليه هنا ؟ فتقول له : والله أنفرج .

فيفعل : يعني حقائب الناس ؟

وترد عليه : أيوه !

وتفاجأ به وهو يقول : إزاى تقابل الناس وأنت مش لابس بدلة سودة وكرافتة سودة يا أخي .. !

ولكن الطريق إلى هذه المدن الإنجليزية جداً أو الإنجليزية بعض الشئ .. رائع فاتن .. لا تجد له نظيراً في أي مكان من العالم .. وشكل الوديان والجبال والأنهار والأبقار والسيارات والمداخن والمصانع .. والهواء النظيف .. وكل شيء نظيف .. الناس والحيوانات والأعشاب .. كل هذا ينسلك من داخلك .. يجعلك تماماً صدراً بكل شيء دون خوف .. فالبلاد كلها صحة .. وكلها شباب ، وكلها وجوه بالألاف من الأجانب ، امتلأت أجسامهم وجوههم بالملائكة !

ولكن سيدني أجملها جسماً ..

اذكر أن الطائرة عندما أخذت تحوم فوق سيدني ليلة ، كانت سيدني

كعشرات الألوف من قطع الماس تناولت فوق قطيفة سوداء.. وظلت الطائرة تلف وتدور أكثر من نصف ساعة ، فقد كان المطار مليئاً بالطائرات وكانت عجلات الطائرة لا تطاوئها في النزول .. وفهمت أن الطائرة ستنزل في مطار آخر .. فهذه اللحظة أحسست أن عقلي سيطير إذا لم أر هذه المدينة في الليل ..

واليوم بعد أن مشيت في كل شوارع مدينة سيدني ، ومررت بكل معالمها ومتاحفها والمباني .. وملأت عيني منها .. يكاد عقلي يطير إذا لم أسافر منها اليوم أو غداً لأرى بلاداً أخرى ..

مهما كانت أستراليا جنة وأروع بزمان من أي جنة .. فليس الجنة أن ترى شيئاً واحداً مهما كان حلواً ، ولكن أن ترى الكثير وأن تعرف الكثير . فالجنة في التنقل لا في البقاء حيث أنت . فأنا أرفض أن أبقى حيث أنا حتى لو كنت من أغنياء أستراليا ولو كان عندي أعظم ناد للقار وبه ألف ماكينة للبوكر يطلع أموال الناس طول الليل وطول النهار .. وهي واقفة على حيلها لا تكلفكني إلا تنظيف التراب الذي تساقط من أيدي المقامرين الخاسرين ..

ليس الجنة في أن أشير إلى التفاحة فتسقط في وأن تشير إليها معدني فتسقط في أمتعائي .. وأن تلعب بها معدني فلا أعرف أين تذهب بعد ذلك . ولكن الجنة هي أن أجرب وراءها وأنتصدها من الوحل وأكلها خضراء تلسع لسان .. وأشكوك منها ومن طعمها وأملاً بالشكوى هذا الورق .. وألوف الصفحات أمال يعني أعيش منين .. !

* * *

أستراليا تعرف الشيء الكثير عن لبنان ، إن فيها ٢٥ ألف سفير يمثلون لبنان .. ! ومن بينهم أصحاب ملايين بدأوا حياتهم ببيع الأطعمة اللبنانيية .. وهناك مثل يقول : تقتل اللبناني يطلع تاني .. وأنا أعتقد أن هذا المثل صحيح .. بل أعتقد أن قتل اللبناني مستحيل .. فهو لا يموت ..

إنك تضنه في أية بيته مهما كانت عسيرة ، فيعيش ويتفوق . وفي أستراليا عدد كبير من التجار الناجحين ، بل بينهم أصحاب ملايين .. جاءوا إلى هذه

البلاد من ٧٠ عاماً . . وعاشوا في ظروف قاسية وتفوقوا على هذه الظروف بشرف ونزاهة وصبر عجيب : سألت المليونير أو الملايinir تشارلز سكاف ، أو سكيف : كيف جمع هذه الثروة . . وكيف أصبحت له هذه المصانع وهذه المحلات التجارية لبيع الأقمشة القطنية والصوفية ؟ وكيف أن اسمه يرن في سنغافورة وفي هونج كونج ؟ وسألت أخاه المليونير روبى سكيف ؟ وأخاه المليونير جون سكيف ؟ كيف أصبحوا أصحاب ملايين . . كل واحد منهم له قصة ..

وقابلت أناساً عاديين جداً . . وبعضهم لا يقرأ ولا يكتب وقد جامعوا من قرى مجهولة جداً في جبال لبنان ، وقطعوا هذه المسافات الطويلة جداً من الزمان والمكان ، قرروا وهم في هذه القرى المجهولة أن يعيشوا في أستراليا ..

قابلت فتاة في الطائرة اسمها : « حنة بوطروس » من قرية « بلوزا » ، وجدت المضيفات حائزات في أمرها . . إنها تطلب منها أشياء بلغة غير مفهومة وتجمعت حول المضيفات يسألنني إن كنت أعرف اللغة اللبنانية — وهي فعلاً لغة مختلفة عن لغتنا ، بل عن لغة أهل المدن في لبنان نفسها — ودار بيني وبين الفتاة اللبنانية كلام تفهمه مني . . . وكلام لم أفهمه منها . . . وعرفت أنها تريد أن تشرب : « لاموناضة » أى ليموناده أو عصير ليمون ..

لقد جاءت هذه الفتاة إلى أستراليا لتعيش مع أخيها الذي لا يعرف القراءة والكتابة . . وقابلته في المطار فعرفت أنه سينيق وسيتعلم اللغة الإنجليزية هو وأخته ..

قابلت فريد جبور اسطفان . إنه صاحب مطعم الأرز في أعظم شوارع العاصمة في شارع بيت . . ومطعم الأرز في الطابق الثاني من عمارة صغيرة .. وفريد متزوج من لبنانية ولدت في أستراليا ، وهو الآن أستراليان . . وفريد كان يعمل سائق تاكسي ، وكان يعمل صبياً في مطعم .. وهو منذ ١١ سنة في أستراليا .. وقرر أخيراً أن ينتقل إلى القاهرة وأن يسترد جنسيته اللبنانية فقد سمع أن التجارة عندنا أحسن . . وهو مستعد أن يعمل في أى مكان وأن يبدأ من جديد ..

قابلت تريزه بو خاطر وهي متزوجة من شاب إيطالي وقد افتتح الاثنين مكتباً للسياحة هنا . . والمكتب يعمل بنجاح هائل ، وهي على الرغم من أنها

لا تعرف الكثيرين من اللبنانيين هنا فإنها لا تشعر بالغربة . . فأى مكان كائى
مكان . . والحياة عمل . .

وعلمت أن عدد الذين هاجروا من قرى بلوزا وزغرتا وبشري وكفر منعان
المجهولة في جبال لبنان حوالي عشرة آلاف رجل وامرأة . . وعلمت أن اللبنانيين
هنا يسمون المهاجرين الجدد باسم الأستراليين الجدد .

وقد حاول أصحاب الملايين اللبنانيين : سكيف ومنصور وكامل أن يقنعوا
أن جمع مليون جنيه أو عشرة ملايين جنيه ليس صعباً . . أبداً ليس مستحيلاً .
إن المهم أن تجمع المائة ألف الأولى فقط . .

روى المليونير تشالز سكيف كيف أن والده جاء إلى هذه البلاد من ٦٥ عاماً .
وكيف أنه بدأ حياته ببيع الأطعمة اللبنانية . . وكيف أنه كان يصنع الطعام
في البيت ويمر على الناس في البيوت ، لم يكن له مطعم ولا مطبخ ولا اسم ولا مكان .
ولكنه قضى عشرين عاماً يحمل الطعام على كتفه . . عشرين عاماً افتتح محلًا
صغيراً لا للطعام ولكن للأقمشة . . ولما مات تفرق أولاده كل واحد في عمل . .
ونجحوا جميعاً ولكن كيف نجحوا؟ يقول أصحاب الملايين اللبنانيون إن النجاح
ليس له سر . ولكن الصبر والبساطة في الحياة هما سر النجاح . .

ويقول روبي سكيف ونحن في قصره الجميل على ميناء سيدني : أعتقد أن
سر النجاح هو في التواضع . . فالإنسان يجب أن ينحني لعمله لا أن يجعل العمل
ينحني له . . وهناك كثيرون تخرجوا في الجامعة ومعهم شهادات تجارية . . معظم
هملاء لم ينجح . لماذا؟ لأنهم يترفون عن العمل بأيديهم بينما ينجح الرجل الذي
لم يدخل الجامعة ، لأنه يرى أن العمل أكبر منه وأنه تلميذ في جامعة الحياة وأنه
لم يتخرج بعد ، ولن يتخرج أبداً . .

ولاحظت أن أولاد أصحاب الملايين يعملون معهم في المكاتب وفي الحالات
التجارية . . جميعاً . ففي مكتب تشالز سكيف توجد ابنته « جميلة » سكيف . .
لأنها تعمل سكرتيرة عادية جداً . . ترد على التليفون وتكتب الرسائل على الآلة
الكاتبة وتحضر في مواعيد العمل . . وكذلك الأولاد الذكور . . لأنهم ولدوا ليعملوا
ولينجحوا أيضاً . .

هنا ٢٥ ألف لبناني قرروا أن يعيشوا . . إن معظمهم لا يعرف اللغة العربية . . ومعظمهم لم ير لبنان ولكن أى عمل جليل يودونه للبنان أكثر من أن ينجزوها هنا أو في أى مكان . . وأن يكونوا أحسن صورة لها . إنهم هنا أستراليون ، ولكنهم يفتخرن بأنهم من لبنان . والناس هنا يعرفون عن لبنان الشئ الكبير . . بفضل هؤلاء السفراء الناجحين . .

لأني أحبيهم وأنحني للصبر والكفاح والنجاح والشرف .
وأتمنى ألا يسألني الناس بعد اليوم : أمال مفيش حد من بلدكم هنا ليه ؟ .



أسترالي نموذجي : صحة وشباب وامل فهو مسكن في أغنى قارة . عدد سكانها عشرة ملايين ويمكن أن تستوعب ٥٠ مليون

● في زهرة الصيف !

بدأت معركة الشتاء .. أو معركة البرد .. فالغرفة التي أحتلها - الحقيقة أحتل جانباً من جانب السرير الذي بها - بدأت أشكو فيها من شدة البرودة ففيها سرير صغير ، الجدران عالية ، وعارية أيضاً . في جانب منها حوض للماء .. والخلفية طول الليل لها صوت كأن في جوفها ثعباناً كبيراً يريد أن يتطلع الصابونة الموضوعة على الكرسي .. أحاول أن أجده جرساً فلا أجده . أتصل بالاستعلامات في التليفون ويكون الجواب عليك أن تبحث عن الخادمة .. والخادمة لا أعرف أين هي .. الفندق كبير جداً .. والطرقات طويلة ومتوية .. وأنا .. ماذا أريد من الخادمة .. أريد أن أشرب أى شيء دافئ .. بل أى شيء يغلى .. بلاش شاي .. عاوز بطانية .. لابد أن أبحث عن الخادمة .. وأخيراً عرفت مكان الخادمة .. إنها في بيتها .. لأن اليوم إجازتها .. وغداً ستحضر في الساعة السادسة والنصف صباحاً .. ولكن كيف أصل إلى الساعة السادسة والنصف .. أريد أن أكون في حالة تسمح لي بمقابلتها غداً .. أريد أن أنام .. أعمض عيني حتى لا تكونا حمراوين في الصباح فتخاف مني .. لا فائدة .. يجب أن أنام بالطول أو بالعرض .. لكن طول مين وعرض مين ؟ إن الغرفة ليس لها طول وليس لها عرض .. إنها زنزانة .. وجربت النوم على مرتبة من الكاوتش وفوق بطانيتان .. وضعت واحدة تحت الأخرى فوق . وانكمشت .. الحقيقة هذه الكلمة لا تناسب حالي أبداً .. فأنا فعلت أكثر من الانكماش ولكن البرد يلسعني .. يقرصني في أماكن أخاف منها .. فهنا في الجانب الأيمن وهنا في الظهر .. وأنا في حالة لاتسمح

لى أبداً بتشخيص هذه الأمراض الجديدة . . فتحت النور . . فكرت في أن أنقل السرير بعيداً عن الحائط . ونقلته ووضعته في منتصف الغرفة ولكن البرد يتصدى . . فكرت في أن أنام بلا غطاء ، فالمراتب ألواح من الثلج مرصوصة . . والبطانية ألواح من الثلج طام فيه شعر . . هل أنام في الدولاب كأنني عشيق سمع أقدام الزوج فاختبأ في أقرب شئٍ وجده . . هل أفتح حقيبي وأدخل فيها كالواقع أو كالسلحفاة . .

أصبحت الآن أعتقد أن السلفة المسكينة مرت بهذه التجربة . . لابد أنها هي الأخرى نزلت في فندق كهذا ويشتت من البرد . . فخلعت جدران الغرفة وحملت أحجارها على ظهرها وهربت !

ولكن كيف أهرب وإلى أين ؟
وفي اليوم التالي جامعوا لي بطانية أخرى . .

ولكن البرد يتسلل من بين البطاطين . . وانتقلت إلى غرفة أخرى . . وكانت أسوأ من الأولى . . وانتقلت إلى غرفة ثالثة . . وفي الصباح طلبت الخادمة قبل أن تذهب إلى بيتها . . وقلت لها : أنا الرجل السقuan . . أنا عازز . .

فقالت : عارفة . . بطانية . .

— لا . . عازز دفایة . .

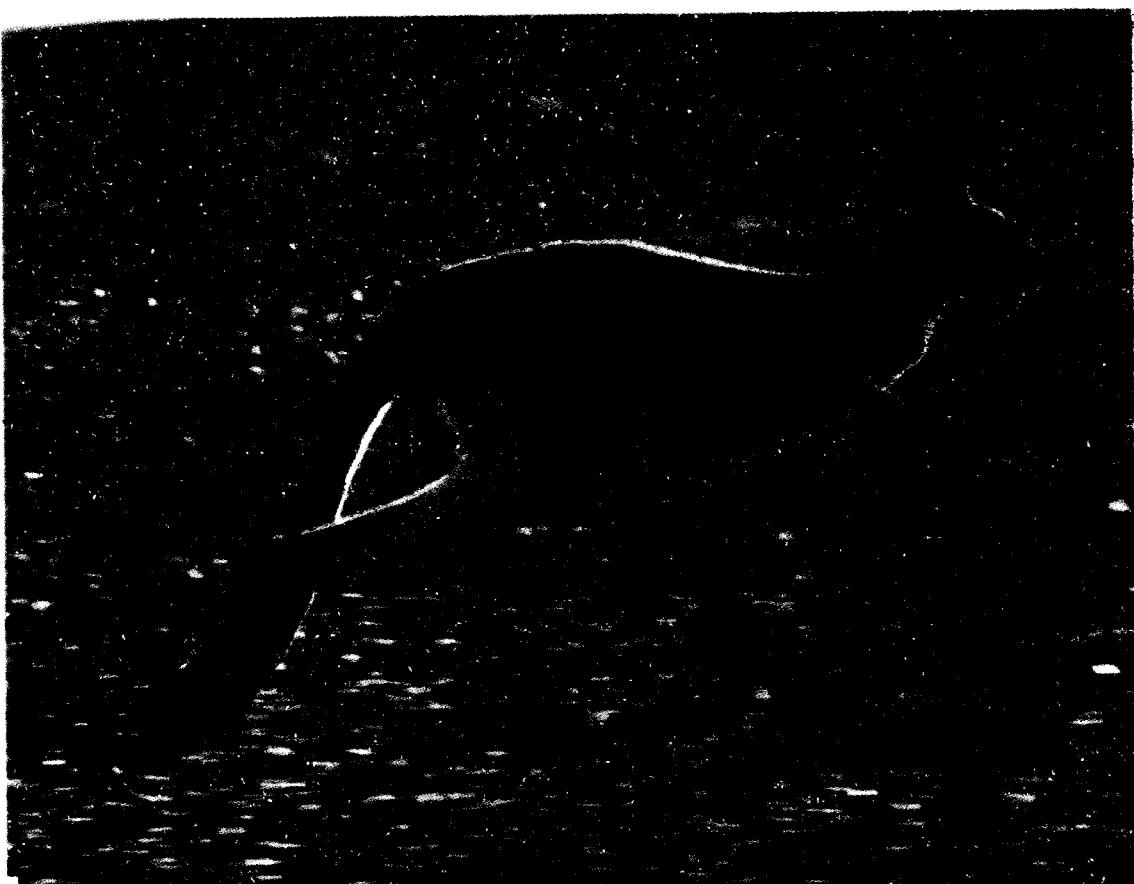
— إيه دفایة . . يادى الفضيحة . . على فكرة إزاى واحد شاب زيك يخاف من البرد . . وازاى . .

— عارف حتفولي إيه . . سمعت السؤال ألف مرة . . ياسني أنا من بلاد تأكل النار وتشرب النار . . المية عندنا بتغلي . . السمك في الأنهار مسلوق . . الطيور متعلقة مشوية على الشجر . . أشجار القممح عندنا بتطرح عيش شمسي . . أشجار الأرز عندنا بتطرح محشى ورق عنب . . ياسني أنا من الماوا ماو . . صحيح بلادنا حارة بس أنا هنا حاموت من البرد . . يعني أعمل إيه ؟ حضرتك مش رحت جنبينة الحيوانات بتاعتكم ، مش شفت الفيل كاشش وزايم جنب الحيط . . ليه ؟ من البرد . . أهو أنا بني من بلاد تركب الأفيال مبسولة ؟ عازز دفایة . .

في عرضك !

أجمل حيوانات أستراليا
.. إنك تجده في كل
المدائق وعل كل
الأشجار .. ليس
صارا ..

الكانجaroo وليس له
وجود إلا في أستراليا
.. سريع القفز يعتمد
على ماليه وذيله ..
يقفز لفزانات واسعة
 جدا ..





الحنين إلى الحياة البدانية : الشواء في الهواء
الطلق والرقص بعد ذلك في أحد أيام الحصاد ..

وأنظر من النافذة فأجد الناس في ملابس خفيفة .. بدل فقط .. أو قصان
منقط على لسانه .. ملابس مخصوصية .. لكن النساء ليست تلبية له سريحة
حرارة الجو .. فالمرأة تلبس الفساتين السوداء في عز الصيف والبيضاء في قلب
الشتاء . حسب الموضة لا حسب الترمومتر ١

وأصبحت الآن أتعرض كل يوم للدهشة خادمة .. أصبحت « فرجة » ..
كل خادمة تدخل تجد المدفأة في غرفتي تبدى دهشتها .. وأخيراً تضيق جدأ ..
وقلت للخادمة : هل قرأت الصحف اليوم ؟

قالت : طبعاً .

قلت : ما الذي لفت نظرك ؟

قالت : لا شيء .

قلت : هناك شيء لفت نظري أنا .. لقد صورت الصحف طائر البطريق .
طائر البنجوان في ميناء سيدني ..

قالت : أيوه .. رأيت الصورة .

قلت : هه .. ليهرأيك .. يبقى الدنيا حر والا برد ؟ .. أهو الطائر ده
جاي من القطب الجنوبي .. ليه .. لأن هنا برد .. وده طائر ولد في الثلوج
ويعيش ويدفن في الثلوج .. يبقى أنا معذور والا لأ ؟

قالت : لا ..

قلت : ياسى زي بعضه .. المهم إني أنا وبس .. ومن فضلك لما تكتبوا
عن بلادكم أبقوا قولوا لنا « لطيف » في الصيف يعني ليه .. لأن « لطيف » عندكم
معناه « بالطيف » عندنا ..

وبدأت أشكو من البرد ..

قالوا لي : سيب أستراليا كلها أحسن .

قالت : حاضر سيب اللوكاندة !

• • •

عندى طريقة كلما نزلت أى بلد جديد ..
فأنا أحدد الشوارع والبيوت بطريقة خاصة ..

هناك أناس يحددون الشوارع بالبنوك الكبرى .. فلا أحد يجهل مثلاً البنك المركزي في القاهرة .. أو البنك المركزي في أية عاصمة .

ولكن أنا أعتقد أن الناس فعلاً يعرفون البنك المركزي ، وهم في الواقع يعرفونه بالسباع ولكنهم لا يعرفون مكانه .. فمعظم هؤلاء الناس الذين نسأله من المشاة .. وهذا المشي لا يمكن أن يعرف البنك : إنه رجل فقير أو متواضع الدخل يمشي على رجليه ولا يملك سيارة .. وحتى الذين يملكون السيارات ليست لهم أموال في البنك - مثلًا - هؤلاء يكرهون البنك ..

يعني لا يجب أن تحدد الأماكن والشوارع بالبنوك ..

وفي مدينة سيلفي بالذات لا أتصفح بالاعتماد على البنك ، لأن هذه المدينة فيها أكثر من سبعين بنكًا .. كل بنك له عمارة أكبر من عمارة إيموبيليا .. وكل هذه البنوك تبدأ بكلمة من الكلمات الثلاث : أسترالي .. سيلفي .. كومونولث .. أنا أحدهن عن تجربة : فقد دخلت دونة الكواكب في السماء .. فهناك أموال محولة لحسابي هنا ، ولكنني لا أعرف اسم البنك بالضبط .. لقد كنت أتصور أن البنك في عدد أغnam جحا ، لا في عدد أغnam أستراليا !

ولذلك فأنا أحدد الأماكن هنا أولًا بمحطة السكة الحديدية .. وأحددها بالبوستة العمومية .. وأنا شخصياً عندى حاسة الاتجاه إلى محطة السكة الحديدية .. ولا أذكر أنني ذهبت إلى بلد في العالم لم أر فيها محطة السكة الحديدية ، أو لم أعش في محطتها .. أنا لا أذكر ..

إن هذه المحطات تسحرني .. بكل ما فيها من ضوضاء ودخان وزحام .. لا أعرف السبب على التحديد .. ولكن منظر الناس وهم يجررون .. منظر الناس whom ينتظرون .. منظر الاهتمام على وجوههم .. مجرد أن لكل واحد منهم هدفاً .. كل هذا يسحرني .. يثيرني .. شكل القطار .. وهو على الرأس وقد تربع على عجلات من حديد والدخان يخرج من رأسه ، وصوت الماء وهو يغلي كأنه عقل يفكـر .. منظر المحطة وكأنها خطة موضوعة .. كأنها خطة ينفذها ألف الناس كل يوم ..

إن هذا الإحساس بأنك على سفر دائمًا .. بأنك ستراك أناساً وتلتقي بآناس ..



شيء لا يغطى لك على بال - إنه
قطن وبكيات وفيرة جداً !!

كما كان الناس يفعلون في أوروبا من مئات
الستين : يعصرون العنب بأقدامهم تمهيداً
لصنع قدح من النبيذ !



بأنك ستفقد أحداً ، أو ستكتسب أحداً .. هذا الإحساس يسكنني .. إن أتعس شيء في الدنيا أن تكون « هنا » دائمًا .. أو تكون « هناك » دائمًا .. لا فقد أحداً .. لا نكتسب أحداً .. أن تكون أنت وظروفك وبيتك وكل الناس مثل تواي سيام لا تنفصلان أبداً ..

إن منظر التهيو لشيء يعجبني ويثيرني .. إن منظر الراقصات والراقصين لا يهزم .. ولكن منظر الاستعداد والتهيؤ للرقص هو الذي يعجبني .. إن شكل الشفاه وهي تقرب والشعور الذي يغمر المتعانفين قبل التقبيل هو الذي له كل معنى ..

ولكن كل شيء كامل ، كل شيء تام دون حركة ، كل شيء على رصيف المحطة ولا يغادرها .. كل شيء لا يرتبط بقطار .. بسفر ، بانتقال ، كل شيء لا ينتقل من « هنا » إلى « هناك » ؛ ولا يكون في حركة دائمة .. كل هذا هو الموت .. ولذلك فأنا أحب الاهتمام بشيء ، والاستعداد لشيء والتصميم على شيء ، وأن تحمل متابعتك ، وأن تحمل همومك ومشاريعك وتنتقل .. كل هذا تتجده في محطة السكك الحديدية .. أو في المطارات أو البوستة العمومية ..

لقد عشت أيام طويلة في محطة روما .. وأياماً جميلة في محطة ميونيخ وأياماً رائعة في محطة ليون في باريس .. ومطار فرانكفورت ومطار زيورخ .. وهنا في محطة سيدني توجد السكك الحديدية .. ويوجد الترام وتوجد الزوارق البحارية .. وتوجد المطاعم ، والمقاهي ، والصحف والكتب ، وصناديق البريد .. هنا حياة .. فاجعل طريقك إلى الحياة في سيدني – أو أي بلد كبير – يبدأ من مركز محطة الحياة !

(أشياء غريبة !)

• كل شارع سيدني وملبورن وكانبرا فيها علامات وعلى العلامات كلام كثير .. فالمشى هنا من الساعة كذا للساعة كذا .. ومنع مشى المشاة في هذا الشارع كله .. وأية دراجة تمشي هنا عليها غرامة ٥٠ جندياً !

• بعض السيارات تتذلّى منها قطعة من الحديد تمس الأرض . ويقال إن بعض الذين يركبون السيارات يشكون من آلام في المعدة ، والسبب في ذلك وجود شحنات كهربية في السيارة . ولذلك يجب تفريغ هذه الشحنة عن طريق هذه القطعة من الحديد . . !

• مواقف السيارات هنا يملكونها أفراد . . والموقف عبارة عن قطعة من الأرض مرتفعة حوالي ثلاثة أمتار عن الشارع . . ويجب أن يقف عليها عدد من السيارات ، وبعد ذلك تعلق اللافتات تعذر عن ضيق المكان ! . .

• توجد في سيدني دار سينائية لا تعرض إلا الجريدة الإخبارية والكرتون والمواضيعات الصناعية والزراعية . . والعرض يبيّن ساعة . . والعرض متواصل من الثانية عشرة صباحاً حتى الثانية عشرة مساء . . التذكرة ثمنها شلنان !

• فنجان شاي وقطعة من الخبز وقطعة الزبد ثمنها خمسة شلنات . . العشاء يصل إلى ١٧٠ شلنًا ، العشاء طبق لحم مشوى وبعض السلطة الخضراء .

• في حديقة الحيوان هنا غراب أبيض ، وكان العرب يقولون إن الغراب الأبيض مستحيل الوجود . . مفيش مستحيل يا عرب !!

• المكتبة العامة التي أكتب فيها الآن . . الكتب موضوعة على الجدران . . وأنت تدخل وتبحث عن الكتاب وترده إلى مكانه . . كأنك في بيتك تماماً وكأنك في بيتك أيضاً لا تخرج الكتاب في يدك . . وهي مفتوحة من العاشرة صباحاً إلى العاشرة مساء . . !

● الْبَحْثُ عَنْهُ مِنْ جُمِيعِ الْجَرَأَ

غرفى الجديدة لا تطاق ، ضيقة ، رطبة ، ليس فيها منضدة . وإذا طلبت منضدة فأين أضعها ، وإذا وضعتها فكيف أجلس إليها أو عليها أو أدخل فيها ، وإذا استطعت فإن المدفأة سترسل حرارتها الكسيحة إلى ظهرى ، أما صدرى ووجهى ويدى فستبقى جمیعاً قطعاً من اللحم الجاف .. وأحاول فتح النافذة لأرى الشمس عملاً بنصيحة جحا عندما وضعوه عارياً فوق أحد الأسطح وأشعلوا النار على بيت بعيد عنه .. وقالوا له : الدفء بالعين !

ورأيت الشمس فعلاً ولكن الشمس كانت طالعة فيها جداً ، كأنها فتاة حلوة تدلل على ابن الحيران . فهو يراها ولكنها تتظاهر بأنها لا تراه . وإذا رأته فإنها لا تشعر به . وإذا شعرت به فإنها تخفي هذا الشعور .

بالاختصار كانت الشمس مرسومة في السماء وليس شمساً حقيقة .

وأمس قررت ألا أذهب للمكتبة . فقد تعودت أن أذهب إليها كل يوم وهناك أصم أوراق والصحف الصباحية وبعض الكتب والبطو والبلوفر والковفية وزجاجة الحبر وبعض السنديونتشات وبعض الجوارب الاحتياطية .. ولكن لاحظت أن الطلبة والطالبات يتركون الكتب القراءة والكتابة ويترفجون على طريقتي في الكتابة .. فإني أكتب من اليمين إلى اليسار ، وكانت قبل ذلك لا أتضيق إذا نظر إلى أحد وأنا أكتب تماماً كالمطرب أو كالعاوز على القانون أو كالمؤذن ... كلهم لا ينجذبون من الجمود .. ولكن في استراليَا شعرت بالضيق .. وشعرت أن نظرائهم يجعل الورق الذي أكتب عليه أحياناً خشنًا كالحائط يتغير فيه الكلام ،

وأحياناً رقيقاً كورق السجائر يتمزق تحت القلم ..
وفي كثير من الأحيان كنت أشعر كأنني بلهوان يأتي بحركات غريبة ،
وكأن القلم (زانة) أقفز عليها من أول الصفحة إلى آخرها .. يعني نظرائهم مش
لطيفة .

وعدلت عن الكتابة في مطعم المخطة .. فقد لاحظت أنني أجلس مدة طويلة
ثم لا أطلب سوى واحد شاي ، وفي النهاية لا أدفع أى بقشيش . مع أنه
كان في نيتى أن أدفع لو لا أن تعلیمات الحكومة صریحة بعدم دفع البقشيش ،
وأنا لا أريد أن أبين لأهل استراليا أن أبناء الجمهورية العربية أقل منهم تمسكاً
بالقانون .

وقد اكتشفت أن هذا القانون لا يتمتع بأية شعبية ابتداء من بوفيه المخطة حتى
بوفيه المطار !

• • •

وذهبت إلى بنت بلدى ..
إلى مرجريت وليدة شبرا . وهى المواطنـة الوحـيـدة في هـذـه الـبـلـاد . وفي المطعم
الذى تديره جلست في أحد الأركان وقدامى الشـائـى والـقهـوة والـسـنـدـوـشـات .. وبدأ
الناس من جـديـد يـتـفـرـجـون وـيـتـسـأـلـون . من هـذـا الغـرـيبـ الذى يـجـلـسـ وـنـحـتـ قـدـمـيهـ
مدـفـأـةـ وأـمـامـهـ عـشـرـاتـ منـ الأـكـوـابـ وـالـفـنـاجـينـ وـلـفـائـفـ الطـعـامـ وأـمـامـهـ زـهـرـيةـ وـرـدـ ..
وـكـانـ المـوقـفـ لـاـ يـحـتـمـلـ أـبـداـ . فـأـنـاـ لـاـ أـسـطـعـ أـنـ أـرـهـقـ مـرـجـرـيـتـ الطـيـةـ
فـأـنـاـ لـاـ أـعـرـفـهـ إـلـاـ مـنـذـ يـوـمـيـنـ وـلـاـ دـاعـىـ أـبـداـ إـلـىـ أـنـ أـضـيـفـ إـلـيـهـ مـتـاعـبـ أـخـرىـ ..
فـهـىـ تـكـافـعـ هـنـاـ فـهـذـهـ الـبـلـادـ .. وـلـيـرـادـهـ مـحـدـودـ ثـمـ إـنـ ثـمـنـ الـبـرـزـينـ مـرـتـفـعـ وـسـيـارـتـهـ
الـتـىـ لـاـ تـفـارـقـتـ تـكـلـفـهـاـ الـكـثـيرـ .. وـهـرـبـتـ . وـعـنـدـمـاـ سـأـلـتـىـ عـنـ سـبـبـ الـهـرـوبـ
رـوـيـتـ لـاـ قـصـصـ كـثـيرـةـ .

وـقـرـرـتـ شـيـئـاـ غـرـيـباـ . وـلـكـنـ الـفـكـرـةـ أـعـجـبـتـنـىـ وـنـفـذـتـهـاـ فـورـاـ .
لـقـدـ قـرـرـتـ أـنـ أـفـعـلـ شـيـئـاـ فـيـ حـدـيـقـةـ الدـوـمـينـ .. حـيـثـ يـوـجـدـ الـخـطـبـاءـ وـالـسـاسـةـ
وـالـجـانـينـ ..

وـفـيـ الطـرـيقـ إـلـىـ الـحـدـيـقـةـ مـرـرـتـ عـلـىـ أـحـدـ مـحـلـاتـ الـمـوـبـيـلـاـ وـاشـتـرـيـتـ منـصـدـةـ

صغيرة ، وطويتها ووضعتها تحت إبطي ودفعت فيها جنهاً .. وكلما توهت أن أحداً ينظر إلى كشرت في وجهه كأنني أحد الخطباء .. ولما رأيت أناساً كثيرين ينظرون لي كادت المنضدة تسقط من يدي وكادت ساقاي تقفزان فرقها وينطلق لساني يلعن أبو خاش كل الناس الذي يزعمون أن بلادهم حرة ومع ذلك يحولون بيني وبين حربي .

وفي الحديقة وضعت المنضدة وفوقها أوراق وبذات أكتب ومضت ساعة هادئة لا أشعر فيها بأحد لولا أن كلمات تساقط على أذني تقول : لا جي .. يوغسلاف .. تركى .. مجرى .

ولما سمعت كلمة إسرائيل ، تضايقـت جداً وأفلـتـت مني صرخـة ، خرجـتـ منـ أـنـقـى .. إنـها لـشـدة اـضـطـرـابـها أـخـطـأـتـ الطـرـيقـ إـلـىـ فـيـ اـ

واكتشفـتـ أنـ عـدـداًـ مـنـ النـسـاءـ وـالـرـجـالـ تـجـمـعـواـ فـيـ مقـاعـدـ مـجاـوـرـةـ وـرـاحـواـ يـتـفـرـجـونـ ..ـ وـبـعـضـهـمـ بـدـاـ عـلـيـهـ الفـرـعـ كـأـنـهـ تـصـوـرـواـ أـنـيـ أـكـتـبـ خطـبـةـ طـوـيـلـةـ وـأـنـيـ سـأـقـيـهـاـ كـلـهـاـ عـلـيـهـمـ ..ـ وـلـمـ أـنـهـمـ لـمـاـ يـدـهـشـونـ ..ـ أـلـاـ يـحـدـثـ أـنـ الرـاسـ يـنـقـلـ أـورـاقـهـ إـلـىـ الـحـدـيـقـةـ وـيـرـسـمـ هـنـاكـ ،ـ وـعـازـفـ الـكـانـ أـلـاـ يـنـقـلـهـاـ إـلـىـ الـحـدـيـقـةـ وـتـحـتـ شـجـرـةـ يـحـرـكـ أـصـابـعـهـ ،ـ وـالـسـيـدـاتـ أـلـاـ تـنـقـلـ كـلـ وـاحـدـةـ مـنـهـنـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـبـكـرـ وـالـإـبـرـ وـتـقـطـعـ سـاعـاتـ النـهـارـ فـيـ عـلـمـ بـلـوـفـرـ أوـ جـاـكـتـ ..ـ وـلـكـنـ هـذـهـ المـنـاقـشـةـ بـيـنـيـ وـبـيـنـ نـفـسـيـ لـمـ تـقـنـعـ النـاسـ بـالـسـكـوتـ عـنـ التـعـلـيقـ .ـ

وـأـوـاسـىـ نـفـسـىـ وـأـقـوـلـ :ـ بـرـدـ بـرـدـ يـاـ أـنـخـىـ ..ـ سـيـكـونـ هـنـاكـ دـفـءـ فـيـ مـانـبـلاـ ..ـ سـتـكـونـ هـنـاكـ لـيـالـىـ مـمـتـعـةـ فـيـ هـونـجـ كـوـنـجـ ..ـ سـتـكـونـ هـنـاكـ فـلـوـسـ فـيـ طـوـكـيـوـ .ـ بـسـ أـكـتـبـ وـلـاـ يـهـمـكـ !ـ

وـلـكـنـ النـاسـ يـتـوـقـعـونـ مـنـيـ أـنـ أـقـفـ عـلـيـ يـدـيـ أـوـ أـنـزـعـ مـلـابـسـيـ وـأـصـرـخـ كـمـ كـانـ يـوـحـنـاـ الـمـعـدـانـ يـصـرـخـ فـيـ الصـحـراءـ وـقـدـ اـرـتـدـىـ جـلـودـ الـحـيـوانـاتـ ..ـ وـلـاـ حـظـتـ أـنـ السـانـدـوـتـشـاتـ قـدـ سـقـطـتـ إـلـىـ جـوـارـ قـدـىـ ..ـ فـدـدـتـ يـدـيـ وـأـخـذـتـهـاـ وـبـذـاتـ آـكـلـهـاـ بـصـورـةـ أـرـاحـتـ النـاسـ ..ـ لـأـنـهـمـ يـتـوـقـعـونـ مـنـيـ أـنـ أـقـومـ بـأـعـالـ شـاذـةـ كـلـ الـدـيـنـ يـجـيـئـونـ إـلـىـ هـذـهـ الـحـدـيـقـةـ !ـ

وـأـخـيـرـاـ اـعـتـدـلـتـ فـيـ جـلـسـيـ وـنـزـعـتـ السـانـدـوـتـشـ منـ فـيـ عـنـدـمـاـ وـقـفـ أـمـامـيـ

عسكري بوليس ضخم وسألني إن كان معى تصريح .. فلم أفهم السؤال .. فأعاد السؤال فلم أفهم أيضاً.

وفى قسم البوليس عرفت أن كل إنسان يخطب فى هذه الحديقة يجب أن يخطر البوليس .. وبعد ذلك عليه أن يقول ما يشاء . وهو حر فى أن يلعن كل الناس ابتداء من رجال البوليس ، حتى الناج البريطانى !

وقلت له إنه لم يكن فى نبئي أن أخطب أبداً .. وإنما أنا أكتب مقالاً وجواز سفرى يدل على أننى صحفى .. ورويت لرجال البوليس كل ما جاء فى أول هذا المقال .. ثم إنه لو كان فى نبئي أن أخطب فلماذا أكتب الخطبة بالعربية لأقوالها بالإنجليزية .. فأنا أعرف الإنجليزية وأستطيع أن أتكلم بها ، دون ورقة ودون إعداد أو تحضير ..

ولكته قال لي : إذا أردت أن تأتى تحضر بمنضدة فيجب أن تستأذن البلدية لأن شغل الطريق يحتاج إلى إذن .

يعنى أنا وبائع السجق والكوكاكولا سواء .. يجب أن نحصل على إذن .. وكان ردى أننى لا أعرف القانون ، وكان الرد资料 هو أن جهلى بالقانون لا يعفينى من أن يصفنى أحد عساكر البوليس !
والغرامة جنيهان ونصف ..

كدت أدفعها لو لا أن رجل البوليس اقتنع بكلامى وأعفاني من هذه الغرامة .
وبعد ساعتين بالضبط خرجت من القسم وفى نبئي لا أذهب إلى المكتبة العامة أو إلى مطعم مرجريت .. بل قررت أن أذهب إلى حجرنى وأن أكتب وأنا جالس على قرافىصى .

وأشهر كاتب فى الدنيا هو الكاتب المصرى الحالى القرفصاء !
ولكن هذا الكاتب الشهير كان فى مصر الدافعة ، ولم يعرف استراليا الباردة ..
والحل الوحيد هو أن أذهب إلى مطعم الفندق وبحزام حول وسطى وكرافة
حول عنقى ، وبين أناس يشربون وأنا أكتب ، وبين أناس يمرحون وأنا أتلوى
بدأت أكتب .. وقبل أن أضع القلم على الورقة سمعت اسمى فى الميكروفون ، ولما
ذهبت أسأل عن السبب وجدت العسكرى ليابا و معه وصل ببيع المنضدة ، فالقانون

لا يسمح لي بأن أبيع شيئاً اشتريته دون إذن . وتولى البوليس بيع المنضدة لحسابي .. وبالقروش القليلة التي قبضتها نفذت نصيحة صديق من القاهرة .. واشتريت «خرزة زرقاء» ووضعتها حول قلبي .. وأرسلت الباقي إليه لكي يوزعه على القراء الذين أحسدهم على أنهم قرأوا هذا المقال من أوله إلى آخره ! .

* * *

وفي النادي الإيرلندي في مدينة سيدني اجتمع ذات ليلة عدد كبير من الأسر اللبنانية هنا .. ألغان أو ثلاثة آلاف .. لا أعرف .. فأكثر الحاضرين من الأطفال . نسبة المواليد بين اللبنانيين هنا عالية .. رأيت الرؤوس الكبيرة العريضة من الوراء ومن الأمام ، والواجب الغليظة والعيون السوداء .. وببدأت أسمع كلمات بعضها عربى، وأكثراها إنجليزى بلهجة استرالية . وكان من المفروض أن يرتفع الستار في الساعة الخامسة .. وظللنا ننتظر حتى السادسة ونفذ صبرنا في السابعة ولكن الستار ارتفع في السابعة والنصف ، فقد كانوا في انتظار القنصل الجديد .. وتولى الخطباء وتباروا في مدح قنصل لبنان .. وكل الخطباء يتكلمون العربية الفصحى . ومعظم اللبنانيين هنا ولبسوا في استراليا ولا يعرفون من الكلمات العربية سوى «كبة»، بكسر الكاف و«تبولة» ولحمة مشوية بكسر الياء و«زلة» بكسر كل هذه الكلمات ! وطلبوا من القنصل أن يلقى كلمة .. والقنصل فصيح ، وخطيب متحمس . وعاد وجلس إلى جوارى وهس فى أدنى : إنى الأب الروحى لكل لبناني هنا ... مناسبة الحفلة هي أن جمعية جديدة تكونت هي «جمعية ليالى لبنان الفنية» تأسست في استراليا سنة ١٩٥٨ ، وأحيطت هذه العبارة بأشجار الأرض .. والجمعية تضم مسيقيين هواة وتضم مطربات لبنانيات ورافقات . وقد رأينا رقصة شرقية .. هز بطن ونوم على الحائط وسقوط على الأرض وحركات هي خليط من رقص نجوى فواد وكاريوكا ثم رقصة أخرى لم أرها قبل ذلك وهي رقصة الكوب على الرأس .. وضفت الرقصة الاسترالية لا اللبنانية كوباً من الماء فوق رأسها .. وراحت وجاءت وترغت على الأرض وكانت الماء قطعة من الثلج لم يسقط على رأسها أو على وجهها ..

وغنى أحد المطربين اللبنانيين أغنية «كل ده كان ليه» محمد عبد الوهاب .

وصوته جميل وألحانه مضبوطة والأداء سليم جداً ، والمطربات يتبارين في الألحان اللبنانية الصميمية مثل : عبده حاب غنوره .. وليش ما تماكيينا .. وكيف حالك يا ضيغتنا .. واللومة اللوما .. ووصلتنيا لنص البير وقطعت الحبل فينا . ولاحظ القنصل أن اللبنانيين قد أصبحوا استراليين على الآخر .. بعنى ساكتين كأنهم في دار للأوبرا . فطلب إليهم أن يصفقوا وأن يردوا على المطربات .. وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك .. وتعالت الهمجفات عند كل كلمة « يا ليلاً » وبعدها ..

ولا شيء يدل على أن اللبنانيين هنا يكونون مجتمعـاً حياً سوي وجود خطباء وفنانين .. ثم شعراً .. معظم أبناء لبنان ينظمون الشعر والزجل والأغاني .. إن معظم الذين نظموا الشعر لا يعرفون كيف يكتبه .. إنهم هكذا يشعرون به وينظمونه ويلقونه .. إنها الشاعرية والأذن الموسيقية : وطبعاً زدت شجرة الأرز مئات المرات في كل القصائد .. بل إن شاعراً أعلن أن كل شيء في لبنان يشتق إليه من الأرز إلى البطيخ إلى التبولة .. ولبنان هي أصغر بلد .. ولكن جبلها أعلى الجبال ..

وواحد منهم اسمه « رفيه قهوجي » يقول في شعر لا يعرف كيف يكتبه بالعربية ، وإنما يكتبه بحرف لاتينية :

جبل لبنان مدروك حده
لحد اليوم ما في فكر حده
صغير وبس فيه له مقام عالى
وعلى أكبر دول يبشفوف قده
بمياهه الصافية بأرزوه الشمالي
مناخه بمنظره وحسنه الجمال

وأحسن ما قاله الشاعر رفيه قهوجي :

ويقولوا بالقمر موجود عليه
هدى تنشر الأرض بخسلوده
اتخنى يبوسها وهي عما تصده

ومعنى هذه الأبيات بالعربي : إن الناس يقولون : إن في وجه القمر بعض
النمر بشة ، هذه النمر بشة سبها أن أشجار أرز لبنان حاولت تقبيل القمر فعنها ..
فخر بشت وجهه ..

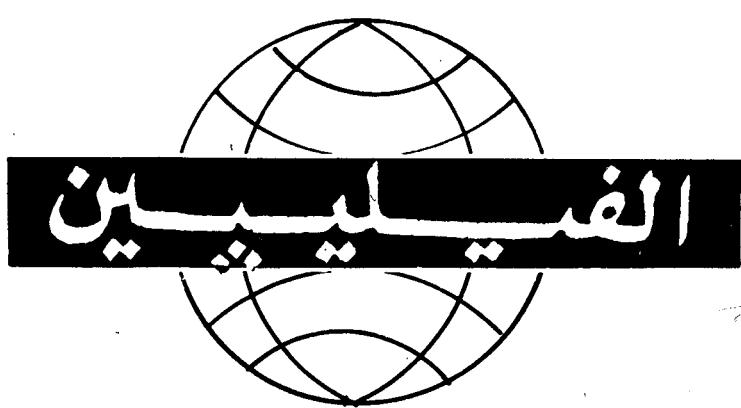
وشعراء آخرون مجدوا لبنان وأهل لبنان ..

إنه مجتمع حي .. مجتمع متسلك يجعلك تشعر أنك لم ترك لبنان أو أنك
لم ترك البلاد العربية ..

وهمس الله صل في أذني يقول إنه عندما قابل رئيس وزراء استراليا قال له :
إن الجالية اللبنانية هي الوحيدة التي ليس بينها واحد دخل السجن .. ليس من
بينها واحد سارق أو قاتل أو نصاب .. في حين أن الجاليات الأخرى قد خالفت
القانون في كل مواده ..

شطار أيها اللبنانيون .. تجاري أيها اللبنانيون .. فيكم حياة وشباب وكفاح
وقدرة على الحياة في الصخر .. إن كلمة عربي في هذه البلاد لها معنى واحد :
لبناني .. وأشهد أن العرب هنا قد شرفوا قدرنا ..

وأن هذه الحفلة كانت تكريماً بلادى .. فقد أحياها وأضاءتها وأسعدتها
أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب !



٧٠٠ جز سرمه !

بلاش لعب عيال . .

وهذه العبارة لم أقلها لأحد . . وإنما شخطت في نفسي وقلتها بصوت مرتفع وأنا أعرف أن أحداً لن يدرى بما أقول . فلعله يظن أنني أقرأ شيئاً بلغتي . فقد نطقت هذه العبارة بما يشبه الرجاء لنفسى ألا أكون عيلاً وأن أرتفع إلى مستوى شهادة ميلادى . وأن اكتسب صلابة الجبال التي رأيتها ، وعمق الحيطات التي عبرتها ، وشجاعة المسافرين الذين ركبوا معى طائرات تصيبها السحب بالسعال . .

وقد نطقت بهذه العبارة عندما وقفت في مطار سيدنى وفي يدي حقائب السفر إلى الفلبين وأنا أريد أن أرجع في كلامي وأبحث عن طائرة أخرى . .

وأمامي في المطار أحدث طائرة ابتكرها الإنسان : بوينج ٧٠٧ . . هذه الطائرة قد تعطلت فجأة ، وقبل أن ترتفع عن أرض المطار . قالت الصحف ، التي لا تعرف شيئاً عن هندسة الطائرات الفناء الجديدة ، إن بعض الماء دخل في البذرين ، أو بعض الماء دخل في الحركات الفناء . . وهي سميت فناء لأنها تسحب الهواء من الأمام وتتنفسه إلى الخلف . . فكأنها تشد حبلًا من الهواء بسرعة ألف في الساعة . . وعملية الشد والسحب هذه هي التي تدفعها إلى الأمام . . وتعطيل طائرة من هذا النوع معناه أن الحبل الهوائي قد انقطع . أو أن الأصابع الرهيبة التي لا زراها قد تكسرت . أو أن لغزاً لا يمكن حلها قد صادف الطائرة . ولا بد من استدعاء الأمريكيةان الذين اخترعواها . وجاء الأمريكيةان .

وقف الناس يتفرجون على الطائرة وعلى الذين اخترعواها وعلى الذين سيضعون

الأصابع العجيبة على الجبل الخفي . . لتشد حيلها وتقوم مشكورة بعبور المحيط
المهادى فى طريقها إلى الفلبين .

ولم تفلح المحاولات التى بذلها الأمريكان . .

وصدرت الصحف بعد ظهر نفس اليوم تحمل العناوين المثيرة ومن بين
السطور تلمس رائحة الشهادة . وتلمس أيضاً الدعاية الإعلانية التى توُكِد أن
العطب بسيط جداً وأنه كان من الممكن أن يرتفع بها الطيار ، لولا حرصه على
راحة الركاب . .

يعنى الإصابة خدش وليس كسرأ . .

وظللت واقفًا في المطار أنتظر من رجال الجمارك أن يستدعوني . وسألت
لماذا لم يستدعني أحد . وكان الرد إنهم ليسوا في حاجة إلى استدعائي . . وأن
حقائبي قد نقلت دون تفتيش – يا عيني – إلى الطائرة !

وبكسوف الذى يتظاهر بأنه كان يعرف ذلك ثم نسيه ، أمام الحادث الجلل ،
صعدت الدرج ، وأنا أخفي رأسى في البالطو ، ويدى في جيوبى ، ونفسى بين
المسافرين ولم تكن الطائرة نقافة . . إنما من ذات المركبات الأربع ولتكنها
أحسن وأمن . وشعر الطيار وللحظ الطائرة بشئ من الاستعلاء . فقد أدى ظهور
النفاثات إلى أن تحولت الطائرات ذات المركبات إلى حناطير جوية . ولكن
هذه الحناطير الجوية لا تتطلع كهذه السيارات الجوية . . وحتى إذا تعطلت
فعذرها أنها حنطور !

وأغلق باب الطائرة . . وارتفعت إلى الطريق الذى مررت به من قبل . .
من سيدنى عبر القارة الاسترالية إلى مدينة دارون . . إلى المطعم الإيطالي .
وشرعت بالارتفاع عندما تكلمت باللغة الإيطالية . وحرست على أن تكون اللهجة
إيطالية على أصلها . وظن هؤلاء الجرسونات مواليد استراليا أننى من إيطاليا وهى
الدولة الأم ، وأحسست بشئ من الارتفاع عن مستواهم . وأحسوا هم أيضًا أنهم
إيطاليون من الدرجة الثانية ، وليسوا من الدرجة الأولى مثلى . . وهذا الشعور ،
شعورهم ، كان يبرر لي أن أجعل عباراتي غير واضحة ، وكلماتي غير مفهومة . .
ويظنون هم – وهذا حسن ظن طبعاً – أن هذه اللهجة مستخدمة في الوطن الأم

وأنهم تعساء هنا لم تسعدهم الظروف التي أسعدتني ، فيفهمون هذه الكلمات وكتن أهز رأسى كأنى البابا أدعو لهم بسلامة العودة وقربها ، إن شاء الله .. .
تشاو .. تشاو .. أريفيلرلا ..

والكلمتان الأوليان معناهما : سلام .. أو تحية ..
والكلمة الأخيرة معناها إلى اللقاء .. وكان من الممكن أن أستخدم الكلمة المألوفة : أريفيلرتشى .. ولكن حرصت على النطق بكل ما هو غير مألوف .
ومن الجائز جداً أنهم في مطار سيدنى بعد ذلك سيستخدمون هذه الكلمة باعتبارها أحدث ما ورد إليهم من أرض الوطن !

وأشرت بيدي موعداً ، واتجهت إلى الطائرة التي انطلقت في الظلام تعبّر
المحيط الهادئ في طريقها إلى مانيلا .. أشهر مدن الفلبين .. أو العاصمة
الدبلوماسية والسياسية ..

والفلبين مثل أندونيسيا تضم ألف جزر .. فالفلبين سبعة آلاف جزيرة .
ولكى أكون دقيقاً أقول إنها سبعة آلاف ومائة .. وبها عشرة آلاف نوع من
الزهور وبها سبعون لغة و٦٥ نوعاً من الحفافيش .. وألف نوع من الطيور ..
وهي لا تعرف الحيوانات التي ترضع صغارها .. فيها عدا القرآن والحفافيش !
وهذه الجزر أخذت اسمها من الملك فيليب الثاني ، أحد ملوك إسبانيا ،
وإسبان دخلوا هذه البلاد مع البرتاليين الذين ارتدوا كل هذه المناطق وأقاموا
فيها . ومر الإنجليز مروراً « عابراً » على هذه البلاد .. واستقر الإسبان فيها .
ولذلك فاللغة الإسبانية لا تزال لغة معظم الناس . وإن كانت اللغة الرسمية اسمها
تاجوج .

والناس والشوارع والمدن لها أسماء إسبانية .
ثم إن الإسبان نقلوا الديانة المسيحية الكاثوليكية إلى هذه الجزر . والفلبين
هي الدولة المسيحية الوحيدة في آسيا . ولكن المسلمين سبقوا الإسبان إلى هذه البلاد .
ونقلوا الإسلام والدم العربي إلى جزر الجنوب وخاصة جزيرة منداناو التي نرى
فيها الطفلة الصغيرة تضع الأحمر في شفتيها حتى التاسعة من العمر .. أما بعد
ذلك فهو حرام شرعاً !

أما الهولنديون فقد أقاموا فيها بعض الوقت ..
والأمريكان احتلوا من ٦٦ عاماً . ثم انسحبوا منها إلى اليابان أيام الحرب
العالمية الثانية ثم عادوا يمنحوها الاستقلال أيام الرئيس كايزون وهو من أعظم
زعماء الفلبين ، ومن أطفهم وأحبهم إلى الأوربيين !
والفلبين تدخل ضمن الأسرة المغربية الواسعة جداً التي تضم الملايو
 وأندونيسيا ومعظم جزر المحيط الهادئ ..

وهم شعب يحب المرح .. والقليل جداً الذي أراه أمامي في هذه الطائرة بوكد
أن مرح أبناء الفلبين أطفى بكثير جداً من مرح أبناء أندونيسيا . وقد لاحظت
على الملحق العسكري الذي كان يسكن إلى جواري في مدينة جاكرتا أنه
لا يتوقف عن الرقص كل ليلة .. عنده ألف الأسطوانات .. وكان يطلب من
أصدقائه أن يراقصوا أخته . وكانت أخته مضبوطة دائماً على إبرة البيك آب ..
في اللحظة التي تهبط فيها الإبرة على الأسطوانة .. كانت أخت الملحق العسكري
تلوي كالأسطوانة وتدور مثلها وتدوخ مثلها أيضاً .. وتعلو وتهبط مثل الإبرة .
ولكى لا أنهاوز الحقيقة أقول إن الدوحة كانت تصيب أى ضيف يدعوه
الملحق العسكري إلى بيته . فقد كان الضيف يحمل صاحب البيت فيرقص عشر
أسطوانات ، ويحمل الأخت فيرقص عشرين أسطوانة . وأمام إضرار الأخت ،
وحرضاً على الشهامة الإسبانية ، يرقص عشر أسطوانات أيضاً .. ويسقط في أى
مكان .. وتظل الأخت ترقص حول جثته .. كأنها إحدى بنات الغابة وكأنه
غزال سقطت تحت سهام رجال القبيلة !

وفي الطائرة شيئاً من هذا .. فالرجل الذي جلس إلى جواري رغم تعليمات
مضيفات الطائرة يضع في جيبيه راديو ترانزيستور .. والراديو موجه إلى الفلبين
أو إلى استراليا .. فلا يذيع إلا الأغانى وإلا الرقصات وهو يترنح بشدة تارة
مع الموسيقى وتارة من الحمر ، وتارة في المطببات الهوائية التي تنزل فيها الطائرة ..
وكان يعطيه الراديو لكى أضعه على أذنى ، لعل أهتز مثله .. وكنت أهتز
بالفعل . ولكن لا أستطيع أن أعرف السبب الحقيقى لهذا الاهتزاز ، لعلها رعشة
على أثر الحفنة التى أخذتها فى الصباح قبل السفر للوقاية من أمراض نسيت اسمها
الآن . وربما لأن الكرسى ليس مربوطاً بربطاً محكمـاً . فالطائرة يبدو أنها قديمة .

كان في نبأ أن أودي خدمة جليلة لشركة كوانساس الاسترالية ، فأنبه المضيفة إلى هذا الخلل الموجود في المقعد . وهي خدمة خالصة الثمن .. ففي اللحظة التي سأتهي إليها هذا الخبر سألتني الثن على شكل ابتسامة عريضة .. وربما على شكل اصطدام خدها بخدي غير المخلوق ..

ولكنني عدلت فأنا أخشى أن يكون المقعد ثابتاً في مكانه ، وأن يكون الاهتزاز في داخل أنا . ثم لاحظت أنني لا أجلس على المقعد الذي يقع على المر حيث تتحرك المضيفة ذهاباً وإليها وكأنها تمشي على الأرض .. وكأنها تغطي الناس فتمايل على هذا وتساقط على ذاك .. كأنها راقصة بين مقاعد أنساص مخمورين في إحدى الحانات .. ومن الغريب أن المخمورين جالسون ثابتون ، وأن التي ليست مخمرة هي التي تتمايل وتترنح بينهم !

وأضيئت الأنوار الحمراء في الطائرة ..

وكان ذلك إشارة إلى أننا في انتظار عاصفة على المحيط ، مع أن هذا المحيط اسمه المحيط الهادئ .. ربما كان السبب هو أنها نجتاز خط الاستواء . ولم ألاحظ ذلك عندما عبرته قبل ذلك قادماً من أندونيسيا .. ولاحظته قبل ذلك عندما عدت من أندونيسيا إلى الهند ..

واهتزت الطائرة بعنف كأنها اصطدمت بهذا الحط الوهي .. وكأنه حدث ما يحدث في الريف عندنا .. فهم لكي يقطعوا الصابون مثلاً - صابونة الغسيل الضخمة - فإنهم يلفون حولها فتلة دوبارة ثم يشدون الفتلة .. فإذا هي تقسم الصابونة إلى قطعتين .. والفتلة المشدودة هنا تقوم بدور السكين .. فعملية شد الفتلة تعطيها قوة ..

ولكن لأن الطائرة ليست صابونة ولأن خط الاستواء وهي ، عدت إلى المدوء أحارو أن أفرز الحقائق من الأوهام . واندمجت مع جاري في سماع الموسيقى . واعتبرت أن هذه الموسيقى نوع من الجو الإقليمي للفلبين .. فكأنني دخلت الآن الهواء والماء والموسيقى الإقليمية للفلبين ..

وضحكت مع جاري كثيراً . وكلما سألته عن بلاده .. أريد أن أعرف منه شيئاً عنها ، أشار إلى أنه لا داعي لأن أستعجل الوقت .. يكفي أن الطائرة تقطع ..

الوقت بهذه السرعة المخيفة . . وسأعرف كل شيء هناك بمسؤوله وبنفسى وعلى طريقتي . . فالرجل مبسوط . ولعله يريد أن ينسى أنه عائد إلى الفلبين . فهو يعيّب على الطائرة أنها مستعجلة !

وأضيئت الأنوار الحمراء وربطنا الحزام وسحبنا المقاعد إلى الوراء . وأطفئت السجائر وابتلى كل إنسان ريقه واكتشفت المضيافة أن جارى معه راديو صغير فاعتبرته بشدة . ثم طلبت منه أن يعذرها . فهذا الراديو الصغير يحدث ارتباكاً لأجهزة اللاسلكي بالطائرة . .

وخارج الطائرة كان الجو دافئاً ولكته مليء بالرطوبة . وكنت قد نسيت هذه الرطوبة والحرارة في استراليا . ولكن تذكرت الهند وأندونيسيا وسيلان فوراً .

والذى رأيته في المطار مختلف كثيراً جداً عن الصور التي رسمتها في ذهنى وأنا أستمع إلى الموسيقى في الطائرة أو في بيت الملحق العسكري . . ولم أجد فتاة واحدة في المطار تشبه أخت الملحق العسكري ، ويظهر أنهم اختاروها تمثل أجمل ما في الفلبين من فتيات . . مع أنها ليست جميلة جداً فهي على خلاف بنات الفلبين أكبر أنفًا وربما تكون الداية أو الطبيب المولد قد سحبها من أنفها . . ولما رأى أن الأنف قد طال في يده أكثر مما يجب حاول أن يعيده إلى مكانه الطبيعي فلم يفلح .. فيبي الأنف بعيداً عن الوجه . . ثم هو منفوخ من الأمام تحت ضغط أصابع الطبيب أو الداية . . فهو أنف لا هو بالطويل ولا هو بالقصير . . وإنما هو أنف منفوخ .

وأمام سلم الطائرة وقفت فتاة ممتلة وفي يدها إكليل من الورد . . أو طوق من الورد وعينها على ركاب الطائرة . وفي وجهها ابتسامة مدخلة ، أو ابتسامة في حالة ترقب . وشفتها العليا تضغط على شفتها السفلية . . كما تضغط الإصبع على زناد مسدس . وظهر الرجل الذى تريده . وانطلقت الابتسامة واهتز عقد الورد وسقط كطوق نجا حول عنق الرجل الذى تنتظره . . وكان أمريكاً . وشكرها وأسألها إن كان أحد قد حضر ليأتي له بمقابلته . إنه رجل عالمي . وقد مل هذه الأطواق وهذه الابتسamas السخيفية . . وأسف من هذه الابتسamas أنى وجدت نفسى ضحية لواحد من هذه الأطواق . . مع أنى لا أعرف أحداً ،

ولاجئت هنا قبل ذلك ، ولا من رجال الأعمال الأميركيان .

وتدبرت ما فعله الرئيس الفلبيني كايزون عندما عاد ذات يوم إلى زوجته وقد لف حول عنقه عقداً من الورد .. وكان العقد ضخماً فأذلهها ، ولما سأله عن المناسبة أجاب : لقد تزوجت اليوم .

ويقال إن الزوجة بكت ..

وهنا أدرك كثيرون أن زوجته تحبه . فخلع العقد ولفه حول عنقها هي . وقال لها : كأننا تزوجنا مرة أخرى .

وفكرت في أن أصعد الطائرة مرة أخرى . وأبسم هذه الفتاة عند نزول السلم وأشار إليها أن تصعد العقد حول رقبتي وأشكرها وأقول لها : كأنني جئت بلادكم للمرة الثانية .. وأين الذين سيحملون حقاني إلى خارج المطار ؟

والسؤال الأخير سؤال حقيقي وله معنى غميف لا يمكن أن تعرفه أو تمحس به إلا إذا سافرت إلى هذه البلاد .. وإنما إذا أحسست بالحظر الذي يزلزل جسمك المرهق عندما يميل عليك أحد الواقعين في المطار وقد ارتدوا هذه القمصان المخططة ونكشوا شعورهم ومتصغوا للبيان الأميركي وقال لك : لا تركب التاكسي الذي هناك .

وتلتفت لتنظر أين هذا التاكسي ، وتتجدد عربة كل العربات ، وقد تسأل هذا النصاب ، ولماذا ، فيقول : لأنه قتل اثنين من الأميركيان في الأسبوع الماضي واستطاع أن يرشو البوليس فأطلقوا سراحه .

وهذه الحادثة ليس من الصعب أن تقع ، فالرشوة ممكنة جداً وعند أعلى المستويات .. والقتل كالهرش هنا .. والدولة تعرف بذلك وتحذر الناس من الناس ومن رجال البوليس أيضاً !

والمطر غزير والرطوبة شديدة ونحن عند منتصف الليل .. والمطار بدأ يصفصف .. والمضيفة الحلوة قد استردت كل صفاتها الأرضية ، فهي تمشي دغري ولا تبتسم .. واستقلت سيارة الشركة واختفت في الظلام . وبقيت وحدى . وتوكلت على الله وركبت في أول تاكسي وقلت له : أحسن لو كاندة

— بالإنجليزية طبعاً . فهنا يتكلمون الإنجليزية بلهجة أمريكية ويحسن بذلك أيضاً أن تتعلم هذه اللهجة وليس من الضروري أن تتعلم الإنجليزية .

فرد بسرعة فهلوية : آه .. لوكاندة فليبيناس !

والطريق مظلم . والأصوات خافتة . والمطر يغطي زجاج نافذة السيارة . والساائق يحاول أن يفتح أي موضوع وأنا أسله بصمتى . أو بهز رأسى .. أو بفتح النافذة حتى أصاب بقليل من الزكام يعاوننى على اصطناع «الحنافة» المطلوبة عند الكلام باللهجة الأمريكية هنا ، ولما استكملت خفافي قلت له : أحسن لوكاندة هنا ؟

فقال : نعم يا سيدى . وستكون مبسوطاً جداً . كل شئ فيها .. الموسيقى والمشروبات .. والبنات الحلوة .. هل أنت من هوليوود ؟

— بلدى أبعد من هوليوود .

— أيوه أمريكا واسعة جداً .. أريد أن أسافر إلى أمريكا .. هناك أقاربى .. وهم أغنياء . وقد أرسلوا لي خطابات كثيرة .

— وما الذى يمنعك من السفر ؟

— يا سيدى أنت تعرف الرحلة طويلة وتكليفها خرافية .. وأنا فقير .. أنا وزوجى وأولادى .. والحياة هنا غالبة .

— قالوا لى الحياة هنا غالبة جداً .. خصوصاً التاكسىات !

وتردد هو قليلاً ثم عاد بذكاء يقول : الأجر متوسط ولكن كرم السياح هو الذى يجعلنى أحتمل الحياة هنا !

— حلوة يا واد ! .. برافو عليك ! (قلتها بالعربية) .

يكتفى أننى وصلت الفندق .. ومستعد أن أدفع الأجر مضافاً إليه الكرم ومضافاً إليه بدل تسليتى وتهدىتى طوال الطريق الذى يبلغ حوالي عشرة كيلومترات من الطين والظلام .. ومن شئ أقسى من الطين والظلام هو : الخوف !

• • •

وأمام شباك الاستعلامات فى الفندق الأوروبي الهندسة والأثار عرفت لأول مرة أن مخاوفى متواضعة جداً ..

فقد طلبت مني إدارة الفندق أن أترك أموالى وأوراقى ، وفي حالة ركوب أي تاكسي يجب أن أعطى الفندق رقم التاكسي والوقت الذى تتحرك فيه . ومن الأفضل ، حرصاً على سلامتى ، أن أخبر الفندق عن تحركاتى أولاً بأول . لماذا؟ لأن الأمان غير مستتب في هذه البلاد .. وفي هذه الساعة من الليل .. وكانت الساعة الواحدة صباحاً .

وعندما صعدت إلى غرفى وجدت لافتات طويلة عريضة تؤكد هذا المعنى : الفندق غير مسئول عن اختفاء أى شئ في غرفتك ..

الفندق يرجوك : أن تصمم أسلحتك النارية وأية متفجرات معك في مكتب الاستعلامات !

ومعنى هذا أن الناس يحملون الأسلحة ويتولون الدفاع عن أنفسهم . فالعمل الذى كان يجب أن تقوم به الدولة ، يتولاه الأفراد !

والسؤال الذى حيرنى في الفلبين ولم أجده عنه جواباً : من هو حاميها ومن هو حراميها ؟

وبعد إقامتي في الفلبين اكتشفت أن الجواب عن السؤال موجود في نفس السؤال : احذف علامة الاستفهام واحذف كلمتى : من وهو !!

وفي الصباح أكدت لي إدارة الفندق أن حركاتى يجب أن تكون معروفة بالنهار أيضاً . فمدينة مانيلا هذه لا تعرف الليل أو النهار . ففيها كباريهات للليل وكباريهات للنهار . بل إن نفس كباريهات الليل عندما تجئ باخرة أمريكية مثلاً ، وهذا شئ مهم ويؤدى إلى رواج السلع التي لها علاقة بالمرح ، تغفل أبوابها ونوافذها .. وهات يا موسيقى وهات يا رقص .. وهات يا فلوس .. وهات يا ضرب نار .. وأول من يهرب من المعارك رجال البوليس !

وبدأت أخلص من اندهاشاتى الأولى ..

وجعلت أتعود على هذه البلاد وعلى الحياة هنا .. وأحسست بشئ من الراحة ومن المتعة أيضاً ..

وفي صباح كل يوم أفتح الراديو المختفى في سريري وأستمع إلى الموسيقى وأقرأ الصحف التي تشم رئيس الجمهورية بعبارات حمراء . وتهن وزير الخارجية

بتعدد الزوجات . ووزير الدفاع بالتزوير في الانتخابات وعشرات الصفحات في توديع السفير الأمريكي واستقبال السفير الأمريكي الجديد ..

* * *

ثم شعرت فجأة بأن اعتباري قد رد لي ..

نعم اعتباري .. يعني قيمتى .. يعني سعرى أصبح في سعر الذهب .. يعني أصبحت كل تصرفاتى كالأوراق المالية لها غطاء ذهبي ضخم . لقد كنت في استراليا أشعر كأننى قزم صغير . الناس طوال ولونهم أبيض وأحمر ، وعيونهم زرقاء وخضراء . وبدلا من أن أمشي على طراطيف صوابعى وطراطيف أفكارى لكي أقف مع الناس على رأس المساواة .. كنت أحس أنه لا فائدة من أن أشد حيلى وأقف إلى جوارهم .. فهم أطول وأبسط . كان هذا شعورى أول الأمر في استراليا ..

وبعد ذلك اكتشفت أن هناك من هم أقصر منى أو يمكن في طولى - طولى ١٨ سم في الأيام الحارة .. ولكن عندما جئت إلى الفلبين لاحظت أن الناس قصار القامة كأبناء أندونيسيا والصين والملايو وكبوديا ولاوس وفيتنام .. إلخ .. والناس وجوههم صفراء سوداء كالحلبة عندما تخلطها بالعسل الأسود .. أى في لون « المفتأة » .. الرجال قصار .. النساء قصيرات وأكثر نحافة .. وشعرت بأنى طويل وأنى أبيض جدا وأن لون عيني فاتح .. والشعر هنا سائع نائع أى يروح ويحيى على الوجه كأنه يولول .. وأنا شعرى أسود وأكتر . وهذه كلها مزايا ومن علامات الجمال .. ولاحظت أن الرجال يقولون لي هذا .. وأن النساء يقلن هذا .. النساء يقلن هذا علينا .. بل إن النساء المحترمات جدا جدا يقلن ما هو أكثر من ذلك مثلا : هناك واحدة حلوة جدا صاحبتي .. وتحب أن تراك .. وطبعا أنا لا أسأل .. ولماذا تحب أن تعرفني .. إنما أفهم من كلامها أن هذه الصفات - صفاتي - من الملائم التي تعجب الناس هنا .. وقلت في نفسي : أيوه كده !

لقد رد اعتباري كأنى مطالب بالعرش ثم أعيد لى عرشى ، وملكي . ولكن ماذا أفعل بهذا العرش . ليست هذه مشكلة في مانيلا . فأنا بهذه المزايا أستطيع

أن أسلق الأسوار بل إن الأسوار تنوب أمامي .

وبدأت عملية إذابة الأسوار . كما أذاب الألمان أسوار ماجينو في فرنسا . . هنا الليل جميل والجو رطب . . وبدأت أمشي في شارع ديوي - كثير من الشوارع هنا لها أسماء أمريكية لأن الأميركيكان احتلوا هذه البلاد حوالي خمسين عاماً - وفي هذا الشارع معظم الفنادق الكبرى والكمباريهات . . وفي الشوارع نداءات غريبة . . إنما الفنادق تناولت في الميكروفون على سيارات التاكسي المارة بالقرب من الفندق .

واخترقت قطعة واسعة من الأرض مغطاة بالعشب وعدد من الفتيات والفتيان في حالة اتحاد فيدرالي عاطفي - أي اتفاق في الدفاع عن النفس والسياسة الخارجية .

وكنت ما أزال في الساعات الأولى من الليل . . فأنخرجت من جيجي ورقة رسمية عنوانها « الحالة الصحية في مانيلا » . . الورقة تقول : معظم أبناء الفلبين مصابون باضطرابات معوية . . ومعظم هذه الاضطرابات على هيئة دوستيريا . .

وتقول الورقة : لا توجد في الفلبين بعوضة الملاريا .

وفي الصحف قرأت مقالات تهاجم الحكومة لأنها لم تتخذ الاحتياطات اللازمة ضد الملاريا . . وبعض الأطباء يستنكرون كلام الصحف ويقول إن حماية البلاد من الملاريا كحمايتها من العواصف أو من أمواج البحر - يعني مستحيل ! ولكنني أميل إلى رأي الحكومة لأنه لا يوجد بعوضة الملاريا في هذه البلاد . وأحب أن أؤكد للحكومة أنه لا يوجد سوى بعوضة واحدة غرست خرطومها في عنق مستشارنا فلزم المستشفى أسبوعاً كاملاً !

ومددت يدي إلى جيجي وأنخرجت كتاباً صغيراً لمؤلف أمريكي ينصح القراء بأنهم إذا ذهبوا إلى الفلبين فيجب ألا يشردوا شيئاً أبداً . فالفلبين هي أغلى بلد في الدنيا كلها . وشعرت أنني ميال إلى تصديق كلام هذا الأميركيكي لأنه أولاً مضبوط ، ثانياً لا توجد معى فلوس ، ولأن الطريق إلى شراء أي شيء محفوف بفوارق العملة والبخشيش ، ولأن هناك بلاداً أجمل من الفلبين . . وأن الفلبين ليست إلا إحدى المحطات الاختيارية في مشواري الطويل .

وتنذكرت ما سمعته اليوم وأمس وأول أمس من أنه إذا ذهبت للسهر في

أى مكان فيجب أن تبلغ أحد أصدقائك بذلك أو تبلغ إدارة الفندق أو مركز البوليس .

وطللت أمر طول الليل على الفنادق الكبرى وأتطلع إلى الكباريّات والبارات
من بعيد لبعيد عملاً بنصيحة جحا وهي : حلق ولا تمسكش .. فأنا أحلق فوقها
وحولها دون أن أمسها ..

وأحسست أنني كالصعيدي الذي أنعم عليه برتبة البكوية فقرر أن يذهب إلى القاهرة ليعلن ذلك للناس . ولما نزل في محطة مصر قابله أحد الشيالين فبادره بقوله : رايح فين يا بيه . .

وأنبسط الصعيدي جداً وقال له : هيه البوبيه وصلت لحد هنا ؟
وقرر الصعيدي أن يعود إلى بلاده فلا داعي للإقامة في القاهرة ما دام الناس
يعرفون أنه أصبح من البويات . .

وأنا أكتفيت برد اعتباري وارتفاع أسعارى وعدت إلى الفندق أجلس إلى التليفزيون وأستمع إلى الموسيقى .. والناس حول أشكالهم لطيفة مسمسمة وينظرون بعيون كلها ترحيب كأن كل عين مصلحة سياحية وأنى السائح الوحيد ! وصعدت إلى غرفى وأنا سعيد بأن « الهوية » بلغت القلبين !

* * *

ومدينة مانيلا هي أشهر مدن الفلبين ، ومع ذلك ليست العاصمة . فالعاصمة هي « كيزون سيتي » وهي ضاحية بعيدة عن المدينة . ومثلها تماماً مدينة « سيدني » في استراليا ، إنها أشهر المدن والعاصرة هي كانبرا . وأكبر جالية أجنبية في هذه المدينة هي الجالية الصينية فعددهم حوالي ٥٠ ألفاً .

والبيوت هنا مزدحمة جداً بالسكان . . وقد نشرت الصحف اليوم أن أبناء الفلبين يجب أن يدعوا عن عاداتهم . . فالضييف يجب أن يبقى يومين أو ثلاثة لا أن يبقى أسبوعاً ، وكذلك أقارب الزوجة . . واقتراح أحد الحرررين أن ينقل الفقراء بيوتهم الخشبية إلى شاطئ البحر لكي يقذف بما زاد عن حاجته من الزوار في البحر . . واقتراح أن ينقل صاحب البيت بيته من مكان إلى مكان . . ولإيجار المساكن مرتفع جداً ، فللحقنا الثقافي يسكن في شقة لإيجارها ١٢٠ جنيهاً ، والشقة

عبارة عن غرفة واحدة وصالحة ومطبخ .

والأطعمة هنا لها طعم غريب .. فلا يوجد لبن طبيعي في هذه البلاد .. وإنما يوجد اللبن المسحوق .. لبن العلب .. ويوجد هنا نوع من البامية ليس له طعم ويقال إن له طعماً في بعض البيوت ..

لقد أكلتها في بيت أحد المصريين وقد لاحظت أن خادمته اقتصادية جداً في وضع الماء والملح والزيت والبامية .. لاحظت أن لها أسناناً ذهبية .. فعرفت أنها اقتصادية جداً جداً للدرجة أنها تحني كل فلوسها في فها !
فما بالك بالبامية !

• • •

اليوم قررت أن أمشي على كثيف فقد سمعت عشرات الممنوعات من أصدقائي هنا ومن الرسميين .. ومن إدارة الفندق .. كل شيء ممنوع .. المشي ممنوع .. والأكل ممنوع .. والسرير ممنوع .. الحقيقة لم أتفق ..
في الصباح المبكر سحبت يدي من فوق الجرس فقد قررت أن أتناول فطورى خارج الفندق ..

ونزلت إلى شارع ديوى على خليج مانيلا .. الجو لطيف والسماء ملبدة بالسحب ، ومن المحتمل أن تساقط الأمطار فنحن ما نزال في الصيف .. واخترت مطعماً صغيراً .. وانحنى الجرسون في أدب فقلت في أدب له أيضاً : شاي وبيس ..

وبعض لحظات جاء الرجل بصينية كبيرة عليها شاي وجبنه وبسكويت وخبز « مأمور » أى « مجرم » – نسبة إلى الجمر – وزبدة وبيس ولبن وكوب ماء مثلج .. وأمسكت البيضة وبرشاشة الكتكوت وهو ينقرها من الداخل لكي يخرج ..
كسرتها أنا لكي أدخل فيها .. أدخل فيها الملعقة .. وأدخلت الملعقة فوجدها جافة . لقد كان بها كتكوت صغير .. فترفت .. ومددت يدي إلى بيضة ثانية وثالثة .. كتاكيت .. فتراجعت وضمت شفتي في قرف كأنى أحد أسود كوبى قصر النيل ، ثم بدأت أتلقت في قرف كأنى أسد سينا مترو . وجاء الجرسون وسكت ينتظر مني أن أقول شيئاً فأشرت إلى البيض ، والذى أدهشنى جداً

أن الجرسون سألني : فيه إيه !

وبعد ذلك عرفت أن البيض هنا لا يأكلونه إلا هكذا . بعد أن توضع البيضة تحت الدجاجة عدة أيام ويشعرون بأنها تماستك وأن الكتكوت بدأ يكبر يسحبونها من تحت الدجاجة ويقدمونها للزبون .

طبعاً لا توجد في كل مطعم دجاجة نائمة باستمرار . وإنما توجد أجهزة تدفئة لصناعة الكتاكيت . . وعرفت أن هذا هو الطعام القوى هنا .

طبعاً لا داعي لأن تعرف أنها القارئ العزيز فأنت تفعل نفس الشي' . ألم تأكل أم الخلول ، إنها هي الأخرى تشبه البيض الفلبيني ، ورائحتها أعن .

وفي الغداء اخترت أحد المطاعم وطلبت لحماً مشوياً وبعض السلاطة الخضراء وجاءت اللحمة . . شكلها جميل . . إنها على هيئة قباب كبيرة وتخرج منها أعداد من الخشب مزقت أكباد الدجاج ، وإلى جوارها يوجد عدد من الليمون الأخضر الصغير في حجم الزيتون . وجاءت السلاطة بيساء باهته جداً . إن هذا الأخضر الفاتح هو نوع من الخس ، وهذا نوع من الخيار أو الكوسة أو البطيخ الأقرع لا أعرف . . وتوجد ملاحة تشبه رشاشة الد.د.د.ت . وأبعدت طبق السلاطة فقد تذكرت ما قرأته أمس عن انتشار التيفود بسبب الخضر وات غير المسؤولة .

ومددت يدي إلى الليمون وعصرته على الماء . . لاحظت أن عصير الليمون أصفر . . كأنه يمون مخل .

هذه هي أول مرة في حياتي أجده يعونا ينزل من الشجر مخللاً وبه ثوم وشطة . وعرفت أن كثرة الليمون سببها أنه يخفي معالم الملح فلا يعرف الزبون كيف كان طعمها . . ولا إن كانت طازة أو بايته !

وبعد الأكل قدم لي جيلاتي للذيد . . وهو عبارة عن جيلاتي عادي ولكنهم يضعونه في نصف جوزة هند . . إنها تشبه البوطة عندنا التي يضعونها في نصف قرعة ، ولكنهم لا يأكلون القرعة . والشيء الذي ليس عندنا هو ثمن هذه الوجبة . إنه ١٥٠ قرشاً !

وأحسست كأنني ابن النبي نوح عليه السلام . . وأحسست أن كل أصدقائي ينصحوني بالعودة إلى العقل وإلى الاستماع إلى نصائحهم حتى لا أغرق .. وكأنهم

يقولون لي : يا بني اركب معنا . وأنا أقول لهم : سأؤى إلى جبل يعصمني من الماء .
ويقولون لي : لا عاصم اليوم ..

والحقيقة أنه لم يكدر يأتي الليل حتى وجدت أنني أنفقت عشرة جنيهات ..
وأن هذه العشرة جنيهات قد أصبحت كحجر ثقيل تدلل من عنقى وأغرقى معه
في بحر من الندم .

وقالوا : اركب معنا .
قلت : بل أمشي ورائكم !

• • •

يوجد هنا في مانيلا عدد من أصحاب الملايين العرب من لبنان ومن سوريا
ومن فلسطين ، وكل واحد منهم له قصة : كيف جاء ، وكيف قرر البقاء ،
وكيف أصبح غنياً . ويكفى أن أذكر بعض الأسماء : فهنا المليونير السوري المولد
الأمريكي الجنسية ألبرت عوض .. فله مصنع أسلاك كهربائية وكابلات وله
زوجة جميلة تتحدث العربية .. وهذا الإخوة أنطون وفيلكس ويعقوب أسعد ..
لهم من لبنان وهم أصحاب ملايين ولم يصنعن نسيج بها أكثر من ٣ آلاف عامل .
والمليونير يعقوب أسعد يملك عقارات ليجارها الشهري ٣٠ ألف جنيه .

وهنا المليونير الفريد كيروزه ، من لبنان أيضاً .. وهو يحتكر صناعة
الدراجات ..

حتى تصل لبنان هنا من رجال الأعمال الناجحين جداً ، وهو يقيم في
 الفلبين منذ ٣٥ عاماً . وله زوجة لبنانية أحببت له طفلتين .

وقد كتبت عنه مقالاً قلت فيه : إن زوجته « أنجبت » له طفلين ففضض
من كلمة « أنجبت » له فقال : هي اللي أنجبت .. أمال شو باعمل أنا !
وأمثلة أخرى مشرفة للعرب الذين جامعوا إلى هذا الجانب من العالم وعاشوا في
ظروف قاسية جداً . وتغلبوا عليها . وتحولوا إلى أصحاب أعمال وأموال واحتکروا
الأعمال والأموال في بلاد غريبة .

وأعتقد أن أحسن قصة نجاح هي قصة السيدة وديعة هاشم وزوجها
حنا جميل .. جاءت السيدة وديعة إلى هذه البلاد منذ ٧٥ عاماً .. وقبل أن تبلغ

العشرين تزوجت حنا جميل . وبدأت قصة كفاح رائعة . بدأ الاثنان معاً يبيعاً الأقشة وكل منهما يحمل بضاعته على كتفه ، وكان الاثنان يقتسمان مدينة مانيلا . كل واحد منها يبيع في شوارع مختلفة . وفي آخر النهار يتلقى الاثنان .. وكانت السيدة وديعة هي التي تمسك الدفاتر ومن رأيها أن التاجر الناجح هو الذي يحفظ جدول الضرب . . . بكل معانٍ الضرب !

وكانَت السيدة وديعة قاسية على نفسها وعلى غيرها ، وفي آخر أيامها كانت تضرب العمال وتضرب الصحفيين ، وكان من رأيها – وأقول من رأيها لأن لها آراء غريبة سترى فيها بعد – أن التاجر لكي ينجح يجب ألا يكون له أبناء في أول حياته . . وإنما يفهم بالأبناء فيما بعد ، ولذلك لم تنجب السيدة وديعة إلا في آخر حياتها وظلت وديعة وحنا جميل يعملان ويجمعان الأموال وينتقلا من حال إلى حال أحسن . . من البيع المتجول إلى حالة الاستقرار في دكان صغير ثم في دكان كبير . . وأخيراً خطّرت لوديعة فكرة ، أن تشتري قطعة أرض بعيدة عن مانيلا . . مساحة هذه القطعة من الأرض حوالي مائة فدان . . وثمن الفدان في ذلك الوقت حوالي قرش صاغ . وأقامت على جانب صغير من هذه الأرض مصنعاً صغيراً للنسج تحول فيما بعد إلى المصنع الوحيد في الفلبين لصناعة الثلاجات والمكاتب وأجهزة التكييف .

ولاحظت السيدة وديعة أن المصنع بعيد جداً عن المدينة وأن أحداً لا يعرفه . فأهدت قطعة من الأرض إلى قيادة الجيش ، وكان الجيش يبحث عن قطة أرض قريبة من المدينة . فأقام الجيش معسكراً هناك وشق طريقاً مرصوفاً يمر بالمصنع ويمر بمركز القيادة ، وببدأ الناس يمشون في هذا الطريق ويعرفون المصنع . . ثم اهتدت إلى فكرة أخرى . . أهدت قطعة ثانية من الأرض إلى الكنيسة وأقيمت الكنيسة بالقرب من المصنع ومن مركز القيادة ورأى المصلون المصنع . . ثم أهدت قطعة أرض أخرى إلى وزارة المعارف لتقيم عليها مدرسة . . وأنشئت المدرسة . ثم بدأت السيدة وديعة تقيم البيوت والفيillas ليسكنها الناس . لقد أنشأت أكثر من مائة بيت وزرعت الأشجار على جانب هذا الطريق وطريق آخر واختارت أشجار المانجو . . وكانت تترك الأشجار للناس يأكلون ثمارها فيما بعد . . فلم تكن

المثار هي الشئ المهم عندها وإنما تردد الناس على الطريق وعلى الكنيسة وعلى المدرسة .. وروؤية المصنع .. والقصر الذي بنته السيدة وديعة لنفسها يقيم فيه الآن قنصل إسرائيل في الفلبين .

والسيدة وديعة بعد وفاة زوجها حنا جميل الذي أحببت منه ولدين أصبحت هي صاحبة المصنع الكبير ، وتزوجت من أحد الدروز المسلمين وهو كامل بك حمادة .. وكان هذا الرجل طويلاً عريضاً لافتاً للنظر . وكان نشيطاً . فقد استطاع استثمار أموال وديعة التي بلغت عند زواجهما حوالي ٥٠ ألف جنيه من الذهب .. وتعاون الاثنان معاً في بناء المصنع الوحيد الآن المعروف باسم « صلب اسمايل » واسمايل هو النطق الفلبي لكلمة : جميل ..

وقد سألت مدير المصنع وهو ابن اخت حنا جميل عن قيمة ما ينتجه المصنع سنوياً ، فقال إنه حوالي مليون جنيه ، وإن الربح سنوياً هو حوالي نصف مليون جنيه .. ولا يوجد من اللبنانيين في هذا المصنع سوى المدير وأخيه وسائق سيارته لبناني .. والباقيون وعددهم ٥٠٠ عامل كلهم من أبناء الفلبين . وكانت السيدة وديعة حتى وفاتها في السابعة والسبعين سنة ١٩٥٢ قوية عنيفة وكانت تمثل خزائن البنك وتحمل المفاتيح حول عنقها .. وكانت هي التي تشرى ملابس زوجها الأول والثانى . ولها ضريح كبير هي التي اختارت تصميمه ومكانه وقدرت نفقاته قبل وفاتها .. وأصرت على ألا تزيد نفقات الدفن والجنازة عن مبلغ معين .

وقبل أن تموت وزعت التركة من غير عدل بين ولديها وبين أحفادها .. فأعطت الأحفاد أقل من الوالدين .

أما حكمتها في ذلك فهى أن الأحفاد لا مستقبل لهم .. أما الأولاد فلهم مستقبل .. وأن الأحفاد سيكونون أقل صلابة من الأولاد ، ولا شئ يشد ظهورهم فوق خيول الحياة ، إلا المال .

ويبدو أن نبوتها قد صحت .. فأحد الأحفاد الآن متزوج من ألمانية .. ويعيش في أمريكا ثلاثة شهور وأربعة وستة من كل عام ..
ألم أقل لها لها آراء غريبة .. ولكنها معقوله أيضاً ؟

● مغامرة في الليل !

لسبب غير واضح قررت أن أقوم بزيارة لذلك السياسي العجوز . . وأنا لا أعرف كم يساوى عند مواطنه . ولكن بشعور من الغربة أحسست برغبة في أن آوى إليه ، وبشعور من الينم قررت أن أتاباه — أى أجعله أباً — إذا صح هذا التعبير . .

ولا أعرف اليوم إن كان حياً أو ميتاً . فقد كان في التسعين عندما رأيته . . وحني عندما رأيته لم أعرف إن كان حياً أو ميتاً . .

فأولاده يحرسونه كأنه ضريح . . ويتطوعون بالتهليل لعباراته قبل أن ينطفئها كأنه طفل مريض . . ويقسمون على صحة ما يقول كأنه رجل غرف . . ويدفعونه إلى الكلام وإلى أن يقول ويقول . . لأنه قال ذلك كثيراً جداً . . فهم يهونون من حالة الملل والسلام التي لابد أن تكون قد أصابت سياسياً متقدعاً منذ حسين عاماً . . يرى الدنيا ولا يشارك فيها . . أو يشارك فيها دون أن يراه أحد !

ولا أعرف ما إذا كان هذا السياسي الفلبيني الذي اسمه أجيناالدو يساوى هذه المغامرة التي قمت بها مع ملحقتنا الثقافية في الفلبين أم لا . . فقد ركبنا سيارة تاكسي من مانيلا . . وهذه مخالفة خطيرة لقوانين البلاد . وكان من الواجب أن تخطر السلطات عن رقم السيارة واسم السائق وعن المكان الذي سنذهب إليه . وما دامت السلطات لا تعرف فنحن قد اخترنا الموت . . ومعروف أين ومنى وكيف سنتموت . سبقتنا هذا السائق في أطراف هذه المدينة . . أو يخنقنا اثنان من زملائه .. أو يلقى علينا غازاً « مخدراً » كل هذا سيحدث الليلة على أى حال !

والسلطات في الفلبين يشرفها أن يموت اثنان من الجمهورية العربية المتحدة . .
لتنهزها فرصة وتعرب عن أسفها عن هذا الحادث ، بعد أن فاتها أن تعرب عن
أسفها عن الحادث السابق . . وستنهزها فرصة لتقول للرأي العام بأنها معنورة فهي
لا تستطيع أن تدافع عن كل البلاد بنفس الدقة . ولا تستطيع أن تخلي عن
الشعب ، وتهتم بالدفاع عن الأجانب . .

وقد لا تجد أى معنى خاص في أن ينظر السائق في المرأة التي أمامه . لعلك
تقول إنه يريد أن يعرف السيارات التي وراءه . . إلا في الفلبين فإنه ينظر إليك
ليعرف مدى خوفك . . حالتك المعنوية . وفي السيارة تليفون لاسلكي . ونحن
نعرف معنى هذا التليفون . فمن طريقه وقع الحادث السابق لسفارتنا في مانيلا .
فقد خرج مستشارنا من أحد المستشفيات التي لزمها أيامًا ، على أثر لدغة بعوضة
ملاريا . وبيومها أعلنت وزارة الصحة في الفلبين أنها البعوضة الوحيدة التي دخلت
البلاد !

وحتى لو لم تكن الوحيدة ، فإن أحداً لا يستطيع أن يطلب من الدولة أن
تصنع ناموسيات على آلاف الجزر لآلاف الأميال . . إنها بعوضة والسلام ،
وسقطت على عنق مستشارنا فسقط هو تحتها يغلي ويرتجف ويجهز سريراً قدرياً
وبيلاً ساءه بلهوات لا حد لها !

ولم يكن يركب المستشار سيارة التاكسي ينتقل بها من البيت إلى أحد الأندية . .
وأظن أنه نادي البحريه وهو النادي الوحيد هناك . والمسافة قصيرة ، ولكن بالنسبة
لرجل مريض يحتاج إلى تاكسي . وجاء التاكسي . وركب المريض . وانحرف
التاكسي إلى شارع جانبي ثم إلى شارع آخر . وفي التليفون تحدث السائق . ولا بد
أنه نظر في المرأة إلى الوراء . . ورأى أن الراكب متعب ومهالك في مقعده .
وفي إحدى المواري الجانبي تقدمت سيدتان . . أو تقدم سيدتان . . فهما رجلان
قد ارتديا ملابس النساء . وهجما على المستشار وزنعا حافظة نقوده . . ولم يكن
معه كثير . وزنعا الساعة الذهبية . . وانهفا .

ويبدو أن السائق رق لحال المستشار فوعده — وهذا ولا شك فضل منه — بأن

يوصله إلى قرب البيت .. ثم يتركه فلا شأن له بهؤلاء اللصوص . فهو موظف عندهم فقط ونصبيه من كل هذه المسرقات قليل جداً !

ومكافأة للسفارة العربية على صمتها . وعلى أنها قد وضعت فوق الخبر ماجوراً ، أعاد البوليس الأوراق المفقودة وال الساعة الذهبية والخاتم .. ولكن البوليس لم يستطع أن يرد شيئاً مفقوداً هو : الطمأنينة !

وبشيء من الطمأنينة الكاذبة .. وبشيء من رؤية الهدف دون الطريق إليه ، ركبت السيارة وجعلت ملامح وجهي قاسية .. وأقرب إلى التحدى قليلاً وكلما نظر لي السائق في المرأة .. سقطت عيناه على وجهة رخامية .. وعلى احتقار جامد . وانحرفت بنا السيارة .. ولكن لم نهتر لهذا الانحراف وتحدى في التليفون ولم نعبأ بذلك .. ودخل محطات البنزين .. فنزلنا تنفرج على السيارة .. وببعض عيني تظاهرت بأنني ألتقط رقم السيارة ، وبعض العلامات الموجودة في الرفاف . وانتظرت حتى يفتح لي السائق الباب ، إمعاناً في التعالي عليه . ولو عرف السائق ما يدور في أعماق لأوقفنا في أي مكان دون أن ينطق بحرف واحد فإني سأعطيه كل ما مع ملحقنا التقافي من أموال !

والطريق كلما ابتعدنا عن مدينة مانيلا متوجهين إلى الريف تتغير معالمه .. فقد تجاوزنا الجانب المرصوف .. ومع الأسفlets اختفت المصابيح .. وتعالى التراب مع غروب الشمس .. ولم نعد نرى إلا الأشجار .. الخوف يجعلها على شكل أشخاص .. ثم على شكل أشباح .. ثم تلاشى كل شيء .. فلم نعد نرى إلا التراب هائماً أمام مصابيح السيارة ..

وانحرفت السيارة مئات المرات .. ثم توقفت أمام قصر فخم .. وصعدنا الدرج .. ودخلنا الصالون الطويل العريض .. وعلى الجدران لوحات وأسلحة .. وكل شيء يدل على أن هذا البيت قد أعد بإعداداً خاصاً قبل هذه الزيارة .. فلا تزال رائحة التراب عالقة في الجو .. فكان التراب كان نائماً وأيقظوه .. ولكنه لم يبرح المكان .. إنه يتربّد في أن يصحو .. وما تزال على المناضد آثار المقشات .. خطوط سمراء في خطوط سوداء .. ثم ريش متاثر على المقاعد وعلى الأرض .. ثم جاء الرجل .. ولم يكن هو الرعيم السياسي أجيناالدو .. إنه ابنه ..

إن الابن قد تجاوز الخمسين ولكن فرحته وخفته لم تجعلني أتصور أنه الأب ..
ولما رأى حفواتي به اعتذر بأنه ليس الزعيم .. وإنما الزعيم سيجيئ حالاً. وقد حرص
الزعيم على أن يكون هذا الاستقبال رسميًّا تماماً كما كان يفعل إدزاره إنسان عظيم.
ليس مهماً هذا التفسير أو هذا التعليل .. فالزعيم رجل عجوز وهو لم يیرح ماضيه
وحرصه على أن يوتدي ملابسه ليس إلا حرصه على أن يعيش في الماضي .. وأبهة
الماضى .. وزيارتنا له ، ليست إلا مناسبة سعيدة .. أو يجب أن تكون سعيدة له .

وجاء الرجل .. لا أعرف إن كان قد مشى على رجليه .. أو حملوه حملًا ..
أو دفعوه في مقعد له عجلات .. فقد نهضت من مكانى قبل مجئه ودخلت
إحدى الحجرات أخرجت على اللوحات ، وألقي نظرة على ماضيه الذى لا أعرف
عنه إلا القليل جداً .. أما الكثير جداً فهو ما سوف أسمعه الآن .

وعندما عدت وجدت الزعيم على مقعده ..

لقد امتلأت بشيء ، لا أدريه بالضبط .. ولكنني أستطيع أن أصفه دون
أن أفسره الآن .. فأول ما أحسست به أن هذا الإنسان طيب .. وأنه صادق ..
لأعرف مدى صحة هذه المعانى ولمدى صدق هذه الأحكام ولكنه مجرد إحساس ..
أو هو إحساس مجرد من أيه مصلحة .. أو من آية معلومات تاريخية أيضاً !
وأحسست كأنه مدفوع قديم جداً في طيبة مهارة ..

كأنه عربة حرية ماتت خيوطاً ، ولم يبق منها إلا بعض الألواح الخشبية
الملونة ..

كأنه رجل دفونه حياً ، ولما أحس المشيعون بذلك تركوا النعش وهرروا ..
كأنه جندي يحمل معدات الميدان في معركة قد انتهت من عشرات السنين
وهو لا يدرى ..

كأنه أحمد عربي بasha . لا أعرف بالضبط وجه الشبه بينهما . وربما كان
ذلك بسبب أنني عشت في جزيرة سيلان مشغولاً بالسنوات العشرين التي قضتها
عربي هناك . ورأيت كل الأماكن التي عاش فيها وتردد عليها .. ورأيت بعض
الناس الذين عرفوه . لأنهم لا يزالون على قيد الحياة . لقد مات عربي منذ ٥٣ عاماً ..
إنه مثل عربي ، فيه صدق ، وله هيبة ، ولكن وطنيته كانت أقوى من سلاحه .

أو كأنه لطفي السيد . . وقد زرت لطفي السيد في بيت قد انحرف إلى حارة
كأنه سيارة مغروزة في العشب . . أو كأنه باخرة قد ارتطمت بالشاطئ ولم
تحرك . . وكأنه هو قائد السفينة الذي أصر على أن يلزمها حتى ينجو كل من
فيها . . ونجا كل من فيها . . ولم تغرق السفينة !

و لهذا الرجل أجيناالدو قام ثورة على الإسبان الذين حكموا الفلبين مئات
السنين وتركوا طابعهم الثقيل على هذه الجزر . ولم يدفعوا الناس فيها إلى الأمام ،
ولإنما كان هم فقط أن ينقلوا ما فيها إلى بلادهم . . وأن يظل الناس يتفرجون على
أناقة الإسبان ويتمنون أن يكونوا عبيداً في مدريد .

وهناك أغنية تقول : عبيد في مدريد ولا أسياد في مانيلا . .

ولم تكن قوات أجيناالدو منتظمة ، وإن كان هو يؤكد أنها كانت كذلك ،
ولأن الخونة قد طعنوه من الخلف ، وأنه لولا هؤلاء الخونة لخرج الإسبان منذ زمن
طويل . وهرب أجيناالدو إلى هونج كونج . . ووافق الإسبان على أن يعطوه مرتبة
شهرياً ، بشرط أن يظل هناك مدى الحياة . .

وعندما استولى الأميركيكان على الفلبين أعادوا هذا الرجل بشرط أن يعتزل
الحياة السياسية . . واعتزلها منذ أوائل هذا القرن ، ويوم جلس أجيناالدو في مقدمة
الصالون الذي أجلس فيه الآن يعلن أنه أبو الوطنية في الفلبين ، في هذه اللحظة بالذات
سقط عرابي باشا من فوق المصطبة في قريته مينا . .

مسكين عرابي باشا عاش كريماً في المنفى ، ومات ذليلًا في وطنه !

سألت الرعيم أجيناالدو عن حياته . . فقال ، ما معناه . . إنه يقضي وقته
كله في التأمل .

لعل التأمل الذي يتحدث عنه هو ما نسميه عادة بالسرحان . . فلا هو تفكير
مركز ، ولا هو تفكير .

وسأله : إن كان في نيته أن يكتب مذكرات . .

ولا أعرف بالضبط ما الذي قاله الأبن لأبيه لكنه يقوله لنا ، ثم يترجمه
الأبن . . ولكن بعد مناقشة طويلة بينهما قال الأبن مترجماً ما قاله أبوه : لدى
الكثير الذي أريد أن أقوله . . ولكن أحسن طريقة لكتابه المذكرات هي أن

تكتبها أولاً بأول .. فإذا عدت إلى كتابتها بعد ذلك يجب أن يكون في أوقات متقاربة ..

وقال ، وأشهد أنني رأيت ابتسامته لأول مرة : عندنا مثل يقول إن البنور القديمة لا تنمو !

وقد استغرقني التفكير في هذا الرجل ..

فأنا لا أعرفه ، ولكن في نفس الوقت كنت مشغولاً به . ولا أعرف ما فيه هل هذه النهاية هي التي تشغلى ..

هل إحساس الإنسان بأنه أصبح موضة قديمة هو الذي يخيفني ..

هل هو الإحساس بأن الصدق كأى عملة ، في كل يوم لها سعر ..

هل لأن الوطنية هي شرف للجميع هي الأخرى كالعملة كل يوم لها سعر ..

ولا أعرف أى جوانب هذا الرجل الذى أنهى ، هي التى تتحدث إلينا .

إنه « آخر نفس » في سيجارة شربها الوطنية في الفلبين ..

إنه تمثال نصفي صنعته السيول البركانية ضد الإسبان ..

إنه كومة من أشرطة مسجلة .. لا يعرف سرعة الجهاز الذى سجلت عليه .

سألته وأنا لا أتوقع جواباً : هل من الممكن أن أرى بعض صفحات مذكراتك .. هل من الممكن أن يترجم لنا ابن سيادتك صفحة أو صفحتين ؟

وعاد النقاش بينهما وبدا لنا أنها لم يتتفقا على شيء .. وجاء كلام ابن يوسف كأنها مفاجأة ، وأنه يحتاج إلى وقت طويل ليتفضل التراب عن هذه المذكرات ..

وسأله : إن كان قد سمع شيئاً عن عربي باشا ..

وطبعاً لا يعرفه كما أن أحداً لا يعرف عن هذا الرجل الذى نصفه صيني ونصفه فليبي ..

وسأله إن كان يعرف بلادنا . فاهتز في مقعده . واحتبس في داخله المعلومات أو الانفعالات وارتقت إلى وجهه حمرة خفيفة كالتي تجدتها في واجهة جهاز الراديو قبل أن ينطلق .. ونطق الابن وقال : طبعاً .

أما الذي قاله بعد ذلك فتستطيع أن تخمن ما سيقوله رجل إذا رفع يديه
إلى أعلى وأشار بثلاث أصابع .. الأهرامات طبعاً ..

ولو وضع يده على أنفه وضغط قليلاً . لفهمت أنه يتحدث عن أبي الهول ..
ولو زحف على الأرض ، لفهمت أنه يتحدث عن التمساح التي تسحب في
شوارعنا .. فالرجل من مواليد نصف القرن التاسع عشر !

ولم يضايقني أنه لا يعرف إلا الأهرامات .. وكان يضايقني أكثر لو
دبّت الحياة في يديه وتحدث عن التمساح فعلاً ! ولو تحولت أمواج النيل إلى
تماسين فإنها لن تبلغ عدد التمساح التي تحرس شواطئ الملايو وأندونيسيا والفلبين !
ورأيت لمعاناً خفيفاً في عيني الرجل .. وأصبحت عيناه نيشانين حديدين
أضيقاً إلى النياشين التي علقها على صدره . قلت له ، وأنا أراه لوحّةً أصلية وأن
ابنه لوحّةً تقليد : هل كانت لك غراميات فليس بالحديد والنار يعيش الإنسان ؟

فقال وهو مصمم على الضحك : مرّة واحدة ..
وكطفل صغير نظر إلى ابنه .
فقلت له : ولم تزوجها طبعاً ؟
فهز رأسه بما معناه نعم ..

وأضاف ابنه أن لوالده غراميات أخرى كثيرة . ولكن الحرب والسياسة
حرمته من الحب ، عوضته عن ذلك بحب الناس ..
ولم أسأله طبعاً أين هو حب الناس ..

فنيدري ربما كان نصيبي هو من احترام الناس وحبهم أكثر مما يستحق .
فحب الناس هذا ليس أبداً ، ولا شيء أبداً ، وعند الناس من المشاغل والهموم
والمعارك اليومية ما يشغلهم عن غيرهم وعن أنفسهم .. فكل واحد مشغول بالنجاة
فقط .. بالنجاة من الفقر والمرض والنسيان .. وهم لكي يعيشوا يجب أن ينسوا .
ولكي يعيشوا يجب أن يذوسوا غيرهم أيّاً كان هذا الغير .. وهو – هذا الرجل –
يعيش في قصر ، أو يموت في قصر ، وملائين غيره ينامون على الأرض .. يعيشون
على الأرصفة .. ويحلمون بأن يموتون على أرصفة ألطاف .

وبهذه المعانى خرجت وأنا أرى أنه أخذ ما يستحق .. وأنه في هذه السن ، لا يطمع في أكثر من أن يتمدد في انتظار السائق إياه .. ذلك الذى يجىء مرة واحدة .. وبعد زيارته لا شيء .. وهذه عبارته هو ، وعبارة كل الناس في هذه السن ..

وفي هذه السيارة شعرت بأننى أحسن حالا ..

وقد استعرت هذا الإحساس من السائق الذى رأى في زيارتنا لهذا الزعيم القديم أهمية خاصة لنا .. والذى لابد أن يكون قد استنتاج من تكرار كلمات : سينما .. وفيلم .. وهو ليلود .. إمكى مخرج أو مؤلف وأنتا جتنا لعمل كبير عن حياة هذا الرجل ، وأنه من الممكن أن تستفيد من خبرة هذا السائق في قيادة السيارة في الظلام .. وفي اللف من حرارة إلى حرارة دون أن يصطدم بسيارة أخرى .. ثم إخلاصه في حراستنا .. للدرجة أن واحداً منا لم يمت !

وعندما وقفت بنا السيارة أمام الفندق ، والساائق لا يقدر مدى سعادتي ولا سببها ، لمست بيدي خده فابتسم ، وأخرجت قلمي لأعرف اسمه فضحك ، وعنوانه لأرى الدموع في عينيه ثم قلت له شيئاً لم يكن يتوقعه :

هل تعرف أن وجهك يصلح للشاشة !

ثم حدثت نهاية سينائية ..

لقد تقدم أحد رجال البوليس واعتقل هذا السائق .. فقد ارتكب جريمة قتل في الصباح ، ثم هرب بنا إلى الريف .
مسكين .. إنه لم يكن ينظر في المرأة ليرانا وإنما كان يتطلع إلى رجال البوليس !

مطلوب كلب بارى !

كان الفيلسوف الألماني نيتше يقول : عش في خطر !

وكان ينصح الناس بأن يعيشوا عند قم البراكين التي تهتز وترتجف .. استعداداً لسيول ملتهبة وسحب من الدخان .. وبرق يتتحول إلى كراييج والعة نار .. ورعد يتتحول إلى تكسير وتحطيم .. ويموت الناس في قبور مشتعلة !

والنتيجة : الموت المؤكد ..

واللذة : هي أن يشعر الإنسان ولو لحظة واحدة أنه معلق بين الحياة والموت .. وأنه يكون قد اختار المكان والطريقة التي يموت بها . ومعنى ذلك أن الإنسان يكون له رأى في نهاية حياته .. وبذلك لا يظل الإنسان في حالة انتظار دائم للنهاية .. فإذا عاش على قمة البراكين ، فهو يعلم مقدماً أنه سيموت .. ويعلم مقدماً كيف سيموت !

وركوب البحر خطر .. والطائرة خطر .. والمشاركة في الحياة العامة خطر .. وكل شيء في الدنيا خطر .. فكأن الحياة نفسها نوع من الخطورة والمخاطرة .. وفي هذه الحالة أجد لعبارة نيتše معنى !

ولكن الذي أراه في الفلبين هو نوع من الخطورة لا معنى له . ولنست فيه أية لذة ، ولا هي فلسفة !

• • •

ولابد أن أعود إلى الكلام عن التاكسبيات .. فهى الخطير الذى يجرى على عجل !

فأى شارع أمشى فيه تلتف التاكسيات حولي .. وتتزاحم .. وكل واحد يفتح الباب ويقول كلاماً لا أعرفه .. وكل واحد يتقدم بورقة . وعن قرب وجدت أن الورقة بها أسماء فتيات وأرقام تليفونات .. وأول الأمر كنت أظن أن هذه أرقام تليفونات .. ولكن عندما اقتربت أكثر عرفت أنها أعمار الفتيات ..
وأحياناً يكررون كلمة : مستيسا ! ؟ مستيسا ! ؟

وهذه الكلمة معناها « خليط » . . أى أن الفتاة التي يعرضها من أصل إسباني .. أى أنها جميلة . والفتاة الخليط من الإسباني والفلبيني تعتبر جميلة . يمكن أن ملامحها أوروبية وأن لونها ليس أسمر أصفر .. وإنما لونها أقرب إلى البياض وعيتها ملونتان ..

وفي هذه المنطقة من العالم ينظرون إلى ذوات اللون الفاتحة على أنهن من جنس آخر لأنها من لون ومن سلالة الناس الذين حكموا هذه البلاد . وكان الحال عندنا في مصر أيام حكم الأتراك .. فالفتاة التركية الشقراء .. هي ست البنات .. وأعتقد أن الفتاة السمراء في كل الدنيا هي التي تكسب في آية مبارزة للبهال .. فالرجال يفضلونها سمراء ، والنساء يفضلنها أسمر أيضاً !

أذكر أنني دعيت للعشاء في أحد البيوت هنا وتوقت أن أرى مرحاً أكثر مما رأيت ولكن الذي رأيته هو شيء في غاية الاحتشام ، وسألت إن كان وجودي هو الذي حول البيت إلى كنيسة كثيبة .. وقالوا لي : أبداً .. إننا عادة هكذا .. فسألت : إن كان المقصود بالعادة هكذا هو هذا البيت فقط . أو كل بيوت مدينة مانيلا .

قالوا : هذا البيت فقط ..

حاولت أن أعرف إن كان هناك أى سبب خاص لهذا الاحتشام الذي يميل إلى الحزن مع بعض الابتسamas المكتومة ..

فقد ارتدى معظم السيدات فساتين بيضاء مطرزة من فوق الصدر واليالقات والأكمام ومعظم الرجال ارتدوا القمصان المطرزة أيضاً . وهذا هو اللبس القومي . وقد وضعت النساء وروداً في شعورهن .. معظم الورود كانت على جانب من الوجه ويبعد أن المرأة حريصة على أن ترى منها جانباً واحداً من الوجه .. كأنها

تريد أن تقول عن نفسها إنها صريحة .. لأن لها وجهًا واحدًا فقط !

لم أجد في الأطعمة التي أماني أي شيء غريب فيها عدا الأرض . فله رائحة غريبة ، وهو مخلوط ببعض البهارات التي تجعل له طعمًا حريفاً .. وإلا حرص أصحاب البيت على أن « يعزموا ». والله تأكل هذه .. والله تأكل هذه القطعة من اللحم .. واللحم عادة يكون صغيراً مثل قوالب السكر !

وبعد أن تناولت الغداء أو صلوبي إلى الباب الخارجي مع التحيات والسلامات وتركوني وحدي أبحث عن تاكسي . وهم جميعاً يعلمون خطورة ركوب أي تاكسي . ومر تاكسي، ووراءه آخر . . وثالث . . وينفتح الباب وكل واحد يدعوني إلى الركوب منه وأنا أرفض .. أو أعتذر أو أتصنع عدم الاهتمام . وأخرج من جيبي المفاتيح أوهم هؤلاء السائقين بأنني من أصحاب السيارات التي لا يملكون إلا الأثرياء جداً هنا ..

وعند ناصية أحد الشوارع توقفت سيارة .. وكان السائق رجلاً أبيض .. ويدو أنه أمريكي .. وسألني : هل تعرف أين توجد سفارة مصر ؟ فقلت بشيء من السعادة لأنني وجدت من يوصلني إليها مجاناً وفي أمان : أنا مصرى ..

واندهش الرجل الأمريكي هو وزميله الذي يركب معه وقال : إذن أنا سعيد الحظ جداً .. سعيد جداً ..

وكنت لا أعرف مكان السفارة إلا إذا كنت بالقرب من الفندق . فطلبت إليه أن يتجه إلى الفندق ، وف الشارع المجاور إلى الفندق انطلقت السيارة وبعد مئات الأمتار وقفت أمام باب السفارة وصعدنا الدرج .. الدور الأول به دكاكين . الدور الثاني يسكنه قنصل لبنان . الدور الثالث على الشمال توجد شقة السفارة . ودخلت ومعي اثنان من جنود الطيران الأمريكي يرتدان مقابلة السفير لأمر خاص . ويؤكدان أنه هام أيضاً ..

وتطوعت أن أؤدي لهم آلية خدمة ..

ولكن الأمر هام وخاص ولا بد من مقابلة السفير .. وبعد أن عرفوا أن السفير مشغول جداً . وافقا على أن يتحدثا في الأمر الهام إلى الملحق الثقافي ..

أما الأمر فهو أن أحدهما لديه مشكلة وقد تعب في حلها . والمشكلة هي أن لديه « كلبة » من النوع البلدي . وقد اشتري هذه الكلبة من سان فرانسيسكو وقد طارت معه هذه الكلبة إلى اليابان وإلى كوريا .. وقد نقل هو الآن إلى الفلبين لمدة ستة أشهر ..

وهو يريد أن يعرف إن كان من السهل أن يجد كلباً ذكراً من نفس النوع لأنه هو شخصياً قد تعب في البحث عن كلب بلدي . وقد اتصل بتجار الكلاب في سان فرانسيسكو وقد وعدهم بعضهم . ونشر إعلاناً في إحدى مجلات الكلاب في أمريكا – التي عددها ٣٧٥ مجلة – يطلب هذا النوع من الكلاب ثم فقد الأمل أخيراً .

ويطلب من السفاره أن تعاونه في معرفة بعض الأمور الخاصة بهذا النوع من الكلاب . كم يبلغ وزنها عندما تصل إلى سن معينة .. كم تعيش .. هل تزيد سرعتها عن كذا متراً في الثانية .. ويقول إنه قاس سرعة هذه الكلبة فوجدها كذا . ويريد أن يعرف إن كانت هذه أقصى سرعة لها أو أنه يمكن أن تزيد السرعة عن ذلك .. وهل تعلو أكثر أو أن هذه الدرجة من العلو هي الحد الأقصى ..

وفي جيده نوته صغيرة مكتوب فيها جهة تاريخ ميلاد الكلبة وثمنها وزنها وكل ما يظهر عليها من أعراض الصحة والمرض .. ومقاييس سرعتها .. إلخ . إلخ .. وأنت تستطيع الآن أن تخيل دهشتنا جميعاً ونحن نسمع رجلاً جاداً وفي اهتمام شديد جداً .. ثم هو يتحدث عن إحدى الكلاب البلدية .. واحدة من الكلاب التي يجمعها السماوى – أي الرجل الذي يسم الكلاب – في أوائل الصيف . ثم تجد نفسك عاجزاً عن مساعدته . فلا أحد يعرف أية معلومات عن هذا النوع من الكلاب ولا عن أية أنواع أخرى .

وعندما طلب منا هذا الرجل أسماء بعض الكتب الخاصة بالكلاب .. وإن كان يوجد في السفاره كتاب واحد أو مجلة واحدة . طبعاً لم يجد لاكتاباً ولا مجلة ولا أحد سمع عن كتاب أو مجلة .

، وعلى سبيل التخلص منه أعطيناه عنوان قسم الحيوان بكلية زراعة جامعة القاهرة . ولابد أن القسم قد تلقى خطابات من هذا الطيار الأمريكي وبها صورته

مع الكلبة البلدية . ولم يلتقط ردآ !

ولا يزال موظفو السفارة يتوارثون هذه النكتة !

وعندما رويت هذه الحادثة لعضو مجلس شيوخ جاء إلى مصر كثيراً ضحلاً ليروى لـ حادثة أغرب . قال إن أحد الأميركيان من جنود البحرية أقام عدة أسابيع في إحدى الجزر الثانية .. نصب هناك خيمة وحمل معه طعامه وألات تصوير . وعاد ليعرض على الدولة شراء شيء نادر جداً . فقد تمكّن من اصطياد نوع من الخفافيش النادرة .. إنها ملونة ويصدر عنها صوت يشبه الجرس .

وطلب الأميركي ثمناً لهذا الوطواط بضعة ألف من الجنيهات ..

وأصيب الناس بذهول .. وما قيمة وطواط .. إن في كل بيت في الفلبين واحداً على الأقل .. ولا يلتفت الناس أبداً إلى لونها أو صوتها وكل ما يفكرون فيه هو كيف يتخلصون منها .. خصوصاً وأن هناك بعض الوطايط لا ترى في الليل ، فهي تصطدم بوجوه الناس أو كثيراً ما أسالت دماءهم .

وسافر هذا البحار إلى أمريكا .. وبعد ثلاثة شهور عاد لتنشر الصحف أنه باع هذا الوطواط بالبلغ الذي أراده ، وأنه فاز بميدالية ذهبية من إحدى الجمعيات العلمية في أمريكا !

• • •

وقبل أن أودع الفلبين ، هذه الجزر السابقة في الدفء والرطوبة والتي تعلو وتبهض عددها ويتناقص في كل يوم مع المد والجزر . ذهبت إلى مطعم في أقصى المدينة . والمطعم قد اتخذ مكانه على شاطئ بحيرة بركانية .. والبحيرة كانت فوق بر كان خامد .. وكل البراكين هنا خامدة .. والسلام بركانية أيضاً ومصنوعة من سائل كان مشتعلماً من مئات السنين .. والمناضد مصفوفة .. والجو منعش جداً .. وينذر بقليل من المطر فتحعن على خط عرض ١٥ شمالاً .. والمدوء لا نظير له إلا في مناطق الجبال .. هدوء ساحر ناعم كالذي أحسست به في منطقة كاندي في سيلان ومنطقة ميسوري في الهند والذي أحسست به في كانبرا بأستراليا .. وفي جبال الألب في أوروبا .. الجو هنا لا ينقل الصوت . لا أعرف .. إن الهواء

يُمتص الصوت ويقتل الصدى في لحظة مولده .. يجيء الجرسون ويروح ونحن لا نسمعه كأنه طيف .. كأنه شبح .. ويقدم لنا الطعام وينسحب شاكرا .. أو ينسحب مشكورا ..

والأيدي تشير إلى الجزر التي أمامنا .. إنها جزر صغيرة لونها أميل إلى السواد وهي ملفوفة في غلالة من الضباب الأبيض .. وأحشاء المحيط واضحة .. إن هذه الجزر لم تكن هنا أمس ، لقد انكسر ماء المحيط نهارا . فظهرت هذه الجزر . وفي الليل عندما يطلع القمر يسحب معه ماء المحيط .. فيدفن بغلالة داكنة كل هذه الجزر الصغيرة .. ومع ذلك فهذه الجزر التي تقب وتغطس ، ليست ضمن السبعة آلاف جزيرة التي اسمها: الفلبين .

* * *

وعلى فكرة .. أهل الفلبين يسمون مدينة مانيلا باسم : جوهرة المحيط !
وهي بالفعل جوهرة ولكن في الوحل ..

أما الجزرية التي أستعد الآن للسفر إليها فهي بالفعل جوهرة ..
وستعرف حالا أن هناك نوعاً من الوحل .. ولكن هذا الوحل في داخل الجزرية
وليس حولها .. ولكن أكون صادقاً أقول لك هي الأخرى جوهرة في الوحل.
وجوهرة فيها وحل !

.. فإن جزيرة هونج كونج ..



● لؤلؤة البخار !

كأن الطائرة وهي تهوم فوق هونج كونج غسلة ترتفع على لوحة جميلة معلقة فوق حائط من الزجاج الأزرق ..

كأن العمارات الطويلة الرفيعة الحمراء والصفراء والبيضاء مصنوعة من العملات الذهبية والفضية والتحاسية قد وضعها بعضها فوق بعض ملايين التجار المهرجين ، فلما سمعوا صوت الطائرة هربوا إلى الغابات والجبال ..

كأن الميناء ، هذه الفتاة التي تفصل بين طرف هذه المستعمرة البريطانية شق في فستان لفتاة ، والفستان من اللبني المشجر بالأحمر ، والمغطى باللؤلؤ ..

وكأن هذه الزوارق الصغيرة ، وهي تروح وتبكي رأت الكثير مما تحت فستان الفتاة الحلوة ، فانكسفت وأخفت رأسها في الماء ، فلم تعد ترى إلا ساقياها الملتصقتين ، وما جميـلـاتـان .. وبالبعـعـمـ الحمراء الصغيرة التي تراها من بعيد ليست إلا أظافرها المصبوغة بدماء الناس .. وستكون أنت واحداً منهم !

كأن الناس والسيارات والعربات وهي تجري بين العمارات الفاتنة ، جيوش نمل ترتفع على ملايين من قطع الجاتوه والملبس ..

كأن جزيرة هونج كونج سيدة جميلة وضعت الأبيض والأحمر ، ووضعت عقوداً وخواتم وأقراطامن اللؤلؤو جلست على بساط أحضر .. متربعة كأنها شهرزاد تروي قصة ألف ليلة للملك شهريار ..

وليس هناك شهريار سواك .. فهنا ألف شهريار وشهريار .. ولا توجد إلا

شهرزاد واحدة.. في انتظارك دائماً .. انتظار رؤيتك لكي تلقى لها بمحفظتك التي
امتلاطت بالمال عند ست الحسن والجمال، مملكة البحار والمحيطات : هونج كونج ..
وكأنها .. وكأنها .. ليست هناك طريقة أخرى للحديث عنها إلا بهذا الشكل ..
ولكن ما هي؟ ماجماعها؟ ماسيرها؟ هي أروع من أي كلام .. ومن أي « كان »
وليست كلمة « كان » إلا محاولة لوضع منظار أسود على أي تعبير قبل أن
يتحقق في جمالها ..

ليست كلمة « كان » إلا عكازاً تتواء عليه المعانى وهي تقطع المسافة الطويلة
بين الخيال وبينها ..

ليست « كان » إلا نوعاً من الفلتر تضعه في محلك للوقاية من أنفاس هونج
كونج ..

ليست « كان » إلا نوعاً من الباطل الأبيض الذي يقييك من الإشعاعات
الذرية وأنت تقترب من هونج كونج .. أي إشعاع أروع وأجمل من أن تكون
حراً وأن تكون قادرآً على السعادة .. إسعاد نفسك وغيرك .. وبلا خوف ..
أروع ما في الدنيا أن تكون بلا خوف !

* * *

وفي مطار هونج كونج حملت حقائبى . وناديت إحدى سيارات التاكسي
وقلت للسائق : فندق أستور من فضلك !

وانطلق السائق . وطال الطريق . الهواء منعش لمدة أربعة كيلو مترات .
العمارات جميلة عن قرب أيضاً . الجبل يخضن العمارات كأنه « دادة » زنجية
كبيرة الصدر ، ممثلة الساقين ، ولها كرش .. ولكن يبدو أنها طيبة .. فهى لم
تضربنى بالطوب عندما أقترب من كرsha ..

بدأت أسأل السائق عن الشوارع . وأنا في الحقيقة أريد أن أعرف منه أجرة
التاكسي . فالعداد يطلع وينزل بسرعة . والأرقام أمامى بالدولارات . وعندما أشار
العداد إلى رقم ٨ وقف السيارة أمام أحد الفنادق وتقدم اثنان من الشياليين . وحملوا
الحقائب التي تعودت أن أحملها وحدى فهى لا تزيد عن ١٨ كيلو .. وكانت
قبل ذلك ٢٣ كيلو ، وفي نبى أن أجعلها ١٥ فقط . فلست في حاجة إلى أحذنني

ورأى بعبارات مفهومة ، وصعدنا الدورين الأول والثاني ، وعلى اليسار وإلى جوار الحمام العمومي انفتح باب . ووجدت على السرير قطة وأولادها . ومن غير أية مناسبة كشرت وعدت إلى الدور الأرضي وتركت حقائبها ، وانطلق الناس ورأى سألون عن السبب طبعاً . السبب واضح وهو أن الغرفة رديئة جداً . وقلت لهم :
— إننا في بلادنا نتشاءم جداً من القطة ، وهذه القطة ستدفعني إلى السفر الليلة من هنا الآن . اتركتوني . تاكسي للمطار يا أسطى .

أما المطار المزعوم فكان فندقاً آخر قررت أن أنزل فيه بأى ثمن . وكان الثمن ٣٦ شلنَا . غرفتي أول غرفة في الفندق كلها ولها مزايا . أولاً : ليس فيها جرس ، ولكن الباب أفتحه بصعوبة ، فإذا انفتح الباب أحذث صوتاً يوقظ الخادم الذي يخشى أن يتحطم زجاج الباب والنافذة فينطلق نحوبي فأقول له :
— واحد شاي من فضلك .

وعندما يحضر الشاي أتجه إلى الباب وأشده نحوبي فيصرخ الباب والخادم فأقول له :

— أمال فين الجرايد يا أخي ! وبعدين وياك أنت والباب بي .

وثانيةً : إن عمليات الفسل والكنس تبدأ في الساعة الثامنة ومن الدور الخامس إلى الدور الأول ، فالشاي والجرايد لن تصلني إلا في العاشرة والنصف بعد أن أكون فرغت من الاستماع إلى نشرات الأخبار وكتابة بعض المذكرات ..

وثالثاً : فإنني أطل من نافذتي على فندق « أستور » الذي لم تصله برقية بعد ٢٤ ساعة من إرسالها . وأضع يدي على خدي وأنحسر على مقالاتي التي بعضها في خطابات لا في تلغرافات ، وهل تصل ، وأضرب رأسى في النافذة !

عندما كنت في جزيرة سنغافورة تصورت في ذلك الوقت أن سنغافورة هي أرخص بلد في الدنيا . والحقيقة أن هناك بلدة أخرى أرخص منها وأجمل منها جداً . ولا تزال مستعمرة بريطانية . تسكنها أغلبية من أبناء الصين . وهي ميناء حر مثلها تماماً . واسمها هونج كونج . طبعاً حصل عندك تنهد شديد . أنا أعتذر . فقد تنهدت قبل ذلك كثيراً . والآن انته لأنني سأتركها بعد أيام وأصبح مثلك بعيداً عنها .

أرجو أن يكون معلوماً أن الراديو الصغير وهو الموضة في كل الدنيا ، في الهند وأندونيسيا والفلبين واستراليا ثم لا يزيد على خمسة جنيهات بأى حال ، ثم هناك راديو صغير ببطارية وفيه بيك آب للأسطوانات العادية وهذا الراديو الجديد ثمنه ١٢ جنيهاً ، وهنا راديو على شكل قلم باركر وحجمه لا يزيد عن « قلمين باركر » متجاورين وصوته قوى جداً وثمنه سبعة جنيهات .

ولكن أذكر هنا أسعار الحرير والروائح ، فهي أرخص من سنغافورة وأرخص من أسعار ميناء عدن أيضاً ..

واكفي هنا بذكر التلؤ . . إنهم يشترون التلؤ . . من اليابان ، وهو في اليابان رخيص . ولكتنه هنا في هونج كونج أرخص ، . فطاقم التلؤ : حلق وخاتم وعقد ، ومن أى لون لا يزيد على ١٦ جنيهاً .

وأشياء كثيرة جداً بالنسبة للسيدات لا يمكن أن تجد أرخص منها ، ومع ذلك فلا بد من المساومة ، ومع المساومة تنزل كل الأسعار . والبدل الرجالى مثلما يمكن تفصيل البدلة في ٢٤ ساعة . . والبدلة الصوف من الإنجليزى ثمنها ١٢ جنيهاً . وقد اشتري هذه البدلة وبهذا السعر وفي هذا الوقت كثير ون جداً من العرب الذين قابلتهم . .

وفي استطاعتك أن توصى أى محل هنا أن يرسل لك أية سلعة على أن تدفع ثمنها عند التسليم . . وأكثر من هذا في استطاعتك أن تشتري أية سلعة وأن تترك للمحل أن يشحنها لك في أى مكان في العالم . . وستصلك قطعاً لأنتم هنا أمناء جداً ..

فالأمانة من أهم خصائص المجتمع التجارى . لا تنس أننا زراعيون وأخلاقنا زراعية يعني فلاحين !

• • •

دخلت أحد الحال بقصد الفرجة . . وأعجبتني ولاعة سجاير يابانية ، هي عبارة عن ساعة صغيرة ومعها قلم حبر جاف ولا يزيد على أصابعين في يد فتاة

صينية ، ولم أكملها حتى أقرب من البائع وقال لـ : عاجبك ..
فهزت رأسى فقال : ثمنها جنيهان .

قلت : ياه غالبة كده ليه ؟

فقطاعنى قائلًا : أخفض لك ثمنها يرضيك جنيه ونصف .

قلت : غالى برضه .

قال البائع : أعطيك الولاعة هدية إذا وعدتني بشراء ولاعة أخرى .

قلت : آسف . غدا ستكون معى فلوس ..

قال : ما يهمش ، إدينى عنوانك وأنا أبعثها لك ، ثمنها علشان خاطرك بجنبه .

وخرجت ساكتاً واجماً ومررت على محل آخر فوجدت نفس الولاعة بتسعين

قرشاً . فأنا لو كنت في القاهرة وقرأت هذا الكلام لتضيق جدًا وقلت في

نفسى :

آدى حال الدنيا ، يعطى الحلق لى بلا ودان ، يعني واحد لا يعرف يشتري ولا يعرف يأكل ولا يشرب ولا يلبس وليس له مزاج في أن يشتري أى حاجة من العجائب اللي بيشفوها دى ، وواجع دماغنا فيها ، ده يسافر ويروح هونج كونج وأنا هنا بي مش كنت أسافر بداله ، والله ظلم .

وأنا شاعر بهذا الظلم . . . أكثر منك .

* * *

على باب غرفتي موجودة هذه التعليمات :

هذه الغرفة شخصية . يعني لا يقيم فيها إلا شخص واحد . . وإذا ظهر أن هناك أى إنسان فالفندق سيقاضيه المثل فوراً .

حضرات الضيوف — رجالاً ونساء — نرجوهم أن يسجلوا أسماءهم في دفتر الزيارات . .

إذا كان في نيتك أن تترك الفندق فيجب أن يكون ذلك قبل الساعة الثانية عشرة ظهراً . . أما بعدها بدقيقة فسيضطر الفندق إلى احتساب اليوم عليك .

الفندق غير مسئول عن ضياع أموالك أو الأشياء الثمينة التي تحتفظ بها أو إصابة أمتعتك بأى تلف . . وإذا كانت لديك أمتعة هامة ، فاعطها من

فضلك للإدارة . ويجب أن تأخذ وصلاً بالتسليم ، ويجب أن يكون الوصل مكتوباً على الآلة الكاتبة المعترف بها قانوناً .

الدعارة ممنوعة . والقمار ممنوع . والتزيف ممنوع .

اقفل الباب وراءك من فضلك .

من حق اللوكاندة تطبيق هذه القواعد دون إخطارك .

الحساب كل ثلاثة أيام .

* * *

واسم هذه اللوكاندة هو لوكاندة « كارنفون » وهو الرجل الذي اكتشف مقبرة توت عنخ آمون ولدغته إحدى الحشرات ، ويقال إنه مات بسيبها . ويقال إن لعنة الفراعنة التي أصابته ، أصابت أولاده وأحفاده واحداً بعد واحد ..

وأعتقد أن لعنة الفراعنة أن يقيم أي إنسان في هذا الفندق ..

هذا رأي .. وأرجو أن يكون هذا أيضاً هو رأي الفراعنة .

وقد أذهلني منظر الناس whom يمشون وقد أحناوا رءوسهم كأنهم حانوتية ..

وكأنني أنا المرحوم ..

* * *

وكنت أتخيل أن كل الناس في هونج كونج يلبسون بدلاً من الشاركسكين الأبيض ، وفي أيديهم ساعات أو ميجا ذهبية . وفي جيوبهم راديوهات صغيرة ، وفي أقدامهم أحذية إنجليزية ، ويدخنون السجائر الأمريكية . ولما افتح باب الطائرة ورأيت أنساناً كأني أعرفهم من قبل .. كأنني رأيتهم في الهند وأندونيسيا والفلبين ، أنساناً قصار القامة صفر اللون وعيونهم بياضها شديد وسوادها أشد .. وبالبيجامات .. كأنهم أعقاب سجائر .. ووجوههم كالماء كالنحاس .. وأيديهم تتمدد لحمل الحقائب .. وكلمة ياسيدى تتردد مئات المرات ، وأول مرة سمعتها في هونج كونج كانت هامسة خجولاً للدرجة أنى تخيلت أنها صادرة منى . ولكن تأكيدت أكثر من مرة أنها كانت موجهة لي ..

وعرفت بعد ذلك أن هذا هو حال المدينة .. فقيها ذهب ، وفيها أناس في لون الذهب .. وفيها أغنياء جداً وفيها فقراء جداً . وفيها ناطحات للسحاب

وفيها ناطحون للأرض .

المطار اسمه كاي تاك .. يبعد عن المدينة أربعة كيلومترات ..

ومعنى هونج كونج : شذى الورد .. أو الهواء المعطر .. أعرف بأى
شيء كان الهواء معطرًا هنا من مئات السنين !

ولكنه الاسم .. وقد يملاً قال شكسبير في مسرحيته روميو وجولييت : وماذا
ف اسم ! ..
طبعاً ولا حاجة !

• • •

والذى لا يعرفه الكثيرون أن هونج كونج لها عاصمة اسمها فيكتوريا وأن
هونج كونج اسم يطلقونه الآن على الجزيرة وعلى مساحة أخرى من الأرض تبلغ
عشرة أمثال جزيرة هونج كونج . فهناك في مواجهة هونج كونج توجد شبه
جزيرة اسمها « كولون » ومساحتها ٣٦٥ كيلومتراً مربعاً .. وكولون هذه فيها كل
المصانع ومراسي السفن .. ووراءها مساحة من الأرض السهلة يعيش فيها عدد
من الصينيين حياتهم الفطرية .. يزرعون الأرض كما زرعها أبناء الصين
من ألف السنين .. ويأكلون الأرض ويبيعونه .. ويصدرون السمك .. وبعضهم
يملك جاموسة وبعض الدواجن . ولكنهم مشغولون بالأرض عن العالم الذي يضيق
بأحدث الآلات .. ولا يسمعون رنين المال في كولون أو في هونج كونج ..

و هونج كونج مستعمرة بريطانية منذ سنة ١٨٤١ فقد كانت بريطانيا تتجه
مع الولايات الصينية الجنوبيّة .. ولكن الصينيين طردوا البريطانيين في معارك
متالية معروفة باسم حرب الأفيون (١٨٤٠ - ١٨٤٢) . فقد كان البريطانيون
يحملون صناديق الأفيون من الهند ويباعونها للصين حتى أدمى الشعب الصيني
تعاطي المخدرات القاتلة .. وبلغ عدد صناديق الأفيون التي صدرتها بريطانيا
إلى الصين في سنة ١٨٩٨ حوالي ٤٠ ألف صندوق !

ولكن أحد ملوك الصين قاوم السُّمْ وجمع كل ما يملكه التجار وأحرقه وهدد
بإعدام كل من يبيعه أو ينقله أو يتعاطاه .. وانسحبت إنجلترا واستولت على هونج
كونج .. بما يشبه القوة أو بالقوة .. وأغرِّبَ من ذلك فلنها طلبت من الصين بعد

ذلك قطعة أخرى من الأرض لتحمي هذه الجزيرة ، ووافقت الصين ، فاقطعت بريطانيا من أرض الصين المنطقة المواجهة لجزيرة كونج كونج وهي منطقة كولون. وكولون معناها العفاريت التسعة ، واستأجرت بريطانيا هذه الأرض لمدة ٩٩ عاماً بدأت سنة ١٨٩٨ وبعد ذلك أضافت إليها مساحة أخرى تبلغ ٣٠٠ كيلومتر مربع .

• • •

وهونج كونج ميناء حر .. يعني البضائع تدخله وتخرج منه بلا ضرائب . الدخول بلا أي ضرائب .. والخروج بضرائب تافهة جداً .. وفي استطاعتك أن تدخل فيه بأية عملة وأن تخرج بأية عملة .. وبأية كمية .. إنهم في الجمارك يسألونك إن كانت معك سيجائر .. فقط .. وإن كانت هذه السجائر تزيد على ٢٠٠ سيجارة . أسئلة شكلية من أولاها لآخرها .. الوحيد الذي فتشوه في ثلاثة أيام بين ألف مسافر هو شاب عربي نحيف جداً .. ولا أحد يعرف السبب وقيل لنا في ذلك الوقت .. إنه نحيف شاحب .. وربما اعتقادوا أنه من أبناء الصين الشعبية !

أهل هذه الجزيرة فيهم ٩٩٪ من الصينيين . والباقي يتسبون إلى ٥٥ دولة أخرى . وعدد سكان الجزيرة الآن حوالي ثلاثة ملايين .. وكل يوم يهرب من الصين الشعبية بعض الناس .. والإنجليز يشددون الحراسة على هذه الجزيرة لأنهم يخشون من تضخم عددها برغم ضيقها وصغرها . ولكن إذا جئت إلى هذه الجزيرة ورأيت أشكال الناس وكثتهم وتراحمهم صعب عليك أن تفرق بين المقيم وبين اللاجيء .. بين الصيني الأبيض والصيني الأصفر .. والتنتجة أن الناس يتزايدون بالنسل أو بالهرب ..

ومع ذلك فهو نج كونج تعيش على سفوح جبل كبير .. على هامش الجبل .. ولكن هذا الهامش هو أجمل من الجبل وأروع .. إنه مبني على أحدث طراز . إن العمارات تشبه الكتابة الصينية .. فالكتابة الصينية يكتبونها من فوق لتحت .. ولا يكتبونها بالعرض مثل بقية بلاد العالم .. والعمارات هنا طويلة جداً وعلى الأرض ضيقة .. العمارات ثابتة في الصخر .. ولها ألوان زاهية .. وأصحاب هذه العمارات لا يرونها ولا يشعرون بذلكـها . فهم مشغولون بجمع المال في الحال التجارية التي لا عدد لها ..

يكنى أن ترى أى محل تجاري .. أى محل فى أى حى . محل على الطراز الصيني أو على الطراز الأوروبي .. وقد شحن هذا المحل بالسلع بصورة مذهلة . وأنا اختار على سبيل المثال « باائع السجائر » . إنه يبيع كل أنواع السجائر الأمريكية .. العلبة بخمسة قروش .. وإلى جوار السجائر يبيع آلات التصوير وإلى جوارها أجهزة الراديو الصغيرة .. وهناك الأدوية ، وأقمشة صوفية ، وفي الناحية الأخرى من المحل توجد مكتبة لبيع الأقلام الحافة والسائلة ، ثم يوجد حقائب لبيع التفاح الياباني . وعلى الأرض ستة من الأطفال الصغار لأنهم أولاد صاحب المحل .. وصاحب المحل يقف بمجرد ما يمر بجواره أى إنسان .. إنه يشبه الأبواب الآوتوماتيكية التي تفتح بمجرد اقترابك منها .. وأحياناً ينطلق وراءك ويحاول إقناعك بكل الطرق ولا يتعب أبداً ولا ينكسف أبداً .

ومن عدم التعب وقلة الكسوف يتكون التجار الصينيون في كل مكان في الشرق الأقصى !

وشئ آخر هو تفوق الصينيين في التجارة .. إن الرجل الصيني عنده جلد على العمل أكثر من أى إنسان في الدنيا . فالصيني يقبل أى أجر ويقبل الحياة في أية ظروف ..

يقبل أن يكون حيواناً على أمل أن يكون آنساناً في يوم ما ويجعل كل الناس حيوانات ..

إنه على عكس غيره من الناس الذين يحلمون بأن يكونوا ملائكة ويصبحوا بعد ذلك حيوانات .. إن الصيني خطر على أناس كثيرين .. لأنه الآلة الإنسانية التي إذا اشتغلت تعطلت ملايين الأيدي ..

قال لي مليونير أمريكي هنا : إن الرجل الصيني يقبل أى أجر وهذا معناه القضاء على كل البيض عندنا .. لذلك نحن نبعد صغار العمال الصينيين حرضاً على حياة الأوروبيين هنا !

وكثير من أصحاب الملايين الصينيين بدأوا من الأرض .. بدأوا باعة متوجلين .. وكثيرون من الأغنياء الصينيين يؤكدون لي أنه لا يوجد صيني واحد كان يملك مالاً في يوم من الأيام . كلهم بدأوا بصفر ثم تكاثرت الأصفار أمام الواحد منهم .

وهو نج كونج هي خلية من الخل أو النحل .. بل خلية من أناس يروون ويحيطون طول الليل وطول النهار .. والناس هنا يمشون دائمًا .. وإذا رأيت الناس في الساعة الخامسة والنصف وقد خرجو من مكاتبهم ومحلاتهم يخيلي لك أنهم في طريقهم إلى العمل وأنهم لسبب ما تأخروا عن الساعة المحددة .. إنهم لا يعرفون التسكم .. إنهم يعملون .. وهذه الحال المزدحمة تجد فيها أناساً يشتغلون بالإبرة ، لقد رأيت سيدة تبيع للزبائن .. وكلما ابتعد عنها الزبائن ثانية أو دقيقة أمسكت الإبرة وعادت للعمل .. وكان الشاعر الفرنسي فيكتور هيجو يعزو عظمته إلى شيء واحد هو أنه يكتب كل يوم .. وكان شعاره : سطر واحد كل يوم ! ..

وهذه الصينية – وكل صيني – شعار هما غرزة واحدة كل يوم .

إن هناك عدداً كبيراً جداً من النساء الصينيات يقمن بأعمال شاقة كقطع الصخور ودفع الزوارق وبيع الأسماك والفاكهه وكل واحدة تحمل طفلها أو طفلها على ظهرها ولكنها تعمل ليلاً ونهاراً ..

وكل هؤلاء النساء العاملات والخدمات لا يهمهن أبداً رأيك فيهن .. فالعمل دين ، والصينيون متurbanون لديهم .. والدين المعاملة والصينيون يحسنون المعاملة .. ومن معانى المعاملة الفلوس ، والصينيون يبعدون الفلوس ويبحثون عنها من أي طريق ، نعم من «أى» طريق ، وعليك أن تخيل كما تريده كل معانى «أى» هذه .. ومهما فعل الرجل الصيني فهو في الغالب مهذب ..

مثلاً .. ذهبت إلى مطعم وطلبت بعض اللحم المشوى .. المطعم لا يأس به ، فيه موسيقى وجرسونات بنات لهن فساتين مشقوقة .. هذه الفساتين تشبه المياه التي تفصل بين هونج كونج وكولون .. يعني محترم هذا المحل . وأحضرت الفتاة اللحم المشوى .. وحاولت أن أمزق اللحم بالسكين أو بالشوكة .. لم أتمكن ، استعصى اللحم وناديت صاحب المطعم .. أو هو الذي تنبه لمشكلتي فابتسم وأتق بسكين حادة جداً يبدو أنه أعد لها هذه المناسبة التي تتكرر كل يوم .. وفعلا بدأ اللحم ينهر أمام هذه المقصلة .. ولكن المشكلة لم تنحل فأستани ليست حادة كالسكين . فاقترحت على صاحب المطعم أن يأخذ السكين وأن يبحث لي عن ذئب متواحش !

المهم أنه حل المشكلة وأني لى بلحمة مشوية على الآخر .. إنه لا يتوقف .
إنه يبحث عن أى حل .. ولا يتوقف أمام أى شيء .. ولما لم تعجبني هذه
اللحمة فقد أخذ اللحم وأني لى بسمك !

* * *

أدخل أى محل وليكن محل بيع الحفاظات الجلدية مثلا .. سيفجع عليك خمسة
أو ستة من موظفي المخزن ويعرضون لك كل الأنواع . ولديهم كلام حلو يقولونه ..
وهم يستمعون إلى كل ملاحظاتك .. فإذا نجحت وقلت : الشنطة دي مش
بطالة .. بس الإيد بتناعتها كبيرة شوية .. فيرد عليك أحد الباعة في المخزن :
غداً في هذه الساعة نصنع لك شنطة أخرى بالمواصفات التي تريدها .. ما هي
اقر احاتك .. أى حجم وأى لون !

وتحاول أنت أن تهرب بصورة أخرى فتقول : هي الإيد مش كبيرة
قوى .. بس اللون بلدى شوية .

ـ كده .. ليه اللون اللي يعجبك ؟ عندنا خسون لوناً .

فتقول : أنا عاوز لون أحمر على أخضر على أزرق على أصفر والأرضية في
لون البازنجان الحشى .

وتتصور أنت أن هذا يجعل موقفهم مستحيلا .. والمفاجأة هي أن هذا
اللون مصنوع منه فستان صاحبة المخزن وأن المصانع قد صنعت عشرين طقمًا من
هذا اللون كلها شنط وأحذية وخواتم ..
يعنى لابد أن تشتري ..

أذكر أنني ذهبت إلى إحدى المكتبات .. ولم أجد الكتب التي أريدها
وخرجت من المخزن في يدي كيلو قوطة وثلاثة كيلولات من البصل الأخضر !

* * *

ذهبت أمس إلى آخر جزيرة هونج كونج .. فهناك مدينة عائمة .. اسمها
أبردين .. الناس فيها يعيشون في عوامات ! . أقصد في قوارب عائمة .. يعيشون
في هذا الزوارق وعددهم ١٥٠ ألفاً .. زوارق مهدمة قديمة . والشحاذون لهم
زوارق ومن هذه الزوارق تتمدد أيديهم ..

وأيديهم الممدودة والمجاديف التي تلطم وجه الماء وملابسهم السوداء وعيونهم الحزينة ، كلها معاً تصور سيمفونية الفقر وباريات السباق مع الأسماك في زيادة عدد النسل . . ف هذه المنطقة المؤللة توجد مطاعم أنيقة جداً جميلة جداً . . وكل مطعم له زوارق خاصة تنقلك من الشاطئ إلى حيث يوجد المطعم العام . . في الزورق تشد يدك — مع أنك لست في حاجة إلى ذلك — فتاة صينية بالبيجاما أو بالفستان المشقوق وتركب الزورق النظيف الحلو والفتاة تجذب لك حتى تصل إلى المطعم . . وعند سلم المطعم يشد يدك اليسرى جرسون — آسف — يدك اليمنى جرسون . . أما يدك اليسرى فتشدتها فتاة حلوة لها فستان باسم — أى مشقوق — وهي تشده من الناحية اليسرى من ناحية القلب . ويستقبلك ثلاثة جرسونات . . وتنقض لاستقبالك فتاة أخرى لها فستان مشقوق جداً كأنه يقهقه من فوق هذه الساق ومن فوق تلك الساق . . وأحياناً تبدو فتحة الفستان واسعة ومتصلة كأنها شفتا إسحائيل ياسين وقد ظهر من تحتها طاقم أسنان جديد .

وفوق — لأن المطعم العام من طابقين — يستقبلك أربعة آخرؤن ويأخذون يدك رغم أنك أطول وأعرض منهم ، ويأخذونك إلى حيث الأسماك تسبح في قلب زوارق أخرى . . وهناك يقف جرسون يعرض عليك الأسماك التي تريدها . الأسماك حية طبعاً . . ومن المؤكد أن هذه الأسماك لن يطهوها لك وإنما سيقدمون لكأساكاً ماتت منذ أيام . . ولكن في الميضة والاستقبالات يقدمون لك الأطباق الصينية والملائكة الصينية التي تشبه « ليسة » الجزمة عندنا . . وبعد ذلك يقدمون لك شوربة السمك وفيها خضروات هي عبارة عن الغاب الأخضر وبعض البرسيم . ثم شرائح من السمك الذي تتوهم أنك رأيته حياً . وأخيراً ينهضون لتحبتك ويتكرر المنظر السابق كله . . من توديع على الباب لتوديع على السلم لترحب بآخرين . . وبعد أن تستقر على المقعد النظيف في التاكسي — وهو زورق عام — تكتشف حقيقة هامة جداً وهي أن الصينيين لصوص . لقد سرقوا منا حكمة بلدية قديمة ، سرقوها وترجموها حرفيأ وهذا هو عيب الترجمة الحرفية لأى شيء . . أما الحكمة فهي : لا قيني ولا تغدينى ! . .

وقد استقبلوني أحسن استقبال — أما الغذاء فإن الحكمة لم تنص عليه !

• • •

العارات في هونج كونج تلتف حول الجبل . إنها على الشاطئ، أو على السفح والعارات الآت ترتفع على الجبل ، وتظل صاعدة بأشكال مختلفة . . . الأرض هنا ضيقة جداً . ولذلك فالعارضات تقف على حيلها ، إنها لا تمتد على الأرض ، فحيث توجد الأراضي الواسعة يبني الناس الفيلات ذات الحدائق ، كمقر الجديدة ومدينة نصر . وحيث تكون الأرض ضيقة ترتفع المباني إلى أعلى كنيويورك وهو نج كونج وسيدي . بل إن الحال التجارية هنا تستفيد جداً من هذا الصيف . فأنت تجد البائع لا يستطيع أن يضع مكتباً ومقعداً ، ويوضع في المكتب الفلوس . . أبداً إن البائع يعلق الفلوس في السقف . أو يعلق خططاً يشبه سلك الترام وينزل من هذا السلك سنبجة ، وهذه السنبجة فيها محفظة للفلوس . . . وعندما يريد بعض الفكرة يضغط على السنبجة فتنطلق الفلوس إلى الداخل ، وفي الداخل يوجد شخص واقف يفك الفلوس ويعيدها لك . لا يوجد مكان . كل شيء ضيق وممتلئ بالناس . .

لقد رأيت صالون حلقة على الرصيف . والصالون عبارة عن كرسى أنيق جداً ومرأة أنيقة جداً ، كل هذا معلق فوق الحائط ، فمن السهل الحصول على كرسى أنيق لأنه رخيص ، ولكن ليس من السهل الحصول على مكان لهذا الكرسى لأن الأرض غالبة . .

وإذا مشيت في الشارع فستجد الناس كالبضائع ، بعضهم فوق بعض ، أى محل به عشرون طفلاً صغيراً . أى شارع به ألف الأطفال . أشهر شارع في هونج كونج هو شارع الملكة ، والباقي شوارع صغيرة ، والعاصمة اسمها فيكتوريا ولا أحد يعرفها . والمنطقة الأخرى ، أقصد منطقة « كولون » بها شارع هام هو شارع سالسيبرى ، وفيه فندق بتسولا — أى شبه الجزيرة — وشارع آخر اسمه شارع ناتان ، ويتفرع منه شارع اسمه شارع كارنفون ، وبه فندق ، وفيه غرفة يسكنها العربي الوحيد هنا : أنا .

* * *

وتحصل بين طرف المستعمرة زوارق بخارية كبيرة وسريعة . . الدرجة الأولى بعشرين سنتاً — الدولار هنا مائة سنت والدولار هنا يساوى عشرة قروش تقريباً . .

والدرجة الثانية بعشرة سنوات ، وفي الدرجة الثانية لافتات تقول لك « احترس من النشالين » وفي الدرجتين لافتات تقول لك : منوع البصق من فضلك .. وهذه الزوارق دقيقة مضبوطة ، وفيها علامات للنزول والدخول . وتم هذه العملية دون أن يتكلم إنسان . . نظام دقيق وسريع . .
والمسافة بين جانبي المستعمرة حوالي ٧٠٠ متر .

هذه المسافة اسمها ميناء قيكوتوريا الجميل المادئ السمع . . لأن هذا الميناء يقع على القناة وفي حمى الجبال فلا توجد به أمواج بل توجد به زوارق شراعية تروح وتتجوّل في هدوء . . وعندما تهب العاصفة تطبع بهذه الزوارق الصغيرة . . وقد هلك ألف الناس وتحطمت زوارقهم عندما كانت العواصف تهب فيما مضى ، أما الآن فالعواصف لم تعد تخيف أحداً ، فالأرصاد الجوية تعلن عن هبوب العاصفة قبل وصولها بساعات . وفيما مضى كان الناس هنا يتباون بالعواصف عن طريق الفراشات التي كانت تأوي إلى أماكنها وتبيض كثيراً في الليلة التي تسبق العاصفة . . وكان هذه الفراشات طائرات أدركت أنها ستبطأ اضطرارياً إلى الأرض فراحت ترى حمولتها قبل أن تزحف على الأرض .

ومع ذلك بقيت هونج كونج بعيدة عن عواصف الطبيعة وعواصف السياسة أيضاً . وقد فكر تشانج كاي شيك أن يحتل هذا الكنز الذهبي ولكن عدل ، وفكّر الشيوعيون أن يأخذوها ، واحتلها اليابانيون في الحرب الأخيرة بعد أن سقط ميناء برل هاربور ، إحدى مدن ولاية هاواي الأمريكية . . وبعد الحرب طالب أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني بإعطاء هونج كونج للصين الشيوعية . وثارت الجزيرة وهرب الأغنياء منها ، ولكن بريطانياً تمسكت بها . ولا زال . .

والناس هنا يتكلمون الصينية ولغة كانتون وشانغهائى . والصحف التي تصدر هنا عددها سبع . . خمس منها بالصينية والصحفتان الأخريان بالإنجليزية . . . والإذاعات خمس ، إحداها بالإنجليزية والأخريات بالصينية . وليس كل عساكر المرور يضعون شارة حمراء على أكتافهم . فالشارقة الحمراء تدل على أنه يعرف الإنجليزية . .

وهونج كونج هي مدينة المرأة . المدينة التي تدخلها أية امرأة فتشتري الحذاء

ومفتاح السيارة الكاديلاك بأسعار رخيصة جداً . . حتى الفراء هنا ، فراء الثعلب والدب والاسترا كان ، كلها بأسعار أرخص من الانحاد السوفيتي وأمريكا . . وأقلام الروج بسعر أقلام الرصاص عند سور الأزبكية ، وعلب البويرة بسعر كيزان النزرة المشوية على كورنيش النيل . حتى فساتين النساء يمكن تفصيلها وعمل البروفات لها ولبسها في يومين فقط . . وهذا توجد حقائب يد لم أر لها مثيلاً في أي بلد ، لا في استراليا ولا حتى في سنغافورة . . وهذه الحقائب رخيصة جداً . . وهذا توجد أنواع حديثة من حقائب اليد ، بها راديو صغير على هيئة توكة وتوجد ساعة أو مكان ساعة صغيرة ومكان لعبنة سجائر صغيرة ومكان للمفاتيح . . وبالحقيقة فضل لولو ، هدية من محل وثمانية عشرة جنيهًا .

الحقيقة أن نصيب السيدات في مبيعات هونج كونج أكثر من نصيب الرجال فهنا توجد البلوفرات الأورلون والبرلون ، وهي أرخص من استراليا . . لقد رأيت أجمل بلوفرات في استراليا ، فهي بلد الصوف . . هذه البلوفرات تباع هنا أرخص . إن أجمل بلوفر أورلون يساوى هنا جنيهين ونصف جنيه ، وهذا سعر خيالي . لأنه في بريطانيا يصل إلى ثمانية وعشرة جنيهات .

ومنتجات إليزابيث أردن وريفلون وكوتى والاف بات هلينا روبنشتين . . كلها هنا تباع في المقاطف كالفجل والخيار عندنا . ولكن مين يفهم ، ومن يقرأ ومين يكتب - إنى أتحدث هنا عن نفسي !
والحرير الطبيعي الياباني ، المتر منه بخمسين قرشاً . .

وأنساق وأصناف توجع القلب . . هونج كونج هي مدينة النساء ، ويكتفى أن تنظر إلى السيدات لتعرف الأقمشة والبلوزات والجوارب التايرون والأحذية من جلد العصاج وجلد الثعبان . .

وفي هونج كونج ، برغم ذلك شيء هام جداً يعجب السيدات . . فيه « فصال » . . فصال من عشرين لعشرة ، وفيه باعة متهاودون جداً . . وهذا لا يعجب السيدات لأن السيدات يردن البائع الذي « يأخذ ويندى » في الكلام يتحايل عليها وفي النهاية « ينزل » لها قرشاً أو قردين . . والباعة هنا كلامهم كثير ومحاولاتهم أكثر ، وعيدهم أنهم ينخفضون الأسعار بالعشرات .

والمرأة الصينية هنا ، وفي كل مكان ، أنيقة وبسيطة وفستانها مشقوق من الجنب أو الجيدين أو في الظهر أو من الأمام .. وجسمها يتثنى في الفستان وعيناها تنظران من فوق كأنهما تتحققان من نظرتك إليها .. عيناهما صغيرتان تحت شعرها الأسود الناعم .. وبالاختصار الأجسام هنا جميلة مائة في المائة .. والوجه ٩٠٪ منها مش ولا بد .. يعني يجب أن ترد إلى أصحابها لصلاحها قبل عرضها في السوق .

والفقيرات يرتدين البيجامات في الشارع .. والفقيرات جداً يلبسن القباقيب الخشبية الملونة كالقليل عندنا .. ثم يرتدين البيجامات المصنوعة من المشمع .. لا غسيل ولا مكوى ولا حاجة .. وفي الصينيات عدد كبير جداً من السيدات الصلعاءات .. سيدة صلعاء أو قرعاء ، شيء فظيع ، وإذا أضيف إلى هذا بشاعة وجهها ووحاشة لغتها وفقرها ، وإصرارها على أنها تأخذ منك حسنة .. صورة مؤلمة .. موجود هنا ما هو أبشع وأكثر إيلاماً من ذلك .

* * *

ومن معالم هونج كونج حديقة «تايجر بالم» .. أو «زيت الغر» .. وتوجد حديقة بهذا الاسم في سنغافورة .. وأقيمت الحديقة باسم واحد لسبب واحد ، لأن صاحب الحديقتين هو رجل صيني مليونير .. أقصد «ملاينير» أي صاحب ملايين وليس صاحب مليون فقط .. هذا الرجل صيني وتوفي سنة ١٩٥٤ بسكتة قلبية في المستشفى الحكومي في هونولولو ، وأحرقت جثته ودفن هناك ..

وهذا الرجل الصيني الغني اسمه «آو .. بون .. هاو» وكتب مثاث الملايين من الجنيهات عن طريق وصفة طيبة اخترعها وأسمها «تايجر بالم» أو «وصفة الغر» وهذه الوصفة تشفي أمراض البرد والروماتيزم والسعال وضيق التنفس ..

وسمعت مثل هذه القصة في مانيلا عن رجل يهودي اسمه ليوبولد كاهن .. فالفلبين بلاد مسيحية كاثوليكية متعصبة جداً ، وفي كل مدينة وقرية كنيسة ؛ وكان ليوبولد يتبرع بشراء أجراس الكنائس الجديدة ويطلب من القسيس أن يشير إلى ذلك في الصلاة .. فكان يقول : أبها الأصدقاء . هذا الجرس الذي

ناداكم هدية من الطيب القلب والسيرة أخيكم ليوبولد كاهن . . .

وعند خروج المصلين من الكنيسة يجدون معلمًا يحمل اسم ليوبولد كاهن بيع السابع والصلبان التي كتب عليها أنها صنعت في إيطاليا .

وبذلك أصبح مليونيرًا تدق له الأجراس . .

وحديقة تايجر بالمأ啜بة فنية ، هنا وفي سنغافورة . لقد تكلفت هذه الحديقة حوالي ثلاثة ملايين من الجنيهات ، إنها منحوتة في الصخر ، وتروى حياة الصين وحضارتها . . وقصص البطولة في تاريخها وفي أدبها . . وتروى قصص الخير والشر . والحدائق تشغل مساحة قدرها ثمانية أفدنة . والفكرة فيها أن الرجل الصيني «آو» رأى أن جميع أمواله من الشعب ويجب أن يردها إليه فبني هذه الحدائق للزهوة . . وأقام المستشفيات والمدارس والجمعيات الخيرية ، وأوصى بأن ٦٦٪ من ثروته تعطى للفقراء كل سنة . وإلى جوار هذه الحديقة الآن توجد بيوت من الصفيح والصناديق الخشبية ، ويعيش فيها بعض القراء كأنهم ينتظرون أن ينزل السيد من حديقته ليعطيهم كما كان يفعل فيما مضى . . ولكن السيد واقف هنا وسط هذه الحديقة ، فله تمثال صغير متواضع ، ووراء التمثال توجد مقبرة رمزية ، وإلى جوار المقبرة الرمزية يوجد برج ، يسمونه بالصيني «باجودا» تحية منه لوالديه .

وبقية الحديقة مليئة بالحيوانات والطيور والأفاعي والحشرات وكلها من الصخر . . وكلها من الألوان وإذا رأيتها فإنك لا تدرى إن كانت حية أو ميتة . . الفن هنا مذهل للعقل . .

الناس يزورون هذه الحديقة ويصعدون الجبال طول شهر أكتوبر لأنه عيد معروف باسم «شيخ ينج» . . فقد حدث منذ آلاف السنين أن رأت سيدة في نومها أن قريتها ستغرقها السيول . . فأخبرت أهل القرية ، فهجروا القرية إلى الجبال . . ونجا سكان القرية . . وأصبح هذا تقليدًا من ذلك اليوم . . فالناس يصعدون الجبال تفادياً لشorer العام القادم . . ولذلك فالزحام شديد على هذه الحديقة لأنها على ربوة عالية ، وقد أنشئت سنة ١٩٣٥ ، وهي أصغر جداً من

حديقة تايجر بالم الموجودة في سنغافورة .

وكل الحديقة قصص تاريخية .. فهنا الراهب البوذى الذى ذهب إلى بلاد التبت وقابلته الوحش فى الطريق .. قرود وأفاع وعفاريت ولكنه قاوم وانتصر .

وهنالك قصة الملكة الجميلة المسكينة التى لا تعرف كيف تطلع الملك على جمالها .. فطلبت من الحاشية أن يوهموا الملك بأن هناك عدواً على المدينة .. وخرج الملك .. وتلقت حوله فلم يجد جنوده .. وانطلق إلى داخل القصر فوجد زوجته الجميلة التى نسيها منذ سنوات عارية تماماً تستحم في حوض جميل وتبه الملك إلى أنه من الممكن أن يكون هناك عدوان على هذا الجمال إذا لم يصنه جلالته .. وقد صانته الصخور !

وقصة لألم تسو .. ملك الصين الذى جمع كل الأفيون الذى صدره البريطانيون إلى الصين وأحرقه جميعاً .. إن السحب ترمي العفاريت وفدى داحت ، وتساقطت عند قدمى الملك .

وأروع ما أتعجبني في هذه اللوحات جميعاً ، أو هذه التماثيل البارزة ، أو الحياة المتفجرة والتي جمدت من البرد على هذه الصخور ، صور يوم القيمة . في الديانة البوذية يرون أن الإنسان سيحاكمه الله أمام عشر محکم :

المحکمة الأولى : يقف أمامها الإنسان بعد وفاته .. فإذا نظرت مجموع خطایاه وأعلنت أنه مذنب .. بدأ العذاب فوراً .

المحکمة الثانية : يقف أمامها الإنسان الذي يعصى والديه .. وعصيان الوالدين هو الجريمة الكبرى ، التي تستحق أكبر عقاب ، فيكونونه بالنار إلى الأبد ، ويضربون رأسه بالحجارة .

والمحکمة الثالثة : يقف أمامها كل إنسان يعيش في الدواء .. وكل إنسان يسخر من القراء ، ويتملق الأغنياء .. لأنهم يفتقرون له عينيه .. ومعه الذين أرتكبوا جرائم القتل .. لأنهم يوضعون فوق صخور مديبة . والذين قتلوا الحيوانات البرية ، تأكلهم هذه الحيوانات ..

والمحكمة الرابعة : للمرتشين من موظفي الدولة . . وفي المحكمة تضرب رؤوسهم بالشواكيش إلى الأبد .

والمحكمة الخامسة : للخونة . . .

والمحكمة السادسة : للذين مشوا وراء الخونة . . والعقوبة هي تعزيق أجسامهم وأيديهم . . .

والمحكمة السابعة : لحاكمه الرهبان الذين اعتدوا على النساء . . تأمر المحكمة بتعزيق أحشائهم . . وللجزار الذي يبيع الحم المغشوش يضعون هذا الحم في فمه ، ثم يمزقون معدته . . إلى الأبد .

والمحكمة الثامنة : للذين لا يقدسون أو طاهم . . تمثي العربات فوق رؤوسهم .

والمحكمة التاسعة : للكاذبين . . والمحكمة تأمر أولاً بقطع ألسنتهم . . ثم بقطع أنوفهم .

والمحكمة العاشرة : يعلن القاضى أن الميت غير مذنب مثلاً فيوضع فوق كتفه جلد إنسان آخر ومعناه : اذهب وعش من جديد في هونج كونج مثلاً .

* * *

هونج كونج بلدة غنية وفيها فلوس وجميلة والناس يحبونها ويهربون لها . . لابد أن يكون هناك سر . والسر هو أنه فيها هبصة فيها سهرات ليلية ، ليس لها عدد . . وأنا سأختار أحد الحالات . . اسمه محل ليوشن . . محل مشهور جداً . . هو عبارة عن بار ومطعم ومقهى . . الجرسونات بنات جميلات . . جمالهن صيني . . والصفات الصينية تقدر ترجع لها في أول هذا الكلام ، يعني إذا أردت الدقة . . في دقة واحدة يقترب صاحب المطعم ويهمس في أذنك أحياناً ، وأحياناً يقرصك . . وقد سألت عن حكاية القرص هذه فوجدت أنه خصني بها وحدى زيادة في الحفافة . . وبعد لحظات يجيء آخر ويهمس في أذنك . . وبعد لحظات تجلس الفتاة التي أعجبتك إلى جوارك . . وهات يا شرب على حسابك . .

وجاءت فتاة وجلست إلى جواري ودار الحوار بيني وبينها :

- وهو بي حضرتك منين كده . .

- من فرموزا . . أنا . . صينية وطنية . .



أبناء الفلبين يحملون كل شيء على رؤسهم
هرباً من اضطهاد الكاثوليك المسلمين !

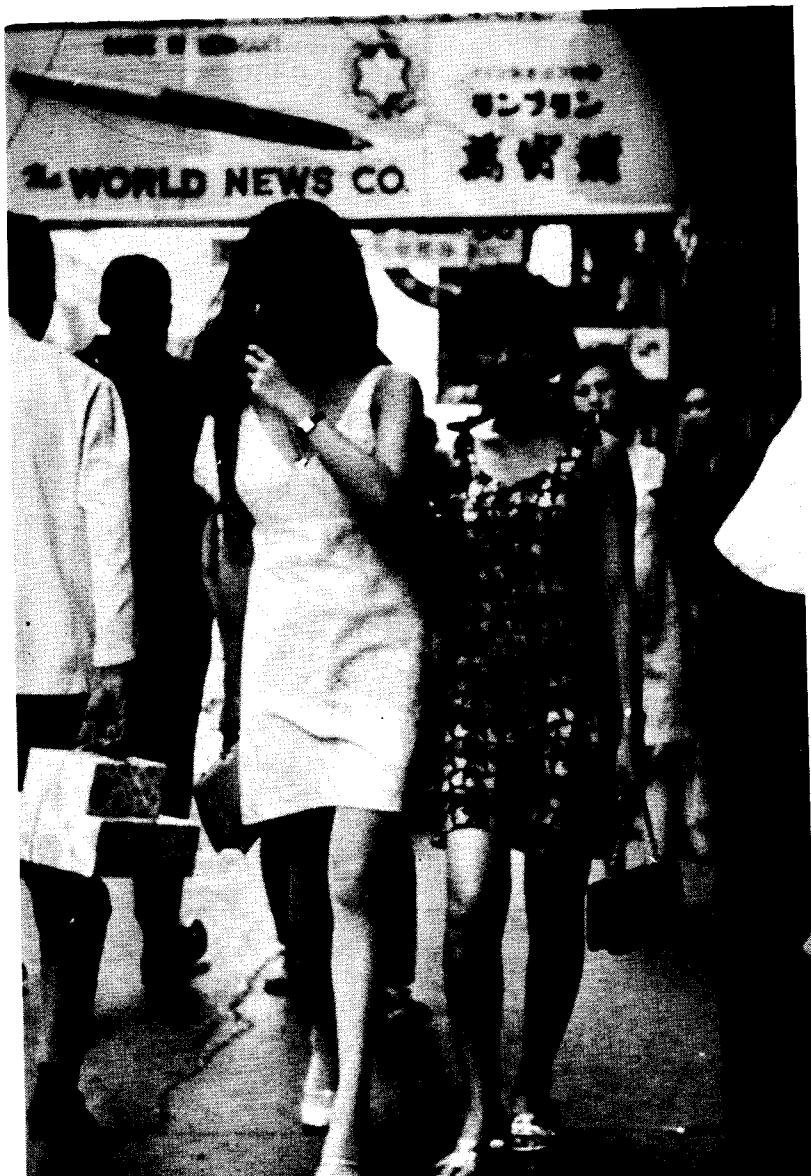
هذه بيوت عائمة يسكنها أبناء الفلبين (٧٠٠ جزيرة)



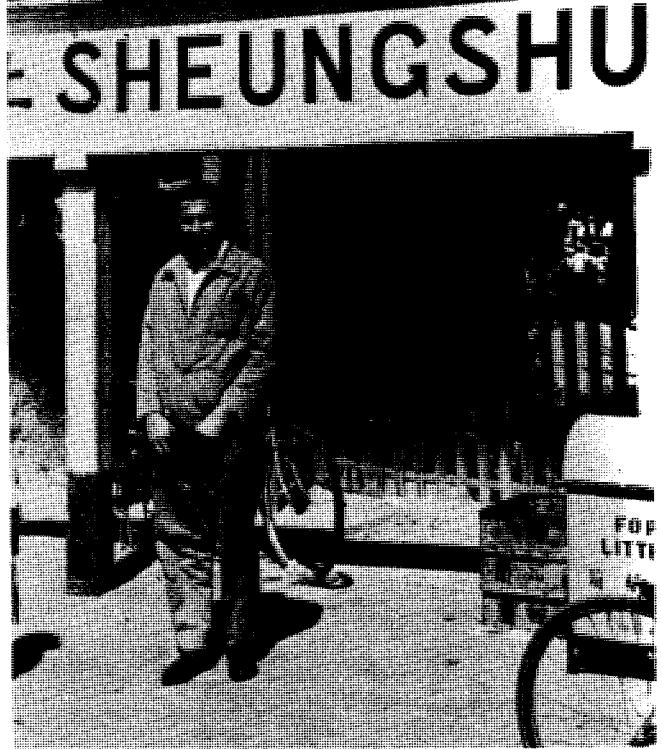


مصارعة الديوك .. يطلقون الديوك
بعصها على بعض حتى الموت !

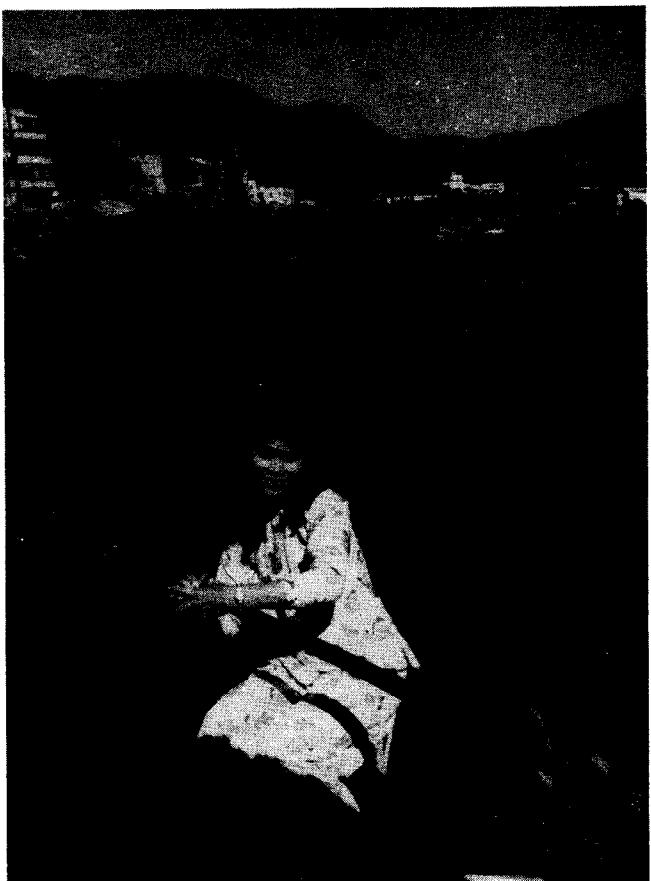
فتیات هونج کونج .. رشیقات جیلات .
لیس و اصحاً فی الصوره نعومه البشرة !



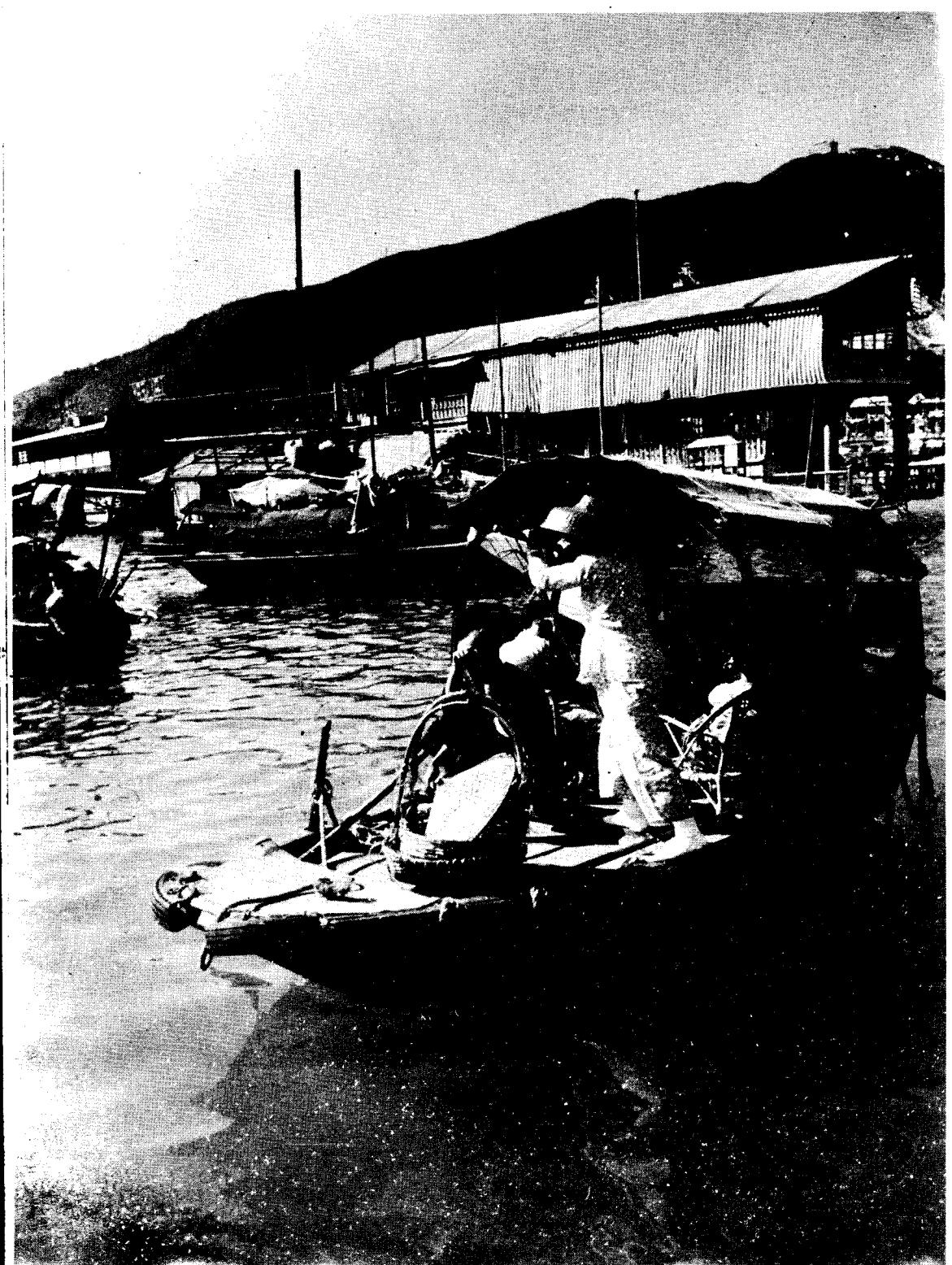
أنا في انتظار وسيلة
مواصلات إلى الجانب
الآخر من الجزيرة -
الوسيلة الوحيدة هي
البيسكليت !



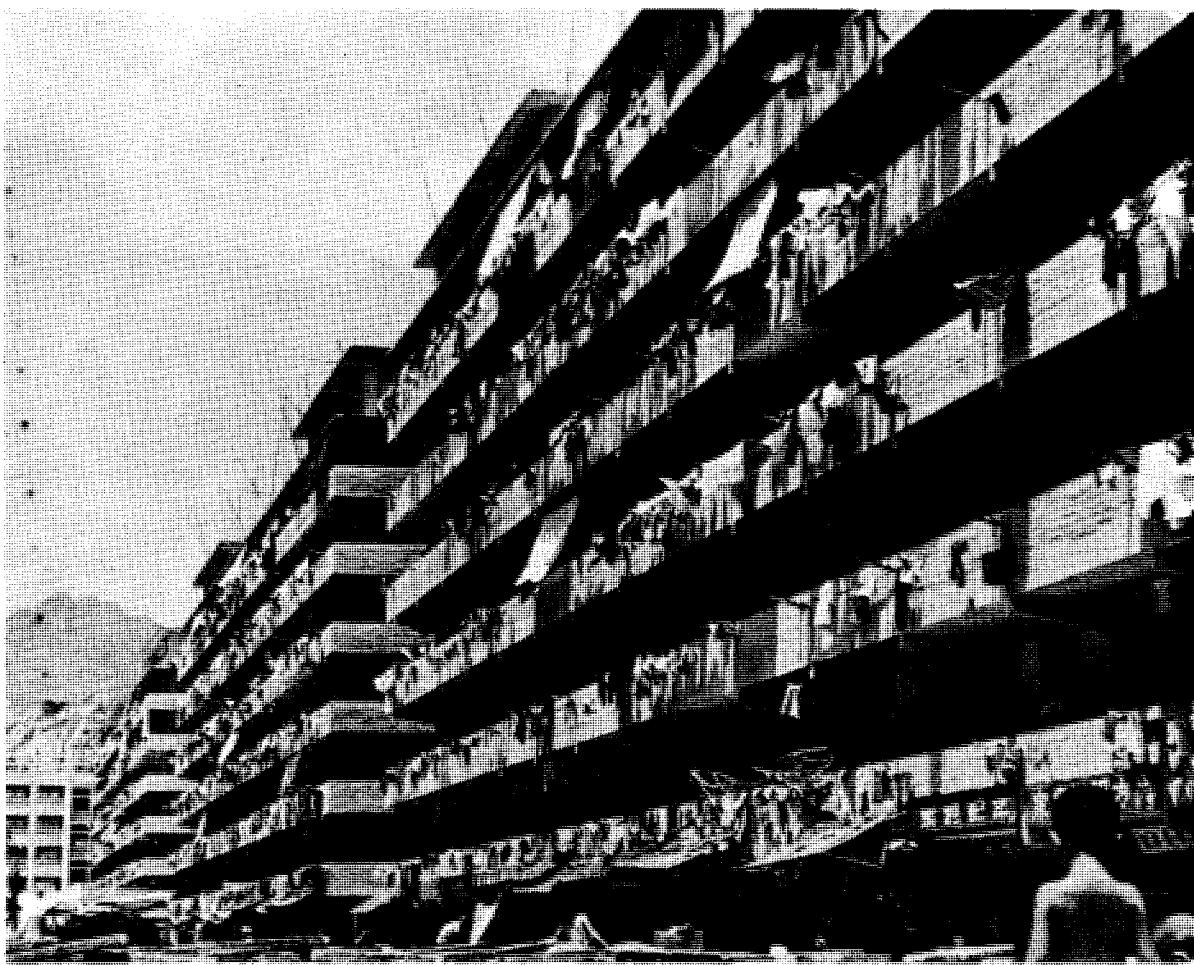
هذه الفتاة تدفع الزورق
إلى أحد المطاعم
العائمة في الجزيرة



فأة أخرى تنقل السياح
بين المدن العائم في
الجزيرة . هذا المد
نه : أيردين ..







طلعت الشمس . . والفسيل في كل البلكونات . . الفسيل
متعدد الألوان - أحبا إليهم اللون الأبيض !



جانب من بيوت الجزيرة البالغة
الأغلبية الساحقة من الصينيين . .





و هذه مقابر سكان جزيرة هونج كونج - الأغلبية الساحقة
من الفتنين ..

- كده .. طيب وهى الوطنية تقول لك إنك تشرب الويسكنى مع واحد
بيشرب شاي .. والوطنية دى بي مش معناها أن الواحد يحب بلده . ويحب اللي
يحب بلده ..

- مش فاهمة ..

- تعالى هنا .. ومين قال لك بي تتعدى هنا .. أنا راجل وباحب أقدر
لوحدى كده .. سرحان .. عامل سرحان .. أنا حر .. أنت مش بلدكم
دى حرر .. الواحد يعمل فيها زى ما هو عاوز .. أنا كان حر .. أقدر
ساكت .. أكلم نفسي .. آه .. وحريتك دى تعتمدى على حربى لازى !؟

- عدوان ليه .. إنت مش قايل للراجل إنى عاجبك .. وقال لك مين ؟
قلت له دى .

- أنا قلت كده .. دى بعنى ليه .. أنا فاكر إنه بيسألنى عن الترايزه ..
قلت أيوه دى .. وهى ترايز بالصينى بعنى واحدة ست .. هو أنت ترايزات لسه.
أمال بيقولوا السيدات بيشتغلوا زى الرجاله ليه .. طيب والراجل بالصينى معناه ليه
بي .. لازم معناه كرسى .. أهو كل ترايزه ولها كرسى .. وأنا كرسى مش
عاوز ولا ترايزه .. أنا كرسى حر .. كرسى يقعد قدام الباب .. يقعد فى
الشباك .. يتسلق .. آهو حر ..

- أسمع إنت خايف من ليه .. الويسكنى بيلاش ..

- بيلاش .. الله آدى الوطنية والله بلاش .. طيب وبلاش ليه بي ..

- واحد دفع لك ثمنه !

- والواحد ده بي مين .. ودفعه ليه .. وهو يعرفى .. لازم يعرفى كويس.

- هناك ..

- هناك فين ..

- بص له .. هناك قاعد أهوه ..

- يمكن يكون غلطان .. يمكن فاكرنى واحد تانى .. فلو بصيت له
جيكتشف الغلط .. وعلى ليه .. كده أحسن .

- بس ، بص شوفه هو كان عاوز يشوفك ..

- يشوفني ليه بي .. وايаш عرفك أنت ؟
 - بضم ما تخافش ..
 - مش خايف .. مش عارف حاجة .. الله .. هوه أنا اللي شربت
 الويسيكي وإلا ليه .. أمال دايغ ليه ..
 - دايغ من الخوف إنك تدفع ..
 - أدبني بصيت مش شايف حاجة ..
 - مش شايف نفسك في المرأة .. طبعاً .. زى ما طلبتني وأنت سرحان ،
 أدفع وأنت سرحان .. وأبقى فوق لنفسك في البيت على أقل من مهلك .. أدفع !
 وقبل أن تبرح البار أو المطعم ، ينطلق ورائكِ رجل ثالث أو رابع ويقول لك
 كلاماً باللغة الصينية لا تفهمه .. والغرض من ذلك أن تقف لحظة .. هنا ولا
 تفهم كيف تظهر فتاة صينية حلوة ! من أين جاءت ولماذا ولمن .. طبعاً جاءت
 لحضرتك .. البنت حلوة .. اجلس .. وتجلس وتدفع والخمس في أذنك ..
 وغداً سيخرون عن أشرطة صغيرة توضع في الآذان وتسجل لك الكلام الذي يدور
 في نفسك أثناء هذه الجلسات لتسمعه في البيت وأنت تدافع عن نفسك أمام
 ضميرك وأمام صاحب الفندق وصاحب المطعم ..
 لكن البلد مع ذلك ولذلك جميل جداً .. . والنقط الكثيرة هذه
 ليست إلا قبلات لها ولك لأنك قرأت هذا الموضوع ، ولكل من يحب ويعلم
 أن يجيء إلى هذه البلاد .. .

* * *

ولا أدرى لماذا كان الصينيون الذين أتعامل معهم في الفندق مختلفين عن
 الصينيين .. هل لكثره عشرتهم للأجانب ؟ هل لأن العمل في الفنادق لا يحتاج
 إلى براعة .. هل لأنهم قرفاون منا نحن القادمين من بلاد بعيدة ؟
 مثلاً .. الساعي أو الجرسون الذي أتعامل معه .. لاشك أنه صيني ١٠٠٪
 وشعره ووجهه وعياته المعوجتان .. وطجته التي تشبه صوت الحنفية عندما ينكسر
 وابور المياه .. .

كل ما أريد ليس أكثر من كوب شاي في الصباح .. ولا لبن ولا سكر

ولا عيش . . فقط كوب شاي في الساعة السابعة ومعه الصحف التي صدرت
في نفس اليوم . . مسألة واضحة جداً . .

في أول يوم ضحك لي ، ضحكت له ، هز رأسه هزرت له ، نعى لبعين
غمزت له باثنين . . حاجة عال جداً وطلبت منه أول فنجان شاي . . فاختفى
وعاد ومعه بعض الفوط النظيفة . . وانتظرت الشاي . . ولم يحضر . . فضررت
الجرس فدخل وضحك وقالت له : أين الشاي ؟

وأقلل الباب وخرج . . عاد ومعه كوب من الماء . .

قالت له : ت . . ش . . ا . . ئ . . تشاي . .

وهي الكلمة الصينية الوحيدة التي أعرفها . . وخرج ضاحكاً وعلى وجهه شوية
دم . . يمكن كسوف . . يمكن خجل . . يمكن أحسن أن لقته قد أهينت على
لساني . . ولكن بعد لحظات عاد ومعه كوب من الشاي . . وخرج ووجدت
الشاي لونه أخضر وقالت في نفسي يمكن الشاي الصيني أخضر . . على كل حال
لا مانع من أن أذرق طعم الشاي . . الشاي الصيني . . طبعاً الشاي بلا سكر ولا لبن
وبلاشاي أيضاً . .

وقد تعودت في هذه المنطقة من العالم الصبر وهذه الأعصاب . . فالناس
 هنا لا يتذرون أبداً . . في الهند تعلمت أن الدنيا من الممكن أن تعيش من
غيري . . وأن الناس يعيشون حياتهم ويمشون على نظام خاص وأن هذا النظام
سواء أعجبني أو لم يعجبني فلن يغير هذا شيئاً . . فلما أن أسكنت أو أخرج
من البلاد . . وفي أندونيسيا يضحك الناس دائمًا ولا يعملون إلا القليل . . وفي
الصين يضحك الناس كثيراً ويعملون كثيراً . . وفي اليابان مؤدبون ضاحكرون
وقدرتهم على العمل خارقة . . يعني من الممكن أن يكون الإنسان مؤدباً وباسماً
وناجحاً في عمله . .

فما بالك بالذى جاء يتخرج . . على الأقل يجب أن يكون باسماً أو ضاحكاً
أو حتى مؤدبًا .

وتأدب في الحديث مع الخادم وخرجت إليه وفي يدي ورقة وقلم ورسمت له
فنجان الشاي . . وأمسكت قلمها أحمر وقالت له الشاي يكون لونه هكذا . . هكذا

والحقيقة أن هذا الجرسون يعرف الإنجليزية . . ولكن أنا عاجز عن فهم ما يقوله لأنه كلام صيني على إنجليزى .. وهو عاجز عن فهم ما أقول ، مع أن لغى سلية والله العظيم . . ولما رأى الفنجان الذى رسّمته عرف أنه فنجان شاي . . أما اللون الذى وضعته فى الفنجان فلم يفهم ما هي الحكمة من هذا اللون . . وأمسك هو بالقلم ورسم بعض الرسومات على الفنجان جميلة فعلا . . ولكن أريد أن أفهمه أننى لست معجبًا بالصناعات الصينية ولا بنقوش الفناجين . . ولكن نفسي أعجب بصناعة الشاي هنا . .

وأمسكت الورقة وقلت له : أريد أن أشرب فنجان شاي بهذا اللون . . ثم وضعت الورقة عند فى . . ويفتهر أن الجرسون فهم أننى أريد أن أطلعه على بعض الألعاب السحرية . . وراح يضحك . . الحقيقة تصايققت جداً .

وكأنى قد جئت من القاهرة منذ أيام ، فترت في وجهه وشتمته بالعربية واستمر الجرسون في ضحكه . . وذهبت إلى عامل التليفون وقلت له من فضلك تقول للجرسون : إننى عاوز أشرب واحد شاي لونه أحمر . . مش تقيل قوى . . لكن له لون فقط . . وإنى حاولت أن أجعله يفهم ذلك منذ ساعة . . وفشلت . . ودار بينهما كلام بالصيني طويل حتى ظنت أن الجرسون يشكوا من سوء معاملتى له . . وأننى شخطت فيه . .

وقال لي عامل التليفون : الجرسون فاهم كل شئ . . وهو حاول أكثر من مرة أن يقول لك إنه فاهم ، ولكنك لم تعطه فرصة . .

وقلت له : أمال يا أخي سايني آكل في بعضى ليه كده !
ودار الكلام بالصيني . . وعاد يقول لي : إن الأدب يمنعه من مقاطعتك .
— كده . طيب أنا عاوز فنجان شاي دلوقت بالشروط اللي أنا طلبتها .
وعاد الكلام الصيني بروح ويجيء بينهما ، وفي السكة يضربني في أذني
وفرأسي . .

وتمددت على السرير في غرفتي ورحت أقلب في الصحف . . وانفتح الباب وجاء فنجان من الشاي . . اللون الأحمر . . مفيش كلام . . ولكن الشاي ثقيل جداً . . فقلت على سبيل التشجيع : الشاي عظيم . . بس ثقيل شوية . .

وضحك الجرسون واحتى . . وبعد لحظات عاد و كنت في الحمام . . وأخذ الشاي القديم وأقى بشاي جديد . . زى الزفت . . ويبدو أنه فهم أنى أريد الشاي أن يكون أثقل من ذلك .

وأمكنت الشاي وألقته في الخوض . .

ونزلت لأنشرب الشاي في أي مكان آخر . . دخلت أحد المطاعم . . وطلبت من الجرسون أن يترجم إلى اللغة الصينية معنى هذه العبارات : شاي لونه أحمر ، ولكنه ليس ثقيلا . . شاي كمان . . ومستعجل على الغسيل . . ومستعجل على المكوى . . وأشارك . .

وف كل يوم أضع أصبعي على الكلمة التي أريدها . . وينحرج الجرسون سعيداً ويأتي الشاي الأحمر الجميل . .

وحتى لا يصبح هذا العمل آلياً . . طلبت من الجرسون أن يعلمني كيف أنطق هذه الكلمات . . وبدأت أنطقها وأقول : تشاياسا . . ومعناها شاي . . وأمدتها أبهاء . . ومعناها الغسيل . .

يومان بسلام مضيا . . بلا حوادث . . لغى الصينية في تحسن ولغته الإنجليزية لا يستخدمها معى . مطالبي محددة جداً جداً . . وأنا أرضى بأى طعام وأى شراب وأى سرير وأى فندق . . ولكن الشئ الوحيد الذى أريده بإصرار هو أن أكون بمحوار أحد أكشاك بيع الجرائد وإحدى المكتبات . . والباقي أستطيع أن أحصل عليه . .

وأصبحت في غير حاجة إلى الورقة . . وكنت أضر به بالكلمة الصينية . . وحالاً يجيء الشاي . . وتبجي الصحف اليومية . . والغسيل والمكوى . . وأصبحت المدينة حلوة من جديد ، وأصبحت غرفتي ظريفة . . وكل يوم أضع السرير في ناحية والمكتب في ناحية أخرى . . مرة لكي أكون بعيداً عن جهاز التكيف . . ومرة لكي أكون قريباً من الراديو . . ومرة لكي أكون قريباً من النافذة بعيداً عن الحمام .. أنقل ده . . هات ده . . وأشارك على ده . . مالكش حق في ده . . عال .

ودعوت بعض الأصدقاء ، وطلبت من الجرسون أن يحضر الشاي وبعض الحلوي . . وكلمة الحلوي عرفتها من جرسون آخر . . وطلبت إليه أن يضع زهرية

فيها شوية ورد مش حاجة كبيرة الورد هنا .. منظر يعني .. وعمزت له بعيني ،
ووضعت في جيبيه دولارين .

وبعد ساعة عدت فوجدت الغرفة جميلة .. الملابس معلقة على الشماعات
والكتب مصفوفة ، والجرائد مصفوفة .. وحقائبى مغطاة بالمافرش .. ودخلت
الحمام .. كأنه مرآة .. وبعض الفليت .. وبعض الرهور قد وضعت في
زهرية حلوة .. ومنضدة كبيرة عليها الشاي والفناجين والأطباق ، الملاعق ..
الحمد لله . كل شئ جميل ..

وجلسنا ننضم إلى الموسيقى تماماً صدورنا بالورود تماماً معدتنا بالشاي اللذيد
والبسكوت الأسترالي الذى لا يشبع منه أى إنسان .. وكلام سلام وحكايات
من الشرق بالغرب وضفت ساعة واثنتان وثلاث .. ونددت يدى على الجرس وجاء
الجرسون وأطل برأسه في أدب زائد وقال لي : حالا ..

وقلت لابد أنه مشغول .. أو أنه مودب جداً للدرجة أنه لا يريد أن يزعجني
بدخوله وخروجه .. أو يفسد حديث الضيف ..

ودقت الجرس أطلبه إليه المزيد من الشاي وأطل برأسه وعاد يقول : فاضل
واحد ..

واحد ليه .. يمكن واحد دقيقة .. أو أنه يصل الأطباق ولم يبق إلا طبق
واحد .. أو يكوى القمصان وليس أمامه إلا قيسى واحد .. واحد واحد ياسيدى ..
يعنى من واحد .. وأخيراً حضر ومعه لفة صغيرة .. لفة في ورق شفاف ونظرت ..
ولم أفهم سأله : ما هذا .. ما هذا ..؟ فلم يرد .. ومددت يدى لأرى عجبًا ..
كل مناديلى التي أعطيتها له في الصباح قد تغير لونها .. لونها بنى أسود .. أو بنى
أصفر .. وفيها بقع زرقاء وحمراء .. ولم أفهم طبعاً .. وسأله ما هذا ؟
لم أفهم منه ..

ونزلت لعامل التليفون أسأله .. وعرفت المصيبة .. لقد وضع كل مناديل
في براد الشاي وغلاها .. لماذا ؟ لأننى كتبت كلمة شائى « مطبوط » بصورة
خاطئة فكانت النتيجة هي صبغ المناديل .. ولماذا يصبغون المناديل ؟ لأننا في
أعياد الصعود إلى الجبل .. وفي هذه الأعياد يتبرك الناس بطعيم الشاي ولون الشاي ..

وزقت الورقة وبدأت أسأل عن معانى الكلب والحمار والثور وقررت أن أوجه هذه الكلمات إلى الجرسون كل يوم . . وأنهياً عدلت عن هذه الورقة . . فربما كان لها معنى آخر عنده . .

ومع ذلك فغرقى أروع غرفة في الدنيا، لأنها تطل على أجمل فندق وتقع في أجمل مدينة في العالم . . مدينة أو جزيرة هونج كونج . . ومن أجمل هونج كونج وجمالها وسحرها ليلاً ونهاراً ، أصبر على هذا الجرسون ولو فتح بابي في الصباح ودخله دون إذن ومن ورائه عمال البلدية ، وموظفو جمعية الرفق بالجرسونات !

* * *

وأمس قررت أن أقوم بعملية ترميم كاملة . . للآلة التي بعثتها القاهرة لتسجيل الحوادث في هذه المنطقة من العالم . . تركت ساعتي عند الساعة العاشرة وبنطليوني عند الرفا . . وحذاني عند الجزمجي ، وخفيبي التي تكسرت تركتها هي والحزام عند الجزمجي أيضاً . . وملابسني أيضاً تركتها عند المكوجي .

وموعدي معها جميعاً غداً . . وجلست اليوم أنتظر وفي الساعة الثامنة صباحاً بدأ العمال يدقون باب غرفي . . وأبحلق في كل شيء . . أنه جديد . . دقيق كأنه خارج من المصنع الآن . . وبأسعار معقولة جداً . . الخلاصة لا يوجد شيء مستحيل عند الرجل الصيني . . وللذين جامعوا من اليابان يقولون إن الرجل الياباني يرى أن الرجل الصيني بليد وغبي وبطئ جداً !

وجامعني الجرسون وقالت له : كل حاجة عندكم بله السرعة !
فضحشك ، وهذا يفسحكون دائماً ، إذا فهموا وإذا لم يفهموا وفي الغالب يفهمون شيئاً آخر غير الذي تقصده ولكنهم يفهمون دائماً .

قلت : عازز عروسة لواحد صاحبي .

قال : حالاً دلوقت .

قلت : الشمعي العروسة دلوقت والجزمة جداً !

قال : دلوقت عروسة جداً عروسة أخرى . .

— ولكنها لا تعرفه .

— جداً تعرفه يعجبها أو لا يعجبها . .

— هذا يحدث في هذه البلاد؟
— الزواج محاولة تفاهم . . بين رجل وامرأة . .
— هل معنى هذا أنه لا يحدث طلاق أبداً؟
— يحدث .
— لا بد أنه كثير جداً ما دام الزواج يتم بهذه السرعة؟
— بالعكس . . بعد الزواج يكون الزوج مشغولاً جداً والزوجة كذلك . .
ولا يتسع لديهما الوقت للتفكير في الطلاق . . فهناك شيء مهم من الاتفاق وعدم
الاتفاق وهو لحمة العيش . .

طيب: لي كل حال صاحبي عاوز عروسة . .
— أجب له . .

وببدأ يتكلم عن العروسة كما لو كانت زوجاً من الأحذية . . وببدأ يبين
لنا مزايا القصيرة والطويلة ، والسماء والبيضاء ، بنت الأكابر أو بنت الناس
العاديين . .

وعرفنا منه بعد ذلك أن هذه العروسة لو كان فيها عيب كالحقائب أو الأحذية
يمكن ردها اليوم إلى والدتها ويتم إصلاحها غداً !

• • •

أقيم أول أمس معرض في هونج كونج دعوة له الصحف ومحطات
الإذاعة والتليفزيون وزعت له النشرات في دور السينما . . والمعرض مقام في
أحد أحجحة الميناء . . فوق هذا الجناح توجد أعلام . . وفي مدخله فتيات
جالسات يعن دليل المعرض . .

والمعرض رغم هذه الضجة كلها صغير جداً لا يزيد على ثلاثة غرف . .
ولكن الأشياء المعروضة ممتعة فعلاً ، فهناك صور فوتografية لمناظر في هونج كونج
جميلة جداً . . هناك صورة للميناء في الليل بعد أن مر فيه أحد الزوارق . .
وشكل الماء في الليل كبدلة رقص سوداء شفافة ومرصعة بالترتر . . وهناك صورة
أخرى لفتاة عارية ١٠٪ — وهناك تباع الصورة العارية الملونة عند دكانين
السجائر . . وبالنهايات كلهن بنات — وقد انعكس عليها ظل فتاة عارية أخرى . .

لأنهما فتاتان ، واحدة لونها أبيض والأخرى لونها أسود .. وانعكست عليها كاميرا المصور وأخذت الكاميرا وضعاً مثيراً .. وصور أخرى لبيات الليل وهن في هونج كونج عددهن كبير جداً .. أكثر من أي بلد في العالم .

والذى أتعجبني وأدهشنى في هذا المعرض هو القسم الخاص بالعمارة . ففن العمار هنا يحتم على كل العمارات الجديدة أن تتخذ وضعاً رأسياً وأن ترتفع وأن تستعين بالفضاء الواسع بعد أن ضاقت الأرض بها .

وفي كل مكان توجد ناطحات سحاب . وفي كل شارع وفي كل حارة ، عمارة عالية جداً تقام . وفي المعرض تقدمت إحدى الشركات الهندسية بنموذج من الخشب لمستعمرة سكنية مكونة من ٩٠ ألف شقة .. يتراوح إيجارها بين ستة جنيهات وعشرين جنيهاً .. وهذه المستعمرة بها مدرسة وبها دار للسينما .. ويبدو أن الحكومة هنا قد اشترطت على كل من يبني مستعمرة أن يبني فيها مدرسة .. فالطلبة كثيرون جداً والأماكن ضيقة .. وفن العمار هنا فيه خطوط جديدة .. ولكن كل الخطوط مستقيمة .. وكل الواجهات من الزجاج .. وفي بعض البيوت توجد واجهة مستقلة من البيت .. هذه الواجهة تشبه ستاراً هائلاً من النوافذ البيضاء تحجب أشعة الشمس وتكيف الهواء .

وهنا نموذج لمطعم .. سقفه على هيئة دوائر تصعد إليه .. بسيارتك .. ومن الممكن أن تنزل فوقه بطائرة هليوكوبتر فلا يتأثر .. والعمارات هنا مكتوب عليها منشورات تشبه منشورات قاعدة إطلاق سفن الفضاء عندما تحدث عن دورات محطة الفضاء .. فالمنشورات هنا تقول لك ابتدأنا البناء يوم ١٢ يونيو وينتهي العمل يوم ٢٧ فبراير الساعة ١٢، ويكون المبلغ الذي أنفقناه حتى هذه الساعة هو ثلاثة أرباع مليون جنيه استرليني ، وآخر موعد لتقديم طلبات الإيجارات هو يوم ١١ نوفمبر ظهراً . إذا أردت أية معلومات أخرى اتصل بالأنسة .. من الساعة الخامسة والنصف إلى السادسة من أي يوم ما عدا يوم السبت والأحد فانها خارج المدينة !

وهنا معارض أخرى للفنون والآداب .

ولكن يظهر أن الرجل الصيني مشغول عن الأدب والفن ولذلك تأخرت

هذه الأعمال النظرية .. والصيني رجل عمل متفوق في عمله... وهو يفكّر بيديه ويتأمل بعده .. ولذلك فالأدب هزيل جداً والموسيقى تدل على براعة الصينيين في شيء واحد .. هو أنهم استطاعوا أن يحسروا عشرات القطط والقرآن في لأنهم الموسيقية .. فالبيانو صراغ دائم بين دجاجة وراءها عشرات من الكتاكيت الصغيرة ضد عرسة كاسرة . أما القيثار فهى تشبه أفعى قد تكونت على صدر أحد الحواة ينتظر عصفوراً أطلقه أحد المترججين .. أما بقية الأصوات الموسيقية فهي تشبه ضرب الحال بالملائكة ثم ضرب المستمعين بالحزم !

والصيني مهم جداً ببناء أحسن مسرح ، وبناء أحسن مطبعة وأحسن صالة للموسيقى .. أما امتلاء هذه الأبنية بالناس فلا يهمه كثيراً . لذلك أنسأحلك عندما تذهب إلى هونج كونج أن تعرف أولاً أن الفنون والأداب تشبه شربة الزباد .. وأنه يحسن بك أن ترجمها . أن تهز رأسك قائلاً لنفسك لا - قبل أن تتناولها .. لأنها تستعمل من الظاهر فقط !

ثم هذه العجائب ؟ !

* الصينيون « يحسرون » لا عن طريق جداول ضرب ولا آلات حاسبة .. ولكن يحسرون عن طريق عدد صغير مكون من مجموعة من البلي الذي يلعب به الأطفال .. وعملياتهم الحسابية غريبة غير مفهومة .. وتم بسرعة مذهلة .

* إذا سمعت أحد الصينيين وهو يأكل أدركك أن هناك سيلاً من الأمطار يتتساقط فوق السطوح .. لأن الصيني يأكل بالعصا .. فهو يمسك عصوين في يده ويضرب بهما الطبق ويلقط بهما حتى الإبرة .. حاولت ذلك ففشلت في إمساك هاتين العصوين .. لقد كنت في حاجة إلى كمامة لأمسك العصا التي سأمسك بها قطعة لحم في حجم ماكينة الحلاقة !

* كل صيني يعمل أكثر من عمل .. فهنا في الفندق الذي أقيم فيه أربعة من الحرسونات - أقصد الحرسونين أو الحراسة الرجال - وكل واحد منهم له عمل آخر يعمله طول الليل .. فهذا يصنع جلود الساعات وذلك يصنع المقابض والأقفال ، والثالث يرف الجوارب .. كل ذلك طول الليل ! .

- * لا يوجد محل يبيع صنفاً واحداً .. فالفكاهي يبيع إلى جانب الفواكه اليابانية والصينية الساعات والراديوهات الصغيرة والعلطور النادرة والحرائر والخمور..
- * اكتشفت أن الفنادق كلها لها أسعار واحدة .. يعني الفندق الذي أسكنه أسعاره كفنادق الدرجة الأولى .. والمشكلة هي دائماً كيف تجد مكاناً في فندق الدرجة الأولى !
- * سجن رجل لأنه نقل في زورق مائة فتاة وحملهن إلى إحدى السفن الكبيرة الراسية بعيداً عن الميناء . أما لماذا صدر ضده الحكم ، فلأنه لم يدفع ليختار الزورق .. فقط !
- * سجنت امرأة لمدة سنة لأنها باعت ابنتها الصغيرة وعمرها ١٢ سنة لرجل لكي يعرضها في الليل على السائحين ويكسب من ورائها .. وسبعين هو الآخر سنة ! البيع لا اعتراض عليه عندهم ولكن استغلال الفتاة هو الذي يعتبر عملاً حقيرياً !
- * المدينة تشكو من الإسراف في استخدام المياه ولذلك .. ستكون المياه الساخنة في الحنفيات من السادسة صباحاً حتى الثانية عشرة .. وبعد ذلك تكون المياه باردة حتى السادسة مساء .. وعلى كل سكان هونج كونج أن يتذدوا التعليمات وإلا بلأت الحكومة إلى إجراءات أشد .. ربما قطعت المياه نهائياً واكتملت بمشروعات الكوكا والبيسي وهي كثيرة جداً هنا .
- * المحلات الليلية الكبيرة هنا لها نظام غريب .. إذا أعجبتك فتاة وكلهن جيبلات فأنت ترقص معها .. وبعد الرقصة الحلوة تدفع للمحل مبلغ جنيهين . وإذا طلبت أن تجلس إلى جوارك فادفع جنيهين آخرين .. وفي آخر الليل إذا لم تستطع أن تقف على حيلك أو تعرف أين تسكن .. فالخل يوصلك إلى حيث تناولت في الصباح يبعث أحد الحرسونات للاطمئنان على صحتك وعلى أنك ستذهب إلى نفس الخل مرة أخرى .
- * لا يضعون الكريم في الحلويات أو في الجيلاتي .. والسبب هو أن الناس يخافون من السمّة .
- * أصحاب البارات هنا يقفون في وسط الشارع وينادون الزبائن ويعرضون عليهم كل شيء .. كل شيء وبتفاصيل كاملة .. كل ذلك في الشارع وقبل أن تدخل البار .. وهنا لا يشرّطون لبس الكرافتة كما هو الحال في أستراليا !

● لَكَ تَبَدُّو أَجْنِبِيَا!

زحام شديد في كل مكان .. لا أحد يلتفت ناحيتي .. لا أحد يسأل عنى .. العيون تتوجه بالحراشف ثم تتركز فوق ناموسة في طريقها إلى أذني .. أما وجهي وأما ملابسي وأما الكاميرا التي تعلقت منذ أربعة شهور في كتفي دون أن أفتحها بقصد التهوية فلا أحد ينظر إليها، ولا أحد ينظر إلى الأوراق الكثيرة التي أحملها كأنني محصل النور في حي بولاق .. وملابسى غريبة .. لونها بني : البنطلون والحاكمة والخداء والجورب .. ينقصها القليل وتبدو حمراء .. كملابس المحكوم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ.

وقررت أن أبدو أجنبياً .. أن أبدو كأنني لا أعرف شيئاً عن تقاليد البلاد. أو أنني أعرفها وأنجاهلها .. على سبيل الاستخفاف وعدم الاهتمام ..

بدأت أكثر وجهي .. وأجعله كقصص من حديد يحبس وراءه ابتسامة عريضة .. ومن وراء هذا القفص الحديدي تطل عيناي ترحبان بأى تشجيع .. ولا تشجيع .. الناس يضحكون لكل شيء وأنا لا أضحك ولا أهتم بهذه الوجوه الباسمة .. الوجه «مش ولا بد» ولكن الأجسام «ولا بد» ..

وبدأت أسأل عسكري المرور عن أسماء الشوارع ، مع أن الشوارع هنا محدودة جداً . ومع أن هذا العسكري لا يعرف اللغة الإنجليزية فالذين يعرفون اللغة الإنجليزية هنا لم علامات في ملابسهم .. وكنت أصرخ في وجهه وهو يصرخ أيضاً .. والناس يروننا فيضحكون ولكن لا يتوقفون فوراً لهم مسائل جادة أهم من نزوات سائح أجنبي مثل ..

وبدأت أتعرض للفتيات وأبتنم من غير مناسبة ومن غير معرفة . . والبنات
يبتسمن . . ثم أتلفت ورائي وأدور كأنني مراهق صغير في مهب الفتيات الحسان . .
وفي كل مرة أدور حول نفسي كما تدور أبواب الفنادق أصطدم بأحد المشاة
وأبتنم ويبتسم هو أيضا . . والنتيجة صفر لواحد . . صفر لي وواحد لكل الناس ،
فقد أدركوا أنهم أحسن أخلاقا من كثير من الأجانب . .

وعندما أدخل المطعم لا أنظر في قائمة الطعام وأطلب منه قطعة من اللحم المشوى جداً .. وكثيراً من السلطة الخضراء ، وكوبا من الصودا ، وأبحث عن شيء غير موجود في قائمة الطعام .. الحلويات أشكال وألوان الفواكه كلها موجودة وأنا أعرف ذلك جيداً ..

ونظرت إلى نظارات الجرسون .. ليس فيها أية دهشة ، ليس فيها أى استغراب
للسافى .. وينظر إلى كأنى أعرفه منذ زمن طويل . وأخيراً انبعثت في مقددي
وقلت له أنا أضيع الأوراق إلى جواري والكاميرا إلى جوار الأوراق ، وأضيع الجاكيت
فوق الأشياء جميعاً . عازز عود قصب !

واختنـى الجرسـون . وـأنا أعرف هـذه العـادة فـي الجـرسـونـات لـهـم لاـيـقـولـون أـبـداً :
مشـفـاهـم .

لأنهم يذهبون بسرعة ويأتون بمن هو أكثر معرفة ، يحرسون أكبر .. وهذا الجرسون الأكبر هو الذي يتفاهم معى بلغة إنجليزية سليمة .. وبدأت أقلب في وجوه الحاضرين ..

واندهشت كيف أن سيدة شقراء حلوة تتناول الشوربة بصوت مرتفع ثم كيف تأكل مع الشوربة هذه الكمية الهائلة من البصل الأخضر . . وفي المضادة المعاورة توجد سيدة أخرى تأكل بالجملة . . فهي تضع اللحم والبطاطس والبيض والمربي والمسطردة والفاصلوليا كلها معاً وتأكلها . . وبعد ذلك تقوم بتقليد الجمل في الأكل . . وأضحك بيني وبين نفسي : .

وأنلقت ورائى لأجد الجرسون قد أتى بصينية عليها مجموعة من عيدان القصب . . و تستطيع أن تخيل منظرى والناس كلهم يتذكون اللهم والبصل ويترجون على هذا الأجنبي وكيف يحطم هذه الأعواد الحديدية .

على فكرة معظم الناس هنا لهم طقم أسنان . . وفي أستراليا كنت أجده إلى جوار سريري كوبا من الماء . . وفي يوم سألت الخادمة عن سبب وضع هذا الكوب . . فقالت لي : لكي تضع فيها طقم أسنانك . .

وتشاءمت وقلت لها : فالله ولا فالك يا شيخة ..

وخشيت أن أقول لها إن أسنانى طبيعية فتمد يدها إلى أسنانى وتشدّها بقوّة
لتتأكد من ذلك بنفسها !

وأخرجت ورقة وقلمًا من جيبي وجعلت أكتب على الورقة أوصاف قصبة السكر ..

وأضغط بأصابعك عليه وأكت ..

ثم أضع الأعواد إلى جوار أنفي وأشدها وأكتب ..

والناس في دهشة أكبر وأكبر .

وفي إشارة جافة طلبت من الجرسون أن يأخذ القصص . .

وكان الجرسون في حاجة إلى تفسير ، فقلت له : أنا خبير في صناعة السكر .. وقد جئت للدراسة مفصلة عن عيدان القصب وزعازيع القصب في كل مكان .. في السوق وفي المطاعم وفي الكباريهات أيضا ! .

وضحک الجرسون ..

وفي اليوم التالي حلقت رأسى على الطريقة الصينية .. واحتربت الصحف الصينية .. وجعلت أرفع حواجى إلى أعلى وتحولت ابتسامات الناس إلى ضحك .. فقد تأكروا أننى فعلاً أجنبى وأننى أبالغ في تقليد الصينيين وخصوصاً الكلام .. فقد أصبحت لغى الإنجليزية كالصيني المكسر !

ولذلك تعودت شيئاً جديداً لأحبه لقబ ذات أضخم السيجارة في . . . كان السيجارة عكاذا يستند عليه الكلام عندما يتمشى بيني وبين الناس !

• • •

وركبت القطار من محطة كولون .. إلى مدينة شونج شوي – أو سونج سوي
بلهجة أهل باتون .. وهي الولاية الجنوبيّة للصين الشعيبة .. القطار

هنا ثلاث درجات—فِي ألمانيا ألغوا الدرجة الثالثة وفي روسيا ألغوا الدرجة الأولى
والثانية وفي أندونيسيا ألغوا القطارات نهائياً واكتفوا بأن يركب الناس الريكسا ..
وفي أستراليا ألغوا القطارات ليركبوا الطائرات .. وأتمنى أن أعود إلى القاهرة فلا
أجد سلماً الترامواي عندنا !

و هذه المدينة الصغرى تقع على حدود الصين الشعبية .. و انطلق القطار لمدة ساعة في الأرض الجديدة التي استأجرها بريطانيا من الصين الشعبية لمدة 99 سنة ابتداء عن سنة 1898 ..

وعلی جانب القطار توجد حقول الأرز والبيوت الصغيرة للفلاحين الصينيين ..
حياتهم بدائية . والحقول مقسمة إلى قطع صغير جدا . . والفالح الذي يملك قيراطا
من الأرض . . يزرع ربعه أرزا ، وربعه فحرا ، وربعه بصل ، والربع الباق
ي يجعله على هيئة حوض من الماء .. تسقط فيه الأمطار أو يخوض فيه الماء ويتنقله بالجرار
أو بالرشاشة إلى الحقل . . وبعض الفلاحين يربى الأسماك في هذا الحوض .
والمرأة الصينية هنا تنتقل من مكان في الحقل إلى مكان آخر وهي جالسة على
كرسي يشبه كرسى الحمام عندنا . . والأرض على هيئة مصاطب . . وبين
المصاطب قنوات . . والفالح يعمل كل شيء بيده . . ولا يستخدم أية آلات
حديثة . .

ولما نزلت إلى مدينة سونج سوی لم أجدهاية وسيلة للمواصلات فركبت الدراجة
وراء أحد المرشدين . . وانطلقت بنا الدراجة إلى مسافة عشرة كيلو مترات . . إلى
حدود الصين . . وصعدت الجبل . . ومن بعيد رأيت الصين الشعبية . . وعلى
الجبل توجد علامات بيضاء . . كنت أظنهما الحدود بين مستعمرة هونج كونج
والصين . . ولكن عرفت أن هذه الأحجار البيضاء هي علامات بين عالمنا هذا
والعالم الآخر . . ففتحتها جثت الموقى أو ما تبقى من رماد جثثهم بعد الحريق .

والناس يجلسون على المقاهي ويلعبون الطاولة طول النهار . . وأحجار الطاولة في حجم بطاريات الراديوهات الصغيرة .

والسوق الصينية عجيبة .. فكلها أسماك جافة .. وهناك طبق مفضل عندهم هو أثداء الحنزيرة .. هذا الطبق يشبه عندنا الكبد والكلاوي ..

والشمس ملتهبة جدا هنا . . فانلخط المستقيم الذي يمر تحت قدمي الآن
يمر بالقاهرة ومدريلدوسان فرانسيسكو . . فتحن في درجات حرارة متشابهة . .
والشمس كانت قاسية جدا ولم نجد مكانا نجلس فيه . . فمحطة السكة الحديد
هنا صغيرة جدا وليس أمامنا إلا دخول أحد الدكاكين . . وفيها مقاعد وفيها
أكثر من سرير . . وهي طبعا لصاحب الدكان وأولاده الكثرين جدا . .
وشربنا لبنا موضوعا في زجاجات . إنه خلاصة اللبن ، يشبه الأرز أبو لبن . .
وسألت صاحب الدكان محاولا أن أبدو غريبا جدا وقلت له : بلادكم
عجبية ! كيف تحولون اللبن إلى أرز ، والأرز إلى لبن ؟ !

وهز الرجل رأسه يمينا ويسينا مؤكدا لي أنه ليس شيوعبا ، لأنه لو كان
شيوعبا لهزها يسارا ويسارا ولم يقل شيئا .. عرفت أن «تبليين» الأرز و (تأريز)
البن سر لا يعرفه أحد .. أو لا يجب أن يعرفه أحد مثل شرب زجاجة بعلاحيم
ثم لم تعجبه ، وعندما بصدق على الأرض ، لم يكن ذلك بسبب ذبابة دخلت في
حلقة ، ولكن لأن مرارة الأرز بدأت تتسلل من جديد إلى فه !

* * *

وهناك أنواع أخرى من المرارة ..

في الليل ذهبت إلى ملهى « الشمبانيا » .. جو جميل .. موسيقى صاحبة
وسحب من الدخان .. تتحرك فيها فتيات كثيرات كأنهن قراميط وبلطى في حوض
من الزجاج .. كل الناس يضحكون ويرقصون .. وقد تتوهم أن أحد الابراك ..
فتجلس في أحد الأركان وتتوارى وراء أحد الأعمدة وتشاغل بشئ .. فتضيع
يدك على خدك وتفكك معى في الفصل القادم من هذا الكتاب وماذا تكتب وكم
يوما تبي قبل أن تنزل الأمطار والجليد .. كيف تختار الطائرة التي تعانقها العواصف
في الطريق .. وتتذكر بعض الخطابات الحلوة .. والكلام الحلو الذي كنت تمضغه
كالبلان الأمريكي أو تشميه كالنوشادر .. وفي هذه اللحظة شعر بهزة عنيفة تحت
المنضدة .. إنها ساق فتاة صينية جميلة تضغط على رجلك وتمديدها لك وتقول :
ملى عدت !

فأقول : منذ أيام ..

- وأين صاحبك الآن وكيف حاله . . . ألا يزال يفكر في الزواج ؟
فأقول لها : بخير . لقد تزوج وعنته ولدان الآن . .

- متى يحضر هنا ؟

- أعتقد في نهاية الأسبوع . . إنه في شوق شديد إليك . .

- وستبقى هنا وحدك إلى متى ؟

- لا أعرف . .

- إلى الساعة الثانية ، هذه المرة اسمع كلامي . . ماذا كتبت أمس ؟

- أمس . . قصتك في العام الماضي . .

- أنا مشغولة الآن . . وسيكون عندنا وقت أجمل فيما بعد .. أنت لا تشرب

- لا أشرب . . .

- لأى سبب ؟ ديني ؟

- صحي . .

- أنت دائماً مهتم بالمسائل الصحية .. أحسن .. ولكن صديقتك لن تعود .

لقد طردها من هنا .. لقصة مشابهة .. طردوها .. هل تسمعني !

- أسمعك طبعاً هل يبدو أنني سرحان ؟ . أنا شكلني يبدو أنه سرحان .. ولكنني في الواقع لست سرحان . هل نظرت إلى عدسة آلة التصوير ؟ إنها بلا أحافن وبلا رموز ولا تتحرك ولكنها تلتقط كل شيء .. وأنا أيضاً كذلك ..

- ماذا قلت ؟ . أنت لا تزال تعمل نفس العمل .. إنه لا يعجبني .. وهل تبق طويلاً هذه المرة ؟

- يمكن . . .

واستأنفت الفتاة وانتقلت إلى المنضدة ورائي . . وكان هناك شاب يبدو أنه أمريكي . . وجلست إلى جواره وهي تضحك .. ثم نظرت ورائي فقالت لي : لا مواجهة .. أنت جئت هنا تتفرج فقط .. أما أنا فلي شأن آخر .. لي عمل آخر .

واكتشفت بعد وضع يدي الأخرى على خدي الآخر .. وكان خدي الأول لا يتحمل أكثر من صفة واحدة .. وكانت أحمى خدي الآخر .. اكتشفت أنها كانت تتحدث إلى الرجل الذي يجلس إلى جوار الحائط بعيداً عن وأنها

تشير إلى حوادث جرت بينهما أمس .. وأنها لا تقصدني بالمرة ! .

وأفقت من سريري الطويل .. ووضعت يدي في جبلي وتلمست المحفظة ..
ولا أدرى لماذا فعلت ذلك عندما أحسست أن صوتي منحاش .. تماماً كما يتلمس
الإنسان أسلاك الراديو المتداة من البطارية إلى الميكروفون عندما يلاحظ أن
صوت الراديو بدأ ينخفض .. وتنبهت إلى أن الجالس ورأيـه هو صديقـه وهو الآخر
من القاهرة .. . واعتدلت وبدأت أتحدث إليه بالعربية واندهشت الفتاة وخجلت
مني وأحسست أنني انتقمت منها .. وأن انتقامـي كان رهيبـاً عندما نهضنا نحن الاثنين
وتركتـنا لها المنضدة والملهيـ .. ملـهيـ الشـمـبـانـيـ .. معـ أنهـمـ تـكـنـ هـنـاكـ سـوـيـ زـجـاجـةـ ..
انفجرـتـ فـ وجـهـيـ وـ طـارـتـ الـفـلـةـ إـلـىـ عـيـنـيـ .. أـمـاـ فـقاـعـاتـ الشـمـبـانـيـ فـظـلـتـ
فـيـ نـفـسـيـ أـذـكـرـهـاـ وـأـضـحـكـ .. وـعـنـدـمـاـ خـرـجـتـ أـنـاـ وـصـدـيقـ منـ الـخـلـ أـحـسـسـتـ
أـنـ الشـمـبـانـيـ طـعـمـهـاـ كـالـشـورـبـةـ أـمـ خـلـ وـثـومـ .. وـالـحـقـيـقـةـ أـنـ الفتـاةـ جـمـيـلـةـ ..
وـلـمـ يـعـجـبـنـيـ مـنـهـاـ إـلـاـ تـمـيـلـهـاـ .. وـأـحـسـسـتـ أـنـيـ خـشـبـةـ مـسـرـحـ وـأـنـهاـ صـدـعـتـ فـوـقـ
الـخـشـبـةـ وـظـلـتـ تـدـبـبـ بـرـجـلـيـاـ .. وـالـخـشـبـةـ وـلـاـ هـيـ هـنـاـ .. خـشـبـةـ طـبـعاـ !

واقتنـتـ أـنـيـ أـنـصـرـفـ كـإـنـسـانـ غـرـبـ ، لـاـ عنـ تـمـيـلـ ، وـلـكـنـ عنـ حـقـيـقـةـ
وـعـنـ إـحـسـاسـ .. فـأـنـاـ فـعـلـاـ غـرـبـ فـيـ هـذـهـ الـجـزـيرـةـ وـفـيـ كـلـ مـكـانـ ..

آهـ لـوـ أـعـرـفـ كـيـفـ لـاـ أـكـوـنـ غـرـبـيـاـ .. كـيـفـ أـكـوـنـ قـرـيـباـ لـأـحـدـ ..
قـرـيـباـ مـنـ أـحـدـ .. كـيـفـ أـكـوـنـ اـبـنـ بلدـ .. اـبـنـ أـيـ بلدـ .. اـبـنـ أـيـ أـحـدـ مـنـ
الـنـاسـ .. إـنـيـ بـالـفـعـلـ غـرـبـ ، وـلـاـ نـهـاـيـةـ لـغـرـبـيـ ، وـلـاـ حدـودـ لـغـرـبـيـ ..

إنـ هـوـنـجـ كـوـنـجـ مـلـيـتـةـ بـالـغـرـبـاءـ .. بـكـلـ النـاسـ الـذـينـ مـثـلـيـ .. إـنـاـ مـرـتـبـطـونـ
مـعـ بـشـىـ وـاحـدـ هوـ أـنـاـ غـيرـ مـرـتـبـطـينـ !

انتـتـ إـقـامـتـيـ فـيـ هـوـنـجـ كـوـنـجـ ..

وـهـذـاـ تـبـيـرـ دـقـيقـ .. فـإـقـامـتـيـ هـنـاـ هـيـ التـىـ اـنـتـتـ .. أـمـ إـقـامـةـ هـوـنـجـ كـوـنـجـ
فـيـ نـفـسـيـ وـعـلـىـ لـسـانـ وـفـيـ عـقـلـ ، غـلـامـكـنـ أـنـ تـنـهـيـ .. فـالـذـىـ رـأـيـهـ وـالـذـىـ أـحـسـسـتـ
بـهـ .. وـالـذـىـ دـفـعـ صـدـرـىـ إـلـىـ أـعـلـىـ ، وـهـبـطـ بـهـ إـلـىـ أـسـفـلـ ، كـلـ ذـلـكـ لـاـ يـعـكـنـ أـنـ
يـزـوـلـ ..

انتـتـ وـلـاـ أـعـرـفـ مـاـ هـوـ الـذـىـ اـنـتـيـ ..

إن هونج كونج لم تعد قرية من يدی .. وهذا هو معنى النهاية ..

آخر مرة أستخدم فيها الكلمة « كأن » هي الآن فقط .. كأن هونج كونج نجفه كريستال معلقة في السقف ، والسقف هو القانون .

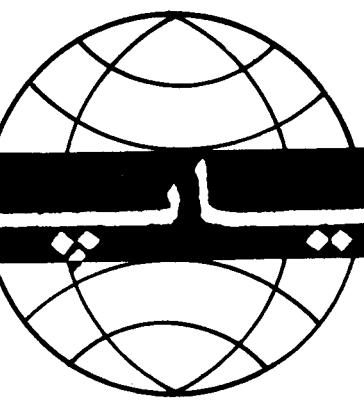
فهي معلقة بين القوانين ، ولكنها تهتز يميناً وشمالاً . فالشعب الصيني هنا قادر على أن يتعلق في أي شيء ثم يهتز ويتأهيل عليه !

ومرة أخرى وأخيرة أستخدم فيها الكلمة « كأن » ..

كأن كل محاولة من جانب البيض ليختلطوا فيها بالناس الصفر هي مثل محاولة خلط الزيت بالماء .

ومن الغريب أن أهل هونج كونج قد أقنعوا البيض ، بأنهم ليسوا كالزيت بالماء وإنما كالعسل بالسمن ..

وقد صدقهم البيض .. ولكن الرجل الصيني هو أرق كذاب في الدنيا !



البيان

● الأَقْزَامُ الْعَالِفَةُ !

بعد سبع ساعات بالطائرة من هونج كونج وصلت إلى مطار طوكيو الطائرة ذات محركات ولهذا كانت المسافة طويلة .. والذين سافروا بعدي بالطائرة النفاثة لم يستغرقوا أكثر من الوقت الذي تستغرقه وأنت تتناول طعاما من اللحم وال السلطة وت quam نصف ساعة أثناء الأكل ثم تنهم منزعجا وتعود للأكل مرة أخرى .. ثم تروى نكتة بايخة لحارك وتعذر عنها نصف ساعة .. وعندما يقبل اعتذارك تكون الطائرة قد وصلت إلى أرض طوكيو !

وكانت الساعة الثامنة ليلا .. والسماء كلها ضباب كثيف وأمطار ورياح باردة .. باردة جدا .. لقد صادف وصولي إلى طوكيو وصول « دينا » .. دينا هذه اسم العاصفة التي تجتاح اليابان .. ولسبب خبيث جدا يطلق علماء الأرصاد أسماء النساء على العاصفة ..

وب قبل هذه العاصفة .. أو صاحبة « العصف » دينا .. كانت هناك عاصفة اسمها شارلوت ..

وعندما نزلت من الطائرة ، ، أعطوني مظلة سوداء لوقايتي من المطر .. وللبيه أعطوني بالطريق للوقاية من البرد .. وللبيه استقبلوني بلون آخر غير هذا اللون الخزين ..

كل شيء كثيف .. الجو .. « والمطار » – لابد أنه نسبة إلى المطر وليس إلى الطيران – وكدت أقول لنفسي لو لا خوف من أن أفتح في هذا الجو البارد فيه دى طوكيو ؟ !

وعندما دخلت المطار وجدت أن المطار فعلا يدل على أنني على أبواب مدينة رائعة كبيرة ضخمة .. المطار هائل .. به أنوار وألوان وأنوار ، وحركة وأنوار وناس وأنوار .. لا توقف .. لا الأنوار ولا الألوان .. إني لم أبالغ في تكرار كلمة الأنوار .. ولكن اليابانيين هم الذين يفعلون ذلك .. وهناك أناس أشكالهم غريبة مختلفة عما تصورت . فقد كنت أتخيل اليابانيين أقزاماً لونهم أصفر ، أو أصفر على أبيض ، أو أصفر على بني ، وتصورت أنهم يلبسون ملابس أخرى.. يلبسون الكيمونو وهو الرى الوطنى .. الحقيقة لم أجده شيئاً من هذا .. فالاليابانيون طوال بيض اللون .. بل لهم شقر .. وحدود السيدات كالافتاح .. خدود بارزة حمراء .. وعيونهم كبيرة .. والفرق بين الياباني والصيني هو أن الياباني أكثر بياضاً وطولاً ، وعيناه كبيرتان جداً والجفن الأسفل مستقيم والجفن الأعلى نصف دائري منفوخ .. ومعظم الناس يرتدون النظارات الطبية ومعظمهم له أسنان ذهبية.. والوجه الياباني جميل ..

ويظهر أن بنات الصين وبنات اليابان قد اقتسمن الجمال هنا في آس كلها .. فالمرأة الصينية يتمتعى الإنسان أن يراها عارية تماماً بشرط أن تضع ورقة توت على وجهها .. والمرأة اليابانية أيضاً بشرط أن تخفي ساقيها تحت الأرض .. وإن كانت عين المرأة اليابانية نصف دائيرية فإن ساقيها دائريتان وساقيها معوجتان جداً . وتندهش كيف أن المرأة اليابانية تستطيع أن تمشي .. ولكن المرأة اليابانية تمشي وهي تقفز وتتكاد تقع إلى الأمام .. أو تمشي ورجلها تكاد ان تلف الواحدة على الأخرى ثم تسقط على الأرض .. فعندها جاذبية .. جاذبية أرضية .. !

وفي المطار يسألوننا إن كانت معنا سجاير .. لأن اليابان كلها سجائر خاصة . بلى الحقيقة أن اليابان عندها كل شيء .. لقد صنعت كل شيء ابتداءً من المسار الذي يوضع في الحذاء إلى الخيط الرفيع الذي توضع فيه مفاتيح القاطرة الكبيرة .. فالإليابان هي المثل الأعلى للدولة التي تعتمد على نفسها . والتي تصنع كل شيء بأيدي أبنائها ، وتبيعه في كل مكان في العالم ، ولها سمعة هائلة .. والطريق من المطار إلى الفندق مظلم جداً ، والشوارع خالية من الناس .. السيارة التاكسي التي تنقلنا كاديلاك وبها مدفع ، ولكن البيوت كلها قديمة .

وكلها من طابق واحد ، وربما كان السبب هو وقوع الزلازل والبراكين .. ففي اليابان ١٩٨٥ بركانا نصفها ما زال نشطا .. والقانون هنا يمنع بناء المباني الكبيرة إلا بشرط قاسية ، حرصا على سلامة الناس . واندھشت جدا عندما عرفت أن أهل طوكيمو قد ناموا ، وكانت الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف ؛ والسبب هو أن «دينا» كانت قاسية هذه الليلة ولكن في اليوم التالي سيكون الجو صافيا .

* * *

وطوكيمو أكبر مدينة في الدنيا ، فعدد سكانها هي وضواحيها ١٥ مليونا وفندقها الكثيرة مزدحمة بالناس .. فهناك نشاط تجاري وسياسي ونشاط دولي . والحصول على غرفة في أي فندق يعتبر عملا من أعمال البطولة .

الحقيقة لم تبهني طوكيمو ، وأحسست بكثير جدا من خيبة الأمل وحسدت اليابانيين على براعتهم في الدعاية لبلادهم ، بلاد الشمس المشرقة .. ويظهر أن الشمس تشرق هنا فوق السحاب فقط !

* * *

لم أجد أى شئ يبابي بالمعنى الحقيقي ، فيما عدا شيئا واحدا .. وهو أنني عندما دخلت الفندق وجدت ثلاثة فتيات قد ارتدين الكيمونو وانحنين انتباة تامة - في حالة ركوع تقربيا - وفهمت أن هذه الانحناءة لشخصي . على إيه ؟ لكن هذه هي التقاليد . كل إنسان ينحني لإنسان مرة أو أربع مرات في لحظة واحدة ، وفي المطار لاحظت أن الناس رجالا ونساء يتلفون حول بعض المسافرين وينحنون جماعة - كالصلة تماما - وهذه الفتاة قدمت لي الشيش بشirt ونزلعت حذائي وتركته أمام الباب .. والشيش يحب أن أنتقل به من مكان إلى مكان في داخل الفندق وأنفع حذائي لتنظيفه في الحال ووضعه في مكان أمن حتى الصباح . وفي غرفتي وجدت الكيمونو نفسه على شكل «روب» صغير ألبسه فوق البيجاما .. وعرفت بعد ذلك أن الروب يجب لبسه بلا بيجامة .. وهذا ما لا أستطيعه ، فالدنيا برد .. زمهرير ..

نسيت أن أقول إنهم سألوني في الفندق : هل تزيد حجرة يابانية أو أوروبية

فقلت : أوروبية .

فقد لاحظت أن اليابانيين لا يرتجفون مثل . وخشيت أن تكون الغرفة اليابانية فوق السطوح وأن يكون النوم بلا غطاء أو بقطاء على أن تبقى النوافذ مفتوحة .

وفي اليوم التالي عرفت أن الغرفة اليابانية أصعب بزمان .. فالنوم مثلا فوق مرتبة على الأرض ، والطعام على منضدة صغيرة جدا . وإذا أكلت يجب أن تجلس على ركبتيك . وإذا جلست يجب أن تجلس على قرافيصك . والتقاليد تقضي بأن تشرب الشاي الأخضر في كل وقت . والشاي الأخضر من غير سكر .. وهو مجانا !

وتنبأت أن أرى شيئا يابانيا لم أكن أعرفه .. وليس من المعقول أن أصل إلى اليابان في الليل ، وأظل جاهلا حتى الصباح ، أنزل من الطائرة لأصعد فوق سرير وأبيق كذلك حتى الصباح .. فطلبت عشاء يابانيا وسألوني عن نوع الأطعمة ولما كنت لا أعرف فقد طلبت من مدير الفندق - الباب هنا - أن يختار لي طعاما على ذوقه هو .

وانتظرت المفاجأة . ودخلت فتاة بالكيمونو وانحنت جدا جدا .. ووضعت المنضدة وانحنت جدا جدا ، وخرجت ودخلت فتاة أخرى وانحنت في دخولها وخروجها ، ووضعت فنجانا من الشاي الأخضر . ودخلت فتاة ثالثة صغيرة ووجهها حلو وانحنت بالقوى وقدمت لي فوطة ملفوفة بالماء لأغسل يدي ، وفوطة أخرى ساخنة لأغسل يدي .

وبعد ذلك دخل المدير وانحنى ووضع أكوابا - عرفت فيما بعد أنها أطباق - وفي الأكواب ألوان سائلة خضراء وحراء وصفراء .. وحراء وصفراء وخضراء وعرفت فيما بعد أن هذه شوربة الخيزران الأخضر ، وهذه قواعق بحرية ، وهذه أذية ثعابين مائية ، وهذا جمبري محمر بقشره وبرأسه شواربه كاملة ، وهذا أرز مسلوق معجون وليس به ملح ، وهذه سلطة خضراء من اللفت والكرنب - وقد عرفت فيما بعد أنه خس - وقطعة من الجبن المدخن ، ثم هذا طبق من السمك التي .

ولسبب غير مفهوم قررت أن أكل هذه الأشياء جميعاً .. وقد نسيت هذه الأكلة وتعدمت أن أنساها ولا يذكرني بها الآن إلا البعض زجاجات الفيتامين « يو » وبعض الأنتروفيفورم .. لقد ظلت بطنى تغص أسبوعاً كاملاً .. كان بعضها ينفع النار على بعض .. ولزمت الفراش وكلما سمع أحد اليابانيين ذلك يندهش .. كيف أجرؤ على أكل هذه الأشياء كلها مرة واحدة ..

وعرفت أن المشكلة هنا في اليابان هي مشكلة اللغة : فديري الفندق لم يفهم كلامي .. فأنا طلبت بعض الأطعمة اليابانية لا كل الأطعمة اليابانية .. لم أطلب اللبن والسمك والمقرن الهندى والصفادع والثعابين .

والخلاصة أن استقبال طوكىو لشخصى كان سيئاً جداً .. وكل يوم أرى طوكىو أجمل وأروع ، كأنها هي الأخرى حريرصة على عو هذا الآخر . وقد نجحت - هي وأنا - في ذلك .

وإليك على سبيل التسلية هذه الألغاز :

- ١ - في الشارع ستتجدد فتيات قد وضعن حمامات على الأنف وعددهن كثير جداً .. وستتجدد في كثير من محلات الحلاقة رجالاً قد وضعوا نفس الحمامات !
- ٢ - تتجدد شباباً في ملابس رعاة البقر وقد وضعوا التيجان المذهبة على الرأس ، وأمسك كل واحد منهم عصاً عليها بعض الزخرفة والأرقام .. !
- ٣ - في الليل ستتجدد فتيات جميلات يمشين ببطء شديد جداً ولا تلتفت الواحدة منهن يميناً أو شمالاً ولكن في فهار صفارة لها صوت حزين جداً . !
- ٤ - أصوات سيدات يضرن الأرض أثناء السير ..
- ٥ - باللونات طائرة في سماء طوكىو .. وباللونات يمسكها أطفال فوق الأسطح .
- ٦ - كل فتاة تحمل على ظهرها شبهة مخلدة صغيرة .. !
- ٧ - طوابير من الشبان .. عشرات الآلاف بملابس عساكر البوليس ،

السوداء .. الجاكيتات ضيقة وها زرابير نحاسية ولها ياقات تلتف حول العنق . كلام صغار ومعهم فتيات جميلات .. ومن بين الفتيات واحدة تجرى مسرعة وتتوارى بين الشبان .. مع أن السبب تافه جدا .. !
«أقرأ حل الألغاز في نهاية هذا الفصل » ..

* * *

لاحظت أن الياباني لا يستطيع أن يفكر في شيئين في وقت واحد . فإذا دخلت على ياباني في مكتبه وكان يتحدث في التليفون فإنه لا يمكن أن يراك أو يسمعك أو يلتفت إليك .. وإذا حاولت أن تنبهه ، كان من الصعب عليه أن يتبه إليك .. وإذا تنبه إليك بصعوبة جدا وفي هذه الحالة ينسى التليفون .. إنه يقوم بشئ واحد فقط في وقت واحد .

وإذا كنت قادما من هونج كونج فسترى الرجل الياباني بطريقا جدا جدا !
وإذا كنت قادما من الهند فستراه سريعا جدا ، ذكيا جدا ..
وإذا كنت قادما من الفلبين فستراه حزينا بليدا ..
وإذا كنت قادما من أندونيسيا ، فستراه أشقر اللون عملاقا ..

والحقيقة أن الرجل الياباني يتقن عمله جدا ولا شيء يتم هنا بسرعة .. ولكن من المؤكد أن كل شيء يتم .. ويكون الرجل الياباني فخرا أن كل شيء في بلده قد صنعه .. البيت والمطعم والفندق والشارع والمحطة والمطار .. السيارة والبدلة والخذاء وعقد اللوم وسلام البوابات .. والياباني لهذوق جميل ، إنه أستاذ في فن العرض والدعاية .. والإعلانات في طوكيو فن رائع .. ومدينة طوكيو في الليل يحب أن تراها أكثر من مرة .. ترى الناس ، وهذا معرض حي .. وترى الفترinetas وهذا معرض فاتن .. ثم الإعلانات الملونة ، إنها مدهشة .. ولا يحب أن تستغرق في النظر والتأمل وإلا أطاحت بك إحدى السيارات .. فسائقو السيارات هنا كلهم كانوا طيارين في الحرب الأخيرة وكانوا من الفدائين .. !

والسيارة صنعواها والقاطرة والراديو الصغير . كل هذا صنعوا .. وفي عشر سنوات ..

والسيارة معناها عشرات الصناعات : صناعة الحديد والزجاج والطلاء

والمصايد والقهاش والجلد.. ثم النقل والدعاية والبيع ، والشراء والتصلیح والتسويق .
ويُمکن أن يقال : لا جدید تحت شمس اليابان . . فکل شيء هنا قد
اقبیسه اليابانيون من بلاد أخرى . . كل شيء أخذوه عن الدول الأخرى وحسنوه
وجملوه وصدروه إلى الخارج وباعوه أصغر وأرخص وأکثر من البلد الذي
اقبیسه منها .

والرجل الياباني ليس مخترعا ولکنه مقلد عقرى . . إنه مقتبس . إنه يترجم
ويتصرف . . إيه بلغة الصحف « مراجع » . . يعيد كتابة الموضوعات ويضع
ها العناوين ثم يعرضها في الإطار المثير . . إننا لا نذكر من الذي اخترع الراديو
الصغير . . لأنهم ليسوا اليابانيين . . ولكن اليابان أصبحت هي الدولة الوحيدة في
العالم التي تفخر بهذا الجهاز وتبيّنه في كل مكان وبأسعار رخيصة . . والاسطوانات
وأجهزة التسجيل وأجهزة التليفزيون . . كل ذلك صناعة يابانية .

واليابان هي المثل الأعلى للدولة التي تقف على قدميها وتضمر هاتين القدمين
 فوق أكتاف الآخرين . والمثل يقول : إن الفزم من الممکن أن يرى أكثر
من العملاق إذا وقف على كتفيه .

وقد وقفت اليابان على أكتاف الدنيا . . والمهم أنها وقفت وأنها تفوقت . . كل ذلك
في ٤٠ سنة ، وبأيدي مائة مليون من أناس مهذبين ، ونشيطين ، ومتقدسين
أيضا .

ونحن في القاهرة نبكي ونلطم خودد الأمانة والصدق . . والفضيلة والشرف
عندما يقتبس فنان لحنا موسيقيا أو يقتبس فكرة مسرحية . . ونقول : أمسكوا
الحرامي !

إن مائة مليون من المواطنين هنا يسخرون من هذه « الخذلة » وهذه « الخنبة »
وهذه الفرامل التي توئخنا وتربطنا بمحال من الخوف والتردد . فالليابان لم تترك
 شيئاً جميلاً أو جديداً في الدنيا لم تنقله ولم تعمل مثله . بل إن اليابانيين نذ تفوقوا
على أساتذتهم ..

وهم يعترفون بذلك ويصعّكون ، ولکنهم لا يخجلون . .

قال لي فنان ياباني أمس : إن جمهورينا العربية ستعرض هنا مجموعة من

التماثيل الفرعونية التئية ، وحدرني من المغامرة الخطيرة. ثم قال وهو يضحك إننا نستطيع أن نقلدتها ، فيصعب عليكم أن تفرقوا بين الأصل والتقليد .. وقال أيضا .. إن حكومة كوريا طالبنا بإعادة التماثيل التي أخذناها منها وسردها .

وقلت : الأصل أم التقليد ! .

فقال : الأصل .. والتقليد سيظهر فيما بعد.

ويقال : إن الألمان عندما قاموا بعرضهم الأخير في المانيا منعوا اليابانيين من دخوله حتى لا يقلدوا المعروضات ثم يملأوا بها أسواق المانيا قبل أن ينتهي العرض !

وف طوكيو شارع اسمه جنزا .. إنه لؤلؤة .. شارع جميل طويل عريض .. كل شيء فيه جديد رغم أن الحرب قد هدمته كلها .

إنه يشبه شارع بيت في سيدني .. وشارع الشانزيليزيه في باريس ، وشارع كورسو في روما ، وشارع رنج فيينا ، وشارع كورفير ستندم في برلين ، وشوارع سليمان باشا وقصر النيل وعماد الدين في القاهرة .

وفي استطاعتك أن تدخل أي محل وتنقلب في البصائر كما تزيد والناس يتسمون لك سواء اشتريت أو لم تشتري .. ولكن اللغة هنا مأساة .. ففي اليابان ٢٢٠ جامعة من بينها ٢٧ جامعة في طوكيو .. ونسبة التعليم ١٠٠٪ ، ولكن اللغة الإنجليزية من النادر أن تجدتها على لسان الياباني وإذا وجدها على لسانه فلن يسمع لها بدخول أذنه .. وإذا دخلت فليس معنى ذلك أنه فهم شيئا ..

ولو دخلت محل فكهانى تحس أنه لا يبيع فاكهة إنما يبيع قطعا من الماس أو اللؤلؤ .. نظيف جدا إذا اشتريت فسيلف لك التفاح الكبير جدا والعنب الكبير جدا في ورق ملون جميل .. واللغة نفسها أنيقة . وكانت اللغة بينتنا بالإشارة : عاوز من ده .. بلاش دى .. هات دى ..

وبعد أيام من بقائي في طوكيو تعودت أن أتأمل .. أن أرى ولا أنكلم .. وتذكرت القصة اليابانية التي تقول : إن ملكا طلب من أحد الرهبان أن

يربي له ديكًا ليشتراك به في مصارعة الديوك ، وبعد عشرة أيام سأله : كيف حال الديك ؟

فأجاب الراهب : إنه لم يعد يصفع !

وبعد عشرة أيام أخرى سأله الملك : كيف حال الديك ؟

قال الراهب : إنه الآن يزعج من صياح الديوك الأخرى !

وبعد عشرة أيام سأله الملك : والآن ؟

قال الراهب : إنه الآن قد تخلى عن غروره !

وبعد عشرة أيام سأله الملك : ماذا حدث له الآن ؟

قال الراهب : إنه الآن يلزم الصمت ، يقف متجمداً وعيناه جامدتان ولا يشعر بأحد ولا يريد أن يأكل أو يشرب .. إن أي ديك آخر سيفزع إذا نظر إليه .

وأنا لم أكمل العشرة الأولى . ولكن أي إنسان آخر يراهن فسيفرغ مني ، فلنني أمشي كالديك مختالاً متأملاً غارقاً في التفكير !

وهذا هو الحل ! !

١ - كل هذه الفتيات مصابات بالزكام وقد وضعن الكمامات حتى لا تنتقل العدوى إلى الآخرين .. أما الرجال فلسبب بسيط جداً هو أنهم يخلقون ولا يصنعون بضم الربون رائحة أنفاس الأسطى .

في المند من المسكن أن تجد هذه الكمامات ولكن لسبب آخر وهو خوف بعض المتزوج أن يقتلوه الميكروبات أثناء الفحص !

٢ - هؤلاء الشبان يعلون عن الحالات التجارية .. والزخرفة هي حروف يابانية والأرقام هي أسعار أشياء لم أعرف ما هي .

٣ - هؤلاء السيدات يقمن بأعمال التدليل . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يعلن بها عن أنفسهن .. معظم هؤلاء النساء ضريرات .

٤ - قباقيب السيدات .. أو الأحذية اليابانية وكلها مثل البيوت مصنوعة من الخشب .

٥ - هذه البالونات هي إعلانات أيضاً عن الحالات التجارية .. أما الأطفال فيحركون البالونات أو يحرسونها حتى لا تنفجر أو حتى لا تهبط إلى الأرض فيلقطها أحد السياح على سبيل الذكرى أو الاستحسار .

٦ - هذا جزء من الكيمونو وهو الذي القومي في اليابان .. وهذه الخدمة لكي ترتكز بها على الخاطئ عندما تجلس على ركبتيها عند الأكل أو عند الجلوس العادي

٧ - هؤلاء جميعاً تلاميذ مدارس .. فطلبة المدارس لهم زى موحد .. وهو الأسود .. أما هذه الفتاة فهي تعمل في الفندق الذى أنزل به وقد ضبطتها مرة تحاول قراءة كتاب فوق سريرى .. وابتسمت أنا .. ولكنها شعرت أنها ارتكبت جريمة ..

وكلما حاولت إقناعها بأن هذا الشىء تافه جداً .. وأحاول أن أحترم لها عن الكتاب الذى أفسد ابتسامتها الحلوة التي كنت أراها كل صباح ! فلنها تهرب مني .. وتختفى في الزحام .. ولكنني أحاول اللحاق بها ولم أفقد الأمل ! ..

● نزلت أمطار الخريف!

قبل أن أسافر إلى اليابان قرأت كل النشرات الجوية .. وكل مجلات الدعاية اليابانية الأنique .. كلها تقول الجو صحو .. السماء صافية .. أمطار خفيفة على الساحل .. الشمس مشرقة .. فهنا بلاد الشمس المشرقة .. وهذه أخبار سارة جداً. وارتديت ملابسي الصيفية – وكل ملابسي صيفية – ودهشت عندما رأيت بعض المسافرين من هونج كونج إلى اليابان يحملون بالطوابط الشتوية وبعضهم يحمل المظلات، ورأيت كل الفتيات قد ارتدن البلوفرات . فأمده يد إلى النشرات اليابانية وأقرأ من جديد .. وأسائل المضيفة اليابانية عن الجو في اليابان فتقول : إنه رائع .. إن هذا هو الموسم السياحي .. ولأنني وصلت في الوقت المناسب ..

وفعلاً عندما وصلت إلى طوكيو كان الوقت المناسب لسقوط الأمطار وامتلاء الشوارع بالأوحال .. وكان المطر ينزل ، كأنه فتافت الثلج . وأحسست أنني خدعت للمرة الثانية . المرة الأولى عندما سافرت إلى استراليا في سبتمبر .. قرأت نشرات الدعاية وكانت هي الأخرى تعلن أن الرياح في استراليا على الأبواب ، وأن الحرارة قد ملأت كل مكان وأن السائح ليس عليه إلا أن يرمي ملابسه في المطار ، وإلا أن يرى نفسه على رمال الشواطئ في مدينة سيدني .. وعندما وصلت إلى استراليا أحسست أن الطيار قد هبط في القطب الجنوبي . وتوقعت أن أرى عربات الإسكيبيو . وأن تكون المضيقات من الذيبة ذات الفراء الأبيض الفضى .. ولكن كانت المفاجأة أكبر مما تصورت . لقد وجدت الناس في استراليا وقد ارتدوا ملابس الصيف ..

وعندما هبطت مطار طوكيو أحسست كأنني هبطت مطار سيدني .. وبدأت أتلمس الجانب الأيسر من صدرى ومن بطني .. كلها توجعني .. وخز .. وضرب ، كان هناك من يضربني مرة بالمنجل ومرة بالمطرقة .. وبعد ذلك أحسست بالألم يشيع في كل جسمى .. وكلما سألت أحد اليابانيين عن الجو العجيب قال لي ما معناه : احمد ربنا .. لو جئت هنا في الصيف لست من شدة الحر ..

وسألت إن كانت طوكيو التي تقع فوق خط ٣٥ أكثر حرارة .. من جاكرتا التي تقع على خط ٦ وعلى مستوى البحر .. فأجابوا جميعاً أن اليابان أكثر حرارة . ولكنني لم أصدق فدرجة الحرارة في مدينة جاكرتا في الثامنة والنصف صباحاً تساوى درجة الحرارة في القاهرة في الواحدة من بعد الظهر في شهر يوليو .. ودرجة الرطوبة في جاكرتا ١٠٠٪ . ولكن اليابانيين هنا يعتقدون أنهم في أحسن فصول السنة .. ويحاولون إقناعي ويحاولون أن يفرغوا جيوبى من الأسبرين ومن الفيتامينات : سين وجيم .. وباء .. ويحاولون أن ينزعوا الفنلات الطويلة والبلوفرات الثقيلة .

وعندما ذهبت إلى سفارتنا وجدت السفير في ملابسه الصيفية .. وكل موظفي السفارة حتى الساعى .. كلهم في الملابس الصيفية .. ولم يعد هنا شك في أن الجو في طوكيو حار كما تقول التشرفات .. ولكن العيب في جسمى الذى لم يعد قادراً على مقاومة البرد ..

مسكين قلبي هذا .. إنه كان قبل ذلك يشبه المضخة الكبيرة التي تدفع الدم لا إلى جسمى فقط ، ولكن إلى جسم أى إنسان آخر يجلس على مسافة شبر مني .. أما اليوم فهو يشبه «جلدة القطار» .. لا يدفع الدم إلا قطرة قطرة .. إلا دمعة دمعة .. فجسمى في حرارة دمعة العين !

* * *

لا أعرف بأى شيء كانت تشتهر اليابان فيما مضى .. كتب الجغرافيا التي درسناها كانت تقول : إنها بلاد الشمس المشرقة . ولأهلها عيون منحرفة ، ويلبسون الكيمونو ، ولم يملك اسمه الميكادو ابن السماء ، وهم يعبدون الشمس وعندهم

براكيں وزلزال ، ویبوthem مصنوعة من الخشب ، ویزرعون الأرز ، ویعيشون
علی السمک . بالغ .

كل هذا الكلام صحيح ، ولكن اليابان أكثر من ذلك وأحسن وأعظم ..
فبلادهم اليوم تشتهر بأشياء أخرى .. والذى لم ير اليابان وإنما سمع عنها يعرف
أن اليابان هي بلاد الراديو الصغير واللوّلؤ ..

وإذا كان هناك في بلاد أخرى مثل مانيلا أو سنغافورة أو هونج كونج كونج
من يقترب منك ويهمس في أذنك : مش عاوز بنت حلوة .

فإن هذا يحدث في اليابان أيضاً ولكنهم يسألونك : مش عاوز سوني ..
سوني جميل ..

وسوني هذا هو اسم أكبر شركة لصناعة الراديوهات الصغيرة .. وأحسن
راديو ثمنه الآن عشرة آلاف ين .. أى حوالي عشرة جنيهات ..

والراديوهات الصغيرة هنا تباع في كل مكان .. في محل الأقمشة ومحال
الحلوى ومحال السجائر ..

والشيء الآخر الذي يلفت السائحين هنا في اليابان هو اللوّلؤ . فالبابان
تستخرج اللوّلؤ من البحر وتعمل على تربية اللوّلؤ أيضاً .. فعندها لوّلؤ طبيعي .
ولوّلؤ صناعي ..

والعقد من اللوّلؤ الذي يلتف حول العنق مرة ومعه الحلق والخاتم .. ثمنها
جميعاً ١٨ جنيهاً .. والعقد من اللوّلؤ ذي الحبات الكبيرة ويلتف حول العنق مرتين
ويتدلى إلى ما يقرب من الصدر ثمنه أربعون جنيهاً .. طبعاً في القاهرة يساوى ثلاثة
أمثال هذا السعر .. أو أكثر !

ومن النادر أن نجد يابانية قد ارتدت عقداً من اللوّلؤ .. إنها تكتفى بخاتم ..
والسبب هو أن اللوّلؤ غالى الثمن بالنسبة للبابانيات فمستوى المعيشة هنا مرتفع ..
ولكنه أرخص من الفلبين .

وأشهر محل لبيع اللوّلؤ هو محل ميكوموتو الذي اخترع تربية اللوّلؤ ..
وال محل يعرض بكل تواضع في شارع جزءاً ما يساوى عشرة ملايين جنيه من
اللوّلؤ في فترات بسيطة جداً وغير ملقة للنظر أيضاً .

وبعد ذلك في اليابان كل شيء آخر .. كل شيء صنعه لنا .. وصغروه وأضافوا إليه الكثير من ذوقهم .. واليابانيون برعوا في «لف» السلع .. فقد تشرى قطعة من القماش أو لعبة يجدها مثلًا أو أقل من جنيه فتجد البائع الياباني قد لفها لفًا أنيقًا حتى ليصعب عليك أن تترك الورق والعلبة التي وضعت فيها قطعة القماش .

ولإذا اشتريت من الرجل الياباني بضاعة بألف جنيه . أو عشرة قروش فإنه ينحني لك في أدب كأنك جئت تشرى محل كله ..

وقد حدث أن أعجبني أحد الحالات فدخلت في الزحام أتفرج على محل ، ووقف إلى جواري صاحب المحل في أدب وانحنى انحناءة كبيرة فهزّت له رأسى .. وقلت له إنتي معجب بنظام المحل وأنا جئت أتفرج فقط .. فانحنى الرجل شاكرا وتركتني .. وبعد لحظة جاءت فتاة ووقفت إلى جواري بعد انحناءة كبيرة فقلت لها نفس الكلام .. فقالت إنها تعرف ذلك ومن أجل هذا جاءت تساعدني على رؤية المحل كله .. والحقيقة أنني انكسفت فاشترت بكرة خبط .. أى حاجة !

والانحناءة تلاحقني من أيدين والشمال .. وذهبت لأدفع ثمن البكرة فانحنى الرجل ورفض أن يقبل ثمنها ، وقال إن هذه هدية من المحل ..

ولم أفهم السبب . وحاولت أن أردها ولكنه رفض في انحناء .. فأخذتها .. ماذا أعمل .. لأنهم موظبون أكثر من اللازم ..

● بَنَاتُ الْجِيَّسِتَا

هناك طريقتان لكي تعرف اليابان :

الأولى أن تقرأ كل نشرات الدعاية التي توزعها السفارات .

والثانية أن تذهب إلى اليابان نفسها ، لتعرف أن نشرات الدعاية متواضعة جداً . فالإليابان أروع وأعجب مما تتصور ، وفيها التليفزيون الملون . وفيها أحدث عدسات التصوير ، وفيها القباقيب ، وفيها يأكلون السمك شيئاً ، ويشربون الشاي مراً إلا في يوم ٨ أبريل من كل عام وهو عيد ميلاد الإله بوذا . وفيها أناس يعلقون المقشات على الأبواب ، فالمقشات تكتنس الشرور والأمراض . وفيها سيدات ينثرن الملحق بعد زيارة أي ضيف . وفي اليابان شركة طيران يابانية وفيها مضيقات يرتدين الكيمونو . وفي اليابان كل الأمهات يحملن الأطفال على الظهر حتى الثانية من عمرهم ، فتلتوى ساقا الطفل و « تتعوج » عيناه ، ويصبح صدر الفتاة الصغيرة « مطبيقاً » ليس فيه أنداء . وفي اليابان أجمل فنادق الشرق الأقصى . كلهم ، وفيها تنام على الحصر اليابانية الناعمة . وفي اليابان الدقة في العمل ، وفيها البطء الشديد جداً في الفهم . ورغم الاحتلال الأمريكي الذي استغرق أكثر من عشرين عاماً ، فإن اليابانيين لا يعرفون من اللغة الإنجليزية إلا كلمة « توالٌ » .. وهي الكلمة الوحيدة التي تتجدها بوضوح في كل فندق وفي كل محطة سكة حديد .. وقد تعلمت كلمة يابانية أخرى اسمها « بفمو » ومعناها « توالٌ » . وعرفت فيما بعد أنها كلمة فلاحى جداً وهى تشبه الكلمات الريفية التالية : « المستراح » أو « الكرسى » أو « المخل » أو « الكنيف » أو « بيت الراحة » .. وكلها معناها التوالٌ طبعاً ، ولذلك عدلت عن هذه الكلمة ورحت أستخدم الكلمة الأوروبية .

واكتشف بعد ذلك أن اليابانيين لا يفهمونها أيضاً ، ولكن يفهموها يجب أن أنطقها بشكل خاص ، وبالطريقة التي ينطقونها بها ، وإلا .. النتيجة معروفة .

* * *

وفي اليابان يعبد الناس الشمس والجبال ، وقد رأيت فيما يحكي قصة الشعب الياباني وكيف أنه أُنزل من السماء ، وأن الشمس هي التي خلقت أبناء اليابان .. وأنهم أبناء الشمس الطالعة .. وأن «اليابان» وهي باللغة اليابانية معناها «نيبون» أو «نيبون» «ومعناها : الشمس المشرقة .. فالإله الياباني هو بلاد الشمس المشرقة . والناس هنا يقدسون الجبال والبحار .. وجلب فوجي يشبه جبل الأوليمب الذي كان يسكنه آلهة الإغريق ويتحكمون في مصير العالم كله هناك . فقمة الأوليمب وقمة «فوجي» هما مقر الآلهة .. ويندش الناس هنا كيف أن الأجانب يتحدثون عن الجبال دون أن يختشموا في كلامهم أو يجعلوا عباراتهم تتحنى في أفواههم قبل أن تخرج .

وهنالك حادثة مشهورة منذ مائة سنة عندما حاول أهل هذه المنطقة أن يقتلو السفير البريطاني لأنه صعد إلى قمة جبل فوجي دون أن يزع حذاءه ، ودون أن يخنِّي قامته الطويلة عند كل خطوة يخطوها .

وابن بطوطة يحكي أنه هو الآخر عندما ذهب إلى جبل آدم في جزيرة سيلان لاحظ أن الناس هناك قد غضبوا منه لأنهم لم يظهر الإحترام الكافي لقمة آدم .. وهي المكان الذي وطئه قدم أبيينا آدم عندما نزل من الجنة !

وهو لاء اليابانيون كانوا يعبدون الإمبراطور .. وكان لقب الإمبراطور هو ابن السماء .. والديانة اليابانية وأسمها «الشنتوية» تقوم على تقدير الشمس وتقديس ابن الشمس وتقدير رغباته وتقدير كل حاكم وكل أب وكل جد وكل ما هو قديم .. ولذلك كان الإمبراطور إلهًا ، فكانت رغبات الإمبراطور فرضاً مقدساً .. وقد اعتمدت الحكومات اليابانية على هذا الدين ومحرت الشعب الياباني في خدمة أغراض الإمبراطور ، ونظمت الجيوش واعتمدت على كل الشعوب المجاورة لها .

ولو رأيت أهل اليابان ورأيت رقهم وأدبهم ودقتهم ، وإن خلاصهم في العمل

وتفوقهم في كل شيء ، لاندهشت .. كيف كانوا وحشًا في الحرب الماضية والتي قبلها .. لقد سمعت قصص الوحشية اليابانية في أندونيسيا وفي الفلبين وفي سنغافورة وفي هونج كونج وفي الصين وفي الملايو وفي فيتنام سمعت ، وأنا في استراليا ، فزع الناس من العذوان الياباني ، وسمعت عن الوحشية اليابانية في جزر هاواي .. سمعت ذلك من اليابانيين المقيمين هناك .

ولكن دين اليابان يأمرهم بطاعة الإمبراطور الذي هو ابن الشمس .. وقد أمرهم الإمبراطور أن يحاربوا . فحاربوا . وأن يقتلوا وأن يذبحوا وقد فعلوا كل هذا .. لأن طاعة الإمبراطور من طاعة الله .. واليابانيون فدائيون جداً . وبعد الاحتلال الأمريكي تغير كل شيء ، لم يعد الإمبراطور إلهًا .. لقد رأيت الإمبراطور يفتح دورة رياضية فضحت السينا بالضحك من الإمبراطور وهو يتتهه (على فكرة : التقليد في بريطانيا تقضي بأن الملك أو الملكة لا يلقى خطاب العرش لأن ملوك بريطانيا كانوا من أصل ألماني وكانوا لا يعرفون الإنجليزية وكانت يخشون أن يشعر الشعب البريطاني بأنهم أجانب ..) .

وقد نشرت الصحف أن الإمبراطور في إحدى الحفلات سقطت من يده زجاجة شعبانيا لأنه يرتجف وأنه مريض .. وقد سمعت المرشدة السياحية تسخر من الإمبراطور وتقول : إنه لم يعد إلهًا .. وسمعتها تقول علينا : إن الشعب الياباني يدين بشئين لأمريكا : تحرير العقيدة وتحرير المرأة ، فلم تعد هناك ديانة رسمية للدولة ولم تعد المرأة خادمة للرجل .

ومع ذلك فإن اليابانيين يكتبون كل يوم ، في كل الكتب والصحف والخطابات التاريخ الإمبراطوري .. فالعالم كله الآن يمشي على التاريخ الميلادي أو الهجري .. أما في اليابان فهم يقولون : نحن في السنة الرابعة والثلاثين .. أى السنة الرابعة والثلاثين حكم هذا الإمبراطور ، وعندما يموت هذا الإمبراطور ويختلفه ابنه يصبح الياباني هكذا : نحن في السنة الأولى للإمبراطور رقم ١٢٥ ، ولم يغير اليابانيون هذا التاريخ بعد !

كان الإمبراطور عمراً على كل الناس لا يلمسه أحد ، ولا يسلم عليه أحد .. والناس لا يرونـه ، لأنـهم يخـشـونـه دائمـاً .. وقطـارـ الإـمـبرـاطـورـ عـنـدـمـاـ يـمـرـ عـلـىـ المـطـحـاتـ ، فـإـنـ كـلـ الـبـيـوتـ يـعـبـ أـنـ تـقـفـلـ التـوـافـدـ وـيـعـبـ أـلـاـ يـكـوـنـ فـيـ الـعـاصـمـةـ

بيت أعلى من القصر الإمبراطوري . والإمبراطور يرتدي ملابسه مرة واحدة ثم ينزع عنها ويهديها إلى أشد المخلصين له !

ستجد اليابان أعجب جداً مما تقول كتب الدعاية ، وستجد أن الشعب الياباني متقدم جداً ومتواضع جداً ومتأنخر جداً ، ومغزور جداً ..

والليابان أربع جزر صغيرة هي : هوكييدو وهو نشو وتوجد بها العاصمة وكيوشو وشوكوكو ..

وليس في اليابان جاهل واحد .. والتعليم إجباري حتى آخر المرحلة الثانوية . وكانت أتصور أن سويف هي أرق بلاد العالم ، ولكن الأرقام تقول إن بها ١٪ لا يقرأون ولا يكتبون . تصور ! والليابان في مقدمة شعوب آسيا وفي مقدمة شعوب العالم كلها . وكثيرون جداً جداً من خريجي وخريجات الجامعات يكتسون الأرض ويسخون البلاط .

قابلت شاباً يعمل في مطعم متواضع جداً في طوكيو ، وقد اخترني على حذائي ينظفه وتركض له الحذاء ، وانحنى على شبشب يقلمه لي . .. ثم أسرع وأتى بمخددة ووضعها ورائي ، وجلس على ركبته وفي يده ورقه يكتب ما أريد من الطعام ، والشاب مهذب ورقيق ويعرف بعض الإنجليزية وعرفت فيما بعد أنه خريج كلية الحقوق وأن مرتبه خمسة جنيهات . وأن مثله عشرات الآلاف :

وهنا في اليابان لا يرون من الضروري أن الطبيب يعمل طبيباً ، ولا دارس القانون محامياً ولا المهندس مهندساً .. وإنما هو يدرس ما يعجبه أو ما يستريح له ، وبعد ذلك يبحث عن أي عمل .

ويكفي أن يرى السائح الأجنبي مدينة طوكيو ويرى شوارعها الواسعة و محلاتها الأنثقة المتوجهة ، ويكفي أن يرى النظافة والنظام ، وأن يتطلع إلى الناس كلهم في ملابس ملونة وصححة جيدة ، ووجوههم لا تكف عن الضحك .. والضحك هنا علامة من علامات الأدب والإحترام . وكلما أمعن الواحد منهم في الضحك وهو يتحدث إليك ، كان معنى ذلك شدة اهتمامه بك ، حتى إذا لم يفهم ما تقوله أنت (في أندونيسيا والفلبين والملايو كذلك) ، وكل الناس هنا يضحكون لك .. في طوكيو وفي الريف .. بل هم في الريف يضحكون أكثر وأكثر .

لقد كنت في مدينة «توبا» في جنوب اليابان وهي مدينة صغيرة ، ونزلت في أحد الفنادق ، لا أحد فيه يعرف لغة أخرى .. وكلما تحدثت مع خادمة كل الفنادق تديرها الفتيات الصغيرات جداً - أغرقت في الضحك . . . كلما حاولت أن أفهمها بالإشارة ما أريد ضحكت ، وراحت تأني بزميلاتها . . فوجئت بأن كل الخادمات قد وقفن طابوراً يضحكن على الحاوي - الذي هو أنا - وأنا أمسك الكوب الفارغ وأحاول أن أشرب وأصرخ من شدة البرد . . وبالإختصار أريد أن أقول لها : عاوز أشرب شاي . .

وإذا سافرت إلى نجازاكي أو هيروشيمـا - وهو المدينـتان اللـتان ضربـتا بالقنـابل الذـرـية - فلن تصدق عينـيك .. فـكل شـيء جـديـد .. العـمارـات والـحال والـشـوارـع : حتى النـاس قد ولـدوا وـزـبـوا وـكـبـروا وـتـعـلـمـوا فـأـمـاـكـنـآخـرىـ وـعـادـوا إـلـىـ الـحـيـاةـ مـنـ جـديـدـ.

هذه اليابان كلـها هـدمـت ، أـحرـقت .. ضـربـتـ فـالـحـربـ الـماـضـيـة .. وـلـكـنـ الـيـومـ كـلـ شـيءـ جـديـد .. كـلـ شـيءـ صـنـعـهـ الـيـابـانيـونـ بـأـيـدـيهـمـ وـبـأـمـاـهـمـ وـبـذـكـائـهمـ وـذـوقـهـمـ ، وـهـمـ أـصـحـابـ ذـوقـ جـميـلـ ..

وـشـيءـ وـاضـعـ تـجـدهـ فـالـيـابـانـ ، وـهـوـأـنـهـ تـمـسـكـواـ بـالـقـدـيمـ وـلـكـنـ هـذـاـ الـقـدـيمـ أـدـخـلـواـ عـلـيـهـ تـعـديـلـاتـ مـذـهـلـةـ ، فـهـمـ يـلـبـسـونـ الـكـيـمـونـوـ وـهـوـ الـفـسـطـانـ أـوـ الـرـوبـ دـىـ شـامـبـرـ وـلـكـنـ الـأـلـوانـ الـجـديـدـةـ وـالـأـقـشـةـ الـجـديـدـةـ وـالـأـحـزـمـةـ الـعـجـيـبـةـ وـالـأـلـوانـ وـالـتـفـصـيـلـاتـ .. كـلـهاـ تـجـددـت .. لـقـدـ رـأـيـتـ تـسـعـيـنـ عـارـضـةـ لـلـأـزيـاءـ فـيـ مـدـيـنـةـ كـيـوـتوـ .. كـلـهـنـ يـعـرـضـنـ أـحـدـثـ تـفـصـيـلـاتـ الـكـيـمـونـوـ .. لـمـ أـرـوعـ مـنـ هـذـاـ عـرـضـ فـحـيـاتـ .. فـالـكـيـمـونـوـ زـىـ تـقـليـدـى .. وـخـصـوصـاـ الـفـتـيـاتـ الـلـاتـيـ عـرـضـنـ هـذـاـ الرـىـ مـعـ تـصـفـيـفـةـ الشـعـرـ وـالـمـشـيـةـ بـالـقـبـيـابـ وـحـرـكـةـ الـأـقـدـامـ مـعـ الـمـوـسـيـقـ وـاخـتـيـارـ الـأـلـوانـ .. وـالـلـونـ الـجـميـلـ وـالـأـحـزـمـةـ الـعـرـيـضـةـ وـالـضـيـقـةـ .. وـكـيـمـونـوـ الـصـبـاحـ وـبـعـدـ الـظـهـرـ وـالـمـسـاءـ ، وـكـيـمـونـوـ الـأـفـرـاحـ وـالـأـحـزـانـ ، وـكـيـمـونـوـ الشـابـاتـ وـالـزـوـجـاتـ وـكـيـمـونـوـ الـودـاعـ ، وـكـيـمـونـوـ الدـلـالـ وـالـدـلـعـ ..

وـالـيـابـانـيـونـ يـشـرـبـونـ الشـائـيـ الـأـخـضرـ بلاـ سـكـرـ .. وـصـنـاعـةـ الـفـنـاجـينـ وـالـأـطـابـقـ وـالـصـوـانـيـ .. وـأـنـاثـ الـبـيـتـ الـيـابـانـيـ الـبـسيـطـ الـأـنـيقـ الـجـميـلـ .. كـلـ غـرـفـةـ هـاـ لـونـ وـهـاـ سـتـائرـ وـمـخـدـاتـ لـامـعـةـ .. وـكـلـ ذـلـكـ فـنـ جـميـلـ ..

والقباقيب والشباشب من أجمل الفنون . صناعتها وأحجامها وأشكالها وألوانها وأسعارها ومادتها ..

فهم يحرصون على القديم ، ولكن النوق الجميل لا يجعل القديم جامداً ميتاً . فالتنقل بين موجودة والأساليب الحديثة موجودة .. واليابانيون متتفوقون في هذا كله ، ولم يتركوا شيئاً لم يصنعوه بأيديهم .. كل ما تراه عينك من صنعهم .. عندهم معارض علمية جادة جداً ، وعندهم محلات كبيرة جداً أنيقة جداً رائعة جداً للعب البلي .. وعلى هذه الحال إقبال لا يمكن أن تتصوره .. وعندهم معابد كثيرة جداً ، وعندهم كباريهات أكثر من أي بلد في العالم .. لقد رأيت في مدينة كيوتو وهي المدينة المقدسة في اليابان عدداً من الكباريهات أكثر من الموجودة في باريس أو في هامبورج أو مانيلا .. وكل هذه هي مظاهر الحيوية في الشعب الياباني .

وكنت أتصور أن أجده عربة الريكسشا وهي عربة يجرها رجل ويركبها الناس هنا لينتقلوا من مكان إلى آخر .. وكانت أتصور الريكسشا وقد جلس السائح وأمسك بيده مظلة كبيرة ، ووضع رجلاً على رجل وأمامه رجل عاري الصدر يجره هنا وهناك ليتفرج على اليابان .. وقد وجدت الريكسشا فعلاً ولكن في كل البلاد الآسيوية ما عدا اليابان .. إنها موجودة في أندونيسيا ، بل هي وسيلة المواصلات الوحيدة في جاكرتا عاصمة أندونيسيا .. وهي موجودة أيضاً في كل مدن الهند ، وكل مدن الفلبين ، وفي سنغافورة ، وفي هونج كونج ، وفي الملايو ، وفي تايلاند ، وفي سيلان ، وفيتنام ، وفي الصين .. ولكنها في اليابان اختفت ، فهنا كل وسائل المواصلات حديثة وقد صنعتها اليابانيون – فهنا في طوكيو مثلاً سكلك حديد حكومية وسكك حديد أهلية .. وعشرات الألوف من شركات السيارات والدراجات والموتوسيكلات والزوارق في كل أنحاء اليابان . ولا توجد ريكشا واحدة – آسف توجد ثلاثة ريكشات في متحف طوكيو !

وكنت أتصور أن أجده اليابانيين يلبسون الكيمونو .. الرجال والنساء .. لم أجدر رجلاً واحداً يلبس الكيمونو إلا في غرفة النوم ، أو في الانتقال من غرفة النوم إلى دورة المياه . فالكيمونو قد تحول إلى روب دى شامبر . أما المرأة اليابانية فهنالك كثيرات يرتدين الكيمونو وأصبح منظرهن غريباً جداً في شوارع المدن الكبيرة .

فيين كل عشر فتيات يرتدين الفستان والبنطلون توجد اثنان ترتديان الكيمونو . . . وبين كل عشر فتيات حلقن شعرهن على الطريقة الأوربية . . توجد واحدة شعرها طويل ومسترسل على ظهرها ، واحدة شعرها طويل معقود وراء رأسها . . . والسبب هو أن الفتاة اليابانية قد دخلت الحياة بصورة مشرفة للمرأة . . فالفندق الذي أُنزل فيه واسمه «دایتشى» ومعناه «الدرجة الأولى» أو «الفندق البريمو» لا يوجد به رجل واحد . . فالإدارة بنات ، والشialis بنات . وعلى فكرة يوجد شباب واحد في جميع محطات سكك حديد طوكيو — وفي الأسانسير والمطبخ والغسيل والمل��ى بنات . . في كل الفندق بنات ولا تزيد أعمارهن على ٢٠ سنة . وكذلك دور السينما والسكك الحديدية والترام والزوارق والمعارض والمطاعم والمقاهي والكنس ومسجد البلاط . الفتاة اليابانية تعمل في كل شيء . . والكيمونو لا يساعدها على الحركة ، فأقلقت الكيمونو وارتدى البنطلون والقميص أو الفستان ، ومعظمهن يرتدين الجوب والبلوزة . . والملابس الكبيرة مثل عمر أفندي أو شيكوريل كلها بنات . . ولا تجد رجلاً إلا نادراً جداً . . حتى البارات والكباريهات كلها بنات . . ومحلات الشاي كلها بنات . .

الحقيقة أن المرأة الآسيوية أحسن من المرأة الأفريقية ، والمرأة اليابانية أحسن امرأة في آسيا .

وكنت أعتقد أن أجed الجيشا في الشوارع ، وفي الخدائق يركبن عربات الريكسا . . وكل واحدة قد عقدت شعرها الأسود الطويل الناعم حول رأسها ومن هذا الشعر تخرج الورود واللآلئ . . وفستانها الكيمونو الطويل قد ضغط عليها وعصرها وكاد يخرج أحشاءها لو لا أنها غطت هذه الأحشاء بحزام عريض لونه أحمر . . وكانت أتصور قبقيها الصغير الذى يصلح لطفل صغير ، وابتسامتها المرسومة على شفتيها الرقيقتين ، وعيونها المنحرفتين تنظران ناحيتي وكأنهما تنظران إلى كل شيء عن يميني وعن شمالي أما أنا فكأني غير موجود . . لم أجده في طوكيو جيشا واحداً في أي شارع ولا أي مطعم ولا أي بيت . . اختفت الجيشا من حياة اليابان كلها . .

فعندما صدر قانون إلغاء البغاء في اليابان في أبريل سنة ١٩٥٨ تضمن هذا القانون إلغاء نظام الجيشا . واندهشت عندما علمت أن القانون يجمع بين الجيشا

وبيـن الـبـغاـيـا . . ولـكـن الـدـولـة لم تـلـغ الـبـغاـء — ولـن تـسـطـع — ولـكـنـها اعـتـرـفـتـ بـنـظـامـ الـبـغاـء ، وبـقـىـ الـبـغاـء كـمـا هو . . وـمـنـذـ أـيـامـ صـدـرـ بـحـثـ عـلـىـ يـهـمـ الـحـكـومـةـ بـأـنـهـ هـىـ الـمـسـؤـلـةـ عـنـ اـنـتـشـارـ الـأـمـرـاـضـ الـخـيـثـةـ ، فـلـاـ الـبـغاـءـ اـخـتـفـىـ وـلـاـ نـظـامـ الـجـيـشـاـ اـخـتـفـىـ أـيـضاـ .

وـنـظـامـ الـجـيـشـاـ قـدـيمـ جـداـ فـيـ الـيـابـانـ ، إـنـهـ يـرـجـعـ إـلـىـ حـوـالـىـ أـلـفـ سـنـةـ . فـتـاهـ الـجـيـشـاـ فـنـانـةـ أـلـاـ ، تـعـرـفـ الرـقـصـ التـقـليـدـيـ وـالـغـنـاءـ ، وـتـحـسـنـ الـكـلامـ ، وـقـادـرـةـ عـلـىـ تـسـلـيـةـ الـصـيـوفـ . وـهـىـ تـتـعـلـمـ هـذـاـ الفـنـ وـهـىـ طـفـلـةـ صـغـيرـةـ . وـكـلمـةـ «ـجـيـشـاـ»ـ مـاـخـوذـةـ مـنـ كـلـمـتـيـنـ : جـىـ وـعـنـاـهـاـ فـنـ ، وـشاـ وـعـنـاـهـاـ صـاحـبـةـ أـىـ صـاحـبـةـ فـنـ أـىـ فـنـانـةـ . وـمـنـذـ مـئـاتـ السـنـينـ كـانـتـ فـتـيـاتـ الـجـيـشـاـ يـعـشـنـ فـيـ قـصـورـ الـمـلـوكـ وـالـأـمـراءـ وـالـأـغـنـيـاءـ . وـعـنـدـمـاـ يـقـيمـ الـأـمـيرـ أوـ الـرـجـلـ الغـنـىـ حـفـلـةـ غـدـاءـ أوـ عـشـاءـ فـإـنـهـ يـدـعـوـ فـتـيـاتـ الـجـيـشـاـ . . فـتـيـاتـ جـمـيـلـاتـ قـادـرـاتـ عـلـىـ إـدـارـةـ الـحـدـيـثـ ، وـتـقـدـيمـ الـطـعـامـ وـإـشـاعـةـ الـمـرـحـ وـالـجـمـالـ فـيـ الـجـلـسـةـ . . فـقـطـ ، نـعـمـ فـقـطـ . . فـكـلـ مـواـهـبـ الـجـيـشـاـ هـىـ فـيـ أـنـ تـقـومـ بـدـورـ الـمـضـيـفـةـ الـمـتـازـةـ .

وـبـعـدـ ذـلـكـ اـنـتـقلـتـ الـجـيـشـاـ إـلـىـ الـعـلـمـ خـارـجـ بـيـوتـ الـبـلـاءـ وـالـأـمـراءـ ، فـقـىـ الـيـابـانـ بـيـوتـ الشـائـىـ — «ـالـمـشـىـ»ـ عـلـىـ وـزـنـ الـمـقـهـىـ وـهـذـاـ التـعـبـيرـ مـنـ عـنـدـىـ وـلـمـ أـسـتـأـذـنـ فـيـ الـمـجـمـعـ الـلـغـوـىـ — حـيـثـ تـوـجـدـ الـحـيـاةـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـيـابـانـيـةـ . . وـيـلـقـيـ النـاسـ وـيـتـحـدـثـونـ . فـالـمـشـىـ يـشـبـهـ الـمـقـهـىـ الـمـحـترـمـ أـوـ يـشـبـهـ النـادـىـ العـائـلـىـ . . وـصـاحـبـ الـمـشـىـ لـكـيـ يـجـذـبـ زـبـائـنـهـ إـلـىـ التـرـددـ عـلـىـ هـذـاـ المـشـىـ يـدـعـوـ الـجـيـشـاتـ لـتـقـديـمـ الشـائـىـ . . وـبـعـدـ أـنـ يـقـدـمـنـ الشـائـىـ وـالـغـنـاءـ وـالـمـوـسـيـقـىـ وـيـتـحـدـثـنـ فـيـ السـيـاسـةـ وـالـأـدـبـ وـالـفـنـ ، يـعـدـنـ إـلـىـ بـيـوهـنـ ؛ وـعـلـىـ الـرـبـوـنـ أـنـ يـدـفـعـ لـصـاحـبـ الـمـشـىـ مـبـلـغاـ نـظـيرـ وـجـودـ هـوـلـاـ الـجـيـشـاـ . . وـإـذـاـ أـرـادـ مـنـ الـجـيـشـاـ أـنـ تـبـقـىـ وـقـتـاـ أـطـولـ كـانـ عـلـيـهـ أـنـ يـدـفـعـ أـكـثـرـ وـأـكـثـرـ . وـقـدـ دـفـعـتـ مـبـلـغاـ ثـلـاثـيـنـ جـنـيـهـاـ لـكـيـ أـجـلـسـ مـعـ ثـلـاثـ جـيـشـاتـ . . أـقـومـ أـنـاـ وـصـدـيقـ آخـرـ بـدـورـ الـزـيـاـنـ تـمـهـيدـاـ لـتـصـوـرـهـاـ . . وـبـدـأـتـ الـحـفـلـةـ — طـبـعاـ حـفـلـةـ — بـأـنـ ذـهـبـنـاـ إـلـىـ أـحـدـ الـمـشـاهـىـ فـيـ حـىـ أـسـاكـاـ فـيـ مـدـيـنـةـ طـوـكـيـوـ ، وـالـمـشـىـ عـادـيـ جـداـ مـنـ الـخـارـجـ . . مـدـخلـهـ مـنـ الـخـشـبـ وـعـلـىـ الـبـابـ بـعـضـ الـأـشـجارـ وـصـفـ طـوـيلـ مـنـ الشـباـشـبـ ، وـقـدـ تـعـودـنـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـنـاظـرـ . وـنـزـعـنـاـ أـحـدـيـتـنـاـ وـكـادـتـ أـقـدـامـنـاـ تـرـطمـ بـعـضـ الـرـعـوسـ الـتـيـ اـخـتـفـىـ إـلـىـ مـسـتـوـيـ الـأـحـذـيـةـ . . لـنـهنـ خـادـمـاتـ بـيـتـ الشـائـىـ

قد مجدن نحية لنا . . وبعد السجود بدأ الركوع وبعد الركوع بدأ الانتهاء بالرأس . . وأخذت الخدامات أحذينا والبلاطى والخبلات . . وصعدنا سلماً من الخشب النظيف اللامع جداً . وفي الدور الأول فرشت الحصيرة اليابانية الدقيقة . وأما أبواب البيوت اليابانية فهي لا تفتح إلى الداخل أو الخارج وإنما تزق على مجرى وتلتصق بالحائط . . والبيت الياباني بسيط جداً . كلها من الخشب والورق . . والنواخذ خشب . . ويعطيها الورق الأبيض المقلم أو المشجر . . وعلى الرغم من أن البيوت كلها من الخشب فعلب الكبريت متناثرة في كل بيت وكل غرفة وكل مطعم وكل فندق وفي السيارات التاكسي وكلها مجاناً . . لأنها جميعاً إعلانات . . .

وفي جانب من الغرفة توجد منضدة واطئة وأمامها شلت . . وجلسنا مترعين . وبعد لحظات حضرت بنات الجيشا . . ويجب ألا تقف أو تتعش أنفسنا . . وقد سجدت كل واحدة منهن على الأرض ووضعت يديها أمامها . . وجلست كل واحدة منها إلى جوار واحد منها . . وببدأت حفلة الغداء ، كل واحدة قدمت لنا الشاي الأخضر . . والشاي في فنجان ، ومع كل فنجان ليس له أذن انتهاء تكسر الظهر . . — إنتهاء منها طبعاً . ويجب أن تشرب الشاي إنها مسألة ذوق ، ثم إن الجيشا شكلها لطيف ، يعني حلاوتها انتقلت إلى الشاي . . اشرب . . اشرب . . وقد شربت براداً .

وفي هذه الأثناء تتناثر على المنضدة أمامنا فناجين وطبقاتيقو وقصاري — قصاري أطفال صغار — وأنصاف أكواب وثلاثة أربع أطباق ، وفيها جميعاً سوائل غريبة اللون . . وقبل أن تمد يدك يجب أن تمسك الفوطة الساخنة التي أحضرتها الجيشا لكي تمسح يدك وأنت جالس — كما يحدث في الطائرة عادة — وبعد ذلك عليك أن تأكل بالعصا . . لا ملاعق ولا شوك ولا سكاكين . . وإنما عودان من الخشب يجب أن تمسكمهما بيدهك التي كأنهما مقص سقط مسماره ، وعليك أن تتناول بهما الأرض واللحم والسمك . . طبعاً المحاولات فاشلة ، فأكلنا بالشوك والسكاكين . . وبنات الجيشا يضحكن عند كل حركة وكل لقمة وكل مضيعة ولم أجده واحدة منها عند كل مغض شعرت به بعد ذلك !

وأنا أترجم لك هذه الأدوات الغريبة : كلها أطباق وسلطين ، أما السوائل فهي شوربة أم الخلول وشوربة الجمبري وشوربة أبو جلامبو .. وأما اللون الأحمر في كل هذه الشوربات فهو بصل محروق بالسكر .. وأما هذا الأبيض الواضح جداً فهو أرز مسلوق ومن غير ملح .. وأما هذا الأصفر الذي يشبه البصارة إذا وضعت فيها بعض الكركم ، فهو عصير الجمبري مع بعض السمك النبي .. نسيت أن أقول إن كل هذا الأكل كان بارداً جداً .

والتقاليد تقضى بأن الجيشا لا تأكل ولا تشرب إلا بعد أن تكون أنت قد ملأت بطنك . وأما إذا لم تملأ بطنك – مثلنا جميعاً – فهي تغضب وتأخذ على خاطرها .. ولو عرفت كيف أنها تخضب لامتنعت عن الأكل نهائياً .. إنها تجلس إلى جوارك وتمايل عليك وتطبطب على خدك وعلى كتفك إلى أن تتقاسم الأكل بينك وبينها .. ملعقة بملعقة .. نصف الملعقة لها ، ونصفها الآخر لك . هذه هي التقاليد .. وليس هذه معاملة خاصة لشخصي .

وبعد الأكل قامت ورقشت وغنت . أما الرقصة فلها قصة .. وفي قصة في وفاته في حالة حب شديد .. وخرجوا في الليل يصيدان الفراشات الصغيرة في ضوء القمر . وكل واحد منها يحاول أن يمسك الفراشة بيده دون أن يقتلها .. وفي كل مرة يمسك الشاب فراشاً يلاحظ أن عشرين فراشاً أخرى قد ظهرت تحت ضوء القمر .. ويكتشف أن السبب هو أن أنفاس حبيبته تحول إلى فراش تحت ضوء القمر .. وعلى ذلك فن الأفضل له أن يمسك أنفاس حبيبته .. ويمسك أنفاسها بفمه – هذا الجاذب من الرقصة لم أره وإنما قرأت عنه فقط !

وكانت تجلس معنا على نفس المائدة صاحبة المشهى وابنتها .. أما فتيات الجيشا الثلاث فأسماؤهن : فوميكو وشودايايا وأرميتا .. ١٩ سنة و٢٠ سنة و٢٩ سنة . والأولى تظهر في التليفزيون .. وكان في نيتها أن أداعبها وأهدبها فرشة أسنان لولا أنني وجدت أنها نكتة سخيفة وقاسية جداً ، وربما كان صفار أسنانها لأسباب فنية ، فقد لاحظت اختفاء اللون الأصفر من فستانها وشعرها .. فربما كان السبب هو إكمال مجموعة الألوان !

والتجار عندما يعقدون الصفقات المالية يذهبون إلى بيوت الشاي . وكانت

الجيشات فيما مضى يلعبن دوراً سياسياً ، كدور العشيقات في أوربا .
وحتى الوفود الرسمية عندما تحضر إلى طوكيو تدعوها الحكومة اليابانية رسمياً
لزيارة أحد المشاهي والجلوس إلى الجيشات . . وهذا تقليد معترف به ومحترم هنا .
وكان الزمان المحدد لهذه الحفلة ساعتين . وبعد ساعتين وأربعين دقيقة اعتذرنا
الجيشات وخرجنا في سبود وركوع والختاء . . وبعد ذلك جاء الحساب .
أولاً حضور الجيشا وتشريفها مجلسنا هذا يساوى خمسة جنيهات ، ثم ثمن
الطعام وتقديم الطعام والصربيه وإيجار الغرفة والتأخير الذي حدث بعد الزمن المحدد .
وقد قالت لي إحدى الجيشات : نفسي أشوف القاهرة .

قلت : أهلاً وسهلاً . . .

قالت : على حسابك . . .

قلت : هناك ما هو أصعب .

قالت : ماذا ؟

قلت : المسافة بيننا وبين القاهرة الآن حوالي ٤٨ ساعة بالطائرة و٤٨ يوماً
بالباخرة . . . وإذا كانت الساعة التي أشرف فيها بالجلوس إليك ثمنها عشرة
جنيهات . . فأننا لا أستطيع . . ولكن سأطلب من القراء أن يساهموا في دعوتك
إلى القاهرة ولو ساعة . . حاضر من عيني دي وعیني دي .

وعدد الجيشات في طوكيو قليل جداً . . والحياة الحديثة والكمباريهات الأنثقة
المغربية قضت على هذا النوع من الحياة القديمة . . ولكن الأغنياء السياح هم
الذين يحرصون على رؤية الجيشات .

ومركز الجيشات في اليابان كلها هو مدينة كيوتو . . وهي تبعد عن طوكيو
حوالي ٣٠٠ كيلو وكانت العاصمة القديمة لليابان مئات السنين . . أما طوكيو
ـ ومعناها العاصمة الشرقية ـ فهي لم تصبح عاصمة إلا أخيراً . . ومدينة كيوتو لم
تحطم أثناء الحرب ، ففيها أكثر من ثلاثة آلاف معبد بوذى ومعبد شنتوى .
ومدينة كيوتو مدينة سياحية أيضاً . وفي كيوتو محطة كبيرة جداً . . وبهذه المحطة
عشرات المحلات التجارية للصناعات اليابانية ، وهذه المحلات تشغل الطابق العلوى
لكل المحطة ، وفي هذه المحلات توجد الصناعات الخشبية التي برع فيها أهل اليابان

وتوجد المنتجات الرخيصة جداً . وقد لاحظت أن هناك عدداً من الراديوهات الصغيرة – وهي الموجودة الآن – وأن هذه الراديوهات لم ترها في طوكيو ، وعرفت أن هناك شركات كثيرة في اليابان لصناعة الراديو .. وهي تشبه شركات بيع المياه الغازية في القاهرة .. وأشهر وأكبر محل في كيوتو وهو مكون من أربعة أدوار صغيرة جداً ، هذا محل للعب البلي .

وفي مدينة كيوتو صناديق الليل – آسف إنها « علب كبريت » الليل – لأن البارات هنا صغيرة جداً كالواحد لا يزيد على حجم سيارة أتوبيس إذا وقفت على بوزها .. الدور الأول بار ز الدور الثاني غرفة للنوم . وفي غرفة النوم هذه تسمع صوت فتاة تقرأ بصوت عال .. إنها تذاكر وتحاول أن تعزل نفسها عن أصوات الذين يشربون الخمر في الدور الأرضي ..

ملحوظة : اليابانيون لا يتحدثون ولا يضحكون بصوت عال أبداً .. حتى لو كانوا سكرانين طينة .. أدب !

وهذه « العلب » الصغيرة عددها عشرات الألوف هنا .. .

وفي مدينة كيوتو يوجد حى « جبون » أو حى « شيون » .. وهو أغرب أحياط اليابان كلها .. كل هذا الحي تسكنه بناط الجيشا .. عدد الجيشهات هنا ٥٠٠ فتاة من بينهن على الأقل ٢٠٠ فتاة حلوة في سن العشرين . وأستطيع أن أقول لانتي رأيت منها حوالي ٩٠ جيشاً جميلة .. لقد ترددت على أكثر من ١٥ بيته من بيوت الشاي ، بقصد الفرجة ، وكتابة هذا الكلام .

كانت الساعة التاسعة صباحاً .. ومعي صديق وثلاث آلات تصوير . ألوان ومن غير ألوان .. هو يسلح من البرد وأنا أعطس .. والشمس تطلع وتختفي . تطلع فيختفي الزكام ، وتحتفى فيطلع الزكام من عيني .. البيوت كلها مقفلة .. البيوت خشبية .. والنواذن مجموعة من الأعواد الخشبية ومن ورائها تتحدث النساء .. لم نر رجلاً ولا طفلاً ولا امرأة .. كل البيوت مقفلة .. والدنيا برد .. ذهبنا إلى أحد المطاعم وشربنا الشاي والناس يتذاءبون ، وفي الساعة الخامسة عشرة بدأت البيوت الخشبية تفتح أبوابها .. كأنها هي الأخرى نائمة ، وكأن أجفانها ثقيلة .. على الأبواب توجد علامات غريبة .. علامات مطبوعة .. زرقاء وحمراء وبضاء

ومكتوبة باليابانية .. وكلها خارج البيت .. حتى إذا جاء موظف التور لا يوقف أهل البيت الذين لا يصحون إلا في الثانية عشرة .. لأنهم طول الليل يشربون ويقصون ويعنون .. كل الناس هنا هكذا .

وبدأت الخادمات يجمعن الزباله وبدأت محلات الفاكهة تضع الأفواص أمام الأبواب . ويوجد في كيوتو جزء من واحد لأنه لا يوجد أحد يرتدي الأحذية فالنساء يرتدين القباقيب .. وعلى رأس كل شارع يوجد « قبقيجي » وأمامه طوابير من القباقيب .

وبيوت الشاي أو المشاهي هنا ليس لها عدد .. فكل بيت هو في نفس الوقت مشهى .. وهذه تجارة مربحة فقد لاحظت أن أصحاب هذه البيوت لهم سيارات كبيرة وعندهم أجهزة تليفزيون ويضعون في أصابعهم الخواتم الذهبية وفيها حبات من اللؤلؤ .. وبعضهم يدخن السجائر الأمريكية الغالية .

وفي الساعة الواحدة بدأت فتيات الجيشا يخرجن من البيوت .. ففيات الجيشا هنا يرتدين الكيمونو والقباقب .. ورأسها كبير ، والشعر على رأسها في حجم الطيخة ورأسها أثقل من جسمها ، والكيمونو ضيق وخطواتها ضيقة ، وحتى لا يتكسر الكيمونو فإنها لا تجعل قدميها تتفتحان إلى الخارج وإنما تجعلهما تتجهان إلى الداخل .. فهى تمىئن تقفز أو تتط وتكاد ساقها تلتـف الواحدة على الأخرى .. والبودرة أو الجير الذى وضعته على وجهها وخصوصاً قفاصا ، ثقيل جداً كأنها نامت طول الليل في شوال دقيق ، وأما رأسها فوضعته في حلة كحل .. والجيشا إذا نامت فهى تضع رأسها على مخددة مستديرة تشبه جذع النخلة والمخددة محسنة بالأرز ، غير المسلوك .. والمخددة تستقر تحت رقبتها . والسبب هو أنها تخاف على تسرية شعرها أن تفسد .. فالتسريحة غالبة .

وأول شيء تعلمه فتاة الجيشا .. هو شعرها .. تسرحه وتضع عليه بعض الزيوت التي يجعل الشعر مشدوداً واحدة واحدة .. ثم تضع البودرة أو هذا الجير على وجهها .. وبعد ذلك يحيى شيء شيء هام هو اختيار الكيمونو المناسب .. إن أية فتاة ترتدى فستاناً وتدور وتلف به أمام المرأة وتطلع فوق الكرسى وأحياناً فوق السرير لكي ترى حذاءها الجديد في المرأة .. ولكن الجيشا مشكلتها أصعب ، فهى لا تختار الكيمونو وإنما تختاره لها سيدة كبيرة ، كانت فيما مضى فتاة جيشا ..

ولكنها الآن قد قصت شعرها واكتفت بخدمة الجيشهات . . وقد تستغرق عملية الاختيار ساعة أو أكثر . . وقد تشرك فيها بنات الجيران . . والجيشا ترتدي الكيمونو وتحته قميص حرير وردى أو لونه بلغة الفلاحين كلون لحم الهوان وكل بنات الجيشا يخترن هذا اللون . . وتحت القميص واحد آخر أبيض وشفاف جداً . . إلى هنا وبس !

وأول عمل تقوم به الجيشا بعد ذلك هو أن تذهب إلى المشاهى التي كانت معزومة فيها في اليوم السابق وتفتح الباب وتنحنى وتشكر صاحبة المشهى على عزومه الأمسى . . وهي في الطريق تتعرض لعيون الناس . . وهي تجربة صعبة . . ولسان الناس طويل وقد سمعت بعض الناس يقولون :
دى مش شايقة . . يعني كان لازم تقل في الشرب . . دى تخينة ورجلها
كبيرة !

وبين الحين والحين تتلفت حوطها وتنحنى راكعة . . مع أنه لا يوجد أحد في شارع أو في باب أو في شباك . . ولكن يوجد معبد صغير أمام بعض البيوت وهذا المعبد لا يزيد على صندوق الكوكا كولا . . ومعظم البيوت في اليابان بها معابد خاصة للصلوة . . ويوجد أحياناً معبد لدينين مختلفين ، كل ذلك في بيت واحد . . وكل أفراد الأسرة يصلون في المعبد معاً .

وعدد السيارات التي تنتظر الجيشهات كثيرات . . فالجيشهات مدعوات على الغداء أو على الشاي أو على العشاء .

وقد خرجت مع الثنين من الجيشهات وذهبت إلى إحدى الحدائق العامة . ولم يدر بيالي أنه اليوم كان عطلة رسمية وكل الناس خرجوا لهذه الحديقة . . وكل واحد معه كاميرا . . فالكاميرات رخيصة في اليابان . . وكل الناس ينحنيون لي ويستأذنون في تصوير بنات الجيشا . . كل ذلك في مدينة كيوتو وهى مركز النشاط الجييشوى في كل اليابان . . ومعنى ذلك أن الناس لا يرون الجيشهات عادة . . لأن الجيشهات يعملن في الليل ، وفي المشاهى ، ولا يخرجن إلى الشارع إلا نادراً وإلا في ظروف خاصة .

وقد لاحظت أن هناك عدداً من بنات الجيشا يجلسن صامتات . . لا يتكلمن مع الضيوف . . وظننت أن السبب ربما كان اللغة . . فنحن لا نتكلم مع الجيشا

إلا عن طريق مترجم .. ولكنني رأيت الزبائن كلهم من اليابانيين .. أما السبب فهو أن كل شيء له ثمن .. فالجليسا إذا جلست فقط دون كلام فلهذا ثمن ، وإذا تكلمت فله ثمن ، وإذا أكلت فله ثمن ، وإذا رقصت ، وإذا غنت . وإذا خرجت مع الزبون ، وإذا تفسحت على الآخر .. فالثمن غال جداً .

وفي كيوتو مدرسة لتعليم الجيشا .. ويببدأ التعليم في الثالثة من العمر وأحياناً من الخامسة . وتعلم فتاة لكي تكون جيشاً في اليابان يشبه تعليم فتاة لتكون مثلاً في أمريكا .. لا عيب فيه ، بل إنه نوع من التأهيل المهني .. والفتاة الصغيرة تتعلم الرقص والغناء وتقدم الطعام والاحناء للضيوف .. وكل الأطفال في اليابان حتى في السن التي لا يعرفون فيها المشى يتحدون تحية وشكراً .

أذكر أنني أعطيت طفلاً تحمله أمه على ظهرها بعضاً من حبات أبو فروة وشكري الأم .. ودار بينها وبين طفلها كلام لا أنهشه .. ثم صارت تصرخ والطفل لا يستجيب وأخيراً أزلت الطفل من فوق ظهرها ووضعته على الأرض .. وكانت المفاجأة .. أن الأم تستند الطفل حتى لا يقع وهو يتحنى احناء كاملة ليشكري !

والاحناء فن مؤلم .. لقد انكسرت ظهورنا هنا من رد التحبيات رغم أنا نصهين كثيراً جداً .

ولا تزال مدينة كيوتو هذه تحتفظ بـ تقاليدها القديمة .. فالفوانيس في الشوارع كرات حمراء من الورق الرقيق .. والبيوت تشبه الدكاكين .. وأبوابها عربية ولا يقلونها .. والمعابد كثيرة .. وكل من يدخل المعبد تصدق بيديه لكي يتباهى إلى أنه قد حضر .. ثم يمسك في يده مقشة ويهزها .. وهذه المقشة تكنس متاعبه وهو موته .

والفنادق كلها نوم على الأرض .. والحمام الياباني مؤلم جداً .. فهو عبارة عن حوض كبير تمتليء بالماء الساخن .. ويجب ألا تنزل في الحوض .. وإنما تمسك علبة خشبية ... وتضع فيها بعض الماء الساخن ثم تضع عليه بعض الماء البارد وتصب على رأسك .. وكلما فرغت العلبة أعدت هذه العملية من جديد .. أما القوطة فهي صغيرة في مساحة هذه الصفحة .. ويجب ألا تنزل في الحوض ،

لأنه ليس لك وحدك وإنما لكل نزلاء الفندق .. . وإذا أصابك برد لأى سبب ،
والأسباب هنا كثيرة : كالنوم على الحصيرة واللحاف القصير ، والخدبة الصغيرة
الجافة والمحشوة أرزاً يابساً ، والأكل البارد ، والزكام المزمن عند كل الجنسيات ..
فالعلاج بسيط جداً هو أن تناوم وتغطى رأسك باللحاف وتضع المخدة فوق اللحاف
وتكتم أنفاسك .. . واليابانيون يؤكدون أن البرد يختفي تماماً بعد ثلاثة أيام .

وفاة الجندي في كيوتو لا تكتب كثيراً ، إن دخلها في الشهر الواحد لا يزيد
على عشرة جنيهات .. . أما الذي يفوز بالنصيب الأكبر فهو صاحب المشهى ..
ثم إن فلوس الجندي كلها ضائعة على فساتينها وعلى شعرها وعلى المساحيق البيضاء
والحرماء وعلى القباقيب .. .

وبعض بنات الجندي يتزوجن من بطلاً ، وطبعاً تستمر حياهن الفنية ..
وهي ليست فنية جداً كما كنت أتصور !

ولكن لا شك في أن البنات حلوات ورقائق وفي غاية الأدب .. . ومن السهل
أن تأخذ الواحدة منهن عليك فلا تمضى ساحة حتى تكون كأنها تعرفك من عشرات
السنين .. .

وعندما خرجت من المشهى مدت كل جندي يدها ووضعت أصبعها الأصغر
حول أصبعي الأصغر وقالت :
اتفقنا .. .

ولم أفهم . فهذا يشبه الخصم عند الأطفال .. . ولكن عرفت أن هذا معناه
الاتفاق في اليابان وأن الذي يخل بالوعود فستنكسر أصبعه ولو بعد حين ..

وفي اليوم التالي ذهبت لتوديع الجندي ، لا لأنني أخاف على أصبعي ولكن
لأنني سلمت على بنات الجندي بكلتا يدي وأنا أخاف أن أفقد يدي بعد سفرى
من كيوتو !

فأنا لن أستطيع الوفاء بكل ما وعدت به بنات اليابان وبنات البلاد الأخرى !

❷ بلد الرجال أرضنا!

أنت لم تر أجمل ما في آسيا إذا لم تذهب إلى اليابان .. أنت لا تقدر معنى الذوق الجميل في اللبس والنوم ، في البيت وفي الشارع ، إذا لم تذهب إلى اليابان .. أنت لا يمكن أن تصور كيف أن شعباً « محظياً » يستطيع أن يصنع المعجزات ويتحول من تجارة أسماك إلى تجارة قطارات وسفن وراديوهات ، إذا لم تذهب إلى اليابان ..

أنا لم أعرف أن طفولتي كانت تعيسة ، وأنها كانت كطفولة الدجاج في الحرارة أو الكلاب الضالة إلا عندما ذهبت إلى اليابان ، فقد رأيت أسعد طفولة .. رأيت أطفالاً في ملابس رجال ، ورأيت رجالاً في سعادة الأطفال ..

* * *

اليابان بلد الرجال . الرجل فيها محترم جداً .. والمرأة مكانها في الدرجة الثانية في المدن ، والثالثة في الريف والرابعة في الجبال ..

ولتكن المرأة اليابانية هي أطيب امرأة في العالم كلها . تقعن بالقليل ، الكلمة تكفي ، الانحناءة تكفي ، جانب من المتعة ، جانب من الفراش ، جانب من اهتمامك ، كل هذا يرضيها . ولذلك فالرجل الياباني لا يتعب كثيراً في حياته الزوجية . فزوجته تنتظره دائماً ، راكعة على ركبتيها حتى يعود من العمل . لا تأكل إلا إذا جاء ، وإذا جاء أكلت بعده . إنها تطعم زوجها ثم الأولاد الذكور .. وبعد ذلك الإناث .. وتأكل هي ما تبقى من أفراد الأسرة كلها .

ولذا دخل الزوج الحمام سبقة إلى الحمام لتعد له الماء والقباب والكزان ، وبعد ذلك تنهنى في أدب وكسوف وكان زوجها رجل غريب وكانتها خادمة عنده ويدخل الزوج وتقف هي وراء الباب تنتظر أوامر الزوج ، ولو « سهاما » الزوج وما تفانيها لن تدخل الحمام إلا إذا ناداها من الداخل !

ويحدث في كثير من الأحيان أن الزوج عندما يموت لا تدخل الزوجة غرفته إلا إذا طلب إليها أحد أقاربه أن تدخل ..

وربما كان سبب ارتفاع نسبة الوفيات بين الرجال ، هو أن عزرايل عندما يتقدم ليقبض روح الزوجين ، تتأخر الزوجة ، فيما موت زوجها في الأول !

ومهمة المرأة اليابانية ثقيلة .. إنها تقوم بكل شيء في البيت ، وخارج البيت .. فهي الزوجة وهي الأم وهي المربيّة التي شترى وتباع وتنتظر الزوج وكانتها لم تتعجب ولم تخزج ولم تدخل . ويحيى الزوج الياباني مكشر الوجه لتسقبله ابتسامة عريضة على وجه الزوجة ، وليس من المفترض أن الزوج يرد على هذه الابتسامة بابتسامة أخرى أكبر أو أعرض . وإنما عندما يراها يزداد تكشيه .. كأنه يقول لها : إنت ناية طول النهار وأنا دايغ .. اضحكى يا اختي اضحكى .. ضحكت لك السنبلة والضربة المستعجلة – شتيمة ريفية تذكرها في اليابان !

والزوج الياباني يشبه كل زوج في الدنيا ، فهو يتصور أن زوجته لا تعجب ولا تبذل أي مجهود .. وأن كل مهمتها في الدنيا ، أن تستحم وتضع الأحمر والأبيض والعطور ، وتنظر بسلامته عندما يعود .. هذه كل مهمة الزوجة في نظر أي رجل .. يعني مهمة الزوجة هي « الترفية » عن الزوج كأنها إحدى بنات الجيشا !!

ولكن الرجل الياباني أكثر أدباً وأكثر رقة .. وأكثر حباً للبيت والأولاد وأكثر وفاء للزوجة ..

والبيت الياباني والزوج الياباني يدلان على المرأة اليابانية ..

فالبيت بسيط وأنيق .. وكل شيء فيه مصنوع وموضوع بذوق .. والألوان مريحة للعين .. والخطوط كلها رأسية أو أفقية متقطعة .. يكفي أن تنظر للقباقيب وترتيبها والمخدمات ونظمها ، لتعرف أن كل شيء هنا يتم بتفكير وذوق ..

والمائدة اليابانية غريبة وعجيبة . . يمكن طعم الأكل يعرف ويذوق . . ولكن تقديم الأكل ونظامه يريحان . . طبعاً أنا لا أنسنك أن تأكل كما فعلت أنا ، ومرضت وتعذبت . ولكن أنظر كيف يقدمون لك أطباق صر اصير البحر . . إن الإسم يجعلك تهرب . . ولكن طعمها لا يأس به . فهى مسلوقة باردة . . ولكن نفسك « تتعدل » إذا شربت معها شاياً أحضر بلا سكر . .

المهم تقديم الطعام . . أطباق صغيرة الواحد وراء الآخر ، ومع كل طبق الخناعة من سيدة البيت وابتسمة عريضة جداً تجعلك تأكل أصابعك – والسبب الحقيقي الذى يجعلك تأكل أصابعك ، هو أنها أحسن من الصرافير . . واللى تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش ! .

وفى الأعياد ينقلب البيت الياباني إلى مولد . . إلى مهرجان . . الألوان والعرائس والمأثيل والملابس ذات الألوان الحمراء والزرقاء والوردة الكبيرة والنفحة العريضة . . وفي كل المواسم والأعياد تجد « السمك » المليون في كل مكان . . لابد أن توجد أوراق على هيئة سمك . . فقد كان اليابانيون من ألف السنين يهدى الواحد منهم إلى جاره الأسماك التى اصطادها من البحر . . الأسماك النية الحافة . وتغيرت الدنيا ولم يعد صيد السمك هو التجارة الوحيدة في اليابان . . فهناك ألف المصنوعات والهدايا . . وانسحب السمك من الأعياد وأصبح رسمياً على الورق الذى يلفون فيه الهدايا . .

والعيد الذى تكون فيه المرأة اليابانية مشغولة جداً هو يوم رأس السنة فهو أهم الأعياد في اليابان . في يوم رأس السنة لا تعمل المرأة أى عمل ولا يجب أن تشغل نفسها بأى شيء . . ولكن هناك شيئاً هاماً جداً يجب أن تعمله . . يجب أن تضع تحت رأس كل فرد من أفراد الأسرة ورقة . . والورقة مكتوب فيها أمنية ، وهذه الأمنية مكتوبة على شكل أغنية . والأغنية تقول :

ادخل يا خير . اطلع يا شر . وداعاً يا سنة فات . أهلاً يا سنة جاية .
يا إلهي لا تنقص عبادنا . ضاعفه . واجعلنا نزيد ونزيد . ولد الشكر .

وهناك طقوس خاصة لوضع هذه الورقة تحت الرأس .

وفى الصباح تنهض الأم فى ساعة مبكرة جداً لتزعزع هذه الورقة من تحت

الخدمات . . وتظل غالسة حتى ينهض جميع أفراد الأسرة . . ولابد أن يكون كل واحد منهم قد رأى حلماً في نومه . . هذا الحلم هام جداً . . لأنه عبارة عن ملخص لما سيحدث له بعد ذلك في العام الجديد . . ومهمة الأم أن تفسر هذه الأحلام ، وأن يكون تفسيرها للأحلام جميلًا لتملاً نفوس أبنائها بالأمل في حياة أحسن . .

وبعد ذلك تنام الأم بعد أن اطمأنت على مستقبل جميع الأفراد .

وقبيل أن تنام الأم كل ليلة يجب أن تصلي الله ... وهي تعبد الله في معبدين . وكل ياباني له دينين لا دين واحد .. وفي كل بيت ياباني يوجد نموذجان صغيران هذدين الدينين . . ولذلك فالاليابانيون لا يذهبون إلى المعابد كثيراً لأن المعابد عندهم في البيوت . . والأم هي أكثر الناس وقوفاً أمام المعبد . .

والمرأة اليابانية هي أم قبل أن تكون زوجة أو صديقة .. وأول شيء ت يريد أن تتحققه للزوج هو أن تنجذب له عددآمن الأطفال . ومعظم الخلافات بين الشبان والشابات قبل الزواج سببها أنها مختلavan على عدد الأولاد .. مع أنها مالم يتزوجا وقد يؤدي الخلاف إلى الإنفصال .

ومقياس الجمال في اليابان هو : أن تكون المرأة نحيفة ضيقة الصدر والأرداف ، صغيرة اليدين والقدمين ، ولها وجه بيضاوى وأن يكون شعرها أسود، وأن يكون صوتها منخفضاً، وإذا مشت أحنت رأسها ، وإذا نظرت إليك لم تحملق فيك .. الجيل الجديد في اليابان عندما يجلس معك لا ينظر إليك ، لأنه قد نظر إليك قبل أن تجلس إليه ولأنك لا تملاً عينه !

وعلى أثر الاحتلال الأمريكي ظهرت فتيات ذوات شعر أصفر وعيون خضراء ولا يرتدين القباقيب ولا يتعوجن في الكيمونو ، ويفضلن النظر إلى نجوم السماء على النظر إلى الأرض .. والاليابانيون ينظرون إلى هذا الجيل الأمريكي نظرة استخفاف ، وعدم احترام .. أنا أعتقد أن هذا « قصر ديل » لأن اليابانيات الأمريكيةات الأصل ملائمون حلوة جداً .. جداً .

وأنا أعتقد أن العيب الوحيد في المرأة اليابانية هو أنها موبدة .. موبدة أكثر من اللازم .. ولقد عانيت من ذلك كثيراً !

أذكر أننا كنا في إحدى الحفلات ورحتنا نروي النكت في أول الأمر ،
كانت النكت مهذبة وبعد ذلك نصف مهذبة ، وأخيراً .. أنت عارف .
وحدث أن همست يابانية في أذن أخرى وبعد لحظات ضحكت كل اليابانيات
بصورة جعلتنا نعتقد أنها نكتة قبيحة جداً .. وطلبت من إحدى اليابانيات
أن تترجم لنا هذه النكتة ولو بصورة مهذبة .. وبعد إلحاح شديد ترجمت
النكتة ، واندهشت لهذه النكتة التي جعلت كل اليابانيات يخجلن منها .. أما
النكتة فهي أن رجلاً كان يجلس على حافة بحيرة ونظر إلى الماء فوجد صورة كلب
وضحك قائلاً : لا بد أن هذا الكلب قد عاش في بيتنا طويلاً !

هل فهمت النكتة .. النكتة هنا هي أن هذا الكلب قد عاش في البيت
مدة طويلة فتوحمت أمه على هذا الكلب ، لذلك جاء شبيهاً له ..
توضيح آخر : الأم هنا هي أم الرجل وليس أم الكلب !

وبعد ذلك كان من المستحيل أن نروي هن النكت إليها .. وقد لاحظت
أن في كباريات اليابان كثيراً من الأجسام العارية .. والحركات الخلية أكثر
خلاء من أمريكا . والراقصات العاريات تماماً .. واللاتي يجلسن على أرجل
الزبائن وتمتد أيديهن ويفتحن البنطلوون فترات طويلة بين صرائح الزبائن وتلاعب
الأضواء ... ولكن هؤلاء الراقصات لا يستطيعن أن يقلن كلمة واحدة غير
مهذبة .. ولا كلمة .

وإذا كنت لا تصدقني فاذهب إلى اليابان .. والمسافة بيننا وبينها لا تزيد
على ٤٨ ساعة بالطائرة ..

فهل اليابانية هي الزوجة المثالية في نظرى ؟
لا .. لا .. لا ..

إن الزوجة المثالية في نظرى هي : الصينية ذات الأدب الياباني والتي من
أصل أمريكي . وتعيش ثلاثة أشهر في هونج كونج وثلاثة أشهر في أستراليا
وثلاثة أشهر في جزر هواى ، وشهرآ في أمريكا ، وشهرآ في إيطاليا ، وأسبوعاً
في إسبانيا ، وأسبوعاً في فرنسا ، وأسبوعاً في القاهرة ، وأسبوعاً لا أعرف أين ..
فلن أكون معها .. سأخذ منها أجازة أشم فيها نفسى ! ..
وأنت لم تطلب مني أن اختار الزوجة المثالية ، ولكن تخيلت أن هذا ما تريده
أن تعرفه !

● الفتوات الفاتنات !

همس في أذني وغمز بعينه ووافقت فوراً . وعاد يهمس في أذني فوافقت على التكاليف أيضاً ، ولكنه عندما ضغط على أصبعي ترددت فقد رأيت في عينيه بريقاً غريباً .

وانطلقنا نحن الاثنين إلى شارع مزدحم بالدكاكين وبالناس والبخور والموسيقى البدائية .

وقفنا أمام بيت له سلم خشبي . وبأصابع صفراء صغيرة دق الباب ، وأطلت سيدة قصيرة القامة جداً، وسمينة جداً، وانحنىت وانحنينا ، وقال كلاماً لم أفهمه ، ونظرت لي هذه السيدة القصيرة وضحكـت ، ثم نظرت لي وضحكـت وكادت تسقط على الأرض .

ولخلعت الحذاء ولبست قبقاباً .. هو في الحقيقة شبشب جاف كأنه مصنوع من السمك البلاه ، ووضعت قدـيـ فيـهـ ، ولم يدخلـ منـ قدـيـ إلاـ الأـصـابـعـ ، وأماـ بـقـيـةـ قـدـيـ فـهـىـ تـمـسـحـ الأرضـ المـفـروـشـةـ بالـحـصـرـ النـاعـمـ .. وبعد ذلك صعدـناـ أحدـ السـلـامـ .. وبعد أن نزعـ كلـ مـاـ شـبـهـ أـيـضاـ .. ووضـعـ قدـيـ فيـ شبـشبـ أحدـ السـلـامـ .. مـزـفلـطـ كـأـنـهـ مـصـنـوعـ منـ جـلـسـمـكـ قـرـامـيطـ ماـ تـرـازـ حـيـةـ، فـكـلـماـ وـضـعـتـ قدـيـ فيـهـ هـرـبـ منـيـ .. وـكـدـتـ أـسـأـلـ السـيـدـةـ القـصـيرـةـ عنـ سـنـارـةـ لـكـيـ أـصـطـادـ بهاـ الشـبـشبـ، وـلـكـنـيـ وـجـدـتـ جـمـهـورـاـ مـنـ الـفـتـيـاتـ يـضـحـكـنـ منـ حـرـكـاتـ هـذـهـ ، وـلـاحـظـتـ أـنـ بـعـضـ الـفـتـيـاتـ يـطـلـبـ مـنـيـ أـنـ أـعـيـدـ هـذـهـ اللـعـبـةـ وـاـزـدـادـتـ لـبـخـنـيـ كـمـاـنـ وـكـمـاـنـ ، وـنـزـعـتـ الشـبـشبـ وـمـشـيـتـ بـالـشـرـابـ ، وـتـعـالـتـ الصـحـكـاتـ ، وـلـأـعـرـفـ

ماذا قالت الفتيات ولكن أعتقد أن بعض هذه العبارات كان معناها : أنني
رجل غير متحضر : كيف أمشي على الحصيرة بالشراب ، كيف لا أعرف
أصول التزحلق على الشبشب ؟ !

ويظهر أن حالي صعبت على بعض الفتيات فاقتربت واحدة مني وأمسكت
ذراعي . وحاولت أن أمنعها ، ولكنها أصرت .. والحقيقة أنها لم تصر : ولكنني
لم أعرف كيف ألفق من ذراعها ، فقد قبضت على ذراعي كأنها كasha ..
ونظرت إليها فوجئتها هزيلة ناعمة ورقية جداً ، وتأكدت أن اليد التي تمسكى
هي يدها فعلاً .

وجلست على الأرض مقرضاً ، وبذلت أزرر بنطلوني ، وامتدت يد إحدى
الفتيات لتعاوني تزوير بنطلوني .. وكلما حاولت أن أوقف الفتاة عن هذا العمل
الذى لا يليق وجدت نفسي عاجزاً أمام يدها القوية .

وبجوار إحدى المناضد جلست وقدمت إحدى الفتيات بعض البسكوت
الناشف جداً .. وضغطت على البسكوت بأصابعى .. ناشف جداً .. بأسنانى ..
ناشف جداً .. ومددت يدى إلى كوب الشاي المر .. فكل مكان في اليابان
تجد فيه الشاي المر الأخضر ، وكوب وراء كوب ، وانسحبت المنضدة إلى
جانب من الحجرة .

وفجأة ظهرت أربع فتيات ممثلات الجسم وقصيرات أكثر من العادة ،
ومدت واحدة يدها ولم أكدر المسها حتى صرخت .. إنها يد من حديد ،
ولم أكدر أسباب يدى حتى وجدت نفسي في حركة خاطفة قد سقطت على
الأرض وقبل أن المس الأرض التقطتني إحدى الفتيات الأربع ، ولم أكدر أنفاس
حتى وجدتني في الهواء .. فوق كتف إحدى الفتيات ، وحاولت أن أخلص
نفسي منها .. ونجحت في النهاية .. ولكن وجدت نفسي قطعة من القماش ..
كحصيرة يمسكها أربع فتيات .. كل واحدة قد أمسكت بيد أو برجل وأنا
لا أفهم ما هذه اللعبة السخيفة جداً ، ورحت أعلو وأهبط وأنطروح يميناً وشمالاً ،
وأتلفت حولي لكنني أجد هذا الصديق الياباني الخبيث ولكنني لم أجده ، حتى اسمه

نسيته .. والبنات هنا لا يفهمن اللغة الإنجليزية ولا أية لغة أخرى غير اليابانية ، وصرخت وكشرت ولعنت آباء البنات ، وحاولت أن أعض واحدة منهن ، ولكن بين أسنانى وبين ذراع أية واحدة مسافات طويلة ، ولم أعرف كيف أصرخ ، حاولت أن أصرخ بالتقسيط مرة .. أقول يا إيدى .. ومرة يا رجل .. ومرة ياناس في عرضكم .

ولاحظت أن حركات التطويح من هنا قد زادت جداً .. وخفت من أن تتركني الفتیات أسقط على الأرض مرة واحدة ، أو أن أرتطم بالسقف أو .. تهی بأخذ الجدران ، ولاحظت أن فتاة خامسة قد اقتربت مني .. وتوقعت أن تقفز فوق وتقف على صدرى وتتأق بحركات دببة مثلاً .. معنى ذلك أننى سأموت هنا على الطريقة اليابانية .

دخلت .. وأنقذتني هذه الدوخة من الشعور بالغيط والخوف والفصيحة ولم أشعر بأى شيء . وأحسست بشيء من دوار البحر والبر والجو ، وأخرجت لسانى وأغمضت عينى وتظاهرت بالموت ، وألقيت برأسى على جانب من جسمى والحركة مستمرة ، ولكن أحسست أن بطني كالقربة المنفوخة وخشيتك أن تقطيع القربة وتتبى كارثة مدوية !

ودخلت للمرة الثانية .. كأننى في منطقة انعدام الوزن .

وأفقت من هذه الدوخة الطويلة على البنات الأربع وقد اجتمعن حولى ليزعن ملابسى .. وملابسى كانت في ذلك الوقت تحتاج إلى كثيرين ليزعنوها .. فهى ثقيلة وكثيرة . ولم أفهم ما الذى يمرى حولى ، فأنا دائمًا فعلاً ، وأنشأ هذه الدوخة لمحى وجه الصديق اليابانى .. وكدت أقول له شيئاً ، ولكن لم أستطع .. فلسانى هو الآخر ما يزال دائحاً .. كالمكوك يتحرك بين أسنانى ولكن لا يخرج منه شيء ..

وبعد لحظات نقلونى إلى غرفة مليئة بالبخار .. إنه الحمام اليابانى ، وخرجت الأربع فتیات ، وبقيت واحدة .. إنها السيدة العجوز التي تقف على الباب .. حاولت أن أجلس على قرافىصى .. حاولت أن أقف .. حاولت أن أستند إلى الحائط .. حاولت أن أغترض .. حاولت أن أقول أى شيء ، ولكن

لا أجد إلا الضحكات ولا الإنحناءات . . فأننا لا أريد أن أستحم ولا أريد أن يعود هذا المزار التقبيل . . ولم آت إلى هذا المكان بقصد الدوحة .

ولكن لا فائدة، تقدمت مني هذه السيدة ، ووضعت الكيزان الخشبية إلى جواري وطلبت مني أن أملاً أحد الكيزان بالماء الساخن والجوز الآخر بالماء البارد ثم أصب الإثنين في كوز ثالث ؛ وبعد ذلك أصب الكوز الثالث فوق جسمى .. وهكذا إلى مala نهاية .. وكانت هي تردد ورأى .. واحد .. إثنين .. ثلاثة .. واحد .. ولو عرفت هذه السيدة أن عدد الكيزان قد تضاعفت أمام عيني وأنها يجب أن تعد من واحد إلى تسعة وتسعين ، لتركتني .. فأننا عريان « ملط » أمامها !

وحاولت أن أقول لها إننى أعرف الآن عدد الكيزان وأنه لا داعى لأن تبقى معى وتبخلق بهذا الشكل . . وأشارت إلى الباب وقلت لها بالعربي : اخرجي يا شيخة ، الله يخرب بيتك ! .

وانحنت في أدب وضحك ، ومعنى ذلك أنها ستنقى مهما فعلت ، ومهما قلت ، وعدت أقول لها : عطشان .. وأشارت يدي إلى أننى عطشان .. وانحنت وخرجت ..

وقررت أن أغلق باب الحمام بالمفتاح .. ولكن الباب من غير مفتاح ، ومن غير ترباس . وقررت أن أرتدى ملابسى .. ولم أجد الكيمونو ، وهو الروب دى شامبر اليابانى . وأسندت ظهرى إلى الباب ، وبدأت أجفف نفسي . وفجأة وجدت نفسى على أرض الحمام أتفادى أن يرتطم رأسى بالكيزان ، وأن أغرق في الحمام ، لقد دفعت هذه السيدة الباب بقوة عجيبة .. وأسرعت ترفع رأسى من الماء ، فلا يصح أن يلمس الإنسان حوض الحمام بيده أو بجسمه لأن ماء الحوض لكل سكان البيت ويجب ألا يلوثه أحد ..

واعتدلت في أرض الحمام ، مستسلماً ، ومددت يدي إلى كوب الشاي المر وشربت المر كوباً وراء كوب . ونزعت السيدة الكيمونو الذى وضعته حول جسمى وأصرت على أن أستحم .. على أن تصب هى الماء فوق رأسى وفوق صدرى . وحاولت أن تدللكنى .. كما تقضى التقاليد في اليابان فصرخت واستجمعت قواى

وألقيت بهذه السيدة في حوض الحمام وخرجت كطرزان أبحث عن القردة شيئاً .
ولم أجد أحداً في البيت . فصرخت وكانت الغابة كلها أخليت وكانت الوحش
هربت .. أو كانت هذه الغابة تحولت إلى لوحه على الحائط . بحثت عن الفتيات
الأربع فلم أجد واحدة ممن .. بحثت عن الصديق فلم أجده ، وإنما وجدت ورقة
يعتذر فيها عن انتظارى لأنه على موعد مع سياح آخرين في بيت يبعد عن نصف
ساعة ، وأنه سيلتقى بي في الفندق بعد الظهر ، ولأنى يجب أن أدفع مبلغ ستة
جنيهات تكاليف تدليك ورياضة .

ارتديت ملابسى .. وحاوت أن أجلس على الأرض أو على مقعد ..
وجدتني عاجزاً تماماً . فجسми كله يوجعني ، فلست رياضياً ، وإذا كنت
رياضياً فهذا النوع من الرياضة لا يتحمله إنسان في الدنيا . وأشارت إلى السيدة
السمينة القصيرة ذات الابتسامة الخبيثة أن تلتحقني بفرصين من الإسبرين ..
انفتحت معتذرة .. طلبت منها أى شيء لإزالة الصداع وآلام الظهر والصدر
والساقين واليدين والعضلات .. فانفتحت وعادت بمجموعة من الأسماك الحافة
ثم بعض البسكوت الحاف جداً . وانفتحت في أدب . وحاوت أن أسرر منها ،
أن أرفعها في الهواء كما كنت أفعل مع اليابانيات قبل هذا اليوم المشئوم ..
لم أستطع .. حاوت أن أحني لها ظهرى في أدب .. ولكن لم أستطع ظهرى
يوجعني جداً ..

كل هذا الذى حدث لي لم أطلبه ولم أعرفه ، فأنا اتفقت مع صديقى هذا
على زيارة أحد التوادى الرياضية النسائية .. لكنى أرى المصارعة اليابانية
بين النساء فقد سمعت أنها غريبة ، وأنها رهيبة أيضاً . وأن هناك عدداً كبيراً
من اليابانيات الجميلات يلعبن هذه الرياضة .. وقد رأيت في بعض الصور
لغاتنت يابانيات وهن يقمن برياضة المصارعة اليابانية العنيفة .. ولم أطلب أبداً
أن أذهب إلى بيت البهلة والهوان .

وفي الفندق عرفت أن هذا الصديق قد أخطأ في فهم ما أريد .. فلديه
عدد كبير من السائرين .. وهم مطالب مختلفة .. وقد تلخبط بين مطالبي

ومطالبهم ، فبعث بعضهم إلى مشاهدة المصارعة اليابانية وبعث بي إلى هذه الهدلة . . .

وشي آخر هو أنني عندما دفعت الحساب عرفت فيها بعد أنني دفعت ثمن أطعمة لم آكلها ، وثمن زجاجات من الشراب لم أرها .. وهدايا يابانية لم آخذها .

وفي يوم كنت أجلس في فندق داينتشى مع أحد موظفي مصلحة السياحة اليابانية ورويت له ما حدت .. فسألني عن اسم الصديق الياباني الذي ذهبت معه . واستأذن مني بضم دقائق وعاد يروى لي قصة أخرى ..

وروى لي أنني طلبت إهداء بعض اللوحات الزيتية .. وأنني طلبت إليهن أن يتغدىن ويتعشين على حسابي ، وأنني طلبت إليهن الحضور في الفندق لتقضي ليلة راقصة .. وأنني تنازلت لهن عن البالطو والبلوفر .. وأنني طلبت لهن شراء ملابس داخلية جديدة !

مع أنني لا أذكر شيئاً من هذا كله . ولا يمكن أن أذكره فأنا لا أعرف اللغة اليابانية ولا أعرف كيف أتفاهم معهن .. وكل الذي حدث هو أنني عندما جلست في هذا البيت الرهيب أبدت إعجابي باللوحات . وكان ذلك بالإشارة ! وعندما قدموا لي الطعام اعتذررت عن تناوله وأشارت للفتيات أن يأكلن هذا الطعام .. ولما سألتني هذه السيدة السمينة عن المكان الذي سأذهب إليه قلت لها الفندق .

وعندما حاولت اليابانيات أن يساعدنني على نزع ملابسي الداخلية رفضت .. فنزعن ملابسي الداخلية أمامي .. وقد أتعجبتني الملابس وطريقة الخلع .. فقط !

ولم أنصور أبداً هذه التفسيرات المختلفة لتصريفاتي العادبة جداً .. ولكن الشيء الذي لم أنهمه حتى الآن ولم أطلبيه لا بالإشارة ولا بالعبارة هو هذه العلامات الزرقاء على ذراعي وعلى رجلي وعلى صدري .. ثم خطاب الشكر الرقيق الذي وجدته في جيبي بامضاء الفتيات الأربع :

شكراً على هذا الوقت الجميل الذي أمضينا معاً !

● سأعوّت من شدّم الْرَبِّ !

الفندق الذى أُنجز به ياباني ٨٠٪ ولكن الحياة فيه مستحيلة ١٠٠٪ . . .
الفندق اسمه : فوناجين . . اسمه غير موجود في دفتر التليفون . . غير موجود في
أوراق الدعاية . كل إنسان يسمع اسم الفندق يطالبني بأن أعيد نطقه مرة أخرى
ويسألني عن العنوان . . وهذا المشكلة . فلا يوجد سائق تاكسي واحد استطاع أن
يهدى إلى العنوان . رغم أن البطاقة التي تحمل اسم الفندق عليها خريطة . .

وهنا مشكلة أكبر وهى أن كل شوارع طوكيو ليست لها أسماء . . ولم تظهر
الأسماء لهذه الشوارع إلا بعد الاحتلال الأمريكي . . فهناك شارع رقم واحد
واثنين . . وألف وباء . . والناس لا يعرفون هذه الأسماء الأمريكية وإنما يتذكرون
الأسماء اليابانية القديمة . والمميزة أنهم لا يعرفون الإنجليزية ويفيدوا أنهم لا يريدون
ذلك . . لأسباب وطنية أو لأنهم مشغولون بالعمل عن الدراسة . . وأصبح من
الصعب أن أسهر في طوكيو ليلا ، لأن العودة إلى الفندق مستحيلة . . والبحث
عن الفندق في الليل وفي الحوارى المظلمة من أصعب أعمال الجاسوسية . .

والحياة في داخل الفندق صعبة جداً . . فالمشي طول النهار بالشيشب . .
والشيشب صغير لا يدخل إلا في بعض قدى . . الشيشب لا يصلح إلا للأقدام
اليابانية الصغيرة . . وغرفة النوم لها شيشب ، ودوره المياه لها شيشب ولها
قبقاب . . والحمام له شيشب . . والحمام نفسه كارثة كبيرة . . فالاستحمام
الياباني شاق جداً وهناك شيء موئم آخر . . هو أنهم لا يعرفون البشكير . إن
عندتهم فوطاً صغيرة جداً جداً . . ولكل واحد منا فوطة يجفف بها جسمه . .

مع أنها لا تصلح لتجفيف اليد الواحدة !

ودورة المياه مؤلمة جداً .. فهي ضيقة جداً وكلها من البلاط الذى يشع بزداً وجليداً .. وفي هذا المكان الضيق جداً يجب أن تنزع بعض ملابسك ثم ترتدى الكيمونو فلا يصح أن تخرج من الكيمونو .. ويجب أن ترك الشيشب فى الخارج .. والفندق كله ليس فيه إلا دورة مياه واحدة وحمام واحد .

وتناول الإفطار تجربة كاملة في الصبر والسلوان .. فلا يوجد في الغرفة جرس .. وإنما يجب أن تخرج وتحاول أن تتفاهم مع الفتاة على أن الشاي الذي تريده هو شاي أحمر وليس شاياً يابانياً .. وقد يساعدك لون المشمع الموجود في الأرض على التفاهم مع الفتاة .. فهو عبارة عن مربعات خضراء وحمراء .. في كل مرة أقول لها : شاي من اللون الأحمر لا من اللون الأخضر .

وفي أول يوم أشرت إلى المربعات الحمراء من المشمع المفروش في الأرض . فإذا كانت النتيجة !

أحضرت لي مفرشاً من المشمع .

وفي اليوم الثاني أحضرت شاياً أخضر .

وفي اليوم الثالث لم يبق إلا الشاي الأحمر فأنت به جافاً .. عملت الشاي لنفسى .

وبعد ذلك عرفت أن الشاي الأخضر اسمه بالياباني : أوتشا .. والشاي الأحمر اسمه : كوتشا .. بيّ أن أطلب منها براداً من الشاي الأحمر ومعه الكثير من السكر وبعض البسكوت .. وكل ما يخطر على بالك الآن لن يصل إلى ما حدث .. لقد أتت لي بصاحب الفندق لأنه ضخم كالبراد ، ولأن له أولاداً كثيرين ، ولأنه رجل زى السكر !

وإذا طلبت الشاي وانتظرت السكر برد الشاي ولم يحضر السكر .. وإذا طلبت السكر قبل الشاي جاء الخبز الأسود ولم يحضر الشاي .. والمصيبة أن الناس مؤدبون جداً جداً .. وأنهم حريصون على خدمة الضيوف ولا حدود لحرصهم ولا حدود لأدبهم إلى أقصى درجة .. وعليك أن تخيل ما تشاء وكل خيالاتك صحيحة ... وأكثر !

وإذا أقفلت الباب فالدنيا حر . . وإذا فتحت الباب فالدنيا كلها سمل
ورنجة وروانح أخرى لم أكتشفها بعد . وإذا أستندت ظهرى إلى الحائط ، انزلق
السرير من تحتي ؛ وإذا أستندت ظهرى إلى المنضدة ، سقط الراديو على الأرض ..
وإذا أشرت بيدي جاءت الفتنيات كل واحدة تسبق الأخرى في الاحتراء ..
وإذا أشرت برجلي انطلق مدير الفندق يضع الحذاء تحت قدمي ويمسك الشيشب
ثم يمسك عصا طويلة يضعها في قدمي . . لأنها الليسسة !

وإذا كشرت تركوفي وحدى وإذا ضحكـت التـفـوا حولـي .
ولكنـي تـعلـمـتـ مـنـهـمـ درـساـ لاـ أـنسـاهـ . . فـقدـ جـعـلـتـ أـنـجـنىـ مـثـلـهـمـ وأـجـمـعـ
مـلـابـسـيـ وـأـنـجـنىـ مـثـلـهـمـ ، وـأـرـتـدـىـ حـذـائـىـ وـأـنـجـنىـ مـثـلـهـمـ ، وـأـحـمـلـ حـقـيقـيـ هـارـبـاـ إـلـىـ
فـنـدقـ بلاـ قـبـاقـيبـ وـلـأـحـواـضـ وـلـأـدـبـ .. !
وـأـمـامـ الفـنـدقـ وـجـدـتـ كـلـ الـفـتـنـيـاتـ وـمـدـيـرـ الـفـنـدقـ وـسـائـقـ التـاكـسـىـ وـالـطـاهـيـاتـ .
وـقـدـ وـقـفـواـ جـمـيـعـاـ يـوـدعـونـتـيـ بـاـنـخـنـاءـاتـ عـمـيقـةـ .. وـانـخـنـيـتـ عـلـىـ الـآـخـرـ ..
وـفـ الـيـوـمـ الثـانـيـ أـرـسـلـتـ بـنـظـلـونـ إـلـىـ الرـفـاـ !

* * *

والـيـابـانـ دـوـلـةـ تـحـتـلـهـ أـمـرـيـكـاـ مـنـذـ عـامـ ١٩٤٥ـ بـعـدـ أـنـ ضـرـبـتـ بـالـقـنـابلـ
الـنـرـيـةـ فـيـ نـجـازـاـكـىـ وـهـيـ وـشـيـاـ .

وـقـدـ نـشـرـتـ الصـحـفـ هـنـاـ أـخـبـرـاـ أـنـ الجـزـرـالـ دـيـحـولـ أـعـلـنـ فـيـ مـذـكـرـاتـهـ أـنـ
أـمـرـيـكـاـ ضـرـبـتـ الـيـابـانـ بـالـقـنـابلـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ الـيـابـانـ كـانـتـ قدـ أـعـلـنـتـ رـغـبـهـاـ
فـالتـسـلـيمـ . وـلـكـنـ أـمـرـيـكـاـ كـانـتـ حـرـيـصـةـ عـلـىـ تـحـطـيمـ الـقـوـةـ الـحـرـيـةـ لـلـيـابـانـ ،
وـعـنـدـمـاـ دـخـلـتـ الـيـابـانـ قـطـعـتـ كـلـ بـنـورـ النـزـعـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ مـنـهـاـ .. فـالـدـسـتـورـ
لـاـ يـنـصـ عـلـىـ دـيـنـ رـسـمـيـ لـلـدـوـلـةـ . وـكـانـ دـيـنـاـ الرـسـمـيـ هـوـ «ـ الشـنـتوـيـةـ »ـ وـهـذـاـ دـيـنـ
أـسـاسـهـ تـقـدـيسـ الإـمـپـراـطـورـ وـالـوـطـنـ وـالـأـجـدادـ ، وـقـدـ اـسـتـغـلـتـ الـحـكـومـاتـ هـذـاـ دـيـنـ
لـدـفـعـ الشـعـبـ إـلـىـ القـتـالـ .. وـنـصـ الـدـسـتـورـ الـجـدـيدـ عـلـىـ حـرـيـةـ الـأـدـيـانـ وـعـلـىـ أـنـ
يـصـبـعـ دـيـنـ شـنـتوـ هـذـاـ دـيـنـاـ عـادـيـاـ كـالـبـوـذـيـةـ تـمـاماـ ..

وـنـصـ الـدـيـنـ الـجـدـيدـ أـيـضاـ عـلـىـ إـلـغـاءـ الـحـرـوبـ .. عـلـىـ إـلـغـاءـ حـقـ الـيـابـانـ
فـالـدـافـعـ عـنـ نـفـسـهـاـ بـأـيـ صـورـةـ ، فـالـذـيـ يـتـولـ الدـافـعـ عـنـهـ هـوـ الـجـيـشـ وـالـأـسـطـولـ

والطيران الأمريكي . . أما اليابان فيجد أن تومن بأن الحرب ليست أسلوباً في الدفاع عن نفسها أو إقناع الغير بوجهة نظرها . وزرعت أمريكا من اليابان جزيرة فرموزا وكوريا وعشرات الجزر الأخرى وأرغمت اليابان على أن تتعهد بـألا تطالب بها في أى وقت . ومساحة هذه الأراضي حوالى ١٥٠ ألف كيلومتر مربع . وأدخلت أمريكا الإصلاحات الزراعية وألغت بعض الاحتكارات وزرعت أملاك الإمبراطور . . وزرعت هيئته وقداسته أيضاً . . وجعلت نصف حديقة القصر الإمبراطوري للشعب .

وعندما أصبح دين شنتو ديناً عادياً ، أصبح الإمبراطور إنساناً عادياً . لقد سجّلت أمريكا عرش القدس من تحت الإمبراطور وأجلسه على كرسى عادى جداً . .

ولكن ماذا حدث للبابانيين ؟ هل تغيروا ؟ هل تبدلوا ؟ . .

أبداً . فالبابان فيها كل المتناقضات . بل إنك تجد الرجل الباباني الواحد مليئاً بالتناقضات . . تجده مسيحيًا وفي نفس الوقت بوذياً . . وتجده يذهب إلى الكنيسة وفي نفس الوقت يحرض على تعاليم بوذا ، أو يحرض على أن يحج إلى تمثال بوذا في مدينة نارا حيث يوجد تمثال لبوذا طوله ١٩ متراً ووزنه ٨٠٠ طن .

وإذا تزوج الباباني المسيحي مثلاً ، فإنه يأتي براهب بوذى ليعقد زواجه . . لأنه يعتقد أن الاستعانت برهان وقاوسنة من أديان أخرى لا يجعل زواجه ناجحاً . . وحتى الباباني المتعلّم جداً بعد أن يتربّد على طبيب ممتاز فإنه في الطريق إلى البيت يمر بأحد المعابد يسأل الراهب أن يعطيه بعض الأعشاب وأن يمر بيده على أماكن الألم . .

الرجل الباباني متدين . . وفي بلاده مئات الآلاف من المعابد . . ويقاد يكون وثنياً ، ولكن بيت الله في طوكيو وحدها أكثر من الموجودة في حي سان جرمان أو سان ميشيل أو المونمارتر في باريس . . بل أكثر من أماكن الله في دويربان في هامبورج بألمانيا . . وبنات الليل في طوكيو مثلاً ، مهذبات جداً ويتمسّكن بكثير من المبادئ الأخلاقية . . فالغانية لا تكذب ولا تخلف الوعد

ولا تسرق . . ولا ترى هي في هذا كله أى تناقض ، ولكنها أراحت نفسها بأنها تبيع وتشترى ، بأنها تاجر . . ومن أخلاق التاجر ألا يكذب . . فالأخلاق عند التاجر هي دعاية له ولبساعته . .

والرجل الياباني يأخذ من كل شيء أحسن ما فيه .

ففي اليابان تجد كل أوربا وأمريكا معاً ، فالبابان هي الجسر الذي ينقل أوربا إلى آسيا . . والبابان هي « الترانسفورمر » — الممول الكهربائي — . . اليابان هي التي تنقل الغرب وتجعله في صورة شرقية مهذبة جميلة .

ومع ذلك تجد اليابان في عزلة تامة . . أو هي مشغولة بنفسها ، ولا تكاد تشعر بوجود الغير . فثلاً تجد اللافتات كلها بالباباني . . والمطبوعات بالباباني . . والأجنبي ليس له أى حساب . .

ذهبت منذ أيام لأشتري بالطرو مطر . . ولم أكن أتصور أنني علاق إلى هذه الدرجة . . فأنا طويل وزن عادي جداً . . ولكنني لم أجده بالطرو واحداً . البلاطي كلها أقصر وأضيق مني . والناس ينظرون إلى كأني هبطت من كوكب آخر . أكثر الحالات لم أجده فيها بالطرو . ولم أجده فيها مخلاً واحداً يقول لي إنه في استطاعته أن يفصل لي أحد البلاطي .

وفي اللوكاندة تجد السرير صغيراً والخوض صغيراً ، والشيشب صغيراً ، وفي نفس الوقت تجد مطاعم أوربية و محلات الشاي أو المشاهي — كلها على الطراز الأوروبي . . ثم إعلانات في الصحف عن المطاعم الغربية والسيارات الغربية . . (الكافيتيريا : أى محل القهوة والشاي أقترح ترجمتها بكلمة التهوشية . . مساهمة مني في مجهودات المجتمع اللغوى !) .

ولكن كل شيء في اليابان موجود . . الغربي والشرق ، الحزب المحافظ والحزب الشيوعي ، والإمبراطور المقدس والإمبراطور الذي ليس له أى سلطان ، وولي العهد الذي يتزوج فتاة من الشعب . .

وفي نفس الوقت تجد الناس هنا يقدسون الجبال .

والتعاليم البوذية صريحة في أن الإنسان من الممكن أن يتعلم من أي شيء ومن كل شيء . وأن يشعر بالشبع وهو جائع . وأن يمسك يده عن الطعام وهو غني . . المهم أن يعمل وأن يتقدم .

وهناك قصة تقول إن رجلا سأله بوذا كيف أتعلم الدين .. فقال له :
كما يتعلم اللص الصغير فن السرقة ..

وروى بوذا هذه القصة : خرج لص هو وابنه لسرقة أحد البيوت ..
ودخل اللص الكبير وسرق الأموال والخل .. وطلب من ابنه الصغير أن يتوازى
في أحد الصناديق . وبعد ذلك أحدث الأب بعض الأصوات وأضاء المصايبع
فصحا أهل البيت . وهرب الأب وتترك ابنه .. وانطلق أهل البيت يفتشون
الصندوق الذي أخفوا فيه أموالهم وعندما أدركوا ابن ذلك راح يموج كالقطة ..
فعرف الناس أنها القطة وأنه لم يكن هناك لص .. وعادوا إلى الفراش .. وخرج
الابن من الصندوق .. ورأى الناس فانطلقوا وراءه في الظلام .. وفي الطريق
المظلم مر ابن بير .. وأمسك في يده حبرا وألقاه في البئر .. وكان للحبر
صوت هائل .. فأدرك المطاردون أن اللص سقط في البئر فعادوا إلى البيت ..
وهم يحمدون الله الذي أنزل العقاب بهذا اللص .. ولا عاد ابن إلى البيت راح
يعاتب أبيه .. ولكن أبوه قال له : هكذا تعلم السرقة .. يجب أن تصرف ..
أن تستفيد من ذكائك ..

وقد تعلم اليابانيون من كل الشعوب .. وقاموا بدور الأب ودور الابن
وذور أصحاب البيوت .. تعلموا من التجارة والدين ومن الحرب ومن السلام
ومن المخضارة الغربية ومن الوثنية الصينية .. ومن اللصوص .. وتعلموا من درساً
لا يمكن أن ينسوه .. فقد لاحظوا أنني زهرت من أدبهم لدرجة أنني بدأت
أرفض الأكل والشرب والنوم على طريقتهم .. وكانت النتيجة أنهم أخذوا يقللون
أدبهم فاكتفوا بالركوع بدلاً من السجدة عندما يرونني .. واكتفوا بالقبلات
بدلاً من الأحضان عند تحيتي ، ولم أجده عند داعي إلا تسع فتيات مع أن عدد
الفتيات في الفندق كان خمس عشرة فتاة .. تصوروا قلة أدبهم وصلت إلى أية
درجة ؟ !

ولكنهم تعلموا وتقديموا .

وهنا في طوكيو برج مرتفع يشبه برج إيفل في باريس ولكنه أعلى وأجمل ..
وقد استخدمت اليابان في بناء هذا البرج حوالي ٤٠٠ طن من الصلب ، أى

نصف الكمية التي استخدمت في بناء برج باريس .. وهذا البرج تحمله هيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية .. وفيه معارض ومتاحف وملاهي وحديقة للحيوان .. وهو أعلى برج في العالم كله .. أعلى من برج باريس ومن برج شتوتجارت في ألمانيا .. وهو أجمل وأحدث وأدق.

إنه يدل بالضييق على العقلية اليابانية .. التي تأخذ كل شيء ولكنها تترجمه إلى أحسن وأروع .. وهذه هي عقريبة اليابان في النقل والترجمة والدعائية.

بالاختصار اليابان مثل أعلى لكل دولة ت يريد أن تعتمد على نفسها وتقف إلى جوار الدول الكبرى .. واليابان هي الدولة الصناعية الموذجية في كل آسيا ..

ويبدو أن الرجل الياباني بطىء إذا كان وحده ، ولكن إذا كانت هناك مجموعة من اليابانيين فهم قوة مندفعة .. والياباني كالألماني مطيع لمن يحكمه . فالولاء للحاكم لا حدود له .. والحاكم يقول : أعمل عمارة هنا .. اهدم عمارة .. اقتل ... أذبح .. اركع .. ابك .. أنهض !

إن الرجل الياباني بصدقية مماثلة دائمًا .. وربنا يستر .

ولكن البصدقية لها الآن شكل آخر ..

أذكر أنني رأيت في برج طوكيو جهازاً صغيراً أعجبني .. هذا الجهاز يشبه صندوق الكوكاكولا .. وبه زجاجة شانيل .. وزجاجة أربيج .. وهناك عشرات الصناديق كل واحد منها به رواحة مختلفة .. وعلى الزائر أن يضع في ثقب الزجاجة التي تعجبه قطعة نحاسية من فئة عشرة ين « قرش صاغ » .. ثم يضغط على الثقب .. في هذه اللحظة تخرج الراحلة التي يريدها على هيئة رذاذ يستمر ثلاثة ثوان .. والراحلة قوية فعلاً ..

وأنا أعتقد أن اليابان الآن هكذا .. تضيع فيها الفلوس وتضغط عليها فيخرج العطر .. والكلام الحلو والمنظار الجميل !

ويعجبك كلامي ، ولكن في نفس الوقت تحس أنه ضحك عليك وتضحك أنت إعجاباً به لأنه ضحك عليك ، ولأنك لا ت يريد أن تبدو أمامه مغفلًا !

● عندهم كل شيء

لا تزال طوكيو أجمل مدينة رأيتها ليلاً في اليابان حتى الآن .. فالشوارع تصبح خيوطاً من اللؤلؤ .. والإعلانات هنا باهرة .. لها أشكال وألوان عجيبة جداً . ولا يوجد إعلانان متشابهان .. وعلى أسطح البيوت أباريق الشاي تمتلئ بالنور الأحمر وتفرغ ما فيها في فناجين تكاد تسقط فوق رءوس الناس .. وأكواب البيرة الكبيرة جداً هي الأخرى تمتلئ ولها رغوة بيضاء . وهذه الكرة الأرضية تلف حول نفسها وحوّلها قر وشميس .. كل ذلك إعلانات فوق الأسطح .. وأعجبني إعلان في أحد محلات .. الإعلان لا يمكنك أن تراه بسهولة .. ولكن المحل وضع في الفترينة راديوهات صغيرة وثلاجات وأدوات الطبخ .. ولكن عندما تنتقل من الفترينة إلى مدخل المحل تشعر بهواء ملتهب فوق رأسك .. فتنتظر إلى أعلى فتجد مدفأة .. فال محل يبيع المدافئ أيضاً .. رأيت هذا أيضاً في برلين ولم يكن إعلاناً عن الدفائف ولكن إعلاناً عن الإسبرين الذي هو علاج ضد أضرار المدفأة !

وال محلات تبدأ عملها من الساعة التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساء .. وبعضها يبقى حتى التاسعة والعشرة ومتناصف الليل ، وكل أماكن اللهو تغلق أبوابها عند منتصف الليل .

وال محلات هذه لا تغلق أبوابها في يوم واحد .. وإنما لكل محل يوم . ولذلك تبقى الشوارع حية ليلاً ونهاراً ..

وفي الساعة الخامسة حيث ينتهي العمل في معظم المحلات التجارية تجد مئات الآلاف من الفتيات . . فمعظم من يعمل في المحلات فتيات .. ولا بد أن الفتيات يعملن في المصانع أو الورش . والمرأة هنا تعمل أى شئ بما في ذلك مسح الأحذية على الأرصفة . . والفندق الذى أنزل به لا يوجد فيه رجال مطلقاً الرجال يعملون فقط في مكتب البريد والاستعلامات . . أما بقية الأعمال فتقوم بها فتيات صغيرات جميلات جدا .. الفندق به ٦٢٤ غرفة ..

أنا رأيت في غرفتي هذه في خلال أسبوع واحد أكثر من ١٥ فتاة صغيرة يدخلن بالشان وبالغسيل والمكوى والصحف .. عددهن كبير جدا .. ويعترفن من اللغة الإنجليزية بضم كلمات أهملها عندما تقدم لك الفاتورة : امض هنا من فضلك .

وشوارع طوكيو لا تبرك في النهار .. فهي شوارع من الممكن أن تجد لها مثيلاً في أي بلد .. ولكن لن تجد مدينة في ضخامة طوكيو في أي مكان .. وتدھش عندما تجد الشوارع ممتلئة ولكن بصورة عادية .. وقلة الزحام سببها أن المدينة كبيرة وأن الناس يعملون ليلاً ونهاراً .

وفي طوكيو عيب واحد هو التاكسي .. فالتكسيات فيها قليلة جداً وليس للتاكسي موقف ولا تستطيع أن تناديه .. ومصيبة أخرى أن جميع سائق التاكسي كانوا من الفدائين في الحرب الأخيرة وكانوا يركبون الطوربيد وينطلقون به من الطائرة ويدخلون به مداخن السفن البريطانية والأمريكية ... وكانوا يجلسون إلى جوار الألغام وينسفونها ويموتون بها ومعها !

لأنهم من هذا الطراز من الناس .. من السفاحين الانتحاريين .

وهو لاء الفدائين لم ينسوا أن الحرب قد خدمت وأن السيارات ليس الغرض منها أن تنفجر في السائق والزبون معاً .. ولكن هذه عيوب اليابانيين .. لأنهم يعيشون على التقاليد ولا ينسون الماضي بسهولة .. فالويل لنا من إخلاصهم ومن ذاكرتهم التي لا تضعف .

والرجل الياباني يسألك هذا السؤال الذى يعرف جوابه مقدماً وينحنى لك شاكراً ، وكأنه سمعك تقول له : إن بلادكم عظيمة .
ويسألك : ولكن ما هو شعورك عندما رأيت اليابان في أول دقيقة ؟

فقول : شعرت بخيبة أمل .

فيحزن الرجلـ وكل يابانيـ حزناً شديداً جداً ويصاب بخيبة أمل فيك أنت ،
ويرثي حالك ولضعف نظرك ونقل سمعك وعجزك عن إدراك الجمال والنشاط
في اليابان من أول دقيقة ..

فتعود تقول له : لكن الآن ..

و قبل أن تتكلها ينحني لك الياباني يشكرك على أنة غيرت رأيك وأنك
أنت الآخر معجب جداً باليابان وبأنك تعتبرها وطنك الثاني .

ولكن ما رأي أنا في اليابان ؟

أنا أُنْحِي هذه البلاد على الطريقة اليابانية وزيادة شوية .

* * *

على باب غرفتي مطبوعة بهذه التعليمات :

- ١ - لا تضع مواد ملتهبة أو قابلة للانفجار في غرفتك .
- ٢ - لا تدخن في السرير .
- ٣ - لا تستخدم أية مكواة أو مدفأة كهربائية في غرفتك .
- ٤ - أقفل الباب وراءك دائمًا .
- ٥ - في حالة الطوارئ استخدم سلم الحريق .
- ٦ - لا تحاول أن تستخدم أية وسيلة للهرب أو النزول من النافذة إلا بعد أن تصدر لك الأوامر من إدارة الفندق .

وتعليمات أخرى ... فعلى السرير مطبوعة هذه العبارة : لا تدخن في السرير ..

وعلى الباب مكتوب : أقفل الباب وراءك .

وفي دورة المياه - ويسمونها «بيت الراحة» ، وفي هونج كونج يسمونها
«بيت الارتباط» - ورقة مطبوعة ملفوفة حول الأكواب وحول أماكن الراحة :
لقد عقمناه لك ..

والتعليمات كلها تدل على الخوف من الحريق .. فالحرائق هنا كثيرة
جداً .. فالبيوت مصنوعة من الخشب كلها .. لكثرة الزلزال والبراكين التي
تحدث في اليابان وتؤدي إلى هدم البيوت وإحرق المزارع والأشجار والمباني ..

والتعليمات في الفنادق تدل على مخاوف الناس في أي بلد .
ففي الفلبين يطلبون من الزبائن ألا يلعبوا القمار في الغرف .
وفي هونج كونج تعليمات تحذر الزبائن من أن يجعلوا غرفهم للدعارة ..
واليابانيون مؤدبون .. ويكتفى أن تقرأ على المنضدة في الغرفة هذه العبارة
المكتوبة بالأحمر وبخط كبير جداً لتعرف ماذا يقصدون : نحن يسرنا أن
تستخدم صالة الفندق للحفاوة بكل من يزورك .
يعني منع الحفاوة بزوارك وزائراتك في الغرفة ..
ولكنني لاحظت - مع اسف - أن الحفاوة تم في الصالة وفي الغرف أيضاً !
والناس يبتسمون وفي أدب عميق ينحنيون .
وأمس تعلمت الانحناء في الصالة واليوم أجيد الابتسام في الغرفة !

* * *

قرأت قصة لأديب روسيا تولستوي .. والقصة معناها عميق .. بل لها
عشرات المعانى العميقة .. وأنا اخترت أحد المعانى فقط .. القصة تقول :
إنه كان في إحدى مناطق المراعى في روسيا جماعة يقسمون الأرضى الواسعة
بيتهم بطريقة غريبة بعض الشئ .. فكل إنسان يركب حصانه وينطلق
مع شروق الشمس .. وكل الأرضى التي يمر بها تصبح ملكاً له بشرط أن يصل
إلى النقطة التي بدأ منها .. قبل غروب الشمس ..

والذى كان يحدث هو أن كل واحد منهم كان ينطلق بحصانه بأقصى
سرعة لكي يقطع أكبر مساحة من الأرض ، ولكن عندما يحاول العودة إلى النقطة
التي بدأ منها يكون حصانه قد تعب .. أو يكون مات منه في الطريق ..

وبعض هؤلاء الناس قتلوا حيواناتهم . وبعضهم بعد أن مات حصانه حاول أن
يعود على قدميه فمات هو الآخر .. دون أن يصل إلى النقطة التي بدأ منها !
فليس المهم أن تطلق بسرعة في البداية ولكن المهم أن تحسب حساب
طريق العودة ..

المهم أن تعود خفياً سليماً وقبل غروب الشمس .
اليوم أحسست أن حصانى قد مات مني أو على وشك أن يموت .. فقد

جمعت الكثير من الأشياء في حقائبى ولا أعرف كيف أنقلها أو أتركها . وكل إنسان أسمع أنه في طريقه إلى القاهرة أعطيه بعض ما معى . . واليوم يوجد في القاهرة سبعة من الأصدقاء لديهم كتب اشتريتها من الهند وأندونيسيا والفلبين وأستراليا واليابان .. ولديهم تماثيل أتيت بها من جزيرة بالى ، وقواقع مكتوب عليها أسماء أصدقائى أتيت بها من رأس كومورين في أقصى جنوب الهند ، واشترتها من سنغافورة . . ومن أستراليا اخترت مجموعة نادرة من كتب الأدب والفلسفة ، وعلم النفس . . ومن الفلبين كتاباً وملابس آلية تصوير تعبت من حملها .

وأمس شعرت أن المشكلة تجددت مرة أخرى ، وحقائبى مليئة الآن بملابس الصيف وملابس الشتاء ؛ فقد رأيت في أربعة أشهر جميع فضول السنة . رأيت الصيف في الهند وأندونيسيا . والشتاء والربيع في أستراليا . واليوم أعاني فصل الخريف في اليابان . . وملابسى الصيفية أخشى أن أتركها في الفندق فهي قديمة . . وهى متواضعة جداً بالنسبة لملابس الحاتمات هنا ، وبالنسبة للصناعة اليابانية . . وأخشى أن أتركها فيشحنها اليابانيون إلى القاهرة . . لشدة أدبهم وأمانتهم . . ولا أعرف إن كنت أستطيع أن أرميها من الطائرة . . ولكن مع الأسف نوافذ الطائرات لا يمكن فتحها إلا في حالات السقوط !

وحاولت أن أعطيها لإحدى الجمعيات الخيرية ووجدت جمعية للمكفوفين ودخلت على سبيل الاستطلاع ، ولكن لم أبق سوى لحظات وخرجت فقد وجدت ملابسهم نظيفة أنيقة ومكونة ومنشية .

فكرت في أن أتخلى مع أحسن التقاليد اليابانية . . وهي أن أشتري ملابس جديدة أضعها فوق الملابس القديمة . . تماماً كما يفعلون بالأشجار التي يقطنونها بالقش ، فتجيء الحشرات وتسكن في القش خوفاً من البرد ، فإذا طلع الربيع نزعوا القش وأحرقوه بما فيه من حشرات . .

وقد لاحظت أن القماش الياباني يصبنى بالمرش . . فعندي حساسية ضد الحرير والقطن الياباني - ولا أعرف إن كانت هذه حساسية أو حشرات ترانزستور - أى صغيرة جداً - ولذلك سأحتفظ بكل هذه الملابس

الى تلتقط الحشرات وأحرقها بعد ذلك !
والمعقول جداً أنه لا داعي للملابس اليابانية ذات الحشرات الدقيقة والاكتفاء
بملابس القديمة ..

والمثل عندنا يقول : من فات قديمه تاه ..
وأنا ، حتى إذا أردت أن أترك القديم ، فلنـى . لا أريد أن أتوه .. أن
أضيع .. فا تزال المرحلة طويلة أمـى !

وفكرت في قصة تولستوي : فإذاً أن أمـاً حـائـيـ بالـأـشـيـاءـ الـتـيـ تـبـاعـ رـخـيـصـةـ
هـنـاـ . وـفـ هـذـهـ حـالـةـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ أـعـودـ إـلـىـ الـقـاهـرـةـ عـنـ طـرـيـقـ طـوـكـيـوـ وـلـاـ عـنـ
طـرـيـقـ نـيـوـيـورـكـ .. وـإـمـاـ أـنـ أـعـودـ وـفـ هـذـهـ حـالـةـ يـجـبـ أـنـ أـسـتـغـنـيـ عـنـ الـقـدـيمـ
الـذـىـ عـنـدـىـ وـالـحـدـيدـ الـذـىـ أـحـلـ بـهـ ..

وفـ قـصـةـ تـوـلـسـتـوـيـ عـادـ كـثـيـرـونـ إـلـىـ النـقـطـةـ الـتـيـ بـدـأـواـ مـنـهـاـ أـحـيـانـاـ بـعـدـ الغـرـوبـ
وـأـحـيـانـاـ قـبـلـ الغـرـوبـ .. وـكـانـتـ مـعـهـمـ خـيـولـمـ .. وـكـانـواـ بـلـاـ خـيـولـ أوـ جـاءـتـ
الـخـيـولـ بـلـاـ أـصـاحـابـهـ ..

وـآخـرـونـ عـادـتـ بـهـمـ خـيـولـمـ مـوـتـ ،ـ الـحـصـانـ حـىـ .. وـصـاحـبـهـ مـيـتـ ..
وـبـعـدـ تـفـكـيرـ قـرـرـتـ أـنـ أـتـصـرـفـ بـشـكـلـ آخـرـ .. سـأـصـلـ بـعـدـ الغـرـوبـ وـمـعـىـ
حـصـانـ لـاـ هوـ تـبـعـانـ ،ـ وـلـاـ أـنـاـ كـسـبـتـ أـرـضاـ وـلـاـ هوـ ..

وـلـكـنـ التـنـقـلـ فـبـلـادـ وـاسـعـةـ أـعـظـمـ وـأـرـوعـ ..
وـالـذـىـ أـحـمـلـهـ فـرـأـىـ وـفـ قـلـبـيـ أـجـمـلـ مـنـ كـلـ مـاـ تـحـمـلـهـ أـيـةـ حـقـيـقـةـ .. فـلـنـ
أـحـمـلـ مـعـىـ أـيـ جـدـيدـ وـلـاـ أـيـ قـدـيمـ .. يـكـنـىـ أـنـىـ أـحـمـلـ رـأـسـىـ ..
لـقـدـ اـنـطـلـقـتـ -ـ كـمـاـ تـقـولـ الـقـصـةـ -ـ عـنـ شـرـوقـ الشـمـسـ وـسـأـعـودـ بـعـدـ غـرـوبـهـاـ
لـاـ فـنـسـ الـيـوـمـ وـلـكـنـ بـعـدـ ذـلـكـ بـأـيـامـ وـشـهـورـ ..

● لا صغيره .. ولا شعبها أقزام!

كل يوم تغير فكري عن هذه البلاد .. كنت أتصور أن اليابان بلاد صغيرة يسكنها شعب ضليل الحجم ، يأكل في أطباق صغيرة وملاعق صغيرة ويقع على الأرض ويمشي في زحام شديد كأنه موج البحر .. وكأنى العملاق جليفر في بلاد الأقزام .. ولكنني وجدت اليابان ليست صغيرة . فعدد سكانها ١٠٠ مليون وليسوا جميعاً من الأقزام ففيهم أناس طوال القامة بپض الوجه جداً ، وليس كل شيء صغيراً عندهم ، فوق طوكيو أعلى برج في العالم ، أعلى من برج ليفل بباريس .. وإذا كانت عندهم راديوهات صغيرة ويحاولون الآن عمل جهاز للتلفزيون يمكن وضعه في الجيب ، فإن لديهم محطات ضخمة وجسوراً هائلة وأكبر سفن في العالم ومصانع مساحتها شاسعة ..

وكنت أتصور أن الصين بbillions من سكانها هي مصدر القوة بين كل سكان آسيا : أو أنها هي وحدتها التي ستكتب تاريخ العالم في القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين .. وقد رأيت نشاط الصينيين في كل الدول الآسيوية ، إنه منظم وقوى ..

ولكن اليابان هي الأخرى قوة جبارة ، إنها محتلة الآن .. ولكنها تشبه الأسد المقيد ، إنه مقيد ولكنه حنف أيضاً ..

وإذا كانت اليابان قد تغيرت وأصبحت دولة صناعية قوية فإن آسيا التي أسللت دماؤها بأسلحة اليابانيين قد تغيرت هي الأخرى . وآسيا كلها واليابان

فـ حالة نحو متصف الطريق .. فاليابان تم بدها لكل الدول .. واليابان تحاول أن تجعل نفسها ضرورة لا بد منها بالنسبة لكل جيرانها ، وكلهم أعداؤها .. وكانت اليابان والصين هما الدولتين الوحدين المستقلتين قبل الحرب في آسيا .. وأصبحت اليابان هي الدولة الوحيدة الكبرى المختلفة بعد الحرب . وهناك عوامل غيرت معالم آسيا كلها ، وغيرت نظرتها إلى اليابان أيضاً كدولة عسكرية استعمارية ..

وهذه العوامل الثلاثة هي : الحركات الوطنية ، والشيوعية ، والحياد . فالحركات الوطنية حررت الهند والباكستان وبورما وسيلان وأندونيسيا والفلبين وكوريا وكمبوديا ولaos وفيتنام .

ولم تبق هناك أقطار مستعمرة حتى الآن سوى هونج كونج البريطانية . والشيوعية هي الأخرى كان لها أثراً في آسيا .. فانتصار الاتحاد السوفيتي في الحرب الأخيرة على ألمانيا قد أدى إلى استقلال الصين وكوريا الشمالية ومنغوليا الخارجية وفيتنام الشمالية ..

ثم ظهرت الدول المحايدة بين المعاكرين .. وهذه الدول تدعو للسلام وعدم الانحياز . هذه الدعوة أقامت دول كولومبو : الهند وسيلان وبورما وأندونيسيا . وقد لعبت كتلة الحياد دوراً هاماً في باندونج سنة ١٩٥٥ .

ثم ظهر اتفاق سياتو (أى دول جنوب شرق آسيا) ، ويتالف من تايلاند والفلبين وباكستان وأمريكا وبريطانيا وفرنسا واستراليا ونيوزيلندا . وقام حلف بغداد المزعوم الذي كان يضم بريطانيا وتركيا وباكستان والعراق وإيران .

ثم ظهرت أحلاف أخرى ضد اليابان نفسها وضد مطالب اليابان في المستقبل تضم أمريكا واستراليا ونيوزيلندا .

ومشكلة اليابان الآن : أنها رغم احتلال الأميركيين لها ت يريد أن تصادق الدول التي تغيرت ملامحها ، واستقلت كلها .. إن اليابان أصبحت دولة جديدة وعفا التاريخ عما سلف .. وكل يوم يقوم الخبراء من اليابان برحلات باسمة لكسب الود .. أو رحلات من طراز (صافية لبن) بين كل الدول الآسيوية والصين خصوصاً والدول الأوربية التي كانت تعد أعظم الأسواق لتتصريف البضائع اليابانية ..

والبابان ها مشاريع صناعية كبرى في آسيا . . هذه المشاريع هي ضمن التوقيضات التي تدفعها اليابان للدول التي اعتدت عليها واحتلتها أثناء الحرب الأخيرة . ولذلك اشتغلت الأيدي اليابانية . . هل تتصور أن عدد العاطلين في اليابان هو مائة ألف ، وأن عدد الأيدي العاملة هو ٤٧ مليوناً . . وأمريكا تستورد من اليابان كميات هائلة من المنتجات .. والناس يقولون هنا : هذا فضل عظيم ولكن إلى متى؟ فإذا تحملت علينا أمريكا تكون مصيبة لنا؟ ولابد من أن تخلي أمريكا عن اليابان واليابانيون يعلمون هذا بوضوح . . وهم لذلك يبعثون بالخبراء والدبلوماسيين ليبوسوا رؤوس الدول المجاورة ، فإذا تم الصلح انطلقت اللعب اليابانية والسيارات والراديوهات والأقمشة وامتلاك الأسواق بكل شيء مكتوب عليه : مصنوع في اليابان .

فالبابان ليست صغيرة وإنما هي عملاق يخotto إلى الوراء . فتظن أنه يتراجع ولكنه في الحقيقة يتحفظ ليقفز إلى الأمام . . .

• • •

في المطاعم اليابانية يضعون أمامك ورقة صغيرة مكتوبًا عليها : « نشكرك على حضورك ونرجو إن كان هناك أى تقصير أن تدلنا عليه لكي تتفاهم في المرة القادمة ». عبارة جميلة مؤدبة مهذبة . ولكنني لاحظت أن اليابانيين لا يقصدونها تماماً . فقد حاولت أن أدخل بعض التعديلات على الأطعمة وكانت النتيجة : واحد لصالح المطعم وصفر لصالحي أنا . . .

أما الموسيقى التي أسمعاها من بعيد فليس تحية لهذا الفشل ، ولكنها صوت ضفادع من نوع غريب يختفظون بها للدلالة على أن الربيع على الأبواب ! وقد عرفت بعد ذلك أن المشكلة هي مشكلة اللغة ؛ فاللغة الإنجليزية نادرة الوجود هنا ، ندرة السلع الأجنبية . .

فنادر أن تجد سلعة أجنبية في اليابان . .

حتى اللغة الإنجليزية صنعواها وطوروها وأصبح لها معنى ونطق غريب جداً عن اللغة الإنجليزية . وإذا استمعت إليها عن قرب فإنه يصعب عليك أن تفرق بينها وبين اللغة الصينية . .

في الفندق الذي أنزل به أطلب كل يوم فنجان شاي أو براد شاي . . .

من غير لبن ومن غير يمون ومن غير عيش .. كل يوم ..

وفي يوم جاءني ضيوف فقلت للفتاة الحلوة: براد شاي وفنجانان من الشاي . وكانت النتيجة أنها أتت براد مللي بالشاي وفنجانين بهما شاي أيضاً .

ولو ملأت الفتاة هذه الفنجانين عدساً فلنـى أمام أدبهـا ورقـها وحرـصـها الشـدـيدـ على أن تلـبـي كل طـلـبـ سـأـجـدـ نـفـسـيـ عـاجـزاـ عن رـفـضـ أـيـ شـئـ ..

وتعودت أن أكتب كل ما أريد .. ولكن هذه الطلبات كان من الصعب تنفيذـها .. وأخيراً جعلـتـ كلـ طـلـبـاتـ مـكـتـوـبةـ بـالـلـغـةـ الـيـابـانـيـةـ ،ـ ولاـحـظـتـ أـنـ هـذـهـ الـطـلـبـاتـ الـمـخـدـوـدـةـ يـنـفـذـهـاـ كـلـ مـطـعـمـ عـلـىـ هـوـاهـ ..ـ فـأـصـاحـابـ الـمـطـاعـمـ كـلـهـمـ كـالـجـهـدـيـنـ منـ رـجـالـ الدـيـنـ ..ـ فـيـنـهـمـ الـخـبـلـيـ جـداـ ..ـ وـبـيـنـهـمـ الشـافـعـيـ الـمـسـامـعـ ،ـ وـبـيـنـهـمـ مـنـ يـرـفـضـ تـلـيـةـ هـذـهـ الـورـقـةـ لـأـنـهـاـ لمـ تـرـدـ فـيـ كـتـابـ مـنـ قـبـلـ !

* * *

وفي يوم ذهبت إلى مطعم «سوبيرو» وهو من المطاعم الشهيرة في طوكيو .. الدور الأخير عبارة عن مطعم على الطريقة اليابانية .. يعني يجب أن تزع حذاءك وترتدي الشيشب .. ثم تجلس على الأرض فوق شلتة والشلتة فوق حصيرة ناعمة .. وأمامك منضدة .. ووراءك فتاة الجيشا ترقص وتغني .. وغناؤها يشبه تقيق الضفادع المعروفة عندنا .. وتدشن أنت كيف تحتفظ في هذا الجسم الأبيض الناعم بمثل هذه الحيوانات الكريهة ، وتتعب كيف دخلت هذا العنق الناعم المقوف .. ؟

وعلى المنضدة يوجد وابور بوتاجاز .. وبعد لحظة يحضر الشاي الياباني الأخضر .. وإلى جانب الشاي يوجد طبق طويل به فوطة بيضاء ملفوفة وساخنة لكي تمسح بها يديك إن كانت قد اتسختا من حذائك أو شعرك وأنت تهـرشـ مـتـعـجـباـ لـلـأـسـبـابـ الـىـ ذـكـرـهـاـ مـنـ قـبـلـ ..

ومع الفوطة تجيء جرسونة أو خادمة ، وقد ارتدت الكيمونو . وليس من الضروري أن تتحدث معك ، فلافائدة من الكلام .. فهذا المطعم يقدم طعاماً يابانياً .. طبقاً يابانياً واحداً .. هذا الطبق اسمه السوكياكي . وهو أشهر طبق في اليابان والناس يأكلونه في البيوت ، عند الحفاوة بإنسان عزيز عليهم لأنـهـ غالـيـ الثـمنـ ..ـ وبعدـ

لحظات تحضر الفتاة ومعها طبق يشبه الطشت الصغير وعليه شرائح من اللحم ..
كثيرة جدا .. وطبق آخر من البصل الأخضر ، وإبريق كبير ، ستعرف
فيما بعد أن به صلصة سوداء وستعرف فيما بعد أنها مخلوطة بالعسل الأسود .. وطبق
آخر به زبدة .. وبعد ذلك تحضر لك عودين من الخشب لتأكل بهما .. وتشعل
الوابور وتضع عليه طاسة من النحاس الأسود وتضع الزبدة والبصل الأخضر والفجل
والجرجير والبقدونس والصلصة السوداء واللحمة الحمراء التي تحول إلى بيضاء
لأسباب لا أعرفها ..

وتوضع أمامك سلطانية في حجم فنجان الشاي . وفي هذه السلطانية يوجد
البيض المضروب .. وعندما يسقط اللحم الساخن على البيض البارد فإن البيض
يجمد ويُسخن أما اللحم فيُفرد . وعليك أن تأكل هذا كله .. وإذا حاولت
إدخال أيّة تعديلات على هذا الطعام الياباني الوطني وجدت صعوبة لا حدود لها ..
فإذا طلبت استبعاد السكر ، أتوا لك بصلصة من غير سكر ولكن فيها شيء آخر
غريب الطعم .. وإذا طلبت استبعاد البصل أتوا لك بأعواد الخيزران ووضعوها
في الزبدة .. وإذا طلبت استبعاد الزبدة أتوا لك بالسمك الذي .

وأمام الأدب والذوق والرقه والانحناء والركوع والسباحة والسباحة
الورقة التي ترجوك أن تصارح المطعم بأى عيب . وسينهى بك الأمر إلى أن
العيوب فيك أنت .. أما اليابان وأهلها وطعامها فعل خير ما يرام ..

وعندما يسألني الناس عن رأيي في اليابان أقول صادقا : عظيمة يا بختكم !
وعندما يسألونني عن رأيي في الطعام الياباني ، فإني أقول كاذبا : لذيد ..
يا بختنا .. !

• • •

في طوكيو مسرح اسمه كوكوساي ، ومعنىه : العالمي .. وهذا المسرح يقع
في حي أساكا .. وكل شوارع طوكيو ليس لها أسماء ولكن الأحياء لها أسماء ..
أما الشوارع فيعرفونها هكذا : الشارع الرئيسي في حي كذا .. ولذلك فأننا
لا نعرف اسم الشارع الذي يقع فيه هذا المسرح .. وأنا أعتقد أن هذا المسرح
هو أعظم مسرح رأيته في حياتي .. إنه أروع من الفولي برجير في باريس وأجمل

من كل مسارح ودور أوبرا إيطاليا ، وإن أى مدير مسرح يجيء ليتفرج على الإدارة المسرحية هنا وإدارة الضوء ونرول وطلع وطير ان السtar هنا وظهور السينما والتليفزيون على هذا المسرح فسيشعر أنه لا يعلم مديرًا لمسرح وإنما هو يعمل في تصليح بوابير الحاز !

وعلى جانبي المسرح توجد ١٢ نافذة يخرج منها الضوء يلاحق الراقصات .. وفي المسرح ٢٠٠ راقصة من أجمل بنات اليابان .. يختارهن المسرح بالمسابقة ، وبعد تعليم خاص لفنون الرقص التقليدي والحديث .

وعلى المسرح مناظر مذهلة تتغير وتتلون وتتقدم وتتأخر في ثوان .. وهذا المسرح لأنه «عالمي» يعرض كل فنون الدول الشرقية والغربية .. اليابان واليونان وليران وأمريكا .. وقد ظهر على المسرح إعلان رائع لشركة الطيران الهولندية الملكية : ظهرت مضيقات وراءهن طائرة كاملة ، وفي السقف طائرة أخرى تحلق فوق رعوسنا ، ثم ظهر شريط سينمائي .. وفي أقل من ثانية اختفى هذا كله .. وظهر منظر آخر في بلاد اليونان .

وأروع مشهد هو الزلازل والبراكين .. وفي اليابان الدخان والحرائق والانهيارات وكلها تظهر في دقة مخيفة .. لقد تصورت أن الدخان سيختنق أنفاسنا جميعا .. ولكنني لم أشم هذا الدخان الذي انطلق من المسرح إلى كل مكان .. وفي لحظة اختفى .. ولم أجد أحد أسأله عن تفسير هذه الظاهرة الغربية ..

أما المشهد الأخير ، وهو التاسع والعشرون ، بعد ساعتين ، وفيه يتحول السtar والمسرح إلى مئات المصايد الكهربائية الملونة ، والتي تدور حول نفسها كالنجوم ؛ من بين هذه المصايد الدقيقة الصغيرة تخراج الراقصات واحدة بعد واحدة ، حتى يمتلئ بين المسرح .. لم أرأ أجمل ولا أروع من هذا ..

الحقيقة أن اليابان تفوقت في كل فروع العلوم والفنون ، وتفوقت في صناعة كل ما في البيت والمطعم والشارع والقطارات والسيارات .. كل شيء .. ولا أدرى لماذا لم يحاولوا تعديل قائمة الأطعمة اليابانية !

إن هذا الموقف العيني يؤكد أنهم أصغر من العادات والتقاليد .. إنهم لا يزالون أقزاما !

● ليس غبياً.. ولكن

كل يوم تسأل نفسك في اليابان : هل هذا الشعب الياباني بليد الفهم ؟
هل هو غبي ؟

وتنظر إلى ما حققه اليابانيون بعد الحرب ، وتنظر إلى الصناعات الضخمة والأذواق الجميلة ، وتتذكرة تفوقهم في كل فروع العلم والأدب والفن والصحافة . إن صحيفة اسمها «أساهي» توزع ستة ملايين نسخة يوميا !

وتقول في نفسك : لا يمكن أن يكون الناس هنا أغبياء ، ولكن لابد أنهم يفهمون بطريقة خاصة جدا ، وأحيانا تعتذر لهم فتقول إن المشكلة في اليابان هي مشكلة اللغة الإنجليزية التي لا يعرفونها .

ولكن المصيبة أن المواقف المحرجة الحيرة لا تقع إلا من الذين يعرفون اللغة الإنجليزية !

فثلا طلبت من استعلامات الفندق أن تخزن بعض كتبى وتبعث بها إلى القاهرة بطريق البحر ، وفهمت أن الكتب تحتاج إلى لف بالورق والدوبارة ثم كتابة العنوان عليها ، ولم أعلق أى اهتمام على لف الكتب أو ربطها .. وسافرت بعد ذلك إلى هيرشها وجنوب اليابان وبقيت أسبوعا ، وفي يوم فكرت أن أطمئن على هذه الكتب وسألت عنها ، وفوجئت بأن الكتب ملفوفة وموضوعة على الأرض ، ولم يدهش موظف الاستعلامات وكان شيئا لم يحدث .. سألته كيف ترك هذه الكتب كل هذه المدة دون أن تبعث بها إلى البروستة ؟

وعرفت أنه كان يجب أن أدفع ثمنية قروش أولاً «ثمنا» للف بالورق والدوباره .. ودفعت ..

أما إرسال الكتب للبوستة فأنا وحدى الذى يجب أن أتولى هذه العملية؟ هل تعرف أين توجد البوستة؟ إنها في نفس الفندق وعلى مسافة قدرها ثلاثة خطوات !

ذهب دبلوماسي عربي -لداعي لذكر اسمه- إلى محل لتفصيل الملابس وقدم للترزي قطعة من القماش لتفصيلها بالطوط . واشترط أن يكون البالطو من طراز خاص ، ووقف الترزي يتحدث إلى زميل له طويلاً جداً .. وسؤاله الدبلوماسي إن كان هناك أي عيب في القماش .. فكان الرد : ولكن الجلو ليس بارداً في اليابان ولذلك لا داعي لتفصيل بالطوط من وبر الحمل .

وقال الدبلوماسي : ولكن لا أتحمل البرد هنا .

وعاد الترزي يتحدث إلى زميله طويلاً جداً ، وعاد الدبلوماسي يسأل إن كان هناك عيب آخر في القماش الذي يقلبه بين أيديهما ..

وفهم أن الترزي يناقش زميله إن كان قد سمع آخر أنباء الأرصاد الجوية فقد علم هو أن الأرصاد الجوية تنبأت بأن الجلو في اليابان لن يكون بارداً لمدة خمس سنوات . وعلى ذلك فلا داعي للبالطو إطلاقاً !

ولما ضاق الدبلوماسي قال : يا سيدي سأرتدى هذا البالطو في موسكو في سببيراً يا .. أنا حر !

واندمج الترزي وزميله في مناقشة حامية طويلة جداً . ولم يطق الدبلوماسي صبراً فسألهما من جديد : ألا يمكن تفصيل هذا البالطو ؟ فأجابا : طبعاً يمكن .

وقال الدبلوماسي : إذن لماذا كل هذه المناقشة .. إنني هنا منذ ساعة بالضبط ولم أفهم شيئاً .

وكان الرد القاطع : ولكن هذه التفصيلة التي تريدها قديمة ، وقد عدل عنها اليابانيون منذ خمس سنوات .

وصرخ الدبلوماسي : ولكن تعجبني يا أخي .

وعاد الترزي يأن إلى الكلام ، وخرج الدبلوماسي وترك القماش ، وهو لا يدرى

الآن إن كان سيجد القهاش قد فصلوه بالطرو أو جعلوا منه دستة منديل !
وتسألني أنت عن معنى هذه التصرفات التي تكرر كل يوم ? ..
لا أعتقد أن هذا غباء ولكن الياباني يفهم بطريقة خاصة ، ويجب أن يكون
كل شيء محددا تماما .

وقد سألت عن الكلام الطويل الذي يدور بين اليابانيين عادة .

فثلا إذا سألت أحدها في الطريق العام عن اسم أي شارع ، ولم يفهم كلامك
أو يفهم بعض كلامك فإنه يتوجه إلى أي ياباني آخر ويدور بينهما كلام طويل
جدا . ولا تعرف أنت ما الحكاية .. وأخيرا تتركهما وتمشى أو تركب سيارة
وتنتظر من النافذة فتجد أن الاثنين يتتكلمان .

أخذت معى صديقا يابانيا وذهبتنا إلى مكتبة أسأل فيها عن كتاب عن «إلغاء
البغاء» في اليابان . وفي تقديري أن السؤال عن هذا الكتاب لا يستغرق أكثر من
عشر ثوان أو أقل .. والذى أدهشتني أن هذا الصديق ظل يتحدث مع صاحب
المكتبة أكثر من عشر دقائق ، وقد ظنت أنه يناقشه في موضوع أحد الكتب أو
يفاضل بين الكتب الموجودة في المكتبة وأيها أنساب ، ولما سأله إن كان الكتاب
موجودا فقال لي إنه لا يوجد هنا الآن .

وعرفت منه أن الحوار كان موضوعه السؤال عن الكتاب ، ورجوته أن
يترجم لي حرفيًا كل ما دار بينهما .

وأنا أنقل هذه الترجمة الحرافية :

قال صديقي : أليس عندك كتاب صدر أخيرا يكون وافيا بالغرض إن أمكن
لأن هذا الصديق : جاء من القاهرة ومهم بشئون اليابان . وقد يسافر بعد أيام وهو
لذلك على عجل .. وأنا أحب أن ألبى كل طلباته لأنه قد ينفعنا في الدعاية
لبلدنا وفي توطيد العلاقات الثقافية بين اليابان والعالم العربي .. وقد طلبت منه صحيفة
«أساهي» مقالا عن اليابان لنشره كاملا مهما كان نقده للبابان وهي تعلم مقدمها
أن لسانه طويل .. وهذا فأنا أرى مساعدته إن أمكن الحصول على كتاب
عن موضوع البغاء وخصوصا إلغاء البغاء لوتشرفت .. وأعتقد إذا لم تختى ذاكري

أن وزارة العدل هنا أو وزارة التربية قد أصدرت كتاباً أعتقد أنه لا يزيد عن مائة صفحة أو مائتين وإن كان أحد أصدقائي يؤكّد لي أن كتاباً آخر صدر في أمريكا عن هذا الموضوع .. فإذا تفضلتم وساعدتموني إن أمكن في الحصول على هذا الكتاب في أقرب وقت وإذا وجدتموه أرجوكم إن تكرّمتم أن تبعثوا به إلى الفندق وسأعطيك عنوانه الآن .. إلخ .

وبعد كل ثلاث كلمات يرد عليه صاحب المكتبة قائلاً : آه سودسكا ..
ومعناه آه كده آه كده .

والنتيجة أن صاحب المكتبة لم يسمع عن هذه الكتب جمِيعاً ويأسف جداً
ويتحسَّن كأنني اشتريت منه كل المكتبة !

أمس علقت على باب غرفتي ورقة مطبوعة مكتوب عليها : المدوع من فضلك
لا تزعجي ..

ومعنى هذه الورقة ألا تدخل خادمة وتنظف الغرفة أو تدخل لجتماع فناجين
القهوة أو الشاي أو تحضر الفسيل .. ومضت ساعة في هدوء وبعد ساعة أخرى
دق جرس التليفون وسألتني الخادمة متى تدخل الغرفة لتنظيفها ، فقلت لها بعد
ساعتين .. وشكرتني ولابد أنها انحنت أمام التليفون على الناحية الأخرى
من الخط ..

لقد فهمت الفتاة أنني حريص على المدحوع داخل الغرفة فقط ، أما الموضوعات التي تدور خارج الغرفة وتخرم أذني وتطفّل الأفكار من رأسي هذا شيء آخر لم أطلب في الورقة المعلقة على باب الغرفة .

وأنهم من هنا أن الرجل أو الفتاة اليابانية ينفذ بالحرف الواحد ما تطلبه دون أى تصرف ودون أى تقدير لأى احتمال آخر .

يعني غبي؟ لا .. وإنما يفهم وينفذ بصورة خاصة .. مختلفة عن المألوف
عندنا !

• • •

أنطلق بنا القطار من هيروشيماء إلى طوكيو .. كان من المفروض أن يقهقها بنا القطار في مدينة كيوتو ساعتين .. هكذا قيل لنا ، وكان في بيتنا أن ننزل في مدينة كيوتو ، وتناول طعام العشاء .. فقد عرفنا بعض المطاعم بها .. وأصبحت لنا صداقات مع الفتيات هنا .. وقد عثرنا بمحض الصدفة على واحدة تعرف أكثر من عشرين كلمة إنجليزية ، وكنا سعداء بها . وفوجئنا في الساعة التاسعة مساءً أن القطار الذي ركبناه هو إكسبريس . وأنه اتجه إلى الجنوب ثم إلى الشمال وتقادى المرور بمدينة كيوتو وسيقف على بعض المحطات الأخرى التي لا نعرفها .. وببدأ الباقة . أقصد الباقات يرحن ويجهن في القطار ومعهن أطعمة لا نعرف أسماءها فكلها في علب مقلدة . وكان التفاهم صعبا .. ومددت يدي إلى علبة ودفعت ثمنها . وشكري الفتاة عشرين مرة .. كأنني اشتريت شيئاً لا يشريه أحد وكأنني خلصتها من ورطة .. أو كأنني اشتريت منها كل البيض المشيش الذي رفضه اليابانيون—في الفلبين طعامهم المفضل في الصباح هو البيض المشيش جداً أنا أكلته ووجدته يتبع المعدة والكبد والأمعاء الغليظة ولا تذهب رائحته إلا بغسيل الفم سبع مرات إحداها بالتراب — وفتحت الصندوق ووجدت أربع أصابع بنية الألوان .. وأزلت الطبقة البنية ووجدت في داخلها مادة بيضاء .. وعرفت عن طريق الكساري الذي يعرف أسماء الخضروات والفواكه .. أن هذا هو أرز .

وسألني عن معنى هذه الأكلة في بلدنا فقلت له : اسمها سد الحنك .. وفي أدب ياباني ولكن مفعول جداً وضعت الصندوق تحت الكرسي .. ومررت فتاة تبيع اللبن في زجاجات مقلدة . وأشارت إلى زجاجة واشتريتها وفتحتها وكانت باردة جداً . وفي اليابان ككل أوروبا يشربون اللبن بارداً .. ومعظم الأطعمة باردة . وذقت طعم اللبن وفي ذل وضعت الزجاجة تحت الكرسي ..

ومرت فتاة ثالثة ومعها سميط — في اللغة العربية الفصحى اسمه سميد — السميط ملفوف في ورق شفاف .. وكل شيء في اليابان ملفوف لفافاً أنيقاً ، والسميط ناشف جداً .. ورائحته سمك . وعرفت بعد أيام أن هذا السميط مصنوع من الأسماك والحميرى المحفف .. وفي غلب وقرف وضعت السميط تحت الكرسي وأحسست أنه فعلاً سميد وليس سميطاً كالذي نعرفه ..

وكان يجلس ورائي رجل ياباني وزوجته أو عروسه . . وكانت أمامها كمية من الطعام هائلة .. كلها من علب وقراطيس وزجاجات . . وبكلان بشهية مذهلة .. وبين الحين والحين أنظر ورائي فأجد لحوما وأسماكا ومكرونة وأشياء تشبه البصل والبيض أو الفجل وأشياء أخرى تشبه العيون المقلوعة .. وفي الصباح وقف القطار عند محطة . . وفي المحطة رأيت فتاة تبيع البيض في قرطاس من التاييلون . . ولاحظت أن البيض ليس معه ملح أو فلفل فاشترت قرطاسا من السوداني الملح . . وبدأت كسر أول بيضة .. وكانت لذيندة باردة جامدة ومررتها على السوداني الملح المقشر .. وثانية بيضة لا يمكن أن تكون يابانية .. إنما مستوردة من الفلبين .. فقد وجدتها جافة وفيها تمثال صغير لكتكوت .. والبيضة الثالثة كذلك .. ووضعت البيض تحت الكرسي .. ووضعته بعناية تامة في القرطاس التاييلون ..

ولمحت على رصيف محطة أخرى رجلاً يبيع أباريق الشاي الساخنة والدخان يتتصاعد منها .. ونظرت إلى الركاب حولي .. كلهم يشربون الشاي الساخن وقد تعودت على الشاي الياباني الأخضر .. وقد اشتريت برادا .. وجلست وأنا سعيد بهذا الشيء الدافئ وصبت في فنجان صغير .. ولم يكن الشاي أخضر اللون ولا أحمر اللون .. لقد كان ماء ساخنا بلا لون .. ولكن له طعم النبيذ ولها رائحة الكوينياك .. إنه المشروب الياباني الوطني ، إنه « الساكى » .. وضعت البراد تحت الكرسي ..

وأرجعت مقعدي إلى الوراء واستسلمت للأطعمة التي في في .. ورحت أغلب لسانى يمينا وشالا وأغسل شفتي بريق وأمسحهما بيدي .. وحاوت أن أشاغل عن الطعام وأن أسد أذني عن حركة التكسير والطحن الذي يدور في المقعد الذى ورائي ..

ولكن المعدة الحالية لها ألف أذن وها ألف أنف أيضاً فأنا معذور !

وبعد نصف ساعة وصل القطار إلى محطة طوكيو .. ومن نافذة القطار وجدت كل الفنادق مقلقة والمطاعم مظلمة .. لقد وصل القطار في السادسة صباحاً وال محلات تفتح أبوابها هنا في التاسعة .

وجمعت حفائبي ولففت البالطو حولي وشددت الحزام حول معدتي لعل
أسكتها وهى تسب وتلعن وتصرخ .. ولم أكذ أنزل على الرصيف حتى وجدت
البائعة التى اشتريت منها البيض والشاي والسميد قد وقفت على الباب تحينى
وتقول كلاما لا أفهمه .. وفجأة وجدتها قد جمعت كل الأشياء التى وضعتها
تحت الكرسى وقدمتها لي من جديد .. لقد ظنت أننى نسيتها .. وأمام وجهها الباسم
وأدبه الذى لا حدود له .. حملت كل هذه الأطعمة وزلت بها من الرصيف
إلى الشارع ولا أدرى أين أضعها .. فالشارع كلها نظيفة .. وأشارت إلى تاكسي
وأخرجت من حقيبى إحدى الصحف ولفقتها فى الصحفية .. وألقيت بها جميعا
من السيارة . وعندما دفعت للسائق الأجر أشرت إليه أن ينطلق بسرعة قبل
أن يتبه إلى أننى قد نسيت هذه الأطعمة فيعيدها لي من جديد ..

وعندما توقف التاكسي لكى ينبهى إلى الأشياء التى ألقيتها من النافذة قلت له
في سرى : بصراحة أهى دى اسمها غباوة !

وَاهْنَا معاً نَرِدُ !

كان القمر نزل من السماء وتكسر قطعاً قطعاً فوق مدينة طوكيو .. كل شيءٍ منيرٌ وملونٌ ومحركٌ .

الحواري الصغيرة أجمل من الشوارع الكبيرة وأكثر عفاريت وملائكة من المليادين . والمطاعم الكبيرة نظيفة جداً .. والمطاعم الصغيرة فيها حياة ، ناس يضحكون بلا حساب ، ويأكلون بلا حساب ..

ولا أعتقد أنه يوجد في أيه عاصمة في الدنيا هيصة وطرب وحظ كما يوجد في مدينة طوكيو .. إن أي شارع جانبي به عدد من البارات والكباريهات أكثر من الموجود في القاهرة والاسكندرية ودمشق معاً ..

وأنا أعرف بعد ثلاثة أسابيع من الحياة في طوكيو أنني لم أعرف اسم أي شارع .. وفيها عدا شارع جنزا الذي به عدد لا يحصى من الشوارع الجانبيه .. فهي كثيرة جداً .. وفي هذه الشوارع الجانبيه توجد بيوت صغيرة .. كل بيت له باب مضىٌ وعلى الباب كرة من الورق الملون المضى .. وعلى الباب فتاة يابانية تبتسم لك دائماً .. وفي الغالب كل هذه البيوت الصغيرة يسمونها مطعم أو مقهى أو مشهى .. والأسعار ليست رخيصة كما تقسم الإعلانات على ذلك . وتتوّكّد أنه مائة ين أي عشرة قروش .. ولكن هذه التفروش تتزايد في الداخل وتتصبح جنيهات .. هذه الجنيهات يجب دفعها بعد ساعة من جلوسك .. كل ساعة يجب أن تدفع .. فقد يحدث أن يسلو عليك فلا تدفع أو تنسحب وتخرج .

وهناك في الشوارع الكبرى شبان لهم ملابس نظيفة ووجوه ضاحكة وفي أيديهم

سجاير أمريكية تدل على أنهم أولاد ناس ، وأنهم في غنى عنك .. هؤلاء الشبان يقتربون منك ويهسون : مارأيك في سهرة حلوة .. فتاة تتكلم الإنجليزية بطلاقة .. إنها لا تريد أى فلوس .. إنها تحت البلوس مع الناس .

ثم يضم يده في جيبي ويخرج لك علبة سجاير ذهبية أنيقة .. ومن الجيد الآخر ولاعة رونسون غالية الثمن .. ومن البنطلون محفظة جلد تمساح بها صورة الفتاة منذ عشر سنوات وأحياناً عشرين سنة .. ولو نظرت إلى الفتاة لوجدت فيها شيئاً كبيراً منه .. كل هذا جائز في طوكيو .

وقد يكون من مبادئك المشى مع الكذاب إلى باب الدار .. وستعلم حقيقة غريبة أن الناس لا يكذبون .. التاجر لا يكذب .. وستجد أن هذا الشاب قد وصل فعلاً إلى باب الدار ولكن الدار مش ولا بد .. وستجد أنه قد نقلك إلى أحد المقاهي أو المشاهي ..

وف هذه الصناديق الصغيرة .. وفي الظلام تبدو كل الفتيات جميلات ، وكل الرجال أيضاً .. فإذا قالت لك إحدى الفتيات : هاى .. أهلاً بك يا جيمي .. أو ياميسي ..

فيجب أن ترد التحية لأنها تراكم مثل عمر الشريف لا تدقق معها .. أو على الأقل لا تدقق معها الآن ..

فكل الناس في غاية الجمال والكمال في هذه الصناديق الليلية التي يبلغ عددها عشرة آلاف صندوق في طوكيو ..

حاولت أن أطبق المشى وراء الكذاب .. وذهبت إلى أحد الصناديق حيث توجد أجمل فتاة يابانية !

الحقيقة كان أكبر من صندوق .. إنه كان «محارة» من محاهير الليل .. وقلت في نفسي : يا وادروح .. حخسر ليه ..

وذهبت وأملأ ضعيف جداً في أن أقابل أجمل فتاة في اليابان ، وقد قرأت في الصحف أنها وصلت من لندن منذ أسبوعين ، وأنا رأيت صورتها وعلمت عنها الكثير .. شكلها مش ولا بد ولكن دمها خفيف .. وقد سمعت لها تسجيلاً في الراديو وأعجبني منها كلامها بالإنجليزى .. رقيق مضحك .. وقلت :

روح مهما فعل اليابانيون فلن يكونوا في شقاوة أولاد أو بنات باريس ..
و قبل أن أصل إلى هذا الصندوق الكبير اقترب مني الشاب الوسيم وقال لي :
انتظر في الصالون بعض الوقت وبعد ذلك ستضيء الأنوار .. ومرة واحدة تتنفس ..
وستجد العرض الخاص الذي تقدمه ملكة جمال اليابان .

وفى نفسي قلت : والله كذاب يا ابن الإيه ..

و همس فى أذنِي مرة أخرى و طلب مني أجرة التاكسي وأعطيته بعض القرش ..
وبعد مناقشة وافق و دعنى .. و صعدت السلم .. الموسيقى تستقبلنى .. موسيقى عالية ..
أحسست كأن الموسيقى ترقص .. ت يريد أن توقعى على السلم .. والأصوات والضحكات
عالية .. لأنها أصوات أناس سكارى .. وهناك ضحكات ناعمة يابانية .. الوجه
حلوة كلها من الورد والتفاح . أما الروح على الشفافيف فهو يشبه اختام السلخانة
على اللحم العجالي .. والنظرات ليس فيها ترحيب كما كنت أتصور .. ودخلت
غرفة .. الناس فيها واقفون يشربون « الساكي » وهى الخمر اليابانية التي
لا تشرب إلا ساخنة !

وبدأت البيرة التي يشربونها تخرج على هيئة الرغاوى من أفواههم ، وبعضهم
أخذ يتلوى كالأسماك اليابانية عندما استقرت في معدنِي أول يوم ولم أكُد أراها
حتى أحسست ببعض شديد .. قد تقول إن هذا الكلام أو مجرد خيال .. معك
حق .. فهذارأي أيضا ولكن معدنِي لها رأى آخر وقد حاولت أن أجعلها تعدل
عن رأيها هذا ومعي ثلاثة من الأطباء .. ولكنها عنيدة .. فاستسلمت لها عندما
رأيت هؤلاء السكارى يتلذّذون من شدة الخمر .

وهجمت فتاة يابانية على ملابسى وقد ظنت أنها سكرانة وأنها تكاد تسقط
على الأرض .. فحاولت إسنادها وإجلасها على أحد المقاعد .. وجلست ونظرت
ناحني وقالت : هات لك كرسى يا روحى – قالت كلمة أخرى مش لطيفة !
وأتيت بكرسى ولكن لم أجدها .. لقد اختفت ..

وضحكت هذه النكتة .. وضحكت عندما عرفت أنها أخذت عليه سجائر
كانت في جيبي ولم يكن بها إلا سيجارة واحدة من صنف ياباني ردئ جدا ..
ولمحت بين الموجدين رجلا كنت قابلته في مدينة سيدنى باستراليا ولم يكن
يرأنى حتى عانقنى بعنف . مع أنها لم نكن أصدقاء .. ولكن البيرة قادرة على

صناعة هذه الأحضان وأكثر وقال : أين أنت وماذا فعلت ، وماذا تفعل هنا وماذا ت يريد أن تفعل هنا ؟ .. إنك تطاردني .. ففي كل مكان أمر بمنك ومع ذلك أجدهك .. من ذا الذي أرسلك هذه المرة لابد أنها زوجي الملعونة .. أنا أعرفها .. وأعرف الأعبيها وأعرف ما الذي يعجبها فيك .. فلست أنت أول واحد في حياتها !

والحقيقة أني لا أعرف زوجته .. وكل ما هناك أتنا تقابلنا في إحدى المخلفات .. ولاحظت أن هناك اهتماما شديدا من زوجته بشخصي بعد هذه المقابلة .. فقط اهتمام يختتمه أدب الضيافة في استراليا أو في أي بلد متحضر ! وعرفت فيما بعد أن هذا الرجل يحيى كل ليلة وينفق عشرات الجنيهات .. وفي هذه الميسقة لم أجئ عن ملكة جمال اليابان ولم أسأل أحدا من الحاضرين، وأدركت أني شربت مقلبا ، كنت أتوقعه .. ولكنني لم أخسر شيئا .. في أي بلد جديد لا أخسر أى شيء .. فكل شيء جديد أعرفه فهذا مكسب .. فأنا ازددت معرفة بهذا النوع من الناس !

وعرفت ماذا يجرى في صناديق الليل في طوكيو .. وعرفت ماذا يمكن أن يحدث لرجل مغمور في هذه الصناديق وكيف تضيع أموال الناس ومحافظتهم . هكذا كنت أقول لنفسي وأنا جالس على مقعد وثير في أحد الأركان وأمامي زهرية بها ورد . لا أعرف إن كنت أواسى نفسي .. ولا أعرف إن كانت يدى أيني قد امتدت إلى يدى اليسرى وصافحتها بعنف .. ولا أعرف إن كان هذا الصوت الذى أسمعه يقول : شد حيلك .. لا أعرف إن كان هذا الصوت قد صدر عنى .. وفجأة قفزت إلى جوارى فتاة يابانية .. مش قوى .. مش قوى .. مش ولا بد خالص وسألتني : كيف حالك ؟ ..

فقلت لها : وكيف وجدت حال !

وكانت تتحدث الإنجليزية وبيدو أنها كانت تقلد الإنجليز في لون بشرتهم أيضا .. فخدودها حمراء وعيتها حمروان أيضا .. وجعلت تغنى باليابانية وبصوت مرتفع وطلبت منها أن تترجم لي هذه الأغنية . ولم يعجبني كلام هذه الأغنى ولم يعجبني العن أيضا .. وفجأة جلس الصديق - صديق بالقوة - الذى قابلته في استراليا .. وانضم إلينا .. وبدأ هو الآخر يغنى ويلعن زوجته

وكل زوج وكل زوج يتصور أن الحياة مستحبة بلا زوجة .. وانضمت إليه هذه السيدة تلعن الرجال الأزواج وغير الأزواج والذين ينجبون الأطفال والذين لا ينجبون الأطفال مثل زوجها . وقالت كلاما معناه : يا حسرة بعد ١٥ سنة ولا حنة عيل .. رجاله إيه دول !

وكانت الساعة الثانية عشرة مساء . وهذا موعد إغفال البارات والكباريات في طوكيو .. شئ غريب .. ولكن طوكيو مدينة عجيبة الأطوار . غريبة النساء والرجال !

وفجأة جلس إلى جواري عدد من الجنود البريطانيين . أما الجنود الأميركيون فهم مفضلون على غيرهم من الناس لأسباب لم أكن أعرفها بوضوح .. فالجندي البريطاني مرتبه ضئيل جدا ولذلك إذا دخل أحد البارات فهو لا يشرب أكثر من زجاجة بيرة فإذا به يخمور وإذا به يهم على البنات والرجال وهات يا ضرب .. أما الجندي الأميركي فمرتبه كبير .. ومعه سجاير ومعه دولارات .. فهنا خيار وفقوس .. وقد تكون الفقوس حولي وكلهم من الجنود البريطانيين .. ولاحظت أن واحدا من الجنود يخاطب هذه السيدة التي جلست معنا بقوله يا صاحبة الحلة إذن هذه هي ملكة جمال اليابان .. ممكن ! ولكن في آية ستة ؟ .. وسألتها فعرفت أن هذا لقب أطلقه عليها الجنود الأميركيون وأنها هي وحدها التي تتكلم الإنجليزية بطلاقة وأنه كان من الممكن أن يكون لها شأن في هذا الصندوق لولا أنها لا تفتق من الحمر .

ولذلك فهي تعمل جرسونة للتوايت في هذا الصندوق .. جرسونة ؟ وفين يا بنت الـ .. ؟ !

ونهضت وفي أذني أغنية أم كلثوم التي تقول : واحنا معانا بدر .. طالع في ليلة قدر .. وأنظر إليها وأقول : واحنا معانا قرد طالع في ليلة برد ، احنا نقول حوشوه وهو يقول هاتوه .. واحنا معانا حمار .. طالع من الدوار .. وأمام باب الصندوق وجدت شابا آخر يهمس في أذني ولم أعرف ماذا يقول ولكن صرخت فيه : اسكت يا نصاب !

وعندما عدت إلى الفندق تذكرت أنه كان يسألني عن الساعة كام !

● زوسي من اليابان

لم أشهد في حياتي كلها عملية « كتب الكتاب » إلا مرة واحدة ، وكان ذلك في السيدة زينب .. وكان الرئيس أحد أصدقائي في السلك الدبلوماسي . ولا أعرف إذا كان هذا يحدث في كل خطبة أو زواج ولكن الذي رأيته فعلاً، غريب. غرفة بها مقاعد .. نفس المقاعد التي تستخدم في المآتم .

والناس صامتون لا أحد يتكلم تماماً كالمآتم .. وبين الحين والحين يهمس واحد من الحاضرين في أذن الآخر ويقول له : ربنا يتم بغير .

يتمن إيه؟ مش عارف . ولكن يتم السلام .

وفي جانب من هذه الغرفة يجلس ثلاثة من الشياخ أحدهم ضعيف النظر جداً وهو الذي تتوجه إليه الأنظار . وهو الوحيد الذي لا يتوقف فهو عن الممس كأنه وضع بطارية جافة في صدره ، وربط أحد أسلاكها بشفتيه . فشفتهان ترتجفان دائماً .. ويقول الذين سمعوه عن قرب .. إنه يشبه القطة « يزن » ولا يقول شيئاً .. أنا لا أعرف .

وبعد لحظات ، ويقال ساعات ، يخرج هذا الرجل من جيشه رزمة ورق م ملفوفة ، ورق أبيض . وينخرج من جيشه زجاجة حبر ، ومن الجيب الآخر ريشة فيها سن صفراء غير صالحة للكتابة . ولذلك يجب إحرافها بعد كبريت حتى تصلح للكتابة . ويجب أن يحضروا له كوباً من الماء لكي « يطش » فيه هذه السن وبعد ذلك تصلح للكتابة .. والله أعلم .. وقد حدث هذا كلـه .

وتأكدنا لعملية إطفاء السن الساخنة ، وضعها الشيخ في فه ، وبعد ذلك أشار إلى زميل له . ودنا الزميل وقال له : قل بسم الله الرحمن الرحيم .. واكتب وببدأ الرجل يكتب صيغة وثيقة الزواج .. طويلة طويلة .. وببدأ يكتب من هذه الوثيقة عدة نسخ .. مع أن في الإمكان طبعها وبسهولة .. وعلى ذلك لكون عملية الكتابة أيسر من كتابة شيك .. ولكن هؤلاء المشايخ يريدون أن يتبعوا ويعرقو وأن يقدم لهم أهل العروس منديلين أو ثلاثة من الحرير يمسحوا بها العرق كل هذا يتم والناس صامتون كأنهم في مأتم .

وهناك مثل يقول : إن يوم كتب الكتاب هو اليوم الذي يكذب فيه العروسان فالعروس تبكي والعربي يضحك !
وهذا يحدث في كل كتب كتاب !

وكنت أتصور أن هذا يحدث في بلادنا فقط .. ولم أتخيل أبدا أنه يحدث في اليابان .. إلى أن كنت في إحدى قرى هيروشيا .. أما العروس أو عبارة أصدق الفتاة التي أعجبتني - فهي مختلفة عن بنات اليابان ، إنها طويلة بيضاء اللون أو شقراء وشعرها أسود ثقيل ووجوها مستدير ملي بالدم .. أو فيه بقع من الدم عرفت فيما بعد أن هذه هي خدوتها .. ولها شفتان غليظتان .. ولها أسنان بيضاء كالثلج .. ومن الغريب أن لها صدرا .. ولذلك يؤكد الناس أنها من أصل أفريقي ، وهذا يضايقها من الناحية الوطنية ويسعدها من الناحية الأخرى .. وأنت تفهم ولا داعي للتفسير .

وفي يوم كنت أمشي بالقرب من إحدى الحدائق العامة رأيتها وابتسمت لها ولم يكن في نيتها أى شيء .. مجرد ابتسام .. ياجت ياما جتش .. وابتسمت هي .. وأنا أعلم أن اليابانية تبتسم دائماً وبلا سبب ولا مبرر ولا معنى .. سألتها إن كانت تعرف الإنجليزية .. وقلت هذه العبارة باللغة اليابانية التي أعرف بعض كلماتها فأجابت أنها تعرف .

وبالاختصار جلسنا معاً في أحد المطاعم وتغذينا وشربنا الشاي وتعشينا ، وبعد العشاء تمشينا وبعد ذلك عاد كل منا إلى بيته ، وفي اليوم التالي تناولنا الإفطار والغداء

SANYO

ヒオクミン
HIOKUMIN

大和

カメラ・スキ

أشهر شوارع طوكيو : اسنه جنزا . في هذا الشارع كل شيء

من الدفع . الذي يهتم به لمحة الماء ، البت التي يهتم بها ، فنون ، فنون



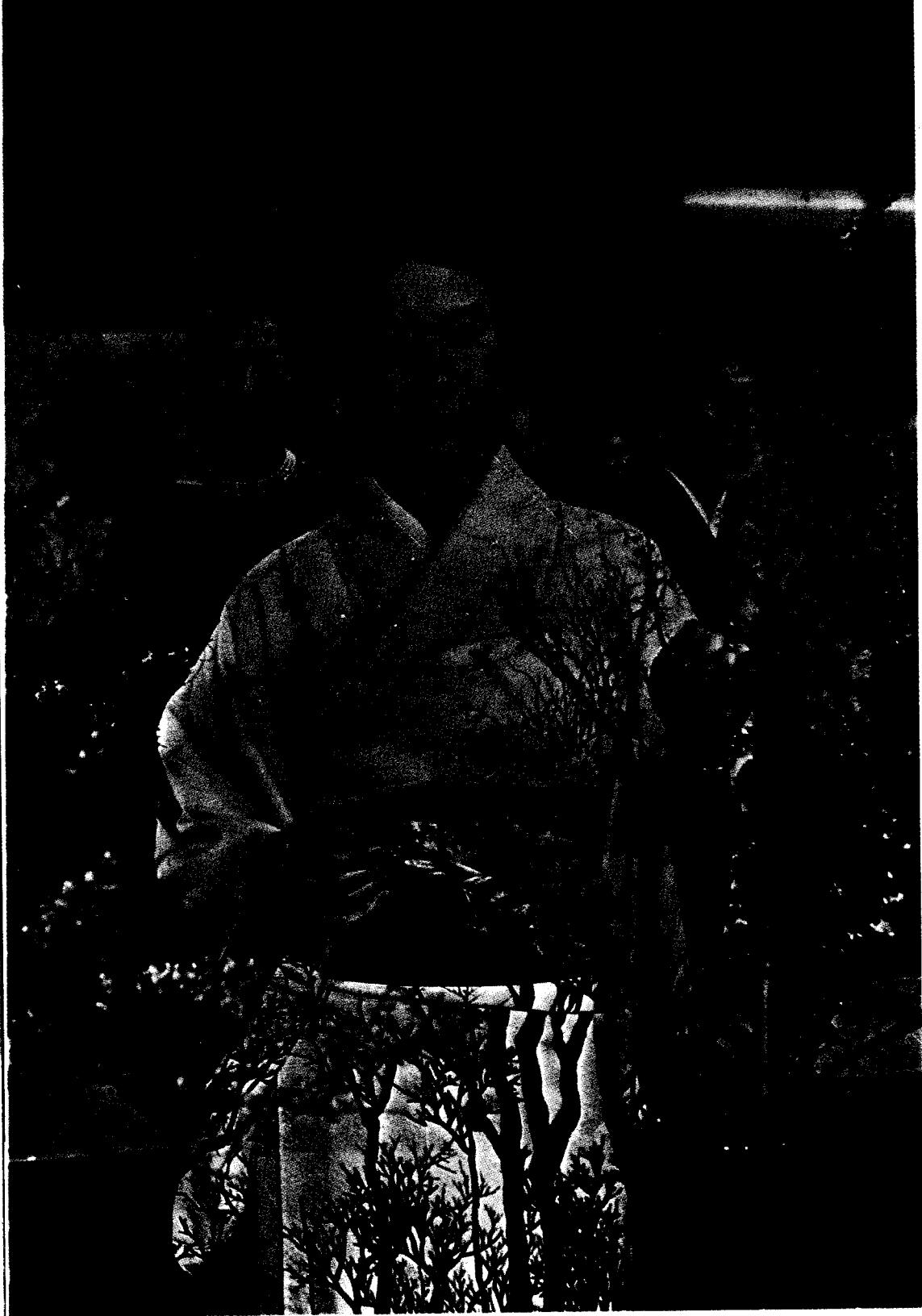


أنا إلى العين ولا تسألني ما الذي أتناوله
إن رائحة الطعام لا تظهر في الصورة !

حفيدة . . لقد وضعت في فم الصفيرة بزازة حتى لا تفتح
فها وتسألهـا من هذا الأجنبي الذي يصورها - أنا طبعاً !

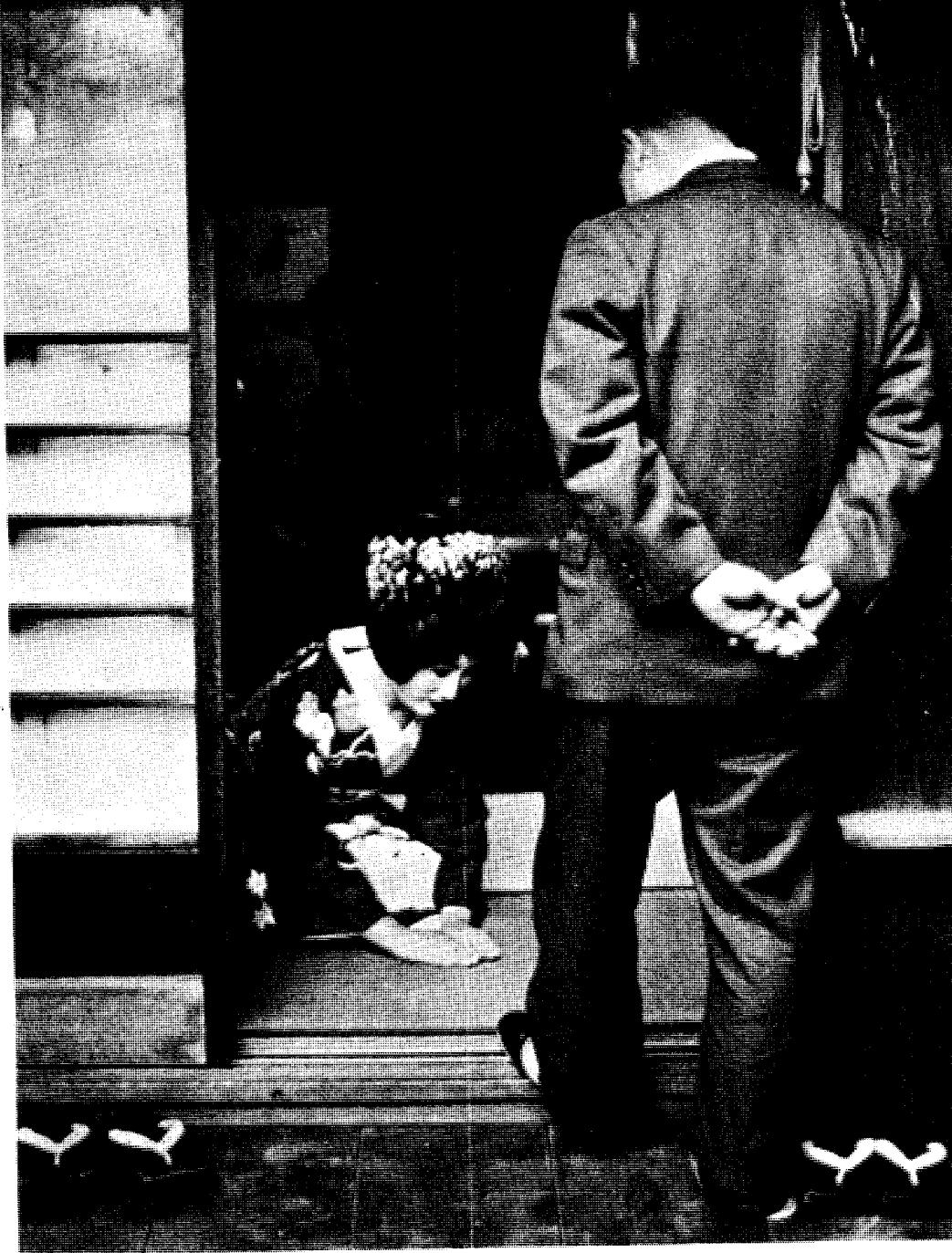


الغرض من هذه الصورة ليس الطعام طبعاً ولكن
أن ترى أكثر من فناء في أوضاع مختلفة



إحدى نباتات الجبشا . فمن هذا الزر غال جداً ولا تقدر عليه

الا الملايات - بـ ١



عندما تدخل أي بيت من بيوت الجيشا تساعدك على خلع الخذاء
ونفع الشبشب في قدميك - غالباً يكون قدمك أكبر !



أحدى الرقصات المقدسة في إندونيسيا ..
ويمثلة خاصة في جزيرة Bali التي تدين
باليهانتين البوذية والهندوسية ..



هذه الفتاة صيادة لُولُ يابانية ..
إنها تضع اللُولُ في السلة وتدلّ به
في المحيط



صيادة اللُولُ اسمها « الأمة » بفتح
الهمزة وطا مواصفات خاصة ..

موسيقى الألوان : اليابان ..





فِي شَارِعٍ طُوكِيُوْ نَجَدَ الْزَّى الياباني :
الْكِيمُونُو .. وَالْزَّى الأُورُوبِيُّ الْحَدِيثُ .

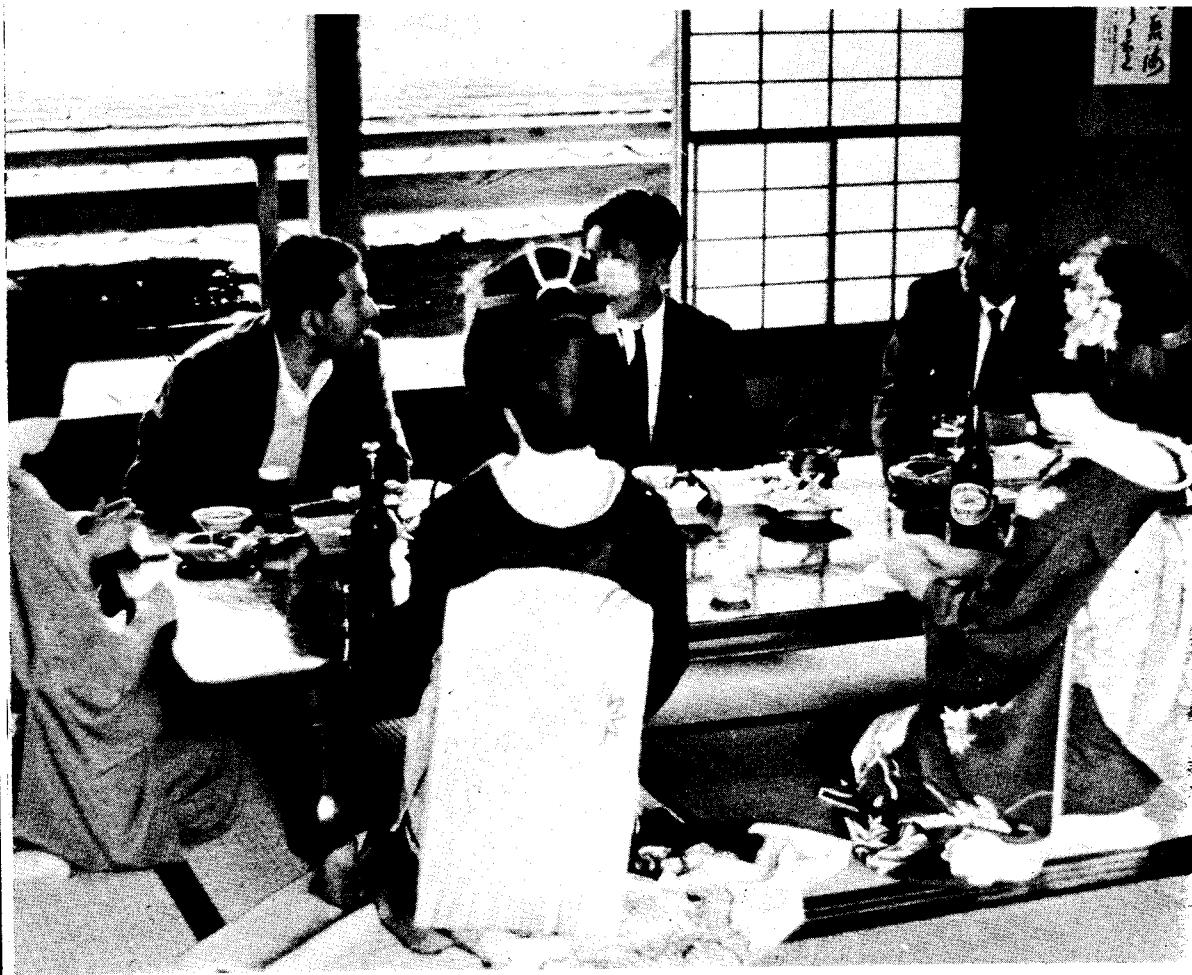


عَلِيَّةٌ صَبَّةٌ جَدًا تَصْفِيتُ شَعْرَ بَنَاتِ الْجِيشِا ..
وَصَبَّيْنِ وَجْهَهَا بَكِيَّةٌ لَا شَرُورَةَ طَامِنَ الْبُودَرَةَ !





أنا في الطريق من طوكيو إلى العاصمة القديمة كيوتو .. لست
حزيناً ولكنني مرهق جداً فالرحلة طويلة ولا تزال طويلة !



كل هؤلاء يتناولون الغذاء على حساب من
أجل أن أنشر هذه الصورة فقط

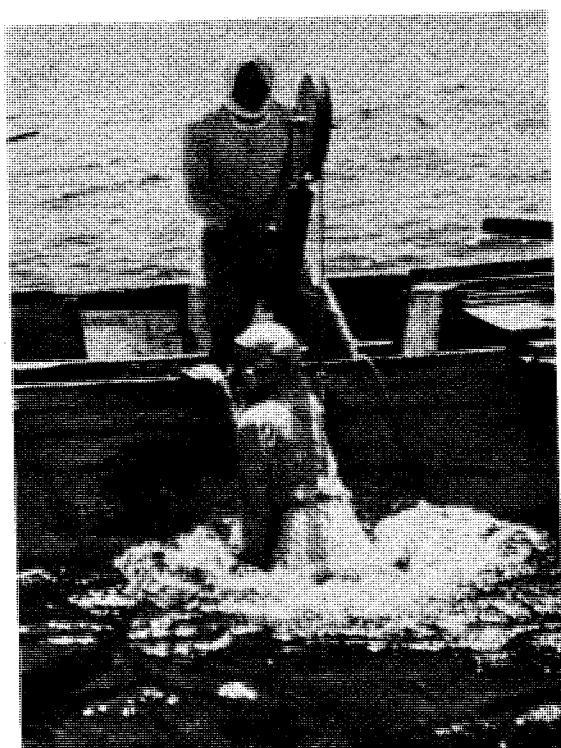
سوف تكون جيشاً عندما تكبر ..
إنها الآن في حالة حضانة !

زيارة .. الصورة فقط لتعرف ما الذي تفعله
الجيشا إذا زارت واحدة أخرى !



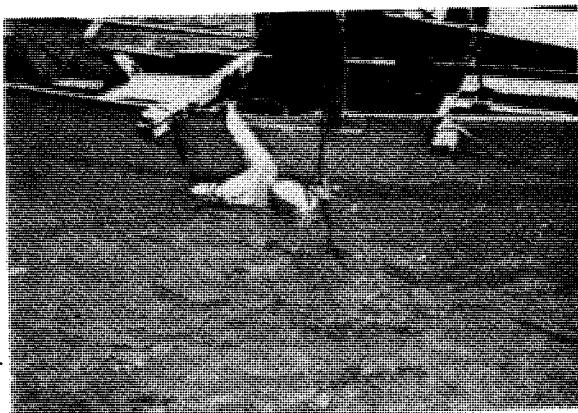


في أماكن العبادة . . عبادة بعض مظاهر الطبيعة . .
مثل الجبال والبراكين . . ليست عبادة وإنما هو نوع من
التقديس لهذه المظاهر الخلية لقدرة الله . .



صيادة التولو . . الماء بارد . . ويجب
أن يساعدها أحد على الطفو . .

فن وبراعة وصبر ووراثة : هذا
ما تتحاجه الفواحة صيادة التولو





إمبراطور اليابان وأسرته - كان له سلطان
عظيم جداً . أما الآن فلا !

والعشاء وبعثت بتحياتي إلى أخها وإنوتها وخدمتها وقطتها الصغيرة .. فقد أصبحت أنا أحد أفراد أسرتها .. أجلس على نفس المائدة مع القطط والحيوانات الأخرى .
وف اليوم الذي يليه تقاربنا أكثر وجعلت أحكي لها عن حياتي .. وأعتقد أن قصصي عن حياتي كلها لا أساس لها من الصحة .. مجرد اختراع .. مجرد كلام .. فأننا أكره الكلام عن حياتي وأجد أن هذا الكلام سفيه ولا بهم أحداً سواي .. وحكيت لها الذي يعجبها من الكلام والذي يشدها إلى جانبي وإلى ناحيتي وإلى حياتي ويجرجرها ورائي .

ولم أتصور أن كل الذي دبرته بيني وبين نفسي حدث من أوله إلى آخره .. فازعجت كأني وضعت أصبعي على زرار أسانسير وانطلق إلى أعلى واكتشفت أنني وصلت إلى الدور التسعين بدلاً من الدور التاسع فأصابني خوف شديد !
وتطورت الحوادث بسرعة صاروخية .. دعنتي الآنسة «أوسشا» إلى بيتها .. وهناك على الباب نزعت الحذاء ولبست الشيشب .. آسف .. هناك نزعت السيدة أم أوسشا الحذاء من قدمي ووضعت الشيشب وانحنت على الآخر ..
وكذلك أبوها وأخوها وأختها و طفل صغير حتى أوسشا .. اນحنات تشبه الركوع الشديد .. على إيه ؟ لا أعرف .. ولكن هذا ما حدث .

وبدأت عملية الرزح نحو غرفة الشاي ، وهناك نزعت الشيشب ولبست شبشب آخر ، حتى لا أتجنى على الحقيقة نزعت صديقتي أوسشا هذا الشيشب من قدمي .. ولبست شبشب آخر .

وبدأت حفلة الشاي المر الطعم .. كوب وراء كوب . وإلى جانب الشاي يوجد بعض الحلوي التي طعمها فظيع جداً وبعض الأسماك الخففة وبعض الأعشاب التي بها ملح ..

واقربت مني أختها الصغيرة وبدأت تشد الشعر من أصابع يدي وتضع يدها على يدي وتضحك طبعاً .. يدي أكبر من يديها الاثنين معاً .. فيد الفتاة اليابانية صغيرة جداً .. وبدأت تضع قدمها إلى جوار قدمي وتقيس قدمها .. والأسرة كلها تضحك .

وبعد لحظات حضر رجل له لحية طويلة جداً ولكن عدد شعرات هذه

اللحية لا يزيد على عشرين شعرة . وهو رجل أصلع أو على الأصح أقرع
وهو لا يعرف كلمة واحدة إنجليزية . وكان كلامه معه عن طريق أسوشا .

سألت : من هو ؟

قالت : إنه المأذون .

ولم أفهم هذه الكلمات فسألتها مرة أخرى : قالت إنه القس الذي يعقد
الزواج .

سألتها : وأين أوراقه وأين الموسيقى ؟

قالت : بعد لحظات .

ثم عدت فسألتها : وأين العروس . . . ؟

فضحكت جداً وانحنى كل الحاضرين وانحنت أسوشا والمأذون وانحنى أيضاً ،
ولم أفهم لماذا كل هذا الانحناء . . .
ولم يقل أحد شيئاً . . .

وبعد لحظات دخل عدد من الأطفال في ملابس بيضاء وحمراء وزرقاء
وعليها رسوم جميلة ، ووراء الأطفال عدد من الفتيات ومعهم جميعاً أدوات
نحاسية تشبه الحال والطشوت وبعضها يشبه الطاسات الموجودة عند الحلاقين .

ومعهم أيضاً أعواد حديدية .. وبعد هؤلاء جميعاً جاء شيخ له لحية سوداء
وشعرها مدلل على هيئة ضفيرة أو على هيئة علامات استفهام . . .

ودقت الموسيقى أو صرخت أو لطمـت لا أعرف .. إنه نوع من الضوضاء
التي يضـحـكـ لهاـ الـحـاضـرـونـ إـلاـ أـنـاـ .ـ بـوقـ هـذـهـ الضـوـضـاءـ بـدـأـ الشـيـخـ الـوـقـورـ
يـقولـ كـلـامـاـ طـبـعاـ غـيرـ مـفـهـومـ ،ـ وـأـخـذـ الـحـاضـرـونـ يـنـحـنـونـ إـلـىـ الـأـمـامـ عـنـدـ كـلـ
عـبـارـةـ أـوـ عـنـدـ كـلـمـةـ :ـ أـأـ .ـ فـهـنـهـ هـىـ نـهـاـيـةـ كـلـ كـلـمـةـ رـبـماـ كـانـتـ نـقـطـةـ أـوـ نقطـينـ
بعـدـ كـلـ كـلـمـةـ أـوـ !

وكان لابد أن أسأله أسوشا عن كل هذا الذي يجري حولي وقلت لها : موسيقى
جميلة جداً .

فانحنىت وهي سعيدة بهذا التقدير .. ولما رأيتها أنها وإنـجـوـنـهاـ وـأـبـوهاـ وـالـشـيـخـ .ـ
الـحـاضـرـونـ انـجـنـواـ أـيـضاـ ..ـ وـلـكـنـ أـحـسـتـ بـعـدـ ذـلـكـ بـشـىـءـ مـنـ الإـحـرـاجـ الشـدـيدـ .

فليس من المقبول أن تكون كل هذه الموسيقى من أجل تشريف لهذا البيت . فلم يحدث أى تشريف وإنما هي رغبة في الاستطلاع وفي معرفة شيء عن البيت الياباني والأسرة اليابانية لا أكثر ولا أقل .. وإذا كانت هناك موسيقى وهيصة فربما كان السبب هو أن أسوشا زوجتها شوية .

وعندما قدموا لي أوراقا اعتذرت لأنني لا أعرف القراءة فقالت أسوشا : ليس من الضروري أن تقرأ وإنما يجب أن توقع ولا تخفي إذا حدثت أصوات غريبة عند التوقيع .

قلت : توقيع على ماذا ؟

قالت : على هذه الوثيقة .

قلت : وثيقة ليه ؟

قالت : ليه ؟ وثيقة زواجهنا .

قلت : زواجهنا .. أنا .. يعني نحن الاثنين .. زواجهنا نقولين ؟

وبسرعة أخبرتها أن التقاليد في بلادنا تقضي بأن يحضر الزواج أحد المواطنين . وللأصبح هذا العقد باطلا . ونهضت ونهض الحاضرون وانحنوا وكذلك الأطفال امتدت أيديهم إلى الشبشب .. ولكن تركت الشبشب الأول والشبشب الثاني وانطلقت أخرى قدmi في حذائي .. ومن بيت أسوشا إلى الفندق أبحث عن طريقة للسفر إلى طوكيو .

ولم أفهم لماذا تصرفت أسوشا هكذا .. حاولت ولكنني تعبت .. هل وعدتها بالزواج ؟ أبدا .. لم أعد أحدا في حياتي كلها ؟ هل قلت لها أنا أحبك ؟ ولا حتى هذه ؟ ولاستطيع أن أتهمها بالضعف في اللغة الإنجليزية فهي تتكلمها بطلاقة .. حاولت وحاولت .

وأخيرا ذكرت أنني عندما كنت معها في إحدى دور السينما ورأيت زفافا قلت : إن العروس جميلة .. فسألتني إن كنت أحب أن أتزوجها .. قلت : بلا تردد نعم !

وسألتني إن كانت العروس تعجبني قلت : يعجبني فيها كذا الأبيض وكذا الأسود وكبت المثلث وكبت الناعم .. هذا كل ما قلته .

ولكن لم أتصور أبداً أن هذا معناه أن أسوشا تشبه العروس في كل هذا
يجب أن أنزوجها فوراً . فهي إلى حد كبير تشبه العروس في كل هذه الصفات ..
إلى حد ما . وقد قلت لها ذلك من باب المجاملة ..
وهذه هي النتيجة ..

بالاختصار : مصيبة سودة إذا أنت كذبت في البيان .
وكانت هذه هي المرة الثانية التي أحضر فيها كتب كتاب ، وأكون أنا
العرис دون أن أدرى .

• • •

وعلى باب محطة السكة الحديدية وقفت أسوشا وأختها الصغرى ومع كل منها
باقة من الورد ، وقرطاس به سبط مصنوع من السمك الجفف وعلى خد أسوشا
دمعتان كاللؤلؤ .. وفها يقول لي كلاماً ..
وخرجت منها ولا أزال ..

أين أنت الآن يا أسوشا لأقول لك ما أحس به الآن !

● كيف يردعون اللؤلؤ؟

في إحدى الليالي جلسَت كليوباترة تشكُّو مراة الحياة في فها . . كل شيء لا طعم له . . كل شيء كأنه يمونة ناشفة ، أو كأنه قطعة من الملح المسلط . . ولم تكن كليوباترة وحدها ، كان إلى جوارها حبيبها أنطونيو .. وعندما تشكُّو المرأة من الدنيا للرجل الذي تحبه ، فمعنى ذلك أنها تريد منه الكثير ! فهو دنياه وهو حياتها . . ويظهر أن أنطونيو لم يكن عنده ما يقدمه لклиوباترة فهي تريد الكثير ، تريد منه أكثر مما يستطيع .. وكل ما استطاع أن يقدمه لها هو كوب من النبيذ الأحمر .. وأمسكت الكوب ورأت فيه وجهها . وتحت على سطح الكوب شيئاً لاما حول عنقها .. إنه عقد من اللؤلؤ ..

وكان حبات اللؤلؤ هذه دموع كليوباترة .. ودموع كليوباترة مثل كلامها لا تنزل الأرض .. وهذه الدموع لم تنزل الأرض وإنما تجمدت حول عنق ملكة النيل .. ومدت يدها إلى العقد .. جبة خبطة .. وكانت أشارت بذلك إلى أنها تريد أن تقطع خيط حياتها ، وأنزلت ست حبات من هذا العقد في كوب النبيذ وشربت النبيذ واللؤلؤ معاً !

وتوقع أنطونيو أن تموت كليوباترة بعد ذلك ، ولكنها لم تمت ، فاللؤلؤ لا يقتل ، إنه يشفي من آلام المعدة والأمعاء !

وكان هناك خرافات كثيرة أيضاً حول معجزات اللؤلؤ . فأهل الصين وسيلان كانوا يعتقدون أن اللؤلؤ يملأ الإنسان حيوية ورجولة . وكانت العروس تأتي لزوجها بحبات من اللؤلؤ وتضعها تحت وسادته في الأيام الأولى للزواج .

ولم يثبت علميا صحة هذه المخرافة !

ويقال ان اللوّلوا هو حبات من العرق تساقطت من أجسام الملائكة وهي في طريقها بين السماء والأرض . ويقال أيضا إن « جزر آدم » وهي تقع بين الهند وسيلان فيها أجمل أنواع اللوّلوا – ويقال إن هذه اللآلئ الموجودة في قاع البحر هي بعض دموع آدم عندما نزل من الجنة إلى الأرض ..
ولكن اللوّلوا نفسه له قصة أخرى .

فاللوّلوا ينمو في داخل بعض الواقع . واللوّلواة الواحدة التي في حجم حبة الحمص مثلاً تنمو في ثلاثة سنوات . وهذه « الواقع » – ويسمونها أمهات اللوّلوا تنمو وتكبر في مياه اليابان ومياه خليج البنغال في الهند وحول جزيرة سيلان وفي الخليج العربي بالقرب من الكويت وليران ومياه استراليا .. وهذا اللوّلوا طبيعي ، بمعنى أن القوقة هي وحدها التي تحمل هذه اللوّلواة بين جنبيها وتظل طاوية الجنين سنتين وثلاثة وأربعاً إلى أن تتمتد إليها أيدي الصيادين ، وإذا لم تتمتد إليها يد ، فإن القوقة تلقى باللوّلواة إلى قاع البحر ..

ربما كانت أعظم لوّلواة طبيعية في العالم هي الموجودة في كرسى العرش باليران . . فهي لوّلواة صفراء اللون وليس كروية الشكل وإنما هي تشبه الكهري وثمنها سبعة ملايين « ين » – أي سبعة آلاف جنيه – .

وتوجد لوّلواة أخرى ثمنها مليونان من الجنينات في متحف موسكو .

وصيد اللوّلوا في هذه المناطق لا يزال بدائيا . . فالصيادون يركبون الزوارق ويتدلى واحد منهم إلى الماء ويبيق نصف دقيقة أو ثلاثة أربع دقيقة ويسحبونه إلى أعلى ومعه بعض الواقع وينقلون الواقع إلى الشاطئ ويفتحونها واحدة واحدة إلى أن يعثروا على اللآلئ ..

وعندما كنت في الكويت رأيت أكوا마 من الواقع ورأيت الناس هناك يلعبون لعبة « الجوز والفرد » . فأنا تشتري من الواقع ما تشاء ، ثم أنت وبختك بعد ذلك ..

وقد اختفت هذه العادة الآن بعد أن زحفت المباني على ميادين بيع اللوّلوا ..
واللوّلوا الطبيعي هذا لا يمكن التحكم فيه .. فأنت لا تعرف إن كنت ستتجدد

بين كل ألف قوقة لؤلؤة واحدة أو لا تجد .. ولا تعرف ما شكلها ولا حجمها وكل ما عليك هو أن تنتظر فقط ..

ولم يفكر أحد في طريقة للتحكم في هذا اللؤلؤ.

ولكن رجلا واحدا في إحدى قرى اليابان هو الذي فكر ، وهو الذي صمم ، وهو الذي نجح ، وقبله لم يعرف أحد ولم يحاول ..

ولم يكن هذا الرجل أصلا صيادا ولا من المستغلين بتجارة اللؤلؤ .. ولكنه يعمل في دكان والده في قرية اسمها « توبا » وهي تبعد ١٣ ساعة عن مدينة طوكيو . هذا الطفل اسمه ميكو موتو . والده يبيع الأرز المسلوق وامه تعمل مع والده . وله عدة إخوة . وميكو موتو أكبر إخوه . وهو هزيل البنية . ولكن التقاليد في اليابان تقضي بأن الأخ الأكبر يجب أن يحمل إخوه الصغار على ظهره . ويحدث كثيرا أن تجد الأخ الأصغر أضخم وأقوى بنية من الأخ الأكبر . وهذا ما حدث بالنسبة لميكو موتو . فقد كان أخوه الأصغر بدينا . ومع ذلك كان أخوه الأكبر الهزيل يحمله ذهابا وإيابا وكان عليه أيضا أن يدفع أمامه عربة لبيع الأرز المسلوق والأسماك النيئة في القرية وأن ينادي عليها .

ولا شيء يدل أبدا على عبقرية الأخ الأكبر . فهو قروي عادى جدا مؤمن بتردد على المعبد صباح كل يوم . ولا أحد يدرى ما الذي كان يتطلبه من رب .. ربما كان يتطلب الصحة وربما كان يتطلب المال ، وربما كان يتطلب من الله أن يشفى والده المريض . بشرط أن يكف عن إنجاب الأطفال !

ولكنه متدين ويقف في خشوع أمام تمثال بوذا ويقول الكثير ..

والياجانيون صيادون ممتازون ، بل أحسن صيادين في العالم . وهم يركبون الزوارق الصغيرة إلى مناطق نائية في المحيطات . ولذلك فالياجانيون في مشاكل مع كل الدول المجاورة بسبب أبنائهم الصيادين الذين يقتلون مياه استراليا . والقطب الجنوبي وسواحل أمريكا وسواحل روسيا والفلبين وأندونيسيا .

وقد اشتغل ميكو موتو بصيد السمك .. واشتغل أيضا بالغوص وصيد اللؤلؤ . وكانت هناك فكرة في رأسه . لم يطلع أحدا عليها ، ولكنه حائز .. فهو قروي وهو فقير . ولم يتعلم بما فيه الكفاية . ويبدو أن الأسئلة التي تدور في رأسه أكبر منه .. ولا يعرف كيف يجيب عنها .

ففي يوم ذهب إلى أحد أصدقائه من المشتغلين بعلم «الأحياء المائية» وسأله : ولماذا يوجد اللوّلُ في الواقع . لماذا يوجد اللوّلُ في بعض الواقع ، وبعضا لا يوجد به .. ؟

وأجابه صديقة المشتغل بالأحياء المائية بأن سبب وجود اللوّلُ هو أن بعض الطفيليات الموجودة في البحر تنسلي إلى داخل القرحة وتخرج لحمها الناعم الضعيف . أما القرحة فإنها تدافع عن نفسها بأن تعزل هذا الجسم الغريب أو هذا الشيء المتطفل . عملية العزل هذه عبارة عن إفراز مادة حبرية شفافة تناصر هذا الشيء الغريب الذي تسلل إليها . هذه المادة الحبرية الفوسفورية هي اللوّلُ التي يتم تكوينها في عدة سنوات ..

وآمن ميكو موتو بأنه يفكر تفكيرا سليما . وأنه لابد أن يدخل جسما غريبا في كل قرحة يجدها وأن يحفظ بهذه القرحة وينتظر حتى تنمو . سنة واثنتين وثلاثا . فإذا كانت الواقع تفرز المادة اللوّلية في صبر . فإنه لن يكون أقل صبرا من الواقع .

وفي هومه وقلقه تزوج فتاة من أسرة غنية . ودفعها إلى العمل معه في بيع الأرز المسلوق ، ولكنه كان مشغولا في نفس الوقت بزراعة اللوّل .. والاسم الجديد لهذا النوع من اللوّل هو «اللوّل المزروع » .. لأن ميكو موتو كان يزرع الأجسام الغريبة في أجسام الواقع .. وهذه عملية تشبه عملية التلقيح الصناعي عند الإناث من الإنسان والحيوان . في التلقيح الصناعي يتم إدخال الحيوانات المنوية إلى الرحم بصورة صناعية عن طريق الأنابيب . وتلقيح اللوّل أو زراعة اللوّل في هذه الواقع لا يختلف عن التلقيح الإنساني أو الحيواني في شيء !

وجمع ميكو موتوعدداً من الواقع وفتحها برفق وأدخل فيها الأجسام الغريبة وانتظر عاماً وعامين .. وبعد ذلك فتحها . فلم يجد شيئا . لقد ماتت جميعا .. وحاول من جديد واستخدم حوالي عشرة آلاف قوقة .. وهبت العاصف وأطاحت بهذه الواقع وخسر ميكو موتو الشيء الكثير .. ولكنه لم ييأس .. وفي نفس العام زحف على مياه قرية توبا التيار الأحمر .. وهو عبارة عن مواد طفيلية كثيفة جدا .. هذه المواد تطفو على سطح الماء وتقتل الواقع لأنها تحجب عنها الأكسجين . وهلكت كل الواقع ميكو موتو .. ولكنه لم ييأس . وشعر ميكو موتو بعد

ذلك بأنه يطلب المستحيل . وأن أمواله لا تسعفه . وأحسن بفشله في استخراج اللولو قد أدى إلى إبعاد الناس عنه . حتى زبائن الأرز المسلوق قد هربوا . واندهش ميكو موتو . ولكن الناس أحسوا أنه فاشل وأنه مجنون ولا بد أن جنونه هذا سيظهر في صناعة الأرز المسلوق أيضا ! ! .

ولكن ما علاقة اللولو بالأرز ؟ أليس من الممكن أن يفشل الإنسان في شيء وينجح في شيء آخر ؟ أليس من الممكن أن يفشل الإنسان كزوج وينجح كمهندس ؟ أليس من الممكن أن يكون طيبا ناجحا وزوجا فاشلا ؟ ولكن الناس هكذا يفكرون ..

ولذلك رأينا ميكو موتو يترك بيع الأرز لزوجته ويعمل هو في استخراج اللولو ..

ولم يفهم ميكو موتو لماذا تموت الواقع .

وتعلم من التجارب التي استغرقت ١٥ عاماً مولة أن انخفاض درجة حرارة الماء إلى أقل من ٧ درجات مئوية يقتل الواقع ، ولذلك يجب نقل الواقع من الماء البارد إلى الماء الدافئ .. وتعلم أيضاً أن وضع عدد كبير من القصاص في قفص واحد وتعليق القصاص في الماء يقتل الواقع .. فهذه الكثرة تؤدي إلى جوع الواقع وذبوها .. وتعلم أيضاً أن الطفيليات عندما تغطي فتحات الواقع فإنها تخنقها .. ولذلك حاول ميكو موتو في المرات التالية أن يتلاف كل هذه الأخطاء . ومع ذلك كانت الواقع تموت .. وكان بيته يزداد خراباً ، وتجارة الأرز ترداد بواراً . ولكن زوجته لا تشكو . إنها مؤمنة بأن زوجها سيصل حتى . وكان هذا يشجعه . وكان يقول : يمكن أن يؤمن بي إنسان واحد – والثوامة تسند الزير كما يقول المثل عندنا !

وفكر ميكو موتو أن يمسك قوقة بها لولوة طبيعية ويدرسها ويعرف بالضبط مكان اللولو . وأمسك قوقة ثانية وثالثة ورابعة ومائة . وعرف تماماً أين يجب أن يضع الجسم الغريب في داخل القوقة . واكتشف أنه كان يضع الجسم الغريب أو هذه البذرة في مكان غير مناسب . وعرف ميكو موتو أن الجسم الغريب يجب أن يؤذى القوقة وأن يؤلمها . وهذا الألم هو الذي يثير الحيوان ويمهد في جسمه

الهباب ، وهذا الالتباب يؤدى إلى إفراز هذا السائل الشفاف الذى يعزل الجسم
الدخيل عن بقية جسم القوقة . . .

قام بعملية زراعة الأجسام الغريبة فى خمسة آلاف قوقة أخرى . . ولكن
ميكو موتور كان بين اليأس والأمل . ويشعر فعلاً . وأعلن لزوجته أنه يائس .
وأعلن للناس أنهم جميعاً على حق وأنه غلطان وأن آماله جنونية . . وأنه سيعود إلى
الأرز ، فقد ولد بائعاً للأرز ، وسيعيش ويموت وهو ينادى على الأرض المسلوق . .

ولكنها كانت لحظة يائس . وكانت امرأته تعلم أن ميكو موتور هذا ليس
من السهل أن ييأس . وأنه إذا كان أعلن ذلك للناس فلكله يسد أفواههم ،
لكى يرضى غورهم . ولكنها مؤمن بأنه سينجح . وبعد سنتين ، ذهبت زوجته
سرًا إلى الشاطئ إلى حيث تدلّت أقفاص الواقع من الأعمدة الخشبية ومدت يداً
مرتجفة وأمسكت قوقة وفتحتها وصرخت . لقد وجدت لؤلؤة . . أول لؤلؤة
مزروعة في اليابان !

أول لؤلؤة ؟ !؟ . ونادت زوجها ورقص الاثنان على الشاطئ . . وكان ذلك
في يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٥٩ . وأصبح يوم ٢٨ من كل شهر إجازة في كل
شركات ومصانع ميكو موتور . .

وفجأة تجهم وجه ميكو موتور وقال لزوجته : ولكنها ليست كروية . . إن
اللؤلؤة نصف كروية !

وحاولت زوجته أن تقنعه بأنه نجح وأنه في يوم من الأيام سيعرف كيف
ينتج لؤلؤة كروية . . ولكن ميكو موتور لا ينسد إلا الكمال . . وفتح قوقة ثانية
وثالثة ورابعة . . ومائة . . لقد نجح . . وظهر في العالم أول لؤلؤة من صنع الإنسان .
أو على الأصح : تدخل الإنسان في صناعته . . إنه لؤلؤ طبيعى ، ولكن الإنسان
هو الذى ساعد الطبيعة على إنتاجه في الوقت الذى يريد . .

وكانت هذه هي بداية اللؤلؤ المزروع . . أو بداية زراعة اللؤلؤ . . وكان
ميكو موتور هو أول إنسان اخترع اللؤلؤ المزروع . .

وعندما ذهب ميكو موتور إلى أمريكا للدعابة لهذا اللؤلؤ وقابل المخترع
الأمريكي أديسون الذى اخترع المصباح الكهربائي وأضاء ظلام الدنيا . قال له

المخترع الأميركي : « إنك حققت معجزة علمية » .

ورد عليه ميكو موتو : « أنت أضأتأت العالم وأنا أضأتأت أنفاس النساء . وإذا كنت في دنيا الاختراع فرأياً كاملاً ، فأنا أحد النجوم التي ليس لها عدد ! ». وعندما سمع أديسون هذه العبارة بكى .

وقال له ميكو موتو وهو ينظر إلى دموع المخترع الكبير : « لقد رأيت أعظم لولتين على خد إنسان » .

وليس هناك أنجح من النجاح نفسه . . فالنجاح هو أعظم للذة وأعظم غاية وأعظم قوة . . وأقبل الناس على ميكو موتو . . وأصبح كل ما يقوله حكماً وأمثالاً .. حتى الأرض الذي تبيعه زوجته يشفي العليل ، وأصبح الناس يتفاعلون بروؤية — ميكو موتو . . لقد نجح . . والنحاح رائحته حلوة وطعمه حلو . .

ولكن ميكو موتو مشغول بشئ آخر . .

كيف يجعل هذه الواقع تنتج لولواً كروي الشكل . . إنه لاحظ أن اللولو موجود في الواقع أحياناً يشبه الكثري في الشكل وأحياناً نصف كروي وأحياناً صغير وأحياناً كبير . .

وعرف ميكو موتو بعد ذلك أن السبب هو وضع البذرة . . أو وضع الجسم الغريب في جسم القوقة . . وببدأ هو نفسه يفتح القوقة ويوضع الجسم الغريب في المكان المناسب بين المعدة والكبد . . تماماً كما هو موجود في الواقع : أمehات اللولو . .

• • •

وببدأ الإنتاج على نطاق واسع جداً في قرية توبا . . واستأجر ميكو موتو جزيرة صغيرة أمام قرية توبا . . وهذه الجزيرة هي في حجم ميدان التحرير في القاهرة . . وببدأ يجمع الواقع في أقفال من الخشب ويعلق الأقفال في حال مشدودة إلى أعمدة خشبية طافية على وجه الماء . . وجعل طول الحبل متراً وأحياناً مترين . . وعرف أن هذا هو الارتفاع المناسب لنمو اللولو . . وبين الحين والحين ينطف الواقع والأشياء الغربية التي تعلق بها . . وعرف أن هناك عدواً قاتلاً لهذه

الواقع ، هو ثعبان البحر . . فهذا الثعبان يمتص القوقة . . ثم هناك الأخطبوط
الذى يقتلها ويحطمها . .

وتفنن ميكو موتو في الدفاع عن هذه الواقع . . عن عشرين مليون قوقة
تنتجه مصانعه كل سنة !

• • •

وعندما ذهبت إلى جزيرة اللوؤُ وهي جزيرة ميكو موتو عند مدينة توبا
رأيت عمليات صيد اللوؤُ وزراعته وتربيته حتى يصبح عقداً حول عنق المرأة .

والعملية تبدأ بأن تنزل الغواصات إلى البحر – ولا أقول غواصين – لأن اللاتي
يصدن الواقع من النساء فقط . . أما الرجال فاعجزون عن صيد الواقع . .
والسبب في ذلك أن المرأة عندها وسادة دهنية تحت الجلد هي التي تجعلها تحمل
البرد أكثر من الرجل . . ولذلك فالغواصة – واسمها بالياباني «أمة» وبالأندونيسى
والفلبينى كذلك ، وفي اللغة العربية نقول «أمة» بفتح الألف معناها خادمة –
هي التي تنزل إلى البحر وتحمّل الواقع . والغواصات يبدأن الغوص من سن ٢٠ حتى
سن ٤٥ . . وهى . تبدأ بأن تنزل إلى مسافة خمسة أمتار ثم عشرة أمتار ، ولدة
عشرين ثانية . . حتى تصبح قادرة على الغوص لمدة دقيقة كاملة . . والغواصة
تبدأ هذه المهنة بأن تحصل على الإعدادية . . لأن التعليم إجباري في اليابان حتى
الإعدادية . . ولا يوجد في اليابان كلها واحد لم يحصل على هذه الشهادة . .

والغواصة ترتدي جلباباً أبيض وتلف حول رأسها منديلأ أبيض . . وهى ترتدي
الفستان الأبيض ، لأن اللون الأبيض يخفف سلك القرش وهو عدو الغواصات
والواقع أيضاً . . وتحمل معها صندوقاً من الخشب يشبه نصف البرميل وتربطه
بحبيل . . وعندما تغوص في البحر يكون ذلك بالقرب من أحد الزوارق . . وفي
الزورق يوجد زوجها الذى يساعدها على الصعود بعد انتهاء مدة الغوص . . وأحياناً
تكون في الزورق نار مشتعلة لكي تستدفء بها عندما تخرج من الماء . . وأقول
يوجد زوجها في الزورق . . لأنه ثبت بالتجربة أن الغواصة عندما تكون متزوجة
تكون أقلر على الغوص وأطول بقاء تحت الماء . . وقد ثبت بالتجربة أيضاً أن

الفتاة إذا لم تكن متزوجة ، فإنها في الغالب تتعب بسرعة وتكون مشتبه الذهن . . ولذلك رأينا ميكوموتو يشترط زواج الفواصنة قبل أن تعمل عنده . . بل إن الفواصنة نفسها تفضل دائمًا أن يكون الذي يعاونها هو زوجها . . وقد قالت لي إحدى الفواصن إنها لا تأمن رجلا آخر غير زوجها . . فقلبه عليها دائمًا !

وفي أثناء الفحص تكون هناك نيران على الشاطئ . . وعندما تخرج الفواصن من البحر يذهبن إلى الشاطئ ويزعن ملابسهن . . ويجلسن عاريات تماماً حول النار ثم يرتدين ملابس أخرى جافة . . ويحدث هذا التغيير كل نصف ساعة . . والفواصنة لا تعمل في اليوم كله أكثر من ساعتين . . وأجرها اليومي حوالي ثلاثة قرشاً . . ومن جهة اللولو هنا – أى في جزيرة اللولو – عشرة قروش !

وبعد أن تقل الفواصنة صندوق القواعق إلى الشاطئ ، تبدأ عمليات أخرى ! . . تبدأ عملية تنظيف القواعق من المواد الغريبة التي علقت بها من البحر . . وبعد ذلك تبدأ عملية « الزرع » أو عملية التلقيح . . فتوضع القواعق على منضدة تجلس إليها فتاة وتستخدم الأدوات الحديثة البسيطة في فتح القواعق ووضع البذرة . . وكان ميكوموتو يستخدم الأجسام الغريبة مثل ذرات الرمل أو الحجارة أو قطعًا من الزجاج ثم وكان يضع هذه الأجسام الغريبة في أحشاء القواعق . .

ولكن ثبت أن أحسن الأجسام الغريبة التي يجب وضعها في داخل القواعق هي قطعة من حمار الواقع التي تعيش . في نهر المسيسيبي بأمريكا . والمحار هو الغطاء الجيري الذي تعيش فيه القواعق . وهو يشبه أم الخلول . . فالقواعقة لا تزيد كثيراً على أم الخلول . . وعندما تبلغ السنة الخامسة أو السابعة من عمرها فإنها تكون في حجم كف طفل صغير . . وهذا المحار يكسر ونه هنا عن طريق آلة خاصة حتى يصبح عبارة عن كرات صغيرة جداً كل واحدة في حجم جبة الحمص . .

وقد اكتشف ميكوموتو أيضاً أنه يستطيع أن يضع بذرتين في قواعقة واحدة وأن يضع ثلاث بذرات أيضاً . في استطاعة القواعقة الواحدة أن تنتج ثلاث حبات من اللولو المزروع . . ولكن لم يحدث أن انتجت القواعقة أربع حبات من اللولو . . ونمكن ميكوموتو أيضاً من أن يتحكم في حجم اللولو وفي شكله . . فاللولو الصغير يجب أن تكون بذوره صغيرة . . واللولو الكبير يجب أن تكون بذوره كبيرة

أيضاً . وكلما بقىت هذه البنور مدة أطول ، زادت حجماً . وأحياناً يزكون البندرة مدة عشر سنوات ، حتى تصبح اللوؤة الواحدة في حجم الفول السوداني ، وثمنها يصلح حوالي ٢٥ جنيهاً .

وبعد عملية وضع البندرة تنقل القواعق إلى سلال أو أقفاص ، وتعلق هذه الأقفاص بالألف من حبال مربوطة في ألواح خشبية سابحة على وجه الماء ومثبتة طبعاً في الأرض أو في قاع البحر ، وتبقى كذلك سنوات .. وعندما يبرد الماء فإن هذه الأقفاص يسحبونها عن طريق زوارق إلى الجنوب حيث الدفء .. وعندما تزداد درجة الحرارة في الجنوب فإنهم يسحبونها إلى الشمال حيث درجة حرارة الماء أطفأ . فدرجة الحرارة المناسبة لحيوان القواعق هي بين ٢٤ مئوية و ٢٥ مئوية .. وإذا زادت أو انخفضت درجة الحرارة عن ذلك فإن حيوان القواعق يتعب ويبدو عليه الكسل في إنتاج اللوؤ . ومن الغريب أن القواعق المريضة هي التي تنتج أجمل اللوؤ وأغلاه ثمناً .. فاللوؤ الأسود هو أندثر أنواع اللوؤ وأغلاه ثمناً ، وهذا اللوؤ النادر هو الذي تنتجه القواعق المريضة .. كأن الطبيعة ت يريد أن تعرض هذه القواعة عن مرضها ..

ولكن ما الذي يمرض القواعق ؟ .. لا أحد يعرف حتى الآن .

وهناك مسألة لم يتم حلها بعد : كيف تختلف ألوان القواعق ؟ .. لماذا ينبع بعضها لوؤاً أبيض اللون أو أصفر أو أزرق أو أسود ؟ لا أحد يعرف حتى الآن .

حتى اللون أمكن التحكم فيه أخيراً . وذلك عن طريق وضع بنور ملونة .. فتجئ اللوؤة ملونة أيضاً ..

وهناك مقاييس لمعارة اللوؤ الجيد من اللوؤ الرديء ، ثم اللوؤ الطبيعي من اللوؤ الزراعي ، ولا أقول اللوؤ الصناعي – لأن هذا اللوؤ المزروع قد تم بصورة طبيعية ، يعني لم يصنعه الإنسان خارج حيوان القواعق – هذه المقاييس هي حسب المعان ، أو البريق ثم حسب الشكل والوزن واللون . وأحسن الحالات هي الشديدة المعان ، ثم الدائرية أو الكروية والثقبة الوزن .

أما الملونة فأغلاها الأسود والأبيض والوردي فالبنفسجي ثم الأزرق .. أما الفرق بين اللوؤة الطبيعية واللوؤة الزراعية أو المزروعة فلا يمكن أن يعرفه

الإنسان بالعين المجردة ، لابد أن يكون خبيراً . . ولكن مع ذلك يمكن التفرقة عن طريق أشعة إكس ، فتحت أشعة إكس ترى اللوّلوا شفافة ١٠٠٪ أما اللوّلوا المزروعة فتحت أشعة إكس نرى البذرة الأولى . . وهي عبارة عن كرة صغيرة مأخوذة من حمار قوائم تعيش في المياه العذبة . .

ولذلك عند شراء اللوّلوا يجب أن تمسك الحبة وتلتقي بها على سطح زجاجي أو خشبي وتنظر إليها وهي تندحرج أمامك ، فإذا كانت مشيتها عوجة أو عرجاء كان هذا عيباً ، وإذا نظرت فيها ووجدت صورتك بوضوح كان هذا دليلاً على جودتها . .

قد تقول الآن : واحنا مالنا وما اللوّلوا ؟ !

أنا معك . ولكن لماذا تقرأ عن القمر الصناعي والقمر الطبيعي . . وعن الرحلات للقمر . يا أخي كلها معلومات عامة . . وأنت لم تدفع تكاليف رحلتي إلى هذه البلاد ولم تركب القطار ولم تأكل الصراصير والضفادع مثلـ ، ولم تم على الأرض ولم تعطس ولم تسعل . . فاقرأ أحسن . . اقرأ للآخر . . يمكن تلاقـ حاجة تفعـك !

• • •

وقد قرأت ليمكوموتو - توفي سنة ١٩٥٤ عن ٩٦ عاماً - أنه ينصح السيدات أن يغسلن عقود اللوّلوا بقاشة مبللة بالسبريتو . . وينصح السيدات بأن يرتدين اللوّلوا الذي عندهن . . لأن اللوّلوا يخفـ بريقـه إذا لم يستعملـه أحد . كان اللوّلـ يعرفـ أنـ حياتهـ فيـ أنـ يـظـهـرـ فيـ الأـصـابـعـ وـحـولـ الأـعـنـاقـ وـعـلـىـ الصـدـورـ .

وقد لاحظـ أمـنـاءـ متـحفـ اللـوـفـرـ أنـ بـعـضـ اللـوـلـوـ المـوـجـودـ هـنـاكـ ، قد بدـأـ يـرـيقـهـ يـتـناقـصـ . . فـانـزـ عـجـواـ . . وـقـرـرـ الـعـلـمـاءـ أـنـ اللـوـلـوـ إـذـاـ وـضـعـ فـيـ مـكـانـ بـارـدـ مـظـلـمـ فـيـانـ بـرـيقـهـ يـقـلـ . . ولـذـكـ تـجـدـ اللـوـلـوـ إـذـاـ وـضـعـ عـلـىـ جـسـمـ إـلـاـسـافـ الدـافـقـ وـتـعـرـضـ للـضـوءـ فـيـانـ يـحـفـظـ بـرـيقـهـ أـيـضاـ .

وقد لاحظـ وـصـيـفةـ إـحـدىـ مـلـكـاتـ النـسـاـ أـنـ حـبـاتـ اللـوـلـوـ المـوـجـودـ فـيـ عـقـدـ الإـمـبرـاطـورـةـ مـارـيـاـ تـرـيـزةـ قـدـ أـخـذـ بـرـيقـهـ يـنـطـقـ . . فـخـافـتـ وـتـشـاءـمـتـ . . ولـكـنـهاـ وـصـلـتـ إـلـىـ حلـ هوـ أـنـ هـذـاـ اللـوـلـوـ قـدـ اـشـتـاقـ إـلـىـ مـوـطـنـهـ الطـبـيـعـيـ ، فـهـوـ قـدـ عـاشـ

طويلاً بعيداً عن أهله . . ولذلك قررت الإمبراطورة أن تعيد اللوّلوا إلى مكانه من البحر . . وبعثت بأحد رجال الحاشية ليلى باللوّلوا في البحر . .

وإمبراطورة المسا هذه لم تعرف أن اللوّلوا مكونة من الكلسيوم والفوسفات . . وأن الكلسيوم ينوب في الأحماض الموجودة في العرق ، وبعض الأجسام لها عرق حامض ، وهذا العرق يذيب اللوّلوا أولاً بأول فيقطن بريقه . .

ولو كانت كليوباترا قد تركت اللوّلوا في كوب النبيذ مدة أسبوعين لتحول من تلقاء نفسه إلى مسحوق يسهل عليها أن تشربه كما كان يفعل أبناء الصين . فابناء الصين كانوا يتعالجون باللوّلوا . . تماماً كما نفعل الآن عندما نستخدم أملاح الفواكه وفيتامين « E » لعلاج الحموضة الموجودة في المعدة وفي الأمعاء الغليظة . .

وكان على ميكو موتوكى يخوض معارك لا حدود لها لكي يثبت قواعد اللوّلوا المزروع . فقد ظهرت في الأسواق ملايين من حبات اللوّلوا الصناعي - أى اللوّلوا المزيف - ولذلك نزل ميكو موتوكى إلى السوق واشتري كل اللوّلوا الزائف وأقام فرناً ضخماً وأحرقه فيه . وبذلك حفظ سمعة اللوّلوا المزروع من البار . وكان كلما لاحظ أن اللوّلوا كان يفقد بريقه لكثره عرضه في الأسواق ، سحبه من جديد وأنزل بدلاً منه لوّلواً جديداً . .

وفى المعرض الدولى الذى أقيم فى أمريكا سنة ١٩٣٩ ، أذهل ميكو موتوكى العالم كله . . فقد اشترك بمتثال لناقوس الحرية ، استخدم فى هذا الناقوس ١٣ ألف لوّلوا و ٣٦٦ جوهرة . أما الكسر التقليدى فى ناقوس الحرية - يوجد نموذج لهذا الناقوس عند مدخل دار أخبار اليوم - فقد استخدم فيه اللوّلوا الأسود النادر . وقد رأى الناس لوّلوا اليابان المزروع . . وراح الناس يتحدثون عنه . . وتحدثت الصحف الأمريكية عن « ملك اللوّلوا » . . وأصبح هذا اللقب ملتصقاً به منذ ذلك الوقت . .

وأصبح اللوّلوا المزروع خطراً على اللوّلوا资料 فى كل أنحاء العالم . ورفعت قضائيا ضد ميكو موتوكى فى لندن وباريس وروما . . وأصدرت المحاكم أحکاماً لصالحه . . وطلبوا إليه أن يكتب على لوّلوا عبارة « لوّلوا طبيعى » ولكنه رفض إلا أن يكتب عبارة « لوّلوا مزروع » .

وقام ميكوموتو برحلة حول العالم ومر بالقاهرة في سنة ١٩٢٧ . وقام برحلة إلى كل بلاد آسيا ، والبلاد التي تستخرج اللؤلؤ الطبيعي . واقتنع ميكوموتو بأنه يحتاج إلى كثير من الدعاية ، وأنه لا يكفي أبداً أن تكون السعلة جيدة . وإنما يجب أن يعلم بها كل الناس ، وأن يعمل صاحب السلعة على إقناع الناس .. فهناك نصابون كثيرون .. وهنالك مزيفون أكثر من النصابين ، ولذلك بدأ ميكوموتو يدعو الملوك والأمراء لزيارة .. وكان يقابلهم دائماً بردائه القديم وقبعه المنقوش .. والذين زاروه في بيته دهشوا كيف ينام « ملك اللؤلؤ » على الأرض .. وكيف أنه لم يغير طعامه ، ولم يغير عاداته ، وكيف أنه ينزل إلى البحر ويستحم في الماء البارد ويحفظ جسمه في ثوب قديم ..

وعندما أصبح « ملك اللؤلؤ » غنياً وأصبحت ثروته تعد بالملايين بدأت الجمعيات الخيرية تطلب منه المعونة .. وكان يرد عليهم قائلاً : « أريد أن أعرف اسم الجمعية التي عاونتني في محنتي .. لقد ماتت التي كانت تساعدني » .. لقد ماتت زوجته وهو في الثامنة والثلاثين من عمره وعاش بعد ذلك ٥٨ عاماً ورفض أن يتزوج .

وعندما طلب إليه أحد رجال الدين أن يبني معبدًا بعد أن ساعدته النساء وأعطته بانيعن والشمال .. كان ميكوموتو يخفي رأسه .. ويقول : حاضر .. وفي اليوم التالي أمر بإنشاء معبد ملايين القواعق التي تضحي بنفسها لكي يعيش مئات الآلاف من أبناء اليابان – عدد العمال في شركات ميكوموتو حوالي ١٨٠ ألف عامل – . وفي « جزيرة اللؤلؤ » التي يملكونها ميكوموتو يوجد تمثال له ، ويوجد متحف صغير أخذت أختشابه من البيت الذي كان يعيش فيه ميكوموتو أيام كان فقيراً .. أما الجزيرة الأخرى التي كان يملكونها ، وتقع إلى الجنوب من جزيرة اللؤلؤ ، ففيها معبد وضريح لزوجته وله ، ويوجد تمثال كبير لقوقة .

وعندما نشب الحرب الأخيرة ، وضربت اليابان بالقناصين التالية .. لم يترك ميكوموتو جزيرة اللؤلؤ .. قرر أن يبقى إلى جوار القواعق . واتهمه الناس بالجبن والخوف وأرسل له أحد ضباط الجيش سيفاً وقال له « اقتل نفسك به ! ». .

وكان رد ميكوموتو : « إنني تاجر .. إنني أعمل على إطعام مئات الآلاف من اليابانيين .. إن تجاري تتعش في ظل السلام .. فأنا أخدم بلدى وأنت تخدم بذلك أيضاً ! »

وعندما علم ميكوموتو أن الحرب قد انتهت وأن القوات الأمريكية احتلت اليابان ، رفع العلم الأمريكي على جزيرة اللوًلُو . ولما سأله الناس عن هذا التصرف الغريب قال : أريد أن تكون تجارة اللوًلُو هي أول تجارة تتعش بعد الحرب . ي يجب أن يعمل واحد من أبناء اليابان على إنهاضها .. فأنا العجوز أول رجل يعمل للسلام !

وبعد الاحتلال زاره كل قواد الحرب الأمريكيين ودهشو لذكاء الرجل ومرورته وصلابته .. وكتبت عنه الصحف وال مجلات وصوره التلفزيون وانطلقت أبواق الدعاية في كل مكان تتحدث عن اللوًلُو المزروع وملك اللوًلُو ميكوموتو ..

والوارث الوحيد لكل ثروة ملك اللوًلُو هو شاب لا يتم أبداً باللوًلُو أو بتجارته وإنما يتم باللوًلُو الحقيق .. وهو يفرق بين ثلاثة أنواع من اللوًلُو : اللوًلُو الحقيق واللوًلُو الطبيعي واللوًلُو المزروع . أما اللوًلُو الحقيق فهو الفكر . هو الأدب والفن ، ولذلك فهو مشغول جداً بدراسة الأدب ، وخصوصاً الأديب الإنجليزي جون رسكن ، وقد جمع كل مخطوطاته وكل كتبه وكل ما كتب عنه حتى أصبحت مكتبه تتألف من ثلاثة آلاف كتاب عن هذا الأديب بالذات . ولكن لماذا هذا الأديب ؟ لا أحد يعرف .. أما تجارة اللوًلُو وبيعه والدعاية له فمشغول بها آخرون .. هؤلاء الآخرون هم أزواج بنات ميكوموتو ملك اللوًلُو وكلهم مدبرون لفروع هذه الشركة الضخمة التي تزرع كل سنة حوالي عشرين مليون قوقة !

وإذا نظرت إلى خريطة اليابان .. وإلى جزيرة هونشو بالذات التي تقع عليها العاصمة طوكيو ، فإنك لن تهتم بسهولة إلى مدينة توبا التي شهدت طفولة وملكة ميكوموتو ..

أما الآن فقد امتدت لها الخطوط الحديدية والكهربـية ، وفيها فنادق من الطراز اليابـانيـيـنـ ، وفيها منتجـاتـ مـدـهـشـةـ لـكـلـ ماـ يـخـرـجـ مـنـ الـبـحـرـ .. فالـصـدـفـ والـخـارـ والـقـوـاقـ والأـسـعـاكـ والـجـبـرـيـ كلـ ذـلـكـ تـحـوـلـ إـلـىـ تـمـاثـيلـ فـنـيـةـ وإـلـىـ لـوـحـاتـ بـارـزةـ رـائـعةـ وـكـلـهـاـ تـبـاعـ بـاسـعـ رـخـيـصـةـ . وهـنـاكـ يـبـاعـ اللـوـلـوـ كـمـاـ تـبـاعـ القـوـطـةـ وـالـخـيـارـ ،

هناك نساء يسعن القوافع ويفتحنها أمامك وينحرجن لك اللولو .. . الفوقة الواحدة بها حبتان من اللولو وبعشرين قرشاً .. . وفي هذه القرية الصغيرة معرض للأحياء المائية وبها مطاعم كثيرة ، وبها زوارق بخارية تنقلك من توبا إلى جزيرة اللولو التي تبعد عنها خمسين متراً، وهذه الزوارق تلف بك حول الجزر الأخرى وتريك صيد السمك وصيد اللولو .. . وأكثر زوارق هذه المنطقة من طلبة المدارس الابتدائية والثانوية من البنين والبنات . والتعليم كله هنا مشترك .. اليابانيون هم الذين أدخلوا التعليم المشترك في أندونيسيا والفيليبين أيام احتلالهم لهذه البلاد في الحرب الأخيرة . والخفاوة بالطلبة والطالبات لانهاية لها .

وقد قال لي مدير جزيرة اللولو وهو شاب لطيف اسمه « كانو » ويتكلم الإنجليزية : « إننا نهتم بالتلמידات والتلاميذ لأسباب تجارية .. فالطالمندة ستصبح زبونة عندنا بعد عشر سنوات ، أما التلميذ فسيصبح زبوناً عندنا بعد عشرين سنة .. فنحن الرابحون دائمًا » ! .

ومظاهر هذا الاهتمام أنهم يعرضون لهم بصورة واضحة جداً عملية الغوص وأصطدام اللولو وزراعته وصيانته وتربيته وفرز حبات اللولو حسب الحجم والشكل واللون وعملية ثقب حبات اللولو وضعها في عقود .. .

وأجلب حقيقة هنا : هي أن الفتاة التي تقوم بكل هذه العمليات بما في ذلك قيادة الزوارق والبواخر والمطاعم والمعارض والأحياء المائية .. كل ذلك يتم في غاية الأدب والمرح .. وكل شيء هنا يدل على أنه من الممكن أن يكون الإنسان في غاية الكفاية وفي غاية الأدب وفي غاية المرح أيضاً ..

• • •

وعلى محطة سكة حديد « توبا » وقفت خادمتان واحدة بالكيمونو والأخرى بالفستان تحملان حقائب وتنتظران القطار حتى يتوجه إلى طوكيو ، وحاوت أن أشكراها وأن أعيدها إلى الفندق .. مستحيل ! لابد من توصيل وانتظارى حتى أسافر .. وقبل أن نخرج من الفندق اصطفت جميع خادمات وزوجة وبنات صاحب الفندق والختين الخناءات تكسر الظهور لتدعي .. وعلى المحطة اخذت الفتاتان لتدعي .. وتحرك القطار وكدت أغلق النافذة ونظرت لآخر مرة فوجدت

الفتاتين وقد اختنا أيضاً رغم أن القطار قد ترك الحطة منذ لحظات .
واعتدلت في جلستي استعداداً للنوم فالطريق إلى طوكيو طويل .. وأغضبت
عيبي ، ولكن بريق ملايين حبات اللؤلؤ ما يزال في عيني . ويظهر أن اللؤلؤ
جماله في أنك تراه فقط في يد فتاة أو في عنقها .. وقد لاحظت أن جميع
بنات جزيرة اللؤلؤ لا يستخدمن هذا اللؤلؤ ولا يضعنه في عنق أوفى أصبح . ولا
حتى الموظفين .. فاللؤلؤ ليس زينة عندهم .. وإنما يرتبط عندهم بالعمل والتعب ..
إنهم يسيرون الواقع تماماً .. فاللؤلؤ هو دموع الواقع ، وهو دموع الغواصات
والمرشدات العاملات هنا ..

وخففت أضواء اللؤلؤ في عيني وفي خيالي وتذكرت الجملة الحكيمية التي كان
يرددوها ملك اللؤلؤ .. كان يقول : « لأنفراح بالنصر الكبير . النصر الصغير
أحسن . فالنصر الكبير يشبه قطرات الندى الكبيرة . إنها تلمع فوق أوراق
الشجر ، ولكنها لا تبقى كثيراً لأنها كبيرة وثقيلة ، ولذلك تسقط على الأرض ..
الانتصارات الصغيرة فهي تشبه قطرات الندى الصغيرة فهي تلمع وتبقى طويلاً
لأنها خفيفة ! » .

• • •

ولذلك يجب أن أفرح لأنني رأيت ملايين اللآلئ ولم أملأ حيوبى منها ..
وتذكرت حكمة بلدية ترجم هذه الحكمة اليابانية التي كان يرددوها ملك اللؤلؤ ..
هذه الحكمة تقول : إن هذا قصر ديل .

والإنسان يجب أن يفرح بأن ديله قصير ، لأن الدليل الطويل يحرج رجل على
الأرض ويتسخ .

ـ يعني أفرح برونية اللؤلؤ ؟ !

ـ طبعاً .. كفاية ! .

لقد فرحت .. وليس معقولاً أن أحدهم أكثر من ملك اللؤلؤ !

۱



● آلوها.. آلوها؟!

سايو نارا .. و معناها باليابانية دادا .. دادا يا بلاد النوق والأدب والانحناء الذي ليس له أول ولا آخر .. دادا يا بلاد لا تعرف الإنجليزية وتقول نعم دائماً إذا فهمت وإذا لم تفهم .. دادا يا بلاد لا تطلب البشيش .. دادا يا بلاد اللو والجيشا والراديو الصغير .. دادا يا بلاد تمشي نصف بناتها على القباقيب ويسكن نصف أهلها في بيوت من خشب .. دادا يا بلاد الشمس المشرقة فوق السحاب والمشرقة دائماً في وجوه الرجال والنساء ..

اليوم هو آخر يوم أسمع فيه أحداً يسألني : ليه رأيك في اليابان؟ ثم يتوقع أن يكون الجواب دائماً أنها رائعة!

سايو نارا .. سايو نارا ..

لن أرفع سماعة التليفون وأطلب الشاي كل يوم وأقول : كوتشا .. من غير يمون .. ومن غير لبن
- لازاي ..

- أيوه من غير لبن ومن غير يمون.

ولن أقول لفتاة صغيرة - وكل بنات الفنادق دون العشرين بزمان - وأنا أشكرها على أن الشاي جاء بعد دقائق وفي أدب ورقة وابتسام وانحناء لن أقول أبداً بعد ذلك : أريجاتو جوازي ماشتا .. أى أشكرك جداً .. ولن أسمع من أية فتاة صغيرة وهي ترد بانحناءة طويلة عميقة : دوه تاسى ماشتا .. أى أشكرك أنت ..

وداعاً يا بلاداً تأكل السمك النبي ، وتنضم السكر في الصلصة ، وتسلق البصل والفجل والخيزران ، وتأكل على حصيرة ناعمة ، وتنسم إلى الضفادع البشرية وهي تنفي في ملابس الجيشا .. وداعاً يا بلاد الشمس التي أشرقت في نفسي ولن تغرب أبداً .

سايو نارا .. سايو نارا .. !

وأتنى أن تصير بلادنا جميلة كبلادكم .. غنية كبلادكم .. وأن يكون كل ما في شارع سليمان باشا مصنوعاً في بلادنا : السيارات والملابس وزينة السيدات وملابس الرجال وكل ما في فترات المحلاط على جانبي الشارع .. سايو نارا .. وأن يصبح توزيع « الصحف العربية » كتوزيع صحيفة « أساهى » اليومية ، إنها توزع ستة ملايين نسخة يومياً .. وهي أكبر صحيفة يومية في الدنيا .. . ولما ذرف دمعة على فراق اليابان الجميلة ، ولكن السماء هي التي اكفر وجهها ، ونزلت منها دموع .. رأيتها على زجاج السيارة الكاديلاك التابعة لشركة « بان أمريكان » وهي تقلنا إلى مطار طوكيو الدولي .. الشوارع على الجانبين تتلاألأ .. الأنوار كالسوائل المثلثة .. الأنوار عروق نابضة بالنور والحرارة في جسم طوكيو .. لا يوجد إعلان واحد مكرر في كل هذه المدينة العظيمة .

ومطار طوكيو الدولي عمل فني كامل : المبني والمدخل ، والميكروفونات .. والاتصال بين موظفي شركات الطيران مودرن جداً .. والحقائب تتحرك على حصيرة كهربائية .. والمحلاطات والمطاعم رائعة .. وأعتقد أن مطار طوكيو هو أحسن مطار رأيته حتى الآن .. أحسن من مطار تمبلهوف ببرلين .. أحسن من مطار فرانكفورت .. وأحسن من مطار أورلي بباريس .. .

• • •

المسافة بين طوكيو وبين جزر هواي هي ١٣ ساعة ونصف ساعة .. .
من الطيران المتواصل .

بدأت رحلتي في الساعة العاشرة والنصف مساء .

تحسست ملابسي .. إنها كثيفة .. بالاطو من الجلد اشتريته من الهند ، والجاكتة صوفية اشتريتها من استراليا ، والبلوفر اشتريته من هونج كونج ،

والقميص من ستفاقورة ، والملابس الداخلية كلها من طوكيو .. وعندما ذهبت لشرائها دهشت البائعة ، ولكن أدبها منها من أن تقول : إن أحداً لا يشتري هذه الملابس الشتوية إلا العجائز !

ووحدة أخرى قالت في أدب : إن هذه الملابس قد اشتريتها أمس لوالدى ! لوالدها .. لجدها .. ؟ لا يهم فالبرد والمطر هنا جعلاني أنكش كأنى عجوز وكأنى أرب !

وفي الطائرة جلست بجوار النافذة وشدلت الحزام ، وأخرجت كتاباً صغيراً عن جزر هواى ، ولم أكدر أقلب في الكتاب حتى جاءت مضيفة الطائرة .. إنها أمريكية وشكلها مكشر كأنها تمثل دور الزوجة المطلقة في فيلم صامت .. ومدت يدها بطبق فيه بعض الليمون .. ولو أنصفت لقدمت لنا بعض الليمون ، وأخذت هي نصف هذا الليمون لعله يغسل القرف من شفتها وعينها !

وجاءت مضيفة اليابانية . حلوة صغيرة كالعروس ولا ت肯ف عن الضحك .. لا توجد هناك نكتة ، ولكن وجودنا يكفى ... !

والمضيفة الأمريكية كأنها تقول لنا : أنا مش خدامة أبوكم ! ونحن نقول أيضاً ولكنها لا تسمع ما نقوله نحن : واحنا مانرضاش إنك تكوني خدامة أبوانا .. !

والليل طويل .. والكرسي صغير ضيق على ملابسى الكثيرة .. والأمريكيات العجائز لا يتوقفن عن الكلام . وحكايات وقصص طويلة عن الذى رأينه فى الدنيا شرقاً وغرباً .. ويتحدثن عن مشاكل البيت والطعام والأولاد .. ويكتفى أن تنظر لأية سيدة أمريكية أو أى رجل أمريكي حتى يحييك وسلم عليك ويصبح صديقك فى لحظة ويعطيك عنوانه ويطلب إليك أن تزوره .

كل شيء عند الأمريكيان يتم فى بساطة وبسهولة وبلا كلفة ، وربما كان هذا هو السبب الذى جعل الناس فى أوربا وأسبيا مفتونين بالحياة الأمريكية .. فهى بسيطة « هلهل » ، وفيها حياة ومرح كثير جداً - فيما عدا هذه المضيفة ! وكان الليل طويلاً جداً .. ولم تشرق الشمس إلا فى ساعة متأخرة كأنها هي الأخرى قد راحت عليها نومة .. والطائرة بدأت تهتز كأنها تساقط

من التعب .. ومن النافذة كان ماء المحيط الهادئ أزرق فاتحاً .. كشكل المياه حول جزيرة كابري .. أو حول جزيرة سيلان .. أو مرسى مطروح .. أزرق داكن وتحت الماء توجد صخور بنيّة اللون هذه الصخور هي بقايا جزر غمرها المحيط . إنها مئات الجزر ويسمونها «الماديّات» نسبة إلى المحيط الهادئ فكل هذه المنطقة بركانية .. وكل هذه الجزر الموجودة هنا هي جبال بركانية . وقد أغفرت المياه الوديان التي حوطها ولم تبق إلا القسم .

و قبل جزر هاواي نهنا الطيار إلى أننا بعد لحظات سنكون فوق الأجزاء الشماليّة لجزر هاواي .. وكادت أرواحنا تطير تسبق الطائرة إلى سماء هذه الجزر وأخيراً ظهرت كتل بنية اللون ، وفيها بعض البقع الخضراء .. وأحياناً تظهر خطوط لامعة أيضاً .. وكانت نرى وجه القمر .. ويبدو أن هذه الجزر كلها صغيرة ولكن شكل الجزر يبدو كشكل طفل مولود الآن .. كتلة من اللحم الأحمر ليس له ملامح الأب أو الأم ، ليست له ملامح الصورة الرائعة التي في خيالنا عن جزر هاواي وسحر هاواي وليلتها وأغانيها .. وبصراحة ليست لها ملامح بنات هاواي .. !

ولم أتعجل الحكم على هذه الجزر .. وانتظرت حتى تنزل الطائرة إلى الأرض .. وبعد لحظات أعلن الطيار أننا نرى تحتنا ميناء بيرل هاربور التاريخية .. وهي تاريخية لأن اليابانيين أغروا فيها الأسطول الأمريكي ، وبدأت معارك الحرب الثانية في الشرق الأقصى .. وبعدها قفز اليابانيون إلى الفلبين والهند الصينية وأندونيسيا وهددوا أستراليا .. وإلى جوار بيرل هاربور - ومعناها ميناء اللؤلؤ - أعلن أنه توجد مدينة هونولولو عاصمة جزر هاواي .. وجزر هاواي هي الولاية الخامسةون في الولايات المتحدة .. فقد انضمت إليها منذ سنوات قليلة وهي أحسن قرية لأمريكا في الشرق الأقصى كلها .

ونزلت الطائرة إلى مطار هونولولو الدولي .. المطار كبير ومحاط ونظيف جداً وبه عدد كبير من الطائرات النفاثة الحربية والمدنية . وهي تنزل وتصعد كل لحظة بصورة مذهلة .. !

ولم نك نخرج من الطائرة حتى أحسست بحرارة الجو .. الدنيا حر هنا ..

كشهر مايوف القاهرة .. وأخذت أنزع ملابسى .. بالبطو والجاكتة والبلوفر ..
ولم أتمكن من تشير القميص فتحته ملابس لها أكمام طويلة .. وفي السيارة
أكملت نزع ملابسى .. !

الوجه كلها أمريكية .. القمصان ذات الورد والأبقار والجوايميس والأسماك ..
القمصان من كل الألوان وكل المقاسات .. القمصان الواسعة جداً والبنطلونات
الضيقه واللبان والسجائر والسيجارات .. ودخلنا الجمرك في طوابير لترى أحد ضباط
المجرة قد رسم على ذراعه عروساً .. لابد أنها تشبه فتاة كان يحبها .. أو ربما
ولد وهذا الرسم على ذراعه فهو رسم طبيعي لونه أزرق في لون العروق أو في لون
عينيه .. أو يمكن وحمة .. !

ولم يستغرق الكشف على شهادتنا الطبية ضد الجدرى والكولييرا وجوازات
السفر سوى دقائق معدودة ، وأمام باب المطار وجدنا الشيالين من أبناء هواى
ولكنهم أمريكيون أكثر من الأمريكية .. « الخنافف » في الكلام ، الاستخفاف
في الحركة وكثير من الفزحة .. تقدم واحد منهم وسألني إن كنت أريد سيارة
تاكسى أو سيارة كبيرة لنقل حقائبى .. فوافقت على تاكسى ، وطلبت إليه
أن يحضر حقائبى .. فقال مامعناه إنه « رئيس » هنا .. ولكن مع ذلك سينقل
حقائبى .. « ومع ذلك » هذه كلفتني نصف جنيه بقشيش .. وجاء التاكسى
كاديلاك ضخم .. أما السيارة الكبيرة التي كان يريدى أن أركبها فهي كاديلاك
أيضاً ، لها ستة أبواب .. .

• • *

ورأيت فتيات سراوات يرتدين ملابس هواى ..

وملابس هواى تشبه جلاليب الفلاحات عندنا واسعة وله سفرة عالية ،
وحول عنق الفتيات عقود من الورد .. وقد ظننت أن أحد هذه العقود سيلتف
حول عنقى .. وقد أمعنت في الظن فتخيلت أن هذه هي التقاليد .. وهكذا قالت
لنا كتب الدعاية .. ولكن الفتاة سألت عن السيد جارسون وحرمه .. وتقدمت
مني وقالت : مستر جارسون ؟ .. فقلت : أبيوه ..

وتقدمت الفتاة ووضعت إكليل الورد حول عنقها ، ثم طبعت قبلة على خدی . . .

وأنا أضحك ، وهى سعيدة لأنها لم تنتظر طويلاً لكي تجدنى . . .
ثم سألتها عن السيدة حرمي فأشرت إلى الراكب الذى يمشى ورائي . . ولم تسمعني وأنا أقول لها : إنها تختلفت في طوكيو وأرسلت أخاها !
وغضبت وسببت العقد من رقبى وراحت تبحث عن مستر جارسون
وحرمه .

وفي السيارة سألت السائق عن الحياة في جزر هاوایي وعن بنات هاوایي
ولاحظت أن السائق دهش جداً لهذه الأسئلة .

وسألته عن سكان هاوایي الأصليين وأین نجدهم ! .

وعرفت أن الطائرة التي سافرت من طوكيو يوم الخميس في الساعة الثالثة
مساء وصلت إلى هونولولو حوالي الساعة الثالثة من مساء يوم الخميس نفسه ،
فيبدلاً من أن تصل يوم الجمعة وصلت يوم الخميس . . فجزر هاوایي متقدمة
في الزمن خمس ساعات عن اليابان — بحسن أن تسأل أحد علماء الجغرافيا
أو الفلك فتحن هنا نقع على خط طول ١٥٨ غرب جرينش ، والقاهرة على
خط طول ٣٠ شرق جرينش ، والفرق بين البلدين الآن هو ١٢ ساعة .

يعنى لقد تقدمنا في الزمن خمس ساعات . . ولكن عرفت أنها تأخرنا
في الوصول إلى هذه الجزر حوالي حسين سنة ! فأهل هاوایي — الذين كنت
أتوقع أن أراهم عراة حفاة ، ينسجون ملابسهم من أوراق الموز ، ويركبون
الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار ، ويضعون الورود الكبيرة في الشعر . .
وبنات هاوایي التي قال عنهن جيمس كوك الذي اكتشف هذه الجزر لا يعرفن
لإفناً واحداً هو الاستسلام للرجل . .

هؤلاء الرجال والنساء لا وجود لهم الآن . . لقد اختفوا منذ حسين سنة
على الأقل ! .

أما الآن فكل الناس يلبسون البدل والأحذية ومعظمهم يضيق بالأحذية

الضيقة فيضم في قدميه سيارات فاخرة من أحدث طراز . . فأنا لم أر أحداً يمشي في الطريق . والمواضية هنا هي قيادة السيارات وأنت عريان إلا من مايوه صغير . أما السيدات فيقذن السيارات بمايوه . . ومايوه مسخوط جداً، فهو مختصر جداً ، وربما كان السبب هو الاقتصاد في استخدام الأقمشة التقبيلة !

وعند الفندق انحرفت السيارة ودخلت في بوابة مكتوب عليها الكلمة : آلوها . . ومعناها : أهلاً . . وكلمة آلوها مكتوبة على كل السيارات . . وانطلقت السيارة إلى جراج تحت ، وبالجراج سيارات لم زرها قبل ذلك . . فكلها موديل العام القادم . . كل السيارات جديدة ، والسيارة الأمريكية قد ملأت الجراج والشوارع هنا . ونزل ~~أسائق~~ ووضع الحقائب على الأرض وسألته : كم ؟ . . فقال : خمسة دولارات . . .

يعني جنيهين لكي ينقلني من المطار إلى المدينة . . والمسافة لا تزيد على خمسة كيلومترات . . أعطيته الدولارات الخمسة وأنا مذهول من وقوفه أمامي . . إنه يتذكر البكريش . . ولا أعرف ماذا أعطيه . . فأعطيته نصف جنيه !
الفندق أنيق جداً . .

وانجذبت إلى الغرفة . . إنها واسعة طولها عشرة أمتار وعرضها سبعة أمتار وأرضها مفروشة بمحصورة جميلة مصنوعة من ليف النخيل . . وبالغرفة مقاعد ومكاتب لها شرفة تطل على البحر . . تطل على خليج ويكيكي – لا تخلط بين هذه الكلمة وبين كلمة وكويكي التي معناها بلغة هواي : بسرعة ! . . أما لإيجار الغرفة فهو تسعة جنيهات في اليوم . . لا فطور ولا غداء ولا عشاء . . مصبيبة سوداء !

وفي المطعم عرفت أنه لا توجد هنا فنادق درجة أولى ودرجة ثانية . . وإنما الفنادق هنا هكذا : درجة أولى ، ودرجة أولى ممتازة ، ودرجة أولى خاصة . . ثم الفيلات !

وفي المطعم جلست متجلساً خائفاً لا أدرى ماذا أصنع . . أنا ميت من الجوع . . فالأكل في الطائرة يوجع البطن . . إنه خليط من السكر والملح ،

وكل الأكل بارد .. الصلصة عليها سكر ، الليمون منقوع في العسل ، الزيتون مزروع في المربى .. اللبن مثلج .. الشاي بارد !

وجاءت الجرسونة اليابانية – هنا ٤٠٪ من السكان الأصليين يابانيون – فطلبت منها قطعة من اللحم المشوى وبعض الشوربة الساخنة والسلطة الخضراء .. وبلاش شاي وبلاش قهوة وبلاش فاكهة . والناس حولي يأكلون كميات كبيرة من الطعام والسلطات والفواكه .. فلابد أنهم سيدفعون مبالغ خرافية .. وبعد الأكل طلبت من الجرسونة : الحساب من فضلك ؟ فكتبت ورقة وطلبت مني أن أدفع هناك .. وأشارت إلى حيث تقف فتاة أمريكية علامة .. ونظرت في الورقة وكاد يغمى على .. تصوروا أن هذا الطبق التافه كلفني ثلاثة جنيهات .. قطعة من اللحم وإلى جوارها بعض البرسيم والأعشاب بثلاثة جنيهات ! ..

كاد عقل يطير مني .. وبدأت أفكر في الهرب من هذا الفندق وحاولت أن أسأل عن بيوت يابانية أو صينية .. وأعادت النوم على الأرض كما كنت أنام في اليابان .. مأساة !

ألا يوجد في هذه البلاد فقراء ؟ ألا يوجد أناس متواسطو الحال ؟ أليس بين الأمريكان واحد ليس مليونيرا ؟ وتذكرت الناس الحالين إلى جواري والبالغ التي سيدفعونها .. لقد طلبوا نصف خروف أو نصف بقرة وعشرات من زجاجات البيرة والتبيذ وأكوا ما من الفواكه وبراميل من القهوة .. مع أن أشكالهم لا تدل على أنهم من الأغنياء .. ويدو أن الأمريكان لا يهتمون بمظهرهم كثيراً فأنت لا تعرف الفرق بين الغنى والفقير أو بين الكبير والصغير ..

ومن شرفة غرفتي . نعم غرفة . فليس أمامي إلا أن أملأ صدرِي بالهواء الذي جداً ، وأملأ عيني بالوجوه الحلوة التي تتناول العشاء في ضوء المشاعل ، ولا أن أشاهد بنات هواي يرقصن حافية على رمال الشاطئ ، وعلى نقر الطبول وعوبل الجيتار .. من شرفة غرفتي جلست أشرب الدنيا وأكلها مجاناً وأمتصص شفتي وأنا أنطلع إلى بنات هواي !

وبنت هواي ترقص هنا بما يوهو قطعتين ، ووراء أذنها وردة كبيرة وحول

رقبتها عقد من الورد .. والأمريكان جالسون على الرمل يصفقون . وفي جانب آخر من البلاج أرى أشباح شبان في عنق طويل ، وأرى الأشباح تقارب وتتعانق ويصبح الشبحان شبحاً واحداً ويختفي الشبح على الرمل ثم يختفي الظل ، يصبح حفرة في الرمل .. يدوسها الناس .. وتتكرر عملية الأجسام التي تحول إلى أشباح ثم إلى حفر في الرمل وإلى صمت .. ثم إلى حسرات – أقصد نفسى !

وفي اليوم التالي اكتشفت أماكن أرخص .. ولكنها لا يمكن أن تكون كالبابان الغالية أو الفلبيين الغالية جداً .. إنها طبعاً أغلى بزمان .

وحمام ساخن ، ونومه حتى الصباح ، وبعض الموسيقى وبعض الصحف وكوب من اللبن الدافئ . والمشاعل على الشاطئ والوجوه السعيدة .. كل هذا أعاد لي روحى .. وفي ساعة مبكرة فتحت النافذة على شمس جديدة تنسحب على ماء مثل المشمع الأزرق الذى ينسحب إلى الشاطئ كأنه يريد أن يسمع ما يقوله المستحمون ..

هذه جزر هواى .. أجمل جزر رأيتها حتى الآن .. أجمل من كابرى .. وأجمل من صقلية ومن قبرص ومن سيلان ومن سنجافورة ومن بالى ومن هونج كونج .. جزر هواى تضم أكثر من 12 جزيرة صغيرة ولكن أشهرها جزيرة ماواى ، وجزيرة أواهو وفيها هونولولو عاصمة ولاية هواى كلها ، وجزيرة ماواى ، وجزيرة كاواوى ، وجزيرة نيهما ، وجزيرة مولوكائى ، وجزيرة لاناوى .. وهم هنا ينطقونها بالهمسة فيسمونها : هواى أو هافائى .. ويضعون هذه الهمزة على الحروف اللاتينية كما نضعها في العربية .. ومن الغريب أنهم يسمونها «هزة» أيضاً .. ولا يعرفون من أين جاءتهم هذه الكلمة .. وقد لاحظت وجود كلمات عربية في لغتهم مثل : كاهن وحكيم وحب وحبل وواهنة وقوى ..

وكلمة «آلوها» هنا تتجدها في كل مكان ومعناها : أهلاً أو وداعاً .. أو معناها : نزلت أهلاً أو تركت أهلاً .

وهناك شركات طيران اسمها شركات طيران أهلا وشركات ملاحة أهلا .. وجزر هواى عدد سكانها نصف مليون .. وسكان جزر هواى معظمهم

من الجنس الأصفر الذي ينتمي إليه سكان اليابان والصين والفلبين ، والباقي ينتمي إلى الجنس الأبيض أو القوقازى .

وعندما اكتشفت هذه الجزر سنة ١٧٧٨ كان عدد الهوائين حوالى ٥٠ ألفاً . وبعد اكتشاف هذه الجزر مات معظم هذا العدد بسبب أمراض الحضارة الحديثة - لا حياء في العلم : أمراض الحضارة هي الزهرى والسيلان ! - ولم يبق الآن من هؤلاء الهوائين سوى عشرة آلاف .. وهذه الآلاف لا يمكن أن تجدها إلا في الجزر البعيدة المقفلة .

أما أبناء هواي فهم الآن أمريكيون .. وأحياناً يبالغون في « أمركتهم » للدرجة أنهم يسخرون من الأمريكيين .. أما الأمريكيان فيسكنون أو يضحكون .. فليس في أمريكا كلها أمريكي واحد إلا الهندو الحمر ، أما الباقيون فقد جاء معظمهم من أوروبا .. فكلهم أجانب مثل أهل هواي ، ولم أسمع واحداً يقول إنه أمريكي إلا « المحدثون » أو الأمريكيان الجدد ، أما الأمريكيان القدماء فهم يقولون لهم من إنجلترا وفرنسا أو إيرلندا ! .

وجزر هواي هذه قد عرفت الأمريكيةان منذ وقت طويل ، منذ حوالى ١٨٠ سنة عندما بدأ رجال التبشير ينزلون إلى هذه البلاد واحداً بعد واحد وكانوا يدعون إلى المسيحية .. ويفتحون الطريق أمام الدول الكبرى لكي تستعمر هذه الجزر . ليس هذا إلا رأى الكاتب الأمريكي جيمس منتشر في كتابه الأخير عن « هواي » وبه ألفاً صفحة ، وربع فيه ثلاثة ملايين دولار ! .

وبعد رجال الدين جاء رجال الأعمال واحداً بعد واحد .. ورجال الأعمال هم الذين أتوا بالعمال اليابانيين والصينيين .. وقد ظلت هواي مجموعة من « العزب » أو « الأقطاعيات » لأصحاب الأعمال الأمريكيةان .. ولا تزال هناك حتى الآن جزر كاملة تملكها عائلات ولا يدخلها أحد .. فجزيرة « نيهاو » تملكها عائلة واحدة ولا يمكن دخولها إلا بإذن خاص .. وعدد سكان هذه الجزيرة حوالى ٢٠٠ نسمة .. وغرض هذه العائلة أن تبقى الحياة في هذه الجزيرة كما كانت من مئات السنين .. فعلى الرغم من أن بهذه الجزيرة أحد الآلات لزراعة القصب واستخلاص السكر .. وزراعة الأناناس ووضعه في العلب ، فإن الحياة فيها بدائية.

وهناك جزيرة أخرى تملکها إحدى الشركات هي جزيرة لاناي وجزر هاواي تزرع القصب والأناناس وتبيع منه سنوياً ما يعادل ٣٠٠ مليون دولار . . وهناك زراعات وصناعات أخرى أدت إلى رصف الشوارع . . وكثرة الخطوط الجوية والملاجية والمطارات والموانئ . . والمحطات التجارية هنا مليئة بالبضائع الأمريكية . وكل الناس هنا يعملون وكلهم يرتدون الملابس النظيفة ولا تجد في الشوارع إلا عدداً قليلاً جداً من المشاة .. والأنواعيات هنا فخمة وثمن التذكرة بين محطة وأخرى ٢٠ سنتاً أى ما يساوى ثمانية قروش !

وهذه مطاعم يابانية وصينية وكورية .. وصناعات يابانية أيضاً .. والمنافسة بين أمريكا واليابان على أشدّها . ويبدو أن الصناعات اليابانية أدق وأصغر وأرخص وأكثر .

والفندق الذي أُنزل به تتعقد به بجان كل يوم . . بجان كثيرة . . هذه بحنة تحسين العاصمة . . وهذه بحنة عمل أنفاق تحت الأرض . . وبحنة بناء برجان . . وبحنة تحسين المطار الدولي وتحفيض ضغط الطائرات النفاذه التي تزعج العاصمة ، فالطائرات النفاذه الحربية والمدنية تنزل وتطلع بمعدل طائرة كل خمس دقائق ليلاً ونهاراً !

والديانة هنا هي المسيحية وإن كان بعض الصينيين واليابانيين لا يزالون يتمسكون بالديانة البوذية .. ولكن عددهم قليل جداً .

• • •

وعندما جاء جيمس كوك الرحالة الإنجليزي الذي اكتشف هذه الجزر ، واكتشف أستراليا أيضاً ، ظنه المهاوائيون أحد الآلهة .. فهو طويل أبيض اللون أصفر الشعر أزرق العينين .. وظنوا أن سفينته هي جزيرة عائمة .. وظنوا أن ساريات السفينة أشجاراً في هذه الجزيرة . وعندما نزل كوك في جزيرة هاواي أقبل عليه الناس ساجدين راكعين . . وأدرك كوك أنه إله فامعن في إظهار المعجزات فأمسك سيجارة وأشعلها وراح يطلق الدخان من فه والناس في ذهول .. ثم أخفى يديه في جيب الجاكيتة فظن الناس أنه يستطيع أن يضع يديه في أحشائه وينحرجها دون أن يموت .. ثم إن معه عصا ينطلق منها دخان وهب

ولها دوى مروع .. وخرروا ساجدين لهذه العصا السحرية .. وكانت تلك العصا نوعاً من البنادق القديمة !

وكان الدبيانة هنا تحدث الناس عن اليوم الذى سبعت فيه الآلة بمن يزور الجزيرة ويخلصها من لعنات الآلة «بيلا» آلة التيران والبراكن والتى تزور جزر المحيط الهادى الواحدة بعد الأخرى ، ثم تستقر آخر الأمر في جزيرة هاوائى حيث تنطلق التيران من براكينها .. وعندما هبط كوك أيقن الناس أن هذا هو الإله المنتظر !

ويظهر أن كوك كان مستبداً وكان قاسياً . فأحس الناس أنه لا يختلف كثيراً عن الآلة القسوة . ويظهر أن الناس - حتى البدائيين - لا يتحملون القسوة ولو من الآلة .. وفي مرة تشارجوا معه وجروحه .. وسالت الدماء من « كوك » وكانوا يعتقدون أن كوك لا يمكن أن يصيبه أحد أو يقتله أحد .. ومنذ تلكلحظة وهم ينظرون إلى كوك على أنه غريب ، وأنه يريد أن يستولي على أراضيهم .. وقد حدث أن سرق بعض بخاره كوك زورقاً من ملك هاوائى ، وهنا هجم أحد الهوائين على كوك وقتلها .. ودفن كوك في جزيرة هاوائى .

وقد أطلق كوك على جزر هاوائى اسم جزر ساندوتش تيمناً بالإيرل ساندويتشر أميرال البحرية البريطانية في ذلك الوقت .. والإيرل ساندويتشر هو أول من وضع اللحم والأرز في رغيف .. فأطلق على هذا النوع من الطعام اسم ساندويتشر ... وغيرت الجزر اسمها ، وأصبحت هاوائى .. ونسى الناس من هو ساندويتشر وإن كانوا يأكلونه كل يوم !

وقد حاولت كل الدول الكبرى أن تستولي على هذه الجزر الجميلة ذات الموقع العسكري الخطير .. حاولت بريطانيا ثلاثة مرات ، وفرنسا مرتين ، والاتحاد السوفياتي مرة . وليس للاتحاد السوفياتي هنا إلا قلعة اسمها قلعة روسيا وحاولت أن أرى هذه القلعة فلم أجده إلا الاسم .

وكانت جزر هاوائى مجموعة من الممالك المستقلة .. ثم توحدت تحت ملك واحد هو الملك كاميهاما الأول .. وتولى بعده الملوك والملكات .. ولكن رجال الأعمال الأمريكيين استطاعوا أن يمهدوا الطريق إلى رأس المال والتفوز

الأميريكي حتى تحولت هذه الجزر إلى أرض تابعة لأميريكا في أواخر القرن الماضي . . ثم استقلت واعترفت باستقلالها وصار لها حاكم أمريكي . . وبعد ذلك في نوفمبر سنة ١٩٥٨ أعلن قبولاً عضواً في الولايات المتحدة ، فكانت الولاية الخامسة . . وعلى أثر انضمام هذه الولاية لأميريكا أعلنت بعض الأحزاب في الفلبين رغبتها في الانضمام لأميريكا باعتباره الحل الوحيد لإنقاذ جزر الفلبين من التزق والانحلال والفساد . . ولكن أميريكا هي الأخرى لها وجهات نظر في الفلبين . .

والحياة هنا في جزيرة «أواهو» وعاصمتها هونولولو . . هادئة جداً ليس بها حوادث . . والنظرة للصحف المحلية تجعلك تشعر أنك في عزلة تامة عن العالم كله . . لا حوادث ولا قتل ولا جرائم ولا ضرائب . . كل شيء هادئ ناعم . . وأعلى الأصوات هو صوت أمواج البحر . .

ونحن ننام والتواقد مفتوحة وبلا غطاء ، والأضواء في غرفتي وفي كل الغرف مغطاة خافتة كأصوات الناس . . وكل شيء عليه فلتر . . كل شيء نظيف كل شيء نقى . . الرمل أصفر في لون حبات الرمان ولون شفاه الفتيات هنا . . وأشجار جوز الهند أوراقها مدلاة كصفائح الفتيات الصغار . . والهواء يضرب الوجه في خفة كأنه فستان هاوانى واسع والقبعات من سعن النخيل . . وكل فندق له حمام سباحة رغم أن كل الفنادق تطل على المحيط .. وأمام الفنادق توجد زوارق هواى المزدوجة . .

وتوجد عشرات الألعاب المسلية . . فهناك متلا جميعة غريبة ولكن الإقبال عليها هائل . . وهي جمعية «جمع حمار الواقع» ، ولها مواعيد ولها رحلات وسيارات وطائرات . .

وهناك جمعية أخرى لصيد الحشرات الغريبة . . وكل شيء هنا يقابله الناس باهتمام ، رغم أنه يبدو سخيفاً .

والناس جاؤوا إلى هذه الجزر وفي نيتهم شيء واحد : أن يستريحوا على الآخر . . وفي الغرفة المجاورة لى عريس وعروسة ، وفي الغرفة التي في آخر الممر عريس وعروسة . . وكل يوم يتغير الورد ، ليتمشى مع لون الفستان . . كل يوم وفي الصباح يتمدد الناس في البلکونات أو على الشاطئ . . ويسبحون وينغوصون

تحت الماء . . وفي الليل تضاء المشاعل وفي ضوء المشاعل يجلس الناس في هدوء
تمام . ويأكلون ثم ينزلون إلى الشاطئ ، وهنا تنتظرونهم فرق الموسيقى الهوائية . .
والرقصة التقليدية هنا هي رقصة «الهولا» وهي رقصة سهلة قرية من البولير و . .
أو «الفوكس تروت» السريعة . . وفتاة واحدة ترقص وتتلوي في مكانها وقد
ارتدى فستانها من قطعتين وعرت وسطها كما تفعل السيدات المحشيات جداً في
الهند ، ثم عرت ساقيها وصدرها وبدأت ترقص ويساومها ثلاثة من الموسيقيين
واحد منهم يغني بلغة هواي الغريبة . . فكل حروف هذه اللغة عددها ١٢ فقط
هي : ه.ك.ل.م.ن.ب.ف ، والخمسة الحروف الباقية هي عبارة عن الصمة
والكسرة والفتحة والسكون والشدة . .

ولابد من وجود المشاعل أثناء هذه الرقصة ، فهذه الرقصة لها قصة
تاريجية . فقد حدث أن شعرت الآلهة «بيلة» آلهة النيران والبراكن بكتير من
الملل والقرف ، ويقال إن هذه الآلهة تشعر بالملل عندما لا تجد ما تعمله ، ويقال
إنها تشعر بهذا الملل عندما تشعل النيران في براكن كل هذه الجزر . ولم تجد
«بيلة» شيئاً تتسلى به . . لم تجد «بيلة» ما تعمله . كان شعورها مثل شعور
الإمبراطور كالبيجولا الطاغية الرومانى الذى لم يكن يحزنه فى الدنيا كلها غير شيء
واحد هو أن الآلهة لم تختلف للإنسان سوى عنق واحد . وكان يتمنى أن يكون
للإنسان أكثر من عنق لكي يجد عدداً كافياً من الرؤوس التى ترى ظماء إلى
الدماء . . ولم تجد هذه الآلهة سوى أختها الصغرى فطلبت إليها أن تسليها
فرقصت لها أختها رقصة الهولا .. ويقال إن الأخت الكبرى قتلت أختها الصغرى
بعد ذلك . . فالرقصة لم تعجبها ولم تدخل السرور على نفسها . . فأعادت
الأخت الرقصة مرة ومرة ولكن الأخت الكبرى لم تنشرح ، فقتلتها أختها .
ورقصة «الهولا» هي في الواقع صلاة تُعلن روح الأخت الطيبة التى أرادت أن
تسلى أختها الشريرة التى تنفس النار والدخان من كل بركان .

• • •

وأحياناً يذهب الناس هنا إلى المطعم عند السوق الدولية . . وهذه السوق الدولية
يمارس أصحاب المطعم أن يقدموا فيها الطعام والسلع من كل بلد في العالم . . فقد
عثرت على محل لبيع السجائر . . عنده سجائر من القاهرة ويقول إنه يحصل على

هذه السجائر من شريك له في أمريكا .. وهذا الشريك له شريك آخر في تركيا .. وفي قلب السوق الدولية يوجد شبه مسرح وعلى هذا المسرح تتولى الفرق الغنائية الموسيقية ، وتعرض فنون الرقص والغناء الغريب في كل الجزر الجنوبيه أو في جزر المادیات أو جزر المحيط المادی .. وهذه الحفلات تقام مجاناً .. وفي نفسى أقول : أدى الدعاية وإلا بلاش .

ولابد أن الذى يقوم بهذه الدعاية هو إحدى شركات السياحة أو أحد المطاعم أو أحد المسارح .. ولكن لا تمضي لحظات على الرقصة الأولى والثانية حتى نعرف من الذى يقدم هذه الحفلات .. إنها إحدى شركات الطيران التي تدعوا الناس لزيارة الجزر الأخرى .. حيث الحياة أجمل وأروع ..

وكل شئ هنا تستغلة الشركات للدعاية لشيء ما .

فمنذ أيام انفجر بركان في جزيرة هاواي ، وكان البركان خامداً منذ خمس سنوات .. هذا البركان أدى إلى انفجار محطة الإذاعة - وأقصد محطات الإذاعة - هذه المحطات قد سُرِّت كل شئ للدعاية لزيارة البركان بأساليب عجيبة .. فثلا يقرأ المذيع نشرة الأخبار في أقل من دقيقة .. ونشرة الأخبار هنا كل نصف ساعة ، ولا تكاد تنتهي النشرة حتى ينطلق مذيع آخر قائلاً : البركان انفجر .. إن أروع منظر تراه في حياتك هو من نافذة شركة خطوط أهلا .. ثم أغنية بعد ذلك .. ومذيع ثالث يقول .. لا شئ يُبيّن العين من شر البركان إلا منظار زجاجي ماركة كندا .. وأغنية .. وصوت مذيع رابع ينطلق كالمدفع قائلاً : بعد عودتك من البركان الذي درجة حرارته ١٨٠٠ مئوية حسب آخر تقارير العلماء في المرصد ، بعد هذه العودة يجب أن تأخذ حاماً دافناً ، وعلماء النفس يقولون إن النوم هو الشئ الوحيد الذي يريحك ، وإذا لم تتمكن من النوم فعليك بأقراص كندا .. وأغنية .. ومذيع خامس أو سادس يقول : الساعة الآن التاسعة بتوقيت البركان والساعة ماركة كندا .. لقد انقضى على انفجار البركان أكثر من ٢٠٠ ساعة وثلاث دقائق .. وأغنية .. ثم مذيع يقول : ماذا تصنع لو انفجر البركان تحت نافذتك لا تحاول أن تفكـر .. أنا أقول لك الخل ! .. ضع أذنك على مخدة ماركة كندا .. لمدة ٢٤ ساعة كل يوم ..

هذه هي جزيرة أواهو التي عاصمتها هونولولو . . .
الحياة فيها هادئة جداً . . ناعمة جداً . . الطعام كلها موسيقى وغناء ورقص
كل يوم . . فكل يوم عيد هنا . . كل يوم ربيع . . وكل الناس هنا معهم
فلوس وأغنياء . . ولا يشكون من الأسعار مثلث ، ولا يضعون أيديهم على
معدتهم أو قلوبهم قبل وبعد الأكل ثلاث مرات يومياً .

وعندما زار الأديب الأمريكي مارك توين هذه الجزر منذ مائة سنة قال :
هذه الجزر هي أجمل سفن ألت مراسيها في هذا المحيط .

ولم يكن مارك توين قد رأى الجزر الأخرى ليقول إنها أجمل جزر
ألت عندها السنن مراسيها ، وألت عندها الطائرات سلامها في هذا المحيط
وفي أي محيط آخر .

● موسيقى وغناء بلا توقف

هذه الجزيرة التي أعيش فيها الآن ليست لها مواعيد للرقص أو الغناء . . . فالرقص والغناء يبدآن من الساعة التاسعة صباحاً أو قبل ذلك لا أعرف ويظلان طول النهار وطول الليل . . وبعد نهاية الرقص تظل الإذاعة تغنى حتى اليوم التالي . . ولا أحد يعرف إن كان الذي تسمعه في الشارع أو البلكونة هو صوت الناس في الميكروفون أو من غير ميكروفون . والإذاعة هنا تعمل ٢٤ ساعة . وعيها أنها تكرر أغانيها في اليوم ثلاث وأربع مرات . وهذا هو أحد عيوب الاستماع إلى إذاعة واحدة فقط . . أو الاستماع إليها !

في الدور الذي أقيم فيه توجد حفلة لجمعية اسمها جمعية «المتفائلين» وأصدقاء الطفل . . وفي الدور الذي يعلو هذا الدور توجد حفلة أخرى لبعض شركات الطيران . . وفي الدور الذي فوقه توجد حفلة مدرسة «وكيكي» الثانوية . . وفي حديقة السطح توجد حفلة غداء لجمعية أصدقاء الكتاب المقدس . . هذا في الغداء . . أو بين الفطور والغداء . . وفي العشاء ينتهي برنامج الحفلات وتبدأ حفلات الشكر . . فالذين دعوا لهذه الحفلات يشكرون الذين وجهوا لهم الدعوة .

ثم حفلات الأزياء . . والورود . . ويسمون الورود هنا اللولو . . ربما لأنها ليست نادرة . . فاللولو مثل أم الخلول عندنا لا عدد له !

ثم موسيقى هاوائية ورقص هاوائي وتصفيق وصلوات هادئة . . وحتى بعض الأحيان يشكرون الله في نفس واحد . . طبعاً يجب أن يشكروه على ما أعطاهم

من هواء وأرض وفواكه ومصانع .. وأمريكا !

وفي ساعة متأخرة قليلاً من الليل يبدأ الغناء على الشاطئ الرملي .. يبدأ عادة بأن يتحرك أحد الموسيقيين من أبناء هواي وفي يده جيتار ، ويمر بأصابعه على الجيتار تحت نوافذ الفندق ، وكأنه روميو تحت شباك جوليت ، ويظل كذلك يلعب بأصابعه ويلعب بلسانه .. لأن الأغاني كلها هنا تلاعب باللسان والأسنان .. وبين الحين والحين يقول : هو .. هو .. وهي نوع من الزرقة الغنائية .. وكان « فلة » قد وقفت في حلقة وكانت لسانه مربوط بها . ويحاول هو أن يقتعلها مستعيناً بضغط الهواء إلى الخارج .. ولكن لافائدة فيفضل طول الليل يحاول بتشجيع الناس له .. إلى أن تطأ عليه من النافذة أية فتاة في مايوه – وكل الفتيات هنا بالمايوه – وتبتسم وتطلب منه أن يعيد الأغنية .. والتقاليد تقضي في مثل هذه الحالة أن يعيد من الأغنية ولو جملة واحدة .. ويمضي إلى مكان آخر فهو يتفاعل بالفتيات الحسان اللاتي يقابلنه في أول الليل .. والتقاليد تقضي بأن تنزل الفتيات من الشرفات ويمشين وراء هذا الموسيقار المتجلو ..

وهي طريقة لطيفة للإعلان عن مكان حفلة ستقام هذه الليلة .. وفي مكان على الشاطئ يتجمع الموسيقيون والراقصات ويناقشون بصورة غنائية أو مجرد مناقشة باللغة الإنجليزية أو باللغة المهاوية ، وبعد ذلك يمشون في الشوارع إلى أماكن كثيرة جداً في نفس مدينة هونولولو . وفي هذه المدينة تجد ما هو أغرب . فالغناء في كل مطعم .. في كل بار .. في كل حانة .. وهذا يحدث كل يوم وكل ليلة .. فليس في هذه الجزيرة أية مواسم للسياحة أو للغناء أو للرقص .. كل سنة من فصل واحد .. وكل يوم من حفلة واحدة غنائية أو راقصة ..

وهذا يضايقنا نحن الأجانب بعض الشيء .. في الصباح عندما نجلس إلى المائدة ونضع على كل مائدة شيئاً نحجزها به .. كجريدة أو جاكته أو مفتاح الغرفة .. ثم نذهب ونعمل أطباقنا ببعض الفواكه وعصير الطاطم وكلها مثلجة ونجلس ونرفع رؤوسنا إلى أعلى لنبتلع هذه المثلجات من ناحية ، ومن ناحية أخرى نحاول أن نلفت نظر الجرسونة إلينا .. ولكنها مشغولة جداً .. فهنا حفلة

على اليمين وحفلة ثانية على الشمالي . . والخلفات التي فوق قد استعارت بعض الجرسونات وبعض الثلوج بـ . ونحن لا نزيد - يعني أنا وغيرى - إلا بعض الشاي الساخن أو حتى القهوة . . أى شيء ساخن . . وفي كل المرات لا تنظر إلينا الجرسونة أو تتجاوزنا كأننا لم نحضر أو كأننا قمنا من وقت طويل . وأخيراً تلتفت إلينا الجرسونة وتكتب الحساب وتركه وتركنا . . وفي الورقة مكتوب أنا شربنا الشاي .

وأحاول أن أقنعها بفنجان واحد . . ولا داعي للدوريق الذي تملئه بالشاي الساخن . . وأخيراً تطلب مني أن أذهب إلى غرفتي وأطلب الشاي بالטלيفون . . وفعلاً أذهب إلى غرفتي وأنزع ملابسي وأمسك الصحفة الصباحية وأتمدد في الفراش عرياناً كأى شاب رياضي أو كأى أمريكي مولود في هواي وأتمدد بيدي إلى التليفون وأقول : أريد بعض الشاي من فضلك .

وأسمع من الناحية الأخرى من الخط « زومان » لا أفهمه . . فأحاول أن أستوضح عاملة التليفون إن كانت قد قالت شيئاً له معنى وفاني ألا أفهمه . ولكنها تصر على أن الذي قالته له معنى ، وأنها ستحاول أن تجده لي فنجان الشاي . . وأقرأ الصحفة مرة واثنتين ، وأقلب في بعض الكتب والنشرات وأدون بعض الملاحظات ، وقبل أن أرتدى ملابسي يرن جرس التليفون وأسمع أن هناك محاولات جادة لكي أحصل على فنجان الشاي ، وقبل أن أعلن لها عن عدمي عن الشاي تقلل عاملة التليفون السبعة . . وقبل أن تقللها بيضع لحظات لأستمع إلى بعض الموسيقى في راديو مجاور لها أو في حفلة مجاورة أو في غرفة مجاورة . . كل شيء هنا موسيقى ورقص . . في كل مكان . .

وأنزل وأبقى في الخارج ساعات أشرب فيها الشاي . . وأنتناول غذائي . . وعندما أعود أجده الشاي في غرفتي . . وأمسه بيدي فأجده قد برد وإلى جواره ورقة يحب أن أوقعها . . وأنظر في الورقة فأجد أن فنجان الشاي منه خمسون قرشاً . ويدق جرس التلفون و « أزوم » أنا . . ويكون المتحدث جرسون البوفيه ويسألني إن كنت قد وقعت على الورقة الموجودة مع فنجان الشاي . . وأسكت لأن استمع إليه وهو يعني فأقول : الله . .

ويسألني : ما هذا ؟ فأقول : مبسوط .. ويستوضحني بصوته الشجي ويقول :
تقصد .. آلوها .. آلوها .. ومعناها مرحباً ومعناها وداعاً ..
أقصد أهلاً يا بلاد الموسيقى والرقص .. ووداعاً يا فلؤسي !

• • •

كل شيء هنا في سباق ، في منافسة ..

المجتمع الأمريكي مجتمع صناعي تجاري قائم على المنافسة في البيع والشراء عن طريق الدعاية .. شركات ليس لها أول ولا آخر .. كلها تحاول أن تكسب الزبائن .. أن تأخذ كل ما في جيبيك من مال دون أن تجعلك تشعر أنك صاحب فضل عليها .. وأنك كريم جداً للدرجة أنك فضلتها على غيرها .

واللافتات الملونة والإعلانات في الصحف وفي الإذاعة وفي الشوارع والسيارات والسيارات ، كل ذلك لكي تلفت الشركات نظر الزبيون .. تلفت نظرك ثم تلفته هو وأسرته وأصدقائه .. إلى أن تستولي عليه .

ولكن أمريكا باعتبارها أكبر دولة صناعية تجارية في العالم فالممنافسة فيها أقوى وأقسى .. وهذه المنافسة هي التي تؤدي إلى تحسين السلعة وترخيصها .

والمجتمع التجاري هو مجتمع على كثير من الأخلاق .. فالصدق والأمانة والوفاء بالوعد وعدم الغش ، كل هذه الصفات المجتمع التجاري . فالناجر لا يكذب لأن أنه مؤمن بمزايا الأخلاق أو مؤمن بدين معين .. ولكن لأن الصدق هو أحسن إعلان له عند الزبيون .. والغش هو أسوأ دعاية ضده ..

فهو لا يكذب ولا يخلف الوعد لأن هذه جميعاً دعاية طيبة له .

والصحف هنا - أي في أمريكا - صفحاتها بالملفات .. فالصحيفة المحلية المتواضعة جداً عدد صفحاتها ثمانون صفحة .. وعُنْتها قليل جداً .. ولماذا ؟ لأن الصحيفة مليئة بالإعلانات .. ومن أجل هذه الإعلانات الكثيرة جداً صغرت المقالات وصغرت الأخبار وأصبح الكلام المكتوب هو مجرد ملء للفراغ الذي تركه الإعلانات ..

والإذاعة كذلك . وهي قادرة على تحطيم أعصاب أي إنسان ميكانيكي ..

أنت لا تستطيع أن تستمع إليها أكثر من نصف ساعة أو ساعة إن كنت من الصابرين .

تصور نفسك تأكل مثلاً وف كل لقمة تجد ورقة وهذه الورقة مكتوب عليها إعلان . . تقرأ الإعلان ثم تبصق على الأرض . . هذا إذا كان الإعلان عن صناعة الورق . . ولكن هناك إعلانات أخرى عن صناعة الأحذية والطوب وفرش الأسنان والسخان الكهربائي والمسامير .

وأنا سأحاول هنا أن أترجم لك جانباً من الإذاعة الأمريكية التي لم تتوقف منذ سنوات . . لم تتوقف لا ليلاً ولا نهاراً إلا لكي ييلع المذيع ورقة ثم يعلن أنه ابتلع قرصاً من الأسبرين الذي تباع الأقراص العشرة منه بعشرة قروش في محلات ككتوكوت شارع حسب الله رقم ١٢٤٧ ! . .

فأنا أستمع إلى الإذاعة طول الليل . . أو على الأقل حتى الساعة الثالثة صباحاً . . وتبدأ الإذاعة بأغنية ولتكن الأغنية لأم كلثوم فيقول المذيع : أغنية ياللى كان يشجيك أيني . . وهذا الأنين سببه وجع في الظهر وأحسن علاج هو مرهم « الإكسبريس » العجيب ، إنه يشفي وجع الظهر في أقل من خمس دقائق حسب توقيت ساعات شبكوربل المدهشة . ياللى كان يشجيك أيني لأم كلثوم أيوه أم كلثوم . . كلثوم . . وكلسيوم . . أملاح الكلسيوم تباع الآن بعد أن اختفت من السوق حوالي أربعين ساعة منذ احترقت مدينة المنيا التي تستطيع أن تراها من خلال نافذة الطائرات الجديدة التابعة لشركة « الطيران العربية » . . أغنية ياللى كان يشجيك أيني . . وتبدأ الأغنية : ياللى كان يشجيك أيني . . كل ما أشكى لك أسايا إلخ . . الأغنية التي كان يجب أن تستغرق خمس دقائق . . والآن أغنية عبد الحليم حافظ ، أول مرة تحب يا قلبي . . عبد الحليم حافظ . . أحسن حافظ لك على السهر دون إرهاق هي حبوب « القط الأسود » لأنها على هيئة أقراص . . كل علبة بنص جنيه . . لا يضر بالأعصاب . . وليس فيه مخدر يجعل هذه الحبوب عادة عندك . . أول مرة تحب ياقلبي وأول يوم أتها . . سيحدث هذا لك قطعاً إذا ذهبت إلى مطعم « شجرة الدر » أحسن الأطعمة وأروع الأنعام في شارع سليمان باشا رقم ٢٣٢٣ وبعدها ٣ . . وبعدها ٢ . . كان مرة ٢٣٢٣

ثم يعطس المذيع وتسمع صوت مذيع آخر صارخ يقول : ألم أقل لك لا تفتح
 النافذة .. استخدم ف . ت . ! إنها أحسن أنواع الستائر ، رخيصة متنية ،
 وبعد ذلك استخدم أفراد « شفيت » لالسعال والعطس .. أغنية « أول مرة تحب
 يا قلبي » مسجلة على اسطوانات أخبار فون من الاسطوانة ٧٠ فرشاً .. وأحسن
 جهاز لكى تستمع إلى صوتها نقيا هو جهاز صوت الغراب للأصوات الناعمة . إلخ
 ثم تبدأ أغنية عبد الحليم حافظ وإليكم الآن أغنية الحرف الأول من اسمه طلبها اليوم
 مائة مستمعة .. مائة .. لا تنس هذا الرقم .. إنه رقم محلات حسب الله
 لبيع الملابس الداخلية .. وردت كمية كبيرة من الحرائر محلات حسب الله ..
 الحرف الأول من اسمه هو اسم الأغنية .. استمعوا إليها .. وتنسى الأغنية تقول :
 الحرف الأول من اسمه ومن اسمى .. وبعد الأغنية يطلب المذيع فتاة صغيرة بالטלפון
 ويسألاها .. ماذا تأكلين ياما .. فتقول الطفلة الصغيرة وكأنها نسيت الدرس الذى
 رددته المذيع على أذنها ألف مرة .. وتقول : أنا مش باكل حاجة .. ويقول المذيع
 مستدركاً : أمال فين علبة الشيكولاتة اللي معاك واللى أنت بتجيها ..
 وتقول الطفلة : أنا ما حبس الشيكولاتة .

ويتلخص المذيع أو يمثل دور الملعوم ويقول : ياه .. قد كده أنت بتجي
 البن المخفف .. أحسن الألبان المخففة هي ألبان أبقار فتحى أبو جاموس ..
 لاتخلطوا بين فتحى أبو جاموس المؤلف الإذاعى .. وفتحى أبو جاموس
 صاحب مزارع قصب السكر .. على كل حال سكر في سكر .. وكله حلو ..
 وعلى ذكر السكر والحلوة يياع الآن في الأجزاخانات .. سكارين .. وهو
 خاص بالمصابين بالسكر .. اطلبوه فهو رخيص .. وإليكم أغنية : زعج الوابور
 ع السفر عيطة رايح فين .. طبعاً رايحين نشوف كفر الدوار .. لماذا .. اسمع
 السبب :

إن كنت يوم رايح كفر الدوار
 على الشمال زور أبو حمص
 تلاقى محل عليه فنيار
 فيه البضايع راحه ترقص

طول الليل .. طول النهار وأكثر من عشرة مذيعين ينفخون في قربة غرفة
هي أذن وأذن عشرات من الناس .

ومن المؤكد أن عطة الإذاعة هي سبب استهلاك الإسبرين وقطرة العين
ومراهم الظهر ، واستخدام المراتب الكاوتتش .. لأنها ورشة نجارة وجزاره
صاروخية أخطأت الطريق إلى جيب المستمع فأقامت في أذنه !

• • •

ملحوظة : هذا الرجل كان في إمساكية شهر رمضان في بلدة أبو حمص
ولا أعرف لماذا تذكرته هنا في هواي .. مع أنني تركت أبو حمص من عاماً ٣٠
فقد كنت تلميذاً في مدرستها الابتدائية ثم تلميذاً في مدرسة دمنور الثانوية .. ولم
أتنظر هذا الرجل طول عمري !

هذه الملاحظة ربما تناولتها بالتفكير بعد ذلك . فأنا أفاجأ كل يوم بانفجار
لغم عائم في بحر ذكرياتي !

● مبارى جمعية المتفائلين

كل يوم في الصباح أمر على غرفة مفتوحة وبها ستة جالسون وأمامهم أوراق وعلى بابهم خادم وأمامهم رجل يخطب بأعلى صوته وهم ساكتون . وعند الظهيرة يظل الاجتماع منعقداً ، وفي المساء الاجتماع مستمر . والكلام يشمل أموراً كثيرة جداً .. أسمع بعضها وأنا في الطريق إلى السلام .. وحاولت أن أعرف اسم هذه الجمعية . فلم أجد لافتاً لا على الباب ولا على السلام ، كما هي العادة .. وذهبت إلى استعلامات الفندق فضحت الموظفة الشقراء وقالت لي : أنت متفائل ! قلت : تقصدين إإن كنت عضواً في هذه الجمعية . فقالت : نعم .. وأجبت : إنني متفائل دون جمعية !

ولم يكن هؤلاء الناس سوى جماعة جلسو يتحدثون بصوت مرتفع وبصورة جادة . الناس يبحثون في موضوع حماية أنواع نادرة جداً من الضفادع والحشرات التي تعيش على أشجار جوز الهند ..

وفي يوم عدت إلى غرفتي فوجدت هذا الاجتماع قد زاد أفراده حتى بلغوا أكثر من عشرين رجلاً وعشرين سيدة .. وعلى صدورهم ورود ، وأمامهم أكواب من العصير ومن الماء . ورأيت لافتاً لم أتمكن من قراءتها بوضوح ولم تكن هناك خطب ولا كلمات وإنما بعض الموسيقى ..

وفي الصباح الباكر وجدت المناضد كما هي ، لم يتقدم أحد لي Rufعها من هذا المكان . ثم وجدت اسم الجمعية فعلاً . وعرفت أن موظفة الاستعلامات كانت في الواقع عضواً في هذه الجمعية .. فالجمعية اسمها « جمعية نادي المتفائلين »

وأصدقاء الطفل بمدينة هونولولو». اسم غريب جداً. جمعية المتفائلين .. وأصدقاء الطفل ، لابد أنهم أصدقاء أي طفل يولد في هذا العالم الذي نعيش فيه ..

وعلى الحائط وجدت الوصايا العشر للمتفائلين .. مطبوعة على ورق كبيرة. ومطبوعة على منشورات صغيرة .. . مطبوعة على علم الكبريت . ولا بد أنهم يتباخرون في توزيعها على أوسع نطاق كطبعها على أوراق العملة ، أو وضعها في ظهور الكتب المقدسة . ولكن اجتماعات المتفائلين هذه تطول جداً جداً . وربما كان هذا هو الدليل الوحيد على أنهم متفائلين !

وقد لاحظت أنهم وهم يبحثون نصائحهم العشر هذه ، جادون جداً ، وعلى وجوههم كآبة وربما حزن يجعلك تقطع بأنهم متشائمون .. ولكن طبيعة التفكير هكذا .. فالتفكير مسألة جادة !

وأعتقد أنهم لم يفكروا أبداً في نشر تعاليمهم هذه في بلادنا .. ولكنني أطوع فأقللها . وربما كان انتصاراً لفكرتهم ، وليس مهماً أن يكون انتصاراً أو إنكساراً ولكنها أعتبرتني .

أولاً : يجب أن تكون قوية ، وأن تشعر بأنك قوي ، أقوى من أية فكرة تزعزع ثقتك في نفسك .

ثانياً : يجب أن يجعل كلامك دائماً عن الصحة والسعادة والنجاح وعن نجاحك ، وعن نجاح كل إنسان أيضاً .

ثالثاً : يجب أن يجعل كل صديق لك يشعر أن فيه شيئاً ممتازاً ، شيئاً يسره هو .

رابعاً : يجب أن تنظر إلى الجانب المشرق من الحياة ، وأن تعمل على تحقيق كل آمالك ، وأنت على يقين من أنها ستتحقق بشكل ما .

خامساً : لا تفكر إلا فيما هو أبسط وأسهل ، ولا تتوقع إلا ما هو أحسن .

سادساً : يجب أن تكون جاداً متھمساً بالنسبة لنجاح الآخرين ، بنفس الدرجة التي تتحمّس بها لنجاحك أنت .

سابعاً : حاول أن تنسى دائماً أخطاء الماضي ، وأن تتجه إلى المستقبل دائماً

ثامناً : يجب أن تكون بشوش الوجه وأن تبتسم لكل إنسان تراه ..

تاسعاً : يجب أن تقضي أطول وقت ممكن في تحسين نفسك وبذلك لا يتسع وقتك لفقد غيرك من الناس .

عاشرأ : لا تأسف على مغافات . ولكن أقوى من غضبك . ولكن أقوى من أسفك وأقوى من الاستسلام للتعب فسيكون لديك وقت دائماً لشيء جديد .

وقد علمت أن هذا الاجتماع هو الثامن والثلاثون في مدينة هونولولو ، ولما سألت عن نتائج هذه الجمعية . علمت أنه لا نتائج ولكن هناك شعور عام بين الأعضاء وأصدقاء الأعضاء بأن الحياة تستأهل أن نعيشها وأن الصعوبات يمكن أن تخططها وأن الحياة أقوى من الموت وأن الإنسان يجب أن يشعر أنه حي ، رغم أن الموت يمضي في اختصار أسنانه وضوء عينيه ويرخي عضلاته ويفرغ جيوبه ويباعد بينه وبين الناس .. حتى هذا يجب أن نراه إجراء عادياً.. يجب أن ننظر إلى الحياة على أنها مثل مساكن ظريف لطيف كان يسكن عندنا وبدأ يعزل ولكنه لم يأخذ من عزالة إلا القليل .. أما الكثير فقد أخذناه نحن .. لقد دفع الكثير وهو الآن يسكن بليمبار اسماً . . . !

والله كلام معقول !

• • •

حتى في جزر هاواي بعض الضوضاء .

فيها صوت الأطباق والملاعق والسكاكين .. فيها صوت التوافد وهي تفتح وتنقل ، فيها أصوات الأطفال وهم يلعبون .. فيها صوت الموسيقى التي تتكرر كل يوم حتى مللناها . فيها ضوضاء طبعاً . هذه الضوضاء بالنسبة لمدينة القاهرة تعتبر لا شيء فيكفي ألا يكون هنا زماراة واحدة أو كلاكس واحد . وليس فيها واحدة تقول من أعلى السطوح : يا واد يا عبدة .. يا متليل على عينك تعال شيل أختك وهات لي بطيخة !

فما بالك بواشنطن أو موسكو أو باريس أو روما أو لندن أو حتى طوكيو.. كل العواصم مجونة ، فيها ضوضاء وفيها تراffic وتليفون وفيها سيارات وفيها زعيق .. كل هذا يحطم أعصاب الناس ويزل راحتهم .. ومن سوء حظ سكان المدن الصغيرة والقرى

أن الذين يحكمونهم يسكنون العاصم . . ولذلك فأعصابهم مضطربة وأحكامهم مهزوزة ، وهم أولاً وأخيراً بشر من لحم ودم مربوط بخيوط معقدة اسمها الأعصاب وهذه الأعصاب هي الخيوط التي تضم القلب والمعدة والكبد والكلوي والعقل وتهزها معاف في وقت واحد . . فالذى يصيب العقل يربك القلب ويربك الكبد ويملاً المعدة بالأحماض . . والأحماض تحطم الأعصاب والأعصاب تربك العقل والقلب وهكذا . .

ولذلك يجب على الشعوب أن تطالب زعماءها بأن يستريحوا . . بأن يذهبوا إلى الريف إلى شواطئ البحار . . بأن يبعدوا عن الناس بعض الوقت . . وليس هذا بعد عن الناس هرباً من المسؤولية . . ولا هرباً من الناس وليس رفاهية ، وإنما هي ضرورة عقلية ، ضرورة معاوية ، ضرورة كبدية قلبية مصارينية . ضرورة . . إننا نطلب من الركاب ألا يتخدثوا إلى سائق الأتوبيس . . وبعض البلاد كانجلترا تزيل المقاعد المجاورة لسائق التاكسي حتى لا يجلس أحد إلى جواره ، ويحدثه ويشغله عن النظر إلى الطريق ، حتى لا يدوس أحدها أو حتى لا يعطّل المرور .. سائق التاكسي وسائق الأتوبيس وهذا النوع من القيادة هو أبسط أنواع القيادة .. فما بالك بالذين يقودون الشعوب . . يقودون ملايين التاكسيات الحية في سكل دبلوماسية وسياسية واقتصادية وعسكرية . .

هذا السائق الجماهيري يجب أن يستريح بعض الوقت .. يجب أن تزعز الكرسي المجاور له ويجب أن تخلي له السيارات من الركاب . . يجب أن يكون له مكان يستريح فيه بعض الوقت .. كلما أحس بإرهاق يجب أن تطلب إليه أن يستريح ، أن يهدأ حتى ثبت يده وحتى تصبح الروية واضحة أمامه وتصبح الأصوات صافية في أذنه .. وكلما سمعت أن رئيس الولايات المتحدة قد ترك عاصمة بلاده ليلعب الجولف اندهشت لحظة . . وبعد ذلك أرى أنه على حق فأعباؤه ثقيلة ويجب بين الحين والحين أن يريح كفه بالطريقة التي تريحه ..

وكلما سمعت أن رئيس وزراء روسيا ذهب إلى أقصى جنوب الاتحاد السوفييتي ليستجم أرى أن هذا من حظ شعب الاتحاد السوفييتي والشعوب الأخرى .

وكلما سمعت أن مواطني تونج كان يذهب إلى بيته الريفي وينظم الشعر

ويستمع إلى بعض الموسيقى والأغاني أحسست بشئ من الارتياب ..
وكلما سمعت أن رئيس وزراء الهند كان يذهب إلى شمال بلاده ويعطى لنفسه
إجازة أسبوعين أحسست أن راحة نهرو هي واجب قومي ، هي ضرورة يجيء
يلجأ إليها وأن يطالبه الشعب بها .

وعندما ذهب ويلسون رئيس وزراء بريطانيا إلى الريف ورفض أن يتصل
به أي أحد ، لا الصحفيون ولاأعضاء الحزب احترموا شعوره واحترموا حقه
في الراحة . لأن راحته ليست راحة شخصية ولكنها راحة قومية ، راحة وطنية ،
راحة دولية ..

فالزعيم أى زعم ليس شخصاً فقط ولكنه : شعب ورأي و موقف و عامل من
عوامل التاريخ أيضاً ..

والناس أيضاً في حاجة إلى هذه الراحة .. فإذا استراح الرعامة استراح الناس !
ولو تحولت مقاعد الأمم المتحدة إلى مقاعد طويلة بدلاً من أن يجلس فيها
الأعضاء « على حيلهم » ثم راحوا يتعددون ويسترخون وتصبح أصواتهم كأصوات
شهرزاده في ألف ليلة وليلة وهي تقول : مولاي – فإن هؤلاء الناس لا يمكن
أن تصدر عنهم أحكام عنيفة أو أحكام شديدة .. لأنه يكفي أن يتذبذب واحد منهم
ليكتب النوم على الباقيين ..

والرجل النائم لا يقتل ولا يذبح ولا يتآمر .. إنه يريد أن ينام وأن يحلم ..
والناس في هذا الزمان ليسوا في حاجة إلا لشيء واحد هو : الكثير من النوم ..
الكثير من الراحة ..

يجب أن يضيقو اشبر آف كل مقعد وأن يجعلوا ظهر الكرسي متراجعاً إلى الوراء
قليلاً .. بشرط أن نبدأ بالسائق .. بالقائد .. بالرجل الذي يملك مصير الملائكة .
يجب أن يستريح السائق .. فراحته تريح السيارة والركاب والسيارات الأخرى التي تنطلق
في شوارع الحياة .. والتاريخ !

● يَا آلَهَةَ الْبَرَكَيْنِ !

عندما ذهبت للفرجة على بركان جزيرة هاواي استرحت في بيت اسمه «بيت البركان» وصاحب البيت رجل يوناني عمره الآن أكثر من مائة سنة وهذا الرجل تنبأ بأن هذا البركان لن يسكت أبداً .. لأسباب علمية ولكن لأنه رأى في نومه صورة بيلة .. وبيلة هذه هي آلهة البراكين والنيران .. وبيلة هذه قالت له في المنام : سأكون هنا دائماً ..

هذا الرجل اليوناني يؤمن بهذه الآلهة إيماناً تاماً ، وقد أعلن في الراديو أنه يراها في نومه كثيراً وأحياناً في يقظته وأنه يحفظ بتمثال لها دائماً في غرفة نومه ..

أهو المثال الذي انطبعت صورته في عينيه؟ .. أهو البركان الذي هو مصدر حياة هذا الرجل ، فكل الناس الذين يقطعون مسافة ٢٠٠ كيلو من هونولولو إلى هذه الجزيرة يأكلون ويشربون وينامون في فنادقها الكثيرة .. أهو الوهم .. ؟ أهي الشيخخة .. ؟ أهي المفعة .. ؟ أهي الحماسة لهذه الجزيرة أو لهذا البركان؟ ..

وفي بيت البركان تباع قصة قصيرة لأديب أمريكي كamarck توين .. والقصة موضوعها : أن مارك توين عندما زار البركان سنة ١٨٦٦ أقام في بيت هذا الرجل اليوناني ورأى في نومه هذه الآلة بيلة ومشى وراءها من واد إلى واد ومن جبل إلى جبل ومن مغارة إلى مغارة ..

ويقول مارك توين أنه انزعج جداً فصحاً من نومه .. ثم نام بعد ذلك ..

فرأى في نومه نفس الحلم دون أن يتغير منظر واحد . . وازعج ولم يفك طويلا ثم عاوده النوم ورأى نفس الحلم .

ويقول أديب أمريكا إنه أحسن بأنه يجب أن يفكر في هذا الأمر وأن يتساءل من أين جاءت له هذه الأفكار؟ ولماذا جاءت أفكاره بشكل واحد؟ ومن الذي أدخل هذه الأفكار في رأسه وكأنه حريص على ثبتيها فيه؟ !

يقول مارك توين إنه لاشك أن الآلة بيلة هي التي وضعت هذه الأفكار كلها ، وأن الإنسان عندما ينام فإنه يكون خاضعاً لقوى غريبة لا يعرفها أبداً .. وأن الإنسان ليس له سلطان كبير على أحلامه . . فالآحلام عالم آخر وهذا العالم عقول وأرواح أخرى . . وفي الصباح نزل مارك توين إلى الوادي فإذا به يرى نفس الطرقات ونفس الأحجار ونفس المغارات . . ولم يجد الآلة « بيلة » .. ولكنه عندما عاد إلى غرفته لاحظ أن تمثال الآلة « بيلة » كان قريباً من فراشه طول الليل . .

وأشار مارك توين بأصبعه إلى التمثال وكأنه يقول : إذن هذا هو السبب !

* * *

وفي قصة لأديب إنجلترا كونان دويل يقول : إن رجلاً كان يحلم حلماً واحداً مدة طويلة .. وذهب إلى أحد الأطباء ثم إلى أحد رجال الدين . وكلهم لم يجدوا تفسيراً له . ولكن الرجل لاحظ تطوراً في أحلامه فقد أصبحت هذه الأحلام على هيئة سلسلة مرتبة الواحد بعد الآخر . . وكل هذه الأحلام تروي قصة أسرة كانت غيبة في هذه المنطقة واختفت معالمها ولم يعد أحد يعرف عنها شيئاً .

وكان هذا الرجل صاحب مكتبة يبيع فيها إلى جانب الكتب بعض اللوحات والمخطوطات القديمة . . وقد سمع بهذا الرجل أحد أساتذة الجامعة وسيم عن معرفته للتاريخ وذهب إليه الأستاذ وطلب إليه أن يعاونه في بعض التفاصيل وضحك صاحب المكتبة وقال للأستاذ :

- هذه الأسئلة تحتاج إلى أن أنام لها !

ولم يفهم الأستاذ الجامعي . . وفي اليوم التالي جاء إليه . . وجلس صاحب

المكتبة يروى له بعض الواقع التي أذهلت الأستاذ الجامعى . . فقد كان يظن أنه عندما وصل إلى الحقائق التاريخية كان هو أول من وصل إليها . .

وأتهم صاحب المكتبة بأنه يخفي بعض المخطوطات النادرة التي يجب نشرها على الناس جميعا .

ولكن كونان دويل يختم القصة بأن صاحب المكتبة لا يعرف شيئا إلا من أحلامه ، وأنه يحتفظ بکوب نادر يشرب فيه عيد هذه الأسرة التي اندثرت كلها . . وهذا الكوب موجود في غرفته دائمًا .

إذن هو الكوب الذي يعكس تاريخه على الأحلام . .

وكما أن كل شيء في الدنيا له إشعاع من نوع خاص . . إشعاع حراري أو عطري أو نفساني . . فهذا الكوب له إشعاع تاريخي .

وأدباء آخرون مثل الكاتب الأمريكي هرمان ملفيل والكاتب الإنجليزي روبرت لويس استفنسون لم قصص من هذا النوع عن السحر في هذه البلاد . .

• • •

وكميرا من الأشياء التي نحفظ بها أو نراها كثيراً أو نهتم بها أو تخاف عليها أو تخفيها يتعدد في أحلامنا بشكل ما .

وفي اليابان يبيعون بطاقات مطبوعة قبيل رأس السنة . هذه البطاقات مطبوع عليها أبيات من الشعر . . وهذه الأبيات تتحدث عن السعادة وعن الحظ . .

فهذه البطاقة تشبه النشافة التي تنتص الأحداث السيئة في السنة القادمة . .

وهذه الأبيات مكتوبة بصورة يمكن قراءتها من الطرفين أي من العين ومن الشهال . . مثل الكلمة : توت . . أو خوخ . . أو مثل هذه العبارة كلها : قلم مركب يبكر معلق . . أو كبيت الشعر المعروف الذي يمكن قراءته من الطرفين .

مودته تدوم لكل هول : وهل كل مودته تدوم .

فهذا البيت يمكن أن تقرأه من الناحيتين دون أي تغير . . ويروى اليابانيون أن هذه الأبيات هي المصفاة التي تحجز متاعينا وتسمح بالحوادث السعيدة أن تتوزع على السنة القادمة .

وعند اليابانيين اعتقاد آخر هو أن النائم إذا وضع تحت رأسه صورة لحيوان

غريب اسمه « با كرو » فإن با كرو هذا هو القطب وأحلامنا هي الفزان . وباكرو يتضمنها الواحد بعد الآخر .. فإذا نهضنا من النوم لا نتذكر أننا حلمنا بشيء مع أننا قد حلمنا بأشياء مزعجة جداً .. هذه الأحلام كلها قد استقرت في جوف با كرو !

وتحتنيت أن أصدق هذا ولذلك وضعت تحت رأسي صورة تحتها عبارة كل سنة جديدة وأنا طيب .. !

وأنتم طيبون .. وأنصحكم بأن تضعوا هذه العبارة تحت المذكرة فاما أن تتحول إلى أحلام سعيدة وإما أن تأكل أحلامكم السعيدة .. وكل واحد وبناته ! . أما أنا فقد قضت على أحلامي لأنها حرمتني من النوم نهائياً .. !

• • •

الاستعداد هنا لرأس السنة أو عيد الميلاد على أشده .. على الآخر في كل مكان .. في طوكيو .. رأيت مصلحة البريد تنبه الناس إلى أن يرسلوا بيارسال بطاقات المعايدة قبل موعدها ، لأن هذا يخفف الضغط على مصلحة البريد ، ولكن المعابدات اليابانية جميلة .. أشكال وألوان وأحجام تبدأ من مجرد البطاقة إلى البطاقة البارزة ، إلى التماثيل الصغيرة المصنوعة من الورق ، ويمكن وصوها على أثر إرسالها مباشرة .. وهناك خطابات لها رواج فبمجرد أن تفتح الخطاب يتطاير العطر إلى أنفك .. وليس لديهم هنا أية ألعاب مؤذية كالبسكوت أبو شطة والشيكولاتة أم ظللط ولا الروائح المسيلة للدموع .. التي نعتاد أن نلعب بها في الأعياد !

وهنا أيضاً في هونولولو أرى الاستعداد لرأس السنة في كل مكان .. والأمريكان يجعلون من هذه المناسبة التجدد صوراً من النكت والمرح وأحياناً يطبعون بعض الصور العارية الفصاحكة أيضاً ..

وأغرب ما وجدت هنا مجموعة من الشهادات المطبوعة .. وهذه الشهادات تشبه الشهادات الجامعية ملونة ومزروقة ومكتوب بخط أنيق جداً .. ولكن هذه الشهادات تتحدث عن أشياء أخرى غريبة .. عن الجنون والعقل والاقتصاد والزيارات المفاجئة ..

وأنا أنقل هنا بعضها على سبيل الفكاهة . . أو فكرة يمكن استغلالها في مثل هذه المناسبات :

« جواز سفر إلى القمر . . فرصة نادرة ولا يمكن أن تحدث لمن هو ألطف منك . .

« لما كان حضرتك هو الرجل الوحيد الذي اختاره أعز أصدقائه ، ولم يجدوا من هو أفضل منه لكي يبعثوا به إلى القمر فإننا نحب أن تنبه سكان الفضاء والكواكب الأخرى إلى أن المذكور عاليه ، ليس إلا عينة علمية فقط .. وأنه لم يسافر إلا لغرض علمي . . وأنه لا يمثل سكان الأرض في شيء . . وأنه من النوع الذي يمكن الاستغناء عنه . . وعلى سكان الفضاء ألا يقرضوه أي مبلغ من المال وألا يصدقو أي قصة يرويها وألا يسمحوا له بأن يجلس إلى أية فتاة مهما كانت .

« ملحوظة : هذا الجواز للذهاب فقط ! »

وهذه الشهادة عليها صورة مزعجة للمسافر وحول هذا الجواز بروايات مكتوب عليه عشرات المرات كلمة : « بيب .. بيب .. إلى غير عودة ! »

وهذه « وثيقة زواج » تقول :

« وثيقة زواج . . لما كان من الخبرات المنتشرة أنه من الأرجح للإنسان أن يعيش متزوجاً على أن يعيش عازباً فإن المذكور . . والمذكورة . . من حقهما الآن أن يرتكبا الزواج بالشروط التالية : فالزوج - وهو ما يعرف عادة باسم مصاص الدماء - يوافق على أن يعطي الزوجة - وهي ماتعرف باسم سيدة البيت - كل ما لديه من أموال وشيكات كسبها في البوكر أو في سباق الخيل . . وأن تفرغ جيوبه من كل أرقام التليفونات ، وأن تهـي السكن اللازم لكل إخوانها المعطلين بما في ذلك النوم والإقامة ومصاريف الملبس والعلاج والأقارب أيضاً . . وأن تقول له : نعم يا روسى (عندما يتشارحان) وأن تضع قدميهما الباردين على ظهره العاري في الليل . . خصوصاً ليالي الشتاء . . وفي مقابل ذلك يجب أن تهيـ الزوج مصروف البيرة ووجبة واحدة ساخنة ولومرة كل سنة .. وكل ماتراه هي يتناسب مع وضعها في البيت كزوجة .. »

هذه الوثيقة محاطة . . بسلسلة طويلة جداً طرفها الأول دبلة الزواج ، والطرف الآخر كرمة من الحديد .

وهذه شهادة ميلاد :

« ليكن معلوماً أن « فلاناً » عندما لاحظ أن هذه الفتاة تجبيط فستاناً صغيراً ولاحظ أنها عندما تعود إلى البيت تكون محملة بهذا ياصغيرة ولقائف وأحذية وقبعات . كلها صغيرة . . وأن وجهها يصفر في كل مرة ترى فيها أكواب القهوة أو أطباق البيض في الصباح . . وأنها تهض في الساعة الثانية صباحاً وتطلب أنواعاً غريبة جداً من الأطعمة ، ثم إنها أخبرت المذكور أعلاه أن الدكتور في طريقه إلى البيت وأن هذه نصيحة أمها . . وأن الدكتور سيقدم له فاتورة طويلة عريضة عن الأدوية والخدمات التي ستؤدي لها في المستشفى ، لهذا قد حررت له هذه الشهادة بناء على طلبه ، ليكون معلوماً أنه أب وأنه يتوقع مولوداً من وقت لآخر وأن من حقه الآن أن ينظر إلى المستقبل بعين قريرة ، وبعد اليوم يجب أن يدخن علبة سيجائر كل شهر ، وأن يكف عن تناول قدح البيرة التي كان يتناولها مارة كل أسبوع وأن يبحث عن خادمة ومربيه ، وأن يفتح أذنيه لنصائح الآخرين الذين فوجئوا بعد من الأولاد . من الغريب أن بينهم وبين آباءهم شبه كبيراً » .

• • •

وشهادة الميلاد هذه محاطة ببرواز عليه أطفال كثيرون كلهم بيزازة ولم أرقام ، وكلهم ي يكون وزجاجة اللبن في أيديهم .

• • •

وهذه رخصة لمن يجلسون في المقعد الخلفي من السيارة هذا نصها : « بما أن فلاناً قضى مدة طويلة في ركوب سيارات التاكسي والشuttle على بعض سيارات النقل والقطارات دون أن تسجل ضده أية حوادث ، فهو لذلك يعتبر نفسه مستشاراً وإخصائياً لكل من يريد أن يقود طيارة ، وهو يجلس في المقعد الخلفي . ولذلك نشهد بأن المذكور أعلاه مفوض تماماً أن ينصح كل سائق سيارة تاكسي أو سيارة أخرى يركب فيها في الشوارع الداخلية للمدينة أو الطرق الزراعية تنطلق بسرعة أو في غاية المدوء . . وأن ينبه السائق قبل وقوع حادث التصادم .. وأن ينبه إلى إشارات المرور ، وأن يعلن بالنيابة عنه كل السائقين الآخرين في

السيارات المجاورة . وأن يشتبك باليد أو بالرجل أو باللسان في أية معركة يقتضيها الموقف ، على أن يختار الكلمة النافية وأماكن الإصابة للمذكور أعلاه . ومن حقه أيضاً أن يتولى التعبير عن السائق في حالات الموت أو القلق أو الفزع أو الانعما .. والمذكور أعلاه من حقه أن يرتدي القبعة التي يرتديها وبالحجم الذي يرتديه وليسمهما أن يرى السائق من النافذة الخلفية . فهذا المستشار سيغيبه عن ذلك .. ويجب على السائق أن يعتمد عليه اعتقاداً تاماً » .

وحول هذه الرخصة برواز به عبارة : اتبه فهناك سيارات اصطدمنا بها من الخلف .. وعبارة أخرى : اتبه .. فهنا رائحة شياط في السيارة المجاورة وربما انقلت إلينا . حاسب هل تريد أن تقتلني أنا وزوجي ؟ .. قف هنا أريد أن أرى شيئاً في القرية » .

وشهادات لتطليق الزوجة بعد زواجهما بساعة ، وأخرى للتخلص من حماتك عن بعد .

وشهادةأخيرة للضحك على الناس بترجمة هذا الكلام إلى اللغة العربية !

٠ ٠ ٠

واشتريت مجموعة من بطاقات الأعياد ..

وأرسلتها إلى عدد كبير من الأصدقاء ، والحقيقة أنه لم يكن الدافع هو أن أعيد عليهم .. بقدر أن أبين لهم أين أنا من العالم .. أريد أن أخبرهم أنني في جزر هاواي ..

في هذه الجنة المنعزلة تماماً عن الدنيا .. إنها تبعد عن أقرب ميناء في أمريكا ٢٥٠٠ ميل .. وتبعده عن أقرب جزيرة مثل ساموا حوالي ٢٥٠٠ ميل ..

حتى الذين لم تكن لي بهم أية صلة أرسلت لهم بطاقات ، ولا أعرف هل وصلتهم أم احتفظ بها ساعي البريد .. ولو كنت ساعياً للبريد لاحتفظت بها . فالبطاقات عبارة على لوحات جميلة ، ثم إن العبارات التي كتبتها لأصدقائي لم تكن جميلة ، وإنما هي أقرب إلى الشتيمة . ولا أفهم لماذا تطفو على نفس الإنسان بهذه العبارات النافية وهو سعيد ؟ .

لماذا لا أبعث لهم بهذه العبارات : أنا في الجنة والعاقبة عندكم .. بدلاً

من أأن أقول : أنا هنا في الجنة وانت واقفون على الأرصفة في القاهرة والإسكندرية
والمصورة وطنطا ..

فبدلا من أن يقولوا : والله فيه الخير .. ربنا يرجعه بالسلامة .. فلهم
يقولون : إنه يغيطنا إياك تقع به الطيارة !

والله يعلم أنني ضيعت مبلغا من المال في هذه البطاقات التي تبدأ عادة بكلمة
كل سنة وأنت طيب وتنهى عادة بما معناه الله يخرب بيتك .. !

حدث أنس شيء غريب ..

تعرفت على اثنين من الأمريكان . وليس أسهل من أن تعرف أي أمريكي
أو يعرفك هو . فهو يبتسم لك ويدخل معك في موضوع يدهشك .. فهو يحدسك
عن نفسه وعن الفلوس التي في جيئه وعن الكلام الذي دار بينه وبين زوجته ..
وماذا قال لها وقالت له .. وقبل أن تستوضحه عن اسمه يكون قد انقلب إلى أبنائه .
و قبل أن تتأكد أنه رجل عاقل وليس مجنوناً يكون قد دخل في السياسة ولعن آباء
روسيا والصين وأبدى خوفه من اليابان .. وإذا كان متفقاً جداً فإنه يتحدث عن
عمر الخيام دون أن يعرف أنه إيراني وليس مصرياً . وإذا كان من علماء الجبلوجيا
فسيسألك إذا كان الهرم الأكبر مصنوعاً من الطوب الأحمر أو من الجير وإن
كانت له نوافذ قبلية أو بحرية . وتأكد أن أي كلام ستقوله له بلهجة جادة
سيصدقه ، ولكن تكون جاداً يحسن بك أن تكتسر وأن تنظر إلى الأرض مرة
غير مهم أن تفتح عينيك – وإلى السماء مرة .. وإذا تصادف مرور ذبابة فافتتح
ها عينيك ، لعلها تلمسها فتحمر ، وهنا يجب أن تنتهز هافرصة وتبكي على الأموال
التي أضعتها في البحث بنفسك عن كل شيء .. أو كد لك أن هذا الأمريكي
سيجمع لك الناس ويدعو إلى مذهبك الجديد في الفلسفة !

وشيء من هذا قد حدث لذين الأمريكان ..

فهم يسكنان في بيت .. والبيت تملكه سيدة عجوز ، وهي عجوز جداً
جداً .. – هذارأيهما – فعندما حوالى سبعين سنة .. هذانالأمريكيان في الخامسة
والعشرين من العمر ! وهذه السيدة تعرف تاريخ جزر هاواي وتاريخ الجزر
المرجانية الصغيرة المجاورة لها ..

وصم هذان الشابان على أن أذهب لرؤية هذه الوثيقة التاريخية الحية . هل أقول لهم إن أى ثأر تاريخي عمره سبعون سنة ، لا يلتفت نظرنا نحن الذين بنينا الأهرام من ألف السنين .. الحقيقة لم أكفهمها وقلت : يا واد .. دول أغنياء حرب وليس لهم تاريخ .. وليس لهم أصل .. إنهم أبناء المهاجرين من كل الشعوب الأوربية وغيرها .. .

وذهبت إلى بيت السيدة العجوز ..

السيدة عمياء .. وسعيدة بأن الأميركيكان قد أوجدوا لها هذا العمل .. بأن يسألوها في سذاجة ، وترد عليهم في سذاجة أيضاً ..
وكلما سألاها سؤالاً باخْتَار ، نظراً ناحيتي .. لكن أتبه جداً إلى الجواب ..
ويجيء الجواب لا معنى له ..

وحاولت أن أجعل هذه السيدة أى معنى ..

فسألتها : هل رأيت آلة البراكين ؟

وأنا أنزعت جداً . وصرخت : لاتسألني هكذا .. من أنت .. أخرج ..
خربت بيتي .. لقد مات زوجي .. ومات ابني .. وفقدت نظري .. أخرج ..
اللعنة عليك وعلى الذين أتوا بك .. أخرجوا يا أولاد .. (وهنا ذكرت أسماء بعض
الحيوانات المحلية) .

وكانت مفاجأة هذين الأميركيكيين أيضاً ..

فقد تقدمت ثلاثة خادمات ، كن واقفات عن قرب .. ودفعتنا جميعاً
إلى الشارع دون اعتذار .. وانغلق الباب ورحن يلقين بالکولونيا على وجه العجوز
ولم تنطق بكلمة واحدة ..

وقررنا في الطريق أن نسأل أحد العلماء الأميركيكان الموجودين في المدينة ..
والعلماء الأميركيكان كثيرون في كل مكان . إنك تجدهم بين الجرسونات والمضيقات
 فلا أحد يعرف بالضبط من هو العالم .. ومن ليس عالماً . ليس من الضروري
أن يكون قد وضع منظاراً على عينيه .. ولا أعرف كيف اهتمى هذان الشابان
إلى وجود أحد العلماء من أبناء الجزيرة ..

ووجدناه صاحب أحد محلات بيع الأسطوانات ، سأله ، وروى لناقصة هذه

السيدة . وعرفنا أنها من الذين يؤمنون بتحضير الأرواح والاتصال بالشياطين .. وأنها صحبة لهذا السحر الأسود .. وأنها ليست مؤمنة بأى دين . ثم لفت نظرنا إلى لوحات وتماثيل موجودة في بيتها .. وكلها لآلهة البراكين والزلزال وألهة البحر ..

وأنها كانت سبباً في القضاء على عائلات كاملة .. وأنها كانت من أجمل نساء هاواي لولا هذه الخرافات التي آمنت بها ..

ودعانا إلى بيته لنرى بعض اللوحات التي رسمها فنانون عالميون لهذه القصص الخرافية ..

واعتذرنا . . .

وعدت إلى غرفتي . وكانت الساعة متأخرة جداً ..

ومع كوب اللبن ابتلعت قرصين من الحبوب المنومة .. ونظرت إلى نفسي في المرأة وقلت : كل كريسماس وأنت طيب ..

ووضعت تحت مخدتي ورقة مكتوباً عليها هذه العبارة - تمشياً مع التقاليد اليابانية - كل سنة وانت في هاواي !

وفي الصباح أحست أنني مكسر .. وعرفت أن العفاريت وألهة البراكين قد اخترقوا الستار النومي الذي نصبه حول أحلامي .. وأن هذه العفاريت قد تسللت إلى أحلامي ونسجتها على طريقتها .. كأن النوم خيوط من حرير ، وجاءت هذه العفاريت وبطريقة شيطانية حولت هذه الخيوط إلى تيجان من الشوك الناعم .. ظللت أقلب عليها طول الليل .. وكلما صحوت تقدمت هذه السيدة العجوز تحشرني في البيجاما من جديد ..

وعرفت العفاريت طريقتها إلى فراشي !

وهذا هو جزاء من يمشي وراء العيال الأميركيكان !

● دروس من هنا

قبل أن أغادر القارة الآسيوية أرجوك أن تعطيني فرصة لكي أ الفلسف شوية !

• • •

هنا أعظم مساحة من الغابات التي رأيتها في حياتي . رأيت الغابات في ألمانيا وسويسرا وإنفاسا وفرنسا وإيطاليا واليونان والسويد .. ولكن غابات آسيا أغنى وأوسع . في كل مكان أجلس فيه أرى أمامي غابة .. بل إنني رأيت حيوانات الغابة تتسلق بالألف كأن الدنيا لم تتغير حولها .. رأيت النمور والفيلة في منطقة كاتاكى في جنوب الهند ..

• • •

وعرفت أن الشجرة الواحدة لا تكون غابة ، والببيضة الواحدة لا تكون عجة ، والريشة الواحدة لا تكون عصفوراً والأصبع الواحدة لا تكون يداً ..

وعرفت أن مجموعة من الأشجار إذا انتظمت تكون حديقة ، وإذا لم تنتظم فإنها تكون غابة .. فالغابة هي جماهير من الأشجار ، ومظاهرات من الطيور ، وحشود من الفار ..

وجماهير الأشجار لها قوة عجيبة ، ولا يمكن أن يغلبها إلا العقل .. إلا النظام والتفكير ..

فهمـا كانت جماهير الأشجار والحيوانات قوية ، فإن تفكير العقلاء أقوى ..

ورأيت أشجاراً كثيرة ملتوية الساقان .. وعرفت السبب .. فالأشجار كلها تنسابق نحو الشمس .. فرأيت أشجار المانجو تخفي الشمس عن أشجار جوز الهند .. ولكن هذه الأشجار تلتوي وتتلوي وتحفادي أشجار المانجو وبعد ذلك تصل إلى الشمس .. تصل إلى النور والحياة ..

وكنت إذا رأيت شجرة ملتوية عرفت أنها عندما كانت صغيرة حرمتهأشجرة كبيرة من الحياة فانخرفت والتوت ..

فلا تزال الحياة أقوى من الاعتدال والاستقامة ولا تزال الحياة غاية .. وكل شيء من أجلها وسيلة ..

والجوع إلى الشمس ، إلى النور ، مثل الجوع إلى الطعام كافر بكل دين !

• • •

ورأيت الثمار في هذه المناطق الحارة تنمو بسرعة وبكثرة .. فالحرارة شديدة والأمطار غزيرة دائمة .. وإذا لم يكن هناك مطر فهناك رطوبة كثيفة في الجو .. فاهواء بخار ساخن دائماً .. وهذا البخار الساخن هو الذي ينفع في الجنور فتفقد من الأرض ، ومن الأرض إلى الجو ، وتتدخل منها ثمار صغيرة لاتثبت أن تكبر وتنتفخ بسرعة عجيبة ..

فهذه البلاد غنية بالفواكه ..

ولكن هذه السرعة في النمو ، حرمت هذه الثمار من الطعم الحلو وحرمتها من الغذاء .. إن الثمار هنا كالطفل الذي نقطعه أمه بعد أيام من ولادته ، فالطفل يكبر في السن ولكنه ضعيف تقصصه الفيتامينات الضرورية للحياة ..

وعرفت أن النمو الشيطاني ، وأن الذي يكبر بسرعة ويعلو بسرعة إنما يكون على حساب حياته ، على حساب عناصر الحياة فيه ..

فالطبيعة تقدم الكم ولا تقدم الكيف ، فهو «كم» كبير و «كيف» ضعيف ولذلك جاء الرجل الأبيض وهو قليل العدد ولكن فيه عناصر الحياة والبقاء ، وظل الرجل الأصفر الكثير العدد تقصصه عناصر المقاومة فترة طويلة !

ورأيت في الهند دفاعاً حاراً عن الأفاغى لأنها تأكل القرآن التي تأكل
محصول الأرض والقمح ..

رأيت الناس يختارون أيهما هو الأقل ضرراً .

اختاروا التعبان لأنه أهون من انتشار القرآن وضياع المحصول .

ورأيت أن الأصل في كل شيء هو مدى ضرورته للإنسان فإذا كان
الشيء ضرورياً ، جاء الدين ووضع عليه تاج القدس !

• • •

ورأيت أندونيسيا المكونة من ثلاثة آلاف جزيرة .. بها مختلف اللغات
واللهجات وبها دين واحد هو الإسلام .. ولكن المسافة بين الجزر تقطعها الطائرة
في ساعات .. وبعضها غنى جداً في الثروات ، قليل جداً في العدد .. ولكن
هذه الجزر اتحدت ضد العدو الواحد وهو هولندا .. رغم الخلافات في الجنس
وفي اللغة وفي المكان ، ورغم المساحات المئوية بين الجزر ..

ولكن عندما يتهددهم خطر واحد .. يتحدون الناس لأنهم حررفسون على أنفسهم
وعلى مصالحهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية .. على مصالحهم الحيوية ..

وأيقنت أن اتحاد العرب ليس مستحيلاً بل ليس صعباً .. فاللغة تجمعنا
والأهداف تجمعنا .. والأرض متصلة بعضها ببعض .. والعدو واحد .. فتحن
نخاف من رؤوس الأموال اليهودية .. نخاف أن تحولنا إسرائيل إلى مستهلكين
لإنتاجها فقط .. نخاف أن نصبح دكاكين نبيع منتجات مصانع إسرائيل ..
نخاف أن نتحول إلى هنود حمر في بلادنا !

ولذلك ستحد اليوم أو غداً ، هذا الجيل أو الجيل القادم .. وختماً !

• • •

لقد استمر الرجل الأبيض هذه البلاد مئات السنين .. استمرها أيام
كانت الحياة مستحيلة . فلا بيوت ولا علاج ولا وسائل للراحة .. ولكن الرجل
الأبيض .. أصلاح الأرض ، وسوى الطريق ، وواجه الشمس ، وقاوم الحرارة
والمرض والجهل .. وعاش وحرص على البقاء مئات السنين .

كان الرجل الأبيض قادرًا على التكيف مع البيئة قادرًا على أن يعيش إلى

جوار البيئة وينحنى لها ليتحكم فيها بعد ذلك . . فيشق الجبل وينبى السقف
ويقيم المستشفى والمدرسة . .

فحنن - نساعور جالا - نجد صعوبة في الحياة في أى بلد آخر غير البلد
الذى ولدنا فيه ويجب أن نموت فيه . .

وهذه حقيقة مؤلمة يجب أن نواجهها بصورة جادة جدا .
فحنن نرى أن الحياة خارج القاهرة صعبة ونرى أن الحياة خارج بلادنا مستحبة
أيضا .

لأنى لا أستطيع أن أنسى خجل وأنا أسعى لنقل أحد رجال البوليس من
الجيزة إلى القاهرة . . لقد اضطررت تحت الحاجة شديدة أن أقابل أحد المسؤولين . .
واندهش المسؤول لهذا الطلب الغريب جدا . . إننا نظر إلى الموظف المقاول إلى
الصعيد على أنه مغضوب عليه !

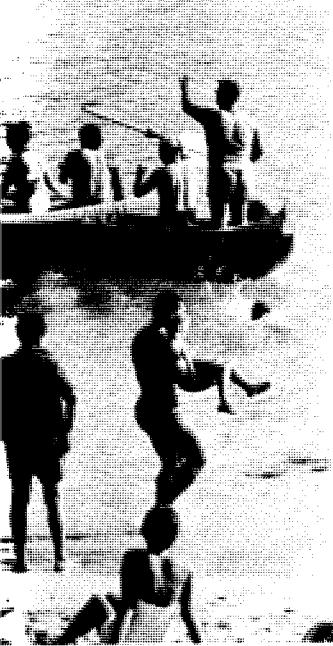
طبعاً هذا الموظف معدور ، فليس في الصعيد وسائل الراحة أو الترفيه التي
يمدها في القاهرة أو الإسكندرية . ولذلك يجب أن نعمل على توفير هذه الوسائل
في المدن الأخرى . . وأن نقلل من الإنفاق على القاهرة والإسكندرية وتزيين
المدن الأخرى لأن هناك قضية أخرى أهم ، وهى تخفيف الضغط على القاهرة
وتعويد الناس على الحياة بعيداً عن العاصمة تمهدأ لتعويدهم على الحياة خارج
بلادنا . .

ويجب أن نقلل بقدر الإمكان من المركبة الإدارية والصناعية والسياحية . .
ومن المؤكد أن بعد كهربة السد العالى ونشر المراكز الصناعية في أماكن مختلفة
من بلادنا ستنتقل المدرسة والمسرح والسوق والصحيفة إلى جوار المصانع . .
وفى كلمة أخرى اكتشفت أتنا «مدلوون» . . فليس في حياتنا بساطة وجلد .
وأنتا نشهى النباتات التي تنمو في بيوت الزجاج . . أو كالقمع الذى ينمو فى
أوراق النشاف . . فحنن نعيش فى ظروف واحدة لا تتغير وإلا فلا . . فى
العاصمة وإلا فلا .

والنتيجة . . طبعاً . . فلا .
كالسمك تماماً فى الماء وإلا فلا . . فلا نحن هاجرنا إلى أمريكا أو إلى آسيا

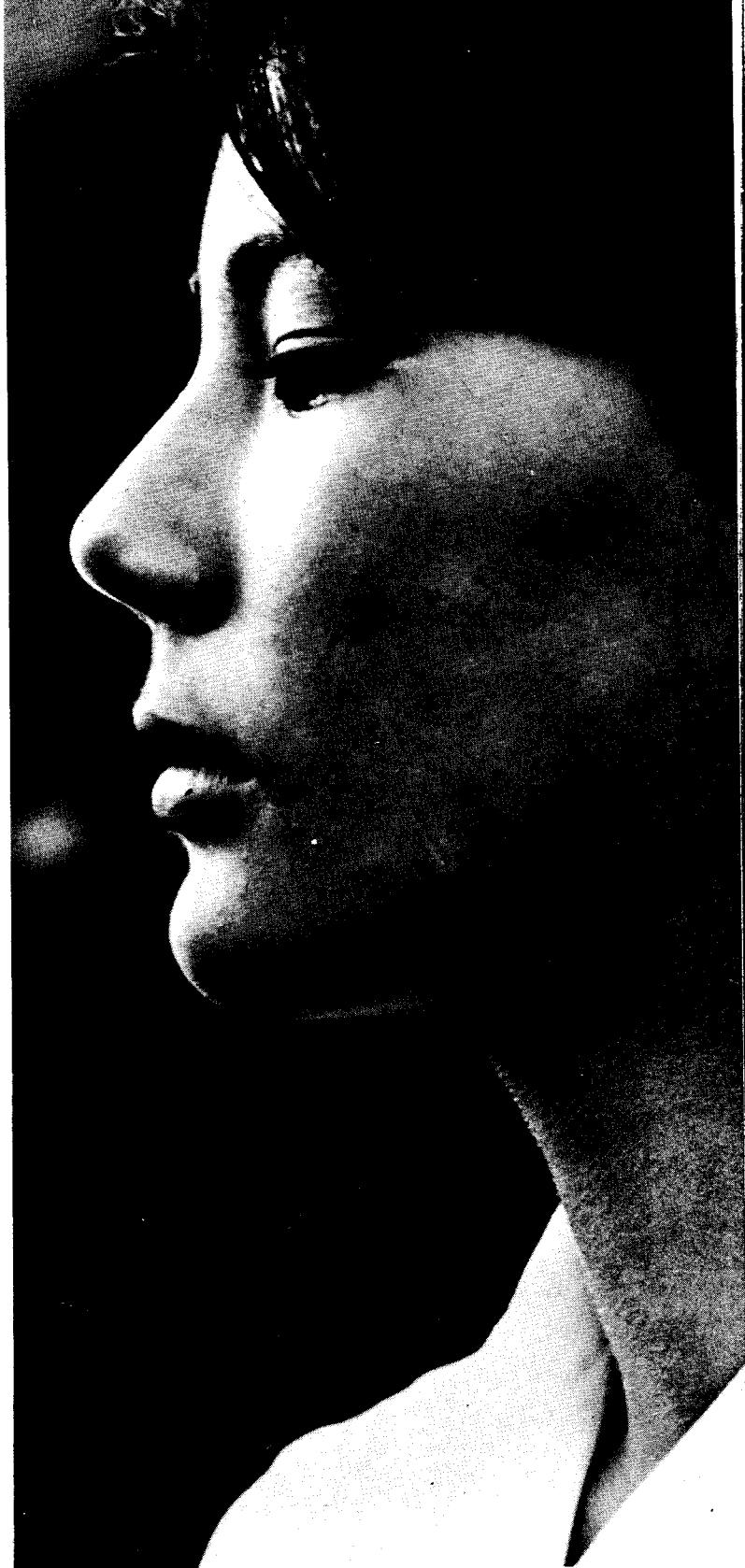


رائحة من هواى فى اسنه : السوق الدولى ..



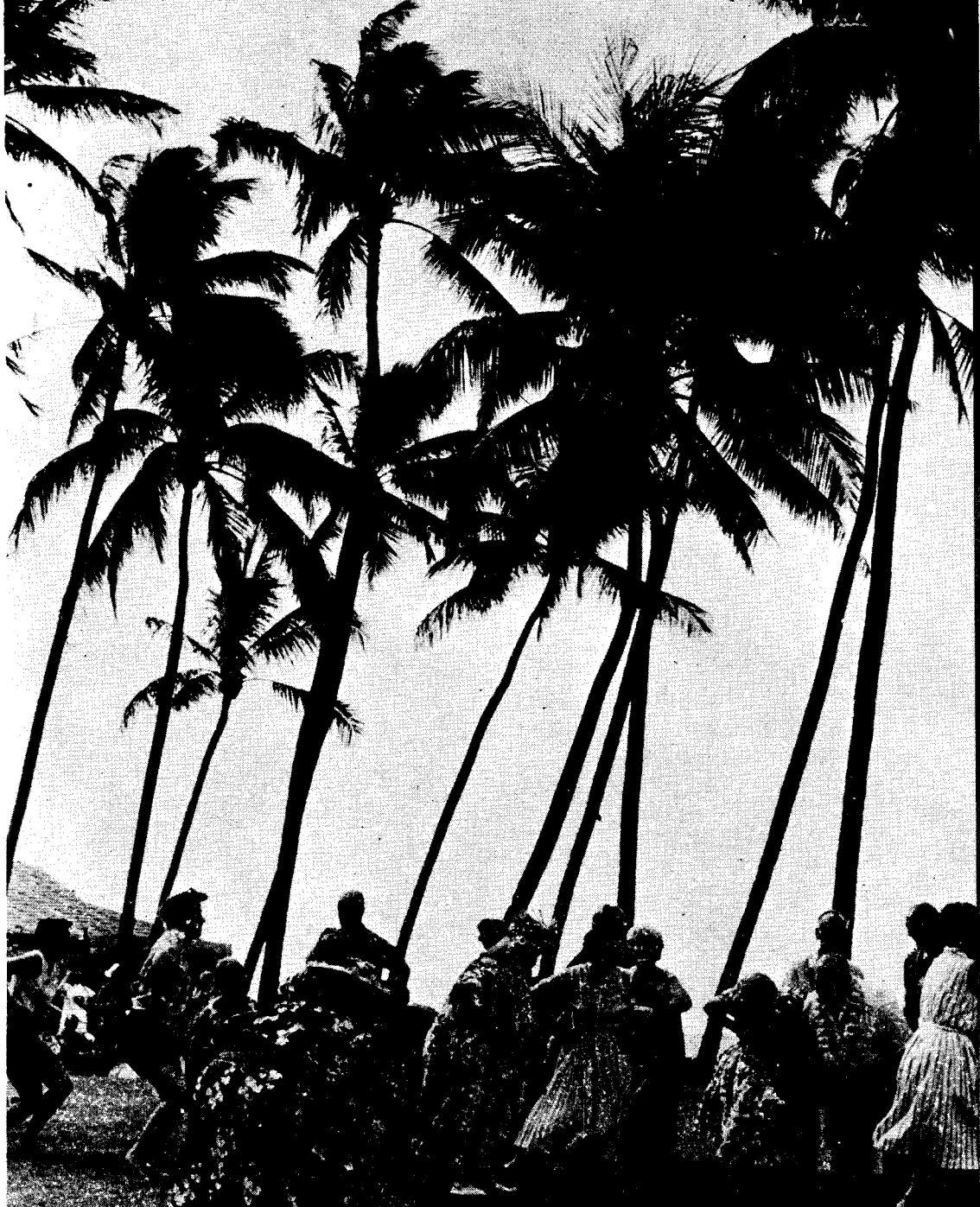
هذا الشهد أيضاً في المحيط
الحادي في جزء هاروي

هذا الوجه من جزء
هاروي : خليط من



رقصة المسولا . . وأنا
لا أظهر في هذه الصورة
فقد كنت أرقص بعيداً
عن عدسة الكاميرا . . .





كل هؤلاء أمريكان قادمون من طوكيو في طريقهم إلى
أمريكا متوفين في هونولولو من أجل الرقص والراحة
بعد ذلك . . وكل هذه الجلالib الريفية إحدى المؤشرات
في بجزر هاواي .

أو إلى أستراليا .. وإنما فقط عشنا في بلادنا ..!
وإن كانت الهجرة أصبحت في حلم الكثرين .. وأسعدت الكثرين بحياة
أفضل ..

* * *

وعرفت أن العرب الحضارمة هم أول من اكتشف أندونيسيا .. وأول من
نزل فيها .. وأول من نقل إليها الإسلام .. ولكن كانوا أول من ترك هذه البلاد ..
فلا يمضي يوم واحد لا تنقل فيه السفن مئات من الحضارمة عائدين إلى بلادهم ..
ومعهم جوزات سفر عربية أو بريطانية .

وعرفوا أن الصينيين هم آخر أقلية جاءت إلى هذه البلاد وسيكونون آخر
من يترك هذه البلاد ..

والحضارمة مغامرون أفراداً ..

والصينيون مغامرون جماعات ..

والحضارمة فيهم طبيعة السياح المهاوة وليست فيهم طبيعة التجار المحترفين .
وعرفت أنه ليس من المهم أن تكون أول من يعمل شيئاً وإنما المهم هو أن
تبقى وأن تستمر وأن تصبر .

والمثابرة تغلب الذكاء ، والصبر يغلب الحظ .. والعبرة دائماً بالنتيجة !

* * *

وعرفت أن الناس في هذه المنطقة من العالم لا يتبعجون أي شيء .. إن كل
شيء هنا يمشي على مهل .. لهم لا يخافون من شيء .. فالطعام معلق في الأشجار
والماء تحفظه السماء في خزانات من السحاب .. والحرارة ترميها الشمس بغير
حساب .. وإذا مات واحد منهم فهناك ملaiين ، وإذا عاش واحد فلن تضيق
به الأرض ..

وغداً تطلع الشمس ، وينزل المطر ، وتنمو الثمار .. وكل فصول السنة
حرارة وكل فصول السنة ممطرة .. ولا يوجد أي تغير ولا توجد أية مفاجأة ..
ملابس العام الماضي تصلح لهذا العام في كل الشهور وكل الأيام .. لا تغير ..
لا فصول .. لا مفاجآت .. فلا داعي الاستعجال ..

وأنت في هذه البلاد تشعر كأنك تفكك بعقلية الثوانى ، أما هم فيفكرون بعقلية عقرب الدقائق أو الساعات .. أو حتى بحركة الشمس .. إن الصبر استعاروه من الجبال ، والابتسام استعاروه من الضوء والزهور .. فالحياة ممكنة بمنطق آخر غير منطق بلادنا ، وفي ظروف أخرى أغرب وأدق من ظروف بلادنا .. ولا يمكن أن يسود الدنيا كلها فكر واحد وعقل واحد وزى واحد .. فالناس مختلفون كأشكالهم وألوانهم وطريقة تناولهم للطعام والشراب وتناظرهم للفكر والفن والحياة ..

وأنا لا أزعم أننى تعلمت منهم كل شيء .. لقد تعلمت الابتسام ولكن لم أتعلم الصبر .. ولذلك أسارع فأتهى هذه الملحوظة لأننى زهقت !

* * *

إن مستقبل العالم كله هنا في آسيا ..

هنا أكثر من نصف سكان العالم ولم يعد الرجل الأبيض خطراً على أحد .. لقد كان مستعمراً ثم خرج .. كان مصاصاً للدماء ثم طردوه .. ولكنه لايزال أقوى لأنه أكثر تطوراً وأنه لا يزال هو الذى ينتج ، ولا تزال هذه البلاد هي التي تسهل ذلك .. إنه هو الذى يعد الطعام وهو الذى ينصب المائدة وهو الذى يبعث بالسفرجية .. وهذه البلاد ما تزال هي الزبان ..

وللي أن يتتحول أهالى هذه البلاد إلى متجمدين فسيبقى الرجل الأبيض هو السيد وهو الأقوى ..

فالرجل الأبيض يتختبط في هذه المنطقة .. والحركات القومية هنا عنيفة وكلها مجموعة من الشلالات للرجل الأبيض ..

وإذا كان الرجل الأصفر خطراً على العالم .. فهناك رجل أكثر صفرة ، هذا الرجل الأكثر صفرة هو الرجل الصيني ..

الصين الشيوعية عددها ٨٠٠ مليون « ثمانى مئات من الملايين » يعملون كالممل في داخل الصين ، وفي خارج الصين أيضا .. إن التجارة والصناعة والمواصلات والبنوك كلها في أيدي الصينيين في كل هذه المنطقة ، بل إن الدول الغربية عندما تبعث بالبضائع إلى هذه البلاد فعن طريق التاجر الصيني .. أمريكا تبيع الطعام والشراب والملابس والآلات عن طريق الرجل الصيني ..

وهو صاحب رأس المال والمصانع والشركات والبنوك ووسائل المواصلات والصحف في معظم هذه المنطقة .. إنه يملك البيوت والأرض .. وعدد الصينيين لا يزيد على خمسة ملايين .

إن الرجل الصيني هو الذي يملك أرض وشواطئ وفنادق وبنوك سنغافورة . الرجل الصيني هو الذي يتحكم في جزر الفلبين وجزر هاواي وفي كمبوديا ولاؤس والهند الصينية وبورما .

إن الصين أقلية مالكة .. أقلية تجتمع في أيديها كل وسائل الثروة والإنتاج والاستهلاك والتوزيع .

والصيني يريد أن يدخل الجيش كأى مواطن أندونيسي .

ولكن ما زال الصيني هو الذي يبيع الأرز ويبيع الزيت والسكر ، والحكومة تتولى توزيع الأرز ، ولكن الذي يشتري الأرز هو الصيني والذي ينقل الأرز هو الصيني ، والذي يستطيع أن يوقف البيع والشراء هو الصيني . وكل السيارة في كل البنوك صينيون .

ويكفى أن ترى معرض الصناعات في جاكرتا لتجد أن ٩٥٪ من المعروضات من الأقمشة والمنسوجات والصناعات الجلدية والزجاجية وبيع السيارات والمشروبات كلها صينية !

والحزب الشيوعي يؤيد الصينيين الرأسماليين ..

والأنحراف الإسلامية تؤيد بقاء الصينيين ..

فالصينيون وراء كل حزب وكل صحيفة وكل جمعية .. ولم يفلح هذا الرجل الأصفر جداً في أن يدخل الهند ..

فالهنود عندهم من المسموم والزحام ما يجعل الحياة صعبة على أي صيني .. ولم يفلح هذا الرجل في أن يدخل اليابان فال موقف أصعب جداً ..

هناك عدد من الصينيين مسلمون .. ولم اسماء أندونيسية إسلامية مثل عبد الرحمن وأمين وحسني .. وتكون أسماؤهم هكذا : عبد الرحمن إونج تسن .. وحسن لي فو .. إلخ ..

وعلى الرغم من أن حكومة أندونيسيا استطاعت أن تجمع بين ثلاثة آلاف

جزيرة مختلفة اللغات إلا أنها لم تتمكن بعد من إدماج الصينيين في الحياة .

استمعت إلى عدد كبير جداً من الأغاني في هذا الجانب من العالم . . إنها تختلف جداً عن أغانينا . . ونحن لسنا أكثر شعوب العالم حباً للغناء أو الرقص أو الموسيقى . . إن الغناء والموسيقى والرقص هنا هي شيء هام جداً في أندونيسيا مثلاً . . بل إن الثقافة من أهم معانيها الموسيقى والرقص والغناء . .

ولم أصدق ما قاله لي الصديق عبد الحميد جودة السحار أنه عندما وصل مع وفد ثقافي إلى أندونيسيا سأله في المطار وأين الراقصات ؟ . . وقد ظننت أنها دعابة ولكنها حقيقة مائة في المائة لأن آسيا كلها بها راقصات شعبية لا تُحصى .. مئات . . ألف . . أو عشرات الآلاف بعدد الجزر . . وكل رقصة لها قصة ولها موقف ولها موسيقى .

وكل وفد ثقافي أندونيسي يضم أكثر من نصفه من الراقصات والموسيقى . والأغاني هنا ليست حزينة أو باكية لاطئة مثل أغانينا . . والكلام عن البكاء واللطم في أغانينا قد يُقال جدأً . .

ولكن الإحساس بالفرق بين الأغاني هنا والأغاني هناك هو الذي يجعلني أفكِر في هذه المشكلة أو هذه الأزمة من جديد .

وقد يقال إننا أكثر شعوب العالم حباً للغناء .

ولا أعتقد أن هذا صحيح . فهناك من يفوقنا بمرحل وهناك من يتذرون بالأغنية أكثر منا .

ولكن يمكن أن يقال إننا أكثر شعوب العالم تأثراً بالغناء ومن أكثر شعوب العالم ميلاً إلى كل ما هو خفيف في الثقافة ، إلى كل ما لا يحتاج إلى مجهد أو تعب أو عرق في الفهم أو في العمل أو حتى في التذوق .
ولا أعرف كيف أتناول هذه الأزمة .

هل هي أزمة المستمع الذي يطلب نوعاً معيناً من الكلام . . أو هي أزمة مؤلف الأغنية الذي لا يستطيع أن يخرج عن « عادة » تأليف الأغاني بهذه المعانٰي الحزنة . . أو هي رغبة الملحن في نوع معين من الكلام . .

وأنا لا أقول إن الملحن يجرى وراء الحن الرابع بل أطالب الملحن العربي بأن يلحق بالملحن الغربي وأن يرتبط به . . أن يرتبط بالعلم والحضارة .

ولا يمكن أن يكون الملحن العربي سارقاً للألحان الملحن الغربي إذا كانت أغانيها تقوم على أوزان التانجو والروomba والفالس .. لأن التانجو والروomba بالنسبة للموسيقى كالنسخ والرقعة والثلث بالنسبة للخط .. أو كالأقة والرطل والدرهم والكيلو بالنسبة للموازين ..

والثمة أن أضع هذه الأوزان أو هذه القوالب وأن أملأها بما أريد .. وليس في هذا سرقة وإنما هي محاولة «تعليم» -- أى جعلها علمية--للمعاني الموسيقية .. وأنا أطالب بهذا ولا أخاف منه .. وليس هذه هي السرقة .. إن النقل لابد منه في المرحلة التي لا يستطيع فيها ملحن واحد في بلدنا أن يكتب نوتة موسيقية !

ليس الملحن مشكلة .. والحزن والأسى والبكاء ليست مشكلة طبعاً .. وإنما هي عادة .. عادة استحكت .. والحضارة أو المدينة هي مجموعة من العادات .. فلبس البذلة عادة ، والأكل بالشوكه والسكين عادة ، والوقوف للمرأة عادة .. وكل هذه أشياء ليست ضرورية .. فالبذلة ليست ضرورة حيوية لأن هناك أناساً يلبسون الجلباب وأناساً عراة وكلهم قادرون على الحياة .. ومن الممكن أن يأكل الإنسان بيده .. وبالنسبة للأستان والمعدة والكبد ليسهما أن يجيء الأكل باليدي أو بالملعقة .. إلخ .

وهذا النوع من الغناء أو التلحين أو التأليف هو مجرد عادة ويمكن تعديلهما عادة جديدة .

وأنا لا أطالب بدراسة الحالة النفسية لمولني الأغاني .. من هم وأى نوع من الناس هم وفي أى ظروف يؤلفون أغانيهم ولا أقول إنهم مرضى ..
ولا أطالب بعلاج الملحنين عندنا ولا أقول إنهم يؤلفون الألحان في ظروف غير عادية ..

ولا أطالب بعلاج النقاد الذين يدمون الكلام عن الموسيقى والأغاني ..
ولا أقول أن الناقد مريض ومرضه هو الملحن الذي مرضه هو المؤلف الذي مرضه هو المستمع !

ولكنني أنه فقط إلى أن معنى الأغاني عندنا لم تتغير عن عشرات السنين .. فلا توجد أغنية واحدة تقول لي يجب أن تحب وأن تتمسك بحبك ، وإنما

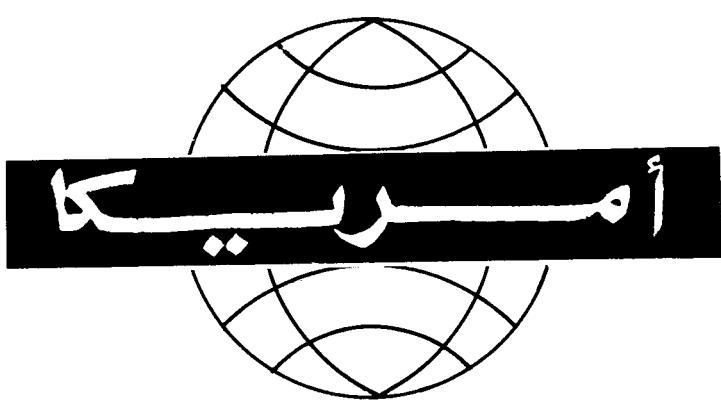
كل الأغاني تشجعني على أن أتعجل بهجر الحبوبة والبكاء عليها .. كل الأغاني
تطالبني باستدراج الحبوبة إلى هجرى أو الفرار مني لكي أجلس إلى جوار الراديو
أبكي وأدفع الملايين للسادة المطربين وأصحاب شركات الأسطوانات وأشرطة
التسجيل ..

ولو ارتبطت الأغنية عندنا بالرقص لخف هذا الحزن فليس من الممكن
أن أكون حزيناً ذاتياً في دموعي وفي نفس الوقت أرقص وأحرك رجلي ويدى
ووسطى ..

بصراحة كده .. نحن جامدون !

بل ليتنا جامدون بل ذائبون وفي حاجة إلى أن نحمد ولو قليلاً لنقف ونرقص ..
فإن الرقص يذهب بالدموع والحزن .. أو البحث عن تخريب الحب والصدقة
من أجل أغنية ..

وإذا كان كلامي غريباً .. فتعال في مكانى وانظر إلى بلادنا ستراها مهياً صين
جداً .. وترى أنها ينقصنا « العلم » في الغناء والموسيقى والتأليف والنقد ! .



الاستقبال العظيم

وحلاوة الأناس على لسان ، ولسعة السمراءات في مكان لا أعرف بالضبط من جسمى ونفسى ، وصورة بريجيت باردو عارية تماماً في أحد الأفلام التي رأيتها هنا ، واللحطة التي تتبع الأقارب الصناعية حول الأرض ، وملايين الدولارات التي رأيتها وقليل من الرمل في قفای من أثر النوم الطويل على شاطئي وكيفي تشبها بأصحاب الجزيرة ، والوهج الخيف الذي رأيتها في بركان هواى . . بهذا كله في عيني وفي أذني وفي عقلي ، ركبت الأتوبيس مارا بالطريق الحلو الناعم كأنه ظهر سيارة كاديلاك ، إلى مطار هونولولو في طريق عبر المحيط الهادى إلى أمريكا .

لم تطاوعنى نفسى أن أشعر لحظة أننى سأغادر هذه البلاد السعيدة : الأرض فى لون المانجو ، والبحر فى لون البنفسج ، والموسم ناعم الشفاه ، والأشجار متراخية كأنها ما تزال نائمة .. وكل شىء يغيرنى أن أبقى ، وأنه لا داعى لأن أهرب من الجزيرة بسرعة ٩٠٠ كيلومتر فى الساعة فى طائرة . . فناته . .

وفى المطار نظرت إلى الساعة ولا أعرف كم كانت ولا يعنينى كم تكون .
وفى هذه الأثناء تقدم شاب مصور ومعه فتاة جميلة . لا أعرف لماذا ترافقه هذه الفتاة . وبعد لحظة عرفت لماذا ترافقه . طلب منى أن أقف لكي يلتقط لي « آخر » صورة وضاقتني كلمة « آخر » صورة ، ووقفت وجاءت الفتاة

تنبئي بآصابعها إلى أنني يجب أن أبتسم . وابتسمت .. وحاولت أن تجعل هذه الابتسامة لونا . قالت إن ابتسامتي صفراء ، وهي تشير إلى فستانها الأصفر .. وزرعت من شعرها وردة حمراء وطلبت مني أن أجعل شفتي في لون ورق الورد .. وابتسمت للوردة وطا وللمضيفة التي وقفت على السلم تستعجلني .. وتصرخ : لا تجعل ساعة الوداع أية هكذا .. ستعود قريبا !

قالت «ستعود قريبا» ببساطة . كأنني طيار أو مضيفة طيران وأنه لن يمضي وقت طويل حتى أعود إلى الجزيرة . على كل حال أمنية لطيفة أسعدتني .. وطلب مني المصور أن أدفع ثمن الصورة وهو سيبعث لي بها في أي مكان في العالم ودفع بلا تفكير . وبعد أيام وصلتني الصورة التي التقظها .

وفي الطائرة قاومت جاذبية الأرض التي نغادرها .. قاومت النظر إليها ، وإلقاء آخر تحية عليها واتجهت إلى الذين حولي .. كلهم من الأميركيكان طبعاً ومؤلف جداً أن يدخل أي واحد منهم في مناقشة معلمك من غير مناسبة ، ويتأثر لما يشكك ويروى لك مشاكل مماثلة . والفرق دائماً بيني وبين أي أمريكي أنه يوجد حل لما يشككه .. أو أنه وجد مشاكله محلولة ، وأن مشاكل لا حل لها ، أو أنني يجب ألا أجدها حللا ، فهي مشاكل معقدة إلى الأبد !

وفي إحدى المناقشات - كل هذا في الطائرة وأنا لا أعرف جاري ولم أره إلا منذ دقائق وعلى ارتفاع ٣٠ ألف قدم فوق المحيط الهادئ - رويت له أنني في حالة فزع دائماً من الحياة . فسألني إن كنت آخذ حبوباً منومة والسؤال سخيف ، إنه يتصور أننيأشكتو من قلة النوم .. فقلت له : لا .

ولم تكن كلمة «لا» تعبر عن شعوري بسخافة السؤال وتفاهة السائل وإنما جاءت «لا» مثل «فلة» طارت من زجاجة لتسقر في فه لتسده حتى لا يسألني بعد ذلك .

وعاد إلى الكلام يقول : أعتقد أن النوم هو العلاج الوحيد لكل متاعب الناس . فالناس يبالغون في متاعبهم . ولو عرفوا النوم ، لنامت هذه المشاكل أيضاً .. ووضح ليقول : لا تظن أن هذه فلسفة منك .. إن هذا أرق فقط ..

وأنت تحاول أن تبرر أرقك ، فتجعل له معنى خاصاً ..
وأعجبني كلامه واعتدلت . وكأنني أحياول أن أحب السخافة التي لففت
بها كلمة «لا» فقلت له: جربت النوم .. ولكن .. ما هو حل مشكلة الفزع
من الحياة ؟

وعاد يقول : إذاً اذهب إلى طبيب نفسي ليحل متابعيك . فأنت لا تستطيع
أن تعرفها لوحديك . أنت ترى وجهك بمرآة .. ولكن لكي ترى قفاك .. أنت
تحتاج إلى مرآة أخرى ..

وأحسست أن هذا قلم على قفای فعلاً .. فالرجل ينظر لي على أنني رجل
مجنون أو على أبواب الجنون . وحاوت أن أقدم نفسي فأقول له إنني رجل
يشتغل بالأدب وأنا كنت مدرساً في الجامعة .. وأنني متخصص في الفلسفة
وعلم النفس . وكأنني قلت له إنني أسكن في الشقة المجاورة له دون أن يعرف ،
فأبدى دهشته وأخرج من جيده كارتة وأمسك قلمه وغير رقم تليفونه وقدم لي
الكارت لكي أرى أنه استاذ لعلم النفس في إحدى جامعات أمريكا وأن له
عشرين كتاباً ، وأنه بهذا التواضع .. وأنه يرى أن مشكلتي أتفه من أن تكون
مشكلة ، وأنه خير لي أن أنام ..

وأخرج من جيده علبة بها حبوب حمراء .. وفي الحال جاءت المضيفة
بكوب من الماء . واختفت الحبة الحمراء والماء ، وغطس الرجل في مقعده .
وسألتني المضيفة إن كنت أريد شيئاً من ذلك فهزّت رأسى .. وجاء الكوب
والحبة الحمراء وابتلاعها .. ونممت ساعة .

وصحوت من النوم لأجد جاري يقرأ في صحيفة ..

وابتسمت خجلاً ، كأنني نمت أثناء المناقشة . فقال لي : كيف حال المشاكل
بعد أن نمت .. إن حبة حمراء صغيرة تصيف إلى عمرك ساعات هادئة !
وعلمت أن هذه حبة منسومة ..

والتصقت هذه الحبوب بعد ذلك في يدي وفي جيوبى .. وكانت آخر شىء
أراه كل ليلة في أمريكا وأوربا .. وأضافت هذه الحبوب ساعات إلى راحتي ،

وُحِدَتْ مِنْ مَتَاعِي مُشَكَّلَاتٍ كَثِيرَةٍ . . وَبَقِيتْ مُشَكَّلَةً وَاحِدَةً هِيَ : كَيْفَ
أَخْلَصُ مِنْ هَذِهِ الْجَبَوْبِ الْحَمْرَاءِ ؟

* * *

وعندما هبطت الطائرة في مطار لوس أنجلوس كنت أتصور دائمًا أن يقع
شيء غريب .. أن تنزل بقرة من الطائرة وعلى ظهرها أحد رعاة البقر ويمسك
مسدسه ويطلب منا أن نسلم أنفسنا جمِيعا .. أو تقترب منا طائرة أخرى وتضررنا
بالقنابل .. أو يدخل الطائرة أحد قطاع الطرق الجوية ويختار من بيننا واحدا ..
ثم يهرب إلى حيث يفعل به أي شيء .. يقتله مثلا !

ولم أجده بين الأميركيان المسافرين معى واحداً يلبس البنطلون بالملقّوب
أو يدخن سيجارتين في وقت واحد.. ولم أجده فتاة حلوة.. كلّهن من العواجز..
وقفت الطائرة ونزلنا بنظام وترتيب وهدوء شديد.. وفي المطار كل شيء
يدل على أن هناك نظاماً دقيقاً. وعلى أن هناك طائرات كثيرة.. وعلى أن هناك
ملايين من الناس في غاية النشاط.. على أنني نزلت كقطرة في محيط.. وعلى أنني
ضائع مائه في المائة.. وأنني إذا طلبت إلى أيّ إنسان شيئاً فيجب أن أعتذر
له فوراً لأنني عطلته عن القيام بشيء مهم من هذا الطلب السخيف!

والمضيفات هنا أشكال وألوان ، وأحجام ومقاسات .. حتى الابتسامات مختلفة .. كان كل شركة قد حددت مساحة الابتسامة .. فشركة المتحدة : ابتسامة بالعين فقط .. وشركة بان أمريكان : ابتسامة على الجانب الأيسر .. وشركة الخطوط العالمية على الجانب الأيمن .. وشركة المتحدة في الوسط .. ولما لاحظت المضيفة التي وقفت أمامها أسألها عن الأتوبيس الذي سينقلني إلى الفندق تبتسم ، من كل شفتيها ومن جميع الزوايا أدركت أنها مضيفة عالمية ولذلك كان رداتها عالمية أيضا فقد قالت وهي ضاحكة : الأتوبيس الذي ينفكك قد غادر المطار منذ دقيقة واحدة !

أى منذ اللحظة التي وقفت أمامها لأسألها وأترجم ابتسامتها لأعرف إن كانت هذه المضيفة خاصة بالشركة التي نقلتني من هاواي إلى أمريكا أو بآية شركة أخرى !

وبذلك أضعت فرصة ركوب الأتوبيس والسبب هو ضعفي في الترجمة !
وجاء أتوبيس آخر . . .

وكان قروى جاء من أقصى الصعيد إلى القاهرة لأول مرة ، سألت السائق
بأسلوب واضح جداً إن كان هذا الأتوبيس سيذهب إلى هوليوود .. فهذا
رأسه .. وكانت رأسه مائلة عند الاهتزاز كأنها هزة « خنفاء » مثل صوته عند
الكلام .. وعدت أسأله بقلب يثير الشفقة إن كان الأتوبيس سيقف أمام فندق
روزفلت الذى سأنزل فيه والذى حجزته من هونولولو تلغرايفا ، فهز رأسه ومد
يده لكي أفسح الطريق للركاب لكي يحتلوا أماكنهم في السيارة ، وتحتل أماكنهم
مكانها في أذنيه ..

وكأنى لم أسافر في حياتي ، مع أنى سافرت أكثر من عشرين مرة .
إلى أوروبا .. ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ..
وأنى الآن أدور حول الأرض .. وكل شئ يدل على أننى ضائع خائف ..
كأنى أتحرك في بطن حوت .. وأنى انتقل بسرعة خمسين كيلو في الساعة بين
أنياب الحوت لكي أستقر في أحشائه .

لقد تذكرت ما كتبه الفيلسوف الوجودى أليير كامى عن بطن حوت مخيف
اسمها : الناس .. فالإنسان يعيش من أجل الناس ، ويعيش الناس ، ويموت الناس
أيضا .. فهو يعيش في بطن الحوت ، ويحرص على أن ينجو من الحوت .. فالفنان
ضحية لا تريد أن تموت .. ولكن لا بد أن يعيش كالضحية ..

وأنا ضحية .. أما القاتل ، أما الموت فهو هذه الشوارع الطويلة جداً ..
الواسعة جداً .. إلى تنطلق عليها صواريخ أرضية .. لا أحد يتوقف ..
لا أحد يمشى على قدميه .. لا أحد ينظر إليك .. ولا تستطيع أنت أن تنظر إليه ..
فلست أعجوبة .. ولست جديداً في ملائكت .. فهنا مثلث ٢٠٠ مليون نسمة ..
فلا السفر من اليابان يثير أحداً .. ولا من هواى .. ولا من أمريكا إلى أوروبا ..
كل شئ عمله الأمريكية .. فهم الذين اخترعوا السيارة والطياراة .. وهم الذين
اخترعوا الملايين والمليونير .. وهم الذين اخترعوا السينما .. ومهما كانت ملامح
 وجهك فثلها على الشاشة كثيرون ..

لا شيء يهرب ولا شيء يردد لك عقلك !

وبفرملة تكاد تقتلني من مقعدي أنا وحقاني وقف السائق أمام فندق روزفلت . . ونزلت . . وبحركة فيها كثير من الإحراج حاولت أن أجده فكة في جنبي . . ولم يكن لهذه الحركة أى معنى . . فلا السائق يقبل البكريش . . ولا يوجد كمساري . . وإنما هي حركة تعويضية يقوم بها الإنسان عند الخجل أو الخرج حتى يهرب من نظرات الناس !

واكتشفت أن نظرات الناس تحتاج مني لكي أواجهها إلى مجهد أكبر من مجرد وضع اليد في جنبي أو حتى في جيوبهم . .

وشعرت بشيء من الارتياح عندما نظرت إلى البيوت فوجدتها متوسطة الارتفاع . . خمسة أدوار . . سبعة أدوار . . فلا توجد ناطحات سحاب هنا . . أحسست كأنني لم أبرح أوربا التي أعرفها ، أو مصر التي ولدت فيها . . وقلت في نفسي : عندنا صور كهذه . . وشوارع كهذه . . فأنا لست غربياً إذن !

وجاء بباب الفندق قلت له بشيء من الثقة التي عادت إلى نفسي : فين غرفتي من فضلك !

ولم أنظر حتى يسألني : وأين غرفتك ؟

ولأنما سبقته إلى مكتب الاستعلامات . . وجدت غرفة ممحوزة باسي . . ووجدت ابتسامة محجوزة أيضاً . فهذا الرجل الذي يعمل في استعلامات الفندق كان في مصر أيام الحرب الأولى ، ويعرف القاهرة ، وكأنه أراد أن يسحب مني الثقة ، سأله عن أماكن حقيقة في القاهرة القديمة ، فأنكرت وجودها ، لعل بهذا الإنكار أسترد الأرض التي احتلها هو وطرد منها ، ولكنه أكد لي أنه يعرف هذه الأماكن . . وظللنا نتنازع هذه الثقة . . ثقته هو بمعلوماته وثقى أنا بنفسى ومعلوماتي أيضاً . .

وانهى لقاونا نهاية سينثة . .

وقضى هذا اللقاء على كل صورة حلوة ، وكل حلم للذيد ، وكل راحة نفسية ، وكل أمل في الاحتفاظ بالذكريات الجميلة لجزر هاواي . .

وأحسست بالشوق إلى البلاد الشرقية التي رأيتها قبل ذلك .. وتمنيت لو
أني كنت في الهند أو أندونيسيا أو اليابان لكن أتمدد على المهد متباهاً بأنني
أبيض اللون طويل القامة عسل العينين ، أبيض الأسنان لأقول للبرسون عندما
يدخل : واحد شاي من فضلك !

و قبل أن ينتحن هذا البرسون أكون قد أغمضت عيني زهداً في هذه
الاحترامات والتحيات !

ولكن أين هذا ما حصل لي بعد خمس دقائق من دخولي هذا الفندق ..
دق الباب فقلت : أدخل ..

ودخل عملاق ضخم طويل .. وقد ارتدي بدلة سمراء والياقة منشأة والنظرة
منشأة .. والابتسامة مسرحية والاخناء رسمية وقال : حضرتك ضربت
الجرس ..

قلت له : إني لا أعرف أين البرس ..
وتقى وأشار بيده إلى الأجراس ..

وسألني إن كنت بهذه المناسبة أريد شيئاً . فقلت : واحد شاي من فضلك
واقترب هو أن يكون الشاي كاملاً ، لأننا كنا بعد الظهر .. فلا هر موعد
غداء ولاعشاء وإنما هو بين بين .. واقترب بعض العصير ، فلم أمانع . واقترب
بعض السنديتشات ، ولكن أبدو لست جائعاً جداً فقلت لا مانع . واقترب
بعض الفاكهة ، ونسيت أني أكلت جبلاً من الفواكه في قارة آسيا ، فقلت
لا مانع .. ولا أعرف إن كان قد ذكر كلمة «فطائر» .. ولكن كلمة «فطيرة»
رنت في أذني على أنها «فاتورة» فقلت لا مانع .. وربما كان السبب في أنني
سمعت كلمة «فاتورة» هذه ، هو أني كنت أحلم بإيطاليا .. وفاتورة كلمة
إيطالية وليس إنجليزية طبعاً ..

ومهما وصفت لك كيف جاء هذا الشاي الكامل ، فإنك لا تستطيع أن
تصور ما حدث .. لا يمكن .. لا أنت ولا غيرك .. ولا حتى أنا ..

ولكن سأحاول أن أصف لك الجو الذي دخل فيه الشاي إلى غرفتي ..
انهزت هذه الفرصة وأخذت دشاً من الماء الساخن .. ففتحت هنا في

ديسمبر . . وغيرت ملابسي . . لكي أرتفع معنوياً وظهرياً إلى مستوى الجرسون
الضخم والطعام الأضخم . .

وجلست . . وقبل أن المس المقدد دق الباب وانفتح قبل أن أقول . . أدخل . .
وجاء جرسون آخر يحمل ورداً . . فظننت أن هذه هي تقليد الفندق مع الزلاء
الجدد . . وسألني الجرسون إن كنت أحب هذه الورود فأبديت إعجابي بلونها
وتنسيقها . .

وأغلق الباب وخرج . . ودق الباب ودخلت منضدة كبيرة . . ودق الباب
ودخل جرسون معه مفرش أنيق . . ودق الباب ودخل جرسون يدفع أمامه تراييزه
لها أربع عجلات وعليها علم الولايات المتحدة . . ومكان شاغر لعلم آخر لا أعرف
إن كان هذا الجرسون سيسألني عن علم بلادى . . ولم يفعل . . ولم أسأله فقد كنت
في حالة « هو خفي » . . واللهو الخفي معناه : أن بطني تلعب سراً . . فهي تلهو
بصورة خفية . . ولم أهتد إلى هذا المعنى إلا الآن فقط . .

وانفتح الباب وجاء الجرسون الأول ليشرف بنفسه على العملية . . وهى بالفعل
عملية . . براد شاي ضخم . . وبراد اللبن . . وقطيرة بالفراولة والتفاح . . وسندوتش
جبنة ولحمة وكبدة . . وكوب عصير الأناناس . . وكوب عصير طماطم . . وشعرت
بذهول شديد . . وتخايلت على هذا الذهول فحولته إلى حركة . . فناظهرت بأنى
أصلى لله . . وأنىأشكره لأنه أعطاني كل هذه النعمة . . ونظرت إلى السقف . .
وأمام هذا المنظر الدينى الفريد . . انسحب الجرسونات . . وعندما أغلقوا الباب
نهضت لكي أرى الفاتورة . .

وأمكنت الفاتورة بيدي وقعت على المقدد . . لقد كان الثمن المطلوب هو
سبعة جنيهات !

ولاحظت كثرة التحيات والسلامات الموجودة في الفاتورة . . وعرفت أنها
تشبه التحيات المألوفة في رسائل الحكم بالإعدام عند الإنجليز . . ففي إنجلترا عندما
يصدر الحكم بالإعدام على أي مجرم تكون صيغة الحكم هكذا : « تقرر إعدامكم .
مع فائق الاحترام » . .

أى احترام بعد الإعدام ؟ !

• هفایا هولیود !

هوليوود هي أشهر مدينة في العالم . . ففيها مصانع الجسال والمآل والمحبد ، فيها استديوهات السينما . . بعض هذه الاستوديوهات مساحتها ٣٠٠ فدان . . كل شاب يحلم بأن تتعثر فيه رجل أحد المخرجين . . وكل فتاة تحلم بأن يتتجن عليها أحد المخرجين العواجيز ويرفعها على يديه المرتعشتين من الرصيف إلى جوار مارلين مونرو . . والمشى في شوارع هوليوود متعة . . فالبنات يقلدن كواكب السينما : وكذلك الشبان ، ومعظم البنات الصغيرات هنا قد صبغن شورهن وجعلتها مثل بريجيت باردو في فيلم « المرأة شيطان » ، وأضفن إلى ذلك الكحل . . وبعضهن يقلدن صوفيا لورين في نعكشة الشعر على الرأس وإضافة بعض سنتيمترات إلى كعب الحذاء . . وقد نجحت صناعة الكاوتشو والتايكون في أمريكا في رفع صدور الفتيات إلى مستوى جينا لولو بريجيدا ، ولكن لملاحظ أن هناك فتيات يقلدن مارلين مونرو . . إلا في بعض الأماكن الخاصة جداً جداً . . أما الشبان فهم يقلدون دين مارتن في فيلم « الأشبال » فينكشنون الشعر ويكمونه على الجبهة ، وقد نجحوا في التقليد جداً لأن دين مارتن له مطاعم كثيرة هنا وعلى كل مطعم توجد له صورة بالألوان . فإذا مر أحد الشبان بجوارها فإنه يخرج المرأة من جيده ويقارن بين الأصل وبين الصورة . . وشبان آخرون يصلبون جذور رقبتهم مثل شارلتون هستون في فيلم « الوصايا العشر » وفي فيلم « بن هور » . . وكثيراً ما شعرت أن بعض هؤلاء الشبان والشابات كأنهم مجموعة من الصور

حطمت براوتها وانطلقت على الأرصفة . . أو كأنهم صور متتابعة في فيلم
بطيء . . وأحياناً تجد على هذا الفيلم بقعة سوداء تروح وتنجي وتعترض الوجه
والسيقان وتفسد جمال الاستعراض . . أنا هذه البقعة فاعذروني !

• • •

واستديوهات هوليوود بعيدة جداً عن المدينة ، هناك في الصحراء أو حول
الجبال . . ولها أبواب عالية جداً وأسوار وسلال وحراس والدخول فيها صعب ،
وعلى الأبواب تجد لافتات تقول لك : منوع الكلام . . منوع التدخين . .
قف عندك . . أمش على اليمين . . أعطني الكاميرا من فضلك !
وهذا ينطبق أيضاً على الطلبة الذين يدرسون التصوير والإخراج هنا !

وجوه المستغلين بالسينما لا تصلح فعلاً للشاشة . . وجوههم كشة صفراء
مكرمية وملابسهم قذرة ، وكلهم عصبيون وفيهم جفاف كأنهم جزارون أو
مساورة ومهربون . . ولا يعملون وراء أبواب مغلقة ولا في الظلام ولا تحت حرارة
شديدة . . وتدشن كيف أن هؤلاء الناس هم الذين يصنعون الجمال والفتنة . .
ولكن الأرض السوداء هي التي تخرج لك التفاح والعنب .

رأيت مثلثة كبيرة تقول هذه العبارة ١٨ مرة : ولكن يا أخي أنا لا أعرفك
لم أنت إليك إلا بمحمد الصدفة فقط . . فأنت شكلك غير ملتفت !

هذه العبارة قالتها المثلثة ١٨ مرة وفي كل مرة تنسى كلمة أو حركة ، وفي
كل مرة يطلب منها الخروج أن تعدها ، أخيراً صرخ الخروج وهنا امتدت يد
مرتجفة فضغطت عليه كأنها تقول له : كوييس كده . . كتر خير الدنيا .

وسكت الخروج فقد كانت هذه اليد هي يد المنتج صاحب المال وصاحب
هذه المثلثة الكبيرة . .

تعريف المنتج : غنى له أصابع شيعية وشعور كتانية وعيون خرزية وأسنان
ذهبية وأطراف صناعية . . وعلى حق دائماً !

واستديوهات هوليوود فيها استعدادات هائلة . . وأى استديو هنا أكبر من
استوديو مصر واستوديو الأهرام مئات المرات .

استعدادات ميكانيكية ضخمة ، وأموال من غير حساب . .

ومئات الألوف من دور السينما تعرض أى فيلم . . وفي داخل الاستوديوهات تجد الناس منفوخين على الفاضي وعلى المليان . . كل موظف يمرك فانوساً أو يسند برميلاً يتصور أنه الخرج فيتصنّع التفكير والاهتمام بصورة مسرحية ملفتة جداً . .

أذكر أنني قابلت في استوديوهات مترو جلسون ماير رجلاً علماً في يده جوانبيات من الجلد ويرتدى سويتر من الجلد وعلى أنهه منظار غليظ وعلى جبهته خمسة خطوط متقاطعة كأنه نام طول الليل فوق جلد غربال قديم ، سأله :
استوديو رقم ٢٧ من فضلك ؟

فطلب مني أن أعيد له هذا السؤال عدة مرات . . ثم أشار لي أن أتبعه إلى هنا . . وركبنا أحد الأتوبيسات الموجودة في داخل الاستوديو . . ولم أنطق ولم ينطق ونزلنا وسرنا في شارع طويل ووقفت أمام الاستوديو وفتح لي الباب ودخلت وبقي هو في الخارج وبعد أن مكثت حوالي ساعتين خرجت لأجد هذا الرجل جالساً على مقعد وعه مكنسة . . حضرته كناس !

أما الممثلون في الغالب ليست لهم شخصية لأن الممثل يعتمد اعتماداً كاملاً على الخرج وعلى المؤلف وعلى الحلاق . . فإذا أردت أن تلتقط له صورة مثلاً فهو يقول : كيف ؟ هل أضحك ؟ هل أبكى ؟ هل تريدى أن أنظر نظرة فيها جنس أو فيها طمع أو فيها إشراق . . قل لي وأنا أقف كما تريدي . .

و恃ستطيع أن تحركه كما تريدي . . لأن حياته كلها هي في الطاعة التامة للمخرج . . فكل ما تسمعه في الشاشة وما تراه . . كل ذلك صنعه المؤلف وكاتب السيناريو والمخرج والمنتج ، ولا يبقى بعد ذلك إلا جسم الممثل أو الممثلة . . حتى هذا يمكن تغييره وتبدلاته كما يريدون هنا . . وظهور مثل أو ممثلة في الشارع هنا لا يلتفت إليها أحد . . وقد ينظر إليها أو إليها الناس ثم يقولون : ياه . . بس كدة .

ولكن ظهور سعاد حسني أو نادية لطفي في شارع سليمان باشا يربك المرور وقد تقع حوادث . . فممثلاتنا هن بخت !

وفي شوارع هوليود الطويلة جداً التي يصل بعضها إلى ٥٠ كيلومتراً . . كلها تدل على أن هذه مدينة لصناعة السينما فعلاً . . فكثير من دور السينما لها

أنوار كشافة وأنوار متحركة ليلاً ونهاراً . . وعلى مداخل السينما توجد إمضاءات منقوشة على الأرض وهي أسماء النجوم الذين افتحوا هذه الدور ، وبعض البنوك نقشت أسماء النجوم الذين افتحوها . .

وأشهرها جمعياً : المسرح الصيني ، فعلى مدخله انطبعت أقدام ويدى كل النجوم . .

والكباريات تكتب أسماء النجوم على الجدران من الخارج . وبعض المطاعم تضع مئات الصور للنجوم أيضاً . ومعظم الممثلين لهم شركات ومحلات تجارية ومطاعم وسيارات تاكسي . . فالممثل هنا تاجر أولاً وأخيراً . . له مدير أعمال ومدير دعاية وضابط علاقات عامة ومستشار قانوني ومالى . . وكل شيء يعمله بحساب - بفلوس يعني !

وممثل ليست له أية حرية في أن يقول أو يظهر . . وكثيرات من الممثلات يرفضن الكلام في أي موضوع أو الاشتراك في أية حفلة إلا بعد استشارة مدير الأعمال .

• • •

وهوليود هذه مدينة كبيرة كأية مدينة أخرى في أمريكا . .

وإلى جوارها لوس أنجلوس الكبيرة جداً بمعارفها وشوارعها العالية . . وجسورها المركبة بعضها فوق بعض . . وتوجد إلى جوار هوليود بيفري هيلز وهي ضاحية تابعة هوليود ولكنها أكبر منها في المساحة . . وهى المنطقة الأرستقراطية في كل ولاية كاليفورنيا . . فكل أصحاب الأموال والأعمال يسكنون فيها . . وفي هوليود أحسن وأكبر مطاعم وصناديق الليل ، والأسعار كلها غالبة ، وغالبة جداً . . الفطور يصل إلى جنيه ونصف جنيه ، والغداء إلى ثلاثة جنيهات ، والعشاء إلى خمسة جنيهات للشخص الواحد . . طبعاً أنا حذفت أجرة التاكسي . . وتوجد مطاعم شرقية يملكونها لبنانيون ويملكها سوريون . . ويوجد بعض المصريين ، طلبة وعلماء يدرسون . . ويوجد فنانون في النوادي الليلية . . وكلها أسماء غير معروفة تماماً في القاهرة ولكنهم ناجحون هنا وعليهم إقبال كثير .

وعدد العرب الموجودين في هوليود ولوس أنجلوس حوالي سبعين ألفاً . وأشهر الجرسونات والبنات يرتدين الملابس الهندية التي تعرى المنصر كلها . أما صاحب محل فيرتدي العمامه الهندية . . وهو يتمسك بالعروبة بمعنى خاص غير مألف عندنا . . ففي هذا العام احتفل في هذا الكباريه بعيد ميلاد دولة إسرائيل !

وتحل آخر اسمه الطربوش يملكه اللبناني أيضاً . ويتزدّد عليه الكثير من العرب ويتحولون بسرعة من متفرجين إلى راقصين ومطربين وتحول السهرة إلى جلسة عائلية . .

• • •

وهنا توجد أنواع غريبة من التوادى الليلية تشبه التوادى الوجودية في باريس ، في أن كل الذين يتزدرون عليها من الشبان والشابات . . وهذه التوادى بها أصوات خافتة ، والجرسونات بنات بالبلوزة الضيقة جداً والبنطلونات التي ترتديها الفتيات ويهشن طول الليل من شدة ضيقها والتتصاقها بشعر السيقان . . وفي هذه التوادى يعيش طول الليل الجيل الجديد الذي يسمونه في أمريكا الجيل الصارخ أو الجيل الصاخب . . وهم في الواقع وجوديون ولكن بلا فلسفة ولا ثقافة ولا مشكلة ولا أزمة .. فالجيل الجديد في أمريكا جيل لا يقرأ . فالتلفزيون قد أرغم الناس على أن يجلسوا إليه طول الليل يسمعون ويتأثرون ويترفون فلا يفتحون كتاباً واحداً . . ومعظم هؤلاء الساخطين شبان دون العشرين . . يشربون الشاي أو السجائر ساعات متواصلة ويستمرون إلى موسيقى زنجية عاوية داوية . . وبعد ذلك يخرجون . .

وأشهر هذه التوادى الساخطة مقهى بندورا . . وهو عبارة عن غرفة واحدة جاست في أحد أركانها فرقة موسيقية زنجية تدق بعنف . . وبعد ذلك يتضاءب أحد العازفين ويقول : الحب . . الحب . . أبيع الحب . .

ويبيح حك الناس دون أن تكون هناك نكتة . .

وفي شارع كوزموس يوجد ناد آخر . . عبارة عن جراج للسيارات أخفى الظلام معالمة . . وفي هذا الجراج وضعت الدكك والمناضد وأطفئت الأنوار

إلا من بعض الشموع .. وبعد ذلك يتقدم أحد الممثلين وفي يده كتاب ويجلس على مقعد ثم يقرأ كلاماً فارغاً والناس يضحكون .. وهذه عينة من الكلام المكتوب الذي يقوله : عندما سقطت في البحر أبتاعني قطة ، وهذه القطة كانت تتوحم على جاموسه ، وكان بيني وبين التساح علاقة ما ، خصوصاً وأن شعر رأسى يشبه أحجحة الطاووس وبعد ذلك قلت للبقرة : إن حياتك ليس لها نهاية أذهبى إلى إحدى شركات التأمين وهذه الشركة وحدها هي القادرة على أن تصف لك الطريق . الأفلام الجديدة مأخوذة من الكتاب المقدس . العودة إلى موطنك الأصل في السماء الرابعة على اليسار !

قطعاً «أبولمعة» عندنا أحسن .. والمعروف أنه ينشر وفشه يرغمك على الضحك على أبو لمعة أو على نفسك لأنك جلست تستمع إلى كلامه الفارغ .

وبعد ذلك ينهض هذا الممثل ويعرفننا بالجبل الساخن ويتسائل : ما هو الجبل الصارخ ؟

ويظل السؤال بلا جواب حتى تنتهي السهرة في هذا المدرج ..

وتحلات الصارخين هذه أسعارها مرتفعة .. بعضها يتراوح جنيهاً رسمياً للدخول . ثم يرغمون الزبائن على أن يشربوا شيئاً ما أيضاً .

ويبدو أن الحياة مملة في أمريكا ولذلك فالأمريكان يحرضون على التغيير ويكرهون الشيء الواحد المتكرر في حياتهم وفي حياة غيرهم من الناس .. فثلا أنا أتردد على أحد المطاعم وأطلب كل يوم فنجانا من الشاي وبعض الخبز الجاف وأنا راض بهذا .. ولكن الجرسونة تتضائق جداً من أنني لا أطلب إلا شيئاً واحداً .

هذه الجرسونة إذا تزوجت فإنها ستكره الطلاق .. وتغيير الأزواج !

والحالات العامة تحرض على أن تكون لها شخصية خاصة .. لابد أن تكون مختلفة ، لابد أن يكون فيها شيء جديد ، شيء مختلف عن الحالات الأخرى في الآثار أو الطعام أو في الملابس التي ترتديها الجرسونات البنات .. فتجد محلات على طراز القرن الثامن عشر أو التاسع عشر في الطعام والملابس والزينة

والموسيقى . . فتدخل هذا الحال وكأنك قد عدت إلى الوراء مائة سنة أو مئات السنين . . وأكثر الأطعمة هنا انتشاراً هي الأطعمة الإيطالية خصوصاً البيتزا والمكرونة الإسباجني . .

ومن الغريب أن معظم التوادى الليلية هنا تشرط أن يرتدى الزبون الكراftware . . في حين أن المطاعم لا تشترط الكراftware . . يعني الأماكن التي يذهب إليها الإنسان ليشعر بشئ من الحرية ، أو التي يريد أن يهضم فيها تختنق رقبته بكرافته . . أما الأماكن التي يضطر فيها الإنسان إلى الجلوس هادئاً قليلاً الحركة فلا مانع من أن يذهب بالقميص والبنطلون الطويل أو القصير . . أو المايوه إذا أراد . .

* * *

والشوارع هنا في هوليود مشرقة ليلاً ونهاراً . . نهاراً لأن الجو هنا معتدل . . لا سحب ولا أمطار ولا بروفة حتى في الشتاء . . وفي الليل منيرة متوجهة فالبلاد منذ أوائل شهر ديسمبر تستعد لعيد الميلاد . . فأشجار الميلاد على الجانبين . . وصورة بابا نويل - وهذا يسمونه سانتا كلوز - في كل مكان ، في كل محل ، وأمام كل سينا . . وال محلات كلها ملؤة بالزبائن . . فعيد الميلاد هو عيد المدايا . . لابد من المدايا . . وكثير من البيوت تخربها هذه المدايا مثل كعلك العيد وخرف العيد عندنا كثيراً ما يؤدى إلى خراب الجيوب بالإفلاس وخراب البيوت بالطلاق . . !

وفي الشوارع تماثيل للمسيح والعذراء . . وتماثيل للمسيح وهو راكب حماره . . وتماثيل لنجمة بيت لحم وهى تلمع في السماء إعلاناً لميلاد المسيح . . وصورة للكهف الذى اختفى فيه المسيح في مصر ، وهذا الغار معروض بصورة فنية جميلة . . الإبل والنخيل والأحجار والآبار وفيها الحواريون . .

وهنالك صورة رائعة للعشاء الأخير . . وصورة بارزة لخطبة الجبل أو لوعضة الجبل . . وصور كبيرة لمريم المجدلية وهى تبكي عند قبر المسيح . . ثم تماثيل كبيرة للمسيح مصلوباً وحوله إثنان من اللصوص اليهود . . والشركات كلها تعلن في فترتنا عن قصة المسيح .

فهنا شركة السكك الحديدية – والحكومة هنا لا تملك السكك الحديدية أو التليفونات وإنما هي كلها شركات أهلية – وضعت في قراراتها صوراً رائعة لحياة المسيح منذ ولد حتى صلب وهو في الثالثة والثلاثين من عمره .

وف مدينة لوس أنجلوس يوجد مقهى اسمه كلفتون . إنه رائع والجو داخله يوحى بأنك في إحدى جزر هاواي .. فأشجار جوز الهند تأثرت في المقهى .. والمياه نزلت من السقف .. والشمس لها حرارة دافئة .. والجرسونات قد وضعن عقود الورد حول أنعنائهم .. في هذا المقهى الجميل جداً توجد مغارة .. هذه المغارة تنزل إليها بسلم ضخم .. والمغارة مكونة من خمس غرف .. وفي هذه الغرف جلست الراهبات بالملابس التي كان يرتديها اليهود في أيام المسيح ، وفي هذه المغارة يروين قصة المسيح وعذابه .. وهناك تماثيل ولوحات .. أشهرها تمثيل المسيح عندما ألقى القبض عليه وهرب من حوله الحواريون .. وهناك أشرطة مسجلة وموسيقى تصويرية لآيات من الكتاب المقدس .

كل هذا في مقهى ومن صنع فرد لا هيئة حكومية أو هيئة دينية .. ومثل هذه الأماكن الأثرية كثيرة جداً في أمريكا .. فإذا كان الأميركيان يصعب عليهم أن يسافروا إلى القدس وبيت لحم في الأردن أو الناصرة في إسرائيل فإن الحالات التجارية هنا تنقل إليهم هذه الأماكن التاريخية ..

هذا الجو الديني قد أضاف إلى هوليوود ولوس أنجلوس ويفريز هيلز وعياراً جديداً وقوراً .. أو أعطاها بعض الصدق .. !

وكل الأفلام المعروضة هنا في هوليوود مأخوذة من الكتاب المقدس .. فهنا : الوصايا العشر .. وبن هور .. والصياد الكبير .. وشمرون ودليله .. وسلمان وملكة سبا .. وابن الإنسان .. وملك الملوك .. ويوسف وإخوه .. وأعظم قصة رويت للناس .

وف التليفزيون يظهر بابا نويل يعلن عن الصابون وأمواس الحلاقة والبطاطس والسيارات موديل العام القادم وعن أحسن وسيلة لشراء السيارة من غير قسط أول ..

نشاط وحياة وبيع وشراء وحظ وهيصة .. بلاد غنية صناعية ناجحة .. وكل ما تريده تجده .

إن أحسن السيارات التي تراها في شوارع هوليوود رخيصة جداً . . السيارة الكاديلاك المستعملة وفي حالة جيدة جداً يصل ثمنها إلى سبعين جنيهاً ومائة جنيه . وأسهل للسائح الأجنبي هنا أن يشتري سيارة من أن يركب التاكسيات أو الأتوبيسات . . وعندما يسافر من هذه البلاد بيعتها بسعر أرخص قليلاً .

والسيارة الصغيرة بدأت تملأ الطرقات . . ولكن الأميركي يفضل السيارة الكبيرة . . السيارة المريحة . . التي تتسع لكل أفراد أسرته في رحلة نهاية الأسبوع التي يقطع فيها مئات الأميال لكي يجلس في هدوء أو في مرح لمدة ساعتين أو ثلاثة ، وقد حمل معه كل أدوات الطهي . . ومعظمها في علب من الورق . . ومعه أيضاً عدد لا يحصى من الحبوب ، هذه للكبد وهذه للأعصاب وهذه للنوم وتلك للبشرة وغيرها للصدر والأنف والشعر ويملاً يديه بخفة من الأقراص قبل الأكل وبعدة وorraعه الراديو يعلن عن ظهور أقراص جديدة لم يسمع بها أحد . . هي سر السعادة في العالم . . ويطلب إليك أن تنزل وتشتريها الآن . . إنها أعظم هدية لك – انزل الآن هكذا يقول الراديو !

وفي الليل يعود الأميركي إلى البيت ويري التليفزيون . . التليفزيون كله أفلام ومتاجر وقصص . . هذه الأفلام كلها أعدتها واشترتها شركات تجارية . . فثلاً تجد فيلماً لرعاية الأبقار تقدمه شركة كاوتش جودير ، تم تجده فيلماً قد ياماً لروبرت تايلور تقدمه شركة « سليب ايز » للبوب المنومة . . وتوجد هناك ست بخطات تليفزيونية . . و تستطيع أن تتنقل بينها كما تريده !

والصحف تصادر في نهاية الأسبوع في ٢٠٠ صفحة وأحياناً ٢٥٠ صفحة للصحيفة الواحدة . . وكل صحيفة عبارة عن عدد كبير من المجلات . . مجلات للأطفال والشباب ولست البيت والمهندس والطبيب والسيئها والتليفزيون ومجلة سياسية وأدبية . . ويساع العدد عادة بحوالي ثمانية قروش . . والصحيفة الواحدة تكفي لجميع أفراد الأسرة . .

. وفي أمريكا ينادون أي إنسان باسمه . . ابتداء من رئيس الجمهورية حتى الجرسون الذي يقدم لي الشاي هنا . . على فكرة هذا الجرسون عنده سيارة وأبنه وبنته الأربع وزوجته عندهن جميعاً سيارات . . وكل العائلة تعمل جرسونات

واعمالات تليفون . . لا تدهش فتحن في أمريكا .

ولا شيء يتعب السائح في أمريكا إلا الأسعار وإن المسافات البعيدة جداً . . فالأسعار أعلى من أي مكان في الدنيا وأنا أقول الدنيا عداؤ لأنني رأيت كل القارات : أوروبا وآسيا وأستراليا وأمريكا . . ثم إنني من أفريقيا . . وإن المسافات هنا مخففة ، فلما أن يركب الإنسان التاكسي وهذا غال جداً أو الأتوبيس وهذا يضع له وقته أو الطائرة وهي سريعة وغالية أيضاً . .

والتأثير الذي تركه هوليوود في النفس : أنها مدينة كبيرة والناس فيها جامدون أو وجههم لا ترحب بك . . وهذا صحيح في أول الأمر . . ولكن يمكن أن تعرف أمريكياً واحداً أو فتاة أمريكية . . وبعد ذلك ستتشكّو من كثرة الأصدقاء الطيبين الذين يدعونك إلى الحفلات واللقاءات والعشاء . . وإلى حفلات الرقص وإلى النوادي والجمعيات . . وكل شيء يتم في بساطة وبسهولة ومن غير أي تكلّف . .

* * *

ولكن المجتمع الأمريكي رغم هذه الأنوار والميضة مجتمع صناعي تجاري . . كل شيء فيه بالورقة والقلم والساعة وكل شيء قابل للبيع في أمريكا ، كل شيء وأى شيء . . وربما كانت هذه هي أسباب كراهية الأميركيكان للיהודים مثلاً . . واليهود هم المحكمون في الصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما ويحكمون أمريكا من مدينة نيويورك حيث البورصة العالمية ، ومن مدينة هوليوود حيث السينما .

واليهود تجار مبادئ وأخلاق وأعراض ورقيق أيض . . وفي هوليوود جريمة كبيرة ، جريمة بيع رقيق أبيض يقوم بها يهودي اسمه ميكى كوهين .

وهناك في هوليوود جمعيات لا يدخلها اليهود . هكذا نص القانون ، والسبب هو أن اليهود يحولون كل شيء إلى بيع وشراء . .

إن المسرحية التي كتبها الأديب اليهودي أرثر ميلر باسم « بعد السقوط » تتحدث فيها عن انتحار زوجته مارلين مونرو قد اتهم فيها تاجر الرقيق أبيض . . ولم ينشأ أن يذكر أن هذه تجارة يهودية ؟

وهنا جمعيات غريبة جداً في هوليوود . . فهنا جمعية الإخوة وجمعية الأخوات ولا يدخلها إلا الأرستقراطيون جداً . . فجمعية الإخوة تشرط شروطاً عسيرة في أي عضو ، فالجمعية تنعقد وتطلب من العضو أن يفعل شيئاً غريباً ، وإذا فعله قبلوه

عضوأً واحتفلوا به احتفالاً ضخماً .. وفي الأسبوع الماضي مات عضو جديداً ..
والسبب هو أن الجمعية قررت أن يأكل العضو رطلين من الكبد النيئة وأضطر العضو
الجديد أن يأكل الرطلين وهو قرقان جداً .. ومات وعرضت القضية أمام المحكمة
وحكمت المحكمة ببراءة مجلس إدارة الجمعية .. واعتبرت العضو مسئولاً ..
وجمعية الأخوات لها شروط قاسية ، ومن أهم نشاط الجمعية أن يبيت
الأعضاء كل أسبوع مرتين أو ثلاثة في بيت واحد وقد علمت أن هذه الجمعية
لها نشاط شاذ !

ويعنى ذلك أن هوليوود فيها الأرستقراطيون جداً وفيها المتحررون من هذه
القيود .. فيها الذين يسكنون في أعلى الجبال ، وفيها الذين يجلسون في النوادي
على الأرض ويأكلون في أحواض تشبه الزرابي !

ويوجد ناد اسمه « بيت الغاز » إذا رأيته فزعت من شكله من الخارج أو من
الداخل فلا تجد به مقاعد ولا مناضد .. وإنما تجد به أحجار وأحواض فارغة ،
ويضاء بمصابيح من الغاز ، وعلى الجدران صور للعفاريت والأفاعي .. هذا النادى
يمجلس فيه الطلبة والفنانون والأدباء ولم يمدادي ولم فلسفة ..

هوليوود صورة لأمريكا كلها .. وهى حية .. فيها مرح وعمل وشركات تجارية
متascaكة وجمعيات علنية وسرية في غاية الانحلال .. وهذا هو مقياس المجتمع
الصحيح .. فالمجتمع الذى لا يعرف المرض غير موجود أو هو مجتمع غير طبيعى .
المجتمع الذى لا يعرف إلا المرض والانحلال ليس مجتمعاً وإنما هو مستشفى
أو ملجأ فهو يشبه « بيت الموق » الصيني الذى يعيش فيه العواجيز ينتظرون قبور
الموت وأقاربهم يبكون أمام الباب .

وإذا كانت هناك جرائم فهناك احترام للقانون أيضاً .. يمكن أن ترى نظام
المرور ، وكيف أن ألف السيارات يجب أن تقف لأن أحد المشاة يعبر الطريق
بين الخطوط البيضاء ، وكيف أن السيارات تقف عند إشارات المرور وتتجه
إلى اليمين وإلى الشمال في الخطوط المرسومة .. أنا لا أذكر أننى رأيت سيارة
اصطدمت بأخرى في أى شارع وفي أى وقت .. رغم أن عدد السيارات هنا
أكثر من ثلاثة ملايين سيارة .. طبعاً في داخل المدن ، أما في خارج المدن
فلا عدد للحوادث .

● فِي مَدِينَةِ السِّيمَنَادِ الْهَبَابِ :

أعتر عن استخدام الكلمة « الهباب » . . . ولكنني في الحقيقة لم أجده أية الكلمة أخرى تدل على « الهباب » . . . وأذكر أنني في المدرسة الابتدائية كنت أستعمل هذه الكلمة لأنني لا أعتقد أن كل القراء تعلموا في نفس مدرسي وعلى يدي نفس المدرس . والهباب كلمة تنشرها الصحف هنا يومياً وباهتمام شديد . . . وفي النشرة الإخبارية التليفزيون يرسمون خريطة لدرجة كثافة الهباب اليوم وغداً . . . وأول كلمة نسمعها في الصباح هنا بعد كلمة صباح الخير هي كلمة الهباب وأنه اليوم قليل لحسن الحظ أو كثير لسوء الحظ .

وإذا مشيت في شارع هوليود ووجدت إنساناً يغمز عينيه الأثنتين فلا ترى العطن به . . وإذا وجدت فتاة تقف في جانب من الشارع وتمسح عينيها الحمراوين وإذا وجدت رجلاً يمسك أنفه كبيراً ثم يدخل به - أقصد هو وأنفه - إلى الأجزاجانة فليس معنى هذا إلا شيئاً واحداً . . « إنه السموج » أى الهباب !

والسموج الكلمة الأمريكية هي اختصار لكلمتين هما : اسموك « أى الدخان و « فوج » أى الصباب . .

فهذه المدينة لا يشهو معالها ، ويذمع عيون بناتها الخلوة ، ويسد أنوف رجالها إلا هذا الصباب . وليس له حتى الآن أى علاج .

فُو مدينة هوليوود حوالي ثلاثة ملايين موتور سيارة وموتوسيكل . . وكلها لا تتوقف ليلًا ولا نهاراً . . ويوجد هنا عشرات المصانع وعشرات من مستودعات البترول . . وهي جميعاً تخرج كميات هائلة من الغاز المحرق . هذا الغاز المحرق يملأ الجو بسحب كأنها مسحوق الشطة أو الكohl أو « ششم الديك » الذي اكتوينا به جميعاً ونحن صغار — هذا الكلام فقط لأبناء المتصورة ! وتبقى هذه السحب عالقة في سماء المدينة إلا إذا هبت بعض النسمات من المحيط الهادئ ، وهذا نادر جدًا . .

والأغnaire هنا يسكنون التلال العالية . . فوق مستوى الهياب . .

وخارج هذه المدينة توجد ستوديوهات السينما كلها ؛ مترو جولدوين ماير وفوكلس ووارنر وبарамونت واستوديوهات ديزني . . وسبب وجود هذه الأستوديوهات طبعاً ليس وجود المباب هنا . . وإنما وجود الجبال والغابات والوديان والخيط والسيء الصافة الدائمة طول السنة .

ولا أعرف إن كان انتشار السل هنا سببه هذا الهباب أو هباب السجائر التي يدخنها الأطفال والعواجيـز . . أو سبب انتشاره هو حرص أمريكا على أن يكون لديها كل شيء : الصحة والمرض والمال والجمال – نسبة المتعلمين هنا وفي اليابان ١٠٠٪ – والحرص على القانون في النصب والاحتياـل ، والمشي بين العلامات البيضاء في الشوارع ، وتجارة الرقيق الأبيض ، وقراءة الكتب الطويلة والعنيفة ، والجلوس إلى التلفزيون ساعات طويلة بلا قراءة ولا كتابة . .

وقد سألت عن الطرق التي تفكك فيها هيئات هوليود للتخلص من المهايب .. وقد علمت أن هناك طريقة واحدة حتى الآن : وهي أن أصحاب السيارات يجب أن يمشوا بسرعة أكثر .. أقولها مرة أخرى .. أصحاب السيارات هنا يجب أن يلدوسوا على البيزین بأقصى ما يستطيعون .. والسبب هو أن السيارات عندما تسرع يخرج منها الدخان « ناضجا » ولكن عندما تمشي على مهلها ، فإن المهايب يخرج شيئاً .. يخرج بع أسود ثقلاً ..

ولكن هذه الطريقة مع الأسف لا يمكن أن تنجع ، لأن هوليود ما تزال

مليئة بالسكان . . والسيارات كثيرة جداً فلابد أن تمشي على مهل في داخل المدينة
ما يزال عدد المهاجرين لها من كل الولايات الأخرى يتزايد يوم بعد يوم . .
ومعنى ذلك مئات الألف من السيارات الأخرى المتراكمة !

والعلاج الوحيد هو أن ولاية كاليفورنيا عليها أن تختار بين السيارات وبين
الناس . . ويبليو أن الولاية اختارت السيارات . . أما الناس فهم الذين اختاروا
هوليود ويفضلون الحياة فيها . . رغم الدموع السوداء !

• • •

أصبحت الآن أعرف كل الجرسونات الذين يعملون في فندق روزفلت .
وليس هذا بالشيء القليل . . وإذا نزلت في هذا الفندق . . فالجرسونات
طراز غريب جداً من الناس : واحد منهم من أصل سوري واسمه « حنالطوف »
وعنه ١٤ ولداً ، والآخر من البرازيل ، والثالث من الفلبين ، والرابع من إيطاليا ،
والخامس من إسرائيل ، والسادس من كندا . . وكلهم طوال عراض . .

وفي أول اليوم دق الباب وفتحته . وكان أمامي رجل أنيق ومدحت يدي أسلم
عليه . فقد ظنتت أنه مدير العلاقات العامة بإحدى شركات السينما . . أو أنه
ضابط اتصال إحدى شركات الطيران . . وفوجئت بعد ذلك بأنه يسألني :
مفيش عندك غسيل !

وفي اليوم التالي دخل الغرفة أحد الجرسونات واتجه مباشرة إلى جهاز التليفزيون
ولعب في بعض مفاتيحه وابتسم ولم أفهم فسألته . . فعرفت أن التليفزيون كان
مفتوحاً رغم أن الصور لا تبدو على وجهه . وبعد ذلك أتى معاشرة في تطور
التليفزيون ، وعرفت منه بعد ذلك أنه اشتغل في إحدى شركات التليفزيون وكان
له برنامج وأخرج من جيده بعض الصور التي نشرت له في الصحف والمجلات . .
وبعض النقاد وصفه بأنه موهوب . ولم أسأل الموهوب عن الأسباب التي ألت
به في هذا الفندق . . والسبب طبعاً هو أن هذه الصور كلها إعلانات من جيده
هو ، وأنه ليس موهوباً ولا حاجة !

وأول أمس دخل جرسون طويل جداً وقال بالعربية : السلام عليكم يا أفتدم . .
كيف حالك اليوم . . إن شاء الله مليح ؟ !

وعرفت أنه عاش في البلاد العربية ست سنوات في الحرب العالمية الأولى وأنه يعرف رجلا في مصر اسمه : الشيخ عبد الباسط المتول نور . . وأن الشيخ عبد الباسط هذا كان يعيش بالقرب من حديقة الأزبكية . . وطلب مني أن أبلغه السلام . . وألح في الطلب . وهو يستبعد أن يكون الشيخ عبد الباسط قد مات لأنه من أسرة كل أفرادها يعيشون حتى المائة وزباده . وكان الشيخ عبد الباسط في الحرب العالمية الأولى قد تجاوز العشرين قليلا . . وليس بعيداً أن يكون حيا . . فلاليه السلام والتحية من جاك أرهرت جرسون رقم ٣٧ في فندق روزفلت بمدينة هوليوود !

وأمس دخل الغرفة جرسون أسم اللون وأنيق في ملبيه وفي كلامه وفي حركتاته . . يحمل صينية الشاي وكأنه يحمل ميدالية ذهبية يريد أن يعلقها على صدرى في احتفال كبير بمناسبة أننى ضربت الرقم القياسي في تناول الشاي من غير سكر منذ ستة شهور . وقد لاحظ الجرسون أننى أعطس ف قال : أنت مذكور . .

فقلت : نعم . .

— أخلع حدامك وجوربك حالا . . خليني أشوف عندك إيه . !

قالها بلهجة جادة وظننته يقوم بيور تمثيل . . فنحن هنا في مدينة التمثيل والسينما . . وزرعت المذاق والشراب ومددت ساق على المقعد الذى سحبه . . وراح يضغط على أصابعى . وقال بعد تفكير : إنك من السهل جداً أن تصاب بزكام أليس كذلك !

— تماماً !

— وربما تبقى مذكوماً شهوراً ؟

— تماماً . . ولو عطست أنت الآن فأصاب برشح بعد ثانية واحدة ! .

— هل تعرف السبب ؟

— أعتقد عندي حساسية شديدة . . أو حساسية أكثر من اللازم . وهذا يتبعني كثيراً جداً . . يكفي أن أقول لك إننى كنت مذكوماً في الهند الحارة وفي أندونيسيا الاستوائية وفي الفلبين الحارة وفي اليابان المعتدلة . . مذكوم دائماً وإذا تغيرت درجة الحرارة حول تغيرت درجة الحرارة في داخل . .

— هل أصعبك هذا يجعلك !
— أيوه يجعلني .. وهذا الأصعب أيضاً .
— السبب هو أنك لا تأكل الفواكه والسبب هو أنك .. « وهم في أذى
 بكلام طويل أضحكني » .
وانتهت النكتة عند هذا الحد ..

ولكن الجرسون أخرج بطاقة من جيده وقدمها لي مع بعض صور جميلة عارية !
وقرأت فيها : الدكتور إيزادوره الكافوري طبيب أمراض نفسية وعقلية وبعالج
بلا عقاقير .. شارع .. شقة .. تليفون .. وعرفت فيما بعد أنه ينصحني بأن
أتردد عليه في اليوم التالي لأشاهد العيادة بنفسى أو ليعرضنى على طبيب آخر ..
على طبيب زميل له في نفس العيادة — وعرفت فيما بعد أن هذا الزميل يعمل جزاراً
في حى بيفرلى هيلز ، وهو حى الطبقة الأستقراتية وبخوم السينما هنا ..
وقرأ « الجرسون الدكتور » على وجهى سطوراً ملخصطة للدهشة والسخرية فقال :
أنت لا تصدقنى .. اقرأ ما كتبته الصحف عنى ! ..

وأخرج من جيده مجموعة من الأوراق وكلها إعلانات عنه .. إعلانات
بنفسه هو .. ثم كلمة عابرة عنه ، كلمة شكر من مريض يقول فيها : إننى
أدين للدكتور إيزادوره بسعادتى الزوجية ..

وسألت الدكتور عن معنى هذه السعادة الزوجية .. فعرفت أنه أصلح
بين هذا الرجل وزوجته وتم الاتفاق على الطلاق .. وكل منهما يعيش في بيت
مستقل مستريح بالبال !

وقد قابلت أول أمس في صناديق الليل عدداً من الأطباء والممهندسين وكلهم
يحملون ألقاباً علمية .. وعرفت فيما بعد أن أمريكا متساحة جداً مع أبنائهما ..
فليس هناك قانون يحمى الدكتور الحقيقين من حملة الشهادات العلمية من أمثال
الدكتور إيزادوره .. الذى يهوى خلعة الناس ، فى الفنادق ..

وقد سألت الدكتور إيزادوره : ولماذا لا تهم بالعيادة وترك الخدمة هنا ؟
فاعتذر في وقوته ووضع يديه حول وسطه وقال : اسمع يا ولدى .. الحياة
علمتني أن الذى لا يعمل لا يأكل ، وأن الذى لا يجرى وراء اللقمة تجرى منه

اللهم .. فأنا هنا أدعوك لنفسك وأتصيد زبائني .. فهذا أحسن وأ Rinse طريقة للدعاية للعبادة التي أديراها ..

ثم اعتدل أكثر مقلداً تمثال سعد زغلول وقال : وأهم من هذا كله أنني أدرس الناس !

ورويت هذه المناقشة لأحد مدحيري الفندق . . فضحك وقال لي إنه على استعداد لأن يعرفني برجل آخر يعمل في المطبخ ويتوهم أنه أول من اخترع صاروخاً للقمر . .

وسأله : إن كان هذا الفندق تابعاً لمستشفى الأمراض العقلية ؟ فأجاب :
بأنه تابع لأحد الملاهي . . المهم أن يضحك الترددون ويتذكرة شيئاً يرويه
لأصدقائه عندما يعود إلى بلده . . وإذا كان عنده في القاهرة جرسونات أتعجب
فابت بهم إلينا !

ما يزال في رأسي شيء أريد أن أقوله عن « الجيل الجديد » في أمريكا . .

أريد أن أكلمك عن هؤلاء الساخطين هنا

لأن كل شيء هنا واسع وطويل وعربيض ومنير واضح ، فالموضوعة هي أن
الإنسان يهرب إلى الأماكن الضيقة المظلمة المزدحمة القرنية !

ولأن كل شيء في الدنيا يخضع لنظام أو هيئة أو مؤسسة أو لنقابة ، ولأن
الفرد لا وجود له إلا باعتباره عضواً في هيئة ، فإن الشبان هنا يهربون من النظام
ومن القيود والتقاليد ، إلى أماكن لا نظام فيها ولا ترتيب ولا أرقام ولا درجة
ولا طوابير ..

ولأن كل عمل يقوم به الشباب ، في هذا المجتمع يقتضي منه الاتباه والوعى
ولألا ضاع وراحت عليه كل فرص الحياة ، ولأن الحياة تحتاج هنا إلى كفاح
شديد ، وليس سهلة ولا هينة كما تتصور ، لأن كل شيء هنا في أمريكا
بالفلوس ..

کل شی . . . وف استطاعتک آن تتخیل ای شی، ای میبدآ ای دین

أى فلسفة أى عمل تجاري أى عمل أخلاقي . . كل شيء في أمريكا تجارة في تجارة . . فالجيل الجديد من الشبان يذهب إلى أماكن سرية ويظل جالساً في استسلام لا يفكر ولا يقول شيئاً ، وإنما يركن عقله كأنه سيارة قطعت طريقاً طويلاً وموتوتها يكاد يختنق . . يركن السيارة ويترك أبوابها ونوافذها وأغطيتها كلها مكشوفة ويجلس في استسلام وسلبية تامة . . كأنه رحالة ضل الطريق في الصحراء وفي انتظار من ينقذه . .

ولأن الصحف والإذاعة والتليفزيون والسينما تضغط على عقل الأمريكي الشاب . . لأنها كلها مؤسسات تجارية تزيد الربح ، ولأن هذه المؤسسات تخدم أناساً لهم مصالح في الحروب وفي تجارة السلاح ، ولأن بعض هؤلاء الناس يغامرون بسلامة أمريكا من أجل مصالحهم الخاصة ، ولأن هؤلاء الساسة قد ورطوا أمريكا والشعب الأمريكي في مواقف ضد مصالحه ، فهوئاء الشبان يهربون من الكلام في السياسة والاستماع إلى الساسة وإلى الإعلانات وإلى القصص والأفلام التي تقدمها شركات البطاطس وشركات البيض وأمواس العلاقة . . يهرب من هذا ويجلس في صمت دون تفكير ودون قراءة ودون كتابة . .

ويستسلم إلى الجلوس في الظل ، إلى الجلوس على الرف .

لقد رأيت عدداً من الشبان كالورد بلا شوك . . كالورد في اللون والضراوة والذكاء . . كل هؤلاء جالسون يستمعون إلى موسيقى عاوية نادبة من أصوات النورج . .

وهوئاء الشبان يشربون الشاي أو القهوة ويدخنون ولا يقولون شيئاً . .

وحاولت أن أسأل واحداً منهم إن كانوا يتزدرون هنا كل يوم . . وهز رأسه يقول نعم . . وسألته إن كانوا يفضلون الجلوس هكذا في صمت . . وعلمت منه ومن غيره أن هذا هو المكان الوحيد الذي لا يقول فيه إنسان أى شيء . . فالكلام في أمريكا كثير ومكتوب بالنور وبالحبر وبالحديد وبالحشب ، ومكتوب بهذه الأجسام الشابة المستسلمة . .

وكل يوم أقرأ في الصحف عن ارتفاع نسبة الجرائم بين الشبان . . في المدن

الأمريكية الكبرى . . جرائم السطو والاعتداء . . وكل يوم نسمع علماء النفس وعلماء التربية يصرخون بأعلى أصواتهم أن الجيل الجديد في خطر وأنه لابد من تغيير أساليب التدريس !

تدريس ليه ؟ وإنما هي الحياة المنزلية المعلومة . . الحياة الاجتماعية المفككة . المجتمع الصناعي التجارى الساحق الذى أصبح يبعد « الهيئة » ويعبد « المنظمة » ويعبد « النقابة » ويعبد الوقوف بين العلامات البيضاء على الأرض وعلى السقف وفي البيت وفي المكتب وفي المصانع وفي المعبد . .

والناس في أمريكا يعبدون النظام لا للفائدة التي يتحققها النظام ولكن لمجرد طاعة النظام . . طاعة الهيئة . . والمؤسسة . ولأن حياة الفرد في المجتمع الصناعي لا معنى لها وحدها وإنما معناها بالجملة مع الآخرين . .

وثورة الشبان هي ثورة على قيود هذه الهيئات . . وتكون النتيجة دائماً أن يموت الفرد والفردية وتبقى الهيئة .

وال مجرم الشاب الذي يقتل . . إنه في الواقع أخطأ الطريق إلى جريمته . . فإنه بدلاً من أن يقتل كل المجتمع قتل الحروف الأولى منه . . قتل أحد أفراده . .

والإحساس بالضياع هو أوضح شعور عند الشبان في أمريكا . . ضائعون تائهون لا يرتبطون بأى شيء . . إنهم يربطون أن يعيشوا في سلام مع أنفسهم ومع غيرهم . ولكن أعصاب الناس في أمريكا منهاقة . فال்�تليفزيون والسينما تحطمها شيئاً لظهور أدوية وعقاقير وجوب وسائل وفيتامينات تصلح هذا الجسم المتعب والعقل المجهد . .

ويظل الشاب الأمريكي حائراً بين السينما والمصنع والأجزاء الخانة حتى يموت وهو يعمل . . وفي النهاية تقضي زوجته بوليصة التأمين على حياته وتتفقدها على أولادها أو على زوجها الجديد . .

لأنني أعنتر الشبان ولا أرى غرابة في الاتجاهات الصارخة في الأدب الأمريكي الشاب بزعامة المرحوم جاك كيرولاك وهو الذي أطلق على هذا الجيل الجديد اسم الجيل الصارخ أو « الجيل الصالح » . . وهو جيل عنده شعور بالفشل وخيبة

الأمل والضياع . . وهو جيل أعجز من أن يقوم بأى إصلاح . . إنه جيل قد
أنسند ظهره للحاطط الذى يملكه التجار والساسرة فى أمريكا . . إنه جيل ساخط
اليوم وحاذد جداً . . وصوته أضعف من أن يسمعه أحد . . ولذلك فكل أفراد
هذا الجيل يتجمعون فى الفلام ويضغط بعضهم على بعض ويحطم بعضهم البعض
دون أن تثار شظاياهم إلى عيون الآخرين من الراضين اليوم والساخطين جداً !

إن هؤلاء « الهبيز » ليسوا إلا شباناً احتجوا على المجتمع الأمريكي . .
وانسحبوا من إلى حياة بدائية . . وانسحبوا مرة أخرى بعدم المشاركة فيه . . وانسحبوا
مرة ثالثة بتذليل الحشيش . .

لأنهم « اعتذروا » عن أن يكونوا مواطنين . . ورفضوا أن يكونوا سفاحين فى
فيتنام . . وارتدوا إلى ماضى الإنسانية كلها . . أيام كان الإنسان فى حالة . .
وحالة هو السلام مع نفسه ومع غيره من الشبان !

● هارب من الرَّحْمَانَةِ !

اقرحت على أحد أعضاء نقابة العمال هنا عملاً جديداً . . عملاً ليس معروفاً في أمريكا ولا في أي بلد في العالم . . وهذا العمل من اختراعي ومن ملاحظاتي ومن تجاري . . وسألته إن كان من حق أن أجعل هذا الاختراع فقال جاداً جداً : ممكن ومن حقك .

أما هذا العمل فهو أن يقوم أحد الناس أو أكثر من واحد بارتداء الأحذية الأمريكية الجديدة ويمشي بها في كل شوارع المدينة والقرى ويركب الأتوبيسات بقصد « توسيعها » . . فقد لاحظت أن كل الأحذية الأمريكية هنا ضيقة جداً . وليس سبب ذلك أن قدري كبيرة بل هناك أمريكيان كثيرون أندامهم أطول من قدم آدم عليه السلام - قدم آدم مرسومة فوق جبل في جزيرة سيلان وهي في طول زوارق الصيد - . ولكن الأحذية الأمريكية نسجتها ضيقة دائماً . من الخلف أو من البوز أو من الجوانب . . قد تكون طويلة جداً ولكن لا بد أن تكون ضيقة في مكان ما ، ومعنى ذلك أنها مسألة لا علاج لها . . إذن فالحل الوحيد أن يحي بعض الانتخاريين ويرتدون هذه الأحذية يوماً أو يومين حتى تتسع ثم تعرض للبيع - الإنجليز يفضلون نفس الحكاية في ملابسهم . . ففي إنجلترا لا يجد أحداً ابتداء من رئيس الوزراء حتى الكناس يرتدي ملابس جديدة . . والسبب هو أنه ييلو أن الإنجليز يفضلون ملابسهم ثم يبعثون بها إلى المستعمرات ليلبسها آخر وقت بقصد التجربة والتلويع ثم يردونها إلى إنجلترا !

وعرفت فيما بعد أن الأميركيكان ليس لديهم أحد متخصص في توسيع الأحذية ولكنهم يقومون بهذا العمل من تلقاء أنفسهم اقتصاداً للأرجل العاملة . . فالأمريكي يشتري الحذاء الضيق . . لابد أن يكون ضيقاً ويرتدى بعد ذلك حذاءه القديم بعد أن تسلخت قدماه من الحذاء الجديد . . وبعد أن يتم شفاء قدميه يرتدى الحذاء الجديد الذى يكون قد ضاق مرة أخرى . . فيعود يوسعه مرة ثانية وتسلخ قدماه من جديد . . وهكذا . . وربما كان هذا هو السبب في وجود كثير من الأميركيكان يعودون في أيام السبت والأحد من كل أسبوع . . !

وقد ذهبت إلى أحد محلات الأحذية . . المحل عبارة عن مطعم ومعه مقهى ثم جناح لبيع الأدوية . . وجناح آخر لبيع السجائر وبطاقات عيد الميلاد . . وجناح آخر خاص للعب والمرأيش . . وفي جانب كبير منه يوجد جناح بيع الأحذية . . جناح الأحذية نظيف وأنيق . . الصناديق كثيرة . . والأحذية معروضة كأنها مجموعة من الكتب . . وكل حذاء تحته ورقة ورسم وكلام كبير وأرقام ورسوم بيانية ومطرقة كهربائية تضرب حذاء كهربائياً .

وتقصد مني البائع وسألني إن كان في استطاعته أن يخدعني ! . . فقلت له :

ـ أنا أبحث عن حذاء لا يوجد قدمي .

فضحكت . . ولكن لم أضحك . . وطلب مني أن أنزع الحذاء . . وراح يقلب في حذائي . . وعرف أنه من اليابان ونزع جوربي وراح يقلبه أيضاً . ثم أتي بفرخ نشاف ووضع قدمي فوقه وضغط على أصابع قدمي ثم وضع بعض المسحوق الأسود على آثار قدمي على النشاف . . ورأيت أصابعى سوداء على الورق . وأمسك مسطرة وقلماً وراح يقيس الطول والعرض . . ثم عاد فقايس التجويف الموجود في باطن القدم ثم قاس دوران الكعب . . وبعد ذلك أتي بفرخ من النشاف اللين جداً . . إنه يشبه اللباد . . وطلب مني أن أقف فوق اللباد وبعد لحظات كانت قدمي مطبوعة غائرة في اللباد . . وقاد قدمي الآخر . . وجلس أمامى وكأنه عالم في طبقات الأرض أو أحد علماء الفلك . . وضع منظاره على أنهه وقال لي : هل تعلم أنه لا توجد قدمان متساويان . . لا توجد قدمان في أي إنسان متساويان

لا في الطول ولا في العرض ، حتى ضغط الإنسان على القدمين ليس واحداً .. وقد مضى ذلك الوقت الذي يرتدي فيه الإنسان أحذية جاهزة .. إننا لا نرتدي منظاراً طبياً جاهزاً فكل عين لها مقياس ولها قدرة على الإبصار .. وإذا كان هناك علم للكلف فمن المؤكد أن القدم لها علم وعلم يعتمد على أساس صحيحة .

وبعد ذلك أعطاني درساً آخر عن أنواع الجلد .. ودرس آخر عن جزءة العمر كله .. ثم بعد ذلك عن أحسن أنواع الجوارب ، ثم أحسن أنواع البدلة التي توضع بين الأصابع ، ثم عن حمام القدم ، ثم عن أحسن الأوضاع للقدم عند النوم .

وبعد ذلك مد يده إلى فاتورة وبدأ يكتب .. ومحث في السطر الأول ٢٠ دولاراً ثم ١٠ دولارات ثم الضريبة .

وبعد ذلك ١٠٪ للمحل .

مصببة سوداء !

لأنني لم أر في حياتي أجزخانة للأحذية .. فهذه أول أجزخانة رأيتها في حياتي .. وهذه أول روشة يكتبها جزئي لا طبيب .

هذا الطبيب مجنون .. إنه لو وضع فرخاً من النشاف تحت جنبي فإن جنبي لن يترك أى أثر !

وقلت لصديق كان معى : يجب أن نتظاهر بأى شيء .. نتخلص من هذه الكارثة بسرعة .. فنالممكن أن تستريح قدمى بعد هذا الحذاء ، ولكن سيطر عقلى حتى .. وتظاهرنا بأن زميلاً ثالثاً يقف أمام الباب .. ولا بد من استدعائه .. وعندما وصلنا إلى الباب الخارجي قال لنا : مع السلامة !

لقد قالها بالعربية !

وقررت عندما أعود إلى مصر أن أفتتح اسماً جديداً للأجزخانة الخاصة بالأحذية هذا الاسم هو : الأحذخانة !

لا أعرف من الذي يستمع إلى الراديو أو التليفزيون في أمريكا . . لقد سألت الكثيرين هنا فقالوا : الأطفال والشبان يستمعون إلى الراديو ويجلسون إلى التليفزيون !

ومعنى ذلك أن نصف الشعب الأمريكي يستمع إلى الراديو ويرى التليفزيون ولكن المشكلة هي : كيف يستمعون إلى الراديو وكيف يتحملون التليفزيون ؟ إنني أجلس إلى التليفزيون ساعات ودهشتي وانزعاجي لا ينتهيان . . إن الأمريكي لا يدفع ضريبة للراديو ، تماماً مثلنا في مصر . . ولكنه في الواقع يدفع ما هو أكثر من ذلك علاجاً لأعصابه وعلاجاً لأطفاله . فالراديو في أمريكا والتليفزيون مأساة . .

كل شيء بصوت عال وكل شيء هنا صارخ . . فألوان الفساتين وقصان الرجال ، والحلو والمر معًا كالصلة .. وكل شيء هنا إعلانات .. كل شيء .. حتى بدأت أشك في الأحاديث الدينية التي تذاع في الراديو .

والذي أدهشتني أن أي برنامج يجب قطعه بعد بدايته بلحظات ليداع إعلان عن دواء لقتل الصرصار أو شيكولاتة جديدة . . حتى الأفلام العادية لا يكاد الفيلم يبدأ حتى يظهر أحد الممثلين في هذا الفيلم وفي يده شيء يعلن عنه . . لقد رأيت ديبورا كير في أحد الأفلام العاطفية المؤلمة جداً . . واقطع الفيلم عند موقف مثير وظهرت ثلاثة جديدة وأمامها ديبورا كير وتبسم للمتفرجين وتهتف بحياة الثلاثة الجديدة وبعد ذلك رأيت الدموع في عينيها . .

وسمعت ورأيت أمس إحدى المحاكمات المسلسلة . . المحاكمة طريقة ممتعة فعلاً . . موضوعها سرقة سلم من فوق أحد البيوت . . دارت المحاكمة والمرافعة . . ورفعت الجلسة ليشرب القاضي زجاجة من الكوكاكولا . . هكذا قال المذيع وبابتسام القاضي لذلك . .

وفي أحد البرامج ظهرت الممثلة المجرية زازا جابور . . في بساطتها وأسلوبها الذي يشبه أسلوب الأطفال هاجمت الإعلانات في الإذاعة الأمريكية .. ولكن المثير نظر إليها نظرة رآها الجمهور كله وقال لها : هذا الإعلان هو الذي اشترينا به هذه الملابس وهذه السجائر الفاخرة وهذه الأحذية الجيدة وانظر إلى هؤلاء

العارضات الجميلات إن ملابسهن من محل كلادوكلا . . الخ .

إن أحداً هنا لا يستطيع أن يعترض على هذه البرامج فليس له أى حق ..
 فهو لا يدفع لها ملية واحدة .. وعلى الرغم من أن الإذاعات المختلفة تتنافس على
المستمع بالأخبار والأفلام والفكاهات والمسابقات والأموال .. فإن الإذاعة
الأمريكية مزعجة .

وهي كالقضاء والقدر تصيب الناس في بيوتهم وفي سياراتهم وفي أى مكان ..
ولا يستطيع أحد أن يهرب منها .

والراديو موجود في كل مكان .. تجده في المطعم وفي البار وتجده على الصوت
كالمقاهي البلدية .. ولا نجد أحداً يستمع إليه ولكن أحداً لا يريد أن يسمعه ..
والبارات بها سينما .. بها أفلام وبعض هذه الأفلام عن مصارعة الثيران وعن
رعاية البقر .. كل هذه البارات حيث الضوء خافت والمقاعد ضيقة ومرحة
لاثنين ..

ويبدو أن الأمريكي لم يعد يحب العزلة .. إنه يحب الميصة .. يحب أن
يكون مع الناس .. أن يكون معهم في المطعم وفي الشارع وفي النادي .. ويكتفى
أن يجلس إلى الراديو دون أن يسمعه .

وكل شيء عند الأمريكي هو هيبة .. المشي متعة ، وركوب السيارة متعة ،
والجلوس في البيت متعة ، والأكل مع الأصدقاء متعة .. وكل شيء يعمله بحرارة
وبحماسة وبذلة .. يحدث كثيراً أن تسأل أحد الأمريكيين عن كيف أمضى
نهاية الأسبوع .. فترى السعادة على وجهه وتتوقع أن يكون قد سوى الموبايل في
هذا اليوم .. ولكنه يقول لك : ذهبت لزيارة والدتي .. إنها تبعد عن هنا
حوالى مائتي كيلو .. !

ولذا قال لك رجل أمريكي إنه أمس هيص فلا تذهب بعيداً فقد يكون
من هواة سماع الإعلانات في الراديو !

• • •

أذكر أنني رأيت في مدينة هونولولو شوارع كاملة مضاءة على الجانبين وبها
ألف سيارات وفي أعلى السيارات توجد عبارة : سيارات مستعملة .

ولما اقتربت منها وجدت أن السيارات كلها موديل العام الماضي ، والقليل جداً موديل العام الأسبق !

ولم أحاول أن أجده تفسيراً لذلك إلا أن أمريكا هي التي اخترعت السيارة وفيها شركات كثيرة لصناعة السيارات وبيعها بالأقساط .. وشراء السيارات القديمة وتقسیط السيارات الجديدة .. وأن شراء سيارة هنا كشراء حذاء لا يكلف الكثير ..

ولكنني رأيت في لوس أنجلوس ، وفي هوليوود ، وسان فرانسيسكو ، وكثير من المدن الأمريكية الأخرى ما هو أعجب من هذا كله .. وجدت شوارع وبيادين كلها تتبع السيارات المستعملة .. وتعلن عن هذه السيارات في الإذاعة والتليفزيون .. ورأيت هذه المعارض قائمة ليلاً ونهاراً والمسافرة يتنافسون في إرضاء الزبائن .. فالسمسار على استعداد لأن يغير لون السيارة ولون مقاعدها ويبعث بها إلى أي مكان في العالم وبالتقسيط أيضاً .. ويعطيك عناوين بعض العمالء لشراء قطع الغيار .. ويبدى استعداده لتبدلها مرة أخرى إذا ظهر الموديل الجديد.

ولاحظت أن السيارات المستعملة هذه جديدة جداً ونظيفة جداً وكأنها لم تتحرك من مكانها .. وسألت بعض الأمريكيان عن الحكمة في تغيير سياراتهم بهذه السهولة ؟

فهناك رأى يقول : إن الأمريكي يطبعه يحب التغيير .. فالأمريكان مدينون لهذا التغيير بكل حياتهم .. فقد كانوا في أوربا وجاءوا إلى هنا .. وغيروا وجه الأرض وحولوا الغابات إلى مزارع ، والمزارع إلى مصانع ، والمصانع إلى حدائق حمامات سباحة ومسابقات للجمال ..

وآخرون قالوا : إن الرجل الأمريكي تاجر وهو يحب الظهور .. فهذا الظهور يؤثر على الزبائن .. على المستهلك .. فيقنعه بأنه غني وأنه ناجح وأن بضاعته هي أحسن بضاعة وأتها هي التي عادت عليه بهذا الثراء وهذه السيارة الفاخرة .. !

وقليلون من رأيهم أن المصانع الأمريكية هي التي شجعت المستهلك على تغيير سيارته وإلا أقفلت هذه المصانع أبوابها إذا اعتمدت فقط على المستهلك الأجنبي .. وعلى تمسك المستهلك الأمريكي بسيارته القديمة .. والرجل الأمريكي

لا يحب القديم ولا ينظر إلى الماضي نظرة إنجليزية فرنسية خيالية حالمه . . فلا يوجد
أمريكي يقول لك إن هذه السيارة عزيزة عليه . . فقد قابل فيها فلانه لأول مرة . .
وذهب بها لأول صفقة كبيرة . . !

ولكنه يقول لك دائمًا : اللي معرفوش أحسن من اللي أعرفه . . الجديد أحسن
من القديم ، والمستقبل أحسن من الماضي . .

وهناك من يرى أن الطرق في أمريكا طويلة جداً وأنها تغرى صاحب السيارة
بأن ينطلق بسرعة مخيفة . . ومن النادر أن تجد سيارة في هذه الطرق الطويلة تمشي
بسرعة أقل من ١٢٠ كيلو . . ولذلك فهذه السيارات تتحطم متوراثها بسرعة . .
أما جسم السيارة فيبقى سليمًا . . والسيارة هي المотор . . وتغيير المотор يساوى الفرق
بين سيارة جديدة وسيارة قديمة . .

وجحا كان يقول : اللي عنده حنه يعني ديل حماره . . !
والأمريكان عندم أكثر من الحنة وليس غريبًا أن يغيروا ديل الحمار
والحمار أيضًا . . !

● عندما تكون زوجتك أمريكية

إذا كانت المرأة الشرقية تمشي وراء زوجها ووجهها إلى الأرض ..

وإذا كانت المرأة الأوروبية تمشي إلى جوار زوجها وتنظر إلى رجل ثان
ونتظر في رجل ثالث هرباً من رجل رابع وأملا في رجل خامس ..

فإن المرأة الأمريكية تمشي أمام زوجها وأحياناً تخرج أصبعها من جيبها
الأيسر فتقول لزوجها إنها ستتجه إلى الشمال ، أو تعوج جسمها إلى يمينها لتقول لزوجها
إنها ستتجه إلى اليمين . وأحياناً تتسلل من يدها سلسلة يتعلق بها كلب نظيف
من كثرة قبلات الزوج المطيع ، وأحياناً يتعلق الزوج من هذه السلسلة في يوم
الراحة الأسبوعية للكلب . !

... والكلاب في أمريكا مستريحه جداً جداً ..

لقد زرت عدداً كبيراً من بيوت الأمريكان . وكانت ملاحظاتي .. ولكن
البيوت التي أدهشتني فعلاً هي بيوت الشرقيين الذين تزوجوا من نساء أمريكيات ..
زرت أكثر من تسعة بيوت لأصدقاء من القاهرة وزوجاتهم أمريكيات ، لم
أذهب على سبيل الشفاعة بهم .. فلا شفاعة في الموت أو في الزواج ، وإنما ذهبت
لأرى كيف يلتقي الشرق القديم جداً بالغرب الحديث جداً .. أو الحديث جداً ..

وأسأرك لك عدة أمثلة رأيتها وسمعتها وكانت أحد المشتركين فيها ..

مثلاً : لا يصح للزوج أن يدعوه إلى البيت أى عدد من الناس . فمن رأى
الزوجة أنه يجب أن يدعو أربعة أو خمسة مثلاً ، لأنها لا تستطيع أن تطبع لهذا

العدد ، وليس لديها عدد من الأطباق أو الملاعق يمكن لهذا العدد . ولا يصح الزوج أن يسمح لضيوفه أن يحضروا إلا في الوقت المحدد وبالضبط ، وقد رأيت زوجة تترك البيت في هلوء نام لأن الضيوف تأخرت عن الموعد نصف ساعة .
وبعد الفراغ من الطعام يجب على الزوج أن يقوم بعملية — أقصد عمليات —
الفصل والكتنس وتجفيف الأطباق والملاعق ووضعها في المكان المناسب .
ولا بد أن يكون التعليق على الأكل ممتازاً .

يجب أن يقول الضيوف إن الطعام رائع مهما كان طعمه أو كانت رائحته
أو كانت الزوجة غشيمة .

وقد لاحظت أن الأزواج يطلبون من الضيوف أن يقولوا عبارات معينة لأن هذه العبارات بالذات تسعد الزوجة !

وإذا حدث أن دعا الزوج إلى البيت سكرتيرته في العمل أو زميلة له . . .
فأهلًا وسهلاً . ويجب ألا يندهش الزوج الشرق إذا عاد إلى البيت ووجد رجلاً
غريباً يتمشى في البيت وفي فه سيجار ضخم وأمامه كأس من ال威士كي وبعض
الفول السوداني . . وفي هذه الحالة يجب أن يقدم الزوج نفسه هكذا : أنا فلان
ويقول الرجل الغريب : أهلاً وسهلاً وأنا فلان . كيف حالك؟
وفي هذه الحالة تصرخ الزوجة من الداخل : هذا رئيسى في العمل . .
يا حبيبي تحب تشرب إيه؟ . .

طبعاً الزوج الشرق يجب أن يشرب كوباً من الماء أو يجب أن يضع قطعة
من القطن المبلل بالنوشادر في أنفه قبل أن يغنى عليه .!

نسبت أن أقول إن الزوج عندما أحضر سكرتيرته إلى البيت .. كانت مفاجأة
للزوجة فهو لم يخبرها قبل ذلك بأيام أنه سيدعو سكرتيرته إلى البيت . لعله نسي ،
لعله مشغول . ولكن هذا لا يمكن لإيقاع الزوجة . فالزوج يجب ألا ينسى ويجب
ألا يكون مشغولاً لأن الأجهزة الأوتوماتيكية في أمريكا تفك وتنكتب ولا تنسى
فكيف ينسى الإنسان مخترع هذه الأجهزة؟!

وقد حدث أكثر من مرة أن خرج الزوج الشرق من البيت احتجاجاً على
تصرف زوجته . . ولم تجد الزوجة حلاً لهذا الإحراج الشديد أمام رئيسها إلا أنها

اعتنىت لهذا الرئيس عن حماقة الزوج وعن غيرته العبياء ، ثم تركت البيت هي والرئيس وذهبت إلى أى مطعم أو ناد ليلى وسهرت هناك تحاول الاعتذار للرئيس بكل الوسائل . وعنديما عادت الزوجة إلى البيت وجدت الزوج سكران على الآخر فنظرت إليه من فوق إلى تحت ثم قالت له : برضه كله ترمي السجائر على الأرض .. مين اللي حيكتسها .. الخدامة إجازتها بكرة .

ثم ذهبت إلى غرفتها لتنام ومدت يدها إلى الراديو لتستمع إلى الموسيقى وفي يدها كتاب ظهر حديثاً عنوانه «كيف تحدّين رجلاً أحسن في ٢٤ ساعة؟» .

وقصص كثيرة غريبة .. ولكن المرأة الأمريكية تتصرف كأنها تثار لبنات أوربا وأفريقيا وأسيا وأستراليا . إنها تشخط في الرجل فيتحول إلى شيء صغير . والفزورة القديمة التي تقول : إيه اللي أد الفيل وينصر في منديل؟ والجواب التقليدي هو : الناموسية . ولكن الجواب الجديد هو : الرجل الأمريكي !

والقانون يعطي المرأة الأمريكية نصف ما يملكه الرجل عند الزواج .. فوثيقة الزواج هي وثيقة تملك كل ما في البيت من أثاث وثلاثات وراديوهات ، حتى السكينة التي في يدك عنديما تحاول ذبح زوجتك الأمريكية فنصف هذه السكينة من حقها ..

وأغرب حدثرأيته وسمعته وناقشه هو أن هناك زوجة أمريكية ستلد بعد أيام وزوجها صديق من القاهرة .. هذه الزوجة ستلد على الطريقة الجديدة – أى من غير تخدير ، من غير بنج – ولا بد أن تردد مرتين في الأسبوع على الطبيب ليعرف حالتها النفسية وليشرح لها ماذا سيحدث قبل وبعد وأنباء الولادة .. وليس في هذا كله أية مشكلة . فالزوجة مقتنة بأن هذه العملية مرحة وسهلة جداً .. وقد تمت ألف الولادات بهذه الطريقة دون أية حوادث .

وال المشكلة الآن هي : من الذى سيجلس إلى جوار الزوجة أثناء الولادة؟ من الذى يسلى الزوجة حتى لا تشعر بكل ما يحدث لها وفيها وحوظها؟ من الذى يشجعها؟ إن عملية الولادة تستغرق ثلث ساعات طويلة مملة الأصوات والوجوه والروائح فن الذى سيقوم لها بتغيير هذا الجو؟

والجواب هو : الزوج وحده هو الذي يجب أن يقوم بهذه المهمة . والمناقشة دارت هكذا أمامي :

الزوجة (وضعت ساقاً على ساق ونظرت لنا جميعاً باحتقار شديد وعيناها تهمنا على الأقل بالأنانية) .. تفتكر أني يجب أن أكون وحدى؟ وأين أنت؟ إن هذا الطفل قد خلقناه معًا .. هل تتصور أن مهمة الزوج هي مجرد عملية الإنجاب .. وأى مجهود في هذه العملية؟ وأى بطولة؟ .. عمل الرجل في الزواج ليس فيه بطولة ..

الزوج (في يأس ونطلع إلى وجهنا لكي نساعدك لأنها قضيتنا جميعاً) : ولكن لا أعرف هذه الأشياء .. إنى لم أحضر ولادة في حياتي .. الموقف محرج جداً ..

الزوجة : وأنا لم ألد قبل ذلك .. وموقي موئم .. وخرج لي أيضاً .. إذا حضر جميع الأزواج وتختلفت أنت ! ثم هناك شيء آخر .. هو أنه يجب أن تقابل الطبيب .. إنه يريد أن يجلس معك .. يريد أن يتأكد من أعصابك .. هل هي قوية تتحمل مثل هذه العملية أو لا تتحملها .. وهل أنت في حاجة إلى فيتامينات مقوية ..

الزوج : مش فاهم .. ماذا أعمل .. ماذا أقول لك .. أقول لك بعض النكت .. ليس لدى نكت تكفي لثلاث ساعات ولا أضمن إن كانت نكت القاهرة تصلح بنات أمريكا .

الزوجة : هناك كتاب صدر أخيراً عن النكت .. تستطيع أن تقرأ هذا الكتاب مقدماً أو حتى تقرأ إلى الكتاب أثناء الولادة .. أو إذا لم يعجبك هذا كله فعندي اقتراح ..

الزوج (في خوف وفزع) : أنا في عرضك بلاش اقتراحتك الرهيبة ، أى شيء إلا اقتراحتك ..

الزوجة : انتظر شوية .. عندي فكرة .. وهي أنني أستأجر رجلاً يقرأ لي في هذا الكتاب أثناء الولادة .. وهذا الرجل سأسأله أثناء الولادة أن يعطيه معلومات أول بأول عن الأعضاء التي ظهرت من المولود وإن كان ولدأ أو بنتاً .. إلخ

وأن يكون له منظار غليظ كمنظار ليرى كل شيء بوضوح كأنه في بلاد الشرق
حيث السماء الصافية دائمة ..

الزوج يقول : كان يوماً أسود يوم تزوجت حضرتك أ.

طبعاً الزوجة لم تفهم هذه العبارة التي قالها بالعربية .. ولكن الموقف كما هو .. ولابد أن يذهب الزوج . فهل تذهب أنت إليها القارئ إذا كانت هذه زوجتك الشرقية .

فيأيها القارئ الشرقي أنت في نعمة .. لأنك تذهب إلى السينما أو إلى الكباريه عندما تكون السيدة حرمك في حالة وضع !

• • •

أما الأزواج العرب الماربون من زوجاتهم الأميركيات فلهم ناد خاص .
لم يكن خاصاً بهم .. ولكنهم جعلوه خاصاً !

الدخول للأعضاء فقط . وكل عضو معه مفتاح الباب الخارجي .. و مجرد
أن يضع المفتاح في الباب ويدخل معناه أنه عضو .. ولو سقط هذا المفتاح من
أي عضو وعثر عليه إنسان آخر فهو عضو .. عقاباً للأعضاء الذين لا يحترمون
على هذه المفاتيح !

دخلت في واسططون أحد هذه التوادي .

الباب وراءه باب وباب .. الأضواء خافتة والأرض مغطاة بالأبسطة القطيفة
والسلم إلى أعلى كذلك .. والفتاة التي تأخذ منك البالطو ترتدي المايوه .. والمایوه
قطعتان .. قطعة ارتفاعها أربعة قراريط عند الجانبين ، ولكنها من الأمام والخلف
عبارة عن قبراطين بارزين ، طبيعي أو صناعي .. والصدر في الغالب منفوخ
والفخة إلهية ..

وبابتسامة حلوة مغربية تمد الفتاة ذراعها الأبيض العريان الناعم أيضاً وتأخذ
البالطو ..

ولا تفهم لماذا هي تعمد أن تدخل ذراعها في كم البالطو .. تماماً كما فعلت
ريتا هيوارث في فيلم جيلدا وهي تزعج الجنواني ، أو كما تفعل إحدى راقصات
الباريه عندما تختارك لتزعج من يديها هي الجنواني الفسيق جداً كجلد التعبان ..

وبنفس الرشاقة والإثارة تصم يدها في أحد جيوب البالطو .. وتختلف إليك ..
ثم حزام البالطو بين أصابعها .. وعيناها .. وعيناها أعود باقه .. !

وتصعد إلى السلم وتقابجاً بأن كل الجرسونات باليوه .. وكل ما يوه لون ..
وهناك مبارأة بين الجرسونات على أصبابك .. وكل واحدة تحاول أن تستخدم
أقل مساحة ممكنة من القماش وأكبر عدد ممكن من الألوان.. وتفتح فيها ضاحكة
إلى أقصى ما تستطيع .. وعندها تجلس على المقعد غير المريح ، لا لأنه من
قطيفة غليظة وإنما لأنك غير متعدد على ذلك .. وأمامك كل الجرسونات يرحن
ويجهن بالجنب وبالظهر وبالوجه وبالتراع وبالبطن وبالصدر .. وتحس أنك
في حمام سباحة أو في حديقة أسماك غريبة .. وأن بينك وبين هذه الأسماك الواحد
من الرجال الشفاف الرقيق جداً .. وإذا ابتلعت ريقك وأحسست أنه ينحاش
في زورك ، وارتفع ضغط الدم عندك ، وزادت دقات قلبك وجعلتك تقوم وتهد
وتحس بضيق شديد في ملابسك .. فلا تخف فهذا لا يدل على مرض الكبد أو
الأمعاء الغليظة أو ضغط الدم ، وإنما هي حالات ضرورية بالنسبة لكل زبون ..
وهي تحيات مستمرة للوق النادى في اختيار الجرسونات من طراز قاذفات الهب
والهرق والأرق !

وإذا مالت عليك الجرسونة العارية ولفحك عطرها الخفيف وسألتك ماذا
تأكل وهي تعرف ماذا تزيد بالضبط ، وأنت لست أول واحد طبعاً فقل : بعض
اللحم المشوى !

ولا تقل هذا بنغمة خاصة فهي تعلم مقدماً أنك لاتعني ماتقول وإنما تعنى
أنك تزيد بعض اللحم الذي يشوى ويلسع ويحرق ويوجع .

وهناك على جانب من النادى توجد منضدة وعلى هذه المنضدة كل أنواع
السانلوبيتشات وهي أحياناً مجاناً .. و تستطيع أن تأكل منها ما تريده .. والدوق
يقضى أن تدفع مبلغاً مزرياً هو ما يساوى قرشين .. إنها مسألة ذوق ، وليس
مسألة إجبارية ، وهذه هي تعاليم النادى .. وهي صريحة ومكتوبة ورامك وأمامك .

وفي أول لحظة ستعجبك هذه الفكرة .. ولكن حاول أن تخبر بها ..
ثم تنفذها بعد ذلك !

أمام الساندوتشات أجمل جرسونة ، وقد غطت جسمها كله بشبكة سوداء ..
وعلى هذه الشبكة السوداء توجد بعض بقع سوداء من القماش في أماكن مختلفة
وطبعاً أنت تعرف أين ؟ .. ستقف أمامها وتنظر إلى وجهها وتقول : ساندوتش
جبنة ..

وتمد ذراعيها الناعمتين الممتلتين وتعطيك الساندوتش وتنتظر إلى عنقها وإلى
صدرها وإلى وسطها وإلى .. وإلى .. وتطلب بعض اللحوم وبعض الطماطم
وبعض التفاح أولاً يعجبك التفاح فتعطيك الموز .. وبعد ذلك يطلب منك النادي
أن تدفع قردين .. طبعاً مش معقول .. فتدفع خسین قرشاً أو جنيهاً .. ولا تحاول
أن تعطيها بطاقة عليها اسمك ورقم تليفونك فالنادي يشكو من ضيق المكان ،
وهناك غرفة مخصصة للبطاقات التي تعطى للجرسونات الفاتنات !

يعني بالاختصار يحسن أن تدفع الحساب وتقوم ..

وهناك تحت .. تنتظرك فتاة أجعل سترتك لك البالطو .. وغرفة البالطوات
كبيرة .. وعندما تركت فليها تشعل الأضواء التي يستخدمونها عادة في غرف العمليات ..
والفتاة تتعدم أن تضع البالطو في آخر الغرفة .. وعليك أن تراها في الذهاب
والإياب .. وعلى باب هذه الغرفة مكتوب : لا تدفع أى بقشيش ! .

وأنت لا تستطيع أن تطير أوامر النادي فلا تعطيها قرشاً واحداً، فإذا استطعت
فأنت ثان إنسان فعل ذلك. أما الأول فهو أنا ، لاني لم أعطها قرشاً واحداً ،
 وإنما أعطيتها ألفاً فروشاً !

هذا النادي يناسب جداً كل رجل عربي هارب من طغيان الزوجة الأمريكية ..
وطريقة المرب هي هذا المفتاح ..

الفندق الذي نزلت به في واشنطنون اسمه فندق « فيرفاكس » .. لم أختار هذا
الفندق ولم أنزل به من قبل .. ولكن اختارته زوجة أحد الأصدقاء .. لماذا
لا أعرف .. ربما كان السبب هو أنه قريب من السفارة أو كان أرخص ،
أو لسبب آخر لم أعرفه إلا فيما بعد !

وكانت غرفتي في الفندق كبيرة ومزودة بسرائر مريحة وفيها تدفئة .. ورائحة

جهاز التدفئة تشبه رائحة الأفران الريفية التي يضعون فيها روث البهائم الجاف ، مع خليط التبن ، وربما كانت هناك بعض الأعشاب التي يستعملونها في الريف لقتل الناموس ..

ويبلو أن أمريكا قد أضافت إليها مواد أخرى تستخدم في قتل الأجانب .. فقد نهضت من فراشى أكثر من مرة دفاعاً عن نفسي .. لاحظت أن هناك أصابع غليظة تلتف حول عنقى ت يريد أن تقتلنى .. واكتشفت بعد ذلك أنها أصابعى ، وإنى أحاول أن أساعد الهواء على الدخول والخروج .. ثم اكتشفت أن التدفئة الخانقة هي السبب !

وفي الصباح المبكر ينفتح باب الغرفة وتدخل سيدة ضخمة جداً وسوداء جداً وفي صوت ضفدعى تقول : إنت لسه نايم ..

والحقيقة أننى أكون فعلاً « لسه نايم » .. لسه أحاول أن أنام .. فهى بالضبط ضبطتني في لحظة انتصارى على الأرق . وتهز رأسها أسفأً على مصيرها الأسود الذى جعلها تعمل منذ ساعات بينما آخرون ينامون حتى التاسعة صباحاً .

وفي يوم قررت أن أنام بعد أن تقوم هي بتنظيف الغرفة وإعدادها .. وبذلك أضمن ألا تدخل فى أى وقت وتزعجنى وتحيفى بهذا الشكل المؤلم .. وانفتح الباب وكل مرة ينفتح الباب على خادمة زنجية - فالزنوج هم نصف سكان واشنطن عاصمة أمريكا .. وقلت للخادم : أمامك الغرفة ربها كما تريدين ..

ولم أقدر خطورة هذه العبارة . والذى حدث هي أنها نظرت الحمام ، ثم راحت تنزع أغطية السرير والمفارش وتمسح الزجاج والأكواب .. ونبهتى إلى أن اليوم هو يوم الغسيل وإذا كانت عندي ملابس فيجب أن أقدمها حالاً وإلا فسأبقي بلا ملابس نظيفة كل أيام عيد الميلاد ورأس السنة .. والعمل ليه ؟

ودخلت إلى الحمام وبدأت أنزع ملابسى .. وفجأة انفتح باب الحمام ودخلت الخادمة ونظرت لي فوجدتني عارياً « ملط » وانكسفت جداً ، ولكنها لم تخجل كأنى ماسورة مياه أو لوح خشب .. وفوجئت بأنها أمسكت ليفنة وصابونة ومدت يدها إلى صدرى وراحت تمسح بعض الخبر .

و سألتني : وما الذي أتي بالحبر هنا ؟

فقلت لها : إنها أفكارى !

ولم تضحك .. وابتلعت أنا ضحكتي !

قلت : انتظري حتى أرتدى ملابسى وبعد ذلك أكلمك عن الحبر .

وعادت تسأله : هل تضع القلم في عينك ؟

قلت : أحياناً أتركه فوق صدري هو وورقة أو كتاب وأنام .

قالت : أنت تعمل بوهيجى في بلدكم ؟

وقلت لها إإنى تعلمت من الهند بعض الألعاب السحرية .. وفي استطاعتي أن أحوال القلم إلى ثعبان يقرصك ..

وصرخت وهربت .. فهي من قبيلة تقدس الشعابين !

ومنذ ذلك اليوم بدأت أنا وباب غرفى مفتوح ، وفي أذنى قطن والخاف فوق رأسى .. وأنجاهل أصوات المتشات والبخاخات والزنجيبات وأقسمت أنا نام بعد ذلك في أية لوكاندة يديرها وينظفها ويُخيف الناس فيها ، هذا العدد الكبير من المجانة !

أو أستمع إلى نصيحة زوجة أمريكية تريد أن تنتقم من كل أصدقاء وأبناء وطن زوجها !

● هم أغرب منه السيدة

قبل أن أرى أمريكا كنت أتصور وأنا جالس في السينما أن كل هذا الذي أراه ليس إلا تمثيلاً في تمثيل . . السيارات الكبيرة السريعة ، واللبان الذي يمضغه نصف الممثلين ومعظم المترجين ، والتليفونات التي تدبر قرصها عشر مرات وتطلب أسوان وأنت في القاهرة أو تطلب الخرطوم وأنت في روما فتجئ بعد لحظة أو لحظتين . . وكانت أتصور أن الأميركي كان عندما يرتلون القمصان المبقعة بالأحمر والأزرق والبنطلونات التي تشبه جوارب السيدات لأنها ملتصقة جداً ، كل ذلك كنت أتصوره «شغل سينما» .

ولكن الحقيقة أن الأفلام أقل بزمان جداً من الواقع . . بل إنني أؤكد أن الأفلام لا تصور الواقع الأميركي تصويراً دقيقاً . . والخرج الأميركي يحاول دائماً أن يقلل من هذه المناظر لأن المترجع الأميركي يعرفها جيداً ويمارسها كل يوم . . تماماً كما يفعل الخرج في القاهرة عندما يخذف من الفيلم صور الصلاة والتردد على المسجد ، لأن هذه الأعمال يؤذيها معظم الناس كل يوم . . وليس فيها جديد. فإذا رأى هذه الأفلام العربية أحد أبناء أندونيسيا واستنتج من هذا أن العرب لا يتردون على المساجد . فقد ظلم العرب . . والحقيقة أن الخرج العربي قد استبعد هذه المناظر المألوفة .

وهذا بالضبط ما فعله الخرج الأميركي . .

وحكاية التليفون الذي تدبر قرصه عشر مرات . . ليس أكلنوبية سينائية .

فأنت تستطيع أن تطلب أى أمريكي في أمريكا من نفس التليفون الذى أمامك .
فى استطاعتك أن تطلب بغداد من أسيوط فى ثانية . لقد جربت هذا عدة مرات
فقد كنت أطلب سفارتنا فى واشنطن من هوليوود فلا تكاد تمضى لحظة حتى
يكون أحد موظفى السفاررة على الخط وبصوت واضح جداً .. وبعض المكالمات
هنا شخصية : فتطلب صديقاً مثلاً ولا تجده فى البيت ، فتحولك عاملة التليفون
على مكتبه فلا تجده ، فتحولك على المعامل أو النادى فلا تجده .. وبعد ذلك
لا تدفع مليماً واحداً ، لأن هذه المكالمة كلها شخصية .. أى من شخص إلى
شخص !

وحكاية اللبن الأمريكية .. هذا اللبن هو من غير سكر ، وهو مفيد للإنسان
فعلاً .. وقد قرأت بحثاً طيباً عن بعض اللبن .. وأنا تعودت مضغ اللبن ..
ولكن سأعدل عن المضغ قبل عودتى إلى القاهرة ، فليس شيئاً لطيفاً عندنا .
ولاحظت أن اللبن يجعل الإنسان أقل توترًا .. لا يجعله عصبياً .. وقد رأيت
في التليفزيون هنا أحد علماء النفس يتحدث إلى أحد مرضى .. وقد بدا المريض
عصبياً .. فطلب منه الطبيب أن يأخذ قطعة من اللبن .. فأخذها بعد تردد
وارتاحت أعصاب المريض بعض الشئ وأشهد أن هذا لم يكن إعلاناً عن أي نوع
من أنواع اللبن .

والتلفزيون هو الآخر يصور الواقع .. وإن كنت قد رأيت فيه أخيراً
شيئاً يضايقنى جداً . إنه شئ واقعى ولكن الإنسان لا يجب أن يراه .. لقد
رأيت أحد رعاة البقر يضرب والده .. يضربه ويوقعه على الأرض ويحاول قتله ..
يمحاول قتل والده ! ! .

منظر بشع وأعتقد أن الأفلام البريطانية تحذف هذا النوع من العنف بالنسبة
للأب والأم وتمتنع ضرب الزوج لزوجته أو العكس ..

وقد سألت أحد الأمريكيان إن كان هذا المنظر لا يؤذيه ، فأجاب أنه
موجود في الواقع ، فلماذا لا يظهر على الشاشة .. ؟

إلى هذه الدرجة من «فوق» الواقعية في التليفزيون ، وهذه الدرجة من «تحت» الواقعية في السينما ، يذهب الشعب الأمريكي في تسلية نفسه وغيره من الناس ..

وهذا ليس كلام سينا ، وإنما هو الواقع فعلا ! .

وهنا في المكتبات مئات الكتب تروى لك كيف نجح ملايين الأغنياء .
وهذه الكتب ليست ممتعة وليس فيها فن ولا عبرية . ومعظم الأغنياء ليسوا فلاسفة
ولا أدباء ولا يعرفون فن الكلام أو التعبير ولكن شيئاً واحداً تستطيع أن تتجده عندهم
جميعاً : إنهم عملوا وصبروا ونجحوا ..

وكما نجحوا في الكويس نجحوا في الشر أيضاً : عصابات وحروب وصهاينة !

● إنه عالم أزمار.. أزمار

الحقيقة أن أمريكا بهرتني .. رغم أنني رأيت أوربا عدة مرات وعشت في آسيا وأستراليا أكثر من خمسة شهور .. بهرتني فعلا .. الناس وحياتهم ونظرتهم للدنيا !

كل شيء واسع في أمريكا إلا البنطليونات .. كل شيء موجود في أمريكا : الطعام والأمن والعلاج والتجارة وفرص النجاح في الحياة وحب السلام .. كل شيء إلا : التلوّق !

فليس عند الأميركيان أي ذوق في الأكل أو في اللبس أو تأثيث البيت .. وفي الأكل ذوقهم عجيب جداً .. كل شيء جائز عندهم .. فهم يبدأون الطعام بالبارد جداً وينتهي طعامهم بالبارد جداً .. في الصباح يشربون العصير المثلج واللبن المثلج . وفي الغداء يسألونك إن كنت تري بشوربة باردة أو ساخنة .. ثم يقدمون لك القهوة أو الشاي مع الأكل .. وكل شيء « منقوع وممزروع » في السكر أو في العسل أو في المربة الخامضة المحرقة أيضاً .. فالصلصة عليها سكر والليم عليه سكر حتى الخيار مخلل في السكر أو مسكر في الخل ، وتستطيع أن تلخبط أي أكل . وقد يتخرج عليك بعض الأميركيان وأنت تضع العدس على اللبن وتضيف إليه بعض الخيار .. وإذا نظر إليك الأميركيان ووجدوك جاداً جداً في هذه الخبطة ، فمن المؤكد أن موقفهم منك سيكون كما يأتى : إذا كان المتخرج فتاة فإنها ستطلب توقيعك وعنوانك ومن أي بلد أنت ، وعن أثر هذه الخلطة

فـ الـ صـحةـ، وـ هـلـ هـىـ السـبـبـ فـ أـنـ لـكـ أـظـافـرـ لـامـعـةـ وـ شـعـرـ أـكـرـتـ..؟ـأـمـاـ إـذـاـ كـانـ
الـمـتـفـرـجـ رـجـلـ فـإـنـهـ بـطـلـ إـلـيـكـ تـسـجـيلـ هـذـاـ الـاخـتـرـاعـ العـجـيبـ عـلـىـ أـنـ يـكـونـ هوـ
مـدـيـرـ لـلـدـعـاـيـةـ وـأـنـ نـصـيـبـهـ خـسـيـنـ فـيـ الـمـائـةـ مـنـ صـافـيـ الـإـيرـادـ..

وـأـوـكـدـ لـكـ أـنـ هـذـاـ يـحـدـثـ وـيـنـجـعـ فـيـ أـمـريـكاـ.. فـكـلـ شـىـ مـكـنـ هـنـاـ..!

أـمـاـ مـلـابـسـ الـأـمـريـكـانـ فـهـىـ مـضـحـكـةـ جـداـ.. كـلـ شـىـ مـكـنـ اـرـتـدـاـوـهـ فـ
أـىـ وـقـتـ.. الـأـلـوـانـ الـفـاقـعـةـ جـداـ مـكـنـتـ.. كـلـ أـذـاقـ الـأـمـريـكـانـ هـنـاـ توـكـدـ لـكـ
أـنـهـ لـيـسـواـ مـنـ أـورـبـاـ وـإـنـماـ هـمـ مـنـ الـمـنـوـدـ الـحـمـرـ.. أـمـاـ بـيـاضـ الـوـجـهـ وـزـرـقـةـ الـعـيـنـينـ
وـصـفـرـةـ الـشـعـرـ فـكـلـهـ مـسـائـلـ سـطـحـيـةـ جـداـ.. وـالـمـرـأـةـ الـأـمـريـكـيـةـ لـاـتـعـرـفـ كـيـفـ تـلـبـسـ
وـتـجـعـلـكـ تـدـهـشـ كـيـفـ أـنـ مـثـلـ هـوـلـاءـ الـفـتـيـاتـ الـجـمـيـلـاتـ السـلـيـمـاتـ الـجـسـمـ الـكـامـلـاتـ
الـصـحـةـ هـنـاـ هـذـاـ النـوـقـ الـمـرـبـيـضـ.. فـنـ المـكـنـ أـنـ تـجـدـ الـمـرـأـةـ الـأـمـريـكـيـةـ الـعـجـوزـ
فـيـ مـلـابـسـ الـفـتـيـاتـ الصـغـيـرـاتـ، وـالـفـتـيـاتـ الصـغـيـرـاتـ فـيـ مـلـابـسـ الـعـجـائـرـ.. وـلـكـنـ
إـذـاـ عـرـفـتـ أـنـ الـأـمـريـكـانـ يـعـيـشـونـ بـلـاـ كـلـفـةـ فـالـابـنـ يـنـادـيـ وـالـدـهـ باـسـمـهـ الـعـادـيـ
وـالـبـنـتـ تـعـاـمـلـ أـمـهـاـ كـأـنـاـ أـخـتـ كـبـرـىـ أـوـ كـأـنـاـ صـدـيقـةـ.. إـذـاـ عـرـفـتـ أـنـ أـىـ
أـمـريـكـيـيـ يـقـابـلـ كـلـهـ بـعـدـ خـمـسـ دـقـائقـ يـكـوـنـ قـدـ روـىـ لـكـ تـارـيـخـ حـيـانـهـ وـلـمـاـ هـوـهـاـ
وـمـاـ الـذـىـ يـسـعـدـهـ وـمـاـ الـذـىـ يـشـقـيـهـ.. وـبـعـدـ ذـلـكـ يـسـأـلـ عـنـ اـسـمـكـ ثـمـ يـمـدـثـكـ
عـنـ بـلـدـكـ.. وـأـنـتـ لـمـ تـكـلـمـ كـلـمـةـ وـاحـدـةـ وـيـصـبـعـ هـذـاـ الـأـمـريـكـيـيـ كـأـنـهـ يـعـرـفـكـ
مـنـذـ سـنـوـاتـ.. إـذـاـ عـرـفـتـ ذـلـكـ أـدـرـكـتـ أـنـهـ مـنـ الـمـكـنـ أـنـ الـبـنـتـ الصـغـيـرـةـ تـدـخـلـ
فـيـ مـلـابـسـ جـدـهـاـ وـالـجـلـدـةـ تـدـخـلـ فـيـ مـلـابـسـ حـفـيـدـهـاـ وـتـخـرـجـ الـاثـنـانـ إـلـىـ الشـارـعـ
وـلـاـ يـدـهـشـ النـاسـ.. فـالـحـالـ مـنـ بـعـضـهـ ١

وـحـكـاـيـةـ الـأـزـرـارـ الـىـ نـرـاـهـاـ فـيـ الـأـفـلـامـ الـأـمـريـكـيـةـ يـظـهـرـ أـنـهـ صـحـيـةـ هـنـاـ جـداـ..
فـقـبـلـ رـؤـيـةـ أـمـريـكـاـ كـتـ أـمـيـلـ إـلـىـ الـذـيـنـ يـقـولـونـ إـنـهـ تـخـرـيفـ.. فـالـخـرـجـ يـضـعـ
الـبـالـلـوـنـاتـ فـوـقـ رـمـوـسـ الـتـفـرـجـيـنـ فـتـطـيـرـ بـهـمـ إـلـىـ أـعـلـىـ وـلـمـ يـكـنـ الـتـفـرـجـوـنـ يـشـلـوـنـ
شـعـرـهـ وـلـكـنـ الـبـالـلـوـنـاتـ تـتـوـلـ عـنـهـمـ ذـلـكـ وـتـطـيـرـ بـهـمـ إـلـىـ عـوـالـمـ غـرـيـبـةـ.. عـوـالـمـ كـلـ
شـىـ فـيـهـاـ يـتـمـ بـسـهـوـلـةـ.. هـنـاكـ زـرـ تـضـغـطـ عـلـيـهـ فـتـطـيـرـ الـبـنـتـ الـىـ تـحـبـهـ وـتـدـخـلـ
فـ حـضـنـكـ وـهـىـ تـلـهـتـ وـلـسـانـهاـ مـطـبـوـعـ عـلـيـهـ كـلـهـ: أـحـبـكـ... وـزـرـارـ آخـرـ تـضـغـطـ

عليه فإذا بك تضغط على «زمارة» رقبة حماتك فتموت في لحظة .. وزرار للكلذب .. وآخر للصدق .. وزرار يفتح لك كنوز سليمان .. وزرار للنوم وزرار للأرق .. وكان كثيرون يقولون إن الخرج ليس حالماً ولا مستخفًا بعقول المترفين ، وإنما هو يلعب دوراً سياسياً خطيراً.. فليست هذه الأزرار إلا حبوباً مخدرة لكي تشغل الناس عن حاضرهم ، تشغله عن مشاكلهم السياسية والاجتماعية ، وتجعلهم ينامون ويمدون أرجلهم وأيديهم ويحلمون بعالم الغد الذي يبشر به الأمريكان .. فالأمريكي رجل يحاول أن يذر الرماد السحري في عيون القراء وأن ينقلهم على بساط سليمان إلى دنيا من ذهب وفضة وحرير ونعم ليس له أول ولا آخر ..

ليست هذه الأزرار كلها أو هاماً في أمريكا .. فإذا جلست في غرفتك في الفندق فكل شيء حولك يتتحول بزرار صغير جداً .. هذا الزرار يطوي النور ويفتح جهاز التليفزيون ويفتح الراديو على المقطة رقم ٣ أو رقم واحد .. وفي الأسانيير هناك صوت يقول لك : صباح الخير .. وقبل أن تصلك إلى الدور الذي تريده يقترح عليك طبق اليوم والمكان الذي تجلس فيه وأحياناً يروى أهم الأحداث التي وقعت في نفس اليوم .. وباب الفندق ينفتح بمجرد وقوفك إلى جواه وإذا أشرت إليه أن يقف فإنه يقف .. وفي الأتوبيس توجد ماكينة حاسبة تضع فيها ثمن التذكرة بعملات مختلفة وهذه الماكينة تفرز العملات وتضع كل عملة في المكان المخصص لها .. وفي المطعم وفي الشوارع آلات لبيع السجائر ، السجائر العلب والسبعين الفرط .. اضغط على زرار صغير إن هذا الجهاز يرد لك العملة إذا أخطأت في الحساب أو إذا تعمدت انططاً ويرد لك بقية الحساب إذا وضعت فيه أكثر مما يجب .. وعلى المائدة في المطعم تجد ماكينة صغيرة تقول لك عن بحثك هذا اليوم .. ولكن قبل أن تضغط عليه ضع القرش ..

وفي دورات المياه توجد آلات أخرى فيها كل ما تحتاج إليه .. وفيها مشط وفرشاة وقطعة قماش لمسح الحذاء ، وفيها فرشاة أسنان وفيها لبان وفيها أسبرين وفيها صابون .. اضغط على الزرار وضع القرش .. والمطعم الكبير جداً تجد فيه عدداً قليلاً جداً من الجرسونات إنهم ينقلون إليك ما صنته الأزرار .. فكل شيء تصنعه الآلات تصنعه الأزرار ، والأغاني لها أزرار ، والموسيقى لها أزرار ،

والروائح لها أذرار .. الأذرار تفتح لك الأبواب والنوافذ، وتنقل سريرك من جانب الم亥اط إلى جانب السرير الآخر وترفع لك الخدمة وتنزلها .. لقد دخلت أحد المطاعم هنا ولم أجده فيه جرسوناً واحداً أولكني وجدت الكثير من الزبائن يأكلون ويخرجون .. ضع العملة واضغط على الزرار ينزل لك الطبق الذي تريده ومعه ملعقة وشوكة وسكين وورقة فاتورة بالحساب وكلمة شكر .. كل واشرب واضحك واخرج .. هذا المحل يعمل ٢٤ ساعة ولم يخف طبق واحد ولا شوكة ولا سكين ، يظهر أن هناك زراراً آخر في قلب كل زبون .. إنه ضميره !

ولكن أمريكا ينقصها زر واحد مهم . جداً .

و قبل أن تعرف هذا الزرار أرجوك أن تستمر في القراءة ..

قبل أن تدخل أي مطعم وتشير إلى الجرسونة أرجوك أن تقرأ السطور التالية :
ويكفي أن تنطق الحروف الأولى من أي طعام تريده حتى تجد الجرسونة قد كتبته ، وبعد لحظات تعود إليك بشئ آخر غير الذي طلبته .. وهي تحضره في « حماثة » وفي جفاف جاويش في الجيش وكأنك عسكري « دفعة » .. وتدهش لهذه الحشونة فتحاول أن تعرّض فإذا هي تخرج ورقة أخرى وتكتب لك ما تريده وحالاً تحضر لك شيئاً آخر وإذا أبديت أية دهشة لغرابة الطعام كانت دهشتها هي أكثر منك فالأمريكان يدهشون من الناس الذين لا يعجبهم الأكل الأمريكي كأن أمريكا هذه هي الدنيا .

هل عرفت الزرار الذي لم تخترعه أمريكا .. !

إنه زرار الأنوثة .. وأنا لا أريد أن أظلم الأمريكان فقد دللتنا جرسونات اليابان وهننج كونيج وسنغافورة .. حتى تعودنا على الركوع والسجود فشعرنا أنا من نسل الآلهة .. ربما كان هذا هو السبب ..

وهناك سبب آخر .. هو أنني لم أر من أمريكا إلا القليل جداً .. رأيت جزر هاواي ولوس أنجلوس وهوليود واستوديوهات مترو وبارامونت وفوكس ووارنر ووالتر دزنى وسان فرانسيسكو .. ومارلين مونرو .. !

• • •

اليوم هو يوم الشكر في أمريكا كلها .

إنه اليوم الذي تجلس فيه الأسرة كلها : الأب والأم والأولاد والأحفاد
ويشكرون الله على ما أعطاهم من صحة ومال ومن ديوشك رو ..
وكان الفيلسوف اليوناني أفلاطون يشكر الله على أنه خلقه إنساناً ولم يخلقه
حيواناً ، وعلى أنه جعله رجلاً ولم يجعله امرأة وعلى أنه جعله يونانياً ولم يجعله هيجياً ..
وأفلاطون كان يعتقد أن كل الناس عدا اليونانيين هم هيجيون !

والأمريكان يشكرون الله في هذا اليوم على ما أعطاهم من كل شيء وخصوصاً
على أنه جعلهم من أبناء أمريكا .. وهم يحتفلون بهذا اليوم منذ مئات السنين أي
منذ هاجروا من أوروبا إلى أمريكا ووصلوا إلى الأرض الجديدة بسلام .

وقد استقر المهاجرون في أمريكا .. ولكنهم الآن يشكرون الله على المال
والصحة والأولاد والجنسية الأمريكية وعلى أموالهم التي تزيد .. وعلى الطمأنينة
التي يعيشون فيها ، والتي يحرصون على أن تبقى كذلك دائماً .. ولذلك فالأمريكان
يختلفون من الشيوعية خوفاً جنوبياً .. يختلفون من الحرب .. يختلفون على المدن
الجميلة أن تنهار ، على الأرض الواسعة أن تحول إلى معسكرات للسخرة .
يختلفون على السيارة الجميلة التي خلقتها المنافسات الحرة ، يختلفون على أجهزة
التكييف وعلى الفسالات الكهربائية ، على التليفزيون ، على أولادهم ، على حرياتهم
على نشاطهم المستمر .

هذا هو الجنون الأمريكي .. الذي على أصله !

الأمريكان يجب عليهم أن يشكروا الله .. فقد أعطاهم باليدين وجعل السماء
تغطى لهم الذهب والفضة .. ولكن الأمريكان كانوا يملدون أيديهم إلى السماء
يلتقطون الذهب والفضة .. لئيم لم يضعوا أيديهم في جيوبهم ثم ينتظروا الذهب
أن يتتحول من تلقاء نفسه إلى عملة وإلى مصانع وإلى حدائق .. لئيم عملوا الكثير
ولا يكفيون عن العمل .. وكل إنسان يعمل يلتقي جزاءه المادي .. أي عمل له ثمن
والسلعة المنتشرة والغالبة الثمن هنا هي : العمل !

فإن الخادم مرتبه ١٠٠ جنيه في الشهر ويصل إلى ٣٠٠ جنيه ، والعامل في مصنع
الصلب مثلاً يصل مرتبه إلى ٥٠٠ جنيه و ٧٠٠ جنيه .
فأجهه يستحق الشكر من كل أمريكي ..

في هذا اليوم تلتف كل أسرة أمريكية حول الديك الروي وتشكر الله بصورة عملية .. فالدعاء في أفواههم والحمد في أيديهم !

أما الشوارع ففيها مهرجانات .. فالمدينة تزدان بالأشجار المضيئة على جانبي كل شارع .. فشارعنا - هوليوود بوليغار - طويلاً جداً ، عريضاً جداً ، مضياً منذ ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً .. ويبداً المهرجان بمجموعات من الفتيات الخلوات جداً بالشورت الأبيض والقمصان الضيقة القصيرة ، وفي يد كل فتاة منديل أو علم ، وعلى رأسها قبعة تختلف باختلاف كل مجموعة ، ووراء كل مجموعة فرقة موسيقية تعزف ألحاناً جميلة .. وبعد كل مجموعة توجد سيارات مكسوقة يركبها ناس .. شبان وشيوخ ، ملكات جمال وملكات وحاشية ، والتصنيف لهم جميعاً والصرخ من الأطفال .. هؤلاء جميعاً نجوم التليفزيون ، والغريب أن الأطفال يعرفونهم جميعاً ويستمعون لهم ولقصصهم . وبعض النجوم كان يرتدي الملابس التي يظهر بها في التليفزيون كملابس رعاة البقر أو البهلوان .. والأغرب من هذا كله أن الأطفال الواقعين إلى جواري كانوا يقولون : إن فلاناً هذا أقصر مما كنت أتصور أو هذه زوجته الثانية .. وهذا ابنه الذي كان مريضاً !

وبعض السيارات كانت تعرض مناظر من الأفلام المعروضة هنا في هوليوود وبعض السيارات كانت تعرض مناظر من القصة المسلسلة في إحدى محطات التليفزيون .

ويستغرق المهرجان الفني الراقص الضاحك المثير مدة ساعتين وتبقي المدن الأمريكية كلها حية ساهرة حتى الصباح ، وتبقي الشوارع مملوقة بالأوراق والقراطيس حتى اليوم الثالث .. فالناس في إجازة !

فأشكروا الله أية الأمريكية ، واعملوا على أن يسود السلام في العالم كله ، لينم بالديك الروي إلى تنهونها اليوم وضداً !

● ليلة من نار !؟

لم يعد « هز البطن » من الفنون الشرقية ..

فكل راقصة تستطيع أن تهز بطنها على أنغام الموسيقى أو بلا موسيقى ..

وإذا كانت الراقصة الشرقية قد اختارت وغطت بطنها أو وضعت غلالة شفافة على بطنها ، فالمهم ألا ترى بشرتها .. وفي كثير من الأحيان تشكر الذي اتخذ هذا القرار بمعنوية بطن الراقصات – فإن الراقصة الأوروبية أو الأمريكية في استطاعتها أن تتعري تماماً وتنهزها الكباريئات فرصة للتنافس على اختصار الأمانة المقطة من جسم المرأة . والإعلانات عن هذه الكباريئات تقول : إن شجرة التوت قد أصبحت موضة قديمة ..

ويعنى ذلك أن الراقصة التي تهز بطنها أمامك لا تستخدم ورقة التوت ..

ولأنما تتغطى بشيء أقل من ورقة التوت .. وورقة البوستة مثلا ..

ورقة التوت هي أصيق مكان يلتقي فيه الدين والفن معاً !

في مدينة بالtimور وهى تبعد عن وشنطون العاصمة الأمريكية بحوالى ٨٠ كيلو توجد بها كباريئات كثيرة جداً .. تحت الأرض ، وعلى وجه الأرض ، وفي الأدوار العليا من بيوت قديمة ، وفوق الأسطح .. وأحياناً في البلكونات .. فلن الممكن جداً أن نجد كباريه في بلكونة ، ويجلس الناس ويقفون في زحام شديد .. لا هم جلوس ولا هم وقوف .. ولا هم في طريقهم إلى الخروج أو في طريقهم إلى الدخول .. وأنا مثل لقمة اخترت في الزور .. وفي هذا الزحام الشديد تظهر الأجسام العارية أو « تنفس » هذه الأجسام العارية .. - « وعلى فكرة

لا يعرفون العطور الجيدة في أمريكا !

أذكر أنني وقفت عند إحدى المكتبات .. ليس في المكتبة أحد .. الكتب كثيرة ولكنها من أنواع غريبة .. وأسماء المؤلفين لم أسمع بهم .. طبعاً لا أستطيع أن أقول : إنني أعرف أسماء المؤلفين في كل الدنيا . ولكن من المؤكد أنني أعرف أسماء أشهر الأدباء في الدنيا .. أو على الأقل أشهر الأدباء الأمريكيان .. أو كل الأدباء الأمريكيان الذين فازوا بجائزة نوبل في الأدب .. لم أجدهم واحداً أعرفه .. ومددت يدي إلى الكتب أقبلها ، ومن بعيد كانت عين الضيقة ترمي ، وبادلتها النظارات وانزلقت النظارات من العين الضيقة فوق الأنف الطويل ، وهرشت في أنفي كأنني أؤكد له أن أنني أيضاً طويلاً .

والجلات التي أمامي كلها جنسية عارية .. أو عارية بلا جنس .. فقط عارية في كل الأوضاع .. عارية تماماً فيها عدا ورقة التوت .. فهذه الورقة ليست في مكانها .. مجلة وراء مجلة ..

واقرب مني الرجل ذو الأنف الطويل والعيون السوداء الضيقة ذات الأهداب الحمراء ، وسألني ما الذي أريده . قلت لا أعرف بالضبط ، ولكنني أقبل في الكتب لعل أجد شيئاً جديداً . وأعاد الرجل نفس السؤال : أى أنواع الجلات العارية أو الصور العارية تريده .. قلت له : ليس من الضروري أن تكون عارية المهم أى شيء جديد .

ونظر الرجل إلى نظرة لها معنى وسائلى ، وكأنني فهمت ما يريد أن يقول
قالت له : نعم .

وقال : هل أنت من إسرائيل ؟

وتصايقت . ولكن قلت : نعم . وسألني : وكيف الحياة هناك ؟

قالت له : زفت .. إياك أن تذهب !

وهز رأسه وهو أكثر اقتناعاً مني : أعرف ذلك ..

ويع يأسى من أن أجد كتاباً جديداً ، هز الرجل رأسه مودعاً . وجلس وتركني أخرج .. ودخلت مكتبة أخرى .. نفس الكتب .. نفس الجلات .. نفس الوجوه .. ومكتبة ثالثة ورابعة .. كلها صور عارية وكتب عارية ومذكريات

فتيات عاريات . . وشيٌّ جدید جداً وهو عنوان وآرقام تليفونات لفتيات حقيقةٍ . . شئٌ جدید جداً هو أن صاحب المكتبة يطالب بالعملة ١ وكانت الدنيا مظلمة . . والمطر بدأ ينزل .

وبحبٍ بالبطو على عنقٍ . . وخنقت نفسى بزرار . . وتحت إغراء الإعلانات الملونة . . ومشياً في طابور طويل من الناس الذين نزلوا السلام . . واتجهوا إلى العين . . إلى الشمال . . إلى أسفل ثلاث أو أربع درجات . . ثم إلى أعلى سبع درجات وإلى العين . . وافتتح الباب وانفجر بركان من الدم والموسيقى والسباحير والصهكات الهisterية . . وعلى مقعد طويل جلست بين رجال ونساء . . وكانت على ظهر سفينة . . فالمكان على شكل سفينة مع فارق واحد هو أن السفينة أمامنا . . ونحن نجلس بعيداً عنها ، أو بالقرب منها . . وعلى ظهر السفينة التي أمامنا تدور فتيات عاريات تماماً . . والناس حولهن في ذهول ويمزقهم الصراخ ، كأنهم في الأدغال . . كأنهم محرومون . . كأنهم يرون النساء لأول مرة . .

وعرفت أن الغرائز تجعل الناس متباينين . . الجموع يمزقهم . . والشيع يذبحهم . . تماماً ككل الناس . . الغنى والفقير ، الأميركي الأبيض والأميريكي الأسود . . والأبيض والأسود اللذان ليسا من أمريكا سواء !

وعلى ظهر السفينة جلست فتاة عارية في طشت من الماء . . وراحت تزرع ملابسها وتستحم . . ويظهر أن هذه ليست نمرة مسرحية . . وإنما هي تستحم بصابون حقيقي وهي بالفعل في حاجة إلى الاستحمام . . فقد غير الصابون والماء لون بشرتها !

وكانت حريصة على أن يدخل الصابون فيها ، ثم تبصّه بصوت تجعله الموسيقى قوياً . . ثم حرصت على أن يدخل الصابون عينيها وتبكى . . وتأخذ الشهامة أحد المترجين فيعطيها منديله ، وفي المنديل ورقة مالية ، أو ورقة بها عنوانه ، لا أحد يعرف ولكن لابد من أن يؤذنها الصابون . . لابد أن يرى الناس دموعها ! . . شنود فظيع ! .

ثم يجيء دور زوج يبحث عن زوجته ، على ظهر السفينة أيضاً . . ويجدها تحدث رجلا آخر أو تقبله . . وينهال الزوج على زوجته . . ويمزق ثوبها . .

ويترك علامات على جسدها . . وهنا تكهرب الصالة . . ويتکهرب المسرح
وتولول الموسيقى ويفرق الضوء . . وتظلم الصالة كلها ويظهر رجل خائف تبحث
عنه زوجته . . ثم تجده وتهال عليه ضرباً حقيقياً . .

ولابد أن هؤلاء الناس « ينضربون » كل ليلة . . فهناك علامات على
الجسم والوجه . .

ولابد أن أناساً يجدون للذة في هذا التعذيب لغيرهم ولأنفسهم أيضاً .
وهذه هي « السادية » أى المتعة في تعذيب الغير .

وهذه هي « الماسوشية » أى المتعة في تعذيب الإنسان لنفسه . .
والناس يدفعون الفلوس لكي يتذمروا لهم أنفسهم ، ويشربوا الخمر وهم
يتذمرون ، فهم يبحثون عن العذاب ويجدون للذة كبرى في أن يروا غيرهم يتذمرون !
ومثل هذه الكباريهات . . كثيرة جداً أو مثل هذه النتر في الكباريهات
كثيرة في هذه المدينة وفي كل المدن . .

وعندما تلقت حولي وجدت وجوهاً غريبة . .

ووجدت السعادة في وجوه الناس . . سعادة شاذة . . سعادة أناس يحسون
بالكرابيج تنزل على ظهورهم ووجوههم . . وعيونهم تطلب المزيد من الضرب .
وبخت عن ورقة في جنبي وقرأت فيها اسم إحدى دور السينما . ثم انسحبت
أنزل وأطلع السلام أتجه يميناً وشمالاً كأنني أمشي في أحشاء حيوان مفترس مات . .
لأن له رائحة كريهة . . أو في طريقه إلى أن يموت فلا يزال دمه ساخناً وأنفاسه
لا هثه . .

وخرجت . .

ومررت من جديد على أحد أصحاب المكاتب أسأله عن مكان هذه السينما
وأشار بيده إلى نهاية شارع آخر . ومشيت في الشوارع . . وأنا أعرض وجهي
لقطرات المطر ، ولبرودة شديدة في الجو . . وتلقت حولي لعل أجد أجزخانة
فلم أجد . .

واقربت من أحد المشاة أسأله عن أجزخانة ، ولكن عندما اقتربت منه

أكثر وجودته يترنح بشدة وتحجلت أن أسأل عن الأجزخانة رجلاً في حاجة إلى إسعاف !

ومضيَت في الشارع والموسيقى تتجدد طول الطريق .. ففي كل مكان كباريه أو حفلة في بيت خاص أو بيت عام .. واتجهت عيني ورأيت أضواء الفلورسنت الصفراء على شكل فستان .. وتحتها أضواء النيون المحمراً على شكل جسم بلا فستان .. مفهوم إذن أن هذه السينما للأفلام العارية ..

الصور على الباب عارية .. الأسماء غير معروفة .. الفيلم غير معروف الاسم .. عاملة التذاكر قد ارتدت الفستان الغامق والباليتو .. في غاية الحشمة ..

وسلو أنها غير مقتنعة بالصور العارية التي على الشاشة ، أو أن صاحب العمل لم يرغها بعد على أن تزعزع ملابسها ..

ولكن لاحظت أن فستانها الغامق له فتحة طويلة جداً . فهي إذن قد تعرت قليلاً .. ومعنى ذلك أن صاحب السينما قد فكر في نزع ملابس باقية التذاكر ثم عدل عن هذه الفكرة في آخر لحظة ..

والسينما تعمل ٢٤ ساعة بلا توقف ..

ففي استطاعة أي إنسان أن يدخل في أي وقت ولم أعرف لماذا يدخلها أي إنسان . إنها ذات موضوع واحد ويميل وسخيف ولا يمكن للإنسان أن يختتمله إلا عشر دقائق على سبيل الاستطلاع .. وخمس دقائق أخرى في انتظار الموضوع .. وخمس دقائق أخرى في انتظار النهاية .. وخمس دقائق للاحظة ما يفعله الناس أثناء عرض الفيلم ..

الغريب أن كل المفترجين من الرجال ..

ولا يوجد إثنان يجلسان متباورين . كل واحد يجلس وحده .. ويحرص على أن يكون بعيداً عن أقرب جار له بخمسة أو ستة مقاعد ..

أما الأفلام فهي تدور في إحدى مستعمرات العراة .. وهي تبدأ بفتاة عارية تماماً .. وتنشى طول الوقت بالجنوب .. أي أنك لا ترى منها إلا جانبها فقط .. أو ظهرها ولا تراها مواجهة أبداً .. وكل حركاتها عبارة عن تخايل

لكى تراها مواجهة . . ولكنها لا تظهر كذلك . . وهى تحكى حكاية من غير
كلام . .

مثال ذلك : أنها خرجت من بيتها وفوجئت ببسيدة تستدرجها إلى سيارة وفي
السيارة تزع السيدة ملابسها . . ثم تلقى بها في الماء . . وتصرخ الفتاة . .
وينهض رجل لإنقاذها . . هذا الرجل عريان جاهز ، ولا تعرف أين كان . .
ويأخذها إلى الغابة ويجلسان معاً . . متباورين . . لا قبلات ولا عناق . . وإنما
حركات بلا كلام ولا صوت . .

أما الكلام والحركات فهما في صالة السينما . .

وهي حركات مقرفة وأصوات تبعث على الغثيان . . حتى لا أصحاب بشق
من هذا ، فالذى عندي من القرف يكفى المترجين في هذه السينما أياماً كاملة . .
خرجت . . وفتحت في أبتلع قطرات المطر . . ماء من السماء . . أى شيء
من السماء .

* * *

وعلى باب السينما قابلت رجلاً . . أعرف وجهه . . أعرف ابتسامته . . قابلته
قبل ذلك في باريس وفي روما وفي لندن . . وفي خرائب برلين وفي بيروت . .
وقابلته في آخر مرة في طوكيو . . إنه نفس النوع من الرجال يطلب إليك أن
تقضي سهرة على النحو الذى يعجبك وفي جيئه صور لفتيات ولنساء . . ويؤكّد
لك أنهن أجمل فتيات المدينة . . وأنهن لسن محترفات ، وإنما هن فتيات من
صاحبات المزاج . . ويشير : هذه سهراء من إيطاليا . . وهذه من إسبانيا . . وهذه
من السويد . . وهذه من أصل زنجي . . وهذه لم تعرف الشقاوة إلا من أسبوع ..
لقد خدعها أحد البحارة فقررت أن تتقمّ منه ، بأن تعطى نفسها لأى إنسان . .
أى إنسان . . وهذه من تركيا وهي لأسباب سياسية خرجت من تركيا فهي لا تحب
كمال أتاتورك ، وهو لا يعرف أن كمال أتاتورك لم يعد له وجود من عشرين سنة . .
وهذه ابنة غير شرعية للملك فاروق . . وهذه صديقة لأحد أصحاب الملايين الذى
أضع أمواله على جريتا جاربو ، ثم فضل هذه الفتاة على الممثلة السويدية . . وهي
معلومات لا يأس بها ، وطريقة مثيرة لتسويق هذه الفنون البيضاء . . أو هذا الرقيق

الأبيض . ولما لاحظ الرجل ضيقاً وقرف ، ويبدو أنه قد اعتاد شكلـي أنا أيضاً .
فأخرج من جنبـه ورقة مكتوبـاً عليها اسم كافـريا . . وسألـته أين توجـد . فأشار
إلى شارع قـريب . . وإذا رفضـت أن أذهب إلى الكافـريا فإنه سيعطـيني عنوان
إحدـى شركـات الأتوبيـس أو أحدـ الفنادـق . .

المهم أن هذا الرجل إعلـان متـحرك عن عددـ كبير من السـلمـ وهو يـنادي
عليـها ويـبيعـها بـحـمـاسـ مـتعـادـل . . وإـلـاـخـلـاصـ وـاضـعـ . وـربـماـ كانـ هـذاـ هوـ الإـلـاـخـلـاصـ
الـوحـيدـ الـذـيـ رـأـيـتـهـ فـتـلـكـ اللـيلـةـ . !

وفيـ الكـافـرياـ وجـدتـ عـدـداًـ مـنـ النـاسـ قـدـ تـجـاوـرـواـ فـيـ جـلوـسـهـمـ دونـ أنـ
يـنـطقـ وـاحـدـ مـنـهـ بـكـلـمةـ . . أـمـامـ كـلـ وـاحـدـ كـوـبـ كـبـيرـ مـنـ الـبـنـ . . وـبعـضـهـمـ
يـأـكـلـ السـنـدوـشـاتـ وـلـكـنـ أـحـدـاـ لـاـ يـتـكـلـمـ . . وـاقـرـبـتـ وـهـزـزـتـ رـأسـيـ ،ـ عـلـىـ غـيرـ
الـعـادـةـ الـأـمـريـكـيـةـ . . وـلـمـ أـكـدـ أـجـلسـ حـتـىـ وـجـدـتـ أـمـامـ كـوـبـاـ مـنـ الـبـنـ . . الـبـنـ
بـارـدـ . . وـرـشـفتـ مـنـهـ القـليلـ . . لـقـدـ كـانـ دـسـمـاـ . . شـدـيدـ الدـسـمـ . . وـبـلاـ سـكـرـ .
وـسـأـلـتـ إـنـ كـانـ يـمـكـنـ أـنـ يـضـعـ لـىـ فـيـ الـبـنـ بـعـضـ الـقـهـوةـ . . وـهـزـ الرـجـلـ كـتـفيـهـ
يـقـولـ :ـ عـلـىـ كـيـفـكـ .

وـسـأـلـتـ :ـ إـنـ كـانـ هـذـاـ الـبـنـ لـاـ تـنـاسـبـ الـقـهـوةـ . .

فـعـرـفـتـ أـنـ الـقـهـوةـ لـهـ لـبـنـ أـخـفـ دـسـمـاـ . . أـمـاـ هـذـاـ الـبـنـ الـذـيـ لـاـ أـعـرـفـ قـيمـتـهـ
فـهـوـ وـجـةـ غـذـائـيـةـ . . فـالـقـهـوةـ يـحـبـ أـنـ أـشـرـبـاـ بـعـدـ ذـلـكـ . . وـإـذـاـ لـمـ أـصـدـقـ ذـلـكـ .
فـنـ الـوـاجـبـ أـنـ أـنـظـرـ إـلـىـ الإـلـاعـنـاتـ الـمـلـصـقـةـ فـيـ دـاـخـلـ الـكـافـرياـ وـالـتـيـ توـكـدـ اـرـتـفاعـ
نـسـبـةـ الـفـيـتـامـيـنـاتـ فـيـهـ . . كـلـ أـنـوـاعـ الـفـيـتـامـيـنـاتـ ،ـ وـلـاحـظـتـ أـنـ مـعـظـمـ الـجـالـسـينـ
لـىـ جـوـارـيـ بـلـاـ أـسـنـانـ . . لـنـهـمـ يـتـابـعـونـ فـتـصـبـعـ أـفـواـهـهـمـ مـثـلـ أـفـواـهـ السـلـحفـاةـ . .
عـبـارـةـ عـنـ حـفـرـ سـوـدـاءـ وـصـفـراءـ . . بـقـايـاـ أـسـنـانـ . . أـوـ بـقـايـاـ تـجـاوـيفـ كـانـتـ بـهـاـ
أـسـنـانـ . . مـقـابـرـ أـسـنـانـ . !

وـأـدرـكـتـ أـنـ هـوـلـاءـ يـشـرـبـونـ الـبـنـ ،ـ لـأـنـهـمـ لـاـ يـسـتـطـيـعـونـ أـنـ يـأـكـلـواـ أـيـ شـئـ
آخـرـ . .

وـتـمـنـيـتـ لـوـ طـلـبـتـ مـنـهـ عـودـ قـصـبـ ،ـ لـكـيـ أـمـصـهـ بـأـسـنـافـ مـوـكـدـاـ هـوـلـاءـ النـاسـ
أـنـ أـسـنـافـ سـلـيـمةـ . . وـأـنـ الـغـرـبـةـ وـجـهـلـ بـالـمـدـيـنـةـ ،ـ هـمـ الـلـذـانـ جـعـلـانـ أـذـهـبـ إـلـىـ
هـذـاـ الـحـلـ . . وـرـغـبـيـ فـيـ أـنـ أـبـيـنـ هـمـ أـنـيـ صـاحـبـ أـسـنـانـ ،ـ تـدـلـ عـلـىـ أـنـيـ

شعرت بشئ من المخواط أو شئ من الإهانة ، وأن حرسي على أن أبدو أحسن منهم يؤكد أن أبحث فوراً عن رد اعتبار ..
وجاء رد الاعتبار فوراً ..

ودخل واحد وتحدث بالفرنسية التي لم يفهمها أحد . وطلب بعض الماء المشوى وبعض القهوة السادة .. ولم يفهم صاحب محل . وتقدمت أترجم له : ونطلع لي صاحب المحل يسألني إن كنت فرنسيأ أنا أيضاً . فأكيدت له أنني لست فرنسيأ ، أى أنه ليس من الضروري أن يكون الإنسان فرنسيأ ليعرف الفرنسية .. فانا لست أمريكاً ومع ذلك أتحدث الإنجليزية وأقرأ بها مئات الكتب أحسن منك . إن هذا البائع الأمريكي قد قذف بكوب اللبن أمامي ، كأنه يلعب هاندبول .. بلا ذوق ولا أدب ودون أن يرى من غير يدي .. لم ير وجهي .. لم يسألني .. ثم أنه رأى أصابع يدي كأنها شفاه مفتوحة عطشى ..

ونبهت الرجل الفرنسي إلى أنه يجب أن يجلس .. لأنني أشك في قدرته على التقاط كوب اللبن أو فنجان القهوة إذا قدمه صاحب محل . وبدت الدهشة على وجه الفرنسي وظلت انتبه عن الجلو . وصاحب محل ينتظر أن يجد الفرنسي مكاناً ليرميه بفنجان القهوة . وأخيراً طلب مني أن أفسح له مكاناً .. وأفاحت له مكاناً .. وطار الفنجان على حجر الفرنسي .. وسقط على بنطلونه الرمادي .. وانسحبت وتركت الفرنسي يلعن آباء هذا الأمريكي دون مترجم !

وعندما خرجت وجدت نفس الرجل .. ذلك الإعلان المتحرك يعرض أسماء عدد من الفنادق المربيحة .. أو المطاعم التي يمكنني أن أتناول فيها غذائي في اليوم التالي ..

وقد زاد من قرق حماسه الشديد ..

ولا أعرف بالضبط ما الذي أغاظني فيه .. ربما كانت «آليته» أى تحوله إلى آلة .. إلى شريط مسجل .. إلى شئ ليس فيه إنسانية .. ولا كرامة .. أو لأنه لا يتعب ولا يقرف ولا يمل .. فكانه بذلك يختصر تعبي وملل ، أو أنه يهون من قيمة كل ما أشكوه منه .. فهو يعمل .. طبعاً هذا عمل .. ليلاً ونهاراً .. بلا تعب وبحماس شديد ..

أما ما الذي يعمله فهو موضوع آخر !

● حكاية بالطفل

وأنا جالس في المطعم بالمقعد المواجه للبنك الدولى في مدينة واشنطن ، تذكرت قصة للأديب الروسي تشيشخوف .. والقصة لها دلالة خاصة ..

ففي قصة تشيشخوف يروى حكاية طفل وحيد ذهب لطبيب يشكره على أنه أنقذ حياته ، ويقدم له تحفة ثمينة عبارة عن تمثال من البرونز لأمرأتين عاريتين بينهما شمعدان ، والشمعدان له معنى مثير ومقصود في القصة . . ويرفض الطبيب في أول الأمر . ولكن أمام إصرار الطفل الذي يوافق . . ولا يدرى أين يضع هذا التمثال . فالعيادة يدخلها الرجال والنساء . . ثم أنه زوج وله أولاد .. ولا يعرف ما الذي يقوله لهم .. ثم إن التمثال ليس صورة يمكن وضعها وإنفاوها في أي وقت . . .

ويبدى الطفل أسفه ، وأسف والدته ، على أنه كان من الأفضل أن يأتي له بتمثال آخر شقيق لهذا التمثال .. لو لا أنه لم يجد من كل ما تركه أبوه من التحف الفنية غير هذا التمثال .

وينحرج الطفل ويقرر الطبيب أن يهدى هذا التمثال إلى صديق له .. . وينذهب إلى صديقه المحامي ويعطيه التمثال في إحدى المناسبات ويصر على موقفه . . وصديقه يرفض لأنه هو الآخر يخشى من الزبائن .. . ويخشى ما سيقولونه عنه إذا رأوا هذا التمثال العريان الفاجر ..

وأخيراً يوافق المحامي وفي ذهنه أن يعطيه لصديق يعمل مثلا .. . ويقول إن

الممثل لا يهم كثيراً بمثل هذه التماثيل العارية .. . ففي حياته نساء وخر وحفلات أكثر فجوراً من هذا المثال ..

ويذهب إلى صديقه الممثل .. . وتكون مفاجأة . فالمثل يرفض هذا المثال.. فهو وإن كانت حياته عريانة إلا أنه يريد أن يبليو محترماً . فإحساسه بأنه فاجر يجعله يبالغ في الاحتشام أمام الناس .. . ولكن الليلة تمضي والنساء يضحكن الرجال أيضاً .. . ويتحقق الممثل هذا المثال . وفي نيته أن يبيعه لسيدة صاحبة دكان التحف الفنية .. إنها أم هذا الطفل ! ! .

وفي الصباح يذهب إلى السيدة ويباع لها المثال .. . وتشكره السيدة على هذا المثال الذي كانت تحلم به من وقت طويل ..

وفي المساء يدخل الطفل عيادة الطبيب وفي يده ورقة ملفوفة ويقول له : لا تعرف مدى سعادتي .. أنت أفقدت حياتي .. وأنا ابن الوحيد لأمي .. وأمي بعثت لك بهذا المثال الذي هو شقيق للمثال الذي عندك .
ويغمى على الطبيب !

• • •

اليوم ذهبت أشتري بالطوط مطر .

دخلت أول محل . وكان في نيتني أن أدخل أول محل آخر ، إذا لم تعجبني البضاعة . وهذا قرار نادر لا أعرف كيف اتخذته . فأنا من الذين إذا دخلوا أي محل فلابد أن يشترى أي شيء . لابد . لأنى لا أستطيع أن أناقش وأفاصل . مستحيل وقد اكتسبت هذه العادة - عادة الشراء في أول لحظة - من سنغافورة وهونج كونج . فهناك يوجد كل شيء في الدنيا ولا يمكن أن تطلب شيئاً لا تجده . يستحيل ، فأمام المستحيل ، كنت أشتري أي شيء .

واستقبلني أحد الموظفين وعرف أنني أريد بالطوط مطر . وسألني من أي نوع ، فلم أحاره استعراض معلوماتي القليلة في البلاطى . فقلت وأنا أضحك وأدارى جهلى : بالطوط للقيام برحلة للقطب الشمالي ..

وأضحك الرجل وهو يقول : موجود ..

ومن الممكن أن يكون هذا النوع من البلاطى موجوداً .. فالقطب الشمالي

ليس بعيداً عن هنا . . يعني ليست هذه نكتة تستحق الضحك من جانبي !
ورحت أقلب في البلاطى . . الأبيض والأسود والجلد والصوف .. والقصير
والطويل والذى له جيوب من الخارج والذى له جيوب من الداخل . . والذى
بمائة جنيه ، والذى بنصف وربع هذا المبلغ ..

ووجدت بالبطو المناسب . وكلمة المناسب ردتها وراء الباب بعد أن رأيت
منظرى في المرأة . . وبعد أن قلت : والله خسارتك . . لو كان معك مليون
دولار فقط ! .

ولفت بالبطو القديم الذى كان معى في ورقة وقبل أن أخرج من باب
الخل أقيمه بالقرب من الباب وتظاهرت بأن شيئاً لم يحدث .. واتجهت بعيداً
عن الخل ليستوقفنى أحد موظفى الخل ويعطينى البطو ولا ينتظر أنأشكره ..

ومعظم سكان واشنطن من الزنوج . . إنهم أكثر من ٨٠٪ من السكان ..
فواشنطون العاصمة يحكمها رئيس الجمهورية شخصياً . ولا يوجد بها أى تفرقة
عنصرية . . وتوجد بها كل السفارات الأجنبية . . فالزنوج هنا في حماية
الدستور . . وكلهم يرتدون بلاطى أحسن وأفخم من البطو المناسب لى ..

وظللت أبحث عن مكان ألى فيه بهذا البطو وأخيراً وجدت .. رأيت سيارة
طويلة عريضة واقفة على جانب من الشارع .. ولا أحد ينظر ناحيتها .. الناس
كلهم في حالم .. يبدبون في الأرض .. وكل واحد منهم ينظر إلى فوق كأنه
ينظر إلى ذبابة وقف فوق أنهه .

وبحركة رشاقة أقيمت بالبطو تحت السيارة .. ووقفت إلى جوارها ..
وثلفت بنفس الرشاقة فلم أجده أحداً .. ورحت أتطلع إلى اللافتات هنا وهناك ..

ومشيit بعيداً لتلحقنى سيدة عجوز لعلها لاحظت أننى أنثاء قراءتى
لللافتات لم أتبه إلى أن البطو سقط .. وشكرتها وخرجت منها .

وذهبت إلى المطعم الذى يواجه البنك الدولى ..

وعندما دخلت المطعم لم أجده أحداً .. وإنما وجدت الجرسونات مشغولين

جداً .. وأول شيء فعلته هو أنني تركت البالطو القديم بجوار الباب ، على مقعد ..
وجلست على أحد مقعدي من الباب .. وطلبت قدحاً من الشاي وبعض السنديونيات
ولكنى حمدت الله أننى تخلصت من هذا البالطو الذى يرفضه أى أمريكي ..

وقلت لنفسى ربما كان السبب فى رفض هذا البالطو أنه من اليابان ، وأن
العلاقات بين أمريكا واليابان هي الاحتقار المتبادل . . فالأمريكان لا
يزلون يحتلون اليابان . . واليابانيون يحاولون أن يتحرروا منهم . . بل إن اليابانيين
رفضوا وبإصرار أن تحتل اللغة الإنجليزية ولو مكاناً صغيراً جداً من أفواهم أو
آذانهم . . ولقد عانيت الكثير جداً في العثور على واحد ، في أى مكان ، يتكلم
بالإنجليزية . .

ولكن على كل حال لقد تركت البالطو في مكان أمن . . ولا بد أن يعثر
عليه أى إنسان ولا يهمى ما الذى سيفعله به . . قد يحرقه . . قد ينزع العبارة
المكتوبة عليه : صنع في اليابان . . ثم يرتديه بعد ذلك . . على أساس أن المطر
والبرد والعواصف لا تفرق بين ياباني وأمريكي . . وبين صناعات يابانية
وصناعات روسية . !

وبارتياح شديد . . ولذة واضحة شربت الشاي ونفدت ما تساقط من
السنديونش على البالطو الجديد . . الذى لا يشعر أحد أنه جديد إلا أنا ، ولا يعرف
أحد أن منه يساوى ستين جنيهاً إلا أنا .

ولاحت بعينى منظر البالطو اليابانى وهو يشبه جلد حيوان سلخوه . . ثم تركوا
الجلد في انتظار سيارات الإسعاف ، كما يحدث عندنا في عيد الأضحى عندما
عم سيارات الإسعاف تجمعاً جلود الضحية !

ودخلت سيدة وظننتها لأول وهلة أنها نفس السيدة التي التقطت البالطو قبل
ذلك . . ثم دخل رجل . . وجلس إلى جوار البالطو . . وسقط البالطو على الأرض
فوضعه في مكانه . . وكنت قد فرغت من الطعام . . ونهضت وتفاديت بحركتي
ونظرت أن أقرب من البالطو . . وناداني أحد الجرسونات ونبهني إلى أننى نسيت

البالطو .. فقلت بلهجة جادة جدا : لست في حاجة إليه !

وتفاديت نظرته وأخفيت رأسى في البالطو الجديد، واحتفيت أنا بين الناس ..
ويظهر - وهذا أكيد - أن الجرسون لم يستمع بوضوح إلى ما قلته فلحقنى
وأعطاني البالطو .. وحملته على ذراعى .. وقررت أن آخذه معى إلى الفندق .

وفي الفندق أعطيبه للسيدة فالنحبية العجوز ونظرت إليه باحتقار ضائقنى فقلت
لها : إن هذا بالطو أثري جدا .. لقد كان هدية من إمبراطور اليابان .. ومكتوب
عليه أنه مصنوع في اليابان . !

ويبدو أنها لم تهوش من هذا الكلام .. فأخذت منها البالطو وألقيته على
أحد المقاعد ..

وانتهت حكاية البالطو الذى اشتريته من الهند، وهو صناعة يابانية .. وأخذته
معي وأنا مسافر إلى أستراليا .. ونسبيت أن أبيعه في أستراليا وأشتري بدلا منه
بالطو جديداً .. وظلت أحمله على ساق من أستراليا إلى أمريكا خوفاً من أن
أضعه في إحدى الحقائب فتحاسبنى شركات الطيران على وزنه .. وتكليفه
وزنه يساوى ثمنه عدة مرات . !

ومن نافذنى نظرت إلى شوارع مدينة واشنطن .. إنها هادئة .. والبيوت فيها
على الطراز الإنجليزى القديم .. وهى شبيهة بمدينة كانبرا بإستراليا .. والشوارع
فيها أهداً .. والأضواء فيها خافتة .. والألوان باهتة .. كأنها ليست أمريكية ..

واحسست أننى أعطيت لعينى أجازة ..

وفجأة « لعلت » الدنيا مرة واحدة ..

وعلى فكرة كلمة « لعلت » مأخوذه من الكلمة « اللعل » وهو نوع من
الياقوت الأحمر .. والأنوار كانت حمراء .. وعلى درجات .. وب أحجام مختلفة ..
وسألت عامل التليفون عن مصدر النور الذى أضاء كل المنطقة فجأة ..

وبسرعة مجنونة قال لي عامل التليفون : إنها حرقة ..

و قبل أن أغلق الستة سمعته يقول : هنا . . الحقيقة هنا . . و فتحت النافذة
و ألقيت البالطرو . .

و حملت حقائبى التى كانت مغلقة . . و تركت أمواض الحلقة والصابون
وزوجاً من الأحذية ونزلت السلام بأقصى سرعة . .

وفي الشارع ، وأمام الفندق وجدت الجرسون في انتظارى ومعه الفاتورة
والدموع في عينيه و معه بالطو . . ولحسن الحظ أنه بالطو آخر !

● درس في الكراهة!

منظر نيويورك من الجو لا يمكن أن تنساه ..

فكلمة نيويورك لها معنى خاص للذى لم يرها بنفسه .. وإنما رآها فقط في السينما .. فهى مركز القارة الأمريكية .. مركز الذهب .. وفيها خمسة ملايين يهودي .. وهى مدينة .. عليها عفريت .. ألف عفريت .. وهؤلاء الناس المجانين هم الذين يتحكمون في العالم كله .

وهذه البيوت العالية .. التي تتطح السحاب .. سواء كان السحاب موجوداً أو غير موجود .. عبارة عن أشجار من حديد وصلب في غابة مخيفة اسمها نيويورك .. غابة يأكل فيها الإنسان الصغير جداً ملايين الناس في أي مكان بجرة قلم أو بجرة قدم .. أو نعمة عين .. هنا أناس يتحكمون في ملايين الناس في أركان العالم الأربع .. هنا الناس الذين يتاجرون في الحروب ويتاجرون في السلام .. هنا أناس صناعتهم الكراهة .. إنهم يصدرون الكراهة لكل مكان ومجاناً .. إنهم لا يريدون للإنسان أن يهدأ ، إنهم يريدون للإنسان أن يموت محارباً ويعيش محارباً ..

لأن الحرب معناها صناعة الأسلحة وترويج الأدوية .. واضطراب الأعصاب يؤدي إلى أن يضغط إنسان على زرار في طائرة لتفجر قنبلة خطأ وتقوم الحرب .. وفي أثناء الحروب يبيعون ويشترون من أي مكان .. من أي طريق ..

اليهود يحكمون نيويورك ونيويورك تحكم أمريكا وأمريكا تحكم الدنيا ..

اليهود لا وطن لهم .. ولذلك ي يريدون أن يهدمو كل وطن.. وكل قومية .. وهم حاقدون على أي دين وأى جنس .. وهم يريدون أن يشغلوا الناس عنهم وهم الذين يملكون القلوس وأجهزة الإعلام في أمريكا ..

وهم وحوش البشر ..

يكتفون أنهم لا يريدون السلام . يكتفون أنهم تجار السماء والشرف ..

منظر نيويورك من الجو عبارة عن سهام مرفوعة .. عبارة عن صواريخ منصوبة إلى أعلى .. إنها شئ يخيفك ولكنك إذا أحسست أنك لا تستطيع أن تحبه ، فأنا أهنتك لأن هذا هو إحساس صادق .. فحتى عندما تنزل من الطائرة لا تستطيع أن تخوب هذه المدينة . إنها تحداك .. إنها تختصرك .. إنها لا تدرى بك .. لا هي ولا سكانها ولا أحد فيها يدرى بأحد .. المطار الذى اسمه الآن مطار كينيدي ، وكان اسمه آيدل وايلد هو من أكبر مطارات الدنيا وأكثرها ازدحاماً ونظاماً .. ومن الممكن أن تضيع فيه بسهولة ، ولا يهتم إليك أحد .. ولا تهتم أنت إلى أحد ..

المطار اسمه كينيدي وهو الرجل الأمريكي المسلم الذى قتله يهودي ..
وهذا القاتل قتله يهودي أيضاً !

لم يكن من السهل أن أجده فندقاً . فالفنادق هنا مرتفعة الأسعار جداً . والحياة من نار . والنار إذا أراد إنسان أن يشعلاها في نفسه فإن هذا يكلفه الكثير جداً .. يكلفه أولاً ثمن النار ، ويكلفه غرامة لإزعاج الناس .. ويكلفه تهديداً بإحرق فندق من مائة دور ، وهذه الغرامة يجب ألا تدفعها إلا لدى شركات التأمين .. وقد تكون محاولة الانتحار هذه معناها الهرب من التاكسى الذى نقلك من المطار إلى الفندق ..

كل شيء هنا غال جداً .. ومع ذلك فالحياة أرخص من الموت ! ..
وحمدت الله أن استضافني أحد الأصدقاء ..

بيته صغير جداً . ولحسن الحظ كان على خلاف مع زوجته . فأنا الآن سأنام في سريرها . وتركت له ولديها الاثنين . ويكتفى أن أنام في بيت هذا الصديق لأوفر عشرين جنيها في اليوم الواحد على الأقل ..

أما الطعام الذى كنت أتناوله فهو ولا شك فضل منه وكرم ..
ف الصباح نتناول الشاي مع اللبن والليلة ..
وفى الظهر كذلك مع البطاطس الجافة ..

وفى الليل بلا بطاطس ولا بليلة . وهى ولا شك غالبة التكاليف .. ويستحق
هذا الصديق على كل هذه الوجبات الكثيرة كل الشكر وكل الاحترام والامتنان
وبعملية حسابية وجدت أننى فى عشرة أيام فى نيويورك قد كلفت صديق
هذا حوالى ٢٠ جنیها ووفر لي هو أكثر من ٣٠٠ جنیه .. نعم مائة جنیه مضروبة
في ثلاثة !

حتى لو كان السرير الذى أنام عليه ليس مريحاً .. وأن بعض ألواح
السرير مكسرة مما يقطع بأن العلاقات بين الزوجين في الأيام الأخيرة لم تكن
على ما يرام ، يشهد بذلك بعض ضربات على جانبي وجه صديق هذا ، لكن
هذا السرير الرخيص المجاني يساوى أفسر جناح فى فندق والدروف استوريما
الذى أعجبت به جداً ، عندما مررت به صاعداً هابطاً أحى الجرسونات كأننى
أعرفهم أو كأنهم يعرفونى بسبب تخياني الطويلة والتى عدلت عنها لأسباب
اقتصادية .. ولكلثرة وجود سعوديين وكويتيين في الفندق فى تلك الأيام !

شوارع نيويورك متشابهة .. وكلها متقطعة .. وها أرقام .. والمبنى فيها
ليس متعة .. وركوب السيارة ليس متعة .. ولا توجد بها أية متعة على الإطلاق .
وربما كانت المتعة الوحيدة هي أن تدخل محلات . وتتفرج . وهنا تشعر بألم
خفيف في أعلى الصدر إذا لم تكن تفهم في الطب فهو على كل حال أعراض
وجع قلب . وهذا الواقع سببه الحسرات التي تشيك وتهيده لأنك مفلس في
نيويورك ، مفلس في مركز ملايين الملايين ..

ولا بد أن تبقى في نيويورك بضعة أيام لتعرف أنك لن تتحسر طويلاً . كل
شيء موجود وبأسعار معقولة .. فى المحلات الكبيرة جداً توجد بضائع قديمة ..
بضائع فيها عيوب .. فستان فيه ثقب في حجم هذه النقط .. أو بالطوط من غير
زراير . أو جزء منها خريشة قطة .. أو كرافنة سقطت عليها سيجارة .. أو بذلة
بها بقعة لا تخرج بسهولة ..

وأنا أنصحك إذا ذهبت إلى نيويورك وشتريت بعض هذه السلع ، فلا تشر الكثير منها فربما تقع على الأرض وتتزحلق .. ولو وقعت فلن تمتلك يد واحدة .. تماماً كما يفعل بعض حكام كرة القدم عندما يسقط اللاعب في منطقة الجزاء حتى يحتسبها الحكم ضربة جزاء .. فهم في نيويورك مشغولون بشيء آخر منك . ولا يمكن أن تكون أنت ، أيا كنت ، أهم من الفلوس ، والنظر إليك وسؤالك عن صحتك وعن الذي أصابك ، تضييع لوقت الذي هو من ذهب !

سمعت هنا عن سيدة حامل وقعت على الأرض على أثر دوحة أصابتها فلم تمتلك لها يد ، ومعظم الأرجل كانت تمتلك لها وتصطدم بها لأنها تتعرض الطريق العام . ولكن طفلاً صغيراً لم يتحول بعد إلى مواطن نيويوركي أصيل ، وقف إلى جوارها ولفت نظر الناس لها . ومضى الناس في طريقهم .. وتساندته هي على الجدران ووقفت .. وتلتفت لتشكر الطفل فوجده يمسح دمعة على خده .. إن أم هذا الطفل قد عاجلته بصفعة شديدة لأنها تركها وانصرف عنها شيء تافه !

وأنا أصدق هذه الحادثة ..

وكل يوم أجده طعم نيويورك مرأة على شفتي ..

وأحس بما أصاب أوسكار وايلد عندما دخل ميناء نيويورك وسألوه : هل معك شيء من نوع ؟ فقال : عبقربي !

والشيء المنوع الذي أحسست به هو إنساني .. أي مجرد أنني إنسان . لا يمكن أن تحس بأنك إنسان .. وإنما تحس هنا بأنك إنسان في طريقه إلى النهاية .. بأنك مهدد في إنسانيتك .. بأن واحداً من هؤلاء الملايين قد اقترب منك ونشر منك إنسانيتك .. ولكي يقلد أرسين لوبين ترك لك بطاقة .. وهذه البطاقة تضعها في محلك وأنت تمشي كأنك نائم .. ومكتوب على هذه البطاقة : عش في قرف !

هذا القرف جعلني أكره نيويورك ..

وأحتقر جوها وأهلها .. مع أنى لا أعرف واحداً منهم .. وإنما جوها هو الذى جعلنى أكثر قرفاً وسخطاً وأتمنى أن أمسك ورقه وقلماً وألعن الأيام التى حملتني إلى مدينة كلها تصلبك .. كلها ترتكب .. كلها تفصلك .. جلرانها حديد وشوارعها حديد وأهلها صلب .. باردة جامدة .. إنها تحيلك عنها .. إنها لا تريشك أن تلمسها ..

إن جوركى معنور عندما جاء إلى نيويورك وخرج منها بقصة واحدة اسمها «الأم» هي عبارة عن منشور ثورى ضد الرأسمالية !

وأحسست بما أحس به بطل مسرحة «الفرد الكثيف الشعر» للكاتب الأمريكى أوينيل . إن بطل هذه المسرحية نزل ميناء نيويورك .. كل شئ فيها لا يعبأ به .. كل شئ لا يرىده .. كل شئ ليس في حاجة إليه .. كل شئ يصدقه كأنه نواة .. كأنه قشر لب .. كأنه مسماى فى جزمه .. كأنه ذبابة .. مع أنه شئ .. مع أنه هو الذى صنع نيويورك .. فهو الذى يعمل فى السفن .. وهو الذى يضع الفحم فى الفرن والفرن يطلق البخار والبخار يدفع السفن بكل ما حملت .. فهو أسود كالفحم ، وهو لزج كالزيت ، وهو حديد كالآلات .. وهو صانع الآلات والتروس وهو الذى يعيش ويموت متى ما دعا !

وكان بطل هذه المسرحية يدق الجدران بيديه .. ويدقها بنظراته أيضاً .. وتبقى نيويورك كما هي .. نوع من اللامبالاة الشاهقة .. نوع من عدم الالتفات الذى ينطع السحاب .

وعندما أعود إلى البيت ، أمسح عيني أمام قنوات التليفزيون وأتأتمب بين البرامج .. وأنام وأنا أحاول أن أتذكر أيامًا هادئة ناعمة أمضيتها فى مدينة هوليوود وأنا أختسر على أيام جزر هاواى !

الليلة كانت رأس السنة ..

كل شئ يدل على أن حدثاً غريباً سبق .. العرب يتحدثون عن الفول المدمس والملوخية والكشك والطعمية . وهى أطعمة لا يأكلها الإنسان عادة بهذه

الكثرة إلا إذا سافر خارج القاهرة . فالحالات العربية تقدمها على أنها أعلى ما عندها !

وإمعاناً في المحاملة كنت أجد لها طعماً مختلفاً عن طعمها في القاهرة . وأتهم ذاكري . وأقول إنها هنا مختلفة . وإنها في القاهرة شيء آخر .. والحقيقة أنها في القاهرة أحسن لأن سيدات السلوك الدبلوماسي لا يعرفن الطبخ . ونظراً لصعوبة نقل هذه الأطعمة مطبوعة في المقادير الدبلوماسية فلا بد أن يقمن بطبخها ، والمحاملة وحدها هي التي تولى بلع الظلط الصغير الذي يقرقش في الطعمية وذرات الرمل التي هي عبارة عن جثث سوس عندما نكتشفها في الفول .
وهناك حركة غير عادية في المترو تحت الأرض ..

والمترو في نيويورك هنا شيءٌ مزعج .. فهو سريع جداً وله ضوضاء شديدة .. والناس ينزلون في صمت ويصلدون في صمت .. وعلى وجوهم كآبة قائمة أو نائمة .. ويبليو أنهم بدأوا يوقظون هذه الكآبة استعداداً لقبلة رأس السنة .

و قبل موعد هذه القبلة بنصف ساعة كنت أقف أمام « راديو سيتي » أعظم معلم نيويورك .. وعلى رأسى طرطور وفي يدي مزمار وفي بعض اللبان الذى يجعلنى أشعر بشيء من « الأمبركة » .. وكأى عبيط أزمر وأنفخ حتى لا أبدو شيئاً بين الناس أو غير مهم بنهاية عام وببداية عام آخر ..

ولاحظت أنه من الممكن أن يشعر الإنسان بأنه سخيف جداً ، ومع ذلك لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستمرار في هذه السخافة .. وزمرة سخافى ، وطلبت سخافى ، وفي لحظات صرت من أصحاب السخافة .. ومعي مائة ألف نسمة في هذا الميدان !

ولا أعرفكم مضى من الوقت .. وأنا على هذه الحال .. ونسبيت تعجبى .. واقتربت من أحد أعمدة النور أو التليفون .. عمود والسلام .. وركنت ظهري لأستريح .. وكان للعمود أصابع ناعمة امتدت واحتضنتى .. وقلت في نفسي :
يجوز .. فتحن في بلاد العجائب ..

واستدررت لأرى إن كان هذا صحيحاً ..

وهنا اكتشفت أن البالطو الجميل الذى اشتريته من أيام قد التصق بالعمود التصاقاً تاماً . . ولا ينفصل البالطو والعمود إلا قسيس يعلن زواجهما وارتباطهما إلى نهاية الحياة !

وعلى العمود مكتوب أن هذا العمود مخصص لإعلانات شركة مش عارف إيه الخاصة بالصباغة والصلب .. وأن أي إنسان يصاب بضرر فالشركة - مع الأسف له والشكرا له أيضا - على استعداد لدفع التكاليف !

وتعاونت أنا وأربعة وزعنينا بالبطو . . وبعد أن ترك أحد جيوبه كذكري لعناق بالإكراه في ليلة رأس السنة ؟

ولم يختلف أهل نيويورك عن أهل أية بلد في الدنيا في ليلة رأس السنة .
إلا في أن أهل نيويورك ينتعلون الإنسانية . . ويفتعلون الطفولة . . في حين أنهم
في أي بلد آخر - حتى في أمريكا - أناس عاديون بلا افعال . . وبلا محاولة
كاذبة لأن يتذكروا أنهم كانوا بشرأ في قرن من القرون !

لوف نیویورک حی اسمه «قریة جیر نیتش» . . .

وهي أخذت الاسم طبعاً من مدينة صغيرة بالقرب من لندن اسمها جيرنيتش وهي التي تقع على خط طول : صفر .. والعالم كله يضبط ساعاته على توقيت هذه المدينة التي عدد سكانها تسعون ألفاً ولها عضو في البرلمان وبها مصانع وبها متحف القائد نلسون - إنني أتكلم عن جيرنيتش الأصلية !

أما هذه الجيرنيتش أو هذه القرية فهي شيء آخر . .
فالأمريكان يحاولون أن يقلدوا الحى الالاتينى فى باريس . .

ففيها زرائب تحولت إلى بارات ومطاعم تحت الأرض . . واصطبات للغسق
تحولت بفضل الإضاعة الحالمية إلى جنات تجمرى من تحتها أنهار البيرة والويسكي . .
ومعظم هذه الأماكن يقف فيها الناس . . فلا مكان لإنسان يحاول أن يجلس . .
 فهو يشرب وهو واقف ، ويأكل وهو واقف ، ويدفع وهو واقف . . ويخرج
من غير مطرود إلى مكان آخر ليحجز له موطنًا لقدم . . لقدم واحدة طبعاً .
لأنه بعد هذا التعب لا يمكن أن يقف على قدم إلا ليرفعها ويقف على القدم الأخرى

ويجد نفسه طول الليل في هذا الوضع الغريب ، ويقف كالأوزة ، ويشرب البيرة كأنه سمكة ، ويترنح كأى مسطول ، ويدفع كأى قروى من أقصى الريف المصرى !

وإذا حاول أن يناظر بفقدان الوعى ، فهناك فتوات فى استطاعتهم أن يردوه إلى وعيه . . . بعدة طرق : بأن يضربوه حتى يفيق . . . وبأن يلطشوا الحفظة . . أو ينزعوا ملابسه . . وبخبرة السمسارة يقدرون بالضبط كم تساوى ملابسه الخارجية والداخلية . . وجواز السفر أو البطاقة الشخصية . . أو يسلموه لرجال البوليس . وهذا لا يعفيه من دفع التكاليف نقداً أو حبساً !

لاحظت أنهم يطبلون شعر الحبة . . والشارب . . وأنهم يرتلون بنطلونات مقلوبة . . وأن بعضهم يرتدى قصاناً سوداء . . أو بيضاء . . وهذا شئ غريب . . لأن الأمريكى العادى أو الأمريكى الوجودى يلبس القبص السادة . . ولا يحمل فى يده ساعة . . ولا فى جيشه ورقة ولا قلماً ولا مفتاحاً للبيت ولا نوتة بها أرقام تليفونات ولا فى جيشه فلوس . . لأن الأمريكى العادى يحمل فى جيشه شيكات . . مضمونة من أحد البنوك وبذلك يكون قادرآ على تناول الطعام فى أى مطعم !

سألنى واحد من هؤلاء الأمريكى كان ذوى القمبان السادة : هل رأيت باريس ؟

قلت : عدة مرات . .

وسألنى : هل هذه القرية شبيهة بها ؟

قلت : بصرامة لا . .

قال : كثير من الفرنسيين يوكلون هذا الشبه . .

فأفهمته أنهم يقصدون الشبه الموجود بينه وبين شباب الحى اللاتينى ! .

فأنحرج من جيشه نصف سيجارة وابتلعها أيضاً . . وشرب وراءها وسألته :
ماذا فعلت ؟

فقال : ابتلعت بعض الدخان الذى لم يحرق بعد !

وسألنى إن كانوا في باريس يفعلون مثله ؟

قلت : في نيويورك فقط ؟

وضحك وأخفى وجهه في كأس كبيرة شربها وانهار . . وقبل أن يلمس

الأرض امتدت أربع أذرع قوية وحملته وأسندته ليكمل كأسه . وأكمله وانحنى مع الأذرع الأربع . وجاء شاب آخر بقميص أسود .. في جيوبه كتب وقصاصات من الصحف وبعض الصور .. وعلى خده شفاه حمراء وفي جبهة وفي وجنته .. وفي صدره وعلى قميصه الأبيض ..

وسألني إن كنت أريد بعض هذه الشفاه . فلم أفهم السؤال . أو حاولت أن أبدو كأنني أريد مزيداً من المعلومات .. فأخرج من جيبي ورقاً مطبوعاً عليه بعض الشفاه .. وألصق هذه الأوراق على وجهه المبلل بالعرق .. فانطبعت هذه القبلات !

فقلت له : ولكن كل الناس يعرفون أن هذه قبلات صحافية .. قبلات ورق جرائد !

فهز كتفيه بعدم اكتراث ..

وسألته إن كان سبب ذلك هو أنه لا يهمه الناس أو أنه لا يجد فتاة في هذه الليلة السعيدة .. فقال عبارات فهمت منها أنه يفعل ما يعجبه ولا يهمه الناس .. ثم مد يده وأخرج قبلات سوداء وألصقها بوجهه .. وتطرع وألصقها بوجهه .. وذهبت إلى زريبة أخرى في هذه القرية التي يبيتها تصل إلى عشرة أدوار وعشرين دوراً .. وهي طبعاً بالنسبة لناطحات السحاب تعتبر أكشاكاً صغيرة .. وهي زريبة من الناحية الفنية ألطف وأجمل ..

فدخلها لا بأس به .. ستائر حمراء .. وأضواء حمراء .. وكل شيء فيها تحول إلى لون الدم .. حتى الأحجار كأنها دماء جفت .. أو قلوب انخلعت وكادت تقع لو لا خوفها أن تسقط على الزجاجات المكسورة التي في أيدي الزبائن .. الأكواب كلها مكسورة عن عمد .. ولها أطراف مدببة .. والناس يشربون من خراطيم من الجلد ..

أوضح لك هذه العبارة مرة أخرى : الناس هنا ارتقوا الجاكتات بالملووب .. واضح هذا .. والجاكتات مزرورة أيضاً .. وبالبنطلونات واسعة جداً والشعر منكوش .. والخراطيم تشبه « اللي » الموجودة في الشيشة .. أما الأكواب فكلها مكسورة أو

مشروخة . . وزجاجات البيرة لا يفتحونها وإنما يكسرنها في الحائط . . فيكون لانفجارها دوى . . وما تبقى من الزجاجة يضيعونه في الأكواب المكسورة ويشربونها . وليس من العقل أن تسأل مجذوناً عن الحكمة وراء هذا الجنون فلو كان يعرف الحكمة لاختار شيئاً آخر . ولكنها لا يعرف . ولا يريد أن يعرف وليس من الضروري أن أعرف . فإما أن يعجبني ، أو أتركه إلى أي مكان آخر . . ولن يدرى بي أحد ، داخلاً ، أو خارجاً مندهشاً أو معجبًا !

و قبل أن أستقر على رأى . . انفجرت زجاجة ودخل خرطوم في فم ، وسالت البيرة على ملابسي ، وتقدمت فتاة شبه عارية تطالبني بالحساب . وحارط يدي بين الخرطوم وبين بقايا الزجاجة . . ويصطدم بي أحد السكارى فتسقط الكوب والزجاجة والخرطوم . . وتنظر فتاة أخرى معها خرطوم آخر . . والحراطيم هنا من الورق ويفترضها مع كل كوب وكل زجاجة .. سوانة كانت زجاجة كوكا .. أو زجاجة عصير .. أو زجاجة بيرة .. وطلبت من الجرسونة المصبوغة بلون الدم ، كأنها دجاجة في أحد المطاعم الهندية ، أن تقف إلى جوار الحائط حتى لا تصطدم بأحد .. وحتى أتمكن من دفع الحساب أولاً بأول .. وهنا اصطدمت بي الجرسونة نفسها . أين شهانتي ؟ ! أين رجولتي ؟ ! لا يمكن أن أبدى أي ضيق أو أي قرف .. بل هذا شرف عظيم .. ليتها تفعل ذلك مرة أخرى .. واعتذر الفتاة واعتذرنا أنا لاضطرارها لأن تعذر عن عمل غير مقصود ، وحتى لو كان مقصوداً فهي مداعبة لطيفة .. ولا شك أن قدmi في حاجة إلى أي سائل بارد يدخل فيما ليحفف من حرارة المishi والوقوف !

وفي المرة الرابعة عندما حاولت أن أخفى ضيق الشديد كسرت الزجاجة بشكل غير فنى .. فسقطت كلها على الأرض !

ونخرجت أبحث فعلاً عن زريبة حقيقة . فلا يمكن أن تصادر عن إنسان هذه التصرفات كلها ، ولا يستحق في آخر الليل أن يتعلق من جبل والخليل في وتد والوتد في زريبة والزريبة في نيويورك ! ..

وكأنني أريد أن أغنى نفسي من هذه المحن ، دخلت أحد المطاعم وأكلت بعض السبانخ المسلوقة ، وهي أقرب الأطعمة شبهًا بالبرسيم !

والأمريكان في الحقيقة عندهم كل شيء يتناءه أى إنسان .. إلاشينا واحداً :
الإحساس بالحياة !

إن هذه القرية في حاجة إلى ألف سنة لتكون في قذارة وبدائية وظلام وبساطة
الحي اللاتيني في باريس .. أين الموسيقى .. أين الرقص .. أين النعومة .. أين
الهمس .. أين اللمس .. أين الكلام الحلو الذي تسمعه من فتاة مسحورة بك
أو بغيرك .. أين الغناء الذي يتعدد من حنجرة ذات حشرجة بفعل السجائر
والسوائل الباردة والملابس الشفافة .. أين الآه .. والليل والعين .. تسمعها من
عربي سعيد مع فتاة سعيدة في كل من أركان باريس .. أين عشرات الأيدي
ملفقة في حنان حقيقي .. لا حنان سيئافي في سان ميشيل .. وسان جرمان دبرى ..
وفي مقاهي الفوكيه والدييون ودى فلور .. ودى لاييه .. إلى آخر الأسماء الساحرة
في باريس .. أين الليل الذي تنتشر سحبه القاتمة .. فوق أبراج الكنائس وأقواس
النصر والطوير ترفق كأنها مناديل حريرية .. أو كأنها أعلام نصر .. إن
انتصار الإنسان على حياته الآلية يستحق التكريم .. لهم في باريس أناس أولاد
ناس .. لم قلوب .. كلهم قلوب .. ولكنهم في أمريكا .. لا أحد يعرف
إن كانوا من الناس .. لا أحد يعرف إن كانوا عندما هاجروا من أوروبا قد نزعوا
قلوبهم ورموها في البحر !
لا أعرف ماذا حدث ..

إن المقارنة بين أمريكا وأوروبا صعبة .. بين بلاد بلا حضارة ، وبلاد
الحضارة العميقية ، مقارنة ظالمة لأمريكا ..
والمقارنة بين « عشش الترجمان » الأمريكية هذه وبين الحي اللاتيني في
باريس ، إهانة لباريس كلها ..
وعشش الترجمان أحد الأحياء المهدمة في القاهرة ، والمرشحة للانهيار قريباً
 جداً - أو هكذا أتمنى !

* * *

وأنا أغلق باب غرفتي .. أغلقت في على هذه العبارة : عندهم فلوس ..
ولكن ليس عندهم ذوق !
فالذوق هناك على الجانب الآخر من المحيط !

● قَبْلَةٌ فِي الْنَّرْبَيَةِ!

اليوم أول يناير ..

وكل الناس ينصحونني بالبقاء بضعة أيام ، إذا كان في نتني أن أشتري شيئاً لأن كل هدايا عيد الميلاد بعيداً الأمريكية بنصف السعر إلى الحالات .. فكان إنسان أهداك شيئاً ، لست في حاجة إليه تذهب . ببساطة جداً وتبقيه . ومن الممكن أن تبقيه الشخص الذي أهداه لك إذا كان هذا الشخص صاحب محل مثلاً !

ولاشيء يدل على أننا في بداية عام جديد .. ربما كان عدد الناس في الشوارع أقل .. وربما كانت وجوههم أكثر اصفراراً .. أما الأوراق والطراطير والزمامير والأحذية والبرانيط الموجودة في الشوارع ، فسوف تبقى يوماً آخر .. لأن الكناسين في إجازة أيضاً .. إنهم بشر أو على الأقل في هذا اليوم !

ولم أشغل نفسي بموضوع الكناسين . وإنما اتجهت إلى أحد مكاتب الطيران . أريد أن أحجز مكاناً إلى القاهرة . واندفعت في داخل مكتب شركة الطيران أحياول أن أسبق أحداً إلى حجز مكاني . وبعد لحظات عرفت أن الذين سيعبرون الإطلنطي من أمريكا إلى أوروبا قليلاً جداً . وربما يسعدنى الحظ فأكون المسافر الوحيد . وكيف يكون شعورى عندما تقوم الطائرة من مطار نيويورك وليس فيها إلا أنا .. ثم عندما تهبط في مانشستر إنجلترا ويرتفع السلم وينفتح الباب وأنزل وحدى ..

الفكرة غريبة ولكنها مخيفة أن عبر الإطلنطي ليلاً في طائرة ليست نفاثة وأكون أنا المسافر الوحيد . !

لم تعجبني الفكرة وكدت أتراجع في حجز تذكرة وفي نبئي أن أذهب إلى شركة طيران أخرى .. وخشيت إن أنا عدت إليها بعد لحظات ألا أجده في مكاناً . واستسلمت .. فلم أجد فكرة أخرى وحجزت مكاناً .

وفي المطار وجدت اثنين آخرين مسافرين على نفس الطائرة .. ثلاثة مسافرون إلى أوروبا ليلاً . وفي طائرة تتسع لمائة راكب !

وشعرت بشيء من الخوف .. أو بكثير جداً من الخوف .. فهذه أول مرة أعبر فيها الإطلنطي . وقد لاحظت أن رياحاً باردة كانت تهب على المطار . وأن إحدى الطائرات قد اصطدمت بطاولة أخرى في المطار بسبب الضباب واتجاه الريح ..

ولا بد أن هذه الطائرة ستكون ورقة أو ريشة في قلب العاصفة التي فوق الإطلنطي في هذه الليلة ..

وإذا سألت الطيار فسوف يؤكد لي أن الجو معتدل .. وأن الارتفاع سيكون عشرين ألف قدم .. والسرعة ٥٠٠ كيلو .. والطائرة في أحسن حالة ، وكل هيئة قيادة الطائرة في خدمة الركاب .. وفي انتظار أية إشارة منهم !

وهي عبارات لطيفة تقال في كل الظروف .. ولو احترقت الطائرة لاقتربت المضيفة تعلن أن الطائرة تسقط في أحسن حال إلى قاع المحيط . !

واستسلمت وحشرت نفسي في المقعد ونظرت من النافذة إلى الظلام الذي يفرز وهجاً مخيفاً يخرج من محركات الطائرة ومن ماسورة العادم .. وهو منظر لا يراه المسافرون إلا في الليل !

ولا أعرف إن كانت هذه عاصفة تلك التي تهز الطائرة بعنف وهي تبرح الأراضي الأمريكية .. على كل حال يجب ألا أهتم كثيراً ، فابتزال الرحلة طويلة جداً . وقد قرر المسافران الآخرين اختصار هذه الرحلة ، بأن تمددوا ومحب كل واحد منها بطانية على رجليه ، وبسرعة غريبة في وقت واحد ، أخذ كل منهما يصلر الصوت المعروف لأى إنسان مستغرق في نومه وعنه بعض الزكام الخفيف .

وتحسنت من نومي على ضوء النهار . . وعلى إحساس بتجدد أطراف يدي ورجلتي . . وعلى الرغم من أنني ارتديت جوربًا فوق حذائي . . وعلى الرغم من أنني لففت ثلات بطاطين حولي . . وعندما طلعت النهار كانت روحى قد ردت لي . . ولم أر ما الذى فعله بهذه الروح بعد أن عادت إلى جسمى . أول شئ فعلته هو أننى جعلت أنه يدى النائمة . . ورجل أيضًا . وشعرت بالعطش والجوع وبالأمان . . وبرغبة شديدة في استئناف الحياة التي استولى عليها الظلام والخوف والمواصف فوق الحيط . .

والسحب تحت الطائرة . . وفوقها أيضًا . .

فأتزال على مسافة طويلة من الجزر البريطانية . وتقدمت المضيفة وبالابتسامة التي تراها على شفتي لأحدى المرضيات وهي تداعب طفلًا صغيرًا قالت لي : ما الذى استطيع أن أقدمه لك ؟
قلت ضاحكًا : قطعة أرض !

فضحكت وقالت : إن الأرض قرية جداً . . بعد كوب من الشاي وقطعة شندوتش وفنجان قهوة وثلاث صفحات في هذه الجلة تصل إلى مطار مانشستر .

وجاء الشاي والشندوتش . . وشربت القهوة وتصفحت الجلة . . وملة أخرى . . وشربت شايا وقهوة ومجلة وكتاباً . وأضيئت الطائرة ومنع التدخين واربط الخزام . . استعداداً للهبوط .

وبعد عشر ساعات من الطيران فوق الإطلنطي هبطت الطائرة إلى أرض إنجلترا . . وكانت السماء صافية . . شئ غريب . . والشمس طالعة . . شئ غريب جداً . . والجو دافئ . . والناس في دهشة رزينة . .

وهذه هي المرة الرابعة التي أسافر فيها إلى الجزر البريطانية . . وفي مطعم المطار . رأيت الوجوه الرقورة . والملامح المادمة . والابتسamas المترنة . واللغة الإنجليزية الأصلية . وكأننى أعرف الجرسون ، وكأننى أريد منه أن يكرر كلمة : سيدى .

طلبت منه شايا . . أية كبة من الشاي . . فهذه بلاد الشاي . . وطلبت منه أى فاكهة وأى سندوتش . .

ولاحظ الرجل لفتي على الشاي وعلى الطعام ..

وسألني إن كانت الرحلة مرحلة عبر الإطلنطي .. فأشرت إليه بأنها كانت كذلك . وقلت هذه العبارة بصوت منخفض حتى لا يسمعها أحد الطيارين . لأن الرحلة لم تكن متعة بالمرة . إنما أنا أحاول أن أُبرر تعطشى للشاي .

وبعد لحظات جاء الجرسون ومعه الشاي ومعه سلة فاكهة ومعه سيدة تقول لي صباح الخير والحمد لله على السلامة ..

وأنتشيت من هذه الكلمات وأحسست أنني في أوربا .. أني قريب من أسعد أيام حياتي .. في هذه الجزر العريقة أحسست لأول مرة في حياتي عندما زرتها ما معنى أن تكون للإنسان شخصية مستقلة ، فالرجل الإنجليزي العادى جداً له رأى . ولم موقف . وهو حريص على حرفيته .. ولكنهم - كشعب - حريصون أيضاً على أن يعيشوا على حساب حريات الشعوب الأخرى !

ولكن الإنجليز يفهمون في الحياة . ويفهمون في السياسة . ولذلك لهم أدب عظيم ، لأنهم قائم على الفهم السليم العميق للحياة الإنسانية ..

ولو كانت هذه السيدة التي جاءت مع الجرسون كبيرة في السن قليلاً لنهضت وقبلتها . وكانتني أقبل أوربا كلها .. أقبل فيها باريس وروما ومدريد وبرلين وفيينا وأثينا وكوبنهاجن وبروكسل واستكهولم .. أقبل فيها الحضارة العريقة ..

ولكنها - مع الأسف - كانت شابة صغيرة ..

وليس من الأدب ولا من الفلسفة أن أنهض بكمال قواعي العقلية ، وأصحاب بالجتون عند أول قطعة أرض في أوربا وفي الساعة المبكرة من الصباح .
واكفيت بنية أن أقبلها .. وقبلتها في سرى ..

وعدت إلى الطائرة أحسن حالاً وأهدأ بالاً .. وأكثر اطمئناناً على نفسي ..
فبعد ساعة نصل إلى مطار بروكسل بلجيكا ..
وكان الجو دافئاً فالطائرة تتوجه إلى الجنوب ..
وكانت السحب منخفضة ولكنها مزقة ..

ونزلت الطائرة إلى بروكسل .. وهذه هي المرة الثالثة التي أمس فيها الأرض

البلجيكية . . وكان في المطار بقایا مطر . . وتغيرت معالم الوجوه . وتغير الانان
أيضاً . إنهم هنا يتكلمون الفرنسية إلى جانب اللغة الفلمنكية . يتكلمون الفرنسية
بلهجة خاصة و بتغيير في نطق بعض الحروف . .

وف بروكسل أنت على مسافة دقائق من باريس . .

ومن بروكسل سافرت إلى جنيف . . وهذه هي المرة العشرون التي أعبر
فيها جبال الألب . . من الشمال إلى الجنوب . . ومن الجنوب إلى الشمال . .
وهذه هي المرة السادسة التي ألس فيها الأراضي السويسرية . . ومن طائرة بدأ
الجبال مغطاة بالخليد . . كانت أقرب ما تكون إلى سقف من الحرير الأبيض . .
ولاحظت أن الأوروبيين ينظرون إلى الثلج بلهفة . . كما ينظر الإنسان إلى لوح
ثلج في عز الصيف . .

ومرت الطائرة على بحيرة جنيف . . ومن الطائرة لحت جزيرة جان جاك روسو . .
ولحت الحديقة الإنجليزية . . وبحيرة جنيف وكازينو جنيف . . والجو المسؤول
النظيف . . والناس في دقة الساعات ، وفي نظافة الصنفى بعد غسله . . وسويسرا
هي سقف القارة الأوروبية . . إنها جافة وهواؤها منعش له رائحة خاصة وطعم
خاص وملمس غريب على اللسان . . وعلى الشفتين . هواؤها أنثوى . ولكن في
صلابة وفي كبراء . يلمس فقط . ويثير فقط . ولكنه يجعلك تشعر بالجوع .
ويجعلك تمنى أن تعيش هنا إلى الأبد . . والأبد هذه الكلمة ليس لها معنى إلا في
سويسرا . فكل شيء على ما هو عليه من مئات السنين . . لا شيء يتغير . فهم
هنا لا يعرفون الخوف . إنهم لا يخافون الحرب ، فهم على الحياد . ولا يخافون الفقر ،
فكل فلوس الدنيا عندهم . ولا يخافون المرض فبلادهم هي مصحة البشرية . . إنهم
شعب لا يعرف الخوف من الموت !

ومن عشرات من تفاصيل الخدود ، واللوبي بين الشفاه ، والذهب المنشور
تحت البيريهات الزرقاء والرمادية ، والقطن المصرى على شكل بلوزات محشوة
باليورك ، ومن رنة أوتار صوتية ناعمة جداً . . ومن طرقعات الأحذية على أرض
المطار الجليدى . . ومن نشوة الهواء والصحة والراحة . . من هذا كله استاذتني

وبحبت نفسي وصعدت الطائرة المتجهة إلى روما . !

ولم أنشأ في الطائرة أن أنظر من نافذة .. أو أطلب شراباً أو طعاماً .. ولم أنظر إلى وجه كأني أريد أن أدخل كل قواعي من أجل روما .. أريد أن أغسل أذني وشفتي وعيني .. ونفسى وقلبي وعقلى .. أن أولد من جديد .. في روما ولد الكثير من الأشياء السعيدة في حياتى ..

وفي روما عرفت الشوق واللهمه وعرفت الألم والفارق .. وعرفت كل ماحرك جوانبى وكل ما دفع عقلى . وعرفت معنى الجاذبية الأرضية وعرفت معنى انعدام الوزن قبل أن يعرفه رواد الفضاء . وعرفت معنى كل شيء له معنى . كل شيء محبوس في داخلى ..

كل شيء يتفجر في أذنى وفي عينى .. كل شيء يريد أن يمزقنى .. لا أعرف ما الذي أفعله عندما أهبط في مطار روما .. إلئني أتخيل الوجه .. بل أعرفها .. إلئني أتخيل الطريق .. أى طريق فكل الطريق عرفتها .. كل الشوارع .. كل الطعام .. كل الفنادق .. كل التماضيل .. كل النافورات هنا .. وهنا .. وهناك .. فوق .. وتحت .. هنا في مطار روما .. وهناف محطة روما .. وفي شارع فنتيو .. وفي شارع الكورسو .. وفي ميدان البندقية .. وفي ميدان الشعب .. وفي حديقة بورجيز .. وفي ميدان ديوان المحاسبة .. وفي الكامبودولي .. وفي البانشون .. وفي مقهى الدونة ..

وفي كل مكان من مدينة روما ..

إلئني أستطيع أن أمشي فيها مغضض العينين .. إن أذنى تستطيع أن تدلنى .. وأمشي فيها مغلق الأذنين أيضاً .. إن أذنى يعرف رائحة الزهر والشجر والماء ويعرف رائحة المكرونة والنبيذ والسمك .. إلئني أستطيع أن أمشي نائماً ..

إن فرحتي يوم أن رأيت روما لأول مرة من عشرين عاماً لا يمكن أن أصفها . وظللت هذه الأعوام أحياول أن أصفها .. ولكن لا تزال معاناتها غامضة .. معاناتها بعيدة عن متناول أفكارى .. عن متناول لفاظى .. كأنها حرية على أن أظل طول عمري أحياول وأحاياول أن أقرب منها ..

وفي مطار روما .. رأيت الوجوه التي أعرفها .. أعرفها كلها .. أعرف هذه

العيون العسلية .. أعرف هذه الوجوه السمراء .. أعرف هذه الشعور السوداء ..
وهذه الحناجر العالية لا تضيقني .. وهذا القوام المشدود .. وهذه الأحذية **البيك**
وكلمات سى .. ونو .. كما تفعل بنات روما ..
و يوم قرأت قصة «فتاة روما» لألبرتو مورافيا لأول مرة ..

ومورافيا هو الرجل الذى قدمته لأول مرة باللغة العربية ولم يكن يعرف أحد .
وكتب عنه أول مرة سنة ١٩٤٧ . وصار حنته بذلك عندما قابلته في روما . وعندما
قابلته في القاهرة وعندما قلت لها رأي في أدبها . وأسعدني بما قاله لي بعد ذكر ..
يوم قرأت هذه القصة ويوم بكى مع البطلة أدريانا .. لم تكن أدريانا تتحقق
البكاء . ولكن حياتها ملؤها ساطتها تبعث على الألم أيضاً . لقمة العيش مرة ..
والبحث عن الطعام مر .. والحب مر ..
والذكرىيات أكثر مرارة .

ومشي في شوارع روما .. في نفس الحوارى الضيقة .. وكنت أرى في
كل فتاة هذه الأدريانا .. الفتاة التي خلفتها الحرب في إيطاليا وتركتها تحضور
جوعاً . ولا تعرف كيف يمكن أن يكون الإنسان شريفاً وجائعاً في نفس الوقت ..
وحاولت أدريانا أن تقف بين الجوع والشرف .. هي وملائين من الرجال **و النساء**
في أوروبا بعد الحرب .. وراحت أدريانا ضحية هذه المعادلة الصعبة !

لا أعرفكم من المرات دخلت روما وكم من المرات خرجت منها .. و بما
عشرين مرة .. ربما ثلاثين مرة .. ربما لم أخرج منها حتى الآن ..

وهي بطيء من الطائرة إلى مطار روما . لأنمرغ يعني في كل هذه الوجوه وكل
هذه الصدور .. وكل هذه العيون .. فقد احتفظ أبناء وبنات إيطاليا بكل ما في
بلادهم من جمال .. زرقة العينيات وسمرة التربة وعلى صدورهن يراKitchen
فيزوف وسترومبولي .. كل هذا أعرفه .. كل هذا عرفته .. كل هذا اقتربت
منه .. كل هذا عشته .. وبكيت له .. وبكيت منه .. وبكيت عليه ..
وكأى خمور نزل من الطائرة ..

وكأى بطل حملوه على الأكتاف .. وهتفوا في أذنه .. وهو لا يدرك ..
وكأى ميت وضعوه في نعش العطر الميت والسرير القائل ..

وكأى جريح عائد من ميدان القتال إلى أهله ووطنه . . مع أن إيطاليا
ليست أهل ولا وطنى . . ولكن الأيام . . الشهور . . السنوات السعيدة التي
أمضيتها هنا . . قد «أهلتني» قد أعطتني كل حقوق المواطنين على المواطنين
وعلى الوطن نفسه . .

عندما كنت في مدينة هيدلبرج في ألمانيا كنت أتنفس مع الألمان وأقول على
أنقام الفالس : فقدت قلبي في هيدلبرج . .

ولكن في روما في إيطاليا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ما الذي
فقدته . . لم أفقد إلا ملل وإلا قرق وإلا تفاهة الدنيا . . وإلا اليأس من الحياة .
وفي روما طال بقائي . . وأفت أياماً كاملة أمشي في الشوارع . . وأنظر
عند النواصى .. وأضيع الورود في التوافد . . وأشد على يدي الذين مات أعزاؤهم
وأعزائي .. ولأرفع سماعة التليفون لأقول إلى اللقاء .. ووداعاً . .

و قبل أن أغادر روما ذهبت برغبة غريبة لا أعرف سببها ، إلى ميدان أيسديرا .
وهو أشهر ميادين روما . . وقفزت عند دائرة الصحف . . واحتشرت كل الصحف
التي صدرت في نفس اليوم . . بكل اللغات التي أعرفها ..

وبصدقة غريبة جداً . . ووقفت في الميدان . . وإلى جوار أحد التاكسيات
تماماً كما فعلت في أول يوم ذهبت إلى روما من عشرين عاماً .

وبصدقة أغرب رأيت أول وجه عرفته في إيطاليا . .

ووسط الزحام والكلامكشات والسيارات والذين يشيرون إلى أن أحترس . .
والذين أمسكوني من يدي . . والذين توهمت أنني أمسكون من أيديهم . . ومن
شعورهم حتى لا تلوسهم العجلات . . ووسط هذا الفيضان المفاجئ في الميدان
ضاعت صرخاني وأنا أنادى هذا الوجه بأعلى صوتي . . أناديه بكل أيامي بكل
سنواتي . . بكل الذي كان وكان وراح وضاع ولن يعود . .

ـ واحتضن الصوت والصدى والوجه والظل والميدان ، ونسمة الهواء ، و قطرات
الماء على الحجر ، ولون السماء ، ورائحة القهوة ، وطعم النبيذ ، ومرارة الفراق . .
ـ وعادت بعد ذلك إلى دنياي كل ما كان فيها : الأرق عاد ، والملل عاد ، واليأس عاد . .
ـ وصغرت الدنيا حتى أصبحت كعين الإبرة . . وأصبحت أحسن في كل لحظة

أني فيل أريد أن أتفقد منها إلى العالم الآخر ..
وكانت الدنيا قبل ذلك حلوة .. لولا هذه الساعات في روما .. لولا هذه
اللمسات لأحجار الميادين .. لولا هذه الرشفات من مياه النافورات ..
لولا لوحات دافنشي .. ولو لا الشفاه والصدور والسيقان ..

وحملت حقائبي وكانت أخف مني ..
فانا الآن أصبحت أثقل من حقائبي . وصعدت الطائرة عائداً إلى القاهرة .
وقد نقص وزني ، وجف عودي ، واقترب جلدی من عظمی .. واختفت عيني
تحت حاجبي ..

وكأنني كنت قداماً من الإسكندرية نزلت أرض مطار القاهرة .. كأنني
نزلته على يدي .. فقد أحسست بأرض المطار لينة كأنها صدر حنون ..
وتمنيت لوألقيت نفسى على هذا الصدر .. لقد كان الصدر الوحيد الذى
ينظرنى أو الذى كنت أنتظره .. أو الذى توهمت أني على موعد معه !

لا أعرف أحداً من هذه الوجوه .. ولا بد أن بعضها قد قرأ كل ما كتب
وأنا أدور حول الأرض .. ولا بد أن واحداً منهم تمنى أن يدور دورقى ، وأن
يدوخ دوختى ، ولا بد أنه تمنى ذلك في ساعة .. فأصابنى ذلك بالمرض والخوف ..
وقد مرضت كثيراً . وخفت كثيراً . وأخفقت دموعي في عرق ، وأخفقت
عرق في جرى .. وكتبت .. وبكيت وتعبت . ولكن رأيت أجمل ما في الدنيا ..
وعرفت أقسى ما في الدنيا : الوحدة ..

وحققت أعظم ما في الحياة : أن أسعد الآخرين ..
وفي اللحظة التي هبطت إلى أرض المطار ..

كانت شفتاي في قدمى .. فقبلت أرضاً حبيبة عزيزة ..
وكان هذه القبلة هي في نفس الوقت نقطة البداية والنهاية في وقت واحد ..
فنهايتأت دورقى حول الأرض مارأ باهند .. وهنا أنتهيت دورقى حول الأرض
قادماً من إيطاليا ..

وهذه النقطة هي الشئ الوحيد الذى أحياول منذ ما تبقى يوم ، ومنذ مئات
الصفحات أن أضعه في نهاية هذه الرحلة ، وفي نهاية هذا الكتاب .

فهرس السلسلة الثانية

نعتذر عن إدراج كل أسماء الكتب ، وليس كتب السلسلة الثانية فقط .

المؤلف	الكتاب
أ. محمد حسنين هيكل . أ. محمد حسنين هيكل . أ. مصطفى أمين . أ. وجيه عتيق . أ. أنيس منصور .	- خريف الغضب . - أحاديث في العاصفة . - سنة ثلاثة سجن . - الملك فاروق وألمانيا النازية . - أعجب الرحلات في التاريخ - موقف . - القوة الخفية . - حول العالم في ٢٠٠ يوم . - لعنة الفراعنة . - الذين عادوا من السماء . - الآمال الكبرى . - ديفيد كوبر فيلد . - ترنيمة عيد الميلاد . - الرجل الخفي . - المختار من القصص العالمية .
جيمس برستيد . ريتشارد دوكنز . ستيفن هوكنج . أ. مصطفى محمود .	- فجر الضمير . - رجل الساعة أو الجديد في التطور الطبيعي .. - تاريخ موجز لزمن . - اينشتين والنسبية .
	مختارات من الكتب

المختار	الكتاب

<p>ضد التبرج . رسالة لمعد لنشر أصلًا.</p> <p>قصة أيام المظاهرات .</p> <p>بعض النوادر الجميلة التي وردت فيه .</p>	<p>- (بحثاً عن عالم أفضل) . للفيلسوف كارل بوير .</p> <p>- (تاريخ حياة أحد اللصوص) . أحسان عبد القدوس .</p> <p>- (نوادر وطرائف من الصين العظيمة) . ترجمة إبراهيم البشمى</p>
--	--

للحصول على أي من الكتب السابقة ، بالرجاء زيارة هذا الموقع المؤقت :

www.geocities.com/theknowledge_walls

ولتوالص معنا :

Theknowledge_walls@yahoo.com